PHILBY

مرتفعات الجزيرة العربية

الجزء الأول

هاري سانت جون فيلبي
« عبد الله فيلبي »

راجعه وعلق عليه
أ.د. غيثان بن علي الجريس

مكتبة العبيكان

ARABIAN HIGHLANDS

مرتفعات الجزيرة العربية

الجزء الأول

تأليف

هاري سانت جون فيلبي

تعريب

د. حسن مصطفى حسن

تقديم ومراجعة وتعليق

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ بجامعة الملك خالد

السعودية . ابها

العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
فيلبي، هاري سانت جون
مرتفعات الجزيرة العربية، ترجمة حسن مصطفى حسن، تقديم ومراجعة غيثان بن علي بن جريس - الرياض
٢ج، ٢٤سم
ردمك: ٣-١٦٩-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٧-١٧٠-٤٠-٩٩٦٠ (ج١)
١- الجزيرة العربية - رحلات
أ- حسن، حسن مصطفى (مترجم) ب- العنوان
ديوي: ٩١٥,٣٠٠١٠٤ ٢٣/١١٢٧

ردمك: ٣-١٦٩-٤٠-٩٩٦٠ (مجموعة) رقم الإيداع: ٢٣/١١٢٧
٧-١٧٠-٤٠-٩٩٦٠ (ج١)

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

الناشر
شركة مكتبة العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة
ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥
هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحيم

مهداة

لكل من سبقني

في

استكشاف جزيرة العرب كنت أول

من اقتحم هذه البلاد المعطاءة بلاد العناد

والخوف والظمأ حيث أيدي الرجال المسعورة

تنبش الأرض التي ولدتهم لتصيب جزءًا هزيلاً من

الغنيمة التي منحتها الطبيعة بندرة شحيحة مقابل صلاتهم

ودموعهم وكدحهم ومع هذا، فهم سعداء في ثقتهم بالله بأنه هو

الرحيم على الدوام لأولئك المدفونين تحت سطح التربة،

تحت ظل شجرة عناب حينما يبعثون من الأجداث،

تحت سماء مرصعة بالنجوم، ليشهدوا

عظمته في عُلاه، وينعمون بأنهار

الجنـان في أحضـان حـب

قدسي.

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه

السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإنني أشكر الدكتور/ عبدالله آل عبدالجبار، وعبدالله المنيف، وعبدالرحمن الشقير، ومحمد الفيفي الذين بذلوا بعض الجهود الطيبة في المراجعات الأولية لهذا الكتاب، كما أشكر الأستاذ الكريم/ وليد نذير عتمه الذي قام بوضع فهارسه المختلفة[1].

والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

---

(١) وتجب الإشارة إلى أن نادي أبها الأدبي حاول منذ خمس عشرة سنة ترجمة هذا الكتاب وإخراجه باللغة العربية، لكن ذلك العمل لم ينجز؛ وقد اطلّعنا على ترجمة النادي المذكورة واستفدنا منها في بعض ملاحظاتنا، ولهذا أوردنا هذه الملحوظة هنا. (ابن جريس).

تقديم بقلم:

الأستاذ الدكتور/ غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ/ بجامعة الملك خالد

السعودية - أبها

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، أما بعد:

فإن شبه الجزيرة العربية، ما عدا منطقة الحجاز، بقيت في عزلة علمية وفكرية منذ خروج الخلافة الراشدة من المدينة المنورة في عهد الخليفة الراشد، علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وذلك عندما بدأت القوى الغربية ترسل من يدرس أحوال هذه البلاد التي ظهر منها وفيها الإسلام، وكانت أهداف هذه الدول سياسية بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى أهداف ثانوية أخرى. والشيء الجميل أنه قدم إلى البلاد العربية، بما فيها جزيرة العربية عدد من العلماء والرحالة الذين دونوا لنا معلومات ودراسات قيمة عن هذه البلدان أثناء ترحالهم وتجوالهم في جنباتها.[١]

والكتاب الذي بين أيدينا، والموسوم: بـ مرتفعات الجزيرة العربية. لهاري سانت جون فيلبي، أو (عبد الله فيلبي) كما عرف في المنطقة العربية، يعد واحداً من نتاج أولئك الرحالة الغربيين الذين قدموا إلى بلاد العرب خلال القرون الثلاثة الماضية. ولكن فيلبي يختلف نوعاً ما عن بقية الرحالة الغربيين الآخرين، وذلك لأمور عديدة منها:

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن بعض الرحالة الذين قدموا إلى جزيرة العرب انظر: جاكلين بيرين. **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة والعلم.** ترجمة: قدري قلعجي (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت) ص ٥ وما بعدها، محمد محمود الصياد. (الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية قبل القرن التاسع عشر الميلادي) د **دراسات تاريخ الجزيرة العربية (الكتاب الأول). مصادر تاريخ الجزيرة العربية** (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) جـ ٢، ص ٤٣٧ -٤٤٤.

أولاً: لا نستطيع الإنكار بأنه كان مدعوماً من حكومته، بريطانيا، لدراسة أحوال بلاد العرب، وبخاصة الجزيرة العربية، وقد اعترف نفسه بذلك في مواضع عديدة من مؤلفاته، لكن وضعه كان أحسن من غيره لظهوره في عصر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي كان يرغب في الحصول على أمثال فيلبي كي يقوموا له بالعديد من المهمات السياسية والعلمية معاً. وشاء الله تعالى أن يلتقي فيلبي بالملك عبد العزيز في عام (١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م). ثم تستمر علاقته بالملك عبد العزيز حوالي أربعين سنة، أخرج خلالها العديد من الكتب والدراسات العلمية الرصينة عن جزيرة العرب، ومن يتفحص معظم دراسات فيلبي فإنه يجد مادة علمية غزيرة عن جزيرة العرب وبخاصة خلال العقود الوسطى من القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ولا نبالغ إذا قلنا أن مؤلفاته تعد مصادر رئيسة وأساسية لا غنى عنها لأي باحث أو دارس للجزيرة العربية أثناء عهد الملك عبد العزيز. وقد سبقني إلى هذا القول بعض الباحثين، فالشيخ حمد الجاسر، يقول: «**الحقيقة التي يجب أن تقال هي أن فيلبي أسدى للجزيرة العربية يداً قصر عن مدها إليها من سواه**» (١)، أيضاً ذكر جورج رنتز (George Rentz) في حديثه عن فيلبي، فقال «**إنه أكثر الغربيين إنتاجاً عن تاريخ هذه البلاد**» (٢)، ويقصد بالبلاد، المملكة العربية السعودية والحقيقة أن معظم دراسات فيلبي تتسم بصدق المعلومة إلى حد كبير، وتنوعها، وعمق تحليلها ورصانتها.

ثانياً: الدعم غير المحدود والذي وجده فيلبي من الملك عبد العزيز ونلمس ذلك في هذا الكتاب الذي بين أيدينا وفي كتب أخرى عديدة، فكان الملك عبد العزيز يعمل جاهداً على تسهيل جميع مهمات فيلبي المالية والأمنية والاجتماعية، بل يحث رجال حكومته على توفير جميع مطالبه، ودعمه بكل ما يستطيعون.

---

(١) حمد الجاسر. (فيلبي: رحلاته في البلد العربية) **مجلة العرب** (١٤٠٩ / ١٤١٠هـ) مج (٤)، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٢) جورج رنتز. (فيلبي مؤرخاً للمملكة العربية السعودية) ٩ ترجمة وتعليق حسين محمد الغامدي. **مجلة الدرعية**، (السنة الأولى) عدد (٢) ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ص ٦١.

ثالثاً: معظم دراسات فيلبي قائمـة على الرحلات والتجوال في نواحي الجزيرة العربـية، وهذا بدون شك، أمر صـعب جداً، لما يقـابل من عقبات جـغرافـية، وسياسيـة، وأمنية، واقتصادية، واجتـماعية. ولكن فيلبي تجاوز كل هـذه العقبات بسبب حمـاية الملك عبد العزيز لـه ودعمـه الكبير (١)، ثم صبر فـيلبي وعزيمته، وكذلك سعة معارفـه وثقافته وإتقانه اللغة العربية، بالإضافة إلـى دبلوماسيته سواء مع الملك عبد العزيز ورجـال دولته، أو مع عامة الناس، كل هذه الأمور مجـتمعة جعلته ينجح في معظم رحلاته، وبالتالي ترك لنا كنزاً معرفياً كبيراً أمثال هذا السفر الضخم الذي بين أيدينا وغيره (٢).

رابعاً: اعتـناق فيلبي للإسـلام، ربما كان رافـداً جيـداً آخر لنجـاح مهمـاته العلمية، وثقة الناس به أثناء تجـواله في أنحاء الجزيرة العربية، وتعمقـه في معرفة أعراف وعادات وثقافات الناس. وقـد لمسنا ذلك في معظم دراساته حيث وجدناه قد صار خـبيراً بأحوال الناس، وقيـمهم، ولهجاتهم مع استـخدام أسلوب المقارنة والتحليل.

أما الكتاب الذي نحن بصدده: **مرتـفعات الجزيرة العربـية (Arabian High-lands)** فطبع لأول مرة بلغتـه الرئيسة (الإنجليزية) عام (١٩٥٢ م) وكـانت حقوق النشر محفـوظة لجمعية الشرق الأوسط بواشنطن، التي تولت طبـاعته ونشره، ثم أعيد النشر مرة ثانية في عام (١٩٧٦ م)، وهي النسخة التي تم الاعتماد عليها في الترجمة إلى العربية. والكتاب يقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط.

---

(١) نلمس دعم الملك عـبد العزيز لفـيلبي في معظم رحلاته، بل صـرح فيلبي بذلك في مـواطن عديدة من دراساته، وأحياناً يظهر إعجابه بهذا القائد العربي (الملك عبد العزيز)، كما تنبأ بمستقبل تنموي زاهر لهذه البلاد (المملكة العربية السعودية).

(٢) لمزيد من الاطلاع على أسماء بعض كتب ودراسات فيلبي، انظر: غيثان بن علي بن جريس. **صفحات من تاريخ عسـيـر**. (الرياض: مطابع العـبـيكان ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) الجزءان الأول والثـاني، ص ٢٨٩ – ٢٩٢، وللمزيد انظر أيضاً:
Elizabeth Monroe. **Philby of Arabia** (London, 1973) pp. 38 ff.

وهذه الدراسة عبارة عن رحلة طويلة استغرقت حوالي تسعة شهور، بدأها من وادي الدواسر متجهاً نحو بيشة ورنية والخرمة حتى الطائف ثم مكة المكرمة، بعدها خرج مرة ثانية من أرض الحجاز إلى الخرمة ورنية ثم خميس مشيط وأبها. كما واصل رحلته إلى شرق بلاد قحطان ماراً ببلاد طريب، والعرين، وتثليث، ثم خرج إلى منطقة نجران، ثم اقتطع من وقت رحلته حوالي (٨٠) يوماً خرج فيها إلى حضرموت ونواحي عديدة من بلاد اليمن[١]. وبعدها عاد إلى نجران فتجول في مواطن عديدة منها ووقف على كثير من الحدود بين السعودية واليمن، ثم خرج إلى ظهران الجنوب ببلاد قحطان، ومنها نزل مع عقبة شراقب في ظهران الجنوب إلى بلاد الحقو وبيش وصبيا وبني مالك وفيفا في منطقة جازان، وشاهد أيضاً كثيراً من النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، ثم توجه إلى مدينة جازان وأبي عريش وأحد المسارحة وسامطة، وواصل سيره لرسم بعض النقاط الحدودية في النواحي الساحلية السهلية. وأخيراً عاد أدراجه من بلاد جازان سائراً على الساحل ماراً ببلاد صبيا، وبيش، والدرب ثم الشقيق، والقحمة، وهكذا واصل سيره نحو مكة المكرمة فاجتاز البرك والقنفذة والليث حتى جدة ثم واصل سيره حتى دخل مكة المكرمة.

ومن خلال مراجعتي وقراءتي لهذا الكتاب خرجت بالعديد من الانطباعات التي أذكر منها:

١- أن هذا الكتاب غطى منطقة واسعة جداً تقدر بحوالي (١٥٠٠٠٠) ميل مربع، كما ذكر فيلبي نفسه، حيث شملت البلاد الممتدة من الدواسر شرقاً إلى مكة المكرمة غرباً، ثم إلى الأطراف الجنوبية لبلاد نجران وجازان جنوباً، ثم الشريط الساحلي الممتد من جازان إلى جدة، وهذه في اعتقادي مساحة تقدر بتسع مساحة

(١) وفي هذا الوقت المقتطع الذي خرج فيه إلى بلاد اليمن دوّن فيه كتاباً مستقلاً سماه: **بنات سبأ**، وقد قامت مكتبة العبيكان مشكورة بترجمته ونشره عام (١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١ م).

المملكة العربيـة السعودية(١). وإذا قللنا من أهميـة المساحة الجـغرافية التي قطعـها فيلبي، فإنه لا يمكن أن نتجاهل ما يوجد على هذه المساحة من تباينات واختلافات في التـضاريس الجـغرافـية، والأحـوال المناخيـة، والعناصـر البشـرية، والنواحي الحضارية الأخرى سواء كـانت اجتماعية، أو اقتصادية، أو فكـرية ودينية وثقافية. وهذا يؤكد على صعوبة المهمة التي قام بها هذا الرحالة.

٢- من ينظر في الكتاب ويدرسه يلاحظ الجهـد الضخم الذي بذله فيلبي، فهو لم يركز على ناحية علمية معـينة، وإنما كان شديد الملاحظة، فإذا نزل منطقة معينة فهو يتحدث عن قضايا عديدة تشمل الملامح التاريخية والجغرافية لتلك البلاد، كما أنه يذكر الأخبـار والقضايا المعاصرة التي شـاهدها، وبالتالي فهو يدون كـثيراً من المعلومات الحـضارية المتنوعة التي يصـعب أن تجدها في مرجع آخـر. ومن خلال تجوالنا في البـلاد التي زار ومقـارنة أقواله وشروحـاته بما شاهدنا وسمـعنا تبين لنا شدة ملاحظته، ودقة معلوماته ومصداقيته في تدوين كثير من الأخبار والروايات.

٣- من يطالع هذه المساحـة الشاسعـة التي زارها فيلبي في هذا الكتـاب، فإنه يتضح أن هناك منـاطق عديدة لم يزرها رجل أوربى من قبل، بل لـم يكتب عنها أحد من الأوربيين أو العرب على الإطلاق. وأخص بذلك بعض أجزاء من مناطق قحطان مثل: طريب، والعـرين، وأجزاء من وادي تثليث، وبلاد ظهران الجنوب، وعقبة شراقب الواصلة بين ظهران ووادي بيش في منطقة جازان، وبلاد بني مالك وفـيفـاء، وأجزاء من وادي حـبونا في نجـران، ومناطق حـدودية بين السعـودية واليمن، وغيرها مناطق عديدة. وان ذكرت بعض هذه المناطق في مصادر ومراجع أخرى، فذكرها كان مـختصراً جداً يختلف عن الكيفيـة والتفصيلات التي أوردها فيلبي في هذا الـكتاب الكبيـر. ولا أجانب الحقـيقة لو قلت إن هذا الكتـاب يُعد

(١) مساحة المملكة العربية السعودية تقدر بـ (٢٢٥٠٠٠٠) كم٢ تقريباً، فهي تستأثر بنحو ٨٠ ٪ من مساحة شبه الجزيرة العربية.

أشمل وأفضل دراسة تكلمت عن الأجزاء الجنوبية للبلاد السعودية، وحتى هذه اللحظة لم يظهر دراسة أدق وأشمل منه.

٤- مما يظهر في صفحات كثيرة من الكتاب، أن من أهدافه رسم النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، وهذا مما شجع الملك عبد العزيز على دعم فيلبي وتشجيعه، بل قدم له بعض الأراء والنصائح التي يتبعها أثناء ذهابه إلى تلك المناطق الحدودية. وقد عمل فيلبي كل ما في وسعه على رسم أغلب الحدود الممتدة من ساحل البحر الأحمر غرباً إلى أطراف الجبال الشرقية في نجران وبلاد قحطان، ولكن من يقارن أقوال فيلبي مع ما ورد في بعض الوثائق والمراجع الأخرى يجد بعض الاختلافات في تسمية بعض المواطن، وكذلك القرى والقبائل والعشائر التي تعيش على جانبي بعض النقاط الحدودية. وقد صححنا كثير من تلك الأسماء، وبخاصة أثناء زيارتنا لعدد من المناطق في شهري المحرم وصفر عام (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

ونجد فيلبي يتفرَّد على غيره، ممن كتبوا عن النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، فهو لم يقتصر على ذكر مواقع تلك النقاط ومسمياتها وإنما ذكر كثيراً من المعلومات عن طبيعة السكان الذين يعيشون حول تلك الحدود سواء كانوا من السعودية أو اليمن، فذكر أسماء قبائلهم وعشائرهم، وأشار إلى بعض أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية والفكرية، بل ذكر أحياناً نوعية ملابسهم وأطعمتهم، ومساكنهم، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يذكر بعض التفصيلات عن حياتهم الاقتصادية وبخاصة التجارية مثل الأسواق الأسبوعية التي كانوا يرتادونها، وأنواع السلع والأسعار والعملات التي كان يتم التعامل بها في تلك الأسواق، وأحياناً يذكر الطرق التجارية التي تربط بين بعض النواحي الداخلية والخارجية في تلك الجهات.

٥- أن السائد على معظم الكتاب التنوع في مادته العلمية، إلا أن هناك جوانب عديدة تفرَّد بها فيلبي في دراستها عن غيره، مثل: ذكر أنواع الطيور والنباتات التي كان يشاهدها في أغلب المناطق التي زارها، كما أنه كان حريصاً على دراسة

النقوش والرسوم والآثار التي تقع عينه عليها، بالإضافة إلى أنه كان يشير إلى الأعيان والشخصيات البارزة في كل بلدة يزورها، كما أنه لم ينس ذكر حالة الفقراء والبؤساء الذين كان يشاهدهم من وقت لآخر، كما نوه إلى وجود بعض الأساطير والخرافات التي كانت سائدة في البلاد. والحقيقة أن هذا الكتاب جدير بالدراسة والتأمل إلى كل ما ورد فيه من معلومات قيمة، وبخاصة أنه يعالج تاريخ وحضارة بلاد طواها النسيان والفقر العلمي لقرون طويلة.

أما طريقنا في مراجعة هذه الدراسة فقد ارتكزت على تصحيح أسماء الأعلام (سواء كانت مكانية، أو زمانية، أو إنسانية أو حيوانية) وهي كثيرة جداً، وقد اعتمدنا في التصحيح على عدة أمور مثل:

أ ـ زيارة أغلب المناطق التي جاءها فيلبي، والالتقاء بأعيان ومتعلمي تلك النواحي، ثم السماع منهم حول ما أورد هذا الرحالة عن بلادهم وتصحيح ما وقع فيه من أخطاء.

ب ـ الرجوع إلى أكثر من مائة مصدر ومرجع لمقارنة بعض ما ذكر فيلبي في كثير من القضايا، أو للقراءة والاستزادة من هذه المصادر والمراجع التي تعرضت لبعض الجوانب العلمية الخاصة بهذه البلاد المطروحة في هذه الدراسة. وطريقة رجوعنا إلى هذه المصادر والمراجع ثم توثيقها، هو تدوين المصدر أو المرجع بمعلومات كاملة عند أول مرة يرد معنا وفي حالة تكراره نذكره باختصار.

وفي الختام فإنني اشكر القائمين على مكتبة العبيكان الذين وثقوا في فمنحوني مراجعة هذا الكتاب القيم الذي استفدت منه كثيراً، ولا أجامل أحداً وإنما أقول كلمة الحق، فهو من أفضل الكتب التي رجعت إليها على مدار ثلاثين عاماً عن هذه البلاد (جنوبي البلاد السعودية) من حيث شموليته ودقة معلوماته إلى حد ما. والله أسأل أن يجزي من قام على ترجمته ثم طباعته ونشره خير الجزاء، وأن يجعل أعمالنا وأعمالهم خالصة لوجهه الكريم، كما أسأله السداد والتوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبها ١٤٢٥/١٢/٢٧هـ
٧/ ٢/ ٢٠٠٥م

تصدير

لقد انقضت فترتان بالتتابع، أولاهما قبل (٢٠) عاماً وأخراهما قبل (١٥) عاماً منذ القيام بهاتين الرحلتين، واللتين تم جمع أجزائهما في هذه الصفحات، لتضع أمام العالم أولى الصور بالقياس الطبيعي للمساحة الضخمة التي تكوِّن النصف الجنوبي الغربي للمملكة السعودية، غير أن العالم كان مشغولاً بالحروب وإشاعات الحروب، مما أدى إلى تأخير طبع الكتاب لمدة سبع سنوات منذ اكتمال كتابته، ذلك لأن العالم لم يكن يشغل نفسه بهذه الأمور المحببة للغير وغير المربحة مثل جغرافيا الجزيرة العربية واجتماعيتها وتاريخها وآثارها. كان اتجاه العالم، كما في العديد من الحقول الإنسانية، هو أن يترك أمر المبادرة في هذه المجالات لأمريكا. ولم تكن أمريكا، لحسن حظ العالم، غائبة عن الصورة.

لقد احتضنت أمريكا الجزيرة العربية بصفة خاصة، وقد استجاب العرب لاهتمامها وتعاطفها معهم مما نتج عنه تغيرات في التركيبة الاجتماعية في بلادهم يترك الحكم النهائي فيها للتاريخ. لا يشك أحد في ما اكتسبته أمريكا مالياً واقتصادياً من علاقتها مع الجزيرة العربية التي امتدت إلى عشرين سنة، غير أن المكتسبات قد شارك فيها العرب أيضاً. وسيكون من عديم الجدوى أن يحاول المرء تقويم العائد الروحي أو الفكري الذي حققته للبلاد التي استمدت منها إضافة عظيمة لمصادرها الضخمة الخاصة.

أود أن أشير إلى شخصين أمريكيين لأجل إطراء خاص، وهما من جيل الشباب، جورج رنتز وبيلي ويندر، لإسهاماتهم التي لا تقدر بثمن، برغم أنها لم تنشر بعد، لتوضيح المراحل الأولى في تاريخ جزيرة العرب الوهابية. لا تحتاج

الجهود الخاصة بالمسوح الطبوغرافية والجيولوجية فوق مساحات شاسعة في شرق ووسط الجزيرة العربية بواسطة خبراء أرامكو للإطراء، من جانب شخص تفوقت أعمالهم فوق هذه الأراضي على أعماله المبكرة. ابدى العديد من الامريكان الآخرين، بصفة عامة، في مجالات الحياة المختلفة، في زياراتهم للمشاهد العربية، اتجاهاً حيوياً لتشجيع وتعزيز الدراسة للبلاد وكل ما يتعلق بها، إما بالاهتمام الشخصي لتفاصيل العديد من الأمور، أو بمساعدة الزوار ذوي الاهتمام القادمين عبر الأطلسي لرؤية أو امتلاك المعلومة عن مظاهر الحياة المختلفة في الجزيرة العربية التي تحظى باهتمامهم.

يكفي هذا الحديث عن الأمريكان في هذا الموضع. ويبدو أن الاهتمام بشؤون الجزيرة العربية، هناك في أمريكا قد حوفظ عليه على وتيرة أعلى مما في انجلترا، مثلاً: ويقال هذا دون إساءة لأحد، تقوم مؤسسات جديرة بالقبول مثل تشاثم هاوس (Chatham House) والجمعية الملكية لوسط آسيا (Royel Central Asian Society، التي تنحو نحو تسفيه أنفسها بمحاولة النذر القليل بتقديمها خلفية اعتذارية مؤدبة للسياسة الرسمية البريطانية، مهما كانت، وتحت أية ظرف من الظروف. أما في أمريكا، فإن ما قامت به المؤسسة الخيرية لدراسة الإنسان (Found ation for the study of man)، والذي جاء نتيجة لأنشطتها يذهب في الاتجاه المعاكس في بحثها على استقلاليتها وإثاريتها. يقابل مثل هذه العوامل ما يعوضها في أمريكا، وذلك بوجود مؤسسات عديدة ذات طراز موضوعي هدفها الرئيس هو جمع وتوزيع المعرفة الحقيقية عن العالم وقاطنيه، دون محاباة لأي نوع من النظم السياسية.

ينطبق هذا بالتأكيد على المؤسسة التي اكتسبت عرفاني بالجميل وتستحق أن تنال اعتراف العالم بجميلها لقيامها بطبع هذا العمل. يعد «معهد الشرق الأوسط»، الذي أنشئ في واشنطن العاصمة عام ١٩٤٦م، إضافة حديثة للجمعيات العلمية في العالم، بالهدف المحبوب «تطوير الاهتمام الواسع بشؤون الشرق الأوسط لدى الشعب الأمريكي، عن طريق نشر معلومات صحيحة عن المنطقة». لهذا الهدف، فإن المؤسسة، برئاسة جورج كامب كيسر، رئيس مجلس المديرين والسيد هارفي. بي. هال. بصفته مديراً للمطبوعات، قد أصدرت منذ عام ١٩٤٧م «مجلة الشرق الأوسط»، وهي مجلة فصلية تصدر أربع مرات في العام، إلى جانب إصدار «الرسالة الإخبارية» شهرياً. تقوم المؤسسة إلى جانب ذلك بتنظيم مؤتمرات سنوية لمناقشة شؤون الشرق الأوسط إلى جانب تنظيم محاضرات دورية في واشنطن وتقديم الدعم المالي والإشراف لطلاب مختارين. يمكن القول بأن ا«المجلة» قد حققت شهرة عالمية لدراستها الموضوعية للشرق الأوسط ومشاكله، ولعل نجاحها في هذا الحقل هو الذي أدى إلى التطور السريع للمؤسسة: والذي أعنيه هو قرارها أن تتقدم بنشر الكتب الخاصة بالشرق الأوسط.

يتحدث اختيار المؤسسة لهذا العمل كتجربة أولى لها في حقل النشر أكثر مما يتحدث عن شجاعتها قبل أهلية الكتب لذلك، الذي لا يقدر مؤلفه عن فعل شيء إلا الإقرار بالعرفان بالجميل بقبولها لعمله والانغماس فيه. ولديّ أكثر من سبب لأكون أكثر من معترف بالجميل للعطف والمساعدة التي لا تنضب والتي احاطني بها المستر هارفي. بي. هال. الذي أدى دور «الصديق الموثوق» تجاه مؤلف ليس له به سابق معرفة، وتفصله عنه مسافة (٦٠٠٠) ميل من البحر واليابسة، وذلك لأنني ومنذ أن قمت بتسليم المسودة لم يكن لي دخل بعد ذلك بعمليات الطبع غير

قراءة واحـدة لمسودات تجارب الطبــاعــة. ويمتـد إعجابي أيضــاً إلى السـيدة جين لنـدي للساعات العديدة المرهقة التي بذلتهـا في إعداد الفهرس. وأرفع إلى مطبعة جامـعة كورنول شكري العمـيق لهذا العمل المحـبوب الذي أنجز في وقت قصـير مذهل. كمـا أدين بالشكر العميق والعرفـان بالجميل إلى السيد قـاري أون والسيد توم بارقر من شـركة أرامكو للمسـاعدة الكريمة التي قدمـاها بتوفيـر النقل الجوي لمسودات الكتـاب من وإلى أمريكا ورسـائل أخرى ذات علاقـة بهذا العمل، كـما أشكر مستـر جورج رنتز لنقل المسوَّدة في المقـام الأول إلى واشنطن. كما لا يجب عليَّ أن أنسى أنه ربما لم تكـن هنالك مسـودة أصلاً يقـوم بإرسـالها لولا العـمل المخلص النابع من الحب الذي قامت به ابنتي باترشيـا ـ اسمها الآن مابلين ـ، التي طبعت نسـخاً عديدة من مسـودتي خلال تلك الأيام التي كان من الممكن فـيها أن تزيل قنبلة ما كتبته بيدي.

وفي الختـام، كلمة حول الجزيرة العـربية، خلال السنوات السـبع التي انقضت بعد كتابة المقدمة لهذا العمل، استيقظت الجزيرة العربية، لتجد نفسها، حقيقة، في عالم جديد، مـختلف تماماً عما عـهدته الأجيال الجائعـة في الماضي. لقد وصلت أخيراً لعنه الأرملة، التي لمستها بعصاتها الـسحرية أخيراً، فانبثق نفطها الغالي إلى العـالم في نهـر لا ينضب بمعـدل (١٠٠,٠٠٠) طن في اليـوم. وتجلب السـفن العائدة إلى بواباتها بـضائع العديد من القارات: رفاهيـات إلى جانب ضروريات، وفوق كل ذلك وسـائل إزالة الظمأ في صحـاريها التي بدأت تزهر وتنتج الثـمار. وتحولت بلدانها إلى مدن وقراها إلى بلدان. لقد خـففت وسائل المتعة الجديدة من قسـوة الطقس أو مهدّت للهـروب منه. تحول اليـأس إلى أمل. غير أن مـوجات الرخاء الاقتصـادي سوف تأخذ وقتاً لتصل إلى الأجزاء البعـيدة من الأرض. كما

ليس من المحتمل أن أية من هذه الأجزاء من البلاد التي جاء وصفها في هذه الصفحات لم يحس بعد بأثر الثروة الجديدة بدرجة ملموسة. يقال أن نجران قد تحولت إلى بلدة ذات حجم معتبر، غير أن التغيير الرئيس هناك هو الاختفاء التام للجماعة اليهودية الصغيرة بسبب هجرتها إلى فلسطين. تستعصي الجبال على أي تطور محسوس، بينما، انتفعت جازان والقرى الساحلية الأخرى التي عرفتها في أيام زياراتي، بلا شك من النشاط التجاري المتنامي خلال السنوات الأخيرة.

حدث تغيير عظيم، في حالة واحدة، مقارنة بالماضي. لقد زار العديد من الخبراء تلك الأراضي العذراء التي قمت برفع الحجاب عنها واكتشافها قبل(١٥) سنة فقط، ومعظمهم من الأمريكان -خبراء فنيون- ولكن لا أحد بينهم -حسب علمي- قد قام بنشر أي تقرير عام عن المناطق التي زاروها. لا بد من إضافة اسم جديد، بكونه نجماً ذا شأن، إلى قائمة المساهمين الرئيسين الذين أثرو معارفنا حول جنوب الجزيرة العربية والذين ورد ذكرهم في المقدمة. إنه ولفرد تَسِيجَر[(١)] الذي قدم إلى الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بالمشروع العالمي لمكافحة الجراد، وخلال السنوات القليلة التي أخلص فيها العمل للبلاد قبل مغادرتها عام ١٩٥٠م متجهاً إلى مراعٍ أخرى كانت رحلاته الواسعة في الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية، خاصة داخل وحول الربع الخالي، قد جعلته فوق الجميع بين كل الكشافين في مجال استكشاف الجزيرة العربية المشرِّف. يمكن أن نعد النهر

---

(١) الأستاذ ولفرد تَسيجَر:ـ يعد من عظماء الرحالة البريطانيين في البلاد العربية، ولد في أديس أبابا عام (١٩١٠م)، ثم تعلَم في ايتون واكسفورد، وعمل بعد تخرجه في السودان، والحبشة، وسوريا، ثم في الصحراء الغربية، ومنذ آواخر الحرب العالمية الثانية قام برحلات عديدة إلى أقطار مختلفة، ومنها الجزيرة العربية، حيث قطع الربع الخالي مرتين في الفترة من عام (١٩٤٦م ـ ١٩٤٨م)، كما قام في عام (١٩٤٥م) والذي يليه برحلة عبر تهامة والسراة سماها: ـ (رحلة في تهامة وعسير وجبال الحجاز)ـ، قام بترجمتها إلى العربية الأستاذ الدكتور/ أحمد عمر الزيلعي، ونشرها في **مجلة الدارة**، (العدد الأول) (س/ ١٤) شوال / ١٤٠٨هـ / مايو / ١٩٨٨م، ص٩٣ ـ ١٢٣ (ابن جريس).

الرئيس لاستكشاف الجزيرة العربية قد وصل إلى نهايته عند منتصف القرن العشرين، غير أنه يوجد العديد من الخلجان الصغيرة ومواضع مياه خلفية منعزلة لا تزال تنتظر اهتمام كشافين قادمين.

هاري سانت جون فيلبي

مكة المكرمة: ١٦ سبتمبر ١٩٥١م

مقدمة

يكمل هذا العمل وصفي لجنوب الجزيرة العربية الواقعة إلى الجنوب من الخط الذي يخترق شبه الجزيرة من ميناء العقير على ساحل الخليج العربي، عبر الرياض، عاصمة وسط الجزيرة العربية، إلى مكة وجدة. كان معظم البلاد أسفل هذا الخط، حينما ذهبت إلى جزيرة العرب قبل (٢٧) عاماً[١]. أراضٍ مجهولة، برغم التغلغلات العشوائية إلى أطرافها من قبل بعض الروّاد المستكشفين الأوائل للجزيرة العربية. لا يوجد اليوم إلاّ القليل من الجزيرة الذي لا يمكن تحديده على الخرائط بدقة. وأستطيع أن أدعي، دون غرور لا ضرورة لها، إن معظم الخرائط لهذه المساحة الضخمة قمت بعملها بنفسي. شارك آخرون في هذا العمل العظيم خاصة آر. إي. شيزمان، وبرترام توماس، وهارولد انجرامز، وفريا ستارك، وهوج سكوت، وبيري لا ماري، وآخرين. غير أنني شاهدت من الجزيرة العربية أكثر مما شاهده كل هؤلاء مجتمعين، وكل من قد سبقونا، وهو أمر طبيعي باعتبار أنني صرفت أكثر من ربع قرن لدراسة البلاد التي لم يستطع زملائي في المهمة -لحسن الحظ أو سوئه- أن يكرس أكثر من أشهر قليلة، أو على أقصى تقدير، سنوات قليلة. كانت نتائج أعمالي تعرض على الجمهور على فترات خلال هذه المدة الطويلة في سلسلة من المجلدات: "قلب الجزيرة العربية" (١٩٢٢م)، و"الربع الخالي"(١٩٣٣م)، و"بنات سبأ" (١٩٣٩م). وأنه وبإحساس ذاتي بالراحة أقوم بتقديم هذا العمل الحالي إلى العالم كتذكار لانتهاء جزء واحد على الأقل من المهمة التي نذرت نفسي لها منذ سنوات عديدة مضت.

كان هدفي الرئيس في هذا الكتاب، كما في غيره من كتب رحلاتي السابقة، هو أن أدون كل ما أعرفه - ربما أفضل أن أقول كل ما قد عرفته عن طريق

(١) في عام ١٩١٧م. (المؤلف).

ملاحظاتـي الشخصـية- للمنطقـة التي يرد وصفـها. كنت أحاول أن أقـلل بقدر الإمكان من الفجـوات في استكشافاتي وفي سـجلاتي لغيري ليـقوم بملئهـا، كما حاولت أن أكـون شديد التـدقيق في صـحة كل مـا أقوله عن الأمـاكن والناس. وبالطبع فنحن نـقع في الخطأ من حين لآخـر، وقد تكـون هنالك أخطاء في هذا الوصف الضخم لبلاد شاسعـة الأطراف، والذي من أجله أطلب فقط السماح من أولئك الذين سيكونون على أثري. من أجلهم قد كتـبت - لأجل الخبير والمحترف أكثـر منه للقارئ العـادي- برغم أملي أن يكون هنالك البـعض منا في هذه الأيام المزدحمـة بالأعمال والذين لا يزال لديهم الفـراغ لقراءة ما يكتب عن بلاد غـريبة بعيدة وعن تجارب أولئك الذين غامروا بالدخول فيها واستكشاف أسرارها.

سيـجدون في هذا العمل سـرداً لمساحة كـبيرة من الأرض لم تسـتكشف حتى الآن. تبلغ مساحـتها حوالي (١٥٠,٠٠٠) ميل مربـع، والتي لم تقع عليها عين أوروبي غيري. إنها تمتـد فوق جبهة عريضة إلى مسـافة (٣٠٠) ميل من الساحل الشرقي للبحر الأحمر عبر سهل تهامة الساحلي وأعلى الحاجز الجبلي العظيم الذي ترتفع قمـمه، حوالي (٧٠٠٠) أو (٨٠٠٠) قـدم فوق سطح البحـر، إلى أسفل فوق رفـوف البازلت والصخر الرملي للـهضاب العاليـة إلى أن تندمج داخل رمال الصحراء العظيمة في جنوب الجزيرة العـربية. والتي تمتد عبرها الحدود الدولية بين مملكتين عربيتين حديثتين، المملكة العربيـة السعودية، واليمن. يتباين الطقس داخل هذه الحدود من شـبه استوائي إلى مـعتدل، وبينمـا تكون المياه متوافـرة على أحد جانبي الحاجـز الجبلي، وتكون شحيـحة على جانبه الآخر. تحـمل معظم الأودية التي تشق الجانب المتجه ناحـية البحر أنهاراً دائمة الجريان حتى حـافة سهل تهامة، الذي كان يزرع بكثافة في الأزمان الغابرة، ويعزى ذلك لوجود نظام قنوات محكم

أقيم في هذه الأودية. كما يوجد أدلة على قيام أنظمة للري في الأودية الكبيرة على الجانب الشرقي للحاجز الجبلي، الذي اعتمد، على أية حال، على المحافظة العلمية لمياه السيول بدلاً عن سخاء الطبيعة. وكما تتباين المجموعة النباتية والمجموعة الحيوانية في هذه المنطقة، يتباين الطقس والمناظر الطبيعية، بينما يتباين الإنسان نفسه من العناصر الزنجية المنتشرة في السهل الساحلي إلى العربي السامي الأصيل المستقر في المرتفعات وفي الصحراء. يكثر الإنسان في هذا الإقليم مقارنة بأجزاء أخرى من الجزيرة العربية، وكذلك كان منذ أزمان مبكرة حينما كانت البخور العربية تنتشر في أسواق العالم وأعطت لهذه الزاوية الجنوبية من صحراء شبه الجزيرة العربية الاسم المستعار الجميل «العربية السعيدة»(١).

تغيرت الأشياء منذ تلك الأيام، كما سيكتشف أي قارئ لهذه الصفحات ذلك بنفسه. غير أن الأشياء قد تتغير مرة أخرى. لقد نامت الجزيرة العربية وبعمق أكثر من اللازم، غير أنه توجد إرهاصات صحوتها حيث يطل عليها فجر مرحلة جديدة من جهة الغرب. من منا الذي يستطيع أن يعلم ما يخبئه اليوم للجزيرة العربية غداً؟ أو ما الهدايا التي ستقوم بمنحها للإنسانية عوضاً عن توابلها التي طواها النسيان؟ يستطيع هذا العمل أن يدعي بأنه قد عرض الجزيرة العربية كما هي في لحظة تحولها من الانحطاط إلى النهضة. وسوف تعود عظيمة كما كانت أيام أوجها في عصر سبأ.

هاري سانت جون فيلبي

١٨ اكول روود جنوب غرب لندن

٦ مايو ١٩٤٤م

---

(١) (العربية السعيدة) (Arabia Felix) هو الاسم الذي أطلقه الكتّاب الإغريق والرومان على جنوب الجزيرة العربية، وفي أحيان كثيرة كان يقصد به جميع المنطقة الواقعة جنوب الخط الممتد من خليج العقبة وحتى مدينة بابل على نهر الفرات. وقد أطلق هذا الاسم بسبب الشهرة الكبيرة التي اكتسبتها الجزيرة نتيجة تصدير المواد العطريه والتوابل. (ابن جريس).

الباب الأول

استهلال

١٦ مارس إلى ٥ أبريل ١٩٣٢م

الفصل الأول:

ما بعد الربع الخالي

كنا لا نزال بعيدين عن نهاية أعمالنا بعد أن عبرنا الربع الخالي عند مدينة السليل في الرابع عشر من مارس عام ١٩٣٢م. إنزاح القلق بلا شك حين عدنا مرة أخرى إلى حيث يستوطن الناس. ولكن يفصلنا عن مكة، وهي أقرب موقع نحس عنده بأننا في أوطاننا، مسيرة تقدر بسبع مئة ميل، معظمها عبر أرض لم تكتشف وغير موضحة على خريطة. كانت منطقة وادي الدواسر، بالطبع، مألوفة لديّ، منذ زيارتي الأولى عام ١٩١٨م، عندما تطلعت من فوق أطرافها الغربية عبر مفازة المحمل التي تفصل بين وادي الدواسر ومرتفعات بيشة وعسير. لم ير هذا أي أوروبي غيري على الإطلاق. لقد قدم كل من تاميزيه والكولونيل واخوب إلى بيشة من ناحية الغرب منذ زمن طويل، وقد زارها حديثاً ليوبولد فايس، وهو ألماني مسلم[1]، من ناحية الشمال الشرقي، وهو الرحالة الذي شاهد لأول وآخر مرة واحات رنية وتربة، ولكنه، للأسف، أهمل فرصة إعداد عمل خرائط جادة.

لقد كان خط عرض بيشة معروفاً بالتقريب، ولكن بالنسبة للمدينتين الأخريين فقد كان تحديد موقعهما تقريبياً، على ما كان متوافراً من خرائط آنذاك، ومن أحاديث

---

(١) ليوبولد فايس (١٩٠٠ ــ ١٩٩٢م) مستشرق نمساوي وليس ألمانياً، أسلم وتسمى باسم (محمد أسد)، ثم كتب عدداً من الدراسات معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وترجم صحيح البخاري، وله كتاب (الطريق إلى مكة) وكتاب (الإسلام على مفترق طرق) وغيرها من الدراسات الجيدة، انظر. نجيب العقيقي. **المستشرقون** (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠) جـ٢، ص ٢٩١٠ (ابن جريس).

الأهالي. وعليه فإن البلاد التي نفكر في اختراقها كانت، في معظم الأحوال مجهولة، كما كان الربع الخالي نفسه، ولن يتسنى لنا دخول المسارات المألوفة نحو حضن وركبة[1]، على خلفيتهما من ناحية الغرب جبال الحجاز، إلاَّ بعد تجاوزنا لتربة.

نحتاج نحن وجمالنا، لفترة راحة قصيرة بعد جهودنا السابقة، وقبل مواجهة محن مثل هذه الرحلة. لم يكن في استطاعتنا أن نهدر الوقت، بسبب الاقتراب السريع لموسم الحج الكبير (١٥ أبريل)، والذي نأمل أن نؤديه. وأخيراً وصلنا إلى مكة في الوقت المناسب وبسير معتدل وتجنب كل إغراء للتوقف في مواقع جميلة كنا نود أن نستريح عندها.

ولذا، كان لدينا فقط (٤٨) ساعة، كبداية، لنتوقف عند السليل. وبمجرد وصولنا تم إرسال الجمال لترعى أفضل نباتات المرعى في المنطقة في وادي العفجة، بينما خلدنا إلى الراحة الذهنية والعضلية بالركون إلى عمل لا شيء. ودفعنا إلى ذلك توعك بطني نتج عن التهامنا لطعام غني بالدسم. كما تعرضنا لطقس عاصف وريح باردة، وسماء غائم بالسحب، مهدداً لنا باستمرار مثل تلك العاصفة التي واكبتنا أثناء خروجنا من الربع الخالي. قدّم لنا حاكم السليل زوجاً من الخيام للوقاية، غير أن إنطباعي حول إقامتنا المؤقتة هنا والتي لا تزال حية في ذهني برغم تباعد الزمن، كان هو الإحساس بعدم الراحة، تؤكدها دلائل الشقاء المحلي للناس.

---

(١) حضن وركبة: ــ جبلان يقعان ناحية نجد، وهما من أول حدود نجد الغربية، وفي المثل: ــ «أنجد من رأى حضناً» أي من شاهد هذا الجبل فقد صار في أرض نجد. انظر. ياقوت الحموي. **معجم البلدان**، (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م) جـ٢، ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ (ابن جريس).

كان أول قدومي إلى هذه المنطقة في عام ١٩١٨م، وبعد أشهر قليلة، من تلك التجربة السارة الوحيدة التي عرفها الناس آنذاك، إلى حين زيارتي الثانية. كانت تلك التجربة هي السيل الكبير، الذي دخل ذاكرة التاريخ المحلي تحت اسم «الليلة»، أو «الكابوس» إذا ترجمنا ذلك بلا ذلاقة لسان. إن رعب تلك الليلة، والذي أحس به أهل أسفل الوادي في منطقة الدواسر، قد أخذ معه العديد من الأرواح البشرية ونفقت المواشي في أعاليه، غير أنه كان البشير بالمراعي الثرية والمحاصيل الجيدة، والآبار الممتلئة لموسم أو موسمين. ولكن امتدت ذراع الجفاف الطويلة المميتة فوقهم منذ ذلك الحين، ولمدة تقارب الاثنتي عشرة سنة. والآن، مع عودتي الثانية، فإن السماء المنقضبة المنخفضة السحب، كانت ممتلئة بالأمل الواعد نحو المستقبل. كان القمح، ممتلئ السنابل، يتأرجح في همس تحت ملاطفة الرياح. وبدأ حصاد الشعير، والذين لم تسحقهم سنوات الشدة ملأهم الأمل ولهجوا بالشكر لهذه الرحمة الإلهية. أمكن إعادة بعض الآبار، المهجورة للعمل. كما أمكن إعادة زراعة مناطق عارية، بعد أن أزيلت جذوعها العارية للاستفادة منها كأخشاب أو وقود بأشجار النخيل الصغيرة، ووجدت الماشية، فوق كل هذا طعاماً كافياً في المراعي المتجددة. كان هنالك حزن غريب في رضاء الناس. فطالما عرفوا اليأس، فبالكاد يتطلعون للأمل، كجمالنا التي عافت الماء بعد فترة ظمأ طويلة في الربع الخالي.

وفي صباح يوم مغادرتنا، تجمع الفقراء، ومعظمهم من النسوة في ملابسهن القرمزية الفضفاضة، وأقنعتهن السوداء، وعباءاتهن النجدية، حول المعسكر طلباً للصدقات. يقدر عددهن بالمئتين على الأقل. كنت قد استبدلت بعض ريالات الماريا تريزا، بالعملة التركية المحلية التي لا تزال حية من فئة النصف والربع.

وكانت كل امرأة سعيدة بما تلقته من مبلغ زهيد وقع في يدها. وعاد البعض منهن مرة أخرى على أمل أنهن لن يُعرفن، ولم يتضجرن عند نفاد النقود. كما استطعت أن أتنبه إلى خدمات بعض الصبية الذين دعوتهم لصيد الطيور لي بوساطة شراكهم. لقد أحضروا لي الطيور حية، ولكن أحد الأجنحة كان مشوهاً جداً ليمنع طيرانها.

احتفى بنا أمير قرية «آل محمد» أثناء إقامتنا، واسمه فرحان الروية، الذي يتمتع بسلطة رسمية متساهلة على كل الواحة. كما قمنا أيضاً بزيارة سالم بن عبدالله بن نادر بقرية «آل حنيش» والذي كان أخوه «نادر» حينها في مكة في خدمة الأمير فيصل. لقد تجولت في مزارع النخيل اليانعة وحديقة يملكها عيسى الخبيزي، وزرت أيضاً أجزاء أخرى من الواحة «مثل قرية آل سويلم» التابعة لمقابل، وقرية آل ضويان. كان الحديث في كل مكان هو نفسه: لقد أصابت مصايد اللؤلؤ في الخليج العربي ظروف صعبة، وتدنت دخول ممثلي السليل لدى الحكومة من متوسط مئة ريال للرجل إلى ستين ريالاً. ومع ذلك، فإن كل الذكور يذهبون للبحر كل عام، تاركين العدد الضروري فقط من الأيدي العاملة التي تشرف على ري مزارع النخيل. تحتوي مزارع النخيل صنفين ممتازين من البلح: المقفزي الذي يجنى خلال أشهر الصيف والسري ذي الثمار اللذيذة[١]، الذي يظل على أشجار النخيل عبر أشهر الشتاء، ويقتطف متى أريد[٢]. كان السكان، بالطبع

---

(١) المقفزي والسري: نوعان من أنواع التمور التي كانت ولا زالت تشتهر بها منطقة وادي الدواسر (ابن جريس).

(٢) في العادة أن التمر لا يبق على شجر النخيل، وإنما يقطف قبل أن يتلف ويوضع في أماكن مخصصة لحفظه من التلف، وغالباً يسمى المكان الذي يخزن به (الجصة). (ابن جريس).

من البدو، أو أشباه البدو، يزيد عددهم عن ألفي نسمة، ولا تزيد قوة حامية الواحة عن عشرين جملاً براكيبها وذلك في حالة الاستنفار العام، وكان بعض رجال الحامية في هذا الوقت غائبين في خدمة فعلية، في حملة خالد بن لؤي الاستطلاعية، في منطقة نجران، حيث وصلت أخبار إلى السليل بانتصار باهر على عناصر السلوم والهندي(١) وغيرهما في ذلك الجزء. استسلم المتمردون الذين كانت إصاباتهم كثيفة نسبياً، بعد المعركة، وتم توقيع الاتفاقية.

قمنا بوداع مضيفنا صباح اليوم السادس عشر من مارس، وامتطينا ظهور مركبنا لنواصل رحلتنا. استغرق عبورنا لمزارع النخيل، على زاوية مائلة، حوالي ربع الساعة عبر ممر ملتو يمر من أمام قلعة قصر البيِّنة بجوار حديقة تسمى الصفية. تطلعنا إلى حوض وادي الدواسر الطويل الضحل، وذلك من حافة مزارع النخيل، ناحية الأفق الغربي، حيث تقع المرتفعات الحارسة لكل من خشم العُمور، وخشم أشقر(٢)، على جانبي المدخل الذي يؤدي إلى جبال طويق. كان السهل العريض، المملوء بنبات الحرمل من أمامنا، هو دلتا قناة المجامع حيث تبدأ دخولها بالوادي الذي يسمى هنا بـ «الفرشه» وهو ممر ثقيل تتناثر فيه شجيرات الشنان، واقفة على قواعدها الرملية. كان اتجاهنا العام هو ناحية الجنوب الغربي بميل عبر الوادي. عبرنا ممر المفرش، ودخلنا الخط الرئيس للمجرى، وهو قاع طيني كثيف الأشجار، عليه أشجار الأثل، أو السَوَّاد، ويعرف باسم العفجة. ضربنا مسيرتنا على هذا الطريق، لنصل إلى السفوح الجنوبية لطويق، على الجانب الأيمن للوادي، ثم عبرنا

---

(١) السلوم والهندي: عشائر يامية من منطقة نجران، ولهم وقائع وحروب قبلية مع سكان وادي الدواسر. (ابن جريس).

(٢) خشم العُمور وخشم أشقر: جبلان متقابلان يقع الأول غرب مدينة السليل والآخر في شمال غربها. (ابن جريس).

من هنا، على أحد ضفتي رافد مهم هو شعيب القبر، فوق مساحة كبيرة من الخرائب: جدران، حصون دائرية، وحطام منازل، التي يبدو أنها غير جديرة بأن نقف عندها لفحصها. ومع هذا فقد توقفنا لمدة قصيرة بسبب حائط من الصخور في الرافد الثاني غرباً، وهو شعيب جراف[١]، حيث كوفئ البحث بالعثور على حفريات تعود إلى العصر الجوراسي[٢]، شبيهة بتلك التي عثرت عليها في هضبة طويق على بعد حوالي (٤٠٠) كيلومتر إلى الشمال.

تنتشر أمامنا الآن منطقة الخثيقان[٣] المبعثرة التي تتكون من أربع أو خمس قرى صغيرة، إلى جانب قصور قليلة منعزلة، ومزارع نخيل متوزعة بين صخرة طويق على يسارنا وغابات العفجة الداكنة الاخضرار إلى اليمين. توقفنا هنيهة لسقي الجمال من بركة تحيط بشجرة نخيل واحدة، في إحدى المزارع، حيث كان يعمل عدد من الرجال. ينتمي أهل هذا الجزء من الوادي إلى مجموعة أبات دواسر، تدعى بني تغلب، والتي تضم الأقسام التالية: العُمور، والخيلات، والحقبان، والمشاوية، والمصارير. لقد تضرروا، كما تضرر أهل السليل، من فترة جفاف طويلة، وكانت بعض مزارع نخيلهم في حالة سيئة، ولكن يبدو أنهم يتطلعون إلى محصول ذرة أصفر واعد، نتيجة للأمطار الحديثة. تنتهي الواحة بالقرب من الجانب الأيمن لشعيب العُمور، الذي يدخل هنا عبر خليج عميق يمتد إلى الوراء داخل جدار جبل طويق، لم نهتم بزيارة المنطقتين المهمتين الأخريين: تمرة وشرا، فقد زرتهما من قبل في رحلتي السابقة. توقفنا، بالفعل، عند البئر

(١) جراف وليس جرب (كما ذكر فيلبي)، ويقع جنوب فرشه السليل. (ابن جريس).

(٢) العصر الجوراسي: يطلق هذا المصطلح على فترة زمنية معينة مرت بها الكرة الأرضية، وخلال هذا العصر غطت المياه معظم قارات آسيا وأوربا وأمريكا. (ابن جريس).

(٣) الخثيقان: منطقة تقع غرب مدينة السليل، وتعرف حالياً بـ (خيران). (ابن جريس).

الجميل المسمى عين المليحة، ذي الصهريج مربع الأبعاد، حيث يمتد كل ضلع إلى عشرين قدماً، وهو مبطن بمواد البناء إلى حدود خمسة أقدام من مستوى الماء، الذي كان عند عمق (٣٠) قدماً. يبدو -ولسبب ما- أن هذا البئر كان معطلاً، برغم أن كتلة صخور زرقاء، تم كشفها عن طريق الحفر، من أعماقه، قد أوضحت أن بعض الجهود قد بذلت لإعادته للعمل. كان هنالك على أية حال، صهريج آخر. ليس بالبعيد، يستخدم لري أرض زراعية معقولة الحجم، لنبات الذرة الأصفر.

قررنا، بعد عشر دقائق أن نعسكر الليلة تحت صخرة خشم العُمور في فجوة طويق، بعد أن قطعنا مسافة (١٣) ميلاً من السليل. وتسلقت بسرعة إلى القمة، لأرى منظراً شاملاً للريف المجاور، ويقف تحت أقدامي، في الفجوة، امتداد النخيل الضخم، التابع للقبابنة بأجزائه اللامعة البيضاء بسبب تربته الملحية. اندمجت أشجار النخيل على الجانب الغربي، مع غابات الأثل، وفيما عدا وجود عدد قليل من القرى المتهدمة تبدو الواحة كأنها بلا سكان. تمتد قمم طويق الجامدة باتجاه الشمال الغربي والجنوب الغربي إلى ناحية الأفق البعيد المظلم، مكوِّنة قوساً ضحلاً، ويوجد منفذ القبابنة في وسطه. تقع منطقة الخثيقان إلى الشرق، وتقع منطقة العُمور شيئاً ما نحو الجنوب الشرقي. وعلى سطح المنحدر من أعلاه إلى أسفله، تنتشر البقايا الأحفورية (بقايا العصور الجيولوجية القديمة).

هطل مطر غزير، وخلال وقت قصير مباشرة بعد عودتي للمعسكر، سرعان ما صفا الجو، وحوالي الساعة التاسعة مساءً استطعت أن أقوم بملاحظة النجوم، قبل أن تتجمع السحب مرة أخرى من جديد، وعند منتصف الليل، غطَّت سحب

كثيفة السماء ولمع برق بعيـد من جهة الشرق، ولكننا لم نمطر، وكان الليل لطيفاً، جذبت نار معسكرنا مسافراً قادماً من وادي الدواسر متجهاً للسليل. أخبرنا هذا المسافر أنه منذ ثلاثة أو أربعة أيام خلت وصلت تعليمات للأمير من الملك، مفادها أن يتوقع وصولنا خلالها، علماً بأن الأمير نفسه، لم يؤكد هذه الشائعة حينما وصلنا إليه بعد يومين. لقد أفادنا في السليل بعض صائدي اللؤلؤ الذين عبروا منطقة الهفوف قبل حوالي ثلاثة أسابيع في رحلة عودتهم؛ أن هواجس نذر الشر حول مصيرنا كانت دائرة هناك.

صحونا في اليوم التالي والسماء صافية من فوقنا، عدا سحب قليلة خفيفة، كان الصبح دافئاً مع بعض الحرارة والرطوبة، برغم النسيم الرقيق الذي يهب من جهة الشرق. امتطينا الدواب عند تمام الساعة الثامنة صباحاً، مسافرين في اتجاه يقع قليلاً تجاه الجنوب الغربي على امتداد منحدرات طويق، والتي كانت قواعدها من الحجر الرملي ذي اللون البني الغامق، وتعلوها شرائط باهتة من طبقات الصخور الجيرية. على يميننا، ومن خلف نخيل القبابنة ملأت غابات الأثل حوض الوادي، بينما واصلنا مسيرتنا عبر سهل غني بنباتات الشنان، يقع بين المنحدرات الصخرية والوادي، ثم مررنا بعد مسافة قصيرة بالقرب من كتلتين صخريتين منفصلتين نحتتهما الرياح على هيئة أُسُود مستريحة[١]. وفيما يلي هذه وعندما بدأت الصخور تتجه نحو الجنوب، بدأنا بالتدريج نسلك طريقنا باتجاه الغرب، فوق السهل الملحي المنقط بلطخات من الرمل الخشن[٢].

---

(١) وتسمى هاتين الكتلتين حالياً بـ (الرحيلين). (ابن جريس).

(٢) وتعرف هذه المنطقة حالياً باسم (الكواكب). (ابن جريس).

ظهر نخيل كمدة حوالي الساعة العاشرة صباحاً حينما توقفنا لتناول الإفطار. كان مقرراً عليَّ أن أقضي ليلة أخرى هنا كما فعلت قبل أربع عشرة سنة. ولكننا واصلنا مسيرتنا على عجل واختلطت أشجار الشنان والأثل بالغضى فوق كثبان الرمال. وما هي إلاَّ مدة زمنية محدودة حتى تحوَّل كل ذلك إلى غابة، وأصبحت أمواج الرمال أكثر وضوحاً. وعند الظهر، ومع عودة التوعكات المعوية التي أعلنت عن نفسها في السليل، كنت مستعداً للتوقف مرة أخرى. نمتُ سريعاً تحت الظل الوافر لشجرة غضى، وصحوت عند الساعة الثانية ظهراً لهطول مطر مفاجئ. وظل كل شيء لطيفاً بعد ذلك مع أمطار متقطعة، وعند الساعة الخامسة أحسست بأنني قد استعدت نشاطي بما فيه الكفاية لأواصل المسيرة.

زحفنا بعد ساعة إلى مجموعة من أشجار أثل كمدة؛ لنعسكر بالقرب من القرية. قد أدينا عملاً أفضل قليلاً من عملنا في اليوم السابق، ولكن الظروف كانت كلها ضدّنا، احتفى بنا الأمير المحلي: فارس بن راجس، والذي يناديه أبناؤه بـ «الرجل المسن»[(١)]، برغم أنه في منتصف العمر وقد بالغ في إكرامنا، وكنت سعيداً مدة بقائي تحت حمايته. إن أعظم إنتاج لكمدة هو نبات «الكرمع»[(٢)] أو

(١) دعوة الرجل وهو لازال في منتصف العمر بـ (الرجل المسن) أو (الشائب) أو (القحم) أو (أم قحم) عادة منتشرة عند كثير من الناس في شبه الجزيرة العربية، وبخاصة في جنوبها، وهذا أمر ليس فيه تجريح أو احتقار أو ما شابه ذلك، وإنما اعتاد بعض الناس أن يطلقوا مثل هذه العبارات على الوالد أو العم أو غيرهما، وبخاصة بعد ظهور الشيب عليهم، وبعد أن صار لهم أولاد وبنات وربما أحفاد. (ابن جريس).

(٢) ويسمى هذا النبات الكرمع، وهو نوع من الثمر الذي يطرحه شجر الأثل، ولونه وردي، ويستخدم في دباغة الجلود. مقابله مع مبارك الدوسري، أحد طلاب الدراسات العليا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد. (ابن جريس).

«توت الأثل» إذ يكثر الطلب عليه كمادة صـابغة. ولكنه أصبح لعدد من السنوات المتتالية، فاشلاً كلياً أو جزئياً، ربما بسبب الجفاف. كما يُزرع هنا الشعير والشوفان معاً، ويصنـع الخبز المحلي من خليط منهمـا معاً. القرية نفـسها صغيـرة، ولكنها مدمرة ومـحاطة بسور، مع وجـود برج مراقبة على الجـانب الجنوبي الغربي. ولا يزيد عدد السكان عن مئـة نسمة ولديهم عدد كبير من الآبار الـتي يكون الماء فيها غزيراً على عمق عشرين قدماً، وهي أكثر ما تكون حفراً واسعة الفوهات أكثر منها آباراً. مع غياب أية دلائل بناء في هذه الحفر. توجـد مبانٍ قليلة إلى جانب القرية في مزارع الأثل المبعثرة، والتي تغطي مساحة واسعة. أما مزارع النخيل التي كانت واسعـة الانتشار نسبـياً في السابق؛ فهـي في حالة يرثى لها. ويؤرخ برج مراقـبة محطم على الجانب البـعيد من الواحة لفتـرة مجاعة طويلة، لم تترك شيـئاً يأخذه الأعداء. وخلف هذا البرج يقع مستنقع مـياه أمطار يبدو كأنه يحيي الأمل لحدوث أشياء أفضل في المستقبل.

بيننا الآن وبين طريق وادي المنطقـة الحقـيقي سـهل رملي عظيم، كأنـه بحر متـلاطم الأمواج، مطرز بأشـجار الغـضى، وتعتـرضه على مـسافات مـتبـاعدة منخفضات ضحلة من الصخر الرملي. وتندمج تخوم طويق عند الجنوب البعيد في الأفق، مع آبار القرية(١) تختفي خلف أحد المرتفعات على مسـافة رحلة يوم. يبرز أمامنا شـريط نحيل طويل أسود من النخيل وأشجـار الأراك الذي تستخدم أغصانه الحادة المذاق سواكاً لنظافة الأسنان عبر شبه الجزيرة العربية(٢).

(١) زرتها سنة ١٩٤٨م. (المؤلف).

(٢) تؤخذ الأسوكة من جذور شجر الأراك وليس من أغصانها. (ابن جريس).

اقتــربنا، في بطء، من ضواحي الواحة، وعــبرنا مزارع محطمــة ذات نخيل وأثل غير متناسق، ووصلنا إلى أولى القــرى، وهي قرية الشرافاء التي سبق لي أن تحاشـيتهـا في رحلتي الأولى[١]، حيث تجـمع مواطنو الوادي آنذاك لمنع تدنيســها بواسطة كافر[٢]، غير أننا عبرنا الواحة المعوجة للقرية هذه المرة، لأن خبر حضورنا لم يكن معلناً، وكانت القرية محطمة تنتشر فـيها قطع صغيرة من مزارع الشوفان. واصلنا السيــر بعدها، وسط القرى، مع وجود الزخــم الرئيس لمزارع النخيل على يميننا بعــيداً قليلاً من الطريق، تحت كـثبــان الرمال التي كانت تنتــظم على الجانب الأيسر للوادي. تبلغ المسافة من قرية الشرافــاء إلى قرية اللدام، المستوطنة الرئيسة، حوالي ستة أميال. وقد قطعــناها بلا حوادث تذكر لنتوقف عند قلعة برزان، حيث يقيم الحاكم.

كان اليوم يوم جمعة وقد انتهت صلاة الجمعة قبل قليل. وكان سعد بن ناصر ابن معمر - وهو سليل بيت إمــارة جاء منه ذات يوم العديد من أمراء المناطق تحت قيادة ابن سعود - يشرف على مجلس محكمته الأسبوعي العادي. جلس وبجواره

---

(١) الشرافاء: هذه القرية بداية حواضر وادي الدواسر من الجهة الشرقية للقادم من جهة الرياض. (ابن جريس).

(٢) وهذا التصــرف من قبل سكان هذه البلاد، وعدم رغـبتهم أن ينزل بلادهم رجل كافـر يدل على كرههم للكفــار وعلى معــرفتهم أنهــم يدنسون أي مــوطن ينزلون به، وهذا الإحســاس لم يكن عند سكان بلاد الدواسر فـحسب وإنما ظاهرة قـد تكون عند كثـير من سكان شـبه الجـزيرة العربيــة، وفيلبي وغـيره من المستشرقين يعــرفون ذلك ويدركونه، حتى إن بعضهم أعلن إسلامــه صورياً من أجل دخول بعض المناطق في شبه الجزيرة العربية مثل: مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما، وذلك بهدف الاطلاع والدراسة لبعض الأمور التي جاؤوا من أجلها وأعلنوا إسلامهم كذباً لتحقيق أهدافهم ومقاصدهم.

للمزيد من الاطلاع انظر: روبن بدول. **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**. ترجمة عبدالله آدم نصيف (الرياض، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٢٣ وما بعدهــا، جاكلين بيرن. **اكتـشـاف جزيرة العرب خـمسة قـرون من المغامـرة والعلم**، ترجمـة قدري قلعــجي (بيروت: دار الكاتب العــربي، د.ت) ص ١٨١ وما بعدها. (ابن جريس).

كبـير العلماء: سـعد بن عتيـق. وانتظم من حول المجلس كل الأعيـان في قريتي اللدام ومشرف، لقد استقبلنا الحاكم الذي تولى مهام الوظيفة منذ حوالي ستة أشهر بكرم كاف. لا نعرف إن كان يعلم أولاً بوصـولنا إلى السليل، فقد تركنا نحس بأن ظهورنا فـي المنطقة، لم يكن مـتوقعـاً. فقـد سألنا أثناء مـا كانت فناجين القـهوة والشاي تدور، عن كيفـية تمكننا من النجاة من مخاطر الربع الخـالي التي أدى فيها خاله إبراهيم بن مـعمرّ دوراً رئيسـاً في تنظيم رحلتنا من البداية في الهفـوف وكان معنا تابعه الأمين سـعدان الذي يعرفه الأميـر؛ ولذلك كان من الضروري أن يكون صديقاً لنا، ولكنه كان رجلاً ذا شخصية مـتضجرة. يبدو لنا وكأن سحابة باردة قد حلّقت فوق سمـاء المجلس، والحقيقـة السائدة تبدو واضحة في حـبل الصمت من جانب كبير المشايخ. لقد تقلد سعد بن عتيق الوظيفة نفسها هنا عام ١٩١٨م حينها لم أقابله شخصياً ولكني أحسـست بالقوة الكاملة لعدم قبوله التي من الممكن العفو عنها. ومن ذلك الحين يبدو وكأنه لم يتعلم شيـئاً ولم ينس شيئاً. لقد زال الضغط الذي جثم علينا لحظة انسحـابه، ثم تبع بقية الأعيان المحليـون خطاه. وبعدها أمر الأمير بطعام وافر لضيوفه فقد أحـضروا لنا التمر مع قحفة الحساء، لوقف ضربات الجوع، إلـى حين إعداد العـشاء، الذي دعـينا إليه عند السـاعة (٤,٣٠) لـقد تم إحضـار طبقين كبـيرين من لحم الضأن والأرز ووضـعا على الأرض كان أحـدهما لفريقي وكان الآخر للأمير وتابعيه.

شاورني الأمـير، في هذه الأثناء في الخيار بين السـكنى داخل القلعة، أو في خيـام خارج الباب الرئيس. وقد اخـترت الخيام للحـرية الكبيرة التي سـأنعم بها وسرعان ما أقـيم معسكرنا هناك. تمكنّا من الإحساس بالراحة نسـبياً، برغم تتابع

الأمطار من حين لآخر وهبوب العاصفة الرملية الحادة السريعة في فترة ما بعد الظهر. وقد آثرت التحفظ وتأجيل متابعة ملاحظاتي للنجوم إلى ما بعد منتصف الليل حتى لا يكون هنالك مَنْ يتشكك في أفعالي.

تجولت بحرية في اليوم التالي بمفردي بلا مضايقات من أحد. لقد جذبت انتباهي هضبة صغيرة منعزلة[١]، في وسط الوادي، مقابل مشَرفَ. كان ارتفاعها حوالي خمسين قدماً، مكوّنة من طبقات من صخر رملي أحمر مصفر تخفيها طبقة طمي، (سلت) وحصى تساقطت من الأعلى كان سمكها حوالي (٢٥) قدماً وتضطجع في استرخاء فوق الحجر الرملي. إلى جانب حجارة خشنة وضعت في قالب طموي وردي طري، مع وجود كتل كبيرة من الصخر في حجم ضعف رأس الإنسان. لقد سقط العديد من الحجارة، بفعل الرياح والأمطار، من الواجهة الخارجية لهذا الطابق العلوي، مخلفةً سجل وجودها فيما خلّفته من قالب كلسي. كما توجد مياه في بئر قرب ناحية الزاوية الشمالية لقرية مشرف، وذلك عند عمق أربعين قدماً، والبئر مبطنة ببناء من حجارة رملية حتى عمق خمسة عشر قدماً، وبعدها يخترق البئر الصخر الرملي الوردي الصلد. تقع إلى الجنوب من مشرف بركة لمياه الأمطار، بينما إلى الغرب من قرية اللدام التي ليس لها سور ولا بوابة من هذه الناحية توجد بحيرة منتظمة. كما تحتل المقبرة المسافة الواقعة بين المدينتين التي تخترقها عدد من مسايل المياه تنتهي كلها عند هذه البحيرة التي لا يستعمل ماؤها للشرب.

(١) تقع هذه الهضبة في شمال غرب قصر مشرف بوادي الدواسر وتعرف حالياً باسم (القاري). (ابن جريس).

لقد قمت بزيارة سوق مشرف قبل قفولي عائداً للمعسكر، والسوق عبارة عن مكان واسع نسبياً ومكشوف وتحيط به المتاجر المألوفة الشكل في القرى النجدية. لا يبدو أنها تعرض شيئاً يثير الاهتمام، غير أن النظرات الصامتة العابسة والنظرات المتجهمة للتجار والمتسوقين تفيد برفضهم وجود غريب في وسطهم. ظهر السر من جراء هذا حين عودتي للمعسكر، فقد أمضى القاضي سعد ليلته يرسم طرقاً ووسائل ليجعل من نفسه شخصاً غير موافق. ودعا أتباعه إلى مقاطعة معسكرنا. كان لهذا التصرف النتيجة السعيدة غير المتوقعة ألا وهي حجز الجمهور الفقير بعيداً عنا، ولكن ذلك أصبح أمراً أكثر خطورة حينما أبلغني الكشافون التابعون لي بأن محاولاتهم للحصول على دليل كفء للمسيرة إلى بيشة قد تم تثبيطها بوساطة المنطقة نفسها. ذهبت إلى الحاكم الذي حمل على عاتقه فوراً تأمين أحد رجاله الخاصين لمرافقتنا، وحين عودتي إلى خيمتي سررت عند ما عرفت أن ابن معدي قد وجد وأحضر لي معه أحد رجال قبيلة قحطان ويدعى حسن، يزعم أن لديه الخبرة الضرورية عن البلاد التي ستقابلنا.

عرض الأمير -وفي كرم- أن يمدنا بكل احتياجاتنا التي نرغب، غير أننا كنا قد حصلنا على ما نريد من التجار المحليين الذين -عند امتناع أولّي للتعامل معنا- تأسفوا على نكران الذات. هذا؛ وتقدموا -بلا قليل من الطمع- لمساعدة الزوار غير المرغوب فيهم؛ للتخلص من بعض نقودهم! كنا قد أمّنا لأنفسنا ما يكفي من البن وقشور البن، الذي يصنع منه شراب شبيه بالشاي في كل أنحاء جنوب البلاد، من قرية السليل، السوق النجدي الرئيس لتجارة البن اليمني، ولكننا الآن وضعنا ضمن بنود حسابنا وفي مقدرة على مستوى متحرر جداً بعد حرماننا

الأخير، أرزاً ودقيقاً وسمناً، وتمراً وشاياً وتوابل مختلفة - قرنفل، وقرفة، وزنجبيل -. كما قمنا أيضاً بشراء أدوات المطبخ بدلاً عن تلك التي أرسلناها مع مجموعة الرياض من نايفة. كما استطعت حتى استبدال زجاج الساعة، وأن اشتري صندوقاً خشبياً لحفظ الأجهزة الجيولوجية وحفظ عينات أخرى يمكن جمعها أثناء الطريق.

لقد كان من حظنا بحق، أننا شغلنا أنفسنا تقريباً منذ قدومنا في جمع كل ما نحتاج إليه، ذلك لأنه، في صباح يوم (٢٠) مارس، حينما كنا على أهبة مواصلة مسيرتنا، أعلن التجار المحليون، بعد بيعهم لنا مسبقاً كل ما نحتاجه للرحلة، أنهم -وبتفاخر لا ضرورة له- لن يبيعوا لنا بعد الآن. لقد فكروا بلا شك، ملاطفة الضمائر غير المرتاحة، التي أمضت الليل تتأمل في إعجاب أداء يوم طيب، أو لعله لا أكثر، ربما إشارة استرضاء لمحرض دعا لمقاطعة غير ناجحة. على أية حال، كانت لدينا رغبة ضئيلة للبقاء بينهم مثلما كانت لهم الرغبة، لتعطيلنا. دعانا رجال الأمير إلى إفطار ممتاز من الرز والتمر، وبعدها قمنا بوداع مضيفينا الكرماء وامتطينا دوابنا للمرحلة التالية من رحلتنا.

مررنا بأطلال حويل[١] أثناء سقينا للجمال في طريقنا عند بئر مغيرة، حيث كما يقول دليلنا إن مجموعة من الباحثين قد اكتشفت كنزاً مخبئاً من النقود في السنة السابقة. توقفنا لبرهة عند بركة مياه أمطار تقع بين بلدتي آل معني وآل عويمر لملء قرب الماء وسرعان ما أحاط بنا جمهور من أناس مسالمين فضوليين من بينهم

(١) حويل: هضبة صغيرة تقع حالياً جنوب إدارة التعليم بوادي الدواسر. (ابن جريس).

عدد من السيدات الجميلات الجريئات إلى جـانب مجموعة أطفال مزعجين. صعد إلى وسط هذا المسرح سريعـاً جندي سابق في الجيش النجدي، عاد لتـوه من فترة خدمـة في جدة، حـيث لم يكن فـقط معـتاداً على رؤية الأوروبيين بل سـبق له معـرفتـي شخصـياً. كـان من الواضح أنه فـرح باللقاء الثـاني بيننا وقـام زملاؤه القـرويون، لتخـفيف فظاظة المدن الكبـيرة، بتـوديعنا وداعاً عـاطفيـاً من أطراف الوادي. كانت آخر مستوطناتها، الفرعة إلى يميننا، حين دخلنا سهل حزم الطيني، الحصوي، الواسع، متجهين ناحية الروابي المبعثرة التابعة لبني مصيقرة وبني سرّان.

تسمى الصحراء من هنا، وإلى وادي بيشـة، «المهمل» تمتد طريقنا فوق أرضية حجرية من فتات صخر رملي تتخلله على مراحل خطوط أو تجمعات رملية، تنمو عليهـا بعض من شجيـرات وحشائش صحـراوية مثل النصي والعلقاء خـاصة في الدروب الرملية، كـما ينمو الرمـث والعرار في ترب أخرى مع مـشاهدة الضب، مستلقية في حرارة شمس ما بعد الظهـر، وانطلاقة أرنبة برية من شجرة، يلاحقها -بلا فائدة- كلبان من كـلابنا السلوقية، أحد هذين الكلبين «عقفـاء» جاء معنا من الربع الخالي، بـينما انجذب الآخـر، وهي كلبة بيـضاء جمـيلة، في بلدة اللدام، وصل كلاهما إلى مكة مـعنا، ولكن الظروف المتغيرة هناك لم تـناسب أياً منهما. مات «قطنة» العـام التالي خلال غـيابي في انجلترا لقـضاء الصيف، بينمـا جذبت «عقفاء» زوجاً جميلاً من جنسها لتكون إقـامته معي، ووضعت ستة جراءٍ جميلة، أطلقت عليـها أسـماء مـختلفـة لآبار الربع الخالي، قـبل توزيعهـا على أصـدقاء مختلفين فـي جدة. ماتت عقفـاء عام ١٩٣٥م، أثناء غيابي بعـد إجهاض بدا أنه مفاجئ وحطم صـحتها تماماً. وحاول زوجهـا ضبيان، عزاء نفســه، بعد أن سلبه الموت زوجه، بالخروج في استـكشافات ليلية ذات طبيعة كـريهة إلى أن التقط عن

قصد قطعة من لحم معالجة، بمادة الاسترخنين ومات، وبعد سلسلة من التشنجات العنيفة في وجودي. إنه ليس من الأشياء الحسنة الاحتفاظ بكلاب الصيد في المناطق الحضرية، لأنها لن تكون أبداً سعيدة وستعتاد على اكتساب عادات سيئة مثل البحث عن الطعام.

انجرف مجرى الوادي، تدريجياً، عن مسار طريقنا ناحية الغرب، ومن خلفه رمال نفود الدحي[1]، المرصع بالقمم وأحياناً بالمرتفعات والسلاسل الجبلية، ويمكن رؤية جبال الهضب خاصة، والتي قد رأيتها في عام ١٩١٧م، من ناحية الشمال وعلى فترات ومن على بعد، ربما تكون من حجارة رملية حمراء، كما قال دليلنا، الذي يعرفها جيداً، لأنه خدم خلال الحرب العظمى في العلا، على خط سكك حديد الحجاز، فهي في مظهرها العام شبيهة جداً بالصخور، أو الجروف في ذلك المكان، ومثلها، فإنها ممتلئة بالكهوف. ولم يقترح أن هذه الكهوف قد أقيمت بفعل إنساني. كان المنظر الهندسي متموجاً قليلاً على اليسار، وهو عبارة عن خلاء صخري، مع وجود مرتفعات منخفضة من حين لآخر وهضبات مرتفعة. كان وقت ما بعد الظهر ساخناً كما يتمناه المرء، وكانت العلامة الوحيدة الأخرى، في ذلك الخلاء لوجود إنسان خلال مسيرتنا، هي رؤية مجموعة من تسع جمال، أمامنا، جاهدة نحو الغرب، يظن حسن أنهم قد يكونون أصدقاءه العائدين إلى تثليث، ولكننا لم نتحقق من تعريفه لهم لأننا توقفنا عند الساعة الخامسة مساءً في حمى شجرات سمر، على مسافة أقصر قليلاً من موقع العلامة المميزة لبلدة أبرق المقاريب[2]، بينما تكون الفرقة الأخرى قد واصلت سيرها خلال الليل البارد.

---

(١) نفوذ الدحي: منطقة تقع شمال وادي الدواسر بحوالي (٢٠٠) كم تقريباً. (ابن جريس).

(٢) وهذه البلدة تقع جنوب غرب وادي الدواسر. (ابن جريس).

تتبع قبيلة قحطان جنوب بيشة، أميرها مترك بن عشق بن شفلوت الذي تتمركز رئاسته في منطقة تثليث. كان فيصل بن حشر من أشجع الفرسان القدماء في شمال قحطان في هذا الوقت، وقد كان لمدة طويلة من المساندين الأساسين، والأصدقاء الشخصين للملك. والذي مات -لأسف الملك الشديد- أثناء قيامنا بهذه الرحلة. ورث ابنه خالد -وهو شاب لطيف، وعلى وجهه ندوب الجدري، وله أنف معتدل بارز- كل الألقاب التي كانت لأبيه وانضم إلى رجالات الحاشية. بدأ النفوذ لرؤساء القبيلة المؤثرين يتضاءل بسرعة خلال هذه الأيام كلما امتدت إدارات الحكومة المركزية لتغطي كل الدولة.

صحونا مبكراً قبل فوات الأوان بعد قضاء ليلة باردة بالمعسكر، انخفضت فيها درجة الحرارة إلى (٥٥) درجة فهرنهايت، وتحركنا قبل الساعة السادسة صباحاً ونحن نسير على مسافة قصيرة وقمت راجلاً بقطع المسافة القصيرة التي تفصلنا عن سلسلة أبرق المقاريب المنخفضة. شاهدنا على الطريق آثار ذئب كان يدور حول المعسكر أثناء نومنا. جلست على ركام من الحجارة على القمة الجنوبية أطيل النظر لمنظر الخلاء الصخري وإلى الكثبان الرملية للصحراء، وإلى الجبال المحترقة حولنا، في باكورة صباح أول يوم بارد صافٍ من أيام الربيع (٢١ مارس)، تهب خلاله نسائم شرقية. يبعدنا هذا الموقع حوالي (١٩) ميلاً من منطقة وادي الدواسر التي -بالطبع- لا نرى منها شيئاً. برزت على البعد، من ناحية الشمال الغربي كتلة جبال الهضيب، معلّمة الموقع الأول لحوض حجلة المختمية[١] العظيم الذي تصب

(١) حجلة المختمية تسمى أيضاً (هجلة المختمية) وهي تقع في الجهة الغربية لوادي الدواسر. (مقابلة مع مبارك محمد الدوسري، طالب الدراسات العليا في قسم التاريخ، جامعة الملك خالد) (ابن جريس).

فيه أودية عظيمة مثل تثليث، وبيشة، ورنية، كل مياه سيولها متى وجد فيها ما تصبه من الماء. يمتد من ذلك الموقع ناحية الشرق نفود الدحي الواسع، إلى الشمال من وادي الدواسر. وتشمخ من هنالك إلى نقطة الشمال، كأنها ناهضة من خلاء رملي، كل من السلسلة الضخمة للسوادة، وهضبة الدواسر الجمبة. وإلى الخلف، وشمال الجمبة برزت كتلة العُبيد السوداء وعلى يمينها جبل صبيحاء بينما شمخت هضبتا مريكيز السوداوان كحارسين في وسط كثبان برسع الرملية في خلاء الدحي.

يقع ناحية الشرق ذلك السهل المنبسط الذي عبرناه بالأمس، بينما اكتظ الوتر الممتد من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغربي بخليط من تلال صخرية وهضاب بني مصيقرة، مرتبة في خطوط ثلاثة من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، تبدأ على بعد حوالي ميل واحد وتتجه نحو البعيد مع أرض مرتفعة بعض الشيء ناحية الجنوب الغربي من موقعنا، كما ظهرت أجزاء من جبل جويل بعيداً إلى الخلف، ناحية الجنوب، وتقع إلى الخلف من بني مصيقرة، ويلي ذلك، إلى الجنوب والجنوب الغربي، تل المسماة المزدوج مع وجود ركام من حجارة على قمته تتجه إلى أسفل، حيث السهل الرملي العريض الذي يحمل الاسم نفسه، والذي يصرف كل مياه هذا الجزء من ممر المحمل ناحية الجنوب الشرقي، حيث ممر الفاو الذي يخترق جبال جنوب طويق. وتخترق سلسلة بني سنامة من هذه النقطة إلى الجنوب الغربي، مع وجود جبل أم خرق(١) الذي يمتد في وسطها من جانب إلى آخر، بواسطة سمة كهفية مدهشة، اشتق منها اسمها، وأخيراً يعترض طريق

(١) أم خرق: جبل يقع بالقرب من سلسلة جبال بني سنامة بوادي الدواسر. (ابن جريس).

تقدمنـا، وفي اتجاه غربي، توأم جـبل الجزلاء الذي يسـمى أحدهمـا «البيـضاء»، والآخر «السوداء»[١].

امتطينا، أنا وحسن، دوابنا مع بقية الفرقة، بعد هبوطنا من الركام إلى السهل على الجانب البعـيد لأبرق المقاريب. نواصل مسيرتنا فوق سـهل رملي من صخور رملية حمراء إلى جانب مساحات رملية مبعثرة، ينمو فوقها قليل من عشب الثمام وبعض شجيـرات من الرمث، وتحلق فوقها أعـداد كبيرة من فـراشات الكبريت، وفراشة السيدة الملونة. وامتد أمامنا بعـد فترة شريط كوارتزي، من مجموعات من الحجارة الرملية الصعبة، ثم اخترقنا عـلى بعد ستة أميال من أبرق المقاريب مجرى الموسامـه الواسع الرملي، لندخل المنحدرات السـهلة ولكنها وعرة بالنسـبة لأرض الجزلاء.

سرعان ما توقفنا، بعد ذلك، عند مجموعة من أشجار الطلح لتناول الطعام، تكوَّنت وجبتنا من تمر وخـبز، تم طبخها بغـير عناية في رمل ورماد[٢]، مع قهوة وشاي ومشـروب القشر اللذيذ الذي يعـمل من قشور البن، مع نكهة الزنجـبيل أو القرفة. خلدنا للراحة لفـترة وجيزة تحت ظلال شجرة السمـر. كان الجزلاء منطقة منخفـضة، متـموجـة، ذات قمم سود من صـخور تشبـه الإردواز، متـرتبة على حافاتها إلى أعلى، مع منخفضات متكررة. يوجد بئر غزالة[٣] -كما أشار حسن-

---

(١) جبل الجزلاء، يبعد حوالي (٦٠) كم غرب جبال بني سنامة ببلاد الدواسر. (مقابلة مع مبارك الدوسري) (ابن جريس).

(٢) وهو ما يعرف بقرص الرماد أو بالقرص فقط، وأحياناً يطلق على هذا النوع من الطعام خبز (الملة). (ابن جريس).

(٣) تقع هذه البئر على حدود قبيلة الدواسر مع سبيع من جهة الغرب، وتسمى حالياً (الشقيب). (ابن جريس).

بعيداً ناحيــة الجنوب الغربي، حفره منذ القديم، رجال قــبيلة الدواسر، وذلك عند الحدود الجنوبية لسلسلة الجزلاء ولكن تعــرض للتخريب بعد ذلك بواسطة لسلوم. ونضب هذا البـئر منذ ذلك الحين بمياهــه المالحة التي كانت -في أحــسن الظروف- توجد عنــد عمق أربع إلى خمس قــامات مــثل بئر جــرير الجنوبية الواقــعة خلف مرتفعات جبجب التي تقع ميــاهه المالحة على عمق ثماني أو تسع أقدام. لا توجد بئر أخرى في ممر المهــمل الذي لا يوجد فيه ماء الآن، فــهي أرض لا يملكها أحد من البشــر تقع داخل حدود الدواســر، ولكنها مكشــوفة دوماً للسلــوم الذين يمتد نطاقهم من خلفها إلى نجران البعيدة.

يقال إن سلسلة جــبال بني سنامة -كمــا أشرنا من قبل- تشكل كتــلة واسعة تبدو ظاهرياً كأنها من حجارة رمليــة، وتمتد جهة الجنوب الغربي إلى جبل الكلاب ووادي شهمة أو الشهمة المرتة حيث يوجــد مرعى الحمض الجيد للبدو. توجد بئر مريغان قريباً من هذا الجبل، وعلى بعد مــسيرة يوم واحد (حوالي ٣٠ ميلاً) إلى ناحيــة الجنوب الغربي، وتعــد هي وشهمــة نفسهــا، وجبال الكلاب، ومــا يحيط بهــما، جــزءاً من سلسلة جنــوب قحطان. تعــد بالمثل كل من ســنامة، وجــويل، وجزلاء، تابعة للدواسر، وتجرى الحدود بين القبيلتين من جبال الكلاب عبر وادي شحمة وعلى امتداد سلسلة جبجب التي نتوقع أن نصل إلى أجزائها الشمالية هذا اليوم.

اتجهت الرياح ناحيــة الجنوب، وكانت دائماً لطيفة مع زخــات عنيفة من حين لآخر، بينما كنا نــواصل مسيرتنا فوق هضــاب واضحة المعالم من جلامــيد سوداء تقود إلى ســهل تنمو عليه أشــجار السمر، مع تلال بــارزة على جانبنا الأيمن إلى مسافة معقولة. حل الحصــى الناعم المشوب بكوارتز سريعاً محل الصخر والرمل.

وتقع على يسارنا ناحية البعيد سلسلة جبال سنامة ويتجه كهفها ناحية الجنوب تقريباً، بينما كونت فجوة رملية تسمى الناصفة البقعة الوسطى لمسافة أربعة أميال إلى جنوب الجنوب الغربي. ويجرى الخط العام للجناح الشمالي، لكل السلسلة، من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تقريباً. تحدثنا أثناء مسيرتنا، عن الجفاف الطويل الذي حل بأرض المهمل طيلة اثني عشر عاماً أو يزيد. لم تشهد هذه الأرض أمطاراً منذ ليلة السيل العظيم لعام ١٩١٧م، وحتى جاء عام ١٩٣١م وعام ١٩٣٢م عندما هطلت في وادي تثليث أمطار غزيرة. أشار حسن ناحية غرب الجنوب الغربي، وقال إنه توجد هناك أول مزرعة للبن في جبل حرملة في عسير، ولكن لا تزداد الأهمية إلى بعد التعمق جنوباً حيث جبل خولان وجبال وادعة إلى الشرق منه. كان التساؤل الذي يدور حول حقوق السيادة في هذا الوقت لتلك المقاطعة البعيدة، في مقدمة الأولويات السياسية في الجزيرة العربية، وقد فرض ابن سعود سياسة الأمر الواقع بتثبيت سلطته في نجران. ولكن خلال عامين فقط بعد ذلك، أثبتت اتفاقية الطائف (مايو ١٩٣٤م) مطلب السعوديين وأصبحت هذه المنطقة المنتجة للبن، داخل الحدود المتفق عليها للمملكة العربية السعودية.

دخلنا مرة أخرى أثناء سيرنا إلى منطقة ذات هضاب وتلال داكنة، أحاطت بنا من الجانب الأيمن، وقد انتشرت في أنحاء السطح المتوج للبلاد الذي تعترضه سلسلة منخفضة وقطع من صخور زرقاء مسودة، تكاد تكون بازلتية، علماً بأنها قد تكون، على أكثر الاحتمالات، صخور رملية متحوّلة. كانت هذه السلسلة تسمى البراعيم السود وكان سوادها لامعاً بدرجة كبيرة. كانت الحجارة في مواقع أخرى في لون الزيتون الأخضر المطفي، وقد نحتتها الرياح في نعومة في حجم وشكل أيدي الهاون. كانت بلاداً غريبة، ميتة ذات لمعان، فوق كل شيء يمكن أن

يقف في وجه الرياح المحملة بالرمال. لا يمكن رؤية أية كائنات حية أثناء حرارة النهار، ما عدا الفراشات، وفي مجموعات صغيرة حول الشجيرات والجنبات التي مررنا بها. غير أنه توجد آثار هنا وهناك للظباء والحبارى. تسيل مياه كل هذه المنطقة إلى أسفل، ناحية الجنوب، إلى الجانب الشمالي من وادي بني سنامة الذي -على امتداده- يجري إلى وادي شعيب جبجب، ومنه إلى أسفل إلى وادي شهمة. ظهرت إلى يسارنا وعلى مسافة غير بعيدة، هضاب برقا القطف[١] وهي صخور داكنة، نصف مغطاة بالرمال المتحركة، وذلك أثناء اقترابنا من الجانب البعيد لجبل الجزلاء، وكان الطريق غير ملائم.

مررنا عبر سلسلة جبلية تلو الأخرى، ومع ظهور علامات باهتة لنباتات الربيع في المنخفضات التي بين هذه السلاسل، إلى أن نفدنا آخر الأمر إلى خارج الجزلاء، إلى حيث السهل العريض المسطح المنحدر في لطف ناحية منخفض شعيب جبجب يدعمه شريط تلال منخفض (بني جبجب) يعبر من الشمال إلى الجنوب. يقع رأس هذا الوادي بعيداً إلى الشمال، في بلاد المهمل في جوار جبل يفيخ البارز المزدوج الرأس، والذي بدا لنا إلى الشمال. توقفنا هنا برهة لأداء صلاة العصر، وأنعشنا أنفسنا بمياه أمطار ممتازة البرودة، وجدناها في بركة صخرية بواسطة أحد أفراد المجموعة.

كشفت سلسلة جبجب أنها ذات كثافة قليلة، وأن صخورها ذات لون أخضر عام، وهو المظهر الملحي الذي لوحظ في وقت مبكر من هذا اليوم. وجدنا أنفسنا

---

(١) برقا القطف: تقع جنوب غرب وادي الدواسر. (ابن جريس).

فجأة -ولدهشتي- في الحوض العريض الرملي لوادي تثليث نفسه، حيث قررنا أن نعسكر تلك الليلة. إنه بلا شك موقع يستحق الدراسة بعناية. وينهض إلى جوار معسكرنا على الجانب الأيمن للوادي رابية مناسبة لونها غريب إذ هو أخضر مسود، ترتفع إلى (٥٠) قدماً، تسمى أبرق تثليث. واصل زوج من العقبان وعدد من آكلات النحل - وقد شاهدنا هذه الأشياء أيضاً في وادي الدواسر - البحث عن الطعام برغم تطفلنا على خلوتها. وقبل ملاحظتي لجرادة منعزلة، كان حسن قد أخبرني أن مستوطنات تثليث قد هاجمتها أسراب الجراد في الخريف الماضي، علماً بأنه لم تظهر أية علامة للجراد بعد ذلك. كان عرض مجرى الوادي في هذه النقطة حوالي (٥٠٠) ياردة، وكان بطن الوادي ممتلئاً بالعديد من أصناف النباتات كان من أبرزها الغضى الرشيق، بينما كانت نباتات الحمض والعشرق والرمث في وفرة أيضاً. لقد غطينا الآن حوالي (٤٧) ميلاً، منذ أن غادرنا قرى وادي الدواسر.

إن وادي تثليث، الذي لم تطأه قدم أوروبي من قبل، هو واحد من أودية غرب شبه الجزيرة العربية العظيمة. وهو أقصى الأودية الجنوبية، التي تلتقي في حوض حجْلاَ - أو حجلة المختمية لإكسابها اسمها المحلي الكامل[1] -، أسفل مرتفع الهضيب البارز، لتكون وادي الدواسر. قيل إن هذا الحوض يمتد على مسيرة يوم واحد في اتجاه أسفل الوادي، من معسكرنا، أو أكثر قليلاً، لنقل حوالي (٣٠) ميلاً. ومن قمة تل أبرق يمتد الوادي بزاوية عشر درجات ناحية الشمال

---

(١) وكما أوردنا في حاشية (١) ص (٤٦) أنه يطلق عليها أحياناً (هجلة المختمية) بدلاً من (حجلة) وكلاهما صحيح؛ ولهذا فلن نعدل كلمة هجلة أو حجلة في الصفحات القادمة، وإنما نتركها حسب ورودها. (ابن جريس).

الشرقي لمسافة أربعة كيلومترات، ويستمر بعدها على انحراف (٢٠) درجة، ثم ناحية الشمال الشرقي، ويكون تل الهضيب على انحراف (٣٠) درجة إلى الشمال الشرقي من موقعنا. والغريب في أمر هذا المجرى أنه إلى مسافة قريبة من معسكرنا يخترق سلسلة تلال بني جبجب نفسها، ويشق طريقه مائلاً عبر الوادي نفسه الذي يصب جزؤه الشمالي عند هذه النقطة إلى تل يفيخ على البعد قليلاً ناحية الغرب من نقطة الشمال، بينما يجرى الجزء الجنوبي إلى شهمة، كما ذكر من قبل.

يبدو أسلوب التصريف معقداً بعض الشيء، عند هذه النقطة، وقد قال لنا حسن أن السهل وقبل السيل العظيم لعام ١٩١٧م، إلى الشمال من موقعنا -مكوناً من وادي تثليث وجبجب - كان في الحقيقة شبكة من كثبان رملية مغطاة بالرمث، وغطاء نباتي آخر، حتى جاء السيل وأزاحها كلها، وعلى أية حال، وكما شاهدنا، فهناك شريط طويل من غطاء نباتي يحدد خط وادي تثليث إلى عمق بعيد، بينما يظهر القسم الشمالي لمنخفض جبجب وكأنه لا شيء غير سهل عارٍ مسطح تظهر عليه بعض الروابي وقمتان عاليتان لبني ضلعان ناحية الشمال الشرقي، ومرتفع يفيخ الكبير ناحية شمال الشمال الغربي. تقع بئر مستجد في مجرى جبجب، على مسافة أربعين ميلاً، إلى شمال الشمال الغربي من معسكرنا بينما تقع بئر رديجة، على بعد حوالي عشرة كيلومتراً على المجرى نفسه. وتقع على مسافة عشرة كيلومترات، إلى الشمال الشرقي من رديجة، بئر هتيم في الجزء الشمالي من المهمل. بينما تقع بئر العرجان على بعد عشرة أميال إلى الشمال من بئر المستجد ولكن في صحراء المهمل.

يبدو وادي تثليث بالنظر إليه ناحية الجنوب تجاه أعلى الوادي، كأنه ينحدر بزاوية (٢٠) درجة إلى الجنوب الغربي، إلى مسافة كيلومترين ثم ينحني في لطف،

ناحية الجنوب، بين روابٍ منخفضة سوداء، بعـضها تكسوه الرمال حيث يقف بينها تل الحضا شامـخاً على بعد ستة أميال على الجـانب الأيسر من المجرى. على حين يقف تل بجاد على مسـافة أقرب من ذلك تبلغ ميلين، أما تل بجيـد فهو على بعد ميل ونصف الميل. وهما كل مـا يمكن تمييزه من علامات لأميـال وأميال. بناءً على ما أورده حسن، فإن أقصى القرى الشمـالية التابعة لمحافظة وادي تثليث هي قريته، الكهيف وعلى بعد (٤٠) كم إلى الجنوب من موقعنا، توجد بئر بزيز عند منتصف المسافة إلى قرية الكهـيف، وتقريباً في الاتجاه نفسه. وقرية الكهيف حـديثة نسبياً، تأسست حوالي ١٩٢٠م بصفتها معسكراً للإخوان. ويقع عدد من القرى فيما وراء هذه القرية وتجاه أعلى الوادي وممتدة في اتجاه جنوب غربي، تابعة لقحطان بالترتيب التالي: النقـرة ورئيسهـا ابن عبـود؛ المدينة وبالقرب منها بئـر الرين التابعـة لقسم المشاعلة برئاسة ابن حسون، ويبدو أنه رئـيس كل هذه القرى، وجاش التابعة لقسم المسـاردة، مع بعض التلال ناحـية الغـرب تسمى وجـر الحمـر وتحتـوي على برك صخرية مائية عـديدة؛ والصبيخة[(١)]، مقر ابن شفلوت من عبيدة أو القسم الرئيس لقحطان الجنوب؛ طريب ويحكمها ابن عادي أحد زعـماء قبيلة عبيدة[(٢)]؛ والعرين التابعة لقسم الحرقان[(٣)]، وأخيراً الحمضة التابعـة لقسم مكثرّ. كما قال حسن، إن

---

(١) الصبيخة: مقر ابن شفلوت شيخ شمل قبـائل عبيدة قحطان، أما عبارة «القسم الرئيس لقحطان الجنوب» فهـذا غير صـحيح؛ لأن في قحطان الجنوب قـبائل رئيـسة أخرى مثـل: رفيدة، وبني بشـر، وسنحان، وشريف وغيرها. مقابـلة مع سعيد بن جغشر أحد طلاب الدراسات العليا بقـسم التاريخ، بجامعة الملك خالد (ابن جريس).

(٢) طريب: تسكنها عدة قـبائل ينسب أغلبها إلى آل الصقـر من عبيدة، ولهم مشائخـهم، ولم يحكمها في وقت زيارة فيلبي ابن عادي المذكـور، والصحيح أن آل عادي قسم كبـير من قبيلة الجرابيع، والرئاسـة فيهم، بل في أسرة آل طمسان الذي يطلق على الواحد منهم ابن عادي. مقابلة مع سعيد بن جغشر (ابن جريس).

(٣) العرين: يعرف بعرين بلاد قحطان، ويضـم العديد من فروع وفخوذ قبائل عبيدة، ويمثل الحـرقان بها نسبة (٧٠٪) من السكان. انظر: محمد بن سعيد النهاري. **العرين بلاد قحطان ماض وحضارة**. (الرياض: مطابع الفرزدق، د. ت) ص ٨٢ وما بعدها (ابن جريس).

امتداد هذه القـرى في الوادي من النقرة إلى الحمضـة هو حوالي رحلة يوم ونصف سيراً على الأقدام، ربما حوالي (٣٠) ميلاً أو أكثر. يمر الطريق الرئيس من أبها إلى نجران، والذي أصبح عـملياً نتيجـة لحركة العربات منذ حرب ١٩٣٤م، عـبر واحة تثليث عند طريب ثم يجـري إلى الحمـضة وهكذا إلى الحصـينية على حـافة وادي حبونا.

تحدث حسن عن أهـالي قرية المشاعلة ذاكراً بأنهم أحـسن القحطانيين في فن قص الأثر[١]، وضرب مثـلاً بإبل ضاعت وأعادوها من مناطق بعـيدة، مثل وسط نجد، أو حتى بعد فتـرة ضياع امتدت (٢٠) عاماً. يميز القحطـانيون الشماليون من عبيدة في الجنوب بالاسم العام الجحادرة[٢]، وكان شيخهم الأكبر خليل بن ناصر ابن عمـر، يتمـركز في هجـرة الإخوان التي تسـمى «الرين» في جـوار القويعـية والرويضة. لقد أشرت مـن قبل إلى فيصل بن حشر، ومراكـزه في منطقة الخرج، والذي تحولت أعباؤه إلى الحفيد محـمد بن سحمي وهو رجل في متوسط العمر، له عينان تـطرفان في لمعة لم أر مـثلهمـا في الجزيرة العـربية. كان فـيصل نفـسه شخـصية فوق العـادة، وأذكر أنه، أخبـرني أنه لم يشرب الماء طول حيـاته. كان شرابه العـادي هو الحليب، أما القهـوة والشاي كرفاهيـة. أخبرنا حسن أن سـعر تكلفة الزواج عند قـحطانيي تثليث كان حوالي (٣٠) ريالاً بينما في مـدن الحجاز يصل ذلك إلى حوالي (٣٠) جنيها ذهبياً.

---

(١) ما ذكر عن أهالي قرية المشاعلة في قص الأثر صحيح ومعروف على مستوى بلاد قحطان. (ابن جريس).

(٢) كان الأفضل إيراد الجملة بهـذه الصيغة لتكون صحيحـة علمياً: «الجحادرة فرع كبيـرة من قبيلة سنحان، إحدى قبـائل قحطان، وعبيدة فـرع آخر ليس له صلة مع الجحادرة إلا في انتـسابهم جميـعاً إلى قحطان القبيلة الأم». (ابن جريس).

قمنا بتقويض معسكرنا عند الساعة السابعة والنصف في اليوم التالي بعد أن شاهدنا كل ما نود رؤيته من منطقة تثليث من هذا الموقع، وعبرنا الوادي إلى منطقة تليه تشكل سلاسل ومنخفضات في تتابع متبادل. ويبدو أن المنخفضات قد حملت جزءاً كبيراً من سيل ١٩١٧م لأن بطونها ممتلئة ببقايا ركام، يحتوي على قطع عديدة من جذوع النخل، حملها السيل من المناطق الواقعة في أعلى الوادي. وجدنا أجزاء من بيض النعام عند عبورنا إلى ما وراء الحدود الشمالية للسيل، كانت ملقاة على ممر هضبة منخفضة يكسوها الرمل حول تل بجيد الذي سرنا على حافة جانبه الشمالي لنصل إلى سهل حجري رملي متداخل بين تلال سود منخفضة غير متناسقة المنظر، وإلى ممر نفود معتبر اسمه «عريقات البجاد» - يقع التل الذي يحمل هذا الاسم إلى حوالي ميلين إلى يسارنا وخلفه على مسافة تل الحضا - أو باختصار العرق. بدأت هنا نباتات العلقا الخضراء في الظهور في قوة وأصبح السهل رملياً أكثر، كلما اقتربنا ناحية الكثبان، والتي دخلناها بالفعل بعد مسيرة ستة أميال تقريباً من موقع معسكرنا الليلي، بدأت الأزهار الصغيرة الربيعية في الظهور فوق السطح في كل مكان نتيجة للأمطار الأخيرة، ولكن إبلنا سارت فوقها في تكبر متجهة ناحية الشجيرات الكبيرة الصحراوية الجافة. كان أكثر النباتات وفرة هو البقل التي تشبه كثيراً الزهر الموجود في الربع الخالي، وربما كان هو نفسه، ولكن تحت اسم مختلف.

ظهرت، عند هذه النقطة، الحافة الشرقية، للدرب الرملي للعرق من جهة الجنوب وتمتد ناحية الشرق، إلى مسافة ثلاثة أميال، قبل مواصلتها الاتجاه إلى الشمال. برزت بوضوح شجيرات الغضى من بين الكثبان بينما، من حين لآخر، تظهر شرائط أشجار الطرفاء الخضراء معلمة المجاري الصغيرة التي تقوم بتصريف

المياه إلى مجرى تثليث. ويصبح النفود على الحافة الغربية أكثر صعوبة ويبلغ عرضه خمسة أميال على خط مسيرتنا، وكانت المجموعة الأخيرة من الكثبان، متتابعة بعضها البعض، مع وجود مجارٍ عميقة بينها، مما يسبب محنة قاسية على جمالنا مع ارتفاع درجة حرارة الظهيرة. يوجد فيما وراء الرمال سهل واسع، منبسط، يكون حينا رملياً وحيناً طينياً مع وجود -من حين لآخر- حجارة مبعثرة وحصا أحمر أو رمادي أو أخضر من الجرانيت مختلطاً مع كتل صخرية شاخصة على هيئة القبب أيضاً من جرانيت مماثلة لما يمكن رؤيته في سهل الدوادمي على البعد ناحية الشمال. ويحف هذا الوادي شريط العرق الذي يتباعد تدريجياً عن طريقنا، تجاه الجنوب الغربي حيناً وتجاه الجنوب الشرقي حيناً بالتوالي، بينما يوجد أمامنا على بعد، خط طويل لجبال سوداء مكونة قاعدة المثلث. لا يوجد اسم محلي لهذه السلسلة، ولكن يعد كل قسم منها وحدة قائمة بذاتها، ابتداءً من الكتلة الجبلية لأبي نعمي[1] في أقصى الجنوب، وقائمة إما على حافة وادي تثليث، أو في أحد روافده، بالقرب من المستوطنات الواقعة أكثر ناحية الشمال. يأتي بعد ذلك وبالترتيب، تجاه الشمال سلسلة جبلية طويلة تسمى جبال الشنخاب مع سلسلة حُبي، حيث يوجد بئر حبية إلى جانب قمة بارزة تقع إلى الجنوب الغربي من موقعنا.

أما جهتنا الغربية فقد كانت مغطاة بتلال بني شاحطة ومرتفعات شوحطة التي تنتهي بقمتين واضحتين، بينما إلى الشمال يمتد جبل الصخرة إلى نقطة تقع على الشمال الغربي من موقعنا. تمتد أصابع من رمال مبعثرة من النفود إلى الخارج داخل السهل على كلا الجانبين، وتنتهي إلى امتداد منخفض مسطح، يقوم بحمل تصريف مياه الجبال ناحية الجنوب إلى تثليث.

---

(١) أبو نعمي: من جبال تثليث المشهورة. (ابن جريس).

يقع مسارنا -بالطبع- فوق سهل مسطح ميت، يبدأ تدريجياً بالتحول إلى سطح حصوي، مع بعض الأحواض الضحلة من حين لآخر، ذات الغطاء النباتي الطازج، كنا نسمح لإبلنا برعيها. توقفنا في أحد هذه الأحواض لمدة ساعة لتناول وجبة الغداء بينما تركنا الإبل تستمتع «بالشمعة» أو الأعشاب الموسمية، التي كانت في أغلبها نبات الحمص الذي يبدو كأنه جاف جداً. لم تكن وجبتنا بحق أكثر فاتحة للشهية، فهي مكونة فقط من التمر، إلى جانب الصنف العادي من المشروبات السائلة المنعشة. كان كل من زايد ومحيميد صائماً هذا اليوم، لقضاء عدة أيام أفطراها في رمضان وقد صاما قبله اليوم السابق أيضاً، وقد كان حسن دليلنا في رفقتهم. كما قد أعلن بعض أعضاء الفريق أنهم سيقومون بقضاء أيام رمضان حينما يصلون إلى رفاهية مناطق الحضارة. انهمك أولئك الصائمون -لقضاء الوقت- بمعالجة أقدام بعض الجمال، والتي بدأت تحس بتأثير الأرض الصخرية التي طرقناها منذ البداية من وادي الدواسر. يسمى الدواء الذي كان يستخدم في علاجها (بالصبر) يبدو أنه يستخلص من لحاء أشجار الطلح التي توظف أيضاً كقابض لبعض أوجاع البشر.

واصلنا مسيرتنا عبر طرق الجمال العديدة المتجهة إلى بئر حبية التي يقال إنها على بعد عشرة أميال ناحية الجنوب الغربي، وتقع هذه البئر بين وادي شنخاب وحُبي. وقد توقفنا أثناء مسيرتنا عبر السهل لأداء صلاة الظهر والعصر جمعاً. كان العرق هنا على بعد ميل واحد فقط على يسارنا، وثلاثة أمثال ذلك على يميننا، بينما بدأت الجبال من أمامنا، وهي الآن قريبة، سلسلة جبلية ضخمة واحدة تمتد من الجنوب نحو الشمال. بدأ سطح السهل يتحول تدريجياً نحو الخشونة كلما

اقتربنا من المصـرف الضحل الذي يجري إلى الأسفل على امـتداد السلسلة كلها. تكررت فيه آثار وجود الظباء برغـم أننا لم نر حيواناً واحـداً. كان الغطاء النبـاتي -على أية حال- وافراً تتخلله وبوضوح شجيرات السمر وعشبة الثمام. إنني وبقدر ما أستطيع القول: إن هذا الوادي ليس له مخرج لأن جـانبه الجنوبي تعترضه رمال العرق؛ ولهذا فهو يفيد كمقر للماء وتكوين منطقة رعي مستديمة.

تنجرف السـيول إليه من التلال والهـضبات البـعيدة وفي أودية رملية شـبكية شبـيهة بالمروحـة. تقدمنا بحثـاً عن موقع مناسب نقضـي فيه تلك الليلة. انتـشر الأعراب في اتجـاهات مختلفـة، بحثاً عن مـوقع رعي مناسب، وما هو إلاَّ وقت قصير حتى تصايحت كل مجموعة منادية البـقية لتتبعها إلى المراعي المثالية. وأثناء الفوران غـير المنضبط الذي نتج تبعـاً لذلك؛ فقد تتبـعتُ خطى زايد ومجمـوعته وترجلنا بعد فـترة في وادي بهيج، يـبلغ عرضه (٥٠٠) ياردة، يقع بين هضـبات بارزة لسلسة شوحطة المخضرة بالأعشاب النجيلية وشجيرات الطلح. تركت الفرقة لتسـتقر فـي المعسكر وسرت حـوالي (٥٠٠) ياردة، لأفحص صـخوراً بارزة من الجرانيت الأحمر، ذات مظهـر مثير للاهتمام، كونت هذه الصخـور دائرة طبيعية، قطرها حوالي (٥٠) ياردة، مكونة من قطع ضخمة ثلاث قطع منها متقاربة مكونة كهفـاً مظللاً يتجه ناحية الجنوب. ولا بـد أنه استخدم من قبل الرعـاة منذ عصور سحيقة وقـد وجدت على أحد جدرانه رسماً بدائياً مدمـراً جداً. يمثل رجلاً راكباً جمـلاً. ارتفعت الـصخرة إلى حـوالي (١٥) أو (٢٠) قدمـاً، ونبتت في ثـبات شجيرات العبل في الشقـوق بين الصخور. وتغطي الموقع مخلفات الأغنام، وكان الكهف وما حوله مأوى لعدد قليل من الخفافيش والسحالي.

كان الطقس لا يزال بارداً ولـطيفاً بلا رياح صـباح اليوم التـالي (٢٣ مارس) حينها واصلـنا مسيرتنا خلال شـبكة من الصخور المتسـاقطة، وخلال تلال مكونة لسلسلة إقليم بني حبي وإقليم شوحطة. يصعب جـداً تحديد شريط فاصل بينهما. وكان دليلنا حسن، غـير قاطع في هذا الأمر. استمر الوادي، الـذي عسكرنا فيه، إلى ما وراء مضيق منخفض للإمساك بالمياه وضخها إلى وادي أصغر يسمى شعيب ختـلان الذي يقع -بصفة عامـة- ممر حُبي إلى جنوبه وتقع شوحطة إلى شـماله. امتـلأت هذه المنطقة ببطون أودية صغـيرة، أشار إليـها حسن باسم ريضـان حبي وكانت الصخور والهضبات، في معظمها ذات لون داكن أو أسود، بازلتي السمة. كانت الجبـال التي تقع فيما يلي سـهل ضيق وراء شعيب ختـلان ذات لون أحمر داكن عميق، ويبدو أنهـا مصنفة ضمن تكوين شوحطة. يجـري السهل نفسه إلى أسفل، على يسارنا ناحية مصب شعـيب دويرة وهو قناة معتبرة، علينا أن ندخلها فيما بعـد، وبرز حاجز العرق الرملي، والذي كان أبرز سمة لمسـيرتنا خلال اليوم السابق. انتـصب إلى البعيد، ناحـية الجنوب، جبل أبو نعمي كـمعلم أرضي بارز ومن خلفه تكوين تلي آخر.

كان الوقت قـد تجاوز التاسعـة صباحـاً بقليل، حينما دخلنا وادياً مـريحاً في وسط جروف حمـر شوحطة، وقررنا أن نتوقف لنتناول الإفطار. انتصـبت أشجار الطلح الضخمة كأهرامات صغيرة مقلوبة مرحبة بنا بظلالها لنتقي حرارة الشمس، وانتشر العديد من أعضاء فرقنا في التـلال بحثاً عن برك المياه، التي قال حسن إنها منتشرة في هذه الأراضي الجرانيتية. وعادوا ومعـهم كميات كبيرة من مياه الأمطار العذبة، بينما رجع حسن الآخر -خر الذيب- بعد مدة من إقامتنا للمعسكر حاملاً

معه صيداً للطهي. فرحنا جداً لرؤية أول ظبي إدمى جميلة وضخمة حاملة بغزال كان كامل التكوين، يبدو أنه كان على وشك أن يولد. أعلن زايد عن نيته الصيام لليوم الثالث على التوالي ولكن رؤيته لحسن وهو يركض خلف الظبي هدّ أركان نيته فالتحق مع بقيتنا في تذوق قطع اللحم الطرية للطريدة التي تم شيها في الرماد، بينما طبخت القطع الأكبر في القدر. كانت شهيتي هذه الأيام -ومنذ أن تخلصت من آثار النزلة المعوية للسّليل- مفتوحة، فإلى جانب الوجبات كنت أحمل معي دائماً خبزاً محمصاً بالرماد لكي أتلذذ بمضغه أثناء مسيرتي. يبدو لي أنني كنت دائماً أمضغ. تواصل توقفنا إلى مدى أربع ساعات وإحساسنا بالرفض وعدم الرغبة لمواصلة السير، جهزنا الجمال بعد جهد كبير لمواصلة رحلتنا. لقد قامت معظم الحيوانات بجهد قليل للحصول على الطعام وظلت حول المعسكر، لعلها مستغربة إن لم تكن قد عادت مرة أخرى إلى الربع الخالي! لقد أثر إجهاد تلك الرحلة على قدرتها على الاحتمال، فهي الآن وعلى بعد ثلاثة أيام فقط من آخر موقع شرب لها، ظمآنة ظمأ يمنعها عن التفكير في الأكل. كانت الحرارة نهاراً عنيفة بالطبع، في هذا الفضاء المحترق من صخور ورمال.

لاحظنا، قبل وصولنا إلى هذا الموقع بقليل، آثاراً حديثة لإبل راعية، تابعة لقبيلة قحطان، ومن ثم عبرت الدرب الواضح المعالم الذي يتجه إلى جنوب الجنوب الغربي من بئر حبية، كان هدفنا الخاص هو الوصول إلى آبار ملح التي تقع في طريق مسيرتنا بصفة عامة، وعلى درب مماثل يقود في ذلك الاتجاه - ناحية جهة غرب الجنوب الغربي-. طاردت كلبتنا العقفاء وبشجاعة وبلا فائدة ظبياً وبدا عليها أنها ممتلئة بالنشاط برغم حرارة الجو. إنها -بالطبع- تحظى من وقت لآخر بالركوب على ظهر واحد من جمال التحميل أو الآخر.

لاحظنا بعد فترة ليست بالطويلة منذ بداية مسيرتنا، بعض الآثار لظبي ريم (أبيض) كما رأينا بعد فترة جملاً منفرداً ضالاً عليه وسم أهالي بيشة. كانت هذه المنطقة -بوضوح- مفضلة لرعي الحيوانات المستأنسة والبرية، وكان هنالك تنوع غير طبيعي للنباتات الصحراوية، ثرية في نموها بصفة عامة، أكثر مما قد توقعنا. مررنا كذلك عبر مناظر مؤثرة لهذه الجبال الحمراء المبعثرة، هنا وهناك، ذات الحواجز السوداء البازلتية. أثرت عوامل التعرية في جانب منها، وحقيقة أدت عملية التعرية بواسطة الرياح والطقس إلى نحت أحد هذه الحواجز حتى برز إلى ارتفاع عدة أقدام، كأنه جدار صناعي يمتد عمودياً على جانب التل من أسفل إلى أعلى.

دخلنا هنا -بالتقريب- في وادي شعيب دويرة، وهو قناة رملية ذات مساحات طينية أو حصوية ينمو عليها في كثافة، نبات الحرمل الدائم الخضرة والذي تجذب أزهاره الجميلة أعداداً كبيرة من فراشات الصخور الكبريتية. تمكنا من رؤية جبال العرق مع اتجاه الوادي وعلى يسارنا، على بعد مسافة ميلين ونصف، ساداً مصب الشعيب والذي نتبعه الآن صعوداً بين ضفتين منخفضتين غير واضحتين. لاحظنا كذلك بعد فترة، آثار سيل حديث جرى في بطن الوادي الرطب، ولكن لا يوجد تجمع لبرك الماء. كما وجدنا بالقرب من المكان نفسه مجموعة من الآبار عددها ست كانت تبدو وكأنها مهجورة منذ زمن بعيد، برغم أن حسن لم يسمع عن وجودها مطلقاً. غطّينا ثلاثة أو أربعة أميال في هذا الممر، والذي قال عنه حسن

---

(١) الميثب: أرض واسعة فيها جبال وهضاب وأودية ومناهل، تقع بين محافظتي بيشة وتثليث، والميثب لا يزال يحتفظ باسمه القديم السبيعي، مواضع بني بيشة وتثليث، نشر بمجلة العرب س٣١، ص٣٨١. (المراجعون).

بأنه جزء من حُبي وليس شواحطة الذي يقع الآن خلفنا. لم يكن رأس المجرى بعيداً حينما برزنا إلى خارجه عند الشاطئ الأيسر، إلى أرض مـرتفعة من هضبات بازلتية ذات حجارة مفككة. لاحظت بعيداً ناحيـة جنوب الجنوب الغربي مجموعة من قمم منعزلة تعرف باسم بني بسقان أحـدها هو زب جلدان اسم يوحي بما فيه الكفاية عن الشكل العام لتل غـريب الشكل. إن أعرابي الصحـراء على استعـداد دوماً لإعطاء أسماء قبـيحة لعلامات أرضه. نحن الآن على موقع يمكن اعـتباره المجمع المائي بين شعيب الدويرة وشـعيب ملح وهو نوع من الممرات يكون بين الهضبات الـبازلتية – وقد غيرنا مسارنا تجاهه ناحية الجنوب أكـثر مع وجود تلال بني بسقان الواقعة أمامنا تقريباً. لقد بدأت تظهر لنا التلال الرقامية السـماقية القرمزية (سماقي) لشعيب ملح نفسه وكان أبرزها أشـعل ملح من الجهة الأمامية وإلى اليمين، وسـرعان ما وجدنا أنفسنا في قنوات متجمعة لمجاري سيل منحدرة من ناحية التلال مكونة نواة شعيب ملح. توجد عـند هذا الموقع مجمـوعة قـبور تغطيهـا الحجارة إلـى جانب نصب تذكارية قائمة على هضبة منخفضة بارزة عند منتصف الطريق، عبر رأس الوادي، كأنها سد لم يكتمل بناؤه.

سـرنا مع المجرى، بعـد انعطافنا بحـدة في اتجاه الشـرق، وقد طوقـتنا على الجانبين هضبات ترسبـية من صخور رخامية وبازلتية، كلهـا تلمع بألوان بنفسجية تتلألأ على ضوء الشمس الغـاربة. ثم وصلنا بعد حوالي نصف الميل، إلى شريط من ست آبار، كلها قـائمة على الجانب الـرملي من بطن السيل، وكلها، مـا عدا البئر الخامسة، كانت مغمورة بالرمـال ومهملة. وقد أمضينا الليلة معسكرين حول البئر العـاملة الوحيدة التي كان مـحيط صهريجـها حوالي عشـرة أقدام عند الجزء الأعلى، وكانت هذه الـبئر مـبطنة إلى مستـوى سطح الماء، ببلوكات من الصـخر

الرخامي البنفسجي نفسه، الذي كان يلاحظ في الهضبات المحيطة. كانت الحجارة عند فم البئر محفورة عميقاً بفعل احتكاك الحبال عبر الأجيال العديدة، لسحب الدلاء. كان الماء عند عمق (٣٠) قدماً تحت سطح الوادي وكانت مالحة بعض الشيء، ولكنها صالحة للشرب. ويبدو لنا من هذا المكان أن الوادي يجري ناحية الشمال الشرقي لعدة أميال، إلى أن يختفي مجراه في متاهة التلال. وينمو على مسافة قليلة من الآبار مع اتجاه النهر، وعلى الجانب الآخر للوادي غابة حقيقية من شجيرات الحرمل، وينتشر معها نبات المرخ وشجيرات الطلح، كما كانت أسراب فراشات الكبريت تحلق في وفرة كبيرة. كان ارتفاعنا فوق سطح البحر عند هذه النقطة حوالي (٤٠٠٠) قدم وكان من دواعي الفرحة لنا أن نجلس في الوادي الرملي، بعد العشاء وتحت قبة السماء الصافية لنتحدث عن الجن والسحرة وهو موضوع تكلم فيه حسن (خر الذيب) باستمرار، مع اعتقاد بليغ كأي معتنق ملزم في الوجود الحقيقي للعالم التحتي شبه الإلهي، شبه الإنساني وللأرواح، وفي مقدرة الخبراء البشريين على طردها.

ذكر حسن القحطاني أن منطقة تثليث تبعد عن آبار ملح بحوالي (٣٠) إلى (٤٠) ميلاً ناحية شرق الجنوب الشرقي. وتقع القرى السفلى لوادي بيشة ناحية الغرب، وتكون مدينة رنية بعيداً ناحية الشمال الغربي. وتبعاً لقوله، فإن مكة تقع حوالي (٢٠) درجة شمال غرب بئر حبية ناحية الشرق على بعد حوالي (١٥) ميلاً أو يزيد.

هبطت بجوار البئر أسراب من القطاة واليمام في الوقت الذي كنا نتهيأ فيه لمواصلة مسيرتنا. مرتدين عكس اتجاه الوادي إلى المقبرة، ومن هناك نمضي ناحية

يسار الطريق الذي سلكناه بالأمس. يبدو لنا أننا كنا نتبع رافداً للصرف، هو واحد من الروافد العديدة لشعيب الملح، أثناء عبورنا عبر التلال والهضبات المنخفضة بصفة عامة. والتحق بالوادي بعد مسافة رافد عريض من ناحية الشمال، من تلال بسقان، ثم استقبلنا بعد قليل منبسطاً عريضاً كالنهر، من ترسبات الجبس، بدا لنا وعلى امتداد طول ميلين كأنه يأتي من جهة الغرب، وفي هذا المكان تقريباً خط حسن الحدود الشرقية للسهل الصحراوي الواسع، وتظهر عليه هنا وهناك تلال وهضبات متفرقة تدعى الميثب[١].

قمنا بحفظ حبارى داخل كيس أثناء مسيرتنا وهذه الحياة الحيوانية كانت شحيحة جداً برغم أن ساعات الصباح المبكرة كانت باردة بشكل ممتع. انتشرت سحب خفيفة في السماء ولم تكن هنالك رياح. وصل المجرى الذي كنا نتبعه، إلى رأس في ركام لشعيبات صغيرة تسمى «السر»، عبرنا بعدها فوق هضبة منخفضة ومن هناك إلى سهل مرتفع من هضبات وقمم مخططة بخطوط داكنة اللون الأخضر، كانت عبارة عن مجارٍ عديدة للصرف. توقفنا في أحدها (شعيب ريضة) من الساعة العاشرة صباحاً إلى الواحدة ظهراً وتركنا الجمال ترعى لتشبع بعد آخر سقيا لها. رأيت في هذا الموقع ثلاثة مسايل الأول عرفناه منذ مغادرتنا الربع الخالي! ولا يبدو أن هنالك حيوانات برغم الثراء الظاهر للمناطق المجاورة، كما كانت شجيرة الوهط المشهورة بأشواكها القوية والكريهة، في وفرة هنا، غير أننا لم نلحظ إلاَّ القليل منها ناحية الشرق.

---

(١) الميثب: ماء لعقيل، وهو واد من أودية الأعراض التي تسيل من الحجاز إلى نجد، ويقع بين بلاد بيشة وتثليث، ولا زال يحمل الاسم نفسه حتى الآن. ياقوت، **معجم البلدان**، جـ٥، ص٢٢١، ٢٤١، فهيد ابن عبدالله السبيعي (مواضع بين بيشة وتثليث) **مجلةالعرب**، جـ (٥ ــ ٦) س (٣١) (١٤١٣هـ / ١٩٩٦م) ص ٣٨١ . (ابن جريس).

يقف بعيداً، نحو الجنوب، زب جلدان ومرافقوه من تلال بسقان، مكونة مجموعة عرضها حوالي ستة أميال، على الجانب الغربي من مستوطنات تثليث. وتقع على بعد ثلاثة أميال، في الاتجاه نفسه، السلسلة الطويلة لأشقر عجلان وتوجد على قرب منا المجموعتان التوأم الحمراء والسوداء لريدة من ناحية الجنوب الغربي ومن الشمال الغربي بالتتالي، وتتميز الأخيرة منها بتل ذي رأس صغير أبيض مخروطي يسمى العبل ولعله من أصل كوارتزي. تبدو بلاد الميثب كأنها منتزه لكثرة الأودية الشجيرية التي تخترقه، وتحتضن بلاد الميثب قطعة أرض واسعة غرب قرية الملح وشمال بني بسقان. كان ذلك استرخاءً ممتعاً لنا، بعد تعب الصحراء الصعبة الصخرية من خلفنا، وقد استمتعنا بها إلى أقصى حد أثناء تناولنا وليمتنا في وقت الفراغ. كوّن لحم الطرائد الصحن الرئيس لوجبة غدائنا مع حساء لذيذ (المرق) من الأصل نفسه ومقدار من الخبز والتمر، والسمن مخلوطة كلها مع بعضها البعض وتسمى حنيني. وكان نصيب الكلاب أيضاً وجبة كاملة، ولكن الكلبة عقفاء، ذات العقل المدبر، أخذت تلعق نوى التمر الذي لفظناه كما كانت عادتها دائماً في الصحراء، حيث كان نصيبها من الطعام قليلاً.

كان الحديث عن الطعام هو الموضوع الرئيس عندما واصلنا مسيرتنا في وقت مبكر من بعد الظهر. كان اليوم حاراً بعض الشيء ومتجهم بسحب خفيفة ورياح حارة إلى حد ما. في بعض الأماكن تكشفت الصخور التحتية الجرانيتية للسهل، ولكن في معظم أجزائه يكون السطح من طين ناعم ما عدا بعض المواقع التي كانت رملية. بدأت آثار الغزلان تتكرر، وبعد مسيرة ثلاثة أميال التقطنا أول انطباع عن اقترابنا من الحضارة بظهور قطعان ضأن ترعى مع عدد من رؤوس الجمال. وسرعان ما تقابلنا مع ثلاثة رجال ينتمون لفرع سعد القحطاني وتبادلنا معهم

الأخبار. ثم لمحت على مسافة ليست بعيدة خيمة وقطيع أغنام وامرأة ترعاها. كان هذا على ممر فوق هضاب تكسوه الرمال جزئياً يسمى برق الذيعان، وعلى الهضبة إلى يسارنا كانت هنالك بعض البرك المائية في أحواض صخرية طبيعية. اتضح أن هؤلاء الرعاة ينتمون إلى شيت أحد بطون بني سعد يتمركزون عادة في وادي شحمة حول جبل كلاب. كان عليهم على أية حال هجر مزارعهم المعتادة بسبب تقليد ثأر قديم مع أحد البطون الآخرين. إنهم يبدون -بالتأكيد- منعزلين جداً، وبائسين في وسط هذا الخلاء العريض.

ظهرت، على البعد من أمامنا، ناحية اليمين، قمة خشيم الذيب، بينما تطلعنا أثناء خروجنا من ممر برق الضيان إلى الأمام عبر السهل إلى حيث شريط التلال السوداء المنخفضة: أبو عرفة إلى الجنوب من السيدان[1]. توجهنا على امتداد الطرف الشمالي للسهل الأخير، وكان سهل الميثب في هذا المكان صورة طبق الأصل من سهل ركبة إلى الشمال. انتبهنا لضب يقوم بحركة لطيفة للحظات، ثم يهرب لنجاته. أصبح السهل وعراً تدريجياً، وأكثر رملاً، إلى أن دخلنا المنخفض الضحل الممتد شمالاً - جنوباً، أمام تلال السيدان يسمى هذا الوادي غار الشقيحان. ولكنه كان مثبطاً للآمال بالنسبة للغطاء النباتي، حيث كانت شجيراته جافة جداً، ومنفرة، ولذلك عبرناه لنعسكر في غار آخر على الجانب الشرقي من سلسلة السيدان مدركين أن مساء الغد سيطل علينا ونحن ننعم بترف الحياة في بيشة. وهكذا قطعنا (١٠٨) أميال خلال خمسة أيام كاملة من

---

(١) السيدان: جبل أسود يقع في الميثب، وهو من أشهر أعلامها، وما يزال يحتفظ باسمه القديم. الحربي، **منطقة عسير**، ج٢، ص, ٨٦٠ (ابن جريس).

اللدام وهذا ليس بالمعدل المرتفع جداً للمسيرة، ولكنه ليس بالسيء إذا اعتبرنا السجل الشاق لجمالنا منذ أوائل يناير.

واصلنا مسيرتنا من المعسكر على درب فوق تلال بازلتية وذلك عند الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي، بعد ليلة كانت مميزة بالدفء أكثر مما عهدنا منذ مغادرتنا وادي الدواسر. كانت التلال متناثرة أمام الجسم الرئيس لسلسلة السيدان ومن هناك التفنا حول الطرف الشمالي للسيدان إلى فجوة واسعة - عرضها ميل واحد تقريباً - تفصلنا عن الطرف الجنوبي لكتلة بارزة تسمى خشيم الذيب مواجهة لوادي بيشة وتلاله عبر سهل واسع. تتواصل مسيرتنا التي تتجه تدريجياً ناحية الشمال الغربي، نحو هذا اللسان الأرضي الذي يقع فوق سهل واسع متموج من رمال شاحبة، به شجيرات قليلة منخفضة ومتباعدة. من بين هذه التلال يقع كل من أنبك، وأضرس[١] ذات الهضبة السوداء على جهة اليمين، على الجانب القريب لسلسلة خشم الذيب. بينما شمخت إلى مسافة نحو الغرب، قمة منعزلة تسمى عرفجان على الطريق المباشر للروشن، عاصمة منطقة بيشة. تبدأ تلال بيشة على مسافة من عرفجان وقد بدأت على شكل شريط لتلال منخفضة، الواحد منها خلف الآخر، متفاوتة الارتفاع في درجات كما يبدو، لتتصل بسلسلة جبل يَلا[٢] على الجانب القريب للوادي. كان لهذه السلسلة لون أحمر وقمتان بارزتان على هيئة الأنف.

كان هنالك عدد كبير من أشجار الوهط الجافة المنتشرة فوق كل السطح الذي كان يلمع بسبب ملايين النباتات النامية، والحشائش، التي بدأت تظهر نتيجة

---

(١) أضرس: جبل أسود على شكل ضرس الإنسان، يقع في أرض الميثب، بين بيشة وتثليث. الحربي، **منطقة عسير**، ج١، ص١٧٥. (ابن جريس).

(٢) يلا: من جبال بيشة المشهورة. (ابن جريس).

للأمطار. شرع حسن (خر الذيب) في مطاردة لبعض الظباء، رآها على بعد، وعاد ومعه ذكر بديع وكنا قد وصلنا إلى سفح خشيم الذيب واستقر بنا المقام لتناول وجبة الغداء عند بطن سيل شعيب الجاره الهابط من عدد من مسايله الجارية. وينساب على مسافة ناحية الشرق نازلاً، سيل آخر مماثل هو (شعيب كربه) منساباً ناحية السهل من السلسلة نفسها، كان باطنه وإلى مسافة في عمق السهل مكسواً بأشجار الطلح الكثيفة. أوضحت آثار أخفاف الإبل المنتشرة فوق كل هذه المسافة، أن المكان كان منزلاً مفضَّلاً لقطعان أهل بيشة. كانت كتلة خشيم الذيب نفسها من جرانيت أحمر لافت للنظر، واتجاهها العام من ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وترتفع في المتوسط إلى حوالي (١٠٠٠) قدم فوق سطح السهل، وعلى نقيضها كانت سلسلة أنبك التي تقابلها عبر السهل سوداء في لون الفحم. تشكل سلسلة السيدان الحد الفاصل للماء بين بيشة إلى الغرب، والمصرف الذي يتجه آخر المطاف مع العديد من المسايل على شعب الملح ناحية الشرق. وتعد بلاد هذا السهل الواقعة بين هذين الواديين تابعة للميثب .

مكثنا في معسكرنا منذ منتصف النهار مدة أربع ساعات تقريباً، آخذين الأمور في يسر لأننا كنا تقريباً على مشارف نهاية السير. ظهر أمامنا منظر كامل لنظام وادي بيشة بعد أن التففنا حول الجرف العظيم لخشيم الذيب بعد مواصلتنا للمسيرة. تجري سلسلة جبل ثملا على بعد عشرة كيلومترات ناحية الشمال الغربي إلى ما وراء الوادي وقد اكتسبت اسمها من بئر تقع في مجرى بيشة ناحية شمال الشمال الغربي، ماؤه عذب حلو، كما قالوا، ويوجد عند عمق قامتين فقط. برزت قمة الجفة الضخمة خلف الكتف الأيمن لثملا مع سلسلة منخفضة منسحبة بعيداً عنه في العمق الشرقي البعيد. كما برز العديد من العلامات الأرضية المختلفة

ناحية الغرب وكـذلك إلى ناحية الجنوب الغربي متوزعة حول مـجرى بيشة وهي: مـخروط العـميـد، وتل بني سليم الأسـود المنخـفض والسلسلة القـصيـرة لبني جمعور[١] بقمتيه البارزتين. تطل أمامنا مزارع الجنينة أكثر قرى بيشة انخفاضاً إبان دخولنا منخفضاً ضخمـاً لشجيرات الحمض الذي كانت ترعى عليه -في تكاسل- جمال سود وأخرى بنية سـوداء عديدة. انتهى الجزء الأول من رحلتنا ووصلنا بعد مرورنا بـبرج مراقـبة مـحطم يقع على يسارنا، إلى الحـد الشرقي لمزارع النـخيل وحقول القمح الـتابعة لقرية الجنينة. قمنا بنصب المعسكر فـي المجرى نفسه، الذي كانت بعض أجـزاء بطنه لا تزال رطبة، ومـشبعـة بالماء من آخر سـيل، وقد أطل علينا ناحية الشـرق، قوس جميل لمزارع النخيل. كـانت المسافة من هنا إلى اللدام عن طريق الممر الذي سلكناه حوالي (١٣٢) ميـلاً وقد قطعناها في ستة أيام كاملة من المسير، لم تكن هينة.

(١) جمعور: من أشهر جبال بيشة. (ابن جريس).

الاكتشافات في شبه الجزيرة العربية

١٩٠٠ - ١٩٥٠م

فيلبي ——— توماس ....

تيزيجر ooooooooo آخرون — — —

0 100 200 300 400 Miles

الفصل الثاني

وادي بيشة[١]

لم يزر أحد من الأوروبيين -حسب علمي- من قبل ولا من بعد، هذه القرى السفلى لمحافظة بيشة، لقد استقبلت القرى العليا الأكثر أهمية الكثير من الزوار الأجانب، أولهم ربما كان تاميزيه الفرنسي، عام ١٨٣٥م، ووصل بعد فترة طويلة إلى المكان نفسه كولونيل واخوب، قادماً من ساحل البحر الأحمر، عام ١٩١٦م، أثناء الحرب العظمى. بينما سبقني بعام أو عامين، ألماني مسلم يدعى ليوبولد فايس قادماً من الرياض عن طريق رنية، وهي رحلة مشهورة له عبر أرض كبيرة لبلاد لم تستكشف من قبل، ولم ينشر عنها -فيما يبدو- تقرير كامل. والذي وقع في يدي عن أخبارها هو تقرير بسيط حرره السيد فايس إلى جريدة ألمانية[٢]. وللأسف، يبدو أن فايس كان لا يملك الأجهزة ولا الرغبة في أداء الأعمال الجغرافية التي بدونها ستكون أعظم الاكتشافات وأكثرها إثارة خالية بالضرورة من أية قيمة علمية.

---

(١) وادي بيشة أكبر أودية السراة الشرقية على الإطلاق، ويحتوي مياه منطقة تقدر بحوالي (٦٠٠) كم طولاً، من بلاد الخرمة شمالاً إلى جنوب أبها وخميس مشيط جنوباً. ويعتبر هذا الوادي وادي خثعم، إذ إن معظم البطون القاطنة فيه وفي معظم روافدة هي بطون من خثعم. (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفصيلات عن هؤلاء الرحالة الذين وصلوا إلى بيشة قبل فيلبي أمثال: تاميزيه الفرنسي وغيره، انظر: جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب**، ص ٢٥١ وما بعدها، غيثان بن جريس (إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين) بحث منشور في كتاب ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، والموسوم بـ: **العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ (بحوث ودراسات)** (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) ص٤٠٩ ـ ٤٥٩ . وقد أعيد نشر هذه الدراسة في كتاب لابن جريس بعنوان: **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر** (جده: دار العويضي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ص ١٠٩ ـ ١٨٣ . (ابن جريس).

ذكر فايس أنه دخل وادي النقيع ورأى نخيل الجنينة على بعد، وهذا لا يبدو أنه من الممكن. كان مهتماً أكثر باللون المحلي بدلاً من التضاريس، ويدعي أنه أول الأوروبيين الذين زاروا هذه المناطق، وهو الادعاء الذي تمكنت من إضعافه بما فيه الكفاية من المعنى المتضمن هنا. جاء فايس مثلي بعد سيول حديثة، ووجد الماء ينساب بالفعل في بعض أنحاء الوادي. وأشار أيضاً إلى حقيقة أنه، في هذه المناطق الحدودية، تتمتع النساء بحرية أكثر، مقارنة بالمناطق الملتزمة في الجزيرة العربية، وأضاف أنه كان من بين التقاليد السائدة في هذه القرى القائمة في الجبال إلى عهد قريب، أن يقدموا للزائر العابر الطعام والمأوى وبعض ألوان المتع غير المقبولة. وأجزم بأن هذا ليس قائماً الآن.

من الممتع في بلاد، كالجزيرة العربية، أن ترى امرأة، والمتعة تكون أكثر لو تجاذبت الحديث معها، في الحقيقة مثل هذه التجربة التي تعد نادرة ندرة الواحة في الصحراء تركت رفاقي للاستقرار في المعسكر بمجرد نزولنا من فوق الجمال، وذهبت فوراً حاملاً معي شبكة صيد الفراشات لدراسة حياة الحشرات داخل مزارع النخيل. انهمكت سريعاً بجمع الجندب (الجراد) أثناء تجوالي بين أشجار النخيل وعبر مساحات القمح الناضج والشعير عند النهاية الشرقية للواحة. تعمدت عدم الاقتراب من بئر على مسافة غير بعيدة مني ومن حوله عدد من النساء اللاتي وقفن مندهشات، بادئ الأمر، ربما مستغربات لما أقوم بفعله وتدريجياً وفي بطء تقدّمن ناحية الجانب البعيد من الحقل الذي كنت مشغولاً فيه. غابت إحداهن في عمق الحقل والتقطت شيئاً رفعته في دعوة نحوي. تقدمت نحوها في حذر ووجدت أن ذلك الشيء كان جرادة وقد قمت بإدخالها حالاً داخل زجاجة الموت التي أحملها. ثم اشتركنا كلنا بعد ذلك في جمع حشرات المزرعة ووجدت أن اهتمامي بالصيادات الحسناوات قد بدأ يؤثر على حماسي بجمع الحشرات.

اجتمعنا عند البئر في حديث عـام. إحدى المرأتين كانت شابة متزوجة، ولها صغير متـعلق بفستانها ورضيع متعلـق بثديها. وكانت الفتاة الأخرى هي شقـيقتها الصغرى أيضـاً جميلة جداً، صالحـة للزواج، ولكنها لا تزال بكراً. وفي أسلوب فطري قادت الأخت الكبرى مـسار الحديث، بينما تركت الأخرى حديث بـلاغتها لعينيها. لقـد أخبرتهما من أين جئت وإلى أين سأذهب، وأشيـاء متنوعة أخرى. واخبرتاني بدورهمـا، عن بئرهما ذات الصهريج الواسع غـير المبطن، المحمي من الانهيار الداخلي بإطار خشبي عند الأجزاء السـفلى الطرية الطموية، وقد تم حفرها بلا تماسك مماثل في الجزء الأعلى، كما أخبرتاني، أن تربة البئر كانت متصلبة كالصخر.

نهضت حينما خطر بذهني أنني ربما قد تجـاوزت الحدود المعقولة لهذه المحادثة الممتعـة، وعدت مرة أخرى إلى جـمع الجنادب ولكن أصرَّت الفتاة الـصغرى هذه المرة على مصاحبتي. وقد أثرت ما كنت أجمع من عينات بنشاط ومرح وبحركات رشيقة سريعـة، ثم قمنا معاً بجمع بعض النباتات التي عرفـتني أسماءها المحلية. نبهني اقتـراب موعد غروب الشمس إلى ضرورة العـودة إلى المعسكر. ولما عزمت على الذهاب بكلمات وداع صـديقة، طالبتني الفتاة فـي شجاعة بجائزة مـقابل ما قامت به من أعـمال. ولم تكن معي نقـود حينها، ولذلك وعدتهـا بزيارة أخرى لحديقتها عند الصباح وقبل بداية الرحلة. لقـد حافظت على وعدي حقيقة ولكنها لم تف به، برغم أن أختها كانت هناك في صحبة الأطفال. لقـد وعدتني أختها بتسليمها الريالات القليلة التي لم أنس إحضارها معي مقابل مسـاهمتها في إثراء مجموعتي من الجنادب، وبعد لحظات تركت الجنينة بأمل ضئيل جداً أن أراها مرة أخرى.

بمجرد وقوفنا فترة ما بعد الظهر عند خشيم الذيب اتخذت الحيطة بإرسال كلٍ من سعد وابن مـعدي أمامنا لإشعار أهل الجنينة بقـدومنا، تم تأمين حطب الوقود

والعلف حين وصولنا، وكانت غزالة حسن (إدمى أخـرى) تحت الطبخ استعداداً لحفلة العشاء التي شاركنا فـيها عدد من القرويين. بدأ الطقس يتغيـر بعد الغروب إذ ظهرت سحب ثقـيلة وبرق من ناحية الشـمال والجنوب وريح متـقلبة عبثت برؤوس أشـجار النخيل. كانت السماء صحواً عند موعد العشاء وهدأت الرياح تماماً، وطلع القمر من وراء حدائق النخيل، مكملاً صـورة مثالية للواحة. لقد جذب ضـوء المعسكر كتلاً من الحشرات والتي وجدها رفاقي مزعجـة. وقالوا إن البعوض يكثر في هذا الوادي خاصة في الصيف، غيـر أنه لا وجود له في هذا الوقت. وكانت فراشـات الكبريت في وفرة هنا، كما كانت في كل مكان وعشّشت مستـعمرة كبيرة من الغربان - غالباً ذات الذيل المروحي - فوق أشجار النخيل، يسمونها (سكنى) هنا، غير أنني لم أسمع بهذا الاسم لهذا الطائر في أي مكان آخر في الجزيرة العربية.

يعود أصل سكان وادي بـيشة إلى قـحطان من الروشن وهي القرية الرئيـسة الواقعة تجاه أسـفل الوادي وإلى شهران من نمران أكبر مركز تجـاري لقبيلة قحطان ويقع بجوار الروشن في أعـالي الجبال. أكـبر فخوذ قـحطان هم مجمـوعة أكلب الذين يملكون الجنينة وقرى عديدة أعلاها[١]، ما عدا، قرية عْصَلان أعلى الوادي،

(١) تقع مدينة بيشـة اليوم في الجزء الشمالـي من الإقليم الجنوبي في المملكة العربية السعـودية، وتحدها رنية شمالاً، وأبها والخمـيس جنوباً، وتثليث شرقاً، والباحة غرباً، كان يسكنها في العـهود الإسلامية المبكرة قبائل: خـثعم، وهلال، وعامر بن صعصـعه، وسلول، وعقيل وغيرهم. ومع مـرور الزمن صار معظم سكانها من قبائل شهـران التي هي أساساً من خثعم. وبيشة تسمى إلى عـهد قريب بالروشن وهو السوق الرئيس الذي تعرف به بلاد بيشـه، بالإضافة إلى سوق نمران في بلدة نمران الذي يقام يوم الخـميس. وقد التحـمت الروشن اليوم بـعدة قرى مـثل: آل مهـدي، والنغيلة، والدحـو، ومن سكانها حـالياً شـهران بفروعـها: بني سلول، وبني مـنبه، والحتـارشة، والرمـثين، ويسكن بيشـة أيضاً بني معـاوية، وأكلب، والمحلف، وأفخـاذ من سبيع وقـحطان. وللمزيد انظر: ياقوت الحـموي. **معجم البلدان** (بيروت: دار صادر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م) جـ١، ص ٥٢٩؛ عـرام بن الأصبع السلمي. **كتـاب أسمـاء جـبال تهـامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه** تحقيق عبدالسلام هارون (القاهرة: مطبعة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م) ص٤٢٠ ـ ٤٢١ (ابن جريس).

التي تتبع مجموعة بني هاجر وهم أسلاف القبيلة التي تحمل الاسم نفسه، والتي انحصرت الآن في محافظة الأحساء وهم يزعمون أن عْصَلان هي موطنهم الأصلي. أما الروشن فإنها قرية مأهولة بمجموعة أخرى تدعى بني السلول - أيضا من أصل قحطاني - ويملك بنو معاوية قرية نمران والقرى الواقعة أسفل الوادي ويتبعون قبيلة شهران.

بلغ عرض المجرى عند الجنينة حوالى نصف الميل، من جانب لآخر، وبه بالفعل عدد من أحواض الجداول عرض أكبرها حوالي (٢٠٠) ياردة وهو حيث عسكرنا. كانت بقية المجرى مغلقة بهضبات الرمال التي تنمو عليها شجيرات الحمض. وتقع مزارع النخيل في الجنينة بكاملها على الجانب المرتفع للوادي إلى جانب العديد من أبراج المراقبة المدمرة المنتشرة بينها. بينما تقع القرية نفسها -وهي ذات حجم متواضع- في الأرض المكشوفة خلف الجنائن وتمتد في شكل قوس لطيف لمسافة نصف الميل. توجد العديد من شجيرات الطرفاء بين الهضبات الرملية، ولكنها ليست بالكثافة التي تشاهد فيها تجاه أسفل الوادي. لا توجد مزارع نخيل إلى ما وراء الجنينة، ولكن على بعد ميلين إلى الشمال منها تجاه أسفل الوادي توجد أرض واسعة لحقول الشعير، مع أثل مزروع كثيف يلاحظ حول أطلال قصر مهجور يسمى خورقان.

يقع بئر ثملا الذي ذكرناه سابقاً، أسفل خورقان وبعدها يستمر المجرى جافاً إلى حين التقائه ووادي رنية عند هضبة تسمى جبل سلي، ويقال إنها رحلة تستغرق أربعة أيام (ربما ٧٠ أو ٨٠ ميلاً) من الجنينة. تتلاقى الجداول المتحدة مع مجرى تثليث في حجلة المختمية. ويقال -وهذا حق-: إن عمق المياه في الآبار، في

الوادي، يرتفع كلما تحـرك المرء مع اتجاه أعلى الوادي. يصل العـمق في ثملا إلى قامتين فـقط، وثلاث قامات في خورقان، وخـمس إلى ست في الجنينة، وإحدى عشرة واثنتي عشـرة قامة عند الروشن. تنتظم هضبات قليلة منخفـضة من صخور سوداء (بازلتيـة) على امتداد الجانب الأيسـر للوادي، مع اتجاه الوادي في الجنينة. بينما تقع سلسلة قصيرة تسمى واغداً على بعد شرق سلسلة الجفر وإلى شمال كتلة خشيم الذيب نفسها. كانت بقية السمات التلية من موقع الجنينة هي نفسه السمات التي أشير إليها أثناء مـسيرتنا. لقد أخبرت بأن السيول هذا العام قـد استمرت مدة عشـرة أيام دون انقطاع وتوقفت حقـيقة وبالفـعل قبل وصولـنا بثلاثة أيام. وهذا سبب التشبع المائي لبطن الوادي فيما يلي معسكرنا.

كانت مسيرتنا لليـوم التالي باتجاه أعلى الوادي إلى الروشن ثرية بما هو جدير بالاهتمـام. استيقظنا لصـلاة الفجر قبل الخـامسة صبـاحاً، وتحركنا قبل السـابعة سائرين في وسط المجرى. يصعب عليـنا أحياناً التقدم للأمام بسبب كثـافة أشجار الطرفاء، غير أننا سـرعان ما صرنا من وراء مزارع نخيل الجنينة وعْـصَلان المنتظمة على الجانب الأيمن متقدمين نحو الشقيقة التي تجـمعت أشجار نخيلها الكثيفة أمام تل بني سليم على الجانب المقابل وعلى مسافة مـعاكسة قليلاً لاتجاه أعلى الوادي. كان الناس مشغولين بحصاد الشعير في بعض الحقول في الوادي على يسارنا وكان المحصول ذا مظهر ثري. تعتمد الزراعة هنا على الري بواسطة الآبار تدعمها سيول موسمية. وتُركت قطعة أرض كبـيرة بوراً لزراعة الذرة الصفراء هذا العام حيث إن الدورة المحلية للـزراعة كانت سنوية. بدت لنا الشـقيقـة وكأنهـا قرية دون نظام، وتوجد بها قصور قليلة مبعثرة حـول حدائق النخيل، بينما قامت قرية صغيرة على

قمة بني سليم مقابل بركة طويلة لماء آسن في الوادي إلى يسارنا. ينتمي الناس هنا إلى أكلب وهو قسم يتبع بني عيسى. وتلاحظ فيما وراء هذا الموقع أشجار النخيل في صف طويل على الجانب الأيسر ويستمر طريقنا عبر مسافة غنية بحقول الذرة الصفراء مع مجموعات كبيرة لأشجار الشار والطرفاء منتشرة هنا وهناك. وتوجد عند نهاية شريط النخيل قرية صغيرة مكونة من عشرين منزلاً تقريباً.

يقع طريقنا تجاه الجنوب الغربي على تل يدعى الخرسعة وسرعان ما دخلنا غابة الطرفاء الكثيفة التي تمتد عبر القرية لمسافة معتبرة. تقع جبال جمعور إلى الخلف على يميننا وعلى مسافة أربعة أميال كما تقف تلال العميد الصغيرة على مسافة ميل واحد، إلى يسارنا من وراء جانب الوادي الأيمن. لا يمكن استخدام خشب الطرفاء لسوء حظ أهل بيشة حطباً للوقود، وبذلك فقد تركت الأشجار لتنمو دون تدخل وهي الآن تحتل مساحات كبيرة جداً كان يمكن تنظيفها للزراعة.

وصلنا إلى مكان معرًّى من أشجار الطرفاء بعد مسيرة خمس أميال من الجنينة حيث أقام أحد الأفراد المستثمرين مزرعة نخيل صغيرة إلى جانب أرض كبيرة لزراعة الذرة الصفراء. وكان له قصر صغير هو كل البناء الموجود في الموقع يسمى خيبر. من الممكن رؤية كل القرى التي عبرنا بها من هذا الموقع، بما في ذلك نخيل الجنينة بينما تحدد المنظر أمامنا بتلال قفة الصغيرة التي تطل على نخيل الخرسعة وقرية صغيرة على الجانب الأيسر للوادي. وصلنا إلى هذه القرية بعد عبورنا لغابة كثيفة من الأثل والطرفاء. اعترضت مسطبة منتظمة من الجبس ارتفاعها حوالي (٢٠ – ٣٠) قدماً المسافة بين النخيل والتلال الصغيرة وقد أقيمت عند قمتها ومن حولها أعداد من أعشاش مبنية من سعف النخيل. وقامت على مستوى الوادي

وبين النخيل قـرية صغيرة وبعض صـخور جرانيت حمـراء كبيرة، وكلـها حددت نهاية المنطقـة. كان عرض الوادي هنا حـوالي نصف الميل إلى الجانب الأيمن الذي برز وكأنه صخرة ذات حجم معتبر.

وصلنا سريـعاً إلى انبعـاج واسع في الوادي حيث بدأت أشـجار نخيـل النقيع وكأنها الطرف النحيل لوتد، وتطور شكلها سريعاً إلى هيئة حزام كثيف من الأشجار داخل المنحنى العريض لجانب الوادي الأيـسر. كان هذا أكبر منطقة نخـيل عهدناه، علماً بأن قرية الشقيـقة ربما كانت ذات أهمية أكثر في مجـال حقول الذرة الصفراء. على أي حال لا يبدو أن هنالك قرية ما عـدا قصوراً منعزلة عديدة. كان الوادي في هذا المكان ذا عرض مـعتبر، ورمـلي بعض الشيء ولكنه كان مغطى بقنوات سـيول عميـقة متآكلة. كـانت هنالك أيضاً، مساحـات كبيرة لمزارع الذرة الصـفراء، حيث كانوا يقومون بغـربلة الشعير بينما كان القمح يشـارف مرحلة النضج، ومعظم ملاك الأراضي هم من بني أكلب، من البدو غير مـوجودين في الموقع وكان أجراؤهم في معظمهم من الرقيق المحررين من أصل زنجي. كانت ضريبة الذرة وهي العشر - عشر أوعشرة كـما يقولون هنا - ولكن حقيـقة فإن نصيب الحكومة فـي النوع يثبت بعد التقديـر له، وعلى المالك مسؤولية تسليم عـدد كذا من الصاعات من الحـبوب إلى الرئاسة بالمنطقة، والرجل الأول في هذه القرية يسمى المنيع.

توجد في هذه المنـطقة، وإلى مسـافة مع اتجاه أعلى الوادي، آبـار تتابع على فترات، كل منها يقع تحت شجرة سدر منتشـرة وتطل على مساحة متوسطة للقمح أو الشعـير. تركنا المجرى على بعد مـسافة قـصيرة من حقـول وادي النقيع الذي اندفع إلى أسفل جنوباً إلى مسـافة لينحني مرة أخرى بدرجة حـادة خلف حواجز

جرانيتيـة ليحجب عنا مجموعة مـن القرى. ويلاحظ إلى يميننا وعلى بعد، الغطاء النباتي الداكن الخضرة لرافد مـهم يسمى الثنية (أو وادي تبـالة) الذي يجري إلى أسفل، من أعالي الجبال الواقعة ناحيـة الغرب(١)، في طريقه للاتحاد مع الوادي الرئيس في انبعاج النقيع. كما تقع عبره مجموعة السلاسل الجبلية وهي عالية نوعاً ما، وممتـدة من جهـة الجنوب الغربي إلى الشـمال الغـربي من موقعنا، تـبدأ عند البرص على اليسار وتنتهي إلى السواده على اليمين. وبين هذين توجد سلسلة ثالثة تسمى محليـاً أم فرقين. توقفنا لمدة ساعة تقريبـاً لتناول الإفطار في السهل الخشن الذي يحتل منحنى الوادي، والذي يبدو على بعد مسافة ميلين عنا من الأمام ومن الخلف وإلى الأيسر، مع سلسلة يلا من الخلف، جهـة الجنوب الشرقي. ظهر إلى يميننا شـريط طويل من أشـجار الأثل من جـهـة الجنوب الشـرقي، إلى الشمـال الغربي، ويبدو كأنه بطن لوادٍ قديم مهجور.

وصلنا إلى أرض تحوي العديد من الكثبان الرملية، وصخـور جرانيتية مبعثرة بعد مواصلتنا المسيرة تجاه الوادي حينمـا عاد الوادي شمالاً مرة أخرى بعد انحناءته العريضة جنوباً. ووصلنا بعـد فترة وجيزة إلى مـرتفع على الجانب الأيسر للوادي

---

(١) وادي تبالة ينحدر من سـروات بلقرن وشمران وما حولهـا، ويتجه إلى الشمال الشـرقي حتى يفيض في وادي بيشـة، ويسكن أعالي الوادي قـبائل دحيم من بلقـرن، وأوسطه قبائل الـفزع من خثـعم، وأسفله لأكلب، وقد ذكر هذا الوادي في كثير من المعاجم الجغرافية وكتب الأدب والتاريخ. للمزيد انظر: الحسن ابن أحمد الهمداني. **صفة جزيرة العرب**. تحقيق محمد بن علي الأكوع (الرياض: منشورات دار اليمامة للبـحث والتـرجـمـة والنشـر، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص٢٥٨، ٢٦٩، ٣٢٨، ٣٤٣، ٣٧٩؛ عـبـدالله بن عبـدالعزيز البكري. **معجم ما استـعجم**. تحقيـق مصطفى السقا (بيـروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) مج١، جـ١، ص٣٠١، ياقوت، **معجم**، جـ٢، ص٩، علي إبراهيم الحربي. **المعجم الجغرافي للبلاد العـربيـة السـعودية (منطقـة عسـير)** (أبها، ١٤١٧هـ / ١٤١٨هـ) جـ١، ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣. (ابن جريس).

مكوناً من هضبات جرانيتية وصخـور منعزلة. كان بعض هذه الصخور متآكلاً إلى درجة كبـيرة وقد نحتـته الرياح إلى أشكال جماليـة غريبة تشبه النـصب التذكاري وجدنا بينهـا هنا وهناك بعض النقوش - معظمهـا باللغة العربية - ورسـوماً رديئة ليست ذات أهمية.

رجعنا الآن إلى حافـة الوادي وأمامنا مستوطنات الرقـيطاء وعطف الجبرة في انبعاج آخـر للمجرى. تتكون المستوطنة الأولى التي اتجـهنا نحوها أولاً من قريتين متميزتين كل منهما من (٤٠) إلى (٥٠) منزلاً، كلها من طابق واحد عدا اثنين في القرية الجنوبية، حيث كانت بهما غرف عليا وقيل إنهما من أملاك الرئيس المحلي. كما يوجد بالقرب منا، ناحية الشرق، حطام ما يبدو أنه كان قلعة ذات حجم، في وسط منطقة كبيـرة من أشجار الأثل، بينما كان طول امتـداد مزارع النخيل حوالي ميل ونصـف الميل. توحي البقايـا المبعثـرة للمبـاني والبيوت في المـناطق المجاورة للمقبرة المحليـة أن هذه المستوطنة لا بد أنها كانت ذات يوم لها أهمـية أكثر مما هي عليه الآن. يفصل الرقيطاء عن عطف الجبرة نسبة كبيرة من أشجار الحمض، ومن حين لآخـر يشاهد برج مـراقبة مـدمر، وتشـتهـر العطف مع امتـدادها الشمـالي الديلمي[١] بأنهـا أكبر وأغنى مـستـوطنات الوادي. وعلى أقصى مـدى يمكنني أن أحكم به، فـإن مـزارع الروشن - نمران كـانت على الأقل مـتسـاوية إلى جـانب احتـوائها على قريتين، على مـستوى حـضاري تقريبـاً، ولكن واحة العطف بدت وكأنها مركز زراعي مهم. يمر طريق السيارات، القادم من الشمال عن طريق رنية، من هنا إلى منطقة بيشة علماً بأن حركة السيارات لم تشاهد هنا أثناء فترة زيارتي.

---

(١) الديلمي: قرية تقع شمال غرب بيشة، وجنوب عطف الجبرة. (ابن جريس).

وسوف يكون ظهور السيارات لأول مرة قريباً جداً فيما بعد، في طقس ١٩٣٣م-١٩٣٤م البارد، وتوجد الآن اتصالات منتظمة بهذه الوسيلة بين بيشة ومكة من جهة، وأبها ونجران من جهة أخرى.

كانت أشجار النخيل، حينما اقتربنا منها أول مرة، متباعدة أكثر من العادة، في هذه الأجزاء، بينما توجد في وسطها وفي مساحة معرَّاة، قرية بدائية واسعة، مسوَّرة بسعف النخيل. توجد داخل هذا المسيج عشش من اللِبن ذات طابق واحد، كل منها له سور خاص به، فقد كانت القرية في الحقيقة مستوطنة جذابة المنظر في ترتيب أشجار نخيلها، برغم أنها توحي بالفقر. ظهر قسم الديلمي من هذه الواحة أنه أكثر كثافة من العطف نفسها وذلك بعد أن ظهر لنا حين خروجنا إلى مجرى السيل فيما وراء النخيل، غير أنه يبدو محتوياً -فقط- على قصورٍ مبعثرة وقرية واحدة صغيرة. كان عمق الآبار هنا كما كان في الروشن حوالي (١١-١٢) قامة.

واصلنا الآن السير عبر مجرى تكسوه شجيرات الطرفاء التي كانت تتخللها مياه السيول التي مازالت تجري بينها في جداول عديدة ضيقة. كان أحدها لا يزال مبتلاً من أثر السيول الأخيرة، غير أن أكبر هذه الجداول كان جافاً. يقع نخيل الدحو إلى الوراء فيما يلي هذا المجرى على الجانب الأيمن للوادي، ويمتد عمق النخيل إلى مسافة نصف الميل، ويدعمه من الخلف مجموعة جميلة رباعية من تلال تسمى الصواير قائمة في وسط سهل رملي جرانيتي عريض. ينقسم الوادي، عند هذه المناطق المحيطة إلى كتل مفككة من روابٍ رملية عليها نمو كثيف لنباتات الطرفاء والشار. توقفنا قليلاً، بعد مسيرة (١٨) ميلاً من الجنينة قبل الشروع في المرحلة الأخيرة من الرحلة. تقع قرية الدحو خلف حزام أشجار النخيل، على

الجانب الأيمن للوادي، مـثلها مثل كل المسـتوطنات هنا مثل الروشن. كـما برزت قمتان لجبل يسمى صدعه إلى البعـيد فيما يلي الطرف الغربي للديلمي عبر المجرى كما توجد قمة صغيرة أخرى تسمى معزه فيما يلي حزام نخيل العطف.

بالسير على الجانب الأيمن للوادي، والبالغ اتسـاعه هنا أكثر من ميل، وصلنا إلى مزارع نخـيل الحريرة. وهي مكونة من قريتين صـغيرتين في كل قـرية حوالي خمسين منزلاً، وتوجد على المرتفع الشـرقي. ومثل بقية المناطق تتكون المنازل من دور واحد محاطة بسـور. وعلى بعد نصف ميل إلى اليسار تبرز مجمـوعة متصلة من أشـجار الطلح تـعرف باسم الحـوق، ويبـدو أنها تخـتـرق السهل من جـوار الروشن، ومن المؤكد أنه أحـد القنوات القديمة والمهـجورة لوادي بيشـة. مثل هذا الوادي، الجاري فوق أرض مستوية، من السهل أن يغير مجراه من وقت لآخر عبر العصور. على الرغم من أن الدحـو تبعد عن الجنينة حوالي ثمانية عـشر ميلاً إلا أنها ترتفع عنها حوالي مئة قدم فقط.

يقع النطاق المعتـبر لنخيل الصبـيحي في الوادي، فيما يلي الحـريرة على بعد ميل واحد ناحيـة الجنوب الغربي من موقعنا بينما نبتعـد نحن تدريجياً عن السهل من جهة جـانب الوادي الأيمن، لنقطع جرفاً عريضاً داخل المجـرى. ثم عدنا مرة أخرى للجانب الأيمن، عبر هضبة منخفضة بعد عبورنا لفرع تصريف حرق والذي يبدو أنه يخترق الوادي بالقرب من الصبـيحي وبطول حوالي الميلين ويدعى الحمة. ويليه من الخلف في الوادي نـخيل الحمة إلى جـوار نخيل قنيع، وتبدو الأشـجار وهي محـتضـرة إلى يساره. يبـدو أن هاتين المجموعـتين من النخيـل إلى جانب الصبـيحي، تكوّن كلها واحـة واحدة ذات مسـاحة معـتبرة، برغم أنهـا مميزة عن بعضها البعض بأسماء منفصلة.

مررنا الآن عبـر هضبة الحمة عائديـن إلى المجرى الذي يجري من هذا المكان تجاه الجنوب إلى حيث جبال بعيدة بالكاد تكاد أن تُرى تسمى هضبة بني منبه. كان حـوض السيل الحـقيـقي يبعـد حوالي نصف الميـل على يميننا في وسط الوادي، وانحدر حزام نخيل النْغِيلة[1] الكثيف ناحية الجانب الأيمن للوادي، والذي واصلنا سيرنا عليـه إلى أن أدركناه وعبرنا بالقرب من قـرية النْغِيلة بعد وقفة قـصيرة لأداء الصلاة. وعلى مرأى منا شمخت القلعة الحكوميـة العظيمة في بيشة. كانت القرية مسورة ومـحصنة عند أركانها الأربعة، علماً بـأنها بلا بوابات، ويتم الدخول لكل منزل فيهـا عبر فتـحة مكسورة خلال الجـدار الذي كان في حالة بالية. فـيما يلي النغيلة ظهر شريـط سميك من النخيل تملكه الروشن نفسهـا، ومن ثم عبرنا خلال فترة ليست بالطويلة واحدة من مجمـوعة قراها، ثم عبرنا أرضاً واسعة لنصل إلى قصر الحاكم الضخم - يشار إليه عادة باسم قلعة بيشة - وعندها تركنا جمالنا أمام الخيام التي نصبت لإيوائنا على مسـافة ليست بالبعيدة عن القلعـة.

لقد احتطنا بإرسـال الرسولين أمامنا وهما سعـدان وابن معدي[2] من الجنينة للإفادة باقتراب موعد وصولـنا. ونتج عن هذا الإجراء أننا وجدنا ليس فقط الخيام وقد نصبت لاستقبالنا، ولكننا وجدنا أيضـاً العشاء الذي كان على مستوى مشرِّف في انتظار قدومنا وقـد تم الإعلان له سريعـاً بعد أن تجمعنا في غـرفة الاستقـبال داخل قلعة قصـر الأمير. لقد كان الحاكم خـلال هذه الفترة هو عبدالله بن مـعمَّر

---

(١) النغيلة: قرية قـديمة تقع على الضفة الشرقـية لوادي بيشة، وفيـها قلعة المحلف المشهـورة والمعروفة باسم الثغرة والنغيلة، دخلت الآن ضمن النطاق العمراني لبيشة. العواجي، قبائل المحلف في بيشة، **نشر بمجلة العرب**، ص٣١، ص٤٠٨. (ابن جريس).

(٢) ورد في صفحة (٧٥) اسم سعد وابن معدي وفي هذه الصـفحة اسم سعدان، والصحيح هو سعد. (ابن جريس).

وهو سليل آخر لأسرة كبيرة من العيينة. لقد كان رجلاً جذّاباً، في نحو الستين من عمره وعلى معرفة تامة بأحوال العالم بسبب سفرياته للخارج خلال سنوات عمره المبكرة . وكان بصفة عامة لين الجانب كما كان مضيفاً مثالياً وكنا سعداء الحظ أيضاً بحقيقة أن القاضي المحلي الشيخ محمد بن جارالله، رجل دين من الطراز الواسع الأفق، وبكل ما يبدو، فهو حسن السلوك تجاهنا. لقد كان من قادة التجار في هذا المجتمع الشقيقان سعيد ومحمد ابنا سعود بن كدسة من بلاد غامد أعالي الجبال، خلف بيشة. كان من بين أتباع الأمير الرئيسيين شخص مرح يدعى ابن غريفان وقد ألح على مجموعتنا كلها، بما في ذلك الأمير، وعدد من موظفين آخرين كانوا حضوراً لحفل عشائنا الأول، بأن نذهب إلى منزله لتناول القهوة مباشرة بعد الوجبة. كان هذا الشاب من مواطني وادي الدواسر حيث استقرت عائلته منذ زمن طويل.

لقد تحصلت على كمية كبيرة من الحقائق حول بيشة وما جاورها أثناء هذه اللقاءات إلى جانب ملاحظاتي الشخصية خلال هذه الإقامة المؤقتة التي دامت يومين. علمت بأن واحة رنية لم تكن بأكبر من نصف حجم بيشة، وأن سكانها أكثر تزمتاً من أولئك القاطنين في جنوب الوادي. فقد كانت تحيتهم العادية لبعضهم البعض هي: يا الإخوان! مؤكدة حاسة العلاقة الأخوية التي دعت إليها النهضة الوهابية خلال العقود الأخيرة. ويمكن اعتبار رنية ووادي الدواسر في هذا الصدد حدوداً خارجية لنجد من ناحية الجنوب، بينما ظلت بيشة رأس الحربة للثقافة العريقة الأكثر اعتدالاً هناك في المرتفعات. هذا التحديد لا يزال فاصلاً صحيحاً بين الشمال والجنوب، ذلك لأن الحكومة السعودية، ولرغبتها في أن

تكون كل المملكة تحت إطار معتقدها النقي قد تجنبت دائماً وفي حكمة أية ضغوط على المناطق الخارجية المحيطة التي اعتادت على نظرة دينية أقل صرامة. ومهما كان الأمر، فإن التعصب القديم في المنطقة الوسطى قد تخفف بالنسائم الباردة التي تهب من المناطق المجاورة. ويبدو أن رجالاً أمثال عبدالله بن معمَّر وابن نشمي وغيرهما، قد وضعوا مبدأ التسامح في مقدمة سياستهم الإدارية، مع نتائج مقنعة جداً في صياغة التباين العظيم للجزيرة العربية في وحدة سياسية متماسكة. كان الموظفون النجديون في بيشة يقودهم الأمير، منضبطين في اتباع مواعيد الصلاة والتزامات دينية أخرى دون أية رغبة في معاقبة رعاياهم من غير الملتزمين.

تشمخ قلعة الحكومة، التي تدعى أيضاً قلعة بيشة، فوق السهل على الجانب الأيمن للوادي إلى الجنوب من القرية الكبيرة، أو قل البلدة الصغيرة، الروشن، والتي تشتمل على جزأين مميزين هما روشن بني سلول وهي قريبة من القلعة، وروشن آل مهدي إلى شمالها[1]. إن أولاهما المركز التجاري، والمخصص في معظم الأوقات لبيع الماشية في سوق الأربعاء. بينما تقف خلف الروشن، وفي بطن الوادي على رف مرتفع فيه، بلدة مماثلة هي نمران وهي في حجم القرية الشقيقة، وتمتاز عليها بأنها المركز التجاري المحلي، ويوم سوقها هو الخميس (سوق الخميس). أنها السوق الرئيس للمقاطعة وتعنى بمجال واسع من المناشط التجارية مقارنة بالروشن، خاصة فيما يتعلق باحتياجات الأهالي أثناء عطلة الأسبوع

(١) لا زلنا نشاهد العديد من القلاع والقصور القديمة المنتشرة في بلاد بيشة والتي يعود تاريخ بعضها إلى فترة زيارة فيلبي لهذه المنطقة في منتصف القرن الهجري الماضي. وللمزيد من الاطلاع على هذه المواقع الأثرية، انظر: محمد بن جرمان العواجي. **بيشة** (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) ص٧٦ ـ ١١٧ . (ابن جريس).

(الجمعة)[١]. تمتد واحة بيشة فيما وراء هذين المركزين وإلى مسافة ميلين لتضم عدداً من القرى الصغيرة ومزارع النخيل، وأميز هذه القرى هما الصفر ومن ورائها قرية صوفان، وكلاهما على جانب الوادي الأيمن. تتبع القرية الأولى لآل نمران بينما الثانية من أملاك عناصر شهران فخذ معاوية، تحت ابن الأزهر.

تنتشر في الوادي إلى ما وراء الواحة الأم، مستوطنات صغيرة حتى حدود قرية ترج التي يقال إنها على مسيرة أربعة أيام ويسكنها قوم من الحضر، يعني عناصر غير بدوية مستقرة. يصل المرء بعد مسيرة اليوم الأول إلى قرية المدراء الصغيرة، ومن ثم وفي اليوم الثاني، إلى الحيفة وفي اليوم الثالث إلى سوق الإثنين، سميت كذلك لسوقها الأسبوعي أيام الإثنين إلى جانب أنها تسمى الحازمي. يصل امتداد الواحة بالكامل من جنينة إلى صوفان على طول الوادي إلى حوالي (٢٥) ميلاً، وربما تبلغ المسافة بين الروشن إلى ترج حوالي (٨٠) ميلاً. وتفصل الروشن عن مستوطنة المدينة في وادي تثليث، مسافة مماثلة، وكما يمكن الوصول إلى المدينة خلال ثلاثة أيام عن طريق خنق - رافد لبيشة يقع فوق الواحة - وسهل المسمى الذي يبدو أنه امتداد جنوبي الميثب.

تكوّن مزارع نخيل الروشن ونمران أجمة كثيفة على امتداد الجانب الأيمن للوادي، وتمتد إلى منتصف الطريق عبر المجرى. يصل متوسط عمق الآبار هنا إلى

---

(١) وللمزيد عن الأسواق الأسبوعية في بيشة وعن الأنشطة التجارية بها خلال القرن الهجري الماضي، انظر: شرف بن عبدالمحسن البركاتي. **الرحلة اليمانية**. (دمشق وبيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٨٤هـ) ص ٢٨١، غثيان بن جريس. **عسير في عصر الملك عبدالعزيز دراسة تاريخية للحياة الإدارية والاقتصادية** (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ص ١٦١ .

Sir- Kinahan Cornwalls. Asir Before World War. I: Ahand Book. (New York & Combridge) 1976) PP. 19 - 20.49.(ابن جريس)

حوالي (١١) أو (١٢) قامة، غـير أنه توجد آبار لا يزيد عمقهـا عن سبع قامات، وكلها تحت الاستعمـال المستمر لري النخيل وبساتين الفاكهـة والحقول. كان نبات البر، وهو أجود أنواع القـمح، قد تم حصاده وتكديسه على أرضيـة الدراسة وقد بلغ مرحلة الغـربلة في بعض الحالات، كما تم جمع مـحصول الشعـير من قبل. توجد أيضاً مساحة معتبرة مزروعة بالبرسيم، كما تخصصت بساتين الفاكهة لزراعة التين والتين الشوكي (البرشومي) والعنب، وهذا الأخير ليس بالوفرة الكبيرة ولكن يقال عنه إنه إنتاج من نوعية جيـدة. ويكثر في السوق المشمش من اليمن، واللوز من جبال الحجاز. كانت مياه البئر ممتازة كما هي العادة في الرمال الجرانيتية، وكان الصهريج غـاطساً في الطين الذي يكوِّن سطح الوادي، ومبطناً جـزئياً بالخشب أو بلكات البازلت أو كليهما معاً.

كانت معظم المنازل هنا ذات طابق واحـد، محاطة بحوش من الطين، ولكن في منازل الأغنياء كانت غـرفة الضيافة وغرف المعيـشة للعائلة في الطابق الأعلى. تصنع الأبواب عادة من خـشب الأثل مطلياً بالقطران الذي يستخـلص من أشجار وجنبـات جبليـة. ويوظف حطب الأثل أيضاً في صناعـة الأسوار الداخليـة وفي صناعة النوافذ. وتزاول عائلة آل كدسة تجارة معتبرة في كل من البن والصمغ. ولا تزال بيشة مركزاً تجارياً ينشط في مثل هذا الوقت في تجارة البن مع اليمن بينما يتم إرسال جـزء من الصمغ المنتج مـحلياً إلى عـدن – وهو الذي يجمع من أشـجار الكداد الطلحية – ويرسل جزءٌ آخـر إلى مكة – صنف الطلح –. كما كان هنالك نشاط آخر جـانبي ولكنه مهم لهذه الأسرة ألا وهو تجارة الرقـيق، والتي استمرت – ربما لا تزال – بحذر في هذه المستوطنات النائية. أخبرني سعيد[1] –حقيقة– عن

(١) أعتقد أن سعيد هذا هو سعيد بن سعود بن كدسه. انظر: ص (٨٦) من هذا الجزء (ابن جريس).

امرأة اشـتراها وهي طفلة في اليمن بمبلغ (٥٠٠) ريال وهي على مـشارف البلوغ الآن، وجاهزة للبيع بضعف ذلك المبلغ. ولمح أنها ستكون زينة لأي قصر يشتريها ولكنه لم يفصح لي عن نفسه بأنه البائع، ولكنه كان هو بلا شك.

كان سعيد أكثر أهمية لي في هذه اللحظة في ترتيب المؤن التي نحتاج إليها لما تبقـى من الرحلة. ويمكن لبعض الأشـياء التي تحـصلنا عليهـا أن تعطي فكرة عن الأسعار في بيشة عام ١٩٣٢م. كلَّف كيس من الرز الذي يزن (٢٢) صاعاً حوالي (٢١) ريالاً -يعادل بالتقـريب قيمة (٢) بنس للرطل- وكلَّف كـيس سكر يحتوي على (٩١) رطلاً ما يسـاوي تسعة ريالات -بنسـان للرطل بالتقريب- وكان سـعر علبة السمن التي تحتـوي على سـبعة وثلاثـين رطلاً ونصـف الرطل حوالي (٢٥) ريالاً، -جنيه للرطل- بينما كلف القاز (٣) جنيهـات للجالون. تضمنت قائمة ما نحتـاج إليه من بنود منوعة الأشيـاء التالية: (دقيق، وقـشر البن، ولوز، وزيت، وحلوى راحة الحلقوم، وشاي، وزنجبيل، وتوابل أخرى) وكان عليَّ أيضاً أن أؤمن القماش لفـرقتي المكونة من (١٢) شخصـاً وهو قماش غير مـخيط لأجل الإحرام قبل دخـولنا مكة. تطلَّب هذا القماش لفـتين من قماش أبيض طولهـما (٨٨,٥) ياردة وتكلفتهما (١٨) ريالاً - (٢٧) جنيهاً[١] -. أكملت هذه الأشياء إلى جانب ما تبـقى مما أحضـرناه من السليل، وهو قليل بما فـيه الكفاية، إلى جـانب بعض القدور والمقالي كل احتياجاتنا البسيطة للمراحل المتبقية للرحلة.

---

(١) وللمزيد عن الأسعـار المختلفة في أسواق بيـشة وغيرها من منطقة عـسير خلال القـرن الهجري الماضي، انظر: البركاني، **الرحلة**، ص٤٧، ٨١، ١٤٦، ابن جريس. **عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، ص١٧٠ ـ ١٧٧، مبارك الحـرشني المعبدي. **النظم المالية والإدرية في تهامة عسير خلال الأشراف السعودي (١٣٤٥ ـ ١٣٥١هـ)** (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٤٠٦هـ) ص٨٨ (ابن جريس).

لقد كان دليلنا حسن بن مهدي القحطاني، مفيداً لي جداً وقد دفعت له مبلغ (٢٠) ريالاً وهو مبلغ يزيد كثيراً عما ورد في العقد الأصلي. وقد تقدمت لتجديد العقد معه على المبلغ نفسه، ولكن نزعة الكرم عندي هزمت نفسها حين طالبني بأربعين ريالاً. ولذلك فقد استغنيت عن خدماته، وكذلك عن خدمات بداح تابع أمير الدواسر مقابل (١٠) ريالات، وهو ما يوازي قيمة موافقته عديمة الفائدة. قمت باسترضاء ابن معدي دون أي إحساس بالالتزام نحوه لأنه كان جاهلاً جغرافياً -مع كونه تقريباً داخل إقليمه الوطني- وبصفة عامة فقد كان عديم الفائدة ومع ذلك دفعت له مبلغ (٢٠) ريالاً، وأعطيت أبا جعشة عشرة ريالات بلا سبب معين، إلاّ أنني قد أعجبت به. وقد حاز على شكري، بمناسبة إعادته كلباً ضائعاً لي. لقد ضلت الكلبة العقفاء عنا خلال مسيرة اليوم السابق، عبر غابات الوادي الكثيفة، وقد تتبع هو أثرها حتى خيمة أحد البدو، حيث ربما أغراها راعي غنم ضال ومن ثم حجزها لشكلها الجميل. كما كشف فحصي لدولاب ملابسي الشخصي عن وجود القمل بكثرة في الملابس برغم عمليات إزالة القمل التي قمت بها في الربع الخالي، كما قد قمت بتوزيع أثوابي الملوثة بين رفاقي الأقل صعوبة في الإرضاء.

تميل ظروف الطقس في مثل هذا الوقت عادة للاضطراب والتباين، وتفيد المعلومات الواردة من مكة من صحيفة أم القرى بتاريخ (١١) مارس، بأن وادي إبراهيم قد أصابه سيل من أضخم السيول في تاريخه، إذ تغلغلت المياه إلى صحن المسجد الحرام وتجمعت حول الكعبة في بركة عمقها بوصة ونصف البوصة، وقورنت المناسبة، بواسطة الخبراء، بالسيل الذي استقبل الخديوي المصري عباس حلمي باشا حين أدى فريضة الحج عام ١٩٠٩م. لقد ذكرت من قبل أن وادي

بيشة قد فاض عدة مرات قبل زيارتنا وقد نبهنا البرق اللأمع من جهة الجنوب، وإن كانت السماء فوق رأسنا صافية، بأن موسم السيول لم ينته بعد. فلا تزال هنالك ثلاثة أيام متبقية من شهر مارس، حينما وصلنا إلى الروشن. وتمتد أمطار جبال الحجاز الشتوية عادة ولو بصفة متقطعة، من (٣٠) أكتوبر إلى (٢١) إبريل، مع امتدادات نادرة خارج هذه التواريخ في كلا الاتجاهين. لقد أجَّلْت دراستي للنجوم لليلة التالية من إقامتنا القصيرة والتي كانت لحسن الحظ جميلة جداً برغم أن عاصفة رملية معتدلة قد حجبت اليوم عنا، مع هبوب رياح عنيفة غير محبوبة وتغير سماء تظهر عليه السحب من حين لآخر. أظهرت ملاحظاتي أن خط الطول المعتمد لقلعة بيشة كان خطأ بمقدار درجة كاملة!.

تناولت وفرقتي طعام الإفطار قبل مغادرتنا بيشة، بعد الساعة العاشرة صباحاً في اليوم الثامن والعشرين من مارس، مع الأمير، وكان الإفطار حنيني[(١)] وتمر وذلك في الردهة التي كانت جدرانها مزينة في ذوق، بأعمال رسوم خطية ملونة بالحبر ذات صلة خاصة بفنانات أبها وعسير. لم أتحقق من شخصية الفنانة، ولكن من الواضح أن الأمير أو أحد أسلافه قد حصل على زوجة أو رقيقاً نساء من تلك المنطقة. وجدنا الأمير في يوم وصولنا قد عقد جلسة قضائية مكشوفة في ساحة السوق كما جرت العادة، وكانت الإصدارات مباشرة وذلك بإنزال العقوبة علناً. لقد تم جلد رجل كان قد اتهم بعلاقة غير شرعية مع امرأة بالجلد عشرين، أو ثلاثين جلدة، ذلك لردعه من تكرار الإساءة مرة أخرى، بينما المرأة، التي اختفت، بعقل في الصحراء فقد صدر الأمر بالبحث عنها بواسطة الشرطة، لتلقى نصيبها من العقاب الأعظم - غالباً ليس علناً - حينما يتم القبض عليها.

---

(١) الحنيني: طعام معروف عند أهل نجد يُعد من البر ويخلط مع السمن والتمر. (ابن جريس).

تلا عقاب الرجل لخرقه القانون الشرعي، عرض مؤثر (عرضه) قام بأدائه تلامذة بيشة في احتفال علني «لختمة» أحد الطلاب بإكماله لقراءة القرآن من الغلاف للغلاف[١]. حمل معظم الأولاد وكل واحد منهم كان في أحسن ملابسه ليوم الجمعة، السيوف أو الخناجر وحمل أحدهم بندقية معبأة. بطل المناسبة، بدا فخوراً ولكنه كان مرهقاً بالبرنامج الطويل والمشتمل على أغانٍ ورقصات. كما قام الأمير بتهنئته بحرارة بما حققه من نجاح، وكذلك فعل أعيان المدينة. لقد وضعت الحكومة أهمية كبيرة على التعليم خاصة التعليم الديني لشباب البلاد وليس من الصعب أن تخريج جيل أو جيلين بتربية راشدة سيكون له التأثير المرغوب مع مرور الزمن، دون الحاجة إلى مضايقة الكبار الذين لا حاجة لذكر أنهم لا يزعجون نومهم الخفيف عادة عند الساعة الرابعة صباحاً حينما ينادي المؤذن الرسمي كلاً من الحاكم وموظفيه لصلاة ما قبل الفجر في مسجد القلعة. لقد أثيرت الحماسة المحلية الدينية إلى حد ما قبل أسابيع قليلة من زيارتي وذلك بوصول خالد بن لؤي مع قوة بقية الإخوان الهادفة إلى معاقبة المتمردين في نجران[٢]. عسكر هذا الجيش بقوة (٢٠٠٠) جمل، ولعدة أيام في ساحة سوق نمران وكذلك في المساحات المكشوفة

(١) إن الاحتفال والابتهاج بالذي يختم القرآن من أبناء القرية أو المدينة تكاد تكون عادة متشرة عند معظم سكان شبه الجزيرة العربية خلال العهود الماضية، ولا زالت مثل هذه الاحتفالات سارية المفعول حتى اليوم عن طريق جمعيات تحفيظ القرآن الكريم المنتشرة في أنحاء البلاد، بل إن مثل هذه المناسبات تجد الدعم والرعاية من جميع ولاة الأمر في الدولة فيقومون برعايتها ودعمها مادياً ومعنوياً. (ابن جريس).

(٢) خالد بن لؤي كان أميراً للخرمة في عهد الشريف، وعندما ظهر الملك عبدالعزيز وتقدم في انتصاراته وضم بعض أجزاء البلاد، صار خالد مع معظم سكان الخرمة الذين أصبحوا متحمسين لدعوة ابن سعود؛ وبالتالي حدث خلاف بين خالد بن لؤي وبين الشريف عبدالله بن الحسين على أثرها خرج ابن لؤي على طاعة الشريف (ملك الحجاز) وصار من المناصرين والمؤيدين لـلملك عبدالعزيز. للمزيد انظر: خير الدين الزركلي. **الأعلام، قاموس تراجم** (بيروت: دار العلم للملايين) ١٩٨٤) جـ٢، ص٢٩٩ ــ ٣٠٠ .(ابن جريس).

من الواحة، بينما قبل اثنتى عشرة عاماً وللمفارقة، عسكر الأمير الشاب فيصل في الموقع نفسه في طريقه ليخضع محافظة عسير. كان لبيشة بصفة عامة تاريخ خال من الأحداث، ولكنها شاهدت الجيوش تعبر شمالاً أو جنوباً للحرب.



الفصل الثالث

درب الفيل

لا تزال مناسبة مثل هذه حدثت في الماضي البعيد، تذكر في تقاليد الواحة. يعود تاريخ الحادثة إلى سنة مولد الرسول ﷺ عام ٥٧٠م، حينما عبر بيشة جيش نائب الملك الحبشي على اليمن أبرهة[١] للهجوم على الحرم الديني بمكة. ستعطي الفصول القادمة للقارئ إشارات متكررة للقسم الجنوبي لدرب هذا الغزو المشهور، والمعروف لدى المؤرخين العرب باسم «درب الفيل» ذلك بسبب الفيل، أو الأفيال التي صاحبت الجيش الحبشي[٢].

لا بد أن يكون ذلك الجيش، الذي بلا شك قد تضخم بالتقاليد، عبر هذا السهل نفسه، الذي يمتد عريضاً وبعيداً إلى جانب وادي بيشة، المملوء بالنخيل ثم إلى سلسلة يلا، فيما وراء التلال الصغيرة الصواير. لا بد كذلك أن يكون الجيش وأفياله قد عبر إلى الجانب الأيسر للوادي، من هذا الموقع إلى جوار الروشن

---

(١) استقل أبرهة بالحكم في اليمن بعد قتله القائد إرياط، ولم تفلح محاولات الملك الحبشي النجاشي في القضاء عليه، وقنع بخضوع اسمي من أبرهة الحبشي الذي مات عام (٥٧٠م)، أو (٥٧١م) بعد فشله الذريع في حملته المنكودة على مكة المكرمة. لمزيد من التفصيلات انظر: محمد بن جرير الطبري. **تاريخ الأمم والملوك**. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار سويدان، د.ت) جـ٢، ص ١٢٧ ـ ١٣٠، محمد بُيومي مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم** (الأسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م) ص ٣٧٦ ـ ٣٨٢ . (ابن جريس).

(٢) المراجع نفسها، وللمزيد عن حادثة الفيل ومقتل أبرهه وجيشة، انظر: إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. **تفسير القرآن الكريم** (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م) جـ٤، ص ٥٨٦ ـ ٥٩١ (ابن جريس).

ونمران ليتبع الطريق نفسه إلى مكة، كهذا الطريق الذي بدأنا السير عليه في اليوم الثامن والعشرين من مارس. سيغادر سعيد بن كدسة بيشة في صحبة قافلة صغيرة مكونة من الحجاج والتجار وذلك عصر اليوم نفسه غير أنه سيكون مسافراً عن طريق رنية الخرمة.

لقد كان هدفي هو رؤية البلاد التي عبرها الفيل، وسيخصص هذا الفصل لوصف تلك المنطقة. لقد قطعنا الآن حوالي (٢٠٢) ميل منذ مغادرتنا السليل -حوالي (١٥٦) ميلاً من اللدام- وكنا تقريباً في منتصف الطريق إلى السيل -حوالي (١٩٢) ميلاً- حيث إنه هناك، وفيما يخصني، فإن رحلة الجمال العظيمة ستنتهي بركوبي متن لوري عابر ودخول مكة.

واكبت بداية الرحلة رياح شرقية غير مواتية جارفة الرمال من حولنا، وحجبت عنا المنظر الطبيعي أثناء تقريرنا لطريقنا عبر الوادي. مررنا سريعاً على امتداد الجانب الشمالي لنمران بين المدينة والقصر الكبير الوحيد، الذي على حافته كانت تقوم مزارع النخيل الكثيفة، والتي انحرفت على مسافة قريبة منا على هيئة شبه الدائرة مرتدة إلى الركن الشمالي الغربي للمدينة. مررنا بعد ذلك فوق الأرض العارية للوادي، تجاه نخيل الحرف الذي يبطن جانب الوادي الأيسر - الجال الشمالي -. وقد انتشرت على الأرضية الرملية الثابتة لبطن مجرى السيل أشياء مختلفة قليلة الأهمية ومطروحات جلبتها السيول الأخيرة الحديثة. واندفن بئر في وسط الوادي بالرمال وبالمخلفات. توقفنا بعد مسافة قليلة، لنسحب الماء من بئر خريت التي تقع على أرض مرتفعة قليلاً، في وسط مساحة زراعية معتبرة، لا تزال تحمل آخر مجموعة من القمح الذي ينتظر الحصاد. شمخت نخيلات قليلة من حول البئر التي تظللها شجرتان من أشجار الصفصاف (الغاف). كان عمق الماء

يبلغ (٢٠) قدماً فقط في موسم الأمطار، وعلمت بأنه من هذه النقطة المركزية في الوادي فإن عمق الماء يزداد تصاعدياً تجاه أي من الجانبين. لقد تحصلت في هذا الموقع على نموذج من شراك الطير المحلية (فخ) من إحدى السيدات، وكان معها ثلاثة أولاد، وكانت تسحب الماء من البئر لاستخدامها الخاص بالمنزل وبالمقابل فقد ناولتها ريالاً واحداً.

ما كنا نمر لنعبر الشريط الرطب لبطن الوادي حتى سقط جمل سعد، وانزلقت قوائمه الأربعة من تحته وكلها في الاتجاه نفسه وطرحته جانباً مع صدور صوت مدوٍّ. لم يحدث ضرر للجمل -لحسن الحظ- من هذه الكارثة التي مثلها مثل عامة الكوارث، قد أثارت الكثير من المرح على حساب سعد، وقليلاً من التعاطف مع ورطته، ولكنها حادثة قد تحدث لأي شخص. والعديد من الجمال معروفة بتعريضها لكسر عضو فيها فوق أرض زلقة. لقد لاحظت أن غابة الطرفاء النابتة على حافة الجانب الأيسر للوادي حينما اقتربنا منها كانت في معظمها محتطبة للوقود. هذا بالتأكيد غير طبيعي لأن دخانها اللاذع ينفر الناس من استخدامها حتى في نيران المعسكر، غير أن إمدادات الوقود في جوار المنطقة الكبيرة غالباً ما يكون منخفضاً إلى درجة الانعدام والحطب المناسب كثير التكلفة على الفقراء.

عبرنا سريعاً خلال حزام النخيل الطويل النحيل التابع للحرف، إلى السهل المكسو بالرمث الممتد من الجانب الأيسر للوادي تجاه تلال الأربيان التي تقع قليلاً إلى الخلف، كان طريقنا هو الدرب المباشر للحج، من بيشة إلى مكة، وهو معلم جيداً بالآثار للقوافل الضاربة في التاريخ. كان دليلنا هو ناصر بن سحمي من قبيلة البقوم وقد أمدَّنا به الأمير لكي يمثله بصفة شبه رسمية.

سرنا الهوينا مدة ساعة، متجاوزين سفوحاً خالية من الشجر إلاّ من الطلح (سَلَم وسَمْر) ومرتفعات الأربيان تجاه شريط تلال نُعْمي الذي يحجب مجرى وادي التبالة وهو رافد مهم لبيشة. بين المرتفعات والتلال يعبر الطريق من الروشن إلى القرى الواقعة في أعلى مجرى تبالة عبر أرض مرتفعة من خلال مضيق صغير يسمى ريع هايف الذي يقع على مسافة ميلين ونصف الميل ناحية الغرب من الحرف.

ظهر خط طويل من أثل وطرفاء وسط التلال السفحية على يسارنا، أثناء اقترابنا من الوادي الذي يبرز من الأرض المرتفعة إلى دلتا، وليس إلى مجرى في طريقه للاتحاد مع مجرى بيشة، على جبهة عريضة متكسره إلى عدة مجارٍ. جرى الوادي عند المستوى المرتفع حيث عبرنا، داخل حوضين رملين من خلال غابة حقيقية من الطرفاء، يقدر عرضها بالميل ونصف الميل، ومرقطة هنا وهناك بتلال نعمي البعيدة.

علمنا بأن أولى قرى تبالة واسمها شديق[١] تقع على مسافة مسيرة ساعة أمامنا وأنها ذات مزارع نخيل واسعة تحتوي على حوالي (٣٠٠٠) شجرة. وتقع قرية قنزية على مسافة (٢٠) دقيقة فيما يلي شديق وتحتوي على (٦٠) منزلاً وبها (٢٠٠٠) نخلة. وتقع الثنية على مسافة مسيرة ساعة تجاه أعلى الوادي، ويحتمل أنها هي المستوطنة الرئيسة إذ أن بها (١٠٠) منزل و(٤٠٠٠) شجرة نخيل، وعلى بعد (١٥) دقيقة بعد ذلك تقع قرية مكرم التي بها (١٠٠) منزل و(٣٠٠٠) نخلة، وأخيراً تأتي قرية تبالة على مسيرة ساعة بعد ذلك، والتي قيل إنها تحتضن ما يقارب (٥٠٠٠) شجرة نخل و (٦٠) منزلاً. وتبدو واحة تبالة أرض مزدهرة وذات (١٧٠٠٠) شجرة نخيل و(٣٥٠) منزلاً - قل إن عدد السكان يقدر بـ

(١) شديق: اسم قريتين تقعان على جانب وادي تبالة، وتسميان شديق القديم وشديق الجديد. الحربي، **منطقة عسير**، ج٢، ص٨٨٠. (ابن جريس).

(١٥٠٠) نسمة –، منتشرة فوق امتداد يقدر بطول (٥) أميال. يبدو أن الاتجاه العام للمجريَيْن هو من الجنوب ناحية الشمال ويقع رأس الوادي إلى الوراء البعيد في سلسلة العمود الفقري لمرتفعات الحجاز.

خرجنا من وراء الأرض النهرية – لتبالة إلى سهل عريض رملي، مطرز بتلال صغيرة مبعثرة وبسلاسل جبلية منخفضة تحفها على يميننا سلسلة طويلة – ثلاثة أميال – تسمى البرص على مسافة الميلين عنا، ويخترقها منخفض وادي الخليج وهو رافد آخر لبيشة، ويجري موازياً تقريباً لتبالة. لا توجد مستوطنات ولا يوجد نخيل في هذا الوادي كله، والذي قيل إنه يصعد عالياً في جبال الحجاز، قريباً جداً من منبع وادي رنية. مررنا بسلسلة من هضاب متوازية تتجه من الجنوب إلى الشمال، وتدعى حبل وذلك بعد اختراقنا لمسافة (٢٠٠) ياردة هي عرض بطن المجرى، والتي استغرق قطعها ركوب نصف ساعة لما وراء الحافة حيث دلتا تبالة. تبدو لنا البلاد من حولنا وكلها ميتة وموحشة مقارنة بثراء وادي بيشة ووادي تبالة وتعد مكوِّنة لجزء من منطقة أرض مرتفعة غير مثيرة تدعى ظهر تقع على بعد مسيرة يوم كامل إلى الأمام من تبالة. بدت روافد الخليج، شعيب الخليفة وآخر ليس له اسم، كأنما قد عاشت أياماً أحسن، غير أن ما تبقى من خطوط الأشجار معلمة مجراهما كانت ميتة ومتآكلة. لقد أثرت الأمطار الأخيرة، هنا وهناك، في بعض أجزاء المنخفض الغطاء النباتي ليبرز. ولكن المنخفض كان في معظم الأجزاء فضاء موحشاً، مع مرتفعات قليلة غير مؤثرة ولكنها مخففة للملل مثل أم فرقين[١] والبرص.

---

(١) أم فرقين: جبل أسود ضخم من جبال بيشة، سمي بذلك لأنه مشطور الرأس. الحربي، **منطقة عسير**، ج١، ص١٨١. (ابن جريس).

انتهينا من آخر سلسلة الجبل عند منتصف فترة ما بعد الظهر، وتوقفنا لأداء صلاتي الظهر والعصر جمعاً، وذلك عند حافة سهل ضخم يسمى محات حيث أشجار الوهط. كان المكان بالفعل يتلألأ بهذه الشجيرات الشوكية إلى جانب تلال صغيرة مبعثرة جرانيتية رمادية داكنة ذات مساحات خشنة. كان سطح السهل ذا صلابة ومخدشاً عميقاً بآثار القوافل المتجهة إلى تربة ومكة. وتوجد إلى جانب الطريق بقايا نسر افترسه -فيما يظهر- ذئب. لعله التهم من جيفة جمل ساقط حتى صعب عليه أن يتحرك وأصبح بذلك فريسة سهلة للعدو الذي يجوس في خلسة. استغرق عبورنا لهذا السهل الكثير الأشجار حوالي ساعة أو أكثر، قليلاً قبل الغروب، ونفذنا من منطقة ظهر إلى خليط مسايل ضحلة، تسمى «متعارضات» واستقر بنا المقام في معسكر لنقضي الليلة في المجرى الرئيس لوادي المتعارضة والذي يجري إلى أسفل ليتحد مع بيشة في جوار عُقَيلان[1]. تغطي هذه المنخفضات محاصيل جيدة للعشب النجيلي الثمام مع انتشار كثيف للطلح، ولكنه كان طريقاً موحشاً به تلال صغيرة جرانيتية رمادية تتآكل إلى لون داكن وتتشقق هنا وهناك بخنادق من بازلت أسود.

لقد قطعنا حوالي (٢٠) ميلاً منذ مغادرتنا الروشن ونحن الآن على ارتفاع (٣٩٠٠) قدم فوق سطح البحر، وقد تعلق غبار خفيف فوق المنظر عند بروز الشفق من خلال الظلام الدامس في ليلة المحاق. غير أنني استطعت أن أقوم بملاحظاتي للنجوم بصورة كافية. جلس معظم رفاقي، وقد انتهى العشاء وانتهى التخلص من بقاياه، وهم في سعادة يهيئون أثواب إحرامهم، بينما أحضر الأكثر

(١) عُقيلاَن: منهل، قرب قرية الجنينة. (ابن جريس).

التزاماً منهم كتاب «مناسك الحج» لتجديد الإلمام بالتفاصيل المطلوبة للشعائر التي تنتظرهم عن طريق قرائتها بعضهم لبعض، ويقومون بتوضيحها. كان سعد في هذا المضمار، وهو أكثرهم دنيوية في التفكير وأقلهم تدينا، وأحسنهم فهماً وتمكنا بالموضوع وقد استمعوا له باحترام وإعجاب. ابن معدي، أكثر أعضاء الفريق تظاهراً بالتقوى، قال إنه يحفظ القرآن عن ظهر قلب، غير أنه حقيقة بالكاد قد تعلم، ويقرأ فقط في صعوبة. جلس ناصر البقمي[١] وهو رئيس مجموعتنا إلى جواري يتحدث عن خبراته حينما رافق الأمير عبدالله بن معمر، لمحادثات مشاكل الحدود مع الوفد اليمني المفاوض في عام ١٩٣١م. ترأس عبدالله الوفد السعودي وافتتحت المحادثات في رازح في مقاطعة اليمن بسبب قربها من الجزء الرئيس للنزاع في ذلك الوقت: جبل العُر. استمرت هذه المرحلة من المحادثات لمدة (٢١) يوماً وانتقلت بعدها إلى أبي عريش على السهل الساحلي[٢].

قادنا الطريق في الصباح التالي، عبر أرض جميلة جبل لتلال سفحية محطمة، شبيهة بما شاهدناه حول وادي عرقية بين السيل وهضبة الطائف، يبدو أننا كنا نصعد ونهبط ثم نصعد ونهبط، عبر ما يبدو كتتابع لا نهاية له، من سلاسل جبلية منخفضة وأودية ضحلة مكونة منطقة المتعارضات التي تغطي مساحة تقدر بعشرة أو اثنى عشر ميلاً مربعاً من الشمال إلى الجنوب، وممتدة من القاعدة إلى أعلى الجبال، تجاه الغرب، إلى حافة وادي بيشة. كانت بداية المسيرة، التي

---

(١) هو ناصر بن سحمي البقمي. (ابن جريس).

(٢) وللمزيد من التفصيلات عن رسم الحدود بين المملكة العربية السعودية واليمن في منتصف القرن الهجري الماضي، انظر. عبدالله بن سعود القباع. **العلاقات السعودية اليمنية** (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ص٣٧٨ ـ ٤٣٤، محمد بن عبدالله آل زلفة. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز، دورها السياسي والاقتصادي والعسكري في بناء الدولة السعودية الحديثة (دراسة وثائقية)** (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م) ص٢٠٥ وما بعدها. (ابن جريس).

بدأت سريعاً بعد الساعة السادسة صباحاً، باردة منعشة مع نسيم لطيف يهب من الشمال. ووصلنا، بعد حوالي الساعتين، إلى المجرى العريض ذي خشا الذي يعلِّم الحدود الشمالية للمتعارضات وهو أيضاً رافد آخر لبيشة، ويتحد معه عند أو بالقرب من بئر عقيلان نحو حوالي الميلين أسفل الجنينة. يقع بئر بريدة في بطن هذا الوادي وتقريباً عند الموقع الذي يتقاطع فيه ممر الحج مع المجرى، وللبئر خزان دائري جيد البناء، ومبطن بحجارة بازلتية مشذبة بعناية. يصل قطر فوهة البئر إلى ثمانية أقدام، وبه ماء كافٍ على عمق (٢٥) قدماً. يرتفع وادي ذي إكشة في ممر خشن صاعد على مسافة خمسة أميال ناحية الغرب من بريدة، وللوادي بئران أخريان في بطنه أعلى بريدة هما صبا على مدى نصف الميل إلى الأمام والشنيفية حوالي الميل الواحد فيما يليها. لا توجد آبار في الوادي بين بريدة وعقيلان وتبعد هذه عن الأولى بمسافة (٣٠) ميلاً.

تشبه هذه البلاد، فيما يلي هذا المجرى، تلك التي قطعناها لنصل إلى هنا، طريق يؤدي إلى تل سفحي محفوف بالروافد الجميلة لذي خشا متضمنة الرافد الأكبر نسبياً وهو أبو ظبيان ويمتد إلى مسافة ثلاثة أميال إلى سلسلة منخفضة واضحة جداً ومعلَّمة تبدأ من ممر يسمى سديرة من واديه الرئيس. ساعدني المضيق عند رأس شعيب سديرة والذي إلى أسفله يستمر طريق الحجاج لفترة أن أقوم بالتقاط منظر كامل لمرتفعات كور البرهة التي تكوّن حاجزاً صلداً وعالياً يفصل بين هذه المقاطعة ووادي رنية نفسه. ويجري من جانبه القريب خط المصرف الرئيس لوادي الذهاب والذي تصب فيه سديرة وعدة مصبات ثانوية أخرى كل حمولة السيول الموسمية، والتي تصل في نهاية الأمر إلى وادي بيشة على مسافة بعيدة أسفل عقْيلاَن. تخترق جبال الكور والتي تقع على مسافة ستة أو سبعة أميال

أمامنا، ثلاثة ممرات معروفة، تقود إلى وادي رنية من عدة نقاط وعبر ممرات منها ممر تريمة بعيداً إلى الشرق وممر مخضار في الوسط وممر القضة ناحية الغرب. وتوجد بئر تسمى عجيريدية في بداية هذه الممرات، وأيسر هذه الممرات هو آخرها. لذا يتجه طريق الحجاج ناحية وادي القضة حيث لا توجد صعوبة بالمناسبة في الحصول على الماء في هذه المنطقة، وذلك لأن الكتل الجرانيتية للكور منقرة، وذات برك صخرية عديدة يمكنها الاحتفاظ بالماء مدة لا تقل عن شهرين أو ثلاثة بعد موسم الأمطار.

مررنا أثناء مسيرتنا في هذا السهل العريض، الذي تغطيه الحشائش الخشنة وأشجار الطلح بدائرتين قطر أحداهما (٢٥) ياردة، والأخرى خمسين ياردة وكلاهما مخطط بعناية بحجارة من صخر وعلى مسافات متقاربة، وكل منهما تحتوي في مركزها على نصب تذكاري كبير، أو على قبر. ويبدو في وسط كل دائرة منخفض كأنما قصد منه أن يكون خزاناً مؤقتاً لتجميع مياه السيول التي تمر فوق السطح الطموي للسهل، علماً بأن الوسط مغطى برمال منقولة بوساطة الرياح. لم يضف رفاقي شيئاً غير قولهم إنها قديمة، كما أنهم لم يلقوا الضوء على أهميتها، أو الغرض منها. مررنا دون أن ندري من مجرى سديرة إلى وادي الذهاب والذي تكون من مجريين على جانبي هضبة متوسطة بازلتية تسمى الضنط وقد اندمجا آخر الأمر مع مجرى ثالث يسمى دحثمي ويسمى المصرف الناتج الذهاب أو رشيدة، سيان، وينساب شرقاً نحو بيشة.

يوجد في مجرى دحثمي بئر بالاسم نفسه، وليست بالبعيدة من درب الحجاج، وقررنا أن نتخذ انحرافاً خفيفاً لزيارتها لأجل صلاة العصر واحتياجات الوضوء. كان من حسن الحظ أن فعلنا ذلك، وذلك لأن البئر كانت قائمة في

أخدود ومحـاطة بالصخور وكانت بلا شك قديمة البناء. كـان يوجد على الجدران المحيطة وعلى الجلاميـد البازلتيـة رسومات لجمال ووعـول وأناس ونقوش ثمودية وعربية، وقد استطعت أن أنسخ بعضها قـبل مواصلة السير. كان خزان الماء متيناً، ومن حجارة بازلتيـة، وكان الماء عند عمق (١٨) قدماً، غير أن البـئر قد تضررت كثيراً من السيول الأخيرة، ويبدو أن الشجيرات في الأخدود والأعشاب الوفيرة قد قامت بجذب أسراب كبـيرة من فراشات الكبريت، كما رأينا أيضاً بـالفعل حمامة صحراء منعزلة. لم نر خلال مسيـرة اليوم كله ما يدل على وجود حياة لإنسان أو لحيوان إلا راعياً وبعض الأغنام فيما وراء ذي إكشة.

واصلنا السير إلى رأس وادي دحشمي بعد متـابعته مدة نصف ساعة إلى حيث المضيق الضيق الذي هبطنا منه على جانبه البعـيد إلى مجرى شعيب (القضة) وهو رافد لوادي رنية. كـانت سلسلة مضيق دحشـمي مصيد ميـاه بين النظامين النهرين العظيمين: بيشة ورنيـة وكانت قمتها العامـة على ارتفاع (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر وتمثل امـتداداً غريباً لكتلة الكـور التي تملأ المستطيل الذي تكوّن من كل من رنية إلى الشمـال، والقضة إلى الغرب وشريط دحشـمي - الذهاب - رشيدة إلى الجنوب. ثم تمتد شرقاً. كما اكتشفت في مناسبة أخرى على شريط طريق سيارات رنية - بيشـة تماماً ناحية الغـرب من مجرى بيشة. لقـد أمكننا رؤية أول البراكين، ذوات الحقول الصخـرية البركانية العظيمـة، مما يلي رنية، وذلك من المضيق الذي يشاهد بالقرب منه عـرق كوارتزي سميك يختـرق كتلة الكور الجرانيتية البـازلتية. كانت نبـعة بعيداً نحـو الشمال الغربي، بينمـا برزت قمتا الكور الجـرانيتية نـاحية الشمال. تراكمت أسفـل المضيق قليلاً كمية من الحجارة السائبـة على الهضبة إلى يميننا، ويبدو أنها كانت تعمـل كبرج مراقبة قبائلي. تعرج مجـرى القضة وعرضه

أقل من (١٠٠) ياردة، في انحناءات سهلة بين السلاسل الجرانيتية البازلتية، والتي هذَّبته على الجانبين وقد اكتسى إلى درجة معقولة بغطاء نباتي سفحي جبلي، مكوّن من الطلح والعوشز وكثير من نبات الثمام الخشن وعشبة الحلفاء، ومن حين لآخر أشجار السرح. كان الوادي، بصفة عامة جافاً، وكان نصيبه من الأمطار الأخيرة ضئيلاً. تعلّمت صخور الوادي هنا وهناك، بالوسوم القبلية.

واصلنا السير إلى ما بعد غروب الشمس وكان زملائي الأقربون زايد وسعد وناصر وواحد أو إثنان آخران يرغبون في الاستمرار. غير أنني أصررت عليهم أن نعسكر في دربنا نفسه خاصة وقد أصبحت الدنيا ظلاماً حولنا لا نكاد نرى شيئاً ولم أهتم باحتجاجاتهم. أشرت إلى أن حيوانات التحميل لا تزال على مسافة بعيدة خلفنا، ولن تصلنا هذه إلاّ بعد نصف ساعة لاحقة. كان الرجال المهتمون بها يلعنوننا ويهددوننا بصوت مرتفع ذلك لعدم اعتبارنا لهم حينما تركناهم يمشون في الظلام عبر ذلك الوادي الصخري الضيق. أخبرتهم أنه ربما كانت أحوالهم ستسوء كثيراً لو لم أصر على التوقف. عندما فعلنا ذلك.

كنا على بعد ثلاثة أميال أو أقل من مجرى رنية الذي وصلناه حوالي الساعة السابعة صباحاً في اليوم التالي، وذلك بعد مواصلتنا المسيرة أسفل وادي القضة. شاهدت شجرتين مزهرتين على جانب التل، أثناء مرورنا، وكانتا جديدتين بالنسبة لي، وعلى مسافة قليلة إلى أسفل وجدنا بركة ماء في بطن المجرى في موقع معلّم بنصب حجري لحرب قبلية وقعت قبل (١٥) سنة بين محاربي سبيع وغامد، والذين تقع حدودهما خلفنا على امتداد وادي دحثمي – الذهاب. كانت البئر التي قمنا بزيارتها تابعة لسبيع ولكنها تكون نقطة لقاءً ثلاثي بين تلك القبيلة وأُكلب – في السفوح التلالية نحو بيشة وما وراءها – وغامد – غرباً إلى جبال الحجاز –.

يتسع وادي القضة تدريجياً الآن إلى عرض (٥٠٠) ياردة، مع كثافة للطرفاء داخل المجرى وحـوله ذلك عندما اقـتربنا من وادي رنـية الذي يدخل بالفـعل عبـر دلتا مخضرة بكثافة بالأراك والأثل وقد نما بعضها إلى حجم أشجار عظيمة.

كان وادي رنيـة، من هذا الموقع العالي، والذي كان يجـري تجاه الجنوب إلى الشـمال، غنيـاً بالغطاء النبـاتي والميـاه. وقد تبـاين عـرضه مـا بين (٥٠٠) إلى (١٠٠٠) ياردة ويتكون من صخـور منخفضة بازلتـية فوق صخـور خشنة مكورة كلها كانت تكوّن بطن الوادي كما كان الوادي تنتشر فيه متاريس مرتجلة حجرية في خشونة ووجود نقاط قوية مصممة للدفاع عن هذا المصدر المائي المهم جداً ضد أي اعتداء قبلي. تمتد بحيرة ذات اعتبار طولها (٣٠٠) ياردة وعرضها (٣٠) ياردة من موقع اتحاد القضة مع انسياب متزن لمياههـا تجاه النهاية أسفل الوادي مخترقة خيطاً من برك ذات حشـائش ومنخفضات صـخرية إلى أقصى مدى يمكننا رؤيتـه أسفل الوادي. لقد قيل إن هذا الماء مستديم ما عدا المواسم الكاملة الجفاف والتي هي في حكم النادر، وتبدو أنها تأوي عـدداً كبيراً من الأسماك التي يمكن رؤيتـها متطلعة ناحية الذباب الصغير والبعوض وحشرات أخرى لالتقاطها. لقد عانينا من البعوض حتى في معـسكرنا هناك في وادي القضة الجاف أثناء الليل، غيـر أن هواء الصباح الباكر هنا يضج بحـياة الحشرات في الغطاء النباتي، الذي يتكون بصـفة رئيسة من طرفاء وأثل وأراك عند الموقع وحشائش الحلفاء وشـجيرات الشار عند الوادي نفسه إلى أسفل. وهذا الأخير يـتدفق في رشاقة كغدير جبلي. قـمت بالبحث عن بركة عميقـة في الأسفل لكي أسبح فيها. كـان الماء بارداً كالثلج، ولكنه منعش وحلو. التحم الوادي على مسافة قليلة من هذا الموقع بمسيـل شعيب مخضر والذي يسوق الممر الوسط عبـر جبال كور التي ذكرت من قـبل. لا نستطيع رؤية أي جانب من

واحة رنية من هنا، وقد قيل إن أقرب مستوطناتها تقع على بعد (٣٠) ميلاً مع اتجاه أسفل الوادي ومن هذا الموقع. كانت المسافة إلى الروشن في وادي بيشة حوالي (٤٧) ميلاً.

واصلنا مسيرتنا فوق هذه التلال الصغيرة الجميلة إلى ما وراء المجرى، بعد توقف لمدة ثلاث ساعات في هذا الموقع الجميل. ومن هناك تباعد دربنا تدريجياً نحو الشرق. اعترض هذا الممر الخشن العديد من روافد رنية وأحدها يسمى رثا - ربما تحريف محلي لروضة - التي تدل تلالها المحطمة على أحداث صراع بشري وقع في الأزمان السابقة، ذلك لانتشار ركام الحجارة كنصب تذكارية معلمة قبور القتلى، بينما هنا وهناك، تحمل قمة الهضبة، أو منحدر التلال الصغيرة، الآثار التي تدل على الجدران الحجرية التي شيدها الإنسان والتي لا بد أن تكون قد شيدت للدفاع عن موقع الماء.

تحركنا عبر مسيل ثانوي للمضيق ريع سحبل الذي هبطنا منه إلى وادي شعيب البحيثة الواسع. يدخل هذا المسيل إلى رنية على مسافة قليلة أسفل مدخل شعيب مخضر، ولكننا تتبعناه إلى أعلى حيث بئر حاسي حوالي مسافة ميل واحد من موقع دخولنا إلى هذا المجرى كثيف الغابات. تحتفظ هذه البئر عادة بالكثير من الماء عند عمق خمسة أو ستة أقدام، ولكنها في هذا الوقت راكدة تماماً في بركة كبيرة من مياه السيول في وسط مستنقع لحشائش الحلفاء، مع الكثير من نبات الحرمل حول حوافه في أيكة من الطلح والمرخ والعوسج، وعدد من شجيرات أخرى[١]. تقع بئر أبا الديمان على بعد ميل ونصف الميل عكس اتجاه الوادي بعد

(١) لقد ورد أسماء نباتات كثيرة في معظم صفحات هذا الكتاب، ولمعرفة أنواعها، وأشكالها وفوائدها يستحسن الاطلاع على المصادر والمراجع التالية: أبو حنيفة أحمد الدينوري. **كتاب النبات**، القسمان =

بئر حاسي فـي الوادي نفسه، ويوجد ماؤها عـند عمق قامتين. وتقع بئـر حبحب والماء فيـها عند عمق قـامة واحدة، على بعـد نصف الميل إلى أعلى الوادي وعلى بعد المسافة نفسهـا توجد مجموعة من عشرة ثقوب مائية طـبيعية تدعى برمة. يقع رأس وادي البحيثة، كما أخبرت على بعد عشرة أميال باتجاه أعلى الوادي من برمة داخل حوض صخري كبير وطبيعي يسمى الفرح، مكانه في ممر في المرتفعات إلى الغرب من حـاسي. أكد لي ناصـر أن التلال حـول الفرح ممتلئة بالأرانـب البرية والوعول والنمور وأن هذه الحـيوانات توجد أيضاً في مرتفعات كـور. كما لاحظنا مجموعات من الرعاة ينتمون إلى المفالحة من سبيع. كان الصخر التحتي لهذا الممر من جرانيت أحمر بيـنما كانت السلاسل القائمة والتلال الصـخرية كلها من بازلت داكن اللون. برزت خضـرة الغطاء النباتي رائعـة مقابل الخلفـية الأرضيـة السوداء والبنية.

واصلنا قدمـاً إلى البحـيثة لفـترة متـحسسين طريقنا بـين جلاميـدها المكسرة وتوقفنا عند مسيـل قصير في مضيق منخفض في سلسلة تـفصله من رافده المسمى شعيب سمـر. ثم مررنا بقلعتين محطمتين في المضيق نفســه وفي وادي سمر تقول عنهما الروايات المحلية إنهما ينتميـان إلى قبيلة بني هلال القديمة. وقد كانتا دائرتي الشكل بقطر (٢٠) ياردة، ومبنيتان من حجارة كـبيرة من جرانيت أحمر، بينما تم

= الأول والثاني من القاموس. تحقيق محمد حميد الله (القاهرة، ١٩٧٣م)، وكذلك الجزء الثاني والنصف الأول من الجزء الخـامس من الكتاب نفسه، تحـقيق **برنهارد لفين** (بفيسـبادن، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م)؛ محمـود الدمياطي. **معجم أسـماء النباتات الواردة في تاج العروس** (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجـمة، ١٩٦٥م) ص ١٧ وما بعدها؛ غـيثان بن جريس (أهـمية النباتات في الغـذاء والدواء ببلاد السراة من خلال بعض كتب التراث الإسـلامي) دراسة منشورة في كتاب: **صفحات من تاريخ عسير** (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) جـ١، ص٣١ ــ ٤٤ . (ابن جريس).

تعزيز وتقوية المضيق عند رأس المسيل بجدار قـوي، إلى جانب حاجزين متوسطين وامتدادات أعلى السفوح على الجانبين. هبطنا إلى شعيب ثليم الذي يجري مقاطعاً طريقنا من جهة الجنوب الغربي ناحيـة الشمال الشرقي في طريقه للاتحاد مع وادي رنية وعبـرناه لنصعد إلى هضبة صغـيرة صخرية معلّمـة بنصبين تذكاريين. كنا لا نزال في منطقة رثا الذي يحتـضن كل هذه الشبكة من مصبات رنيـة غير أننا الآن ولأول مرة نطل على منظر لحـقل الحمم العظيم لحرة البـقوم ذات القمم البركـانية المبعثرة والتي تمكنا من رؤية اثنتي عشرة واحدة منها.

لقد صممت النصب التذكارية في هذا الموقع كعلامات تدل على التقاء طريق غامد الرئيس مع طريق حج بيشـة – مكة. نستطيع كذلك رؤية الطريق الأول وهو يجري إلى الخـارج ناحية الجـبال في اتجاه غربـي بينما جرى طريقنا باتزان ناحـية الشمال الغربي.

يقع الطريق في حوض شـعيب الضعـة الضحل المتدرج العـمق تجاه السلسلة المتقاطعة المسماه هضبة الضعة وخلالها يتحد به مجرى شعيب البير[١] على الجانب البعيد والذي بدوره يخترق السلسلة الجنوبية للركام البركاني. يجري شعيب الضعة من هذا الموقع شرقـاً بين سلسلة الضعة وممر الركـام البركاني ليواصل على امـتداد الحافة الجنوبية لـلأخير، حتى يتحد مع مرور الوقت مـع وادي رنية. ولذلك فهو يكوّن الحدود الشمالية لمنطقة رثا الذي مررنا بجواره إلى الحرة وهي مساحة ضخمة من قفار سوداء يبدأ بهداب صخور بازلتـية، لامعة صلدة، وسرعان ما يأتي بعدها حمم بركانية منصهرة ذات نشاط بركاني حديـث نسبياً. تنتهي الهداب البازلتية إلى

(١) يعرف هذا الشعيب في الحـرة باسم (خربق). (مقابلة مع الأستاذ/ مترك السبـيعي المعلم بإحدى مدارس رنية، وأحد خريجي فرع جامعة الملك سعود في أبها سابقاً) (ابن جريس).

سلسلة تسمى هضيبات الملعب والتي تكون الحدود القبلية المعترف بها بين سبيع والبقوم، ولكن الرعاة الذين يحتلون المراعي حول شعيب البير في هذا الوقت ومعهم قطعانهم الضخمة من الضأن فإنهم ينتمون لقسم آل مسلَّم من غامد[(١)] وهذه شهادة بليغة لأثر السلام الجديد في جزيرة العرب. احتلت قبيلة غامد المرتفعات إلى جنوب مجرى رنية من رغدان إلى غضانة. والتي تكشف عن قوتها العددية بحقيقة أنها تدفع مبلغ (١٥٠٠٠) ريال سنوياً للجهاد - إعفاء عسكري - وتدفع (٢٩٠٠٠) ريال زكاة عادية في السنة. ترك بعض رجال القبائل المتجولين آثارهم هنا وهناك على الصخور البازلتية برسمهم ما يشبه صورة حيوان ما برياً كان أو مستأنساً.

على تعامد مع سلسلة الضعة التي يبرز منها، ناحية الشمال، حاجز بازلتي منخفض يدعى رجيفة[(٢)] يفصل مجرى شعيب البير من حوض الحمم البركانية، ومن ثم إلى حدود أبيار ابن غنام في بطن الوادي السابق، وعلى مسافة ميل واحد داخل حدود البقوم. توقفنا هنا مدة ساعة لنسحب الماء ونستمع لأخبار هذه المقاطعة من الرعاة الذين كانوا قادرين على إطلاع ناصر على الحالة العامة لمعسكرات أقربائه البقوم. يبلغ عدد هذه الآبار خمس آبار، يتراوح عمقها ما بين قامتين ونصف إلى ثلاث قامات: ثلاثة منها متقاربة من بعضها البعض في شريط على امتداد شاطئ المجرى، والاثنان الآخران يقعان عند المؤخرة. لقد تم حفر هاتين البئرين في أرضية السهل الصخرية الصلدة الجرانيتية الحمراء، والتي كانت مغطاة بطين وحصى إلى عمق ثلاثة أقدام. يشق المجرى طريقه عبر صخور جبسية

(١) آل مسلم من غامد البادية، ويسكنون بسفوح السراة. الزهراني، **المعجم الجغرافي لبلاد غامد وزهران**، ص٣٢. (ابن جريس).

(٢) ويعرف هذا الحاجز أيضاً باسم (أبو صفيح). (مقابلة مع مترك السبيعي) (ابن جريس).

هي أيضاً مغطاة بالحصى، ويخترق خزان البئر هذه الطبقات إلى أسفل الصخر. أصبحت إحدى هذه الآبار معطلة مؤخراً بسبب سيل كثيف ملأها بالطمي والماء حتى الحافة.

واصلنا مسيرتنا تجاه الشمال الشرقي، على امتداد الشعيب، بعد أن أكملنا احتياجاتنا، ثم ابتعدنا تدريجياً عن الشعيب حتى وصلنا بعد حوالي الميلين إلى قطعة أرض ذات غطاء شجري كثيف وفيه قررنا أن نعسكر تلك الليلة. كان الوقت في أول العصر ورأينا أن نترك لجمالنا المرهقة المنفعة الكاملة بهذه المراعي الممتازة من حولنا. إلى جانب ذلك فقد كان ناصر[١] يتطلع إلى زيارة أقاربه. لقد حاول ناصر بالفعل أن يوقفنا قبل ذلك، ولكنني واصلت المضي قدماً، متجاهلاً إشارته. لقد حاول، لبعض الوقت، أن يحصل على الإذن بتركه في هذه المنطقة، ولكنني كنت مصراً بعدم الإذن له قبل وصولنا إلى تربة والتي كان الأجر مدفوعاً له على أن يوصلنا إليها. كان ناصر أيضاً يتمنى امتلاك منظاري ثنائي العدسة، ولكن بلا فائدة وقد كان في مزاج سيء إلى حد ما. فقد جاء الآن راكباً، يلاحقني وهو غضبان هائج، ليعلن لي أنه لا شأن له بي ولا بأساليبي غير المنطقية، والتي سيبلغ عنها ابن سعود. أخبرته أنه حسب ما يخصني يمكنه أن يذهب إلى جهنم ويبلغ عني الشيطان وأخبرته بأنني سأعسكر كيف ومتى يروق لي ذلك. ذهب عني بعد ذلك في غضب شديد مدركاً أننا كلنا قد عرفنا أن كل ما يريده هو أن يسمح له بالذهاب لأصدقائه في الصحراء. حدث كل هذا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ولم أكن مستغرباً لرؤية ناصر عائداً للمعسكر في العاشرة مساءً وفي صحبته أحد

(١) هو ناصر بن سحمي البقمي. (ابن جريس).

أقربائه وقد أحضره لي على الفور مـقدماً له، دون أية إشارة إلى الشجار الذي دار عصراً بيننا. وطالما جاء بنفسه فلم يكن من الضرورة التعليق.

انتشرت المراعي الـشجرية في روضة ابن غنام بعيـداً وعلى اتساع من أطراف سهـل الحمم البـركانية، المـمتلئ بالرمـاد البركـاني، وبالرمل. والذي تمكنت من رؤيته، وما حوله، من تل صغيـر بجوار معسكرنا. تواجهنا من الغرب عن طريق الشمال إلى الشـرق شبه دائرة كبيرة مـن الحمم البركانية ذات أكثـر من (١٢) قمة بركانية منتشرة على مسافات غير منتظمة. انقسم السهل إلى الغرب من موقعنا إلى قسمين بواسطة سلسلة منخفضة تسـمى دج يقع خلفها سلسلة طويلة منخفضة من تلال لحمم بركانيـة ذات قمم عشرة تسمى الأهايل وتكـون الطرف الغربي للحرة. يقف توأم لفـوهة بركـانيـة، قليـلاً إلى شـمـال هذه السلـسلة يسـمى أبا الريات ويفصلهما بئر قديمة تحمل الاسم نفســه هذه البئر «ميتة» الآن وبلا ماء، لقد كانت هذه البئر عبارة عن محطة للمبيت لدرب الفيل أو «درب الأجل» كما يسميه البقوم وقد تبـاعد من طريقنا عند رأس وادي دحثـمي ليطوق البلاد التلاليـة الوعرة التي اجـتزناها. ثم يلتف من حـول هضـبة سـهلة خلف سلسلة الأهايل إلى بئـر أبي الريات ثم تنغلق مرة أخرى فيما يليها ناحية الشمال، على طريقنا مباشرة، سرعان ما نبتعـد عنه لتجنب تربة. كلا الدربين قد استـخدمتهما قوافل الحـج المتجهة إلى مكة، رغبوا في زيارة تربة أم لا. والعرف العام أن جيش أبرهة الحبشي تقدم نحو مكة عن الطريق الأكثر ماءً، وحين انسحابه انهـزم على طريقنا. كان السهل تنتشر فيـه حولنا معـسكرات العرب الصغـيرة مع قطعان أغنام عـديدة (بيضاء) ومـاعز (سوداء) منتـشرة من حولهم. لقد كـانت قمة موسم ولادة الحـملان، وكان رعي الحملان والحيوانات الصغيرة منفـصلة عن الحيوانات الكبيرة أسلوباً واضحاً. كانت

الأمطار هذا العـام وفيرة وبشكل واضح وكـان المرعى في أفضل حـال. ويبدو أن الأعراب كانوا في قمة معنوياتهم.

يحتل حـقل الحمم البركـانية لحرة البقـوم كل المنطقة الواقعـة بين وادي رنية ووادي تربة ممتداً من خـط الأهايل عند طرفه الغربي، شـرقاً إلى طريق السـيارات الجديد مـن الخرمة إلى رنيـة. لقد ارتفـعت بعض قمـمه البـركانية وفـوهاته ذات الأشكال الخياليـة إلى علو (٥٠٠) قدم، أو يزيد، فوق مستـوى السهل، ولكنها، في معظم أجـزائها، كـانت مجرد كـتل بلا شكل، ترتفع إلى (١٥٠) أو (٢٠٠) قدم. تحاشينا الجـسم الرئيس للحمم البركانية، بعبـور بعض البروزات الوعرة منها عندما تبعنا الطريق الأقل صعوبة متنقلين من مساحة مكسوة بالشجيرات، والطمي السهلي إلى أخرى. كانت منطـقة الصخور البركانية مكسـوة بالشجيرات وبالغطاء النباتي الربيعي الجديد، والذي لمـع مقابل الخلفية السوداء للمنظر الطبيـعي بمسحته الخضـراء اللطيفـة. حلّق فوق رؤوسنا سـرب من طيور القطاء، مع بزوغ الفـجر متجـهاً للآبار من خلفنا، وقد أزعجنا هذه الـطيور على امتداد اليوم كلـه بمسيرتنا فوق السـهل الذي استقـرت هي فيه، بعد شـربتها الصـباحيـة، وذلك للغذاء أو للراحة. مررنـا، هنا وهناك، بعشش بدائية البناء وزرائب أغنام من حـجارة لحمم بركانية، حيث أصبح الذئب الجـوال في هذه البلاد هو العدو الرئيس للرعاة، بعد أن توقف الإنسان في هذه البـلاد، تحت النظام الجديد، عن إخلاله بالسـلام. غير أن الأعراب لا يسلمـون جدلاً بكل شيء ووجود أجنبي داخل بوابات العـربي أمر ينظر إليـه بحذر لتحـسس أية علامـات لسلوك مشـاكس كمـا اكتشـفنا ذلك أثناء النهار.

تحركنا من المعسكر عند الساعة السابعة صباحاً، ثم توقفنا بعد مسافة قصيرة عند شجرة تنضب كبيرة في منطقة مكشوفة من الصخور البركانية لكي أتمكن من جمع بعض الفراشات التي جذبتها الشجرة. وأما في رقع الصخور البركانية التي كان علينا عبورها من وقت لآخر، فقد كانت شمس الصباح قد سخنت الصخور إلى درجة حرارة عالية وضعت جمالنا العمانية الناعمة، في مشقة حادة. خلَّف بعض هذه الجمال شريطاً من الدماء يتساقط من أخفافها المجروحة. وعندما اقتربنا من فوهات براكين أبي الريات اقترح رفاقي أن نتوقف لمعالجة جروح الجمال التي سببتها الإبر الحارة الحادة للصخور البركانية. ولذلك تركنا الطريق إلى اتجاه بئري أبي الريات وخلدنا لساعة من الراحة والتي اغتنمتها في زيارة الفوهتين الشماليتين. رافقني كل من ناصر وصالح إلى قاعدتهما حيث تخلف صالح لينام، بينما تسلقت أنا وناصر إلى القمة التي ترتفع حوالي (٢٠٠) قدم فوق مستوى السهل. كانت القمة فوهة متآكلة متكسرة الشفاه ولكنني كنت مسروراً للسانحة التي مكنتني من جمع حمم لزجة وزبرجد زيتوني وصخور أخرى من البركان، ومن موضعها الأصلي لدراسات لاحقة بواسطة خبراء المتحف البريطاني.

كنت حينها متمكناً من رؤية منظر ممتاز للبلاد المجاورة بما في ذلك السلسلة الظهرية الرئيسة لجبال الحجاز وهي منطبقة عند الأفق الغربي. كان ارتفاعنا فوق مستوى سطح البحر حوالي (٤٥٠٠) قدم وكانت القمة الوحيدة البارزة للعيان من جبال الحجاز هي عردّة قليلاً إلى الجنوب الغربي. أشار ناصر إلى اتجاه قرية عقيق في المرتفعات العليا لوادي رنية حوالي رحلة يوم واحد ناحية الجنوب الغربي. يرتفع وادي رنية في الجبال أعلى عقيق بالقرب من القرية الكبيرة لسوق رغدان والتي تقوم على سلسلة ضيقة تسمى الرهوة والتي على جانبها الجنوبي يقع منبع

وادي تربة. يرتفع وادي كراء وهو رافد للسابق، في منبع تارا بعيداً ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال من عقيق. ولولا وجود هذه لكان منظر المرتفعات باهتاً ومملاً ولم نتمكن من تحديد أي من القمم المألوفة لمنطقة الطائف والتي تقع بعيداً ناحية غرب الشمال الغربي. ارتفعت بالقرب منا ومن حولنا أفواه براكين الحرة ولكننا لم نر أياً من تلك البراكين البعيدة في الخرمة المجاورة والتي رأيتها لأول مرة عام ١٩١٧م في طريقي من الرياض إلى الطائف. وقد ذكر دليلي البقمي في تلك الرحلة أن هذا الحقل الحممي البركاني الواسع يدعى حرة النواصف ولكن لم يكن لناصر علم بذلك الاسم غير أنه يعرف التفاصيل الدقيقة لكل ما يبصره بصورة جيدة. لقد كانت بالفعل وطنه. أمكننا رؤية (١٥) من هذه الفوهات، ومن أبرزها لسان، والرقبيات، وزنهار، وعفراء، ولم ينس دليلنا من تربة شعيل اسم النواصف.

فجأة وأثناء جلوسنا على قمة التل نتفرج حدثت ثورة في السهل من حولنا وانتشرت صرخات وصيحات التحذير من مجموعة لأخرى صادرة من رعاة كسولين، حتى امتلأ جو الصحراء بالجلبة. لم يفهم ناصر شيئاً مما حدث، سوى أن خطأ ما قد وقع. ربما بدأت إحدى فرقنا بالإساءة بصورة ما مما دعا العشائر للتجمع بهدف الانتقام. على أي حال، كان من غير المعقول أن نظل حيث كنا في عزلة مكشوفة، وعليه قررنا الالتحاق بصالح الذي لم نجده بمفرده. لقد تم إيقاظه بوقاحة وتحدٍ، ليجد نفسه والبندقية مصوبة نحوه. لقد استسلم بلا شروط وحاول توضيح الموقف للعدو، الذي كان شاباً جميل المحيا والذي اتضح فيما بعد، أنه قريب لناصر[١]. ولذا عند وصولنا للمكان لتأكيد قصة صالح، كان الرجلان

---

(١) هو ناصر بن سحمي البقمي. (ابن جريس).

يتبادلان حديثاً كأنهم أصدقاء. وانتهى كل شيء، خمدت الأصوات وعادت الصحراء إلى صمتها. أخبر الشاب ناصر بأن والدته تعسكر في مكان ما أمامنا، في وادي غدقة مع أسرة الفتاة التي ستخطب له.

لا بد أن إشاعات الصحراء قد نبهت الفتاة بأن حبيبها في مكان ما بالقرب منها. وعلى أي حال فقد وجدناها وأخاها من العمر نفسه (حوالي ١٥) ومعهما صبي صغير عمره ثماني سنوات، مع قطيع من الضأن والماعز عند الموقع الذي تقاطع فيه طريقنا مع وادي شعيب غدقة. كان هذا عبارة عن مصرف ثانوي بدأ من فوهة تليه تسمى غديق على مسافة ثلاثة أميال داخل الحرة ولكنها ذات أهمية بكونها الرافد الجنوبي الأقصى لوادي تربة. وهو يجري إلى أسفل تجاه الجنوب الغربي من غديق عبر الصخور البركانية، ويعرج شمالاً على حافته الغربية ليتحد مع شعيب كرا[١] الذي يدخل تربة من أسفل واحتها العظيمة. نستطيع أن نرى الآن تل رنيه الصغير من هذا الموقع الذي يعلم أيضاً الحدود العليا لشعيب كراء على مسافة سبعة أو ثمانية أميال ناحية الغرب من مكاننا، بينما كان الاتجاه العام لدربنا هو الشمال الغربي. يقع الفاصل الفعلي بين نظامي تربة ورنية على بعد ميل واحد فيما وراء مجرى غدقة في سلسلة دقيقة تجري ناحية الغرب عبر ممرنا من طرف الحرة. تصب كل البلاد الواقعة إلى الغرب من هذا الخط، في شعيب البير[٢] وعليه، وفي الوقت المناسب في شعيب ضعة ووادي رنية.

---

(١) هذا الشعيب معروف لدى سكان البلاد بـ (بوادي الكراء) (مقابلة مع مترك السبيعي). (ابن جريس).

(٢) شعيب البير المعروف أيضاً بـ (خربق). (ابن جريس).

لم يغازل ناصر زوجة المستقبل لمدة طويلة لدهشتي[١]، وسرعان ما واصلنا سيرنا على طرق الجمال الضيقة وفي أجزاء صعبة من الصخور البركانية الممتدة بعيداً ناحية الغرب عبر طريق الحج. ارتفع الغبار فوق الإقفار أو تلاحقت حلقاته عبره في حلزونيات غريبة بسبب زيادة الحرارة فترة ما بعد الظهر، ولفترة بدا لنا وكأننا قد تركنا كل علامات الحياة إلى البعيد، خلفنا. حتى مجموعتنا الرئيسة ابتعدت عنا منذ مدة طويلة بعد معالجتهم الجمال، وبقينا ثلاثتنا ناصر، وصالح، وأنا، منعزلين. قمنا بفحص القمم البركانية التي ظهرت في الأفق، أمامنا، الواحدة بعد الأخرى والتي كانت تبدو حيناً قريبة منا، ثم تبتعد على مسافة. وبناءً على ما قاله ناصر، فإن أعلى النقاط في هذا الربع الجنوبي الغربي للحرة كانت عفراء وأبو قنزعة، ولكن لا بد أن تكون هنالك قمم أخرى عديدة بالارتفاع نفسه.

لا بد أنني قد حصرت ما يزيد على عشرين من هذه الفوهات البركانية وعند منتصف وقت ما بعد الظهر قمنا باختراق فرجة مسطحة تفصل هذا القسم من الحرة عن القسم التالي. كان عرض الفجوة حوالي الميل الواحد وتبدوا كأنها متغلغلة عميقاً في حقل الصخور البركانية، من طرفه الغربي. كان سطحها الطموي مرشوشاً بغبار أسود. حينما صعدنا الطرف المرتفع للقسم الثاني، شاهدنا مجموعة قمم أمامنا، تسمى أبا السحبان والتي تقع إلى الشمال الغربي من أبي

---

(١) فيلبي يتحدث عن أحد رفاقه ناصر البقمي عندما قابل خطيبته فقال: «لم يغازل ناصر زوجة المستقبل...»، ومن المؤكد أن الذي منع ناصر أن يغازل خطيبته كما توقع فيلبي هو الأدب والمروءة والشهامة التي تربى عليها العربي في شبه الجزيرة العربية، بعكس فيلبي وأمثاله من أبناء الغرب فهم لا يتورعون أن يقوموا ببعض التصرفات التي هي في منظور ثقافتهم أمر عادي ولا حرج، بعكس العربي أو المسلم الذي يمنعه دينه وكذلك ثقافة مجتمعه العربي. (ابن جريس).

قنزعة مع سلسلة منخفضة تدعى سريحوات إلى يساره، ومقيعر، وجعله، وأبا الحيات، والكثل، وأخريات مبعثرة أمامنا. كما بدأت أمامنا مجموعة القمم البركانية التي يهبط فيها الطرف الجنوبي لسلسلة جبال حضن فيما يلي وادي تربة ناحية الغرب ليتضمن سهل ركبة العظيم على هذا الجانب. إنها تقع بعيداً ناحية غرب الشمال الغربي. يبدو أن حقل الصخور البركانية ينتهي عند سلسلة بازلتية تسمى الأمرين إلى اليسار من موقعنا، بينما تقع قمة جبال الحجاز، حبجة إلى الخلف بعيداً، تقريباً ناحية الغرب.

كان السير صعباً في هذا الطريق وكان الجو حاراً وقاطعاً للأنفاس ولكننا وصلنا، قليلاً قبل الساعة الخامسة مساء، إلى فضاء عريض في الصخور البركانية حيث توجد مساحة معتبرة من الشجيرات وبركة ماء تسمى غدير سوقان. كان هذا الموقع، وهذا واضح، مفضلاً لأن يعسكر فيه الأعراب الرعاة، وقوافل الحجاج ذلك لأن السهل تنتشر فيه حجارة نصب الخيم وبقايا نيران المعسكرات ودون ذكر شيء عن المقبرة غير المنتظمة. كان الوقت متأخراً بما فيه الكفاية بالنسبة لنا، لنتوقف، حيث إننا أصبحنا على بعد مسيرة يوم في المتوسط من تربة أقل كثيراً من تلك المسيرة التي بدأت من الطرف المؤثر لبلاد الصخور البركانية الشاقة التي قضينا فيها اليوم كله.

كان المنظر لا يختلف كثيراً عما رأيناه عند قمة أبي الريات الذي لم نعد نراه. بدأنا نرى الكثير من سلسلة جبال الحجاز وهي ممتدة إلى الشمال من قمة عرضه إلى كتلة عالية تسمى مياهين وقمة جبل بيضان في منطقة ناصر لقبيلة الحارث. وتقع بركة سوقان عند رأس منخفض ضحل يسمى القحة عند شريطين عريضين من سهل مكسو بالطمي يحيط به من كلا الجانبين إلى عرض ميلين تقريباً. كان

هذا الممر مرعى محمياً (حمى)[١] لأهل تربة وكان به عدد قليل من أشجار الطلح والسرح وعلى إحداها وجدنا عش صقر وفيه ثلاث بيضات. ركز ناصر عينه على موقع في هذا المنخفض حيث يعتقد أنه بالإمكان حفر بئر مغمورة لتأمين ماء دائم إلى جانب المياه الموسمية ولزيادة كمية المياه النفيسة للمعسكر. انحرفنا عن طريقنا لزيارة الموقع المزعوم، مرة أخرى لنعبر منطقة ذات صخور بركانية قاسية، يجري خلالها وادي القحة[٢] بعد مغادرته السهل، ويقع الموقع على مساحة بازلتية بيضاء. لم يكن الموقع واعداً بالنسبة لي، كما تصوره خيال ناصر. مررنا بثماني غدران أثناء مواصلة سيرنا على خط مواز للمجرى، على يميننا، وتسمى في جملتها الكميتاء.

دخلنا مجرى وادي كرا بعد مسيرة ثلاثة أميال عبرنا خلالها دلتا واسعة، كثيفة الشجيرات، عند اتحاد النهر. كان عرض وادي كراء هنا حوالي (١٠٠٠) ياردة مع اندلاق الحافة، غير المتناسق لحقل الصخور البركانية مكونة الجانب الأيمن، بينما كان الجانب الأيسر عبارة عن جدار متناسق من صخور بركانية يملأ الفراغ بينه وبين وادي تربة فيما يليه. كان الواديان هنا متقاربين وكان مجرى كراء مكسواً بغزارة بالأشجار والغطاء النباتي الخفيض والحشائش وبعض الأشجار من سمر وطرفاء، وتنضب وأراك وحلفا، والشري... إلخ، مع بعض النخيل أسفل

---

(١) الحمى: هو المكان الذي تحميه القبيلة أو العشيرة لترعى فيه مواشي أفراد القبيلة المالكة لهذا الحمى. وقد عُرف الحمى منذ عهد الرسول ، وكذلك منذ عهد الخلفاء الراشدين، حيث أقروا أحمية عديدة كي ترعى فيها خيل المسلمين وإبل الصدقه ومواشيها. للمزيد انظر: **كتاب النبات**، للدينوري (طبعه بفيسبادن) ص ٣ ـ ٥٢؛ البكري، **معجم**، مج ٢، حـ، ص ٨٦٠؛ صالح أحمد العلي (الحمى في القرن الأول الهجري) **مجلة العرب**، جـ (٧) (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) ص ٥٩٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) وأحياناً تسمى وادي القاحة (مقابلة مع مترك السبيعي). (ابن جريس).

الوادي والتي يخترقها مجرى السيل الفعلي الذي يبلغ عرضه مئة ياردة بين جانبين طمويين منخفضين. وإلى الأسفل يضيق الوادي أكثر إلى عرض خمس مئة ياردة بين جدران بازلتية مسطحة تقع فوق الجرانيت الأحمر الذي يمكن رؤيته هنا وهناك عند قاعدة المنحدرات الصخرية.

وصلنا بعد حوالي الميل الواحد، من نقطة دخولنا، إلى المواقع المحتوية على برك المياه التي توجد في بطن السيل، وتكون المياه فيها بعد الأمطار الموسمية قريبة من السطح في كل المواقع ولمسافة معتبرة أسفل وأعلى الوادي. استقرت مجموعة من أهالي بيشة بالقرب من هذه المياه في جوار نخلة منعزلة اتقاء لحرارة الشمس، بينما تمتعت إبلهم بالغطاء النباتي الوفير. لم نزعجهم بل واصلنا سيرنا نحو مجموعة من النخيل، على مسافة، قبل أن نتوقف لننال قسطاً من الراحة منتصف النهار. عيب هذا الموقع أنه يزخر بأسراب قراد الإبل والبقر. كان إتجاه الوادي، عند هذا الموقع، قليلاً ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي مع وجود منحنى واسع إلى اليسار، أسفل الموقع الذي عسكرنا فيه، وفوق التقائه مع وادي تربة. يقع كل نخيل كراء - يقال إنه (٣٠٠٠) - أسفل ذلك المنحنى على مسافة نصف ميل ويتخلله حوالي اثنا عشر من القصور التي يمتلكها أهل تربة.

صعد طريقنا الآن خارج الوادي إلى منحدر قصير، ولكنه صعب جداً، يكون إلى ناحية شريط الصخور البركانية الذي يفصله عن المجرى الواسع لوادي تربة. انتشرت في المنطقة نصب من الحجارة على الجانب البعيد حيث أمكننا منها رؤية منظر واسع للوادي حتى مصب وادي الخرمة بالقرب من قمة بركان بالاسم نفسه، على مسافة معتبرة ناحية الجنوب الغربي. كان عرض الوادي هنا حوالي ميلين،

وبه مزرعة نخيل صغيرة على البعد نفسه، عكس إتجاه الوادي، ناحية غرب الجنوب الغربي. بدأ الجسم الرئيس للواحة الذي يملأ قلب الوادي كله، في اتجاه أعلى الوادي، ناحية الشمال الغربي، منساباً بعدها إلى أرض رأسية كونها انحناء لجرف بركاني للضفة اليمنى يقع قليلاً ناحية الشمال الشرقي. وقفت على هذه الأرض الرئيسة قلعة قصر شنقل مطلة على منظر عام للواحة كلها، على كلا جانبي المنحنى. كان ثلث حزام النخيل الضخم واضحاً لنا من فوق هذا المنحنى، واختفى باقيها من وراء الجرف، عدا لمحات لرؤوس النخيل من حين لآخر ناحية الالتقاء بوادي الكراء وما وراءه، في اتجاه أسفل الوادي. يطلق على كل الواحة، وعلى الوادي حتى نهايته البعيدة حيث يغير اسمه إلى وادي الخرمة عند واحة الغريف اسم وادي تربة. غير أن لقراه المختلفة والصغيرة ولقصوره ولمزارع نخيله لكل منها اسمه المميز له. من هذا الموقع أمكننا أن نرى القرية الرئيسة والمركز التجاري لرمدان قليلاً ناحية الشمال الغربي في ساحة واسعة خالية بين النخيل. تقع قرية منيف الصغيرة إلى الشمال منه ومخبأة خلف أشجار النخيل، بينما استقرت قرية شنقل الصغيرة عند أسفل الأرض الرأسية. بينما وقف قصر الشريف رجاء على بعد ربع ميل من الطرف النهائي للواحة تجاه أعلى الوادي. يجري عبر الوادي جبل حضن العظيم مع سهل مشجر واسع بينهما، بينما على البعد، ناحية الشمال الشرقي، وقفت هضبات أرفعة، والعبيدين، إلى الخارج في الحرة.

على طرف الوادي استقبلنا فارس اسمه رشيد أرسله الأمير للترحيب بنا ومرافقتنا عبر الممرات المتداخلة للواحة. مررنا أول الأمر بشريط عريض من حصى ينمو عليه نبات الحرمل ليصل إلى الحافة على بعد (١٠٠٠) ياردة، إلى الأسفل من النهاية العليا للواحة، وحوالي (١٥٠٠) ياردة من عند منحنى شنقل. وجدنا

في هذه المنطقة عدداً من منـازل متفرقة مكونة مسـتعمرة حيـاة التي يسكنها ملاك أراضي الأشراف ومعهم تابعوهم. يمكننا رؤية قصور برد أسفل هذه المنازل مع اتجاه أسـفل الوادي ولكن وفـيـمـا وراء مـزارع النخـيل الغنيـة، والتـي تطوق هاتين المستوطنتين فقد وجدنا حزاماً من مزارع مهجورة ذات جذوع أشجار ميتة وكثير من أشجـار الأثل لعل ذلك نتج بعـضه، من الجـفاف، وبعـضه الآخر مـن الحرب. رحبت بنا قطع موسيقية جاءتنا من ناحية أحد منازل الأشراف حيث كانوا يحتلفون بزواج، ومررنا عبـر شريط نخيل أكثـر جمالاً، إلى فراغ عـريض تقع قرية منيف الصغيرة وقلعتـها المحطمة عند حافته. وقامت قرية رمادان الكبيـرة ذاتها فيما وراء ذلك، وعلى أرض مرتفعـة بعض الشيء، وقد دخلناها قبل الخامسـة مساءً بقليل (الأول من أبريل) لنجـد منزلاً قـد أعـد لسكنانا، ونجـد الأمـيـر نفـسـه منتظراً لاستقبالنا. وهكذا انتهت المرحلة ما قـبل الأخير للرحلة بسلام بعد مسيرة (١٠٦) أميال من بيشة، ولن نواصل مسيرتنا إلا بعد ظهر اليوم التالي.

تقع تربة على ارتفـاع (٣٨٠٠) قدم فـوق سطح البحـر، على مسـتوى الروش نفسها بينما كان مجرى رنية عند عبورنا، حوالي (٤٠٠٠) قدم وعند ملتقى غدقة على دربنا (٤,٣٥٠) قدم. تقع الخـرمة والمعتـقد أنها على مـسيرة يومين، مع اتجـاه أسفل الوادي، ناحية شـمال الشمال الشرقي، وموقع التـقاء كراء[1] حوالي ثلاثة أميال إلى الأسفل من رمـدان. فيما يلي هذه النقطـة يتصل وادي تربة في جانبه الآخـر بمصرف البحرة وشعـيب السحوبيه وهو مجرى سـيل معتبر، يهبط عبـر السهل من أخدود في جانبي حضن ويحتوي على بئر إلى الشمال الغربي من تربة. تجمعت في هذا الأخدود

(١) المقصود بالكراء هنا أي وادي كراء. (ابن جريس).

دوريات جـيش السعـوديين في مـايو ١٩١٩م، للزحف التاريـخي على قوة الشـريف عبدالله التي تحصنت بثقة مع مدفعيتها ومدافعها الرشاشة في السهل بين رمادان ومنيف وكانت قلعة القرية والنخيل خلفها ضمن محيطها الدفاعي(١).

تبدو القلعة، والأرض من حولها، كـأنها المنطقة المحيطة بغرف الموتى، لأنه، منذ (١٣) عامـاً انقضت على تلك الليلـة المخيفـة، لم يزعج أحد نفسـه لتنظيف ميدان المعركـة بدا القصر كأنه ضريح عام ضـخم هزه زلزال. انكمش حسن (خر الذيب) فزعـاً وقد صـاحبني لرؤية هذا الميـدان الحربي المشهـور، وهو يراني أرفع كاميرا التصوير لتصوير هذا المنظر. بالغت الروايات في الحديث عن المعركة ورفعها إلى معركة أدمجدون(٢). لقد قابل مواطنو تربة الهجوم السـعودي بمقاومة عنيفة، وقتل منهم حوالي (٤٠٠٠) بينـما قتل من المدافعين ومن جيش الشـريف عبدالله (١٦٠٠٠) رجل وهرب (٢٠٠٠) رجل فـقط. من الأفـضل أن تقـسم كل هذه الأرقام على عشرة لنتحصل على صورة حقيقية للمعركة وذلك لأن قوة عبدالله لم تتجـاوز (٤٠٠٠) رجل ولا يزيد عدد من هربوا عـن (٣٠٠) أو (٤٠٠). امتطى عبـدالله وموظفوه مطـاياهم وهربوا عند انطلاقة الهـجوم، وأما البـاقون لم يكن أمرهم بأكثر من ذبح لهم من جانب واحد(٣).

---

(١) يشير إلى معركة تربة في ٢٥/ شعبان/ ١٣٣٧هـ . للمزيد انظر: عبدالله العثيمين. **تاريخ المملكة العربية السعودية، عهد الملك عبدالعزيز**، (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) جـ٢، ص ١٨٥ . (ابن جريس).

(٢) معركة يدعي اليهود والنصارى أنها سوف تقع في فلسطين بين قـوى الخير والشر وذلك قبل قيام القيامة. وحسب اعتقادهم فإنه يجب حشد أكبر عدد ممكن منهم قبل قيام المعركة. (ابن جريس).

(٣) لم يشارك الملك عبدالعزيز في المعركة حيث قام الإخوان بقيادة خالد بن لؤي وابن بجاد بالهجوم على جيش الأشراف والقضاء عليه قبل وصول الملك عبدالعزيز والجـيش المرافق له. ويقال: إن الملك عبدالعزيز تأثر عندما شاهد الأعداد الكبيرة من القتلى وأمر بدفنهم. فؤاد حمزة، **قلب الجزيرة العربية**، ص٣٩-٤٠. (ابن جريس).

توليت أمر تخيل منظر المعركة في الصباح. كان معسكر عبدالله، وعلى أحد زواياه قرية منيف الصغيرة وقلعتها، قد امتد فوق سهل حزم الحصوي العريض على امتداد مجرى السيل، ناحية رمادان، التي كانت خارج النقطة المحصنة. كانت المنطقة المحصنة قد خطط لها بعناية دقيقة، حسب قوانين الحرب، وكانت ذات خنادق داخلية وأخرى خارجية وخنادق مواصلات وكل ذلك. نصبت خيام الضباط في أسلوب منظم ولها شوارع، وشوارع مقاطعة بينها. حقيقة، تم كل شيء كما يتطلبه علم العسكرية الذي يدرس في مدارس القسطنطينية بكيفية جعل الموقع حصيناً. يقال إن امرأة حذرت عبدالله من وجود إخوان مثيرين للشبهات في وادي السحوبية، وأن عبدالله كان متحمساً للإنسحاب إلى رمادان الأكثر سلامة. ولكن صبري باشا رئيس أركانه رفض مغادرة المعسكر المحصن المثالي وقام بنشر بنادقه ومدافعه الرشاشه بأسلوب محسوب ليعطي الإخوان استقبالاً حاراً إذا كانوا من الحمق أن يهجموا. لا يمكن -على الإطلاق- الاعتماد على ولاء القرويين له، ذلك لأن عبدالله قام بإعدام اثنين من كبار رجالهم الأساسيين بتهمة تبادل المعلومات مع الأعداء وقد ذهب أقرباؤهما إلى الخرمة لإخبار خالد بن لؤي بوضع الأشراف.

لم يكن من شيء يخاف منه إلاً النوم وكان النوم هو الذي غلبهم. لقد أروني المكان الذي نصبت فيه خيم عبدالله وشاكر وحمد بن زيد قادة الأشراف الثلاثة. كان المكان كله مغطى بقطع آنية فخارية، فناجين القهوة، غليونات وما شابه ذلك.

يبدو أن الإخوان قد شقوا طريقهم من الخرمة إلى الجزء الشمالي من سلسلة حضن وهبطوا إلى مرتفع من الأرض منعزل إلى مسايل تخرج من مناطق ضيقة

وتنبعج في منطقة تربة. لقد أشرت من قبل إلى السحوبيه ذات البئر المهم في رؤوسها العليا. تم مراقبة هذا الجانب بدوريات خفيفة بينما ذهبت قوة أكبر إلى الجنوب أكثر إلى مسايل شعيب ريحان التي تتحد مع الوادي على مسافة ميلين أسفل رمادان حيث تضيق في ممر تحيط به الصخور يسمى ريع ركبة. تقف قرية عويزج الخلا الصغيرة بين أشجار النخيل، على جانبي المضيق، بينما تقع قرية الأشراف، قصر بن ماحي على مسافة (٥٠٠) ياردة إلى الشمال من رمدان على الحافة الأخرى للنخيل وهي قرية صغيرة بها قصر ابن ماحي. يميل شريط شعيب ريحان إلى المضيق عند قمته في حضن فيما يلي النهاية العليا لواحة تربة والتي تحيط بها على امتداد طولها. هكذا تسرب الإخوان على طول هذا المنخفض تحت ستارة الليل في التاسع عشر من مايو مع سلاح الفرسان السعودي للهجوم الأول الفجائي عند الساعة الواحدة صباحاً، أثناء ذلك، كانت الدوريات المدعمة في مجرى السحوبية تعمل ناحية الشاطئ الأيمن للوادي مما زاد من اضطراب المدافعين كذلك بالإقدام عليهم من الخلف عبر حزام النخيل.

كانت المعركة قد كسبت وفقدت في الظلام، ولكن قلعة شنقل وقصور حياة كانت تقاوم عند الفجر. وباستسلامها أثناء ساعات الصباح دخلت تربة نهائياً وبكاملها تحت سيادة السعوديين. وهرب ما تبقى من جيش الحجاز النظامي بكل سرعته ناحية الطائف لتحذير مكة وجدة.

وصلت إشاعة الكارثة إلى الحكومة البريطانية في وقتها، لتربك علماء العسكرية وخبراء السياسة الذين أعطوا الانطباع قبل شهرين فقط بقناعتهم بأن

السعوديين غير النظاميين لن تكون لهم فرصة الصمود أمام القوات المدرَّبة الجيدة الخبرة التي قاتلت مع لورنس[١].

لا يبدو أن قرية رمادان التي تشتمل على منازل جيدة البناء ذات طابقين من اللبن، مرتبة في نظام في مساحة أبعادها (٣٠٠ X ٢٠٠) ياردة، قد تضررت كثيراً على يدي المنتصرين أو حتى أنها هوجمت أثناء المعركة. تم الكثير منذ ذلك الوقت لصيانة خراب الحرب في مزارع النخيل، التي لا يزال بعضها في حالة مدمرة، بينما هجرت قرية منيف الصغيرة. يتم الري في الواحة عن طريق السحب للماء بواسطة الجمال من آبار عميقة ذات مياه لا تنضب على عمق (٢٥) قدماً. تم تركيب أعداد كبيرة من مكائن السحب في تربة في السنوات الأخيرة مع نجاحات مقنعة بزيادة الرقعة المزروعة. كما تساعد السيول الموسمية على المحافظة على ازدهار المستوطنة.

لقد خدم محمد بن شهيل الذي عرفته من قبل، عضواً في مرافقي الأمير فيصل، مدة ستة أعوام حاكماً على تبوك قبل حضوره حاكماً أيضاً إلى تربة شهراً أو شهرين قبل زيارتنا. إنه من أبناء قرية المزاحمية تحت جرف طويق وكان رجلاً ذا جاذبية معتبرة وذكاء متوسط. كان بلا شك مضيافاً جداً دمث الأخلاق وعذب الحديث، وكذلك كان أهل تربة الذين حضروا إلى حفل الأمير، لتحيتنا ودودين لطيفين. كانوا والأمير ابن شهيل متشككين وممتلئين بالازدراء نحو الإصلاحات

(١) لورنس: هوالرجل البريطاني الذى جاء إلى بلاد العرب وعاش بينهم وتعلم لغتهم وعاداتم، وشارك في مجريات الأحداث التي حصلت بينهم وبين أعدائهم، وألف كتابه المعروف بـ (**أعمدة الحكمة السبعة**).
وللمزيد عن حياته وعلاقاته مع العرب: حكاماً ومحكومين، انظر: انتوني ناتنغ، ولويل توماس. **لورنس لغز الجزيرة الجزيرة العربية** (بيروت: مكتبة المعارف، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ٢٣ وما بعدها (ابن جريس).

العصرية المالية والاقتصادية التي كانت تجرب في هذا الوقت في الأحساء مع إمكانية النظر في تطبيقها فيما بعد على مديريات أخرى. كانت الشكوى العامة هي أن النظام الجديد الذي يعتزم تطبيقه يتضمن تداخلاً كثيراً مع حق المبادرة للحكام والتجار. احتفظ الأمير بعدد من الحيوانات الأليفة، لبهجة ولترفيه أسرته مشتملة على بابون صغير أحضر له حديثاً من عسير وغزالتين مستأنستين جداً وحمل وديع[١].

تجمع جمهور غفير من القرويين بعد الظهر لوداعنا حين تحركنا عبر ميدان معركة حزم[٢] ومررنا بمسلخ محلي كان عبارة عن اختراع جديد، كان المجلس البلدي الأول مسؤولاً عنها، ثم مررنا تجاه مجرى شعيب ريحان الذي اخترقناه بعد (٢٠) دقيقة من الانطلاقة لنتبع درب الحج المطروق من فوق سهل حجري أجرد (حدبة) الذي كان يملأ الفراغ بين حضن والمجرى. يخترق هذا السهل عدد كبير من المنخفضات الرملية الضحلة تسمى مجتمعة «قرينات الظبة» التي تجري منحدرة من سفوح الأول إلى الثاني، وعلى بعد، وصلنا إلى الرافد الواضح وهو شعيب سلمى الذي يبدو أنه أحد رؤوس شعيب ريحان. برغم أن الخط الرئيس لهذا الأخير يجري إلى منبعه الأصلي في قمة عن - غالباً يسمى عانت[٣] - المنعزل الذي يقع على الحدود الجنوبية لسهل ركبة.

---

(١) مثل هذه الحيوانات كانت موجودة بكثرة في أجزاء عديدة من جنوب البلاد السعودية، ولا زال بعضها في مناطق المحميات إلى وقتنا الحاضر. (ابن جريس).

(٢) يسمى هذا المكان معركة حزم منيف. (ابن جريس).

(٣) يسمى (عِنّ) فقط وليس (عانت). (ابن جريس).

كان اتجـاهنا في معظمه غـرباً، وكان خط ريحان مـوازياً لنا، وعلى يسارنا، على مسـافة تتباين من نصف الميل إلى الميـل الواحد، بينما تراجعت سلسلـة جبال حضن سريعـاً ناحية اليمين حـتى فقدنا كل أثر لها بسـبب الغيم الذي تكاثف أثناء المسيـرة. مررنا سريعاً إلى خـارج سهل حزم المغلق إلى طريق واسع أجـرد يسمى بساطة والذي يمكن اعتباره الزاويـة البعيدة الجنوبية الشرقية لركبـة. عبرنا فيه بعض آثار دروب السيـارات التي ربما كانت لمجمـوعة الأمير حين وصـوله لأول مرة إلى تربة، ذلك أنه لم تزر أية سيارات تربة منذ ذلك الحين. وصلنـا إلى شعيب بساطة دون حوادث، اللهم إلاّ من أرنبة تطاردها كلبتنا السلوقية قطنة حيث عسكرنا لقضاء الليل بعد مسيرة قـصيرة نسبياً غطت ثمانية أمـيال. ينحدر هذا المجرى، الهابط من خشم شَـامَان الذي هو أقصى أرض رئيـسة جنوبية لقـمة حضن إلى أسـفل مروراً برابيتي المحرق والجـلحاء كل منهما على مـسافة ميل أو يزيد قليلاً مـن معسكرنا، لتتحد مع شعيب ريحان على بعد ميل واحد ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا. لذا فإن سهل بسطة يعد أرض مثلثة يحيط به شعيب بسطة وشعيب ريحان من جانبين. تقع أرض شمان الرئيسة ناحية غرب الشمال الغربي من معسكرنا على مسافة بعض أميال، وكان اتجاه شعيب بسطة نحو جنوب شرقي تقريباً. انتثرت عدة قمم بركانية على المناظر العامة في جوارنا ولكن حد الغيم مدى رؤيتنا ناحية الأمام.

كان دليلنـا للمسيـرة من تربة إلى مكة يدعى شعـيل بن مرزوق رئيس فـخذ السميان لقبيلة البقوم التي يقع مركزها عند آبار بريم[١]. كان معه بقمي آخر يدعى ناشر بن راضي من فـخذ الكلبة[٢]. فقد وصلت بالمناسـبة قافلة سعيـد بن كدسة

(١) شعيل بن مرزوق من أعيان قبيلة السميان. (مقابلة مع مترك السبيعي). (ابن جريس).
(٢) والصحيح أنه من فخذ الرجمان. (مقابلة مع مترك السبيعي). (ابن جريس).

المكوَّنة من (١٢) جملاً، والتي غادرت بيشة عن طريق رنية عصر اليوم نفسه الذي غادرناها فيه، إلى تربة قبل حوالي ثماني ساعات من وصولنا، وكانت لا تزال هناك حين غادرنا الموقع. ترك ابن كدسة وجماعة النسوة التابعات له القافلة قبل وصولها إلى تربة ليذهبوا إلى مكة مباشرة تاركاً مساعديه للتخلص من أية بضاعة جاء بها لسوق تربة. ربما كان طريقه الذي سلكه هو الذي يقود من الخرمة عبر بريم.

كانت الرؤية محدودة لمسافة ميل واحد بسبب الغيوم حينما واصلنا مسيرتنا عند الساعة السادسة صباحاً، في الثالث من أبريل - عيد ميلادي السابع والأربعون - تحت سماء مغطاة بالسحب ونسيم خفيف بارد، يهب علينا من جهة الجنوب الشرقي. تطور الغمام بعد ساعتين إلى ضباب اسكتلندي[١] سميك ورطب لم أر مثله في الجزيرة العربية، اللهم إلاّ أثناء الأيام القليلة الأولى لرحلتي من الأحساء إلى الربع الخالي. كانت طيور الخطاف تحلق على انخفاض شديد فوق الصحراء، وكان هنالك عدد قليل من آكلات النحل في ممر مكسو بالشجيرات[٢]،

---

(١) نسبة إلى مقاطعة أسكتلندا البريطانية. ومن يذهب عبر بلاد السروات الممتدة من نجران شمالاً حتى الطائف جنوباً، وبخاصة قممها وسفوحها الشرقية يجد أن الضباب يظهر عليها في بعض فصول السنة وبخاصة في الشتاء وأحياناً في الربيع والصيف. (ابن جريس).

(٢) بلاد السروات، وبخاصة الأجزاء الواقعة إلى جنوب الطائف مثل: بلاد تربة، وبني سعد، وبلحارث وغيرها من النواحي الممتدة إلى بلاد غامد وزهران، والحجر، وعسير، وقحطان وشهران، جميعها كانت مشهورة بتربية النحل لتوفر الثمار والأشجار المتنوعة بها، وهذا الاشتهار يعود إلى عصر خلفاء بني أمية وبني العباس الذين كانوا يرسلون إلى ولاتهم في الحجاز كي يزودونهم بأنواع جيده من العسل الذي كان يُصّدر من هذه البلاد: للمزيد من التفصيلات. انظر: حمد الجاسر. **في سراة غامد وزهران** (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ص ٣٧٠، غيثان بن جريس. **دراسات في تاريخ تهامه والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١ – ق١٠هـ / ٧م – ١٦م)** (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) جـ١، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ (ابن جريس).

ما وراء خط شعيب بساطة. تجري ثلاث مسيلات تصريف تسمى المتعرضات عبر هذا الممر من الأرضية الوعرة عند رأس شمان للاتحاد مع مجرى ريمان أعلى رابية قليب ريحان الصغيرة في بطن الوادي، على مسافة ميلين، من خط سيرنا. تم حجز كل هذا السهل المشجر، فيما يلي بساطة لرعي حيوانات تربة وغير مسموح للقبائل البدوية للرعي فيه، غير أن هذا المنع لا ينطبق على حيوانات المسافرين. توجد مساحات كبيرة يكسوها نبات العشرق -أيضاً يسمى سنا- إلى جانب الغطاء النباتي الصحراوي العادي، ومن هذا النبات يتم الحصول على الملُينّ المشهور المعروف باسم سنامكة.

تنتهي منطقة المتعرضات فجأة في أرض منبسطة حجرية سوداء ذات خاصية بركانية، تمتد من أرضية رأس شمان التي أصبحت الآن على يميننا على بعد ميل واحد، إلى روابي أمهات حمار على بعد ميلين فيما يلي مجرى ريحان. مررنا سريعاً بين قمتين بركانيتين بعد دخولنا هذه الأرض، تسميان أعلى فاس وسفلى فاس عبر مجرى شعيب فاس وهو رافد آخر لريحان(١). كان أحدهما (الأسفل) على يسارنا على هيئة مخروط كامل له صفحات ناعمة، ترتفع إلى حوالي (٢٠٠) قدم فوق السهل. وكان الآخر مماثلاً له غير أنه غير تام الشكل. سرنا بين البركانين التوأمين بعد عبورنا لمجرى فاس ويسميان نواسيله لنصل إلى معتق التي تقع على حافة سهل طيني عليه شجيرات قليلة تبدو كأنما أتلفتها رياح الصحراء. تقع كل الآثار الرملية ناحية غرب الشمال الغربي بالنسبة للشجيرات الصحراوية، مما يفيد بأن الرياح السائدة في هذا الموسم كانت من جهة شرق الجنوب الشرقي.

(١) هاتان القمتان البركانيتان تسمى باسم (فاس) فقط وليس أعلى وسفلى كما يقول فيلبي. (ابن جريس).

يظهر، هنا وهناك بروز بازلتي من خلال الأرضيــة الطينية، التي لا تزال تحتفظ في بعض أجزائهــا بالآثار القديمة للسيــارات التي كانت إما مــتجهــة إلى تربة أو فقط لمجرد الخروج للصيد. حضرت في خريف عام ١٩٣٠م أكثر من مرة إلى عَنْ أثناء رحلات الصيد الملكية. ومنذ ذلك الحين كــان من النادر رؤية أكثر من غزال واحد منعزل في سهل ركبة.

انحرفــنا تدريجيــاً ناحية مــجرى ريحــان الذي يقع الآن بالقرب مــن الجانب القريب لسلسلة مــنخفضة تدعى الشْــباكة وســرنا فوق بطنه لفتــرة إلى حين حتى وصلنا إلى بقعــة تكاد تكون على رأس الوادي، عند نهاية السلــسلة حيث تصطدم مع سلسلة أخرى تسمى الكرشاف من جهــة الجنوب. وعليه فإن شعيب ريحان لا ينطلق في عَنْ حقيقة، والذي بدأ الآن يلوح في خفــوت عبر الضباب. يسمى كل هذا الطين والســهل الرملي عند رأس شــعيب ريحــان باسم بحيــرة ويكون طرف منطقة البقــوم في هذا الاتجاه الغربي. بعد هذا المرتفع وصلنا ســريعاً إلى منخفض ضحل مشجر يسمى سلوان، يمثل شريطاً محــايداً يفصل مناطق البقوم عن عتيبة. ولهذا المنخفض أهمية مائية. يقع رأسه على بعد ميلين عنا في الأرض الوعرة التي تربط سلسلة الشباكة وسلسلة الكرشاف مع مــنحدرات عَنْ الخارجية عَنْ (أو ساق عَنْ) ومن هذه النقطة، فإن المنخفض يجري في اتجاه شمال شرقي إلى رأس أرض شــمان المجــاورة حيث يجــري على امتــداد الجانــب الغربي لحـضن ليتــلاشى في الصحــراء إلى الشمــال الغربي مــن بريم. لا يوجد أي ســجل أو عرف يفــيد بأن سيوله تصل أبدًا إلى أي من الروافــد المعروفة لوادي الرمة تماماً، فهــو مثل مجرى تربة. الخرمة (وادي سبيع) الذي يتلاشى في عرق سبيع الرملي ولم يعرف عنه أبداً

أنه وصل مجرى رنية أو أيًا من المصارف الرئيسة لوسط نجد. ظن شعيل أن سلوان ينبسط بعد مجراه عبر حضن حول طرفه الشمالي تجاه شعيب اقتان الذي ينساب إلى أسفل ناحية المويه أو ربما في شعيب جليل. يقع الفاصل المنخفض بين سلوان وريحان على ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، بينما ينطبق الاسم السابق وخاصيته المحايدة بشكل مماثل على شريط السهل الرملي الذي يقع بين المجرى وهضاب عَنْ الذي تحدد حدوده وحدود عتيبه سلسلة بازلتية منخفضة.

تحولت الغيوم إلى عاصفة ترابية كريهة وأخذت تضرب وجوهنا ونحن نسير إلى الأمام نتلمس طريقنا خلال الضباب والذي دفع دليلنا إلى أن يطرح جانباً فكرة البحث عن عَنْ. مررنا بقطيع مبعثر من جمال سوداء راعية، كأنها أشباح داكنة في الضباب، يمتلكها قسم الشلاوي لقبيلة بني الحارث الجبلية الذين يسكنون منطقة نريسة -بيضان. أصبحنا قريبين من نهاية سهل ركبة وقد صدقوا في اسمه هذا مع سهل سيلا الوعر الذي ينحدر إلى أسفل هذا الموقع من بلاد بني الحارث[١]. ربما يعد مجرى سلوان حداً جنوبياً لركبة بين شمان وعَنْ وفي هذه الحالة يبدو أن كل ركبة ستكون منطقة عتيبة وكل حضن بالمثل سيكون للبقوم. بدأت قمة سلسلة عَنْ تظهر شاحبة خلال الضباب حين عبرنا مجرى حمضة المتوسط المنحدر من سفوحه ناحية الشمال، ليصل إلى الآبار الأربع أو الخمس التي تكون مشرب عَنْ في خليج يشبه ثمار القرع، داخل انثناء للسلسلة التي ترتفع قممها السوداء إلى (٤٠٠) أو (٥٠٠) قدم فوق مستوى منطقة الآبار.

يطلق اسم عَنْ على مواقع الشرب وعلى الأخدود الذي يقع فيه بينما يطلق على التل اسم ساق عَنْ أو باختصار ساق، وهي كلمة تعني «فخذ» تستخدم عادة

(١) سهل سيلا الوعر هو (سايلة عْن). (مقابلة مع مترك السبيعي). (ابن جريس).

في وصف معالم التــلال. هنالك ساق آخر يميز بأنه ساق حـضن الذي يعلِّم المنفذ إلى ركبة لطريق يخترق سلسلـة حضن من الغريف المجاورة. يصل طول ساق عَنْ وهي سلسلة بازلتية مزدوجة إلى الميلين منحدرة تدريجياً على جانب واحد إلى قمة بركان مرتفع يسقط على الجـانب الآخر في شكل سلسلة من الحزوزات تنتهي عند مسطح صخري خشن. كانت كل الآبار مبطنة بقطع البازلت في شكل مستطيلات أبعــادها ٢ x ٣ ياردة اندفنت اثنتــان من هذه الآبار بركام الســيول وهي الآن لا تستخدم، واحتــوت البئر الثالثة على الماء، ولكن حالتها ليــست جيدة، وبئر رابعة لم أرها، على نفس الحالة، أما البئر الخامسة فكان استخدامها منتظماً وتحتوي على كمية كافية من مياه ممتــازة. يسحب رعاة الشلاوي الماء من هذه البئر لمعسكرهم في مكان ما مـجاور، بينمــا، عن قريب، كـانت هنالك فرقـة صغيـرة من أهل تربة يحتــمون من العاصفــة في طريقهم إلى الطائف لأجل الحج. شاركنا رئيــسهم في تناول غدائنا المكون من الحنيني، وبعد ذلك ذهبت إلى ظـل أجنة تنضب لاستمتع ببراد شاي وعلبة حلوى راحة الحلقوم أحضرت من بيشة. لقد كان من الممتع لي، بما فيه الكفــاية، أن احتفل بعيد مـيلاد، إلى جانب الطقس، غيـر أن رفاقي كانوا يشكّون بعض الشيء في حـقيقـة عمري، قــال سعد: إنه اعـتقد أنـني قد بلغت الستين.

واصلنا سيرنا، بعد حوالي ساعتين من الاستمتاع بهذه الدعابات، قليلاً ناحية الشمال الغربي فـوق الضواحي الجنوبية لركبة وهي عبـارة عن سهل رملي منبسط تكسوه أعشاب قليلة جافة. هطل مطر خفيف، من قطرات قليلة، خلال الليل في شعب بساطة وهطل مطر أكثر مباشرة بعد بداية المسيرة من عَنْ. بدأت الرياح تقل إلى حد مـا مع المطر، بينما بـدأت أشعة الشــمس في ضعف تشق طريقـها عـبر

السحـب الكثيـفة. لم تكن الأمطار خطرة أبداً، برغم تكـرار هطولها عـدة مرات خلال فترة ما بعد الظهر. وواصلنا سـيرنا بانتظام فيما بدا لنا أنه أحسن يوم سرناه منذ مغادرتنا الهـفوف باستثناء بعض الأيام التي كان السـير فيها أمراً مـفروضاً في مناطق عديمة الماء في الربـع الخالـي. قطعنا (٢٠) ميـلاً خلال الصباح إلى عَنْ - سبعة وعشرين ميل ونصف من رمادان - كما غطينا اثني عشر ميلاً ونصف الميل أخرى بسيـرنا إلى ما بعد الغروب من عَنْ إلى وسـق عقيلة حيث عسكـرنا لقضاء الليل كان إجـمالي مسيـرة هذا اليوم اثنين وثلاثين ميـلاً ونصف الميل وكانت هذه مقنعة جداً لنا إذا اعتـبرنا حالة جمالنا. ولا تزال اقدامها ضعيـفة بعد حرارة الحرَّة وعانت الكثير بسيرها فوق المسافات الحصوية والأجزاء الصخرية من السهل.

دخلنا واخترقنا بعد ثلاثة أميال إلى مـا وراء عَنْ إلى مساحة عريضة من بلاد رملية، تخـترقها منخـفضات عديدة ضـحلة تسمى مرآن وينتـشر فيهـا شريط من سلاسل منخفضة تسمى حبيل وحزيميات. وعـبرنا عند النهاية البعيدة وعلى مسافة (٣) أميال، منطقة جدا أو الطريق النظامي للجـمال الراعية الذي ينطلق من مراعي ركبة إلى مـساقي شريعي حوالي عـشرة أميال إلى الجنوب الغـربي في وادي عوقة أحد التصريفات الرئيـسة لسفوح الجبال بين ركبة والجبـال. يقع بئر عوقة على بعد أميال قليلة جنوب شريعي في المجـرى نفسه مع بئر آخر تسمى النسيـر على مسافة (٥) أميال. يجرى المجرى من الجنوب إلى الشـمال ويبدو أنه في نهاية الأمر يصل إلى شعيب الخـرايق الذي يخرج إلى سهل ركـبة على بعد (٥) أميال إلـى ما بعد موقع معسـكرنا في وسق عقيلة أو (وسقان عقـيلة). ينحدر كل من السابق والمرآن وقد سـبق ذكرهمـا، إلى السهل ويصـبان بعـده في مجـرى سلوان والذي يكون شعيب الخرايق أحد روافده الفعلية. انتشـرت مجموعة من الكتل البازلتية والروابي

البازلتية حول طريق وسقان عقيلة وتسمى كلها مجتمعة رضيمات وذلك لأهم سماتها وهي تلك الكتلة العالية التي تسمى رضيمة حيث عسكرنا بالقرب منها. وأحد هذه الكتل واسمه عقيلة قد أطلق اسمه أيضاً على أحد مجاري الوادي.

استلقيت للنوم بعد استمتاعي بالشاي وحلوى راحة الحلقوم، بعد يوم مرهق مصحوباً بالرمال والرياح. تم إيقاظي على كل حال، عند الساعة الثامنة مساءً لتناول العشاء، الذي تكوَّن من أرز فقط لم يحضره إلاَّ القليل من رفاقي. لقد التهموا بنهم الحنيني عند الغداء وفضلوا أن يناموا بدلاً من وجبة عشاء لا لحم فيها. كان زايد واحداً من أولئك الذين شاركوني العشاء ولاحظت مع بعض التعجب أنه أصبح أكثر وداً لي، باطراد وأكثر تدللاً، حينما اقتربنا من نهاية رحلتنا الطويلة معاً. مسكين زايد لا بد أن ضميره قد عذبه حينما فكر في دوره بالمؤامرة لاغتيالي في شنة بدلاً من مواجهة الرحلة عبر القفر عديم الماء. لم أسمع تفاصيل القصة إلاَّ بعد سنوات لاحقة، وكيف أنهم وبعد نقاش طويل قرروا عدم المخاطرة بإغضابهم لابن سعود وحنقه عليهم. كان واحداً من أبطال الحدث المشهور والذي بناءً على قول أمير تربة كتبت عنه جريدة أم القرى كلمة مختصرة مبنية على تقرير ابن جهامان والباقين الذين تركونا في نايفة للعودة إلى الهفوف حيث بعد حين - في (١٤) ذي القعدة أو مارس (٢٢) - وصلت فرقته بسلام. زارني زايد بعد سنوات لاحقة في الرياض في مساء يوم لرحلة كان يشرع بها للبحث عن الرقيق في منطقة عمان وطلبت منه أن يحضر لي حماراً عربياً برياً والذي يقال إنه موجود بالفعل في منطقة جبل حفيت، ولكنه لم يعد بالمرة من تلك الرحلة لأنه تورط في ثورة في أبو ظبي وقد اغتيل بوساطة المتمردين حينما اقتحموا قصر مضيفه.

كانت السماء صافية في اليوم التالي - الرابع من إبريل - مع جدار من سحب بعيدة حولنا من كل جانب، وقد ذهب الغيم وأبردت أجسامنا إلى العظم رياح جنوبية شرقية باردة، حينما امتطينا جمالنا عند الساعة (٥,٣٠) صباحاً، لمسيرة أخرى طويلة كالسابقة لها تماماً. كان السهل الرملي تنتشر فيه أشجار العراد الميتة من موسم سابق، والتي ظهر وسطها غطاء نباتي ربيعي جديد، مما أدى إلى ظهور مساحات خضراء في الرمال والحصى التي سرنا فوقها.

مررنا بما يقدر عدده بدسته[1] خيام في المنخفض الضحل لرعاة من عتيبة معهم جمالهم وماعزهم ترعى من حولهم.

عبرنا بعد ذلك شعيب شبينة ثم دخلنا بعد مسافة ميل واحد إلى الشريط العريض الشجيري لشعيب الخرايق نفسه، ثم توقفنا بعد عشرة دقائق عند الآبار الثلاثة للسقي. كانت هذه الآبار جيدة البناء، وهي موزعة على مسافات متباعدة تقدر بخمسين ياردة على بطن السيل الحصبائية، وكان قطر فوهة البئر ستة أقدام مبطن بالجرانيت إلى مستوى الماء عند عمق ثلاثين قدماً. سحبنا الماء من البئر الوسطى وكانت الجمال عطشى بشكل مدهش علماً بأنها قد سقيت الماء في تربة وأن الطقس كان بارداً. كان شعيب الخرايق أول وادٍ حقيقي قابلنا في منطقة ركبة، وكان يجري من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي عبر السهل متجهاً إلى سلوان. تقع قرية كلاخ ونخيلها على بعد خمسة أو ستة أميال، عكس اتجاه الوادي في السفوح التلالية، حيث كان موقع المعركة بين السعوديين والأتراك في النصف الأول من القرن التاسع عشر. تقع قرية بسل ذات النخيل ومزارع الفواكه في شعيب الخرايق على بعد عشرة أميال ويليها، وعلى بعد ميلين، قصور ومزارع قرية المضللة.

(١) المقصود بالدستة هنا، أي درزن وهو عدد (١٢). (ابن جريس).

اختـرقنا شريطاً عـرضه ميل واحـد، لغابة طلح، فـيما وراء الخـرايق حيث حاولنا أن نصطاد أرنبين ولكنهـما تركا كلبينا السلوقيين وراءهمـا بعيداً في المطاردة التي تلت. كـانت الأرانب البرية في مناسـبات كثـيرة وخـلال اليومين الآخـيرين تخرج من مـخابئها ولكـن لم نتمكن من اصطيادها. خـرجنا من أرض الغابة إلى سهل رملي كـثيف بأشجار العـراد والدريمة تاركين كتلة الجرانيت صُبع بـعيداً إلى يسارنا واقتربنا تدريجياً من السلاسل المنخفضة المبعثرة لأبرق. عبر طريقنا مجموعة دائرية من صـخور ذات قطر يقـدر بعشر يـاردات والتي قد تكون ظاهرة طبـيعـية ولكنها تبدو مـشابهة بشكل مثير لأضـرحة ما قبل التاريخ لقـدماء الوثنيين. كانت هذه الأرض الوعرة، التي تقع بـين سلسلة جبال أبرق وهضـبات أبو شحم ناحـية الغرب تسمى الشط دخلنا بعدها منطقة ذات شجر تسمى سر والتي كانت منخفض تصريف ضحل مكونـة جزءاً من وادي شعيب الجفـر وهو رافد آخر لسلوان الذي يتصل به بعد مروره ناحية الشمال من المعلم الواضح لتل البرّث في وسط ركبة.

لقد هبطنا في هذا المجرى أسـفل أكثر مما كنا قد قصـدناه، وذلك لأن شعيل قـد أهمل اتبـاع ممرات الإبل التي تقـود إلى مـوقع الشـراب عنـد الآبار. ولكننا صحـحنا هذا الخطأ، وذلك باتباعنا للمجـرى لمسافة مـيلين إلى حيث مكان الآبار الثلاثة الشبيـهة بتلك التي مررنا بها في الخرايق والتي تقع عند دلتا صغـيرة كوّنها رافدان صغيـران هما أبوراكه ونواهي من جهة الغرب والجنوب الشـرقي بالتتالي. كان المجـرى محاطاً حـتى هذا الموقع، بشواطئ مـتآكلة جداً من جـرانيت رمادي وعليها آثار سيول حديثة. يجري الوادي فـيما وراء الآبار ناحية السفوح التلية إلى قرية أبلة على بعـد ستة أميـال. وتقع على مسافـة قصيرة أمـامنا آبار جليل بينما توجد أسفلنا على مسافة خمسة أو ستـة أميال ناحية وادي البرّث وعميقاً في سهل

ركبة آبار صـدمة وهو مصيف محبب للملك والأمراء خلال رحلات الصيد[١]. تقع إلى الشمال من أبلة قرية ونخيل أخيضر في مجرى سيل يسمى شعيب الثعالب وهو أقصى الروافد ناحية الجنوب لوادي العقيق العظيم الذي يجري من جوار الطائف ليمر خلال مركز عشيرة المهم على طريق مكة - الرياض، ومباشرة بعد ذلك إلى المدينة. لقد سبق أن قمت بزيارة الأخيضر في ٢٤/١٢/١٩١٧م، في طريقي إلى الطائف قادماً من الرياض، وسوف أقوم بزيارتها مرة أخرى قريباً. يعد شعيب الجفر آخر أودية سلون الخصبة في هذا الجزء من سفوح الحجاز.

ظهر لنا موقع هضبة الأخيضر ناحية الغرب، بعد مواصلتنا للمسيرة من الآبار، حيث تمازحنا عدة ساعات أثناء تناولنا الغداء ولكي ندع الجمال ترعى. بدت على ناقتي النعرية ذلك الحيوان الرشيق الذي حملني على امتداد معظم الرحلة الطويلة، علامات الإرهاق والتعب، وقد تأذى كثيراً من الأجزاء الصخرية، التي جرحت أقدامه. كانت الشمس تحاول جاهدة أن تخترق السحب والغيوم، التي بدأت تؤثر مرة أخرى على مدى الرؤية لدرجة كبيرة. كذلك كانت الرياح الجنوبية الشرقية تهب في عنف، ولكن الظروف بصفة عامة كانت ألطف مما كانت عليه في اليوم السابق. واصلنا السير إلى فترة فوق درب متموج حجري، عليه شجيرات العوسج والعراد وكلها تقريباً كانت ميتة. كانت هذه البلاد بصفة عامة مألوفة لي وقد رأيت الكثير منها أثناء رحلات القنص مع الملك في خريف عام ١٩٣٠م، برغم أنني لم أزر الأخيضر بالفعل في تلك المناسبة.

---

(١) تعد منطقة الطائف وما جاورها من البلدان حتى بلاد تربة ورنية والخرمة وغيرها من أجزاء بلاد السروات من المواطن الصالحة للاصطياف منذ عهود قديمة، ولا زالت حتى اليوم. (ابن جريس).

انحرفنا تدريجياً، بعد مسيرة ثلاثة أميال، ناحية السفوح التلية الخارجية لنصل إلى الأخيضر والتي كانت أشجار نخيلها مصطفة على الجانب الأيمن لرافد من روافد شعيب الثعالب، إلى حيث المجرى الموحد، حيث تقوم قرية صغيرة تسمى دعليب. يجري مجرى الثعالب من هذه النقطة إلى أسفل ليتحد مع وادي العقيق في سهل ركبة. تتبع لقرية الأخيضر نفسها قريتان صغيرتان كل منهما مكونة من (٣٠) منزلاً ومن قصر جذاب البناء، هو ملك لأحد الأشراف، أقامه على قمة هضبة. امتدت أشجار النخيل إلى مسافة معتبرة فوق المجرى، ولكنها بصفة عامة كانت مهملة، بينما كان المجرى وما جاوره مغطى بمساحات زراعية ذات سدود للإمساك بمياه السيول. مررنا في الطريق على قطعان كبيرة من ضأن وماعز، ترعى خارج القرية، والتي وجدنا القرويين فيها يغربلون الذرة، محصول ربيعهم الأخير. أكملت قصور قليلة المنظر بتخللها لأشجار النخيل في هذا المجتمع الصغير يملكها العصمة التابعون لقبيلة برقا العتيبية، كما بدأت في الظهور القريتان التوأمان صلبة من خلف سلسلة أبلة أعلى أبار الجفر على مسافة ميل واحد ناحية الجنوب الشرقي. كان سكانها من العدوانين مجموعة قبلية قريبة لبرقا بينما كان أهل كلاخ من النفعة، من برقا أيضاً.

نمر الآن عبر شعيب الثعالب الرملي الذي يجري من الجنوب الغربي عبر السفوح التلالية إلى آبار مبعوث إلى الشمال منا تقريباً في ركبة ومنها إلى العقيق. وصلنا بعد ذلك إلى قرية عرفة الصغيرة، بعد صعودنا لمنحدر سهل ولكنه كان خشناً من جرانيت وبازلت. تقوم القرية على أرض مرتفعة بين حقول لأشجار نخيل مبعثرة. كان بعض القرويين منهمكاً بمساعدة زوج من الثيران ولوح من

خشب ثقيل بصيانة السدود استعداداً للسيول التالية. برزت قلعة مهيبة قديمة -لعلها تركية[1]- فوق الأرض المرتفعة وتشرف على القرية وما جاورها، غير أنها تبدو في حالة خراب. واصلنا السير فوق ممر صخري مكسر فيما يلي القلعة، حفرته مجاري ضحلة لمسايل عديدة، كلها تتجمع في سهل ركبة لتدعيم وادي العقيق. تسمى هذه المنطقة مشارك وفي وسطها قطعنا الطريق الواضح للسيارات الذي يصل بين الطائف وبريم والخرمة. بعدها وبسرعة اجتزنا طريق السيارات الذي يصل الطائف بعشيرة والذي يتفرع من طريق بريم إلى مسافة ميل أو ميلين إلى الغرب من الموقع الذي عبرنا منه. عدنا مرة أخرى إلى شبكة المواصلات في وسط شبه الجزيرة العربية غير أن درب الجمال القديم للحج تعرج عبر السفوح التلالية الصخرية على امتداد المسايل التي أحدثت خدوشاً بتموجاتها أثناء طريقها ناحية السهل إلى الأسفل.

يمكننا الآن رؤية بعض الكتل الجرانيتية الكبيرة على طريق الطائف - مكة الرئيس في جوار عكاظ الذي كان مشهوراً على مسافة بعض الأميال إلى اليسار، غير أن طريقنا تواصل عبر المجاري الكثيفة الأشجار لنظام حوض مشارك، إلى أن وصلنا بعد عبورنا لدروب الإبل التي تقود إلى آبار سليطينة عند قاعدة كتلة جرانيتية ضخمة إلى بئر سهلوج الواقعة داخل مجرى رملي عريض ومشجر، والذي ربما كان الشريط الرئيسي لتصريف عقيق. عسكرنا هنا لقضاء الليلة برفقة

(١) من يتجول في المناطق التي زارها فيلبي في هذا الكتاب يشاهد الكثير من القلاع والحصون التركية التي يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجريين، (التاسع عشر والعشرين الميلاديين). (ابن جريس).

مجموعة صغيرة من حجاج بيشة والذين غادروا أوطانهم قبل (٣٦) ساعة سابقة لمغادرتنا نحن للروشن. زار بعضهم معسكرنا لتبادل الأخبار مع فناجين القهوة، وكانوا سعداء لمعرفتهم أن الجانب الرئيس لقافلة ابن كدسة قد وصل تربة بسلام[١]. أما عن الحرس الأمامي فلم يعرفوا عنه أكثر مما عرفنا نحن، حيث إنهم لم يتحصلوا على أي أخبار عنهم من رعاة سهلوج. شاركونا أيضاً في العشاء، حيث أن مجموعتي قد استعدت لذلك بشرائها خروفاً أثناء الطريق، وقد كانوا في عجلة شديدة للأكل، مما دفعهم إلى تقديم الطعام وهو نصف مطبوخ، صعب جداً، وغير مثير للشهية. كانت عرض مجرى سهلوج حوالي (١٠٠) ياردة، منجرفاً بين أجمات كثيفة من أشجار الطلح. كان البئر في وسط بطن المجرى الرملي مبطنة بحجارة جرانيتية وقطرها حوالي ستة أقدام وتحتوي على مياه وفيرة من نوعية ممتازة وعند عمق ثلاثة قامات.

واصلنا السير عند الساعة السادسة صباحاً، بعد ليلة لطيفة ذات سحب ولكنها كانت خالية من الرياح، وذلك في اليوم الخامس من أبريل وللمرحلة الأخيرة من رحلتنا، التي بدأت من الهفوف في السابع من يناير. كان هو اليوم ما قبل الأخير من ذي القعدة وقد أنهينا خطتنا للوصول في الوقت المناسب للحج حيث لا تزال هنالك عشرة أيام متبقية. كان الصباح منعشاً، مع إحساس بالعلو في الجو، مع شقشقة الطيور في هذه البلاد كثيفة الأشجار، وكان ذلك متعة

(١) الفرحة بوصول قافلة ابن كدسه بسلام يدل على المخاطر التي كانت تتعرض لها القوافل التجارية من سلب ونهب وعقبات أخرى عديدة، والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى فقدان الأمن على طول الطرقات التجارية، ولكن مع مرور الوقت وتوطيد الأمن في البلاد زالت كل هذه العقبات وأصبح التاجر والمسافر يذهبان من مكان إلى آخر في أي وقت ومعه ما أراد من الأموال دون أن يواجه أية مشاكل تذكر. (ابن جريس).

للأذن. كان كـل شيء على ما يرام إلاً بعـد عشر دقـائق من بداية المسـيرة، حين بركت ناقتي النعرية تحتي، وقد بدت عليها علامات الإرهاق وبكل صعوبة استطعنا دفعها للوقـوف على رجليها. لقد كانت مرهقة جـداً، مما دفعني لركوب أخرى، وتركها تسير بلا راكب. ولكنها كانت ذات قلب مكسـور ولم تستعد العافية أبداً، وماتت في الطريق إلى الرياض، بعـد انقضاء الحج ليزداد حزن عـبدالله بن جلوي الذي يعدها من أفضل أصول السلالات التي يملكها.

وصلنا إلى طريق مكة - الطائف للسيارات بعد مسيـرة صعبة ولمسافة ميلين، وعبرناه عند تقاطع الرياض، على مسافة بضعة أميال لندخل إلى وادي صعب بين تلال متـداعيـة وسلاسل من جرانيت أحـمر. يقع تل سليطينة وبـئره إلى الجنوب منه، على مسافة نصف الميل إلى يسارنا حينما ضربنا مسيرتنا عبر التلال لنصل إلى وادي السيل الصغير. واصلنا سيرنا فوق رمال خشنة جرانيتية والتي يوجد الماء فيها تحت السطح عند عـمق ستة بوصـات فقط، خـلال موسم السيـول. وتكون هذا المجرى من مسافة إلى أعلى، وبالقرب من تل صخري يسمى رجيفه باتحاد لنصف دستة من المسـايل اللطيفة في خلاء أرضي واسع. مـررنا بقبر مهيب لـرئيس قبيلة كانت مـزخرفة بصخـور بيضاوية الشكل وبحـجر رئيس من جرانيت أحـمر[١]. يجري مجرى السيل الصغير بعـد هذه النقطة في العديد من البحيرات السيلية ماراً بعشة لأحـد الرعاة كانت محطـمة. كان الارتفاع هنا حـوالي (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحـر، وسرعان ما وصلنا إلى عـدد آخر من العشش المهجـورة مع وجود

(١) يظهر بعض القبور المزخرفة، وأحياناً المرتفعـة عن الأرض في كثير من المناطق التي مر عليها فيلبي، وقد وقفت على البـعض منها في بلاد قحطان، ونواحي من وادي الـدواسر، ورنية والخرمـة، وكذلك بعض الأجزاء السروية المرتفعة والممتدة من الطائف حتى أبها. (ابن جريس).

علامات لزراعة المدرجات حولها[١]، ولعل هذه كانت مزارع قديمة. يوجد هنا بئر تسمى عنبات ولكن السيول حطمتها. تسمى العشش المحطمة وهذا الفرع من الوادي باسم أثيرية. لا تزال هنا شجرة نخلة على قيد الحياة، إلى جانب كمية من الشجيرات البلميط (النخيل الصغير) وغطاء نباتي متضمناً الزعتر وغيره من النباتات العطرية، وكان هذا هو الموقع الذي نزلت فيه أو قريباً منه، في عام ١٩١٧م في طريقي من الطائف إلى جدة عن طريق درب الجمال المباشر إلى السيل. لم تكن هنالك في تلك الأيام طرق سيارات وكانت كل الحركة بين الطائف ومكة تمر بهذا الطريق. وبلا شك فإن أثيرية قد انتعشت بكونها محطة وقوف في هذا الطريق.

كان يمكننا الوصول إلى السيل في يسر وبسرعة على طريق السيارات عند النقطة التي عبرناه فيها. ولكن كان لي سببان وجيهان على إصراري على الطريق الأطول عبر مجرى السيل الصغير: أولاً: لم تسنح لي الفرصة لاستعادة خطواتي الأولى في هذا الجزء من مرتفعات الحجاز، وكنت متطلعاً بصفة خاصة لأزور مرة أخرى ممر ريع المنحوت المهم، وأن أتتبع طريقي الخاص من هناك إلى السيل. ثانياً: تمنيت أن تسنح لي الفرصة للكشف عن الصخور حول سيل غربان باحثاً عن بعض النقوش التي شاهدها تشارلز داوتي عند مشارف نهاية رحلته. كنا مستعجلين للوصول إلى السيل عندما مررت بهذه البقعة عام ١٩١٧م قبل حلول الظلام، وكان الظلام شديداً حينها، وقد تعذر معه رؤية المناظر الطبيعية بالتفصيل.

يقع أول هذين الهدفين على بعد ميل واحد أمامنا، في مسيل أثيرية وقد وصلنا إلى أول ردهاته -وهي منحوتة- خلال (١٥) دقيقة. إنه ممر طبيعي جزئياً، وصناعياً في الجزء الآخر، يخترق السلسلة المنخفضة التي تكوّن الضفة اليسرى

(١) المزارع القديمة التي تحفظ بالمدرجات الزراعية الحجرية تكاد تكون منتشرة في جميع البلاد الممتدة من الطائف حتى بلاد اليمن، وهي معروفة في هذه البلاد منذ عهود قديمة قبل الإسلام وعلى مر العصور الإسلامية المختلفة. (ابن جريس).

لشعيب أثرية. كان عرض جزئه الأول لا يزيد عن خمس ياردات مع رصيف من الواح غير محكمة القطع من جرانيت وأقسام من حين لآخر من جدار مبني، وذلك ليحول دون انهيار جانبي التل في الممر. يستمر الرصيف إلى طول (٢٥٠) ياردة عبر الممر المتسع في لطف، والذي ينفتح في منحدر صعب إلى قمة السلسلة - (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر-. هبطنا من هنا في انحدار شديد إلى ممر تم نسفه جزئياً في الصخر والذي جعلت له حواف في الجروف التي ترتفع إلى (٣٠٠) أو (٤٠٠) قدم. كانت الأرضية مرصوفة بألواح تشبه الاردواز على الحافة وعليها آثار تآكل واضحة بسبب السيارات ذات العجلات -لأن الأتراك قد عبروا هذا الطريق، وهو الوحيد المناسب في تلك الأيام- لنقل المدفعية والسيارات إلى الطائف. كذلك استخدمه الشريف عبدالله لغرض مماثل أثناء حصاره للطائف عام ١٩١٦م.

ينتهي الطريق النازل بعد حوالي (٣٠٠) ياردة في مسيل متلوٍ بلطف، خلال السفوح التلية. هذا هو شعيب طلحة الذي يجد طريقه في نهاية الأمر إلى السيل الصغير. تتبعنا هذا مسافة ميلين، حتى مجموعة من النصب وقبر منفرد، وحوله التفنا وصعدنا مسيلاً يقع بين صخور صعبة، لنجد أنفسنا عند مدخل الردهة الرئيسة الثانية. وجدت على صخرة من صخوره نقش بعض آيات قرآنية ومررنا بعدها على الفور بصخور حادة مطوقة لجانبي جلاميد ارتفاعها (٣٠) قدماً. لا بد أن هذا الممر قد تم إعداده عن طريق النسف، وكانت أرضيته صخراً طبيعياً نُعِّمَ بواسطة ضغوط قرون متواصلة من الحركة.

وصلنا إلى قمة الممر على ارتفاع (٣٠٠) ياردة، وهبطنا منها على ممر متعرج قليلاً ومعبّد طوله (٥٠٠) ياردة يقع بين الجلاميد الصخرية على يسارنا، وبين

حائط حاجـز جيد البناء على الجانب الآخر، الذي يطل المسـيل من أسفله. دخلنا عند القـاع، إلى هذا المجـرى إلى شعـيب ركك الذي يصب في نـهاية الأمـر في مجموعة مسايل لشعب سيـل غربان ومنه إلى السيل الكبير. تركنا المجرى لنخترق السلسلة على جانبه الأيسر حيث توجد مجموعة حجارة تعلم الطريق إلى السيل. لاحظت على الصخور بعض نقـوشٍ عربية أخرى مختصرة، وعـلامات باهتة جداً ربما كانت ذات مرة رسـماً، على ارتفاع (٥٠) قدماً على جـانب التل. هبطنا بعد ذلك إلى ملتـقى عدد من المسايل للـوصول إلى مجـرى سيل غـربان الذي يجري قليلاً ناحية الشمال الشرقي، تجاه المضيق النهائي ريع الزلالة الذي يطل على وادي السيل الكبير العريض ومحطته المهمة للحجاج.

بدأت أحس باليـأس في أن أجد الصورة التي كنت أبحـث عنها، وذلك لأن الصخور لم تحمل أي شيء غير كتابة عـربية وكوفية ذات أهمية قليلة، إلى جانب الأوسام القبلية المعروفة. لفت نظري عند منتصف الطريق إلى أعلى، على الجانب الأيسر، قالب كبير من الجرانيت الأحمـر تآكلت حتى اسودّ لونها، وعليها نقوش شاحبة وعلمت بالبداهة أنـها الرسم الذي ظللت أبحث عنه والنقش المشهور الذي أوضحـه تشارلز داوتي في صـفحة (٥٢٨) (الطبـعة الأصليـة) لكتابه «الصـحراء العربية».

لقد كانت هذه هي الحـقيقة، نزلت من فـوق مطيتي مسرعاً للوصـول إليها، بدت لي الرسمة مختلفة عمـا قد علق في ذاكرتي عن نسخة داوتي، وبالطبع فلقد كانت مختلفة! لقد «وصف داوتي صورة لشخص ضخم إلى نصف طوله، وهناك نقش يقول إنه من الصعوبة ملاحظته من النظرة الأولى في وضح النهار، كصعوبة مشاهدة الرجل على القمر. هذا الإنسـان القديم والعظيم. من قبل ومن بعد، قد

بدا وكأنه جالس وقد أمسك في يده عصا (لقيادة جمل) ويصطف تحتها سطران من كلمات حميرية وكان التعليق متعامداً».

لقد كـان التعليق في الحـقيقـة هو الذي أزال كل شك في أنني وداوتي نقف أمام الـرسم نفسـه، أزالت فتـرة (٥٤) عامـاً حروفـاً قليلة من النقش كانـت قد تآكلت، وإلا فإنهـا هي الكتابة نفسـها تحتل المكان نـفسه بالنسـبة للشكل. ولكن الشخص الهائل الذي أوضحه داوتي وكأنه يواجه المشـاهد جالساً القرفصاء واضعاً إحدى يديه على خاصرتـه والأخرى ممتدة وتحمل عصا، له علاقـة محدودة مع ما رسمتـه أنا للمنظر الجانبي للمصري البطلمـيوسي النحيل جالساً على صـخرة وقد توشح حزاماً حـول خصره الضيق ومـاداً عصاه أمامه. ومع ذلك، فـإن كل سمة لهذا الرسم المخطط البسـيط لهذا الشخص قد تم نسخه بدقـة وأستطيع أن أقول: بأن تفسيري له كان أكثر صـدقاً مما جاء به داوتي الذي يكون قد نظر إليه وهو غير واضح أو كان في استعجال من أمره. إنه مطلب شجاع أيا كان الشخص المتقدم به ذلك لأن داوتي نادراً ما يـقع في الخطأ غير أننـي مقتنع بأنه في هـذه المرة قد وقع فيه، وقد أمضيت نصف ساعة وأنا أفحص اللوحة وأنقلها.

وصلنا إلى قمـة الممر - (٤١٠٠) قـدم فوق مسـتوى سطح البحـر- خلال خمس دقائق من هذا النصب، وهبطنا منها في طريق معبَّد بلا عناية، من سلاسل من جرانيت أحمـر ورمادي. كانت بعض أجزاء الرصيف منزوعة أو مـدمرة بفعل السيول ولكنه يصل تقريباً إلى نهاية المنحدر السفلي، ومن هناك واصلنا المسيرة إلى محطة السيل في بطن شعيب رملي.

وتوقفنا للراحة بعد أقل من نصف ساعة، على مسافة ليست بالبعيدة من مجموعة عشش مكونة القرية[١]. لقد كانت القرية إحدى المواقيت (جمع ميقات) أو المحطات التقليدية لاستبدال الملابس العادية بإحرام الحج. يقوم أصحاب المحلات القليلون المقيمون هنا بسد حاجات الحجاج، وتموينهم بالماء الساخن لأجل الغسل والوضوء، قبل ارتداء الإحرام، إلى جانب تقديمهم الشاي والقهوة والطعام. لقد اختبرت كرمهم من قبل في عام ١٩١٧م، حينما أمضيت ومجموعتي ليلة هنا، ولكن في هذه المرة بدا المكان مرحاً، ونصبت الخيام استعداداً لاستقبال الملك القادم من الرياض لأجل الحج. لقد غادر موكب السيارات الملكي العاصمة الصحراوية بالأمس، كما مر الأمير فيصل من هنا عبر السيل، وقبل ساعات من وصولنا للإعداد لاستقبال الملك في عشيرة. وصلت ثلاث عربات لحاشية الملك من بينهم صديق قديم لي، هو جابر المري ووصل كذلك ابن نويصر إلى السيل في طريقه إلى الغاية نفسها، وذلك أثناء وجودنا هناك، وقد صحبتهم لتناول الوجبات الخفيفة من شاي وقهوة وبطيخ.

كنت مهتماً بوصول شاحنة على التو من الطائف تحمل جنوداً من رجال ونساء، عائدين من مكة بعد زيارة قصيرة إلى مسجد عبدالله بن عباس. كنت أعرف السائق وقد عرض عليَّ خدمة نقلي إلى مكة، وقد قبلت منه ذلك في بهجة. اشتريت ماء ساخناً لأجل الغسل ولبس الإحرام، بينما كان الجميع يتناولون الوجبات الخفيفة استعداداً لمواصلة الرحلة. ودعت رفاق رحلتي والذين بالطبع

(١) العشش ومفردها عشة، هي أكواخ أو منازل تُبنى من القش والأخشاب وسعف النخل وما شابهها. وهي في العادة منتشرة في الأجزاء الشرقية من بلاد السروات في بيشة ورنية والخرمة وأحياناً في تثليث وما جاورها من البلدان، كما توجد بكثرة في الأجزاء التهامية الممتدة من جازان جنوباً إلى القنفذة والليث وما حولهما شمالاً. (ابن جريس).

سأراهم مـرة أخرى في مكة. وصـعدت إلى الشـاحنة وانطلقنا على الطريق الذي أصبح الآن مألوفـاً عبر بحيـثة، وادي اليمانية، والزيمة، والشـرايع، وجبل النور، وأخيراً مكة. كان الوقت ليلاً قبل وصولـنا، وقد أديت شعائر زيارة المسجد الحرام في برودة المساء، قبل ذهابي إلى سكـني الخاص، في حي جرول والذي منه بدأت رحلتي في (١٩) نوفمـبر لمغامـرتي الكبرى في الربع الخالي. خـلال هذه الأربعة شهـور ونصف، امتنـعت تماماً عن التـدخين، وكانت فكرتي الأولى هي الغلـيون الذي استمتعت به مع كوب من الشاي بعد أن اسـترحت من أعمالي. كنت مقتنعاً بالنتائج. وكان الخامس مـن أبريل حقيقة يوماً عظيمـاً بالنسبة لي، ولعلي لن أنس اسم الفائز بسباق الدربي[١] لعام ١٩٣٢م.

كنا طيلة هذه المدة علـى ظهور دوابنا لمسـافة (٣٩٥) مـيـلاً، من السليل إلى السيل، قطعناها في (٢١) يوماً، بمتوسط (١٩) ميلاً في اليوم على جمال مرهقة، والتي كانت قـد اضطرت إلى مسيـرة إجبارية طولها (٣٤٧) مـيلاً، عبر صـحراء عـديمة المياه، من نايفـة إلى السليل في عـشرة أيام، بلا ذكـر شيء عن التجـوال الطويل في الربع الخـالي قبل ذلـك، لمدة شهـرين قطعنا خلالهـا (٩٥٨) ميـلاً، لتصبح المسافة الإجمالية للرحلة (١٧٠٠) ميلاً، في (٩٠) يوماً، بمتوسط إجمالي (١٩) ميـلاً في اليوم. كانت لدي كل الأسـباب لأن أحس بالقناعـة، ولقد كنت بالفعل قنوعاً.



(١) من أشهر سباقات الخيل في بريطانيا ولازال مستمراً إلى اليوم. (ابن جريس).

الباب الثاني

الوادي الثلاثي

٢٢ أبريل إلى ٢٤ يونيو ١٩٣٦م

الفصل الرابع

الملك في معسكره

كانت تلك أيام كآبة في الجزيرة العـربية، الأيام المبكرة من ربيع عام ١٩٣٦م حينمـا تجمـعت سحب الحـرب فوق أثيوبيـا واسودت أكـثر بالإحسـاس الداخلي بالكارثة، راقب العرب بتعاطف شديد وأمل ضعيف ذلك الكفاح الشجاع لجيرانهم الأحـباش لإزالة قـوة فيـضان الاعـتداء الإيطالي. كـانت كل العيـون تتجـه إلى بريطانيا، وكـان الملك، الذي لم يتخل عن ثقـته البسـيطة بعزيمة بريطانيا وقـوتها للتدخل، حتى عند الساعة الأخيرة، لإنقـاذ الحبشة من مصيرها. في هذه الأثناء، وحالما يكون قادراً على ذلك بعد الحج، الذي تم خـلال الأيام الأخيرة من فبراير، فقد انسحب من مكة إلى عشيرة حيث نصبت مدينة كبيرة من الخيام لإقامة العائلة المالكة ولاجتماع رسمي يعقده الملك.

تتبع الملك مسار الحملة الحبشية كـما كانت توصف يوماً بعد يوم، ساعة بعد ساعة، بوساطة محطات إذاعـات تابعة لست دول، تعلن رسائل الأمل أو اليأس، المديح أو الذم الحقيقة أو الخيال. لم يتردد الملك بقناعتـه بأن شيئاً ما سيحدث قبل فوات الأوان، ولم يفهم روح التهدئة التي تشبَّع بها الجو السياسي في أوروبا ذلك الوقت، والتي كانت لها قناعـة في ترك إيطاليا لتحقق رغباتهـا مع إعلان عقوبات رتبت فقط لتتـحدى ضميرها، ولكن لا تضـعف مقدرتها على مغـامرة عسكرية. كانت قناة السويـس مفتوحة أمـام سفنها الحربية وتنقل بلا تأخـير أو تعطيل المؤن للحبـشة، إلى جانب أن إيطاليا كـانت قوة شرائية مـرغوباً فيهـا، في سوق النفط

العالمي. لم يكن هنالك مـا يهمهم كـثيراً، وكان أصـدقاء الحبـشة -ونحن منهم- راضين بقناعة يمجدون بطولة عساكرها ويراهنون على مقدم موسم الأمطار. ولكن لم تصل الأمطار بالمرة، في نهاية الأمر، أو وصلت متأخرة جداً.

ذكرني الملك بكـياسة قـبل مغادرته مكة بوعـده الذي أعلنه في الرياض، في شهر ديسمـبر المنصرم، بأنني سأزور المناطق الجنوبية لتخطـيط الحدود بين السعودية واليمن، كما وضعـتها لجنة حدود مشتركة خلال العـام السابق، لذلك فقد أقمت في الحجـاز لإعداد أموري، والاسـتعداد للرحلة العظيـمة المتوقـعة. لم أتمكن من مغادرة مكة إلاً في (٢٢) أبريل للالتحاق بالملك في عشيرة. كان الطقس قد أصبح دافئاً بالفعل في السفوح الساحلية المنخـفضة، وكانت الدرجة القصوى للحرارة في مكة لليوم السـابق، (٩٧) درجة فهـرنهايت مع درجة حـرارة دنيا أثناء الليل، في حدود (٨٠) درجة ولكن، أثنـاء قضائي لليلتي الأولى في عشـيرة، وعلى ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، فقد هبطت هذه الدرجة إلى (٦٢) درجة، علماً بأن الدرجة القصوى عند الظهر، وفي ظل خـيمتي كانت تتأرجح إلى ما يزيد عن (٩٠) درجة خلال الأيام التالية. هبت عاصفة رعدية مع شيء من المطر على مكة خـلال آخر يوم لي هناك، كـمـا كانت هنالك أمـطار في الجبـال، ذلك لأنه في السيل، الطريق المطروق إلى الطائف والرياض، كان المجـرى النحيل، الذي تغذيه مياه عـيون شحيـحة، قد امتلأ إلى حـجم الوادي، إلى عرض (٢٠) ياردة ولكنه كان ضحلاً جداً.

كان سفري بأسلوب مرفّه، ووصلت إلى معسكر الملك في وقت مبكر، لفترة ما بعد الظـهر، لأنصب خيمتي بجـوار آبار في مجموعـة خيام يشغلهـا موظفون عـزاب ووزراء المجلس. كان لكـل من صحب أسـرته مـعه -بالطـبع- معـسكره

الخاص، كنا منتشرين خلال منطقة جيدة التشجير، في وادي عشيرة، وكان من بين الآبار الخمس التي تكون مورد الماء لعشيرة اثنتان فقط تعملان مع وجود خزان من الأسمنت وعمود عليه نقش يوضح تطور الحضارة في الصحراء. اختلطت السيارات التي تحتاج إلى الماء، مع الضأن والماعز والجمال وكلها في حالة متشابهة ولكن السيارات بالطبع كانت تفوز على الحيوانات وأما ملكية هذه الآبار فقد أصبحت معطلة مؤقتاً منذ اعتماد قرية عشيرة طريقاً للسيارات عبر شبه الجزيرة.

انتصبت خيمة الاستقبال الملكية الكبيرة في وسط الساحة المكشوفة حول الآبار وإلى جانب خيمة مماثلة للمائدة الكبيرة، يمكنها أن تستوعب ما يربو على (١٠٠) مدعو -وعلى مسافات منها وفي شكل دائرة- انتصبت خيام الاستقبال للأمير سعود والأمير فيصل وغيرهما من الأمراء.

كانت لنا خيمتنا ووليمتنا الخاصة بنا وكان من بين رفاقي الضيوف الشيخ عبدالله الفضل رئيس مجلس الشورى، والدكتور محمود حمودة المدير العام للخدمات الصحية وعضو سابق مهم في السياسة السورية -حكم عليه الفرنسيون بالإعدام عام ١٩٢٥م، وعاش حتى توفي طبيعياً في نوفمبر ١٩٤٢م-، والشيخ رشدي ملحس السكرتير الرئيسي في مكتب الاستخبارات بوزارة الخارجية[١]، والشيخ سليمان قابل، عمدة جدة السابق وعضو مجلس الشورى، وشقيق

(١) رُشدي الصالح ملحس من علماء وأدباء المنطقة الغربية خلال القرن الهجري الماضي، ومن ثقات الملك عبدالعزيز، ولد في نابلس وتعلم في إسطنبول، وبقي ملازماً للملك عبدالعزيز حوالي ثلاثين عاماً، ومات عام (١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م) وله العديد من المؤلفات والدراسات الخاصة بتاريخ وجغرافية شبه الجزيرة العربية. للمزيد انظر: الزركلي، **الأعلام**، جـ٣، ص ٢١ ــ ٢٢ . (ابن جريس).

الأخير، الشيخ عبدالقادر تاجر مشهور في جدة وآخرون كثيرون[١]. كنا عادة ما نتغدى ونتعشى معاً، بينما يخلو الملك عادة إلى معسكره الخاص للوجبات وإلاَّ فإن الروتين المتبع للمجلس في المدينة هو الذي يطبق. يجلس الملك صباحاً وظهراً في المجلس العام، بينما تكون هنالك جلسة ثالثة في المساء، أقل شعبية، حيث يستمع إلى قراءات دينية من الكتب وأخبار اليوم الإذاعية إلخ. . .

تأجلت القراءات الدينية، هذا الوقت، ذلك لأن الشيخ المقرئ للملك، عبدالرحمن القويز، كان مريضاً في مكة. وعوضاً عن ذلك فقد كان لنا التجربة غير العادية، وهي الاستماع إلى منوعات الراديو والتي أذاعت في إحدى المناسبات، محاضرة باللغة العبرية عن شكسبير من فلسطين، تلاها حفلة غنائية عربية تافهة، وبعد ذلك كانت تلاوة القرآن من مصر، وبعدها موسيقى غير دينية. لم ينغمس الملك أبداً في متعة الاستماع للراديو، ذلك لأن الأخبار، من كل المحطات الإذاعية، كانت تسجل وتقرأ عليه بواسطة أجهزة استقبال، غير أنه في هذه الأيام، كان بحاجة لما يشغله عن أخبار العالم. لم أخف استغرابي لوجود هذه الممارسات التافهة للشيخ عبدالله بن زاحم، أكثر العلماء السعوديين الملتزمين.

لم يكن هنالك مفر في هذه الأيام، أن تدور الأحاديث حول الحوادث المؤلمة عندما أبدت المقاومة الحبشية علامات واضحة للانهيار تحت الضربات الوحشية لقوة من الدرجة الأولى. أصبح الملك يحس بالمرارة ويتكلم بصراحة كلما تضاءلت ثقته

---

(١) سليمان وعبدالقادر أبناء أمان قابل من وجهاء وأغنياء أسر جدة، حتى إنه سار لهم شارع في جدة معروف باسمهم ولا زال يحمل الاسم نفسه حتى اليوم، انظر: محمد علي مغربي. **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري** (جدة: تهامة للطباعة والنشر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ٥٤ ــ ٦٠ (ابن جريس).

بمعجزة التدخل البريطاني. عبر الملك في أول جلسة أمكنني حضورها بعد وصولي إلى عشيرة عن نفسه بكل صراحة، بضياع الشرف والمكانة العليا الذي تعرضت له بريطانيا العظمى نتيجة لنجاح موسوليني في الحبشة. لقد حذرته حقيقة أنه لا يمكن عمل شيء لإنقاذ الحبشة على حساب التغيير العنيف الواقع في أوروبا، وأن سمعتي كرسول سياسي، قد تعززت بهذه الحوادث. أكد لي وزير في الحكومة البريطانية، في يوليو ١٩٣٥م، واستجابة لاقتراحي، أن سمعتنا في الشرق ستتضرر كثيراً إذا فشلنا في إيقاف المغامرة الإيطالية وذلك بمنعنا استخدام قناة السويس للمعتدي الواضح، بقوله: إنه لن يحدث شيء، ولن يُفْعل شيء خوفاً من تدخل اليابانيين!.

اقترح السير صامويل هور، في كلمته في جنيف، في الحادي عشر من سبتمبر ١٩٣٥م، تغييراً صحياً من القلب، بأن وضعني في الموضع غير العادي، ذلك لأنني مساند بكل قلبي، لحكومة صاحب الجلالة الملك. في رأيي كان لا بد من المخاطرة بالحرب ضد إيطاليا وذلك بإغلاق قناة السويس. لهذا يجب أن نخاطر به مهما كانت التكلفة، إذا كنا نقدر سمعتنا. ويمكن أن تكون المخاطرة بلا نتائج عكسية. وإذا كانت السلامة العامة ذات معنى، فلا بد أن تفرض على الآخرين وعن طريقنا. غير أن إيطاليا سلكت طريقها مستبشرة ولم نفعل نحن أي شيء. سافرت وزوجتي في وقت متأخر من العام إلى الجزيرة العربية بالسيارة، عبر فرنسا وإسبانيا إلى طنجة ثم على امتداد الساحل الشمالي لأفريقيا، عبر ليبيا إلى مصر. قابلنا الطليان بالاحترام واللباقة والعطف وأبدوا إعجابهم بالحصافة البريطانية وذلك برفع الستار عن مسرحية «الأرملة الطروب» في بني غازي. خلالها تمخضت الولادة الضخمة للقوتين العظيمتين فولدتا فأراً مضحكاً، وبعد أن

ابتلع السير صامويل هور كلماته الشجاعة التي قالها في سبتمبر اشترك مع م. لافال، في الإعلان المشهور الذي يشير إلى الاستسلام الأثيوبي. غير أن أثيوبيا حاربت ضد كل الظروف الثقيلة.

لا غرابة أن يحس الملك بالمرارة. سيأتي دور الجزيرة العربية نفسها بعد الحبشة. لقد بدأت أيطاليا بالفعل في تقوية مواقعها الدبلوماسية في مجلس ملك اليمن، الذي أزعجته النشاطات البريطانية في مستعمرات داخل، أو مجاورة للحدود الداخلية ناحية الصحراء. حينما هزم ابن سعود الجيش اليمني خلال حرب الستة أسابيع في ربيع عام ١٩٣٤م، واحتلاله ميناء الحديدة فإن السفن الحربية لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا تدخلت لتنصح بالهدوء. ترك ابن سعود اليمن سالمة، بعد اقتناعه بتأكيد مطالب حدوده. تبدو الجزيرة الآن أكثر احتمالاً لأن تكون ملعباً للصراع للأطماع الأوروبية. لقد فهمتُ معنى رحلتي المخططة إلى الجنوب - بواسطتي- ولم يكن الملك يدري بأنها مهمة غير رسمية، للتجسس على الأرض. ولكن قصة تلك المغامرة لم تكن لهذا المجلد. أليست مسجلة في حوليات كتاب «بنات سبأ»[(١)].

لا عجب إذاً أن يحس الملك بالمرارة ولكنه محافظ دائماً على توازنه، يحكم على الحوادث والاتجاهات بالمقياس الموضوعي وبمضاعفاتها المحتملة على اهتمامات العرب. وفي حديث مثير للاهتمام، عن سياسته الخاصة وعلاقتها بالشؤون

---

(١) وللمزيد من التفصيلات عن زيارة فيلبي للجنوب وبخاصة بلاد اليمن، وتدوين كتابه (**بنات سبأ**)، انظر الكتاب نفسه مترجماً إلى العربية بعنوان: **بنات سبأ، رحلة في جنوبي الجزيرة العربية**. ترجمة يوسف مختار الأمين (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) (ابن جريس).

الخارجية، أعلن بشكل مطلق أنه سيقف دائماً مع صداقته التقليدية مع بريطانيا العظمى، ولن يدخل نفسه تحت أي ظرف من الظروف، في تعقيدات سياسة الانتداب. استقبل الملك خبر وفاة الملك فؤاد، ملك مصر، في (٢٨) أبريل بتعابير أسف حزينة لوفاة أخ ملك، ولم يحاول أحد إخفاء الحقيقة في أن الموت قد أزال السبب الرئيسي للنفور الطويل بين مصر والمملكة العربية السعودية. لعب الملك فؤاد دوماً بفكرة أن يكون هو الخليفة وبذلك يسيطر على سياسات الجزيرة العربية، وفيما عدا تأثيره على التبادل الدبلوماسي بين البلدين، فإنه كان ضرباً من الطموح لا ضرر منه، ولن يكتب له التحقيق، وها هو أخيراً يتوقف فجأة حتى لا يكون حجر عثرة في طريق العلاقات الودية بين الحكومتين. لقد استمعنا إلى الحديث الإذاعي للملك الشاب فاروق في (٨) مايو، وهو اليوم الذي أفادت الأخبار فيه، بالتوقيع في القاهرة على الاتفاقية التي تأخرت كثيراً بين مصر والمملكة العربية السعودية.

استمرت خلال هذه الأثناء، الحرب الحبشية وفي الثاني من مايو انتفض المجلس رعباً لسماعه بهروب نقوس من أديس أبابا إلى جيبوتي. كان الملك منزعجاً بحق وصرخ بغضب في وجه عصبة الأمم، وللمرة الثانية، فقد كان ناقداً بعنف السياسة البريطانية فيما يخص هذه المأساة التعيسة. غير أنه بدا في اليوم التالي، وكأنه قد صرف هذا الأمر من ذهنه وفي حضرة كل من الشيخ عبدالله بن حسن والشيخ عبدالله بن زاحم وعلماء آخرين قدم بنفسه محاضرة دينية تدور حول السلوك والواجبات والمسؤوليات والفرص التي يتوقعها من العلماء.

كان ابن سعود، حقيقة، كل شيء لكل الناس، كان قادراً خلال لحظة، وعند أقل استفزاز، أن يقود بزمام جمهرة من رؤساء البدو، أو وزراء الدولة، أو علماء

دين، أو دبلوماسيين أجانب- دون ذكر لرفاقه المرحين خلال لحظاته العادية ومن بينهم أنا وبكل فخر. كان من بينهم السيد حمزة غوث وزير دولة بلا أعباء، وقد قام حديثاً بإرسال زوجته المفضلة إلى أهلها بالمدينة، وانضم إلى خيمة العزاب، والذي كان يشار إليه بصفة عامة، بأنه «فندق» وذلك لمقدرتها على استيعاب كل الزوار الضالين من النوع «المتحضر». لقد كرّمنا الملك في أحد الأيام، بدعوة نفسه للعشاء معنا، ولكن طباخنا المكاوي لم يقم بالواجب على المستوى، وشاركنا الملك في تعزيته لنا، بقبولنا لمستوى طعام كهذا. لم يكن لدينا ما نشتكي منه حقيقة؛ ذلك لأن كل المؤن جاءتنا من المستودع الملكي وأن مجموعتنا السورية سعت دائماً إلى إعداد وجبات سورية، التي هي أحسن ما في العالم. لقد كانت محاولاتنا للانتفاع برؤساء مكة، الذين يألفون حياة المعسكرات، هي التي نتج عنها الهبوط المؤقت لأسلوب طبخنا الذي كان في صالح الملك.

زارني في الخامس من مايو مساعدي الهندي في جدة(١)، وقمت بتقديمه للملك لينوب عني أثناء غيابي الذي سيطول في الجنوب، ثم أخذته في جولة طويلة داخل الوادي المشجر الممتع، وادي عشيرة وعلى الجانب الأيسر للوادي حيث الصخور البركانية التي تكوّنه.

لاحظت أثناء فترة ما بعد الظهر سحب عاصفة قوية، إلى الجنوب وإلى الغرب منا، والتي اتجهت فيما بعد شمالاً، تصحبها أمطار رعدية، وقبل ساعة من الغروب تحرك جدار من سحب سوداء في مواجهة الشمس الغاربة، مع ظهور قوس قزح معتدل في وسطها، منحن قليلاً عند طرفه. سبقت الجدار السحبي

(١) مساعده في إدارة مكتب شركة الشرقية المحدودة بجدة. (ابن جريس).

المتقدم زخات من رمل تدفعها الرياح مما دعانا للإسراع إلى العودة عبر حقل الصخور البركانية. لم نذهب بعيداً حينما تتابعت قطرات قليلة ثقيلة مبشرة بالعاصفة، والتي انفجرت علينا بوابل من البرد، تضرب به رؤوسنا، وتلسع أوجهنا بعنف، مما دفعنا للاحتماء بشجيرة حتى ينجلي أسوأ حالها. استمرت العاصفة حوالي الساعة وسجل قياس المطر ما مقداره نصف بوصة. أصبحت كل المنطقة متاهة من جداول جارية غير أنه لا يوجد سيل في المجرى الرئيس للوادي لا حينها ولا بعد أن توقفت العاصفة. كان مطرنا الغامر محلياً جداً، ومع ذلك وصلت تقارير عن أمطار وسيول من أنحاء عديدة مثل سدير في نجد ووادي الوجه في الطائف خلال هذه الفترة. ويتكرر مثل هذه الزيارة من حين لآخر في الجزيرة العربية في هذا الموسم، وربما يكون امتداداً للرياح الموسمية التي تصل من الهند، عند منتصف مايو. ومما شاهدت من الأحداث الغريبة قبل انفجار العاصفة كان هجرة أعداد كبيرة من العصافير والخطاف وآكلات النحل كلها كانت متجهة شمالاً إلى أسفل الوادي.

ألحقت العاصفة دماراً بمدينة الخيام الملكية، خاصة السرادق الخاص بحريم الملك. وقرر الملك نفسه بسبب ذلك، قضاء الليلة في خيمة المقابلات الشعبية، واستمرت جلسة المساء أطول مما هي العادة، وقد دار الحديث حول أحلام العشق والحب. وتناقش مثل هذه الموضوعات بصراحة تامة، وبحرية في المجتمع الرجالي في شبه الجزيرة العربية، ولا يتضمن ذلك أي إحساس بالخجل أو الشبق. اعترف الملك نفسه، أنه لم يحس بدخوله مرحلة البلوغ لكنه تزوج وعمره ١٦ عاماً، وخلال حياته عنده تجارب في الزواج أكثر مقارنة بمعظم الرجال. كما اعترف الشيخ عبدالله الفضل، والذي لم يعد شاباً كما كان، وفي نبرة من الفخر أنه قد

عبر بحلم غرامي في الليلة الماضية، وبلغ السيد حمزة الذروة لهذه القصص، بقوله إنه متزوج من ثلاث نساء، اثنتين في المدينة والثالثة في الرياض، ومنازله الثلاثة تحتوي أيضاً على فتيات حسناوات من الرقيق. لقد كان من دعاة تعدد الزوجات بحق ولكنه كان أيضاً دبلوماسياً. لم تتقابل أي من زوجاته إطلاقاً، برغم أنه خلال حجتيه الأخيرتين كان بصحبته زوجتان وله الآن ثمانية أبناء أحياء، أكبرهم في عمر ٢٨ سنة.

تمازح الملك بعد يوم أو يومين وبعد الغداء، مع سلطان بن جبر وهو أحد الأمراء من سلالة ابن رشيد وبدافع لرغبة من الملك في عمل شيء أفضل، حول التأنق الذي يبديه في استخدام سلطاته والمراهم المعطرة.. إلخ. يُقالُ الكثير من كلمات الحق على سبيل النكته ولا يساورني الشك في أن الملك كان يمزح، ولكن الرمح أصاب مقتلاً بين مفاصل درع الشاب المتأنق المعطر، وقبل أن ندرك ما حدث، تحول المزاح إلى تبادل تعابير غاضبة، ساخنة، وغادر سلطان الخيمة في خزي. ولكن كل من ألقى بالحجارة بعد ظهر ذلك اليوم، كان يعيش في بيت من زجاج، وكانوا يدركون ذلك، تقدم وفد من أقرباء سلطان، وكلهم أمراء حائل إلى الأمير سعود يلتمسون توسطه للصلح بين قريبهم وعاهلهم. تزول أمثال هذه السحب سريعاً في الجزيرة العربية، ولم يمض وقت طويل حتى عاد سلطان إلى الحظوة الملكية. سقط سلطان ضحية حادث مذهل في صيف عام ١٩٤٠م حين تعلقت عباءته بالعجلة الشديدة الدوران حينما كان يقف مع مجموعة في الرياض يفحص مضخة جديدة تحت التركيب، تعمل بالكهرباء، وقبل أن يتمكن من إبعاد نفسه عن المكينة، كان ذراعه على وشك أن يبتر عن جسمه. ولحسن الحظ، فقد كان دكتور ديم التابع للبعثة الأمريكية في البحرين -والذي نقل أخيراً إلى شركة

آرامكو بالظهران-[١] كان في زيارة للعاصمة ولقى سلطان منه اهتماماً مدعوماً بالخبرة وعلى الفور. ظل سلطان لأيام ولأسابيع بين الحياة والموت، محتملاً الألم بصبر مدهش، كما رأيت ذلك بنفسي حين سمح لي بزيارته. سرعان ما غادرت الجزيرة العربية بعد ذلك، ربما للمرة الأخيرة، ولست أدري إذا تمكن سلطان بعد كل ذلك، من الحفاظ على ذراعه المبتورة[٢] .

لقد دفعت الأحداث والتطورات الحبشية الملك إلى كآبه شديدة، وإلى أبعد الحدود، وأصبح سريع الغضب، وقد انتهت الأحداث بدمج الحبشة داخل الامبراطورية الإيطالية. وفي إحدى المناسبات، خاصة بعد حادثة سلطان، سنحت الفرصة له لأن يكون غير راضٍ عن العديد من اتباعه البدويين، مطلق بن زايد، ونافع بن فضلية، وغصاب، وخالد بن محمد بن حثلين، كل رفاقه المرحين المختارين لحملات الصيد. لقد أمر عبيده من الرقيق بحملهم جميعاً وإلقائهم في بركة من مياه راكدة، بالقرب من الآبار، وكادت أوامره أن تنفذ حينما نقضها.

كان آخر أصداء الحرب الحبشية، فيما يخص ابن سعود، هو وصول الوزير الإيطالي بجدة إلى عشيرة، السنيور برسيكو، وذلك في العاشر من مايو، وقد ارتدى أثناء سفره زياً عربياً، جرياً على عادة الدبلوماسين الأجانب حين زيارتهم إلى داخل الدولة. واجهت سيارته بعض المصاعب بالقرب من قرية السنوسية -حوالي (١٥) ميلاً من مكة- بسبب سيول كثيفة خلفتها الأمطار الأخيرة. أعدت على شرف استقباله على عجل كأنه السحر، طاولة ومقاعد، وكنت من بين

(١) تقاعد بعد سنوات قليلة ليعيش في أمريكا. (المؤلف).

(٢) بتر ذراعه، ويبدو أنه في أحسن صحة وروح عالية. (المؤلف).

المجموعة التي تـناولت الغداء معه ويشرف عليهـا الشيخ يوسف ياسين، السكرتير السياسي الرئيسي للملك.

قابل السنيـور برسيكو الملك فتـرة ما بعد الظهر، وغـادر عشيرة قـبل غروب الشمس، عـائداً إلى جدة. استـدعاني الملك صـباح اليوم التـالي لمقابلة خـاصة، ليـخـبرني أن الـوزير الإيطالي قـدم له هدية من ست طائرات، يقـودها طيـارون عرب، أكملوا تدريبـهم في إيطاليا، وذلك بمناسبة نجـاح حملة الحبشـة. لقد أكد الوزير للملك أن إيطاليا لا تحمل عـداء للجزيرة العربية، والتي لها معـها علاقات معاهدة. لقـد أخبر الوزير الملك أيضاً بأن حكـومة إيطاليا تفكر عقـد معاهدة مع اليمن، بافتراض أنه لا اعتراض له على ذلك. وعلق قائلاً بأن عصبة الأمم ليست بأكثر من عـصبة الإنجليز. استـمعنا، في تلك الليلة نفسهـا، إلى المندوب السامي على فلسطين، يتحـدث عن النمو المزعج لغياب القانون في تـلك البلاد، ولمقابلة ذلك كان لا بـد من زيادة القوى العـسكرية البريطانيـة، بينما تم اعـتقـال حوالي (٦٠٠) شخص. هكذا كـانت البدايات الصغـيرة لحركة كـتب لها، قبل انقـضاء شهور، أن تورط بريطانيـا العظمى في حرب صغيـرة، أدت إلى إثارة المشاعر في الجزيرة العربية، في مرارة تعادل مرارة الحملة الحبشية التي انتهت بكارثة.

وصلتنا هذا اليـوم أول شحنة من فـاكهـة المشمش من الطائف، وهذا تحـذير صريح بأن الصيف قادم. تسلم الملك، بالمناسبة، وقـبل أسبوعين، هدية من فاكهة المانجو، عـلى مستـوى أميـري، من الهند، وقام بتـوزيعهـا بين هؤلاء الذين على نقيضه، يحبون فاكهة المانجو النبيلة.

أصبـحت أيام مـعسكر عـشيرة الآن مـعدودة وهنـالك حركـة دائمة قـدوماً ورواحاً، للموظفين، لتـرتيب الشؤون الختاميـة للدولة، بما في ذلك الكم الضخم

للمواصلات الذي يحتاج إليه لحمل عائلة الملك وحاشيته إلى الرياض. ومن ناحيتي، فلدي أعمال كثيرة للقيام بها مع يوسف ياسين، ووزير المالية، قبل مغادرتي للجنوب، وقد كانت هذه الأيام أيام حركة قلقة. غادرت عشيرة في اليوم الثاني عشر من مايو، متجهاً إلى مكة وجدة، لوضع اللمسات الأخيرة لبعض الأعمال، ولم أرجع إلاً عند منتصف النهار في اليوم السابع عشر. كان وادي السيل لا يزال يحمل مياه السيول الجارية وعلى حوافه نبات الزعتر العطري، وغطاء نباتي ثري. كانت الفراشات والجندب مرحة حوله. كان وادي فاطمة بين مكة وجدة، ممتلئاً بمياه السيول أيضاً وكان عليَّ أن أتحاشى الطريق الرئيس لأجد موقعاً ضحلاً. كان عليَّ أن أقابل العديد من الناس في جدة. وكان لدي، القليل من الوقت للاستمتاع بمراعي الربيع على السهل الساحلي، الذي تحول الآن إلى بساط أخضر جميل.

لاحظت في طريقي للعودة عند الهدا أن معظم الطيور المهاجرة قد اتجهت شمالاً بالفعل أو كانت على وشك أن تفعل ذلك. وقد تمكنت من رؤية طائر صفارية منفرد بينما كانت هنالك أعداد كبيرة منه قبل شهر. تناولت في مكة ثمار البابای اللذيذة من داخل حديقة عبدالله بن سليمان الغنية، وعقدت معه عدة لقاءات، وكذلك مع يوسف ياسين، وغيرهما من أمثالي الذين حضروا إلى هنا لإنجاز أعمال مهمة قبل مغادرة الملك المعسكر إلى الرياض. وجدت كل المعسكر، عند عودتي له في عشيرة في حالة نشاط عظيم، استعداداً للمغادرة في الصباح.

صحوت عند الساعة الخامسة صباحاً في اليوم التالي، لأكمل ترتيب أموري للرحلة التي ستستغرق تسعة أشهر. كل شيء كان على استعجال، صخب لعربات مزعجة وإناس يصرخون. بدأ الأمير سعود عند الساعة التاسعة صباحاً، التحرك

نحـو الرياض، على رأس أسطول ضـخم من السـيـارات حـاملة الأسـرة المالكة والحاشية. وتحرك الملك عند الساعة العاشرة صباحاً مع حاشيته الخاصة متوجهاً إلى بئر محدثـة القريب من هنا أسفل الوادي، وأزيلت مدينة الخيام العظـيمة وسويت بالأرض، إلاَّ من قرية صـغيرة من عـدد من الخيام، لإيواء الذين تخلـفوا لتنظيف المكان. وانشغل الذين جـاءوا من مكة وجدة لوداع الملك بتجـهيز أنفسـهم للعودة إلى أوطانهم، فسـيذهب حمـزة غوث إلى المدينة، وسيـذهب رشدي ملحس إلى سوريا في إجـازته السنوية. انتظرت حتـى تناولت الغداء في هدوء، عند السـاعة العاشرة والنصف، قبل أن أرسل سياراتي إلى المعسكر الجديد للملك، بينما قررت أن أسير على قدمي أسفل الوادي (حوالي ١٥ ميلاً).

لقد قمت بتـوظيف دليلٍ اسمه سعيـد بن حسين من المقطة (عتيبـة) لمرافقتي لهذا الغرض، فهو قد وُلد وترعرع في هذا الوادي. تحركنا معاً عند الساعة الحادية عـشرة والنصف وأمـامنا اليـوم بكامله. كنا نتـبع بطن الوادي دائمـاً أو السفـوح البركانية الحممية على جانبه، ووصلنا بعد انطلاقة ساعتين بسهولة إلى ثقوب مائية ضحلة تسـمى دسيم كان عمق الماء فـيها عند خمـسة أقدام فقط. شـمخت على البعد، ومن ورائنا، القمم العظيمة لسلسلة جـبال الحجاز حبلة، ودكة، وقرنيت، بينما تلوى الـوادي فوق بروزات حرة ألبس وهي حـقل بركاني[(١)]، والتي أحياناً تفيض فوق جانب الوادي الأيمن، تاركة، أحـياناً مجرى لا يزيد عرضه عن (٣٠) ياردة ليجري فيه السيل. مررنا هنا وهناك بمعسكرات تابعة لمقطة مكونة من أكشاك بسيطة وأخبرني دلـيلي في سرية بأنه قد فقد والده وأخاه وخاله فـي القتال المتقطع الذي سبق دخول الطائف، في سبتمـبر ١٩٢٤م. بدأنا نرى وعلى البعد الآن خيام

(١) حرة ألبس تقع في حرة الروقة العتيبية. (ابن جريس).

الملك في محـدثة، ووصلنا إلى الثقـوب المائية، في مـويجيحـة في بطن الوادي. شاهدنا جحراً لحـيوان النيص (الشيهم) وبعض مخلفات وآثـار كشط الظهر لأحد الذئاب، وذلك في حقل صخور بركانية مباشرة تلي هذه الثقوب المائية.

لقد كانت هذه بلاد موحشة، مهجورة برغم الشريط الأخضر العريض للوادي كثير الشـجر الذي يطوق حافاتها. وصلنا إلى المعسكر عند آبار مـحدثة في الساعة الخامـسة مـساء. بدت الآبار في عـددية واضحة، برغم أن الـكثير منهـا لم يكن يستخدم، وكان عمق الماء يتراوح مـا بين خمس قامات إلى ست قامات، ويقولون إنها مـياه أحسن من ميـاه عشيـرة حيث يبلغ عمق الماء هناك في المتـوسط خمس قامات، ومياهها حلوة وبذلك فهي كمياه الأمطار، كما صرح دليلي. من الأفضل أن يُطلق على وادي عشيرة اسم وادي العقيق الذي يجري من الطائف إلى المدينة. تنتمي كل هذه المناطق إلى مـجموعة برقا التـابعة لقبيلة عـتيبة ولهذه الـقبيلة تحت أقسام رئيسة تنتشر من عند حقول الحـمم البركانية في حرة ألبس في فصل الشتاء، ويقضـون فصل الصيف في الوادي، وتحت الأقـسام هذه هي: المقطة، العصـمة، الشيابين، قريش، القثمة[(١)].

كان كل شيء جاهزاً لانطلاقة رحلتي العظيمة، وقـد أذاعت الهيئة البريطانية في الوقت المناسب رسالة سـلام إلى العالم، قدمـها فريق من تلامـيذ ويلز الذين بدؤوا نشيدهم، بتقدير لكل المستكشفين. كان شعارهم «لا تستسلم». وقد وجدته شعاراً مناسبـاً تماماً لظروفي المباشرة الخاصة. نهضت عند السـاعة الثالثة والنصف

(١) الصحيح أن أقسام برقا هي: الدعاجين، الدغالبة، الروسان، الشيابين، العصمة، القثمة، المقطه، النفعة. (ابن جريس).

في ذلك الصباح لأداء صلاة الفجر مع مجموعة الملك، ثم تشاركنا القهوة والحليب، حتى شارف الوقت على الساعة الخامسة، حينها خرج الملك في رحلة صيد. تلقيت منه خلال ذلك الوقت، تعليماته النهائية وتبريكاته على مغامرتي وبعد مغادرته كنت في حرية للبدء متى رأيت ذلك.

طلب مني الملك قبل أيام، ونحن في عشيرة، أن أعد له كتابةً، برنامجاً مبدئياً لتحركاتي التي أزمع القيام بها، وكان البرنامج الذي أعددته كما يلي:

(٣) أيام في الخرمة	(٣٠) إلى (٤٥) يوماً في نجران
(٥) أيام في رنية	(٣٠) يوماً في أبها (عودة)
(٣) أيام في بيشة	(١٥) يوماً من أبها إلى جازان
(١٠-١٥) يوماً في أبها	(١٥) يوماً حدود تهامة
(٣) أيام في تثليث	(٣٠) يوماً رحلة العودة إلى الطائف

كان مجموع الأيام يتراوح بين (١٤٤) إلى (١٦٤) يوماً، أو حوالي خمسة أشهر ونصف الشهر، أو قل ستة أشهر متضمنة الترحال الداخلي بين الأماكن المبينة. وأضافت ظروف غير متوقعة زيادة تقدر بـ (٥٠٪) لبرامج الرحلة، وكاد أحد هذه الظروف غير المتوقعة أن يعطل الرحلة كلها. أحضر زائر من نجران، قبل وقت من تنفيذ هذا البرنامج رأس أسد من البرونز تم العثور عليه في حفريات غير رسمية في تلك المنطقة. ورفعه الملك إلى الأمير سعود، الذي كلفني بأن أقوم ببيعه نيابة عنه في لندن، وقد قمت بإرساله بالفعل مع زوجتي، حين مغادرتها من جدة، بفكرة تقديمه إلى المتحف البريطاني. اعترض يوسف ياسين، حين سمع

بذلك، وبشدة، على إرسال هذا التراث الغالي إلى خارج الجزيرة العربية، باعتقاد أنه ذو قيمة خرافية وليس من المحتمل أن يقوم المتحف البريطاني بتقديره على قيمته الحقيقية. لقد تشاجرنا بجدية حول هذا وقد تمكن من إقناع الأمير سعود بإعادة الرأس له. فعل الأمير هذا بلباقة مدهشة، غير أنني أجبته بأن الرأس كان بالفعل في طريقه إلى لندن، ولكنني سألغي توجيهاتي الخاصة ببيعه. انتهى الأمر هنا، عند هذا الحد ولفترة، غير أن يوسف ياسين أثار اعتراضاً آخر مع الملك حول مشروع رحلتي: بأنني ربما أقوم بسرقة كنوز أخرى من نجران. كان للملك أسبابه الخاصة لرؤيتي أنفذ السفر، وسافرت، بينما استراح رأس الأسد في المتحف البريطاني «مستلفاً» من جانب الأمير سعود[1].



(١) ومن يتجول في متاحف أوربا وأمريكا، وكذلك مكتباتها الرئيسة يجد الشيء الكثير من تراث البلاد العربية والإسلامية، كان قد سرق أو بيع أو نقل إلى هناك بطرق عديدة. وللأمانة أن نقله إلى تلك البلاد كان خيراً للإسلام والمسلمين حيث حفظ ورُقِّم، وتم الاعتناء به على أحسن وجه، مع العلم أنه لو بقي في مواطنه الأصلية لضاع واندثر. (ابن جريس).

الفصل الخامس

الخرمــة[1]

بدأت سياراتي الثلاثة: عربة التجول، (بك-أب) حاملة عفشي وشاحنة تحمل مرافقي، والمؤن، والبنزين، إلخ، عند الساعة السـابعة والنصف من صباح التاسع عشر من مايو، الرحلة عبر البلاد، متحركة من عند المعسكر ولمسافة الميل ونصف الميل التي تفصل المعسكر عن طريق الذهب القديم. كان على موظفي شركة تعدين الذهب، وذلك قبل إنشاء الطريق المباشر من جدة عبر مدركـة والبركة إلى منجم الذهب التابع لشـركة التعدين العربيـة السعودية في مهـد الذهب، أن يسافروا إلى المنجم عن طريق عـشيـرة ولبعض الأمـيال على طـريق الرياض الرئيس إلى نقطة ينطلق منها طريق الذهب القديم هذا نحو الشمال.

أخذنا هذا الطريق الآن في الاتجاه المعاكس ولمسافـة خمسة أميال ونصف الميل التي تفصلنا عن طريق الرياض، الذي تتـبعناه في مساره الشمالي الشـرقي ولمسافة ثمانية أمـيال ونصف الميل قبل الالتفاف من حـوله، تقريباً تجاه الشرق عـبر سهل ركبه الواسع العـريض. سرنا في وسط صحراء ضخمـة، والتي قد اخضرت الآن بسـبب الأمطار الشتـوية والصـيفـيـة، وكانت في بعض الأجـزاء مـغطاة بكثافـة بشجـيرات وأشجـار الطلح القصيـرة. نستطيع أن نرى أمامنا وعـلى بعد، سلسلة جبال حـضن البازلتية المـوحشة، ذات الهضبـة الحادة القمة، المنحـدرة والتي تحدد

---

(١) للمزيد من التـفصيلات عن منطقة الخـرمة، انظر: عبدالله سـعد الحضبي السـبيعي. **الخرمة** (الرياض: مطبوعـات الرئاسة العامة لرعـاية الشباب، ضـمن سلسلة هذه بلادنا، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

موقع هدفنا الليلة، كما يقول المثل العربي. «إذا رأيت حضن، فأنت في نجد» - نجد اسم يغطي كل الهضاب العالية في وسط الجزيرة العربية. يمكن للمرء أن يرى حضن بسهولة من عند عشيرة ومن عند محدثة، ومن عند أي نقطة مرتفعة على مناحي، أو من على التلال الشرقية، لسلسلة جبال الحجاز الرئيسة. لذا يعد سهل ركبة كأنه عتبة لنجد. نستطيع عند هذه النقطة، أن نرى قمم جبال الحجاز، بما في ذلك قمة حبله ذات الرأسين، والتي قمت باستخدامها لتحديد الاتجاهات عبر الصحراء. يقع بالقرب منا وإلى خلفنا أيضاً، حقل البس البركاني الصخري بقممه المنخفضة البارزة، ويقع تل برث المنعزل في وسط ركبة، على يميننا وأمامنا مباشرة، وفي اتجاه جنوب الجنوب الشرقي تقريباً، كانت هذه هي علاماتنا الأرضية حينما اندفعنا عبر السهل.

توقفنا على مرتفع أرضي عشبي بعد أن غطينا مسافة (١٢) ميلاً. غابت الحجاز الآن وراء الأفق، وحل محلها، أمامنا من ناحية الشرق العديد من النقاط المتباينة عند النهاية الشمالية لحضن، وأصبحت القمم المسطحة ظاهرة لنا، ومن بينها البتيلة وبرمة[١] وهي العلامات الأرضية لمسقى بريم، حيث سنقضي الليلة، أوصلتنا قيادة لمسافة خمسة أميال أخرى إلى طريق السيارات المتجه من مكة إلى خرمة وتحولنا إليه باتجاه شرق الشمال الشرقي. تمتد أمامنا الآن مرتفعات برقة ذات الانحدارات المكسوة بالعشب، وقد غطتها الرمال، والتي كنت قد عبرتها في الأيام الأقل سلماً لعام ١٩١٧م وأنا في طريقي من الطائف إلى الرياض. كان الموقع، آنذاك، ممتلئاً بالأغنام والجمال وخيام قبيلة البقوم، غير أنه أصبح اليوم مهجوراً

(١) البتيلة وبرمة في أسفل منطقة الحضن. (ابن جريس).

وعبرناه وعــبرنا كذلك نتوآت أرض حضن الخــارجية متجـهين إلى آبار بريم، بعد تغطيتنا لمســافة (٢٤) ميلاً منذ دخــولنا لطريق السيارات، وحوالي (٥٧) مــيلاً من عند محدثة. لبــريم ثلاث آبار يكون الماء فيها عند عمق (١١) قامــة. وقد تجمعت عندها جماعة من البقوم لقضاء الليلة ولسقيا حيواناتهم. يوجد، حقيقة، ماء كافٍ في هذه المحــافظة، وأحسنهــا كــانت بئر برمــة، التي تقع ناحــية الغــرب، بعض الشيء، بالنسبة لتل له الاسم نفسه، وعمــقه ست قامات فقط. كان هذا على بعد حوالي ستة أمــيال، بينما تقع بئر صلبة على بعــد الميلين إلى الجنوب الغربي أسفل معلم وهده لصخــرة الحضن. توجد بئر أخرى عند عدمه إلى الــغرب من موقعنا، بينما وبعيداً أمامنا، ناحية الجنوب الشرقي، توجد بئر قطان الواقعة في مسيل معلم حسنه التــابع لحضن. ولربما تكون هنالك آبار أخــرى لم يسمهــا لي سعيــد التابع لعشيرة السمــيان من البقوم[1] والذي قد عينته دليلاً للــرحلة إلى الخرمة في مقابل المبلغ السخي: ثلاثة ريالات، وقد رافــقني، خلال فترة ما بعــد الظهر، إلى واحد من تلال الصواير التي تقع بالقرب من الآبار، لأقوم بالمسح العادي للبلاد المحيطة.

ينحدر الوادي، الذي تقع فيــه آبار بريم من مرتفع وعيفــر التابع لحضن، إلى الجنوب من موقعنا، وقد اتحد معه عند أعلى الآبار، واد آخر هابط من صخرة تقع خلف برمة، ماراً بتل بقبله وداخــلاً في السهل المكشوف الذي يقع إلى ما وراء تل آخر يســمى أم الطريقين إلى الشــمال من مــوقعنا. ولذا فــإن اتجاه مســاره هو من

(١) يظهر أن فيلبي خلط في نسب دليــله سعيد، فهو في صفــحة (١٦٤) يسميه سعــيد بن حسين من المقطة (عتيبة)، وفي صفحــة (١٧١) يسميه سعيد التابع لعشيرة السميــان من البقوم، وهذا خلط واضح فالبقوم تختلف في نسبها عن عتيبة. (ابن جريس).

الجنوب إلى الشـمال. تنحدر العـديد من الأودية المشابهـة من الحروف الصـخرية المكسَّرة لحضن على كلا الجانبين لتنساب متوجهة إلى السهل، بينما تنتظم الجروف الصخـرية نفسهـا على نقطتي المفصلة في شكل وتر يمتـد من الجنوب الشرقي إلى الجنوب الغـربي. يقع بعيـداً على السهل وتجـاه الشمـال الشرقي عدد مـن التلال المنعزلة منها التوأم خصيعين والأشفين وكتيفه وغيـرها. كان المنظر حقيقة، منظراً صحـراوياً، وكانت أقرب المستـوطنات هي تربة، التي تبعـد على مدى رحلة يوم واحد، أو ما يقرب من ذلك، ناحية الجنوب الشرقي، والخرمة التي سنصلها غداً. بدأت رياح ساخنة عاصفة تضربنا عند الغروب وكانت درجة الحرارة، عند منتصف الليل قليلاً، تزيد عن ٨٠ درجة. كان ارتفاعـنا هنا يقل عن عشيرة بحوالي ٨٠٠ قدم.

تأخر مـوعد مغادرتنـا صباح اليوم التـالي وذلك بسبب سعـيد، الذي ركض فجـأة ناحية الآبار ليشـفع لأخيه. تعـرض أخوه إلى غضب الناس لمحاولتـه سقي جمـاله دون الالتزام بنظام الدور، ولـذلك فقد تم ضـربه لإساءته للنظام. انـتهى الشجـار سريعـاً على أي حال، وعاد سـعيـد إلينا، انطلقنا قبل السـاعة السـابعة صبـاحاً. كان طـريقنا إلى الخرمة، وبكل المقـاييس العمليـة، مماثلاً لطريق الحج، الذي سلكته في الاتجاه المعاكس عام ١٩١٧م، ولن أحاول أن أصفه بالتفصيل. لم نمض بعيـداً إلاَّ وتأخرنا مـرة أخرى بسـبب ثقب في الإطار، وسرعان مـا واصلنا سيرنا لمـرتفعات حضن وهي مـصطفة إلى البعيـد وعلى يميننا. وصلنا إلى المجرى العظيم لشعيب الملحة، وذلك بعد أن عبرنا شعيب المشيريف، الذي يبعد عن بريم بحوالي سبعة أميال. يوجد في هذا المجرى المائي بئر تسمى الحفيرة وتقع قريباً من معلم جادة الحاج، وتقريباً تجاه الجنوب من موقعنا.

كانت العقبة الثانية أمامنا، وهي خفيفة نسبياً، هي مجرى شعيب السَّليم والذي يقع من ورائه سهل رملي طيني واسع تكسوه شجيرات الطلح، والذي يمتد إلى وادي اقتان (حوالي ١٤ ميلاً من بريم)، وهو واحد من المصارف الرئيسة لحضن، والذي يوجد فيه بئر تسمى برمة، والذي يتجه درب جمال نحوه من جدمت الحاشي والمعلم الأرضي الآخر، واسمه أم اشداد. ويقع بين هذا الأخير وبين معلم ثالث فيما يليه - واسمه هرش الربع[1] - بئر البديعة وهي في ممر يطرقه طريق الحج الرئيس من تربة إلى مكة مخترقاً سلسلة حضن. يقال إن أقتان، الذي يتحد في طريقه مع مجرى السَّليم، ومجرى المشيرف، يصب في نهاية الأمر، في سبخة المويه المنخفضة، على طريق الرياض الرئيسي، تاركاً تلال هكران إلى اليمين. ويقع، على بعد منا وعلى يسارنا، وادي واسع تكسوه الشجيرات، وذلك عندما عبرنا السهل فيما يلي اقتان إلى بعض الركام الحجري - حوالي (١٨) ميلاً من بريم - معلمة بذلك بداية بلاد صخرية متموجة تسمى هضب. وقد ظهرت لأول مرة، على بعد أميال قليلة فوق القمم البركانية لحقل الحمم البركانية الكبير لحرة النواصف فيما وراء الخرمة، وصلنا بعد أن قطعنا مسافة (٣٢) ميلاً من بريم إلى شعيب الشعبة وعبرناه وهو من أعظم أوعية الصرف في بلاد الحضن، وشاهدنا على بعد ميلين آخرين أول منظر لنخيل الخرمة. لمحت فقط ثلاث غزالات خلال كل هذه الرحلة بالسيارة، بينما كان الحال في السابق - قبل عصر السيارة - أنها تكوّن قطعاناً عظيمة تنتقل في مراعي الوادي. أدار ابن فراج، رئيس الفرقة، شاحنته لمطاردة قطيع من الغزلان، وأمسك بواحدة منها.

(١) والاسم الصحيح هو: ساق الربع. (ابن جريس).

أوقفنا سيـاراتنا عند الساعة الحادية عـشرة والربع بجوار مدخل قـصر خالد، مقر إقامة سـعد بن لؤي، أمير الخرمة. لقد غطينا مسـافة (٣٨) ميلاً ونصف الميل من عند بريم، ويبدو المكان وكأنه مهجور إلى حد بعيد. لا يوجد أحد حوله، غير أن ضوضاء سـياراتنا التي لم تكن متوقعـة سرعان ما أيقظت خـدم الأمير النائمين وأتباعه، الذيـن ساعدونا للدخول إلى السـاحة التي تقع بين المنزل الحكومي وبين المقبرة، على بعد (٢٠٠) ياردة وهي أرض مرتفعـة بعض الشيء. استقبلني الأمير في هذه الأثناء شخصياً في غرفة نومـه. حيث كان يعاني من الحمى الشديدة لعدة أيام وكان من الواضح أنه شـديد الضعف نتيـجة لذلك. أصر على أن أظل مـعه لمشاركتـه إفطاراً خفيفاً من تمر وزبدة ولبن رائب، وفـي أثناء ذلك أخبرني في بطء عن بليته.

كان الوادي الجاف عادة فائضاً طيلة أربعة أشهر وإلى أيام قليلة قبل وصولنا، وكان فـيضـانه هو الأكبر منذ عـام ١٩١٩م، عام المعـركة المشهـورة في تربة التي هزمت فيها قوات الشريف عبدالله بواسطة السعوديين. أذكر أنني سمعت في ذلك الوقت، أن سكان تربة وكذلك القـوات السعودية المهاجمـة قد قاموا بصـيد أعداد كبيرة من الأسماك من البرك التي خلفتها مياه السيول. وتشير كل الاحتمالات إلى أن هذه الأسماك ظلت لسنوات عـديدة في تلك البرك التي بقيت تقريباً مـستمرة، خاصـة تلك التي تقع في اتجـاه أعلى الوادي، في الجبـال وقد أنزلها الـسيل. تم التبليغ عن وجـود الأسماك في هـذه المرة أيضاً، ولكن لا يبدو أنهـا كانت كثـيرة العدد أو كبيرة الحجم، وكل ما اسـتطعت مشاهدته في بعض البرك القليلة المكسوة بالفطريات اللزجـة والتي كـانت لا تزال موجـودة في بطن الوادي، هو عـدد من الضفادع. ويمكن الحـصول على مياه ممتازة، حـتى في الموسم الجاف، وذلك فقط

بإزالة بوصات قليلة من طبقة الرمال من بطن السيل، وبالطبع، فإن الخرمة يتم تموينها بسخاء، بعدد من الآبار المنتظمة ذات الأعماق عديدة القامات وذلك لأجل ري أشجار النخيل والمحاصيل الحقلية في الواحات الغنية التي تمتد إلى مسافة خمسة أو ستة أميال على الأقل أعلى وأسفل الوادي.

كان امتداد فترة امتلاء الوادي بالماء، من الوجهة الزراعية، ميزة عظيمة للواحة، غير أن تكوين البرك، حين انحسار المياه، حولها إلى بؤر توالد للبعوض، الذي حول المنطقة إلى مركز للحمى في المجتمع. كانت الحمى خبيثة جداً، ولعلها نوع من الملاريا، وقد قتلت الحمى حتى وقت زيارتي، حوالي مئة شخص(١)، ويمكن للمرء أن يرى ذلك من استمرار اتساع المقبرة بالقبور الجديدة ليدرك مدى خطورة هذا الوباء. رأيتهم في فترة ما بعد العصر، يوم وصولنا، وهم يحملون جثماناً مغطى بالكفن الأبيض ومن فوقه قماش مخطط، نزعته الرياح عن الجثة في الطريق، وهم يحملونه من القرية التي تقع بجوار القصر للدفن. وبعد الدفن، شرع حفار القبور في إعداد قبر ضحل لا يزيد عمقه عن ست بوصات، للضحية التالية للوباء، والذي كان يحتضر تلك اللحظة. كان زمناً عصيباً ومخيفاً على كل أهل الخرمة، وقد علمت بعد شهور أن الوباء قد قضى على حوالي (٦٠٠) شخص من بين السكان الذين يقارب تعدادهم (٣٠٠٠) . كان من بين مخزون

(١) الحُمَّى من الأمراض الفتاكة التي كانت تقتل كثيراً من الناس، ويحدثنا فيلبي على طول صفحات هذا الكتاب عن المعاناة التي كان يعانيها الناس من هذا المرض، بل لقد عانى منها هو أكثر من مرة على طول رحلته في جنوبي البلاد السعودية، وأوشك أن يفقد حياته أكثر من مرة. كما أن كبار السن، والذين عاصروا القرن الهجري الماضي، يحدثوننا أحياناً بقصص عديدة حول مخاطر هذا المرض، حتى إنه في بعض الأحيان كان يقضى على أعداد كثيرة في وقت واحد. (ابن جريس).

مؤني زجاجة دواء واحدة تحتوي (١٠٠) حبة كينين وقد قدمتها كلها للأمير، له هو ولأجل أسرته. ولا أستطيع أن أعمل أكثر من ذلك. ولكن كل ما يحتاجونه في هذه المناطق المنعزلة، هو وجود الطبيب، إلى جانب كميات كافية من الأدوية والعقاقير[1].

كان زامل شقيق الأمير مريضاً أيضاً بالحمى، ولهما شقيق ثالث حسين، الذي كنت قد قابلته في عشيرة حينما أقبل لتقديم تحياته للملك. كان ثلاثتهم أبناء للمحارب المشهور في التاريخ العربي، خالد بن لؤي، الذي دافع عن الواحة ضد ثلاث هجمات قامت بها قوات الأشراف في عام ١٩١٨م و ١٩١٩م وقام أخيراً بتوجيه العمليات التي أدت إلى ضم الطائف في سبتمبر ١٩٢٤م ومن ثم دخل إلى مكة على رأس قوات السعوديين بعد شهر من ذلك. كان على رأس قوة في العمليات ضد اليمن عام ١٩٣٤م، غير أنه مات مستسلماً للحمى في تلك الأراضي المنخفضة غير الصحية في سهل تهامة. لقد كان وبكل المقاييس رجلاً عظيماً، صارماً ومتعصباً وخادماً مخلصاً جداً لمليكه. عمل ابنه الأكبر، سعد، وهو مضيفي، ولا يزال أميراً على الخرمة، في شبابه مع جيش الأشراف الذي كان يحاصر أو يحاول محاصرة المدينة خلال الحرب العظمى، ولكنه عاد إلى موطنه نتيجة لمشاجرة مع الأمير عبدالله. حينها أنهى والده، خالد، معاهدته للولاء للملك حسين وألقى بكل قواه مع ابن سعود. كان النزاع حول الخرمة هو سبب

(١) انتشار مرض الملاريا وغيره من الأمراض، وموت الناس بأعداد كبيرة يدل على ضعف الرعاية الصحية، بل إنها معدومة في كثير من المواطن، ثم تحسنت الأوضاع الصحية منذ أواخر القرن الهجري الماضي حتى صارت مراكز الرعاية الطبية منتشرة في كل مدينة وقرية وهجرة، وتم القضاء على كثير من الأمراض أمثال الحمى وغيرها. (ابن جريس).

الحرب بين الملك عبدالعزيز. والملك حسين وقاد إلى هزيمة تامة لسلالة الأشراف[١].

لم تكن قرية الهجرة، ذات البناء الشبيه بالقلعة والمنازل ذات الطابق الواحد المبنية من اللبن، والتي عسكرنا أمامها، قائمة حينما مررت بالخرمة في عام ١٩١٧م وعسكرت حينها، في القرية الرئيسة للواحة وكان اسمها سوق. كان لفظ «هجرة» هو اللفظ المعتاد للقرى، والقرى الصغيرة التي أسسها واستوطنها الإخوان في أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية[٢]. يبدو أن هذه القرية بالذات، أي هجرة الخرمة قد تأسست بعد معركة تربة في عام ١٩١٩م، وحينها، كان الشيخ إبراهيم ابن داود مناصراً صاعداً للدعوة، قد أوفد لتوجيه قيادة المستوطنين الذين تجمعوا من كل القبائل المجاورة، إلى الأسلوب الذي يجب اتباعه، وما زال موجوداً هنا، بعد (١٧) عاماً. وفي ١٩٤٠م سمعت بأنه توفي والتحق بآبائه بعد سنين عديدة من الفخر والسؤدد. كان يبدو لي دائماً وكأنه عجوز، برغم أنه ربما لم يتجاوز الخمسين عاماً، عندما توفي. زرته في هذه المناسبة للمجاملة ولتناول الشاي والقهوة معه. كان رجلاً لطيفاً، حميماً، عليه أسارير المرح برغم مظهره الكئيب. وجدته وهو يعاني ليس من الحمى ولكن من سوء الهضم، وقمت بالبحث في

(١) للمزيد من التوضيحات حول الحرب بين الملك عبدالعزيز والملك حسين ودور بلاد الخرمة وأهلها في ذلك الحرب، انظر: السبيعي، **الخرمة**، ص٢٥ وما بعدها، العثيمين، **تاريخ المملكة**، جـ٢، ص١٥٩ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) ولمزيد من التفصيلات عن الدور الذي بذلته حكومة الملك عبدالعزيز آل سعود في بناء الهجر وتوطين البدو، انظر: أحمد عبدالرحمن الشامخ. (توطين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر)) **نشرة دورية تعنى بالبحوث الجغرافية، يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت** (الكويت: جامعة الكويت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ص٩ وما بعدها. (ابن جريس).

حقيبة مؤني الطبية المحدودة لأعطية زجاجة من شراب الأستون المركز، مقابل إكرامه لي.

لقد قابلته أول مرة قبل عام أو عامين حين قمت بزيارة الخرمة في صحبة الملك الذي كان في رحلة الصيد. تفضل الأمير سعد[١] باستقبالنا عند معسكره الصحراوي.

تجولت مرتجلاً عبر الهجرة وذلك بعد وصولي مباشرة، وعبر مزارع النخيل الكثيفة من ورائها، إلى حيث طرف الوادي، الذي كان عرضه في هذا الموقع حوالي (٢٥٠) ياردة، وكان وسطه الرملي لا يزال رطباً ومتخللاً بمساحات طينية بسبب السيول. خصصت اليوم التالي للرحلة لقسم آخر من واحة حوقان مع اتجاه أعلى الوادي.

كان يرافقني في ذلك أحد أتباع الأمير، ويُسَمَّى مسعوداً، وهو رجل ماكر المظهر. ويبدو أنه يعاني من آثار جانبيه للحمى. ولكنه كان حسن القصد كما يبدو لي. لم تكن خوقان بالقرية ولكنها كانت مساحة واسعة من مزارع النخيل ينتشر خلالها قصور منعزلة لإيواء السكان العاملين في الزراعة. كانت تقع إلى ناحية الغرب مباشرة من قسم الهجرة، وتبدأ من قلعة الحاكم على بعد يقدر بالميل الواحد. وتصب فيها الأراضي المرتفعة على الجانب الأيسر للوادي الرئيس، مخترقة مزارع النخيل في شكل مجارٍ ضحلة عديدة، أكبرها هو شعب خوي. وتفصل أرض من حصا مرتفعة القسم الشرقي، أو الرئيس، لنخيل خوقان عن

(١) سعد بن لؤي أخو الأمير/ خالد بن لؤي. (ابن جريس).

القسم الغربـي البالي المكمل للمنطقة عدا مـساحات قليلة مبعـثرة في بطن الوادي ينمو فيها الأثل. قمنا بعبور مجرى الجوّفا العميق، الكثير الشجر، لنصل إلى هذا القسـم الخارجي للواحة وتـباطأنا لفتـرة باحثين عن الطـيور التي كان العـديد من أنواعها ظاهـراً لنا - يمام الصحراء ويمام النخيل، واليـمام طويل الذيل، والروبين الأسـود، والطائر الثـرثار، والخطاف، والبـاشق، والبلبل، وآكل النحل. وجـدنا أيضاً عش يمامة سـوداء مهلهلاً وبه بيضـتان، من أعشاب ضحل قـائم بشكل غير ثابت في وسط مجمـوعة من أعواد متداخلة بغيـر إحكام. كان البيض على وشك أن يفقس.

يجري الوادي الرئيس من هذا الموقع من الجنوب إلى الشمال ولكنه ينحني في أسفله تجاه الشرق عبر الواحة. وينحدر الوادي من جبال الحجاز عبر تربة والغريف إلى الخرمة ليفـقد ذاته في نهاية الأمر في الصحراء في رمال «عرق سـبيع». اسمه الحقيقي «وادي سبيع» ولكنه في العرف المحلي يحمل أسماء أخرى مثل وادي تربة ووادي الخرمة. ويتحد به، من ناحية الشرق، في الصـحراء شعيب حثاق وشعيب مقسن الهابطان عبر حقل الصخور البركانية الكبير من القمم البركانية لشثران وريان بالتتابع. شمخت بعيداً إلى الجنوب، قمة عالية تسمى «الخلّ»، مطلة فوق الطريق الذي يقود من الخرمة إلى تربة.

دعاني الأمير ومجموعتي لتناول الغداء، حينما رجعت من هذه الرحلة، كما فعل الليـلة الماضية لتناول العـشاء عنده، ولكنه كـان يحس بأنه ضعـيف جداً ولا يقدر على المشاركة في الطعام. لم يعد لديَّ مـبرر لضياع الوقت وسرعان ما بدأنا المرحلة التالية من رحلتنا وذلك بعد تناول الغداء مـباشرة. تحركنا بالقرب من قرية

سوق، التي تبعد بما لا يقل عن الميل الواحد عن قصر خالد، ووصلنا إلى معبر لوادٍ آخر، عرضه نصف الميل، ولم نجد مشقة كبيرة في عبور هذا غير مرة واحدة حين غرزت شاحنتنا في الرمال في موقع رطب. يجري الوادي، أعلى هذا المكان بين مجموعة نخيل الدغيمية على بعد نصف الميل، على جانب الوادي الأيسر، ودبيلة على الجانب الآخر، حيث كانت الأرض اليابسة عند الطرف الجنوبي لدبيلة. توجد أشجار أثل مبعثرة في اتجاه أعلى الوادي في هذا الموقع على الجانب الأيمن منه، غير أنه لا توجد أشجار نخيل. واصلنا الآن السير على أرض ثابتة، خارج نخيل دبيلة ناحية الشمال الشرقي، حيث رأينا، فيما يليها، وإلى ناحية الشمال، المجموعتين المتبقيتين لنخيل الواحة، السليمية على جانب الوادي أعلى من الموقع حيث يدخل شعيب طلحة إلى الوادي، وأبو جميدة على مسافة من ورائها. يوجد المسجد الرئيس للخرمة في قرية السوق، وكذلك يوجد مسجد آخر بالأهمية نفسها في السليمية. كما توجد مساحة صغيرة في القرى الصغيرة الأخرى للصلوات الخمسة، غير أنه وفي أيام الجمع، يذهب الكل إلى مسجد قرية السوق أو مسجد السليمية.

استدرنا ناحية الشرق تدريجياً، بعد عبورنا شعيب طلحه على حافة حقل صخور بركانية، وعبر سهل حصوي واسع توجد به منخفضات ذات شجيرات وغطاء نباتي آخر. يبرز على الأرض البركانية الموحشة براكين قديمة يصل عددها إلى الاثني عشر بركاناً، ولكن، حتى في هذا القفر توجد مسحة لغطاء نباتي ربيعي. كان مطير هو اسم دليلي لهذا القسم من الرحلة إلى رنية ويوحي اسمه هذا بأول إشاعات وصول السيارات إلى الجزيرة العربية. ينتمي مطير إلى فخذ بني ثور التابع لسبيع وقد عاش حياة شبه بدوية كان مركزها الخرمة والتي يعدها

موطنه. كان شعيب عشاش الذي يهبط من قمة قوس عقبة بسيطة في طريقنا، بواديه ذي الحشائش والشجيرات. وصلنا إلى وادي حثق العظيم بعد مرورنا شعيب عشاش، وعلى بعد مسافة (١١) ميلاً من الهجرة، وكان عرض وادي حثاق (٢٥٠) ياردة، وهو رملي وخالٍ من الغطاء النباتي، وتقع آبار حزيم ناحية الجنوب وعلى مسافة خمسة أميال وهي ذات مياه جيدة. سرعان ما شاهدنا تن، ذلك المعلم الأرضي مسطح الرأس الذي يسيطر على آبار القنصلية التي كنت قد وقفت عندها عام ١٩١٧م، وبرزت فوهة بركان صغيرة تسمى برام على الجانب الآخر لوادي سبيع. تغيرت صفة البلاد، فيما وراء شعيب مقسن - حوالي ثمانية عشر ميلاً ونصف الميل من نقطة الانطلاق-، وأصبحت الأرض واسعة من بازلت ومتموجة وعليها منخفضات متكررة وسلاسل جبلية، وعموماً فهي صعبة. قادتنا هذه البلاد إلى مجرى دحلة الضحل، المخضر، والذي قادنا بدوره إلى الشبكة الأكبر للصرف والتي تسمى المشقر وهي تنحدر من تل ريان. سرنا على الجانب الأيسر لهذا المنخفض لنتحاشى بطن الوادي الصعب، واصلنا السير من فوق منحدر مخضر بالنباتات وكأنه حقل. تعقدت مسيرتنا مرة أخرى بمحاولتنا الاختيار بين عدد من المجاري الثانوية حتى تمكنا من الخروج، بعد فترة، إلى سهل مُعْشر قليل الصعوبة نسبياً، حيث قررنا أن نعسكر لقضاء الليلة، بعد أن غطينا مسافة (٣٦) ميلاً من الخرمة. لقد استغرقت هذه المسافة، مع توقفات متكررة لتسجيل الاتجاهات، حوالي أربع ساعات، وكنت مقتنعاً بما أنجزته خلال فترة ما بعد الظهر.

لقد وصلنا إلى ما يمكن اعتباره حدود منطقة سبيع، حيث يوجد تل صغير مناسب يقع بالقرب منا. قررت أن أقوم بمسح شامل للمناطق المجاورة من عنده،

في صباح الغـد، قبل مواصلة رحلتنا. كانت الليلـة دافئة وساكنة وكانت عـموماً ذات سحب، وقد جذب مـصباحي بضوئه الناصع، مئات الحـشرات، وقليلاً من العثة وأعداداً ضخـمة من الجندب، وفرس النبي من عدة أنواع، وخنفس الروث، وما شـابه ذلك. تساقطت قطرات قليلة من المطر عـند الساعة (١١) مـساءً، ولم أتمكن تلك الليلة من دراسة الطقس، غير أنه قـد يمكنني الحصول على تحديد خط الطول للمكان وذلك عندمـا تشرق الشـمس في اليوم التـالي. تقع سلسلة جـبال العاقر إلى اليـمين من موقعنا، وهي حاجز ضـخم، وعلى بعد الميل ونصف الميل لقمتها البارزة التي تمكنت من زيارتها في الصباح لأجل القيام بالمسح العام.

كانت القـمة على ارتفـاع (٣٠٠) قدم فوق المسـتوى العام للبـلاد المجاورة، ولكنها كانت تسيطر تماماً على منظر شامل لكل ما حولها ومن كل الجهات، كانت سلسلة جبـال العاقر واحـدة من السلاسل البـازلتية العـديدة التي تحتل مسـاحات واسعة، تمتد مـن ناحية الجنوب الشرقي إلى الغرب والشمـال الغربي وتفصلنا من حقل الصـخور البركانيـة العظيم الذي يمتد بدوره من الخرمة إلى رنيـة. يقع جبل العاقـر، ذو الرأس المزدوج، عند نهاية السلـسلة إلى الجنوب الشرقي، وقـد اشتق اسم التل بسبب هذا الرأس المزدوج. وقـفت كتلة المصلوخ مطلة على رنية بعـيداً تجاه جنوب الجنوب الشرقي. كما برزت إلى خارج كـتلة عالية من البازلت تسمى المصلوخ. وتقف كـتل جبل كـور المجامعـة إلى يمين المصلوخ ومنفـرج وادي رنية يطلان من أعلى على حقل الصخـور البركانية لحرة الناصفـة إلى الشمال من كور المجـامعـة وله عـشرة فـوهات واضـحة، هي نـعمى إلى الجنوب مـن موقـعنا، والأخريات بالتـرتيب من الجنوب إلى الجنوب الغربي هي: الصفـراء، وحضيب، ورياعين الشـعران، وشـثران، وأربع قـمم تسمـى في جملتـها الذياب. لم تعـد

واضحة لنا تلك الفوهات الواقعة إلى الغرب من الخرمة. امتلأت الأرض بسلاسل بازلتية غير محددة وصعبة وبلا سمات بارزة وامتدت إلى أقصى الشمال الغربي، إلى حيث تقف روابي حمورة المنخفضة الحمراء. ويقف إلى يمين هذه، وبعيداً، هرم بريم الذي سبق ذكره.

تقع قليلاً ناحية الشمال الشرقي هضبات عنيزة وعنيزان المنخفضتان على بعد خمسة أميال، بينما كانت هضبة تن واقعة تماماً ناحية الشمال الشرقي. وهي ذات قمة مسطحة وصفحات منحدرة. يقع إلى يسار هذه هضبه ذريرة معلَّمة موقع قنصلية التي تقع إلى يسارها، وبعيداً في الصحراء، هضبتا بريم التوأمان السوداوان. تقع إلى الشمال الشرقي وإلى الشرق من موقعنا، وعلى البعد، رمال عرق سبيع، محجوباً جزئياً بعدد من سلاسل صخرية أو تلال، منها حسَّن وخلفه حسَن وفي المقدمة تويم وبعد هذه النقاط الشبيهة بالجزر وتسمى الغراميل بعضها وكأنه إبر سوداء بارزة من بين الرمال. ويفصلنا عنها سهل مْعشر منحدراً إلى منخفض تمتص رماله مياه السيول، ولا تصل إلى وادي سبيع. تقع تقريباً إلى الشرق من موقعنا هضبة وسيم الصغيرة، وسنكون على بعد ليس بالكثير وقريباً من الطريق متابعين لهضبة ضبعة.

عدنا إلى المعسكر عند الساعة التاسعة صباحاً، لنجد بدوياً ضالاً، يسأل إن كان لدينا دواء الكينين، وقد خذلناه في مطلبه ذلك لأن كل ما كان في حوزتنا من دواء قد تركناه لدى حاكم الخرمة. بدأنا مرة أخرى تجوالنا. تكونت مجموعتي من شخصي إلى جانب دَليلَيَّ اللذين استقلا سيارة التنقل ومعهما سعد بن عثمان وهو خادمي الخاص، كما يقوم بتصبير الحيوانات، وكانت خدماته لي متقطعة منذ حملة الربع الخالي في عام ١٩٣٢م، هذا إلى جانب محمد، سائق سيارتي الخاص،

سيـارة (البيك أب)، كمـا ركب إبراهيم بن فرج المسؤول عن حـراستي واثنان من رجال المـلك، وسواق، وميـكانيكي، في الشاحنة. وعليـه فعـددنا كلنا، تسـعة أشخاص، وباستثناء استبدال المرشدين في كل مرحلة، فقد ظللنا معاً، حتى أبها، حيث، كان معروفاً، أن ترتيبـات جديدة يتم إعدادها. وكان ابن فرج رجل حسن النوايا وله ورغـبة في المطاردة والصـيد. كان سـعيد المـيكانيكي كسـولاً، يصعب تصديقه ويعمل مساعداً للطباخ ويقوم بغسل الصحون ولا معرفة له بالميكانيكا. لم يفعل شيئاً -حقيقة- غير القـيام بخدمات بسيطة لعباس سائق الشاحنة، الذي كان ذا شخصية، غـير أنه أحياناً يكون مزعجاً. ترك سعد ومحـمود - الأخير مواطن من حضرموت أقام منذ فترة في مكة[١] - بصماتهمـا في قصتي هذه أثناء مراحل بنائها، لم نكن أبداً بالجمـاعة المتجانسة، ولكن هذا لم يكن ذا أهمية كـبيرة خلال المراحل السهلة المبكرة للرحلة.



(١) لقد خرج بعض الحضارمة من بلادهم إلى الحجاز واستوطنوها وعملوا في مهن عديده من أهمها التجارة التي برز فيها بعضـهم حتى صاروا من كبار تجار المملكة العربية السـعودية، أمثال: باعشن، بادريق، ابن محفوظ وغيرهم كثير. (ابن جريس).

الفصل السادس

رنية

بعد خروجنا من سهل معشر الذي انتهى على بعد أربعة أميال من معسكرنا، واصلنا سفرنا فوق أراضي الناصفة والنويصفة، الصعبة العامرة بالشجيرات، والتي كانت أسطحها مخدشة بالمجاري الضحلة المنحدرة من الأراضي المرتفعة ومن السلاسل، على يميننا، إلى منخفض الغراميل. واشتق اسم سهل الصخور البركانية العظيم اسمه من هذين الموقعين، إذ يدعي: حرة الناصفة. الاسم الأول «نواصف» هو صيغة الجمع للثاني وهو «نصيفة». وتعني كلمة نصيفة بالمناسبة، استراحة منتصف الطريق، أو الخط الفاصل -ربما- بين محافظة الخرمة من جهة ومحافظة رنية من جهة أخرى. امتدت الأرضان إلى حوالي (١٣) ميلاً، لينتهيا عند منخفض، مشجر، ضحل يسمى سرجوج الذي يجري نحو الرمال الشرقية من قمة صفراء. تقوم حرة الناصفة بتصريف سلسلة أبي سنون من الجانب القريب من الصخور البركانية بينما تنحدر نصيفة من هضبة نعمي داخل الحزام البركاني.

وصلنا إلى مجموعة من هضاب مبعثرة مباشرة فيما يلي وادي سرجوج، - الذي يبلغ عرضه ثلاثة أميال -، وتسمى هذه الهضاب يعايم -جمع يعومة-. كان سبعة منها تقع في أرض ذات أعشاب وشجيرات منخفضة، قمت بتسلق قمة إحدى هذه الهضاب وكان ارتفاعها حوالي (٢٠٠) قدم، وتسمى جنوبية. ورأيت من قمتها، العلامات الأرضية نفسها كتلك التي وصفتها عند قمة العاقر إلى جانب أخريات. منها الهضبة الحادة المسماة قمة مخيط الواقعة في رمال عرق سبيع، إلى

جانب مجموعـة هضاب صغيرة، تسمى الوضيفـيين وتقع إلى الشمال الشرقي من موقعنا، ظهرت ملامح باهتة لجبل بعيـد في الاتجاه نفسه وفي مرتفعات وسط نجد يدعى حـاضن. نستطيع الآن رؤية سلسـلة سللي على الجانب الأيمن لوادي رنـية الذي يقع أسفل الـواحة. أفادني دليلي أن مـوقع شرب الماء يقع قريبـاً من سلسلة حزوة الرملية في العرق. كـما توجد أيضاً قمم في سلسلة جبـال مضحور[1] إلى يسار كتلة المصلوخ، كما أمكننا أيضاً رؤية تل التغذوة المنخفض البارز على الجانب القريب إلى رنية، وظهـرت من خلفه علامات بارزة هي: ورك منيرة، والخـثعمي والقمة المسطحة لـهضبة الشريف وسلسلة العير الأسـود، والتي يجيء من خلفها، وإلى امتداد المسافة نفسها التي تفـصلها عن وادي رنية. ينطلق مجرى وادي بيشة، ملتـقى هاذين الواديين، من مكان مـا خلف سلسلة سللي ليـتحـد مع ثالث هذه الأودية الجنوبية العظيـمة، وهو تثليث عند أو بالقرب من حـوض حجلة المختمـية حيث يبدأ وادي الدواسر العظيـم. كانت طبيعة هضبة جنوبيـة من جرانيت أحمر غير أنه وحسب ما أستطيع من حكم، فقـد كانت كل رفاقها من الصخور المحيطة في اليعايم بازلت داكن اللون.

استمر سيرنا فوق سهـل واسع ذي حصا ناعم وغطاء نباتي فقير. إذ لم تكن هنالك سيول في هذه المناطق المجاورة خلال الشـتاء، وتبدو، بلا شك، جافة جداً ومهجـورة. وصلنا بعد فتـرة إلى سهل جزعة، الذي تصب عـبره مرتفعـات كور المجامـعة تجاه حزوه. وجـدنا أنفسنا، بعد أن قطعنـا مسافة (٤٥) مـيلاً، من عند معسكرنا في مْعشر، ندخل أرضـاً تقع بين المصلوخ على يسارنا، وكور المجامعة،

---

(١) هذا الجبل لا يسمى (مضحور) كما يذكر فيلبي وإنما يسمى (أبا الضلمان) (مقابلة مع مترك السبيعي) (ابن جريس).

على يميننا. كان عرضها حوالي الميل الواحد فقط، وكنا، في هذا الموقع، قريبين لأرض مرتفعات المصلوخ، وقد كانت شامخة فوق رؤوسنا. بدأنا أيضاً نرى منازل ونخيل رنية على مساحة ليست بالبعيدة. ثم قمنا بعد استراحة قصيرة في هضبة الرزيزاء للاستمتاع بالمنظر الممتد أمامنا، قبل أن نصبح جزءاً منه، بتكملة بقية الأميال الثمانية -كان إجمالي المسافة (٥٣) ميلاً من معشر و(٩٢) ميلاً من الخرمة-، لنصل إلى باب قصر ابن صامل مقر الأمير المحلي، وذلك عند الساعة (٤,٣٠) عصراً.

قمت وبصحبتي ابن فرج بمقابلة الحاكم، وهو من أبناء الرياض، اسمه حسن ابن دغيثر[١]، بينما كان رفاقنا يهيئون المعسكر ويشرفون عليه. تم تعين الحاكم لهذه الوظيفة قبل عام بدلاً عن الشريف المحلي - ابن صامل والذي لم ينازع حتى ذلك الوقت في حقه الوراثي في السيطرة على الواحة والمنطقة. يتعرض المسئول المحلي دائماً إلى العجز المتعلق بالشجار الشخصي والعائلي والغيرة، وأصبح من سياسة ابن سعود أن يستبدل أصحاب المقام الرفيع المحليين بموظفين آخرين يختارون من طبقات موظفي الدولة المدنيين المتزايدة، كان الاعتراض الوحيد ضد التغيير، وما يزال، هو احتمال أن يتم إغراء هؤلاء الموظفين أو انتهازهم الفرص الواضحة لابتزاز المال والاختلاس لزيادة رواتبهم ولكن، وبصفة عامة، فإن النظام يعمل بصورة مرضية بما فيه الكفاية، ذلك لأن الملك كان يشرف بنفسه على النظر

(١) هو حسن بن محمد بن حسن بن عبدالعزيز بن دغيثر، تولى إمارة الوجه سنة ١٣٤٧هـ (سنة السبلة) كما أفاد بذلك الأستاذ عبدالعزيز الدغيثر، ثم ولاه الملك عبدالعزيز رئاسة المدد المكون من أهل العارض والذي أرسل إلى الجنوب سنة ١٣٥٢هـ. وكانت وفاته في الوباء الذي حل في رنية سنة ١٣٦٠هـ، كما قال بذلك الشيخ محمد بن فالح البرقي، وليس له عقب -رحمه الله-. (ابن جريس).

في كل الشكاوى المرفوعة ضد ممثليه في المناطق وكان لا يتردد في إبعاد الموظفين ذوي الأداء غير المرضي. وقد يستبعد مثل هؤلاء الموظفين أحياناً بحجة أنهم أصبحوا محبوبين جداً محلياً، على مبدأ أن الرجل الذي ينجح في نيل إعجاب كل شخص، لا بد أن يكون فاشلاً في أداء واجبه، بطريقة ما، إذ أنه ربما يكون لين الجانب في تحصيل الضرائب أو في تنفيذ الجزاء على المذنبين.

يوظف ابن صامل وقته الآن وبعد أن أصبح حراً بسبب ابتعاده عن واجباته الوظيفية، في الحياة في الصحراء كما كان يفعل معظم رجال المدن أشباه البدو، غير أنه كان غائباً في هذا الوقت لسبب خاص. فقد ظهرت حمى الواحة، التي ذكرتها من قبل في حديثي عن الخرمة، في رنية، وأي شخص يستطيع أن يرحل سراً يفعل ذلك هرباً من الوباء. سقط الكثير من الناس بالحمى، غير أنه لم يكن عدد الوفيات كبيراً. لا يزال هنالك كمية كبيرة من المياه الجارية في الوادي، وحقيقة فهناك نهر جارٍ من الواحة الرئيسة (الروضة) إلى العماير وما وراءها إلى درجة أن الوادي يمر مخترقاً سلسلة سلي في طريقه إلى الصحراء.

قابلني الحاكم بمزيج غريب من التحفظ والترحيب. كما بدا لي وكأنه كان يحاول أن يعترض بكتفيه موقع قُبلتي التقليدية على الجبين والتي كانت هي التحية التي يتلقاها الملك وممثلوه من الزوار. أو لعله نفر من رائحة التبغ حول ذقني[١] غير أنني أحس بأنني قد تخيلت هذا التحفظ، ذلك لأنه لم يكن هنالك شيء

(١) أعتقد أن نفور أمير رنية من تقبيل فيلبي بحرارة يعود إلى رائحة التبغ في فمه ولحيته ووجهه، وقد قابلت بعض المسنين في جنوبي البلاد السعودية والذين لا زالوا على قيد الحياة وقد شاهدوا فيلبي أثناء زيارته إلى مناطقهم فذكروا أنه شديد الحرص على شُرب التبغ في (غليون) خاص به، وهذه العادة عرفها عنه كثير من معاصريه. (ابن جريس).

ناقص في مودته وفي محادثته أو في رغبته الواضحة للمساعدة بعمل أي شيء لتحريك مغامرتي. بدا هذا حتى في لباقة تقديم أول كوب للقهوة والشاي إذ كان الضيف هو الذي يخدم قبل المضيف وهو الحاكم[١]. كان من ضمن من حضر الحفل أحد التابعين الوفيين للأمير فيصل، عبيد بن جرش، وكان في إجازته وقد قدم من مكة. يمتلك عُبيد منزلاً في قرية الحزيميات بجوار الروضة وعلى حافة الوادي، حيث دعاني في اليوم التالي، إلى تناول فطور خفيف من تمر محلي وخبز من البر على هيئة الدوائر الرفيعة، ولبن رائب. كان بعض الضيوف الذين دعاهم لمقابلتي، من الضحايا الحديثين للحمى، كما يبدو عليهم، فقد كانوا كسولين وكان لونهم مريضاً مصفراً. أفادوني بأن الحمى تتكرر في أيام متبادلة، وأصر أحد الضيوف على أن يكشف لي عن بطنه المنتفخ برغم أنه ذكر أنه لا يحس بأي آلام. ولما لم يكن معي دواء الكينين، لم يكن بوسعي إلاَّ أن أنصحه بزيارة الطائف لمراجعة الأطباء هناك.

ذهبت إلى المعسكر بعد مقابلتي الأولى مع الحاكم لأخذ حماماً منعشاً بالماء البارد وأغيِّر كامل ملابسي. كان اليوم شديد الحرارة، وكنا بالفعل بلا طعام على امتداده، عدا تمرات قليلة، وكان أسوأ ما لدينا من أمر هو شح الماء المتوافر لدينا، إذ إن ما كان متوافراً قد تم صرفه في تشغيل الشاحنة التي حدث بها تسرب للماء في الراديتر، كما أن مرافقيَّ الستة كانوا لا يترددون في شرب الماء متى ما أحسوا بالعطش. بقى الآن، في حوزتي، على أي حال، ما مقداره أربعة جوالين ماء كاملة تكفي لحاجة الوضوء، وأحسست بالراحة حينما حضر مدير ضيافة الأمير

(١) خدمة الضيف قبل المضيف من العادات العربية الجيدة التي توارثوها أباً عن جد، وهذا يدل على إكرام الضيف والاحتفاء به فيعطي أول الحاضرين من أي مشروب أو طعام يوزع بينهم. (ابن جريس).

لدعوتنا لتناول العشاء في المنزل الحكومي. كان العشاء ممتازاً -على عكس الوجبة سيئة الطبخ التي تناولناها في الخرمة- اشتمل على حمل طري اللحم مطبوخاً بروعة، وقد وضع أمامنا على كوم من الأرز المعالج بمسحوق الليمون الناشف. كان العشاء لذيذاً. وكما جرت التقاليد، فقد عدنا إلى خيامنا مباشرة بعد مشاركتنا للطعام، أرسل لنا الأمير في الصباح التالي زوجاً من الأغنام، إحداهما كانت لوجبة الغداء في معسكرنا الخاص.

اقتلعت عاصفة قوية خيمتي غير أنها كانت قصيرة المدى، وذلك حينما كنا بعيدين نتناول وجبة العشاء في ليلتنا الأولى تلك، كان يصحب العاصفة زخات من مطر قليل وذلك للتحذير، كما كان هنالك الكثير من لمعان البرق من فوق الجبال دون صوت رعد يسمع. كان المساء مغطى بالسحب بصفة عامة، ولذلك فقد تأجلت ملاحظاتي لدراسة الطقس إلى يوم الغد، وكنت سعيداً حينها بذهابي للنوم قبل الموعد المعتاد. كانت هنالك أسراب للحشرات تجول حول مصباحي، كما كان الحال في مْعشر، خاصة خنافس الروث، التي كان المرء يلتقط صوت قدومها من بعيد كأنه أزيز الطائرة. لم تتكرر زيارة الأوروبيين إلى رنية. أول من فعل ذلك كان ليوبولد فايس وهو استرالي (نمساوي) مسلم وصحفي وقد قضى ليلة هنا في عام ١٩٢٧م.

لقد زرت المكان مع الملك في حملة صيد في عام ١٩٣٤م. ومباشرة قبيل هذه الزيارة الثانية لي. عَبر أحد مهندسي المناجم لشركة التعدين العربية السعودية بالسيارة من هنا في طريقه إلى بيشة، ومنها إلى بلاد غامد حيث تم استقصاء إمكانية وجود منجم ذهب آخر. ويبدو أن الموضوع لم يكن واعداً. بذلت محاولة إلى الوصول إلى المكان بالسيارة من تربة على الجانب الآخر من حقل الصخور

البركانية، غير أن السيارة انتهت إلى مصير محزن. وقد زعم أن السيارة سلكت الاتجاه المعاكس لدرب إبلي لعام ١٩٣٢م من بيشة إلى تربة ولا يعرف تماماً كيف وقعت المتاعب التي أدت إلى كسر النابض. كان المهندس الذي أشرت إليه، في طريقه للإنقاذ، بينما بدأ رفيق له -على ظهر جمل- الرحلة من تربة للغرض نفسه.

يقدر أن يستغرق درب الإبل المباشر من رنية إلى الخرمة مدة ثلاثة أيام عبر الحرة، وحيث تكون المرحلة الأولى إلى فوهة الصفراء والمرحلة الثانية إلى بئر جويف بالقرب من شعيب حثاق، والمرحلة الثالثة إلى الخرمة. يتجه طريق تربة غرباً إلى الممر الأسفل للريع وهو معلّم بتل هرمي بارز يقع على يساره، ثم يعبر منه إلى هضاب منخفضة تسمى الأنصب في سهل وادي بحرة المنخفض. يدخل الطريق بعد ذلك إلى حقل الحمم البركانية، متوجهاً ناحية الغرب، ماراً بالجانب الشمالي لفوهة هضيب ويصطدم في نهاية الأمر بطريق بيشة – تربة الذي كنت قد سلكته في رحلتي عام ١٩٣٢م، تستغرق هذه الرحلة بالجمال حوالي أربعة أيام أو أقل.

قضيت أحسن أوقات الأيام الثلاثة وأنا أتجول في واحة رنية. إلى جانب الارتحال حول القسم الأوسط للواحة والفحص التفصيلي لقسم الضرم من الواحة، تجاه أعلى الوادي، فقد قمت بمسح كل المشهد من قمم لثلاث هضبات تسيطر على منظر ممتاز، هي هضبة الرزيزاء في طريق الدخول، قمة تغذوة الجرانيتية والتل المحدد، الريع الذي سبق ذكره، في طريق الخروج.

لقد عبرت وادي رنية في عام ١٩٣٢م إلى مسافة طويلة اتجاه أعلى الوادي في

الواحة. ثم يهبط الوادي من تلك النقطة، كما يرى ذلك عند قمة الربع -يرتفع إلى ٥٠٠ قدم-، بين سلسلة الشايل على جانب الوادي الأيمن، ومجموعة هضاب صغيرة مبعثرة على حافة الحمم البركانية على الجانب الآخر. كانت الأرض المرتفعة في زاوية شايل هي الأقرب إلينا، وتبعد حوالي ثلاثة أميال، بينما يفصلنا عنها سهل بحرة على جانب الوادي الأيسر، بينما يفصل سهل مماثل الجانب الشرقي لشايل عن سلسلة كور الرئيسة إلى الجنوب البعيد حتى تل خشرم. يطلق على الهضبات التي على الجانب الأيسر المشار إليها اسم الأنصب والسباعين، بينما إلى البعيد في حقل الصخور البركانية وأمام هضيب يقف تل وسيم الصغير بجوار بئر يسمى قلب الحسا[١]. كانت أولى الهجر في واحة رنية عند النهاية أعلى الوادي هي قرية الأملح الصغيرة ومزارع نخيلها وتبعد حوالي ميل ونصف الميل من موقع المعاينة. كما تقع قليلاً إلى أسفلها الجرثمية وهي هجرة مشابهة، وعن طريقها يصب مجرى بحرة في الوادي الرئيس، يسكن هاتين القريتين عناصر تنتمي إلى سبيع: المكاحلة، والمشاعية، والصنادلة، وآل محمد، والمفالحة. لا بد وأن يكون موقع قرية الأملح على بعد سبعة أميال عكس اتجاه الوادي من هذا المركز، طالما كانت هضبة الربع على بعد ستة أميال من قصر الأمير.

يشق الوادي طريقه عبر الحاجز الصلد لسلسلة الكور على مسافة قصيرة أسفل الجرثمية، في ممر يسمى الخنق المضيق، لا يزيد عرضه عن (٥٠) ياردة في بعض الأجزاء بين كتل جرفية عالية حادة وبازلتية. يسمى الكور ناحية الشمال باسم المجامعة والذي يقع ناحية الجنوب باسم برحة. لا يزيد طول هذا الممر عن

---

(١) يطلق أيضاً على قلب الحسا اسم (بقيع). (ابن جريس).

(٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة، وتقوم عند نهايته الشرقية مزرعة نخيل صغيرة في خليج ضحل ينتهي إلى صخرة منعزلة ضخمة، تضيق عنق الوادي إلى أقل من (٥٠) ياردة. تبدأ مجموعة من قرى صغيرة ومن مزارع، مباشرة أسفل هذا الموقع، تسمى الضرم. كما تسمى مزارع نخيل خنق والصخرة اسم السايلة وتبعد أقرب قرى مزارع نخيل الضرم مسافة (٢٥٠) ياردة مع اتجاه أسفل الوادي إلى المضيق، وعلى جانب الوادي الأيمن يوجد مقابل وهي قرية كبيرة غير منظمة ذات مساحة معتبرة لزراعة النخيل. تقع على الجهة المقابلة لها، وعلى الجانب الأيسر، قرية سويدة الصغيرة وهي عبارة عن قريتان صغيرتان داخل حزام نخيل متعرج، وتقع الحرف أسفلها. يمر طريق السيارات عبر هاتين القريتين، ثم يعبر الوادي، الذي كان يجري فيه الماء في هذا الوقت بين مقابل والسايلة. توجد قرية ومزارع القاعية قليلاً أسفل الحرف وأيضاً على جانب الوادي الأيسر، لتكملة الصورة الرثة للضرم. يسكن كل هذه القرى الصغيرة فخذ المجامعة من سبيع.

تمتد مساحة كبيرة من السبخة -سهل ملحي ناعم- فيما يلي هذا الموقع، على جانب الوادي الأيسر، وإلى مسافة تجاه الشمال، بينما، على الجانب الآخر، يوجد سهل صحراوي مرتفع يمتد من سلاسل منفصلة ومنخفضة تحيط بكور برحة. يفصل الضرم عن الواحة المركزية فجوة يبلغ طولها الميلين، وتوجد في الواحة المركزية قلعة الأمير التي تقف منعزلة ومنفصلة عن القرى الثلاثة: الحزيميات، والروضة وسوق -وهي مجموعات من المنازل وساحة مركزية للسوق-. توجد مزرعة منعزلة وحديثة تسمى غرس بن ضفر تقع على مسافة ربع ميل في اتجاه أعلى الوادي وفي داخل هذه المجموعة، كما يوجد إلى أعلى منها مزرعة سيئة الحال تسمى مرجة وهي أكثر نقاط الواحة قرباً إلى الضرم. ويقع نخيل الملحة

-أخيراً- على مسافة نصف ميل -تجاه الشمال- في أرض مالحة بعيداً عن الوادي. لا يسكن أحد داخل مزارع النخيل الثلاثة الأخيرة، ويقوم بزراعتها والاهتمام بها مستأجرون يجلبون من قرية السوق. تعد الروضة قسماً ثالثاً لسوق أو سوق المراغين وهذا اسمها الكامل. يتفرع فخذ المراغين من سبيع، ورئيسها هو عبدالله بن قطنان من فخذ القطانيين. يلاحظ أن قرية الحزيميات منفصلة، ويطل قصر الأمير بارزاً فيها عند طرفها الشمالي. تمتلك هذه المجموعة من القرى عدداً من مزارع النخيل الواسعة التي تمتد مسافة معتبرة على طول الوادي وتكون أكثر وضوحاً ناحية الشمال.

يجري الوادي هنا من جهة الغرب إلى الشرق ويمر بقمتي السبعانة -موقعان خلفيان يقعان على مسافة ميل واحد من جانب الوادي الأيمن-، متجهاً إلى القسم الأخير للواحة، يسمى إجمالياً العماير ويقع على بعد الميلين أو أكثرتجاه مجرى الوادي. تشتمل العماير نفسها التي تقع على الجانب الأيسر على قسمين هما: العطف إلى الغرب -يمتلكها الوزران من سبيع- ومضل إلى الشرق[1] -ويمتلكها الشماسات التابع للقبيلة نفسها-. يفصل بين القسمين حاجز رملي، بينما، وإلى مسافة ربع الميل إلى الشمال منهما توجد أرض ذات كثبان رملية منخفضة قيل إنها تخفي في ثناياها بقايا قريتين قديمتين. تقع في الاتجاه المقابل للعماير، وعلى الجانب الأيمن للوادي قريتان صغيرتان مع مزارع نخيلهما. تسمى الغربية منهما الويباني، ويملكها السودة سبيع وتسمى الشرقية العشيثي ويملكها ابن بطحان وهو من آل محمد.

---

(١) مضل: يسمى في الوقت الحاضر (القوز). (مقابلة مع مترك السبيعي). (ابن جريس).

كما توجد إلى ما وراء هذه المجموعة، وتجاه الشرق، قريتان أو مزارع نخيل، كما يبدو أن الوادي يجري فوق كثبان رملية متدهورة برغم وجود شريط طويل من غطاء نباتـي أخضر في بطنه حين يـحتضن جـانب وادي سللي. يمر الوادي وعلى مسافة ستة أميال ناحيـة الشرق بتل يسمى أبرق مرومة وهو منخفض تكسوه الرمال من أقصى الطرف الجنوبي لرمال عرق سبيع والتي يتقابل في مكان ما، فيما يليها، واديا رنية وبيشة. يعبر طريق الجمال العادي من رنية إلى وادي الدواسر قليلاً ناحية الجنوب الشـرقي إلى سلسلة جبـال ضلفع جنوب سللي، حـيث تنتـهي المرحلة الأولى هنا، ويصل المسافر في يومه الثاني إلى بئر تسمى بحير[١] فيما وراء سلسلة جبال جداير الحشيشي في منطقة النفود -ربما امتداد لنفود الدحي-. تكون المرحلة الثالثـة هي الوصول إلى مخْضب عـبر حوض حـجلة المختميـة، وفي اليوم الرابع يصل المسافر إلى اللدام[٢].

كـان من أبرز السمـات في هذه البلاد المتـفرقـة التليـة التي تقع إلى جنوب الوادي، سلسلة أبو كُلان البازلتيـة والحزيم والتل الرملي المكوّر المرتفع ويسمى قوز أبو الدفوف كـما يسمى أيضاً الحـمَّان. تبدو قـمة الأول وكأنها مـشط ساقط على ظهره مع بروزان صخريان كالأبر النحيلة ممتدة في استقامة عند الوسط. ويدل اسم الثاني على الـرمال المغنية، وسـأصف، في وقت لاحق، تجاربي حـول هذا. كان ارتفاع كـتلة تغذوه الشاخـصة، التي التقطنـا من فوق قمتـها مشـهداً جيـداً لهذه السمات، وهي قمـة ترتفع حوالي (٢٠٠) قدم فوق مستوى السـهل وتبعد حوالي ميلين ونصف الميل عن معسكرنا.

---

(١) بئر بحير: تسمى اليوم (بئر الشقيب). (ابن جريس).

(٢) وربما يطلق على (اللدام) اسم (أم الدام) أيضاً. (ابن جريس).

كما تحصلنا، من فـوقها أيضاً، على أحسن المناظر للبلاد الـتي تقع بعيداً تجاه الشرق، برغم أن مسـتوى الرؤيا لم يكن جيداً، وقد بدت الكتل الجبليـة العظيمة لوسط نجد تشاهد في خفـوت عبر الغيم الخفيف. توجد أولاً، وأمـام عرق سبيع هضبات صـغيرة عديدة، عـادة سوداء اللون، وفي مجمـوعتين تقعان إلـى شمال الشمال الشرقي وتسميان الوضيـفيين وبني واردة. يشمخ العرق نفسه وبوضوح تام في مقـدمة المشهـد فيمـا يلي السهل ذي الرمـال الخفيـفة، والذي يفصـلنا عنها، ووقفت الجبال فـيما يليها إلى الشمال الشرقي، على مـسافة تتراوح بين (٤٠) إلى (١٠٠) ميل. وهي هضب الدواسر وشـيثير إلى يساره، وخلف شيـثير يقع ورشة وعلى يساره يقع حـاضن وهو أيضاً قريب منا، ثم منـخرة فيمـا وراء ورشة ويقع بينهما في الوسط عمود الصاقب الطويل الأحمر. وحسب حكمي على ما جمعته من معلومات من الأهالي، فإن بعض هذه الكتل الصخرية من أصل حجارة رملية والبقية من أصل جرانيت أو بازلت.

كان الجو ثقيلاً والسماء معتـمة حينما جلسنا بين حزم الجلاميد في تغذوة في آخر النهار فـي الثالث والعشرين من مايـو. هطلت زخة مطر قصيرة عـند الساعة الرابعة مـساء، وكانت القطرات السـاقطة بطيئة، وثقـيلة، ولينة كأنها مـحذرة لنا بالعودة. كـما تدافعت عبـر السهل من جهة الغـرب إلى الشرق كتل صغـيرة من الرمال متجهة إلى الأفق الذي يبـدو أنه سوف لا يقترب أبداً، بينما تحركت الرياح مروية بين الكهـوف والصدوع في الصـخور التي من حولـنا. وسرعان مـا غابت الأرض كلها عن الأنظار بسـبب عاصفة ترابيـة منخفضة العلو حتـى بدت خلالها قمم التلال وكأنها شـبح في الضباب، ثم انهمرت السماء بصفقـات فجائية للرعد بشيراً لها. وانفتحت السمـاء فوقنا في لحظة وانصبّت الأمطار مما دفعنا إلى اللجوء

داخل أحد الكهوف طلباً للحماية، نطيل النظر إلى السهل الذي تحـول إلى متاهة لمياه جارية. أوقف السـيل التراب المتعلق، غيـر أننا كنا لا نزال نرى الرمال الطائرة على بعد، معلنة أن الأمطار لم تمتد إلى تلك المناطق.

هطلت الأمطار بغـزارة لمدة نصف سـاعة ثم توقـفت فـجأة وحلّت مكانهـا عاصـفة تنبح. خرجنا زاحـفين من أماكن اختـبائنا وقمنا بقـيادة سيـاراتنا عائدين متحاشين وبحـذر المناطق الطرية من الأرض المالحة. اقتلعت العاصفة خـيمتي تماماً وألحقت بهـا ضرراً شديداً يـعيق نصبـها من جديد، ولذا فـقد قضـيت الليلة في العراء، أتأمل السحب الثقيلة تتدحرج بعيداً لتكشف عن النجوم. يوجد الكثير من البعوض غير أنه ليس في أسراب، ومما أدهشنـي نوعاً ما أنه من محدثة وحتى هنا كانت كل الليالي خالية من الندى. أوضح قـياس المطر أن ما هطل كان ربع بوصة فقط، جلبتها تلك العاصفة.

ذهبت إلى الأمير لوداعه قبل أن أغادر رنيـة. كانت ردهته ذات أبعاد ضخمة ولكنها مظلمة ولحـد ما متسخة وبلا نوافـذ، ما عدا عدداً من منافذ التهـوية عالية على الجدران لسحب دخان موقد القهوة. مررت في طريقي عائداً إلى المعسكر عبر شوارع قرية السوق ورأيت المسجد الجامع.

كـان أول أهدافـي، بعـد أن واصلت الـرحلة، هو الوصـول إلـى تل الريع الهرمي، الذي قد سـبق وصفه، ومن عنده عدنا إلى طريق السيارات، مـتوجهين إلى الحرف والسوادة عند تقـاطع خنق. بناءً على توجيهات دليلي الجديد -مـحمد بن عبـدالله من قبيلة المراغين- فـقد تم دفع الأجر لمطيـر الدليل السابق مقـابل ما قدمه من خـدمات، وأصبحت له حـرية اتخاذ قرار العودة إلى الخـرمة- ثم قمت

بقيادة الفريق عبر طريق ملتوٍ فوق مياه ضحلة، وكان سائقي الخاص، محمد، يقود عربة البيك أب على إثري. عبرنا التقاطع بلا مشاكل، وفي الوقت المناسب، لنجد أن أبناء رفاقي المرحين النجديين قد ادخلوا الشاحنة وبشجاعة داخل العقبة المائية وانتهوا بالتوقف عند وسطها واستغرق تخليصها من بطن الوادي ساعتان، بينما قمت ومعي الدليل بالتجول بحثاً عن الطيور.

استفدت من هذا التأخير للاستحمام في ماء يصل عمقه إلى الركبة وكان حماماً منعشاً جداً. كانت هنالك امرأة على مسافة تجاه أسفل الوادي، ترتدي السماق العادي الأحمر اللون، تشرف على سقيا قطيع أغنام وعجول تابعة لها إلى أن حضر أحد الرجال وقاد الأغنام إلى المراعي. كانت صخرة السايلة، التي أراها الآن، كأنها جزيرة ينساب الوادي من حولها وعلى جانبيها. بدأت وعلى بعد، وفوق كتلة الكور كتلة صخرية شاخصة يتعذر الوصول إليها، والتي -بناء على الأسطورة المحلية- تأوي ثعباناً يقوم بحراسة كنز مخبأ. يكثر الحديث عن مثل هذه القصة في الجزيرة العربية[(١)]، وربما في أي مكان آخر. أما فيما يخص الطيور، فإن مقاطعة رنية كانت مخيبة للآمال.

حلّق صقر لم يتم التعرف عليه فوقنا عند قمة الريع والتي رأيت بعض طيور الخطاف وبعض قنابر الصحراء من صنف الحجاز تحلق حولها. وقد جمعت من

---

(١) تُكثر الأساطير والخرافات عند سكان البوادي والقرى والأرياف في شبه الجزيرة العربية، وغالباً تبنى الأساطير التي سمعنا بها أثناء تجوالنا في جنوب الجزيرة العربية على بعض الظواهر الطبيعة كالأشجار، أو الصخور، أو الآبار، أو مواطن القاذورات وغيرها. وأحياناً أخرى تدور حول بعض الكائنات الحية، كالكلاب، والقطط، والثعابين، والطيور وما شابهها، فتنسج حولها بعض الروايات المتناقلة والقصص الواهية حتى تصبح خرافة أو قصة تتناقلها الأجيال اللاحقة عن الأجيال السابقة. (ابن جريس).

منطقة الواحة طيور الذعرة الصفـراء الهازجة وصائد الذباب. شوهد الأبلق العربي من حين لآخر بين الصخـور وكانت طيور البلبل وآكل النحل والعصافـير والهدهد ويمام النخيل منتشرة في الواحة[١].

أعتـقد أنني قد رأيت في تغـذوه زوجاً من طيور الغـدّاف بُنيّ الرقبة غـير أن الغداف الشائع في هذه الأجزاء هو المروحي الذيل والذي كان متوافراً في ممر الخنق وما جاوره. يجب أن أذكر هنا أن محصولي القـمح والشعير قد تم حصادهما في هذه المنطقة وذلك منذ أواخـر فبراير وأوائل مارس ويزرعـون، في الخريف، الذرة (الدخن). يصل عـمق بعض الآبار هنا إلى قامـتين فقط، وهي مـحاطة بأحـجار بازلتية لتحجز الرمال التي تم إخراجها من البئر.

تحركنا من جديد بعد الساعة الواحدة مساءً بعد تخليص الشاحنة من الوحل. قادنا منحدر قصير وحاد إلى فجوة في جـدار حجري، عبرنا من خلالها إلى قرية مقابل التي تقع عند حافة الصـحراء مطلة على الوادي. يتطور هذا الرف شرقاً إلى سلسلة منخفضة عارية تسمى تدوم والتـي يجري إلى يمينها طريق السيارات، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي في الوقت الحاضر. كان المنظر بكامله محجوباً لحد ما بسبب الغيـوم التي نتجت من عـاصفـة الأمس الليلية، ونقلت زخـات من الرياح ذرات الرمال أمـامها. اخـترق طريقنا سهـلاً من طين رملي ناعم وأحمر تـتخلله، على مسـافات، شـرائط مرتفعـة قليلاً من حـصى أسود، مما نتج عنه تقـدماً ملمـوساً للرحلة، برغم أننا كدنا أن نفقد الطريق في موقع مـا حيث كانت هنالك مساحات رملية، مما دعانا للتوقف حتى يقوم الدليل باكتشافه.

---

(١) معظم هذه الطيور منتشرة في بلاد السروات الممتدة من نجران حتى الطائف. (ابن جريس).

برزت الصحراء على يميننا ناحيـة سلسلة أبي دريع والتي يجري إلى ما وراءها، وقريباً منا، سلسلة تلال التي يقف فيهـا ورك منيرة وزب الخثعمي[(١)] وهذه أسماء ذات دلالة لمعنى غيـر أخلاقي تكثر في الأسماء الجـغرافية في الجـزيرة العربية[(٢)]. قيل إن الخـثعـمي كان رجلاً من قـبيلة سـبيع[(٣)] ومنيرة امـرأة من القبيلة نفسـها الكلمتان الأخـريتان يشيران إلى أجـزاء في الجسم البشري ووضع السـمتين بجوار بعضهما البعض يدل على تلميح وغمز. ضاع عنا أثر نخيل الواحة تدريجياً، وبرز أمامنا مـشهـد جديد لتـلال، غير أنـنا كنا قد قررنـا أن نعسكر بجـوار فوهة أبي الدفوف الرملية، التي ذكـرناها من قبل، والتي وصلنا إليها حوالي السـاعة الرابعة مساء، بعد أن غطينا في سفرنا ما يقدر بخمسة وعشرين ميلاً في ذلك اليوم.

يجب أن أوضح هنا أن الإيقاع البطيء والواضح البطء لتـقدم رحلتنا إلى الأمام لم يكن بسـبب أي متـاعب في الطريق، ولكن بسـبب نزعـتي أن أتوقف مراراً لغـرض الملاحظات الجغرافية، لقد تأخرنا خلال هذا اليوم، لمدة ساعتين بسبب حادثة الشاحنة، غير أنه، في كل الأحول، لم يكن من المتوقع منا أن نغطي مسافة أكثر مما قد فعلنا.

---

(١) زب الخثعمي الذي ذكـر فيلبي يسمى (وقف) (مقابلة مع مترك السـبيعي) (ابن جريس). والورك ووقف عبـارة عن جبلين ضخـمين متقابلين، وقـد ذكرا كمـا ذكر غيرهـما من معالم رنيـة في أشعار الجـاهلية والإسلام، ومن ذلك قول الشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة العامري:

لهند بأعلى ذي الأغر(*) رسومُ ... إلى أحدٍ(*) كأنهن وشومُ
فوقف(*) فسُلَي(*) فأكناف ضـلفع(*) ... تربـع فيهـن تارةً وتقيمُ
بما قد تحل الوَاديين(*) كليهمـا ... زنانير(*) مربعٌ فتـدوم(*)

(*) الأسماء التي عليها (نجمة) هي أسماء جبال وأودية وشعاب في بلاد رنية. (ابن جريس).

(٢) بعض أسماء المواقع في الجزيرة العربية ذات دلالات لمعاني غـير أخلاقية، وقد لاحظت ذلك أثناء تجوالي في جنوبي المملكة العربية السعودية وبلاد اليمن خلال صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) (ابن جريس).

(٣) لا يمكن أن يكون الخثعمي من قبيلة سبيع؛ لأن قبـيلة خثعم منفصلة في الموقع والنسب عن قبيلة سبيع. (ابن جريس).

قررت أن أتفحص الغموض الذي يلف أبا الدفـوف، فما أن توقفنا عن المسير عند أسفله، حـتى تسلقته ومـعي دليلي إلى منحدره الرملي، تاركين بقيـة الرفاق يشرفون علـى إعداد المعسكر وإعداد وجبـة العشاء. كانت عـملية الصعود صـعبة نسـبيـاً برغم أن الانحدارات السـفلى كانت ذات أشـجار فـيهـا الغضـا والرمث وحشائش نجيليـة -قصباء بدون الاستطراد في ذكر الكثيـر عن تلك الزهرة الجميلة الصفراء المميـزة للصحاري الرملية الصافية والتي تسـمى نبات الزهر. صعدنا على امتـداد حافـة كحد السكين حـيث بدا لنا أن الصعـود سيكون سـهلاً مـقارنة مع المنحدرات الأخرى على أي من الجـانبين. كان ارتفـاع التـل حـوالي (٥٠٠) قدم أو أقل قليلاً، واستغـرق وصولنا إلى قمته أكثر من نصـف الساعة. كانت هنالك رياح شرقية قوية تهب دافعة ذرات الرمال نحـو القمة، وظهرت الشمس منخفضة جداً وبدت تطل من خلال الغيوم في ضعف شديد وكأنها مريضة.

وتقع على مسافة قليلة إلى الـشرق من موقعنا هضبة صغيـرة تسمى سويقة، والتي قيل إنها تدل على موقع قرية قديمة، يعـزونها كغيرها من هذه الأساطير إلى أسطورة بني هلال الذين كان يتكرر العـثور على حجارة رحاهـم وأماكن نيرانهم، كما قيل لي[١]. كانت القرية موقـعاً غريباً للمعيشـة، وذلك لأنها كانت تقع في وسط الجزء الشمالي لشريط طويل من الرمال تسمى نفود حنجران الذي يمتد بعيداً ناحية الجنوب من جوار سلسلة جبال كُلان المثلمة القمم كأنها المنشار والتي تفصلها عنها مسافة قصيرة من الرمل وتسمى عريق الوزران.

(١) كثير من الأساطيـر المنتشرة في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية، وجميـعها تدور حول قوة بني هلال في استصلاح الأرض وعمارتها: ـ كبناء البيـوت، وحفر الآبار وغيرها من الأمثلة التي لا زالت بحاجة إلى دليل وبرهان. (ابن جريس).

يقع جزء كبيــر من رحلة الغد ناحية الغرب وموازياً إلى رمــال حنجران، كما تكون أكناف الكور برحة تطوقنا من ناحيــة الغرب، ذلك لأننا قد خرجنا الآن إلى سفوح تلالها وإلى كتلتها الصخرية الرئـيسة الشرقية، التي تبدأ بالأراضي الرئيسة: مسيجيرة وأم سريحه.

تقع صخور الحمَّان السوداء، والمغطاة بالرمال، قريباً من هنا إلى جهة جنوب الجنوب الغربي، مــغطية مــساحة تقــدر بنصف ميل مربع. وتــقف، بعيداً ناحــية الجنوب الغربي، العلامة الأرضية خشم الكور مــعلَّمة كتيفة الجنوبي الشرقي لكتلة كور برحة والتي تتجه، من تلك النقطة، ناحية الجنوب الغربي. كما تشاهد سللي في عتامة من خــلال الغمام وهو يقع إلى ما وراء كُلان غيــر أن قرى رنية لم تكن مرئية لنا.

خيب ظني هذا الكوم الكبيــر من الرمال الذي بدا وكأنه لا يرغب في إطلاق الموسيقى التي كنت قد توقعتها[1]، وحتى بعد محاولاتنا دفعها لذلك بتحريك كتل الرمل إلى أسفل منحدراته. وقد تخلينا عن المحــاولة وقررنا العودة للمعسكر، أنا ومحمد، وأخذنا نتزحلق عن طريق المنحدر الشــديد، حتى نوفر على أنفسنا مشقة السيــر إلى أسفل سالكين الطريق الذي صــعدنا به نفسه. كــان السفح، حقيــقة، منحدراً وعراً وكــانت الرمال ناعمة بالدرجــة التي لا تسمح لنا بالانزلاق، ولذلك لجأنا إلى تحــريك أيدينا وأرجلنا بقــوة ليساعــدنا ذلك على الهبــوط والحركــة فوق الرمال.

---

(١) تحدث فيلبي بتوسع عن ظاهرة الصوت الموسيقي الذي يحدثه تحرك الرمال في كتابه: **الربع الخالي**. (ابن جريس).

بدأت بعض الظواهر تقع حينما هبطنا بهذه الطريقة إلى حوالي (٣٠) أو (٤٠) قدماً. أطلقت كل انزلاقة أزيزاً واضحاً ومرتفعاً كأنه همهمة مكينة السيارة – بلا شك لا يوجد في هذا الأزيز ما يشبه إيقاعات الطبل غير أنه تواصل لثوان قليلة وكنا حينها ننزلق بالفعل وحتى إذا ما توقفنا، توقف الصوت. وحينما شرعنا في إنزلاقة أخرى، ظهر الصوت مرة أخرى. بدا لي أن الصوت يبث من كعوب رجلي أثناء شقها الطريق خلال الرمل، ولكن الصوت الذي أصدره محمد بالطريقة نفسها كان مختلفاً عن الصوت الذي صدر مني. فشل كلانا في إنتاج الكورس العام الذي تأكد لنا حدوثه في نايفة في الربع الخالي. ربما أثرت الأمطار الأخيرة على الإيقاع لموسيقية الرمال، ولكن نجاحنا المحدود أبرز السبب في تسمية التل. يجب أن أذكر أن الرياح كانت تهب من الجانب الخلفي للمنحدر المنقعر الذي كنا نتزحلق عليه وقد يكون هذا سبباً إضافياً لفشلنا في الحصول على نتائج كاملة.

خلعت حذائي وجواربي حينما وصلنا إلى المنحدرات السهلة السفلى، وذلك لأستمتع بالسير حافياً فوق الرمال ناصعة البياض. كان جميلاً أن نرى نباتات الصحراء الحقيقية مرة أخرى، متضمنة، إلى جانب تلك التي ذكرت من قبل، العلقاء، والنصى، والسبط، والثنداء. كما شاهدنا غزالاً منعزلاً أثناء اليوم، وقد أضفت إلى كيس طيوري طائر صرد رمادي. كانت الليلة لطيفة والقمر هلالاً والنجوم في عظمتها، غير أن درجة الحرارة الصغرى كانت (٧٣) درجة.

صحونا مبكرين يوم الخامس والعشرين من مايو. وواصلنا سفرنا سريعاً بعد الساعة السادسة صباحاً، فوق سهل رملي وقد كانت القيادة فوقه جيدة. أفزعنا بحركتنا ثلاث غزالات كانت فوق جانب من الأرض الصخرية الصعبة –هضيب

الأرانب-، وتقع على بعد خمسة أميال، وذلك أثناء عبورنا لسلسلة صغيرة عبر الطريق، ولما كانت الشاحنة على استعداد للمغامرة، فقد انطلقت المطاردة للغزلان. كان ابن فرج بارعاً في الرماية وأصاب إحداها -أنثى من النوع الأدمي- أكثر غزلان الصحراء شيوعاً. اقتربت صخرة الكور من نفود حنجران، وبعد أن قطعنا مسافة تقدر بـ (١٢) ميلاً تقريباً، كانت الفجوة بين المرتفع الأرضي الشامخ -خشم الكور على يميننا، وبين الرمال دون الميل الواحد.

كنا نسافر ناحية الغرب من شريط جنوبي إلى هذه النقطة، غير أننا التففنا بعد ذلك وبعنف جهة الجنوب الغربي وأصبح الجانب الجنوبي لكور على يميننا ترافقنا الرمال مع وجود تلال صخرية منخفضة على حافة الكور مكوِّنة ممراً. توقفنا بعد ثلاثة أميال عند بئري الجاهلية إلى جانب بئر ثالث كان على مسافة ليست بالبعيدة في الوادي. يوجد الماء في هذه الآبار عند عمق (١٣) قامة وقد شيدت بمواد بازلتية، وصهاريجها عريضة نسبياً. تقول الروايات إن بني هلال حفروا هذه الآبار، غير أنها الآن ملكاً لآل محمد من سبيع. توجد عند طرف الكور مجموعة شامخة من أربع قمم عالية متقاربة يسمى أحدها الداية وتسمى الثلاثة الأخريات مجتمعة الجاهلية على اسم الآبار. وتقع أمامنا، ناحية الجنوب الغربي، سلسلة جبال خشرم وقد ورد آنفاً أنها نهاية السهل الذي يفصل بين الشايل من الكور على الجانب الأيمن لوادي رنية. يتسع الممر الآن إلى الخارج ليضيف بعداً جديداً للبلاد وعلامات أرضية جديدة.

حضر إلينا صبي من سبيع، وكان يرعى إبله بجوارنا، لقضاء بعض الوقت معنا بجوار الآبار وأبدى بعض الاهتمام بمتابعاتي الخاصة بالطيور. كنت قد وضعت في حقيبتي قنبرة صحراوية وكنت أطارد طائر الأبلق العربي خسلة، حينما

علق الصبي على ذلك بما معناه أنني لن أحصل على هذا الطائر بالذات أبداً. وحقيقة فقد فشلت أن أمسك به. أفادني الصبي بأن هذه الطيور يتملكها الجن ويتعذر إيذاؤها وأنها حينما يقوم الناس لأداء صلاتهم فإنها تأتي وتشقشق فوق رؤوسهم. اسماها الصبي عبيسة ويبدو أن هذه الكلمة تعني «الجافة» ربما إشارة إلى بيئتها الصحراوية. كان المجرى الصغير للسيل والمنحدر من خلال مجموعة من القمم العالية مملوءاً بالجنبات الخفيفة مع بعض أشجار الطلح والسرح ولكن مياهه، إن كانت لا تزال موجودة فيه، فهي لا تصل إلى أبعد من الرمال المواجهة له.

واصلنا القيادة فوق سهل ضخم، من رمال خفيفة مع مساحات تكسوها شجيرات تالي خضراء، مثل الحمض. كان هنالك عدد معتبر من الجمال يرعى هذا المكان، وتوقفنا بالقرب من أحد مجموعاتها للحصول على بعض اللبن بعد الموافقة التامة من راعيها والقائم عليها والذي ينتمي إلى الفراعنة من سبيع، لقد كان لبناً لذيذاً، ذا رغوة، وقد قام ابن فرج وزملاؤه بحلبه من الضروع الضخمة في طاساتنا. وجدنا درب السيارات ممحواً في أجزاء عديدة في هذا السهل خفيف التربة، ولكن لم تكن هنالك صعوبة في الاحتفاظ بالاتجاه العام المطلوب، كنا دائماً وعلى فترات نعثر على الطريق القديم في مكان ما إلى جوارنا.

قطعنا حوالي (٢٧) ميلاً الآن منذ بداية السفر، إلا أن ملاحظتنا إلى حوالي نصف دستة من خيام البدو، دون إطالة الحديث عن خيمتين أخريين بيضاويتين لبيت متنقل لبعض أهل المدن الذين قد غادروا رنية متجهين إلى بيشة في اليوم السابق، إلى جوار مجموعة مناسبة من أشجار الطلح الشبيهة بالمظلة، أغرانا، كل هذا، للتوقف لتناول وجبة منتصف النهار ولننال بعض الراحة.

أعددت سريري تحت شجرة كبيرة بينما تراخى رفاقي في ظلال سياراتهم أو في خيامهم والتي كانوا قد استعجلوا نصبها. أعددنا لحم صيد مشوي، مقطعاً إلى قطع صغيرة، لزيادة الإحساس بالرفاهية والتراخي. إلى جانب الآثار التي أحدثتها جرعات لبن الإبل الكبيرة. كانت درجة الحرارة في الظل، تحت شجرتي، (١٠٠) درجة بالضبط. وكان الجو حاراً، وبلا هواء، خلال الساعة الأخيرة لقيادتنا السيارات. كانت الرمال من تحت أقدامنا تبدو كالجمر برغم نعال المطاط لحذائي، إلاّ أنه قد هب علينا، سريعاً بعد الظهر، نسيم بارد، واستمتعت خلاله براحة قصيرة.

لاحظت عش طائر صرد حينما استيقظت، مبنياً على الأغصان المورقة فوق رأسي، ولا بد -في اعتقادي- أنني قد صحوت على صرخات الطائرين الأبوين ربما بسبب نكبة أسرية تخصهما. فقد سقط صغير لم ينبت له نصف ريشة بعد، وهو غير متمكن من الطيران، إلى خارج العش غير أنه يستطيع فقط الجري بلا هدف محدد. كانت محاولاتي للإمساك به -لتزويد مجموعتي- مسلية بما فيه الكفاية، ذلك لأن الصغير قد استلقى على ظهره بتحفز وواجهني بمنقارٍ ضارٍ جداً بينما واصل الأبوان، دون اعتبار لما قد يصيبهما من خطر، في إرسال ترداد لصحيات من توبيخ قاس، موجهة لي أنا من فوق الأغصان التي كانت فوق رأسي مباشرة. غير أن العِلْم يجب أن يُخدم وأن هذا الطائر الصغير لا بد له وأن يدفع الثمن علماً بأنني تركت شقيقه وحيداً في العش لتعزية الوالدين الحزينين.

لاحظت عند هذه النقطة أنني قد وصلت إلى الحدود الحقيقية لمنطقة سبيع وعلى وشك الدخول إلى منطقة بيشة، والتي تصب في واديها كل المسايل التي اعترضت طريقنا. لذلك سأنهي هذا الفصل، بوصف موجز للمنظر المحيط. كانت

البقعة التي عسكرنا فيها قريبة جداً من قمة صخرية تسمى قمة عريِّض، بينما تلك القريبة منا، ناحية الجنوب والجنوب الغربي، فهي بالتتالي، قمة وسيم الجرانيتية وقمة الجرانيت القائمة للصخرة المسماة أبرق الرمثة.

وتنهض خلفنا، ناحية الشمال الشرقي، تلال الجاهلية وتلال خشم الكور بينما إلى جهة شمال الشمال الشرقي وليس بالبعيدة منا تجري السلسلة الجبلية البارزة المنعزلة والتي تسمى خشرماً ذات القمة المركزية وتوجد أرض مرتفعة بارزة عند حدودها الشمالية. ويقع تل زهوة ناحية الجنوب الشرقي، على بعد، وتل آخر هرمي كبير أسود يسمى شميط فيمان إلى البعيد تجاه شريط وادي بيشة. ويقع ناحية الجنوب الغربي عدد من السلاسل أو مجموعات من التلال هي: عديمه، ومدورا، وبني رنفان، ومبدا النعام، ومن ورائها يوجد الجفر الذي يتاخم وادي بيشة نفسه على الجانب البعيد، بينما وإلى مسافة أبعد، جهة الجنوب الغربي توجد السلاسل الجبلية الشامخة وغير الواضحة لوادي المياه وأبا الغربان.

وتظهر القمة الحادة لخضعة إلى البعيد تجاه الغرب، والتي يبدو أنها هي آخر موقع في مرتفعات الشايل الذي ملأت كتلته العظيمة الفجوة الممتدة من غرب الشمال الغربي إلى الشمال الغربي.

كل ما تبقى كان ذلك السهل الواسع المسطح الذي وصلناه الآن وسنواصل السفر فوقه لأميال عديدة. كان المنظر، في جملته، موحشاً وغير ملهم.



الفصل السابع

بيشة[1]

ينطلق الطريق فوق سهل واسع يكسوه نبات النصي وعليه شجيرات الطلح. تنحدر الأرض ناحية الجنوب وناحية الشرق وتنحدر المصبات من المرتفعات البعيدة ناحية الغرب إلى أربعة مجارٍ هي- خُمده وخدان، وخندان، ووادي المياه، والراشدة، بهذا الترتيب من الشمال إلى الجنوب وذلك أثناء عبورنا لها.

تتقارب ثلاث المجاري الأولى تدريجياً وتتحد في النهاية مع الأخير، الذي ينطلق إلى وادي بيشة خلال فجوة ذات حجم معتبر. تقع السلسلة الجبلية المنخفضة الطويلة المكوّنة من الفرعة- على الجانب الشمالي- ومن تل قائم يسمى شمت العرضة، وهذا ينتمي لنظام التلال الجنوبية التي تملأ الأرض الواقعة بين طريقنا ما وراء الراشدة، وبين مجرى بيشة. كان وادي المياه هو الوادي الوحيد من بين خطوط التصريف هذه الذي واجهتنا فيه بعض المتاعب، فقد كان كثير الأشجار، مما اضطرنا إلى سلوك طريق آخر غير مباشر لتحاشي جذوع الأشجار. انتهى بنا منحدر خفيف من بازلت خشن، فيما يلي وادي المياه، إلى حد يفصله عن شعيب الحاوي والذي يبدو أنه الجزء الأكثر ارتفاعاً لشعيب رشيدة. وحيث إننا كنا قد وصلنا إلى هذا الموقع من جهة الجنوب، فهو هنا يستدير شرقاً تجاه الفجوة، يقع دربنا الآن فوق الحاوي وهو وادٍ يصل عرضه إلى الميل الواحد، وبه شجيرات تتجمع بين منحدرات منخفضة حتى سفحه، ويمتد إلى مسافة عشرة أميال إلى

(١) انظر أيضاً الفصل الثاني. (المؤلف). ولمزيد من التفصيلات عن بلاد بيشة، انظر: ياقوت، **معجم**، جـ١، ص٥٢٩، العواجي، **بيشة**، ص٧٦ وما بعدها.

جانب سلسلة جبلية ترافقه وتميز بنقطتين بارزتين ومرتفع منخفض بينهما. كانت الساعة الخامسة مساء عندما وصلنا إلى هذا الموقع وقررنا أن نعسكر فيه لقضاء الليلة، بعد رحلة قطعنا خلالها أثناء النهار (٤٦) ميلاً.

ارتفعت قمم الحاوي إلى علو (٢٠٠) قدم فوق مستوى الوادي وسيطرت على منظر عريض. كانت آخر التفافاتنا وإلى البعيد فوق الدروب إلى الرأس المضجر لخشم الكور الذي يقع ناحية شرق الشمال الشرقي- على بعد (٣٤) ميلاً-. كانت قمة خضعة هي أقصى معلم أرض يمكن لنا رؤيته. وظهر، قريباً منا، ورك منيرة مرة أخرى، كسمة بارزة للسلسلة الجبلية التي تمتد أمامنا، كما يمكن رؤية جمعور وهو جبل منخفض أسود يقف على الجانب الأيمن لوادي بيشة من فوق واحة الجنينة.

وقف جبل صدعه العالي، ناحية الجنوب الغربي، بقممه الثلاثة وكأنه حصن خارجي للسلسلة الجبلية الغربية الرئيسية (الحجاز، حقيقة)، التي ابتعدت عنا مدة طويلة وانفصلت بالصخور البركانية وجبال منطقة أخرى، غير أنها، وحتى الآن، تشاهد على البعد كأنها ساحل بعيد. كانت سلسلة جبال أبا الغربان ووادي المياه جزءاً من السلسلة الجبلية نفسها برغم أنها ليست مهيبة مقارنة بصدعة والتي لا بد وأن ارتفاعها كان لا يقل عن (١٥٠٠) قدم أو أكثر من فوق موقعنا.

لاحظنا في الصباح آثاراً جديدة للذئاب في أبي الدفوف بالقرب من معسكرنا، وقد سبق لي أن أشرت إلى ملاحظة الغزلان الثلاثة. لم نر وباستثناء الجمال التي كانت ترعى في سهل خشرم ومرافقيها، إلاَّ أثراً ضعيفاً للحياة خلال هذه الرحلة. طارت حبارى من أمامنا في شعيب الحاوي وهي فزعة ونما إلى

أسماعنا صوت بلبل غير أننا لم نر الطائر نفسه وفي غير ذلك، فحتى دنيا الطير كانت شحيحة فهي قليل من يمام الصحراء، وقنابر والصرد. ويبدو بوضوح أن البلاد التي مررنا فوقها في المراحل الأخيرة خلال مسيرة اليوم لم تنل نصيبها من الأمطار الأخيرة، والتي ربما لم تمتد جنوباً إلى أبعد من خشرم.

كشف دليلي عن معرفته لجغرافية بلده، وبأنه متعلم، غير أنه الآن بدأ يفقد عمقه في هذه المنطقة «الأجنبية». ولحسن حظي فقد كنت ملماً بدرجة معقولة ببلاد بيشة وكانت خرائطي الخاصة لعام ١٩٣٢م مفيدة لي.

كنا لا نزال بالفعل في منطقة سبيع التي تمتد إلى شريط شعيب ذي خشا الذي يقع أمامنا، وهو رافد لوادي بيشة والذي ينضم إليه في أقصى جنوب سلسلة جبال ثملا. وينحدر حتى ذي خشا وينحدر من عند الجبال التي تقع إلى الجنوب من كتلة صدعة. يخرج مجرى آخر من جانبه الشمالي ليعترض ممرنا لعدة أميال إلى ما وراء تل الحوي ليتحد مع ذي خشا على الجانب القريب من ثملا. تسمى التلال الواقعة إلى الشمال من مخرج قمة ذهب، في مجملها، باسم كور البريحه- بريحة تصغير برحة-، وصدعة، وأم فرقين وكتل مرتفعة أخرى كلها كانت استمراراً جغرافياً لهذه السلسلة الجبلية، وعليه فهي ليست جزءاً مكملاً لحاجز الحجاز الرئيس، الذي يقع ناحية الغرب. جرى طريقي لعام ١٩٣٢م بين الكتلتين الاثنتين فوق بلاد ذات تلال سفحية منخفضة.

لا يوجد ما يثير الاهتمام لهذا الوادي الرملي العظيم المطعم بالشجيرات والذي من خلاله يشق هذان الواديان طريقهما، غير أننا رأينا زوجاً من الغزلان في الصباح الباكر وكذلك السحلية الورل، والتي برغم أنها كانت مجروحة، إلاَّ أنها

تمكنت من الهرب إلى جحرها. وصلنا إلى منطقة قحطان فيما يلي ذي خشا، وهي أشهر قبائل العرب وأكبرها وربما تكون من جوكتان «سفر التكوين»[١]. مررنا في الطريق بهضبة جرانيتية أوحى لي شكلها بالانطباع لأسد مضطجع. تسلقنا هذه الهضبة، ما عدا كتلة على رأس الأسد لا يمكن تجاوزها ذلك لغرض المنظر العام واستكشاف كهوفه التي نحتتها الرياح، وقد تسبب دخولنا في إزعاج مجموعة من الخفافيش. كما لاحظت زوجاً من حجل الصخور (سيسي) وإلى جانب ذلك قمت بإدخال الدرسة إلى الحقيبة. كما كانت هنالك يمامات صحراوية وصقر يحلق لعله يتفقد ما يحدث. وإذا اعتبرنا صغر حجمها، فإن هذه الصخرة تعج بالسكان.

دخلنا إلى شريط كثير الرمل، مباشرة بعد مواصلة الرحلة إلى ما يلي هذه الصخرة، تخترقه من الغرب إلى الشرق جداول عديدة لوادي تبالة والذي به مجموعة قرى عالية بالقرب من سفحه في الجبال، وهو ينحدر إلى السهل ليتحد مع وادي بيشة فوق هضبة جمعور. كانت هنالك أربع برك أكثرها مهابة كانت الثالثة[٢] التي يعلمها شريط كثيف من شجيرات غضا جيدة النمو وبعض شجيرات الطرفاء القزمية. وصلنا بعد أميال قليلة من هذا الموقع، إلى الديلمي

(١) عمل بعض المستشرقين على ربط بعض مناطق ومدن الجزيرة ببعض الأسماء التي وردت في التوراة، وهذه إحدى المحاولات التي لا تقوم سوى على التشابه اللغوي بين الأسماء. ويرى بعض الدارسين أن اسم قحطان ذكر في التوراة باسم يقطان، والمقصود هو قحطان الموغل في القدم وليس قحطان القبيلة المعاصرة. (ابن جريس).

(٢) استناداً إلى معلومات أخرى وصلتني أخيراً، فهذا المجرى ليس تبالة ولكنه خليج، ينساب الأول إلى وادي بيشة عند الصبيحي فوق الديلمي ولذلك فهو لا يعترض طريقنا بالمرة. واستناداً إلى المعلومات نفسها فإن ذي خشا يجب أن يكون نصيفه (Nasif)، في رأيي، وأين ذهب ذي خشا لا أدري أي الصور هي الصحيحة. (المؤلف).

وهي قرية ذات مزارع نخيل على الجانب الأيمن لوادي بيشة. كنا قد قطعنا (٣١) ميلاً ولا يزال الوقت مبكراً، غير أننا قررنا أن نمكث هنا حتى الغد ليكون لدينا حينها الوقت الكافي لنواصل الرحلة إلى الروشن، عاصمة بيشة التي تقع فقط على بعد عشرة أميال.

ما يثير الاهتمام بمستوطنات بيشة هو اقتحام عناصر شهران لها منذ عهد قديم، وهم الذين يكون موطنهم الصحيح في الجبال إلى الغرب من مجرى بيشة وهي أراضٍ تابعة لقحطان. بدا العنصران وكأنهما متحابان، غير أنه من الغريب أن نجد أن القادمين ليسوا على الشاطئ الأيسر وهو الأقرب إلى بلادهم، ولكنهم على الجانب الآخر من النهر، حيث يحتلون قرى الدحو، وحريرة، والصبيحي، وقنيع وغيرها[1]. كل قرى ضفة الوادي اليسرى يمتلكها أكلب (بني كلب) مجموعة من قحطان.

يخترق طريق السيارات قرية الديلمى وكان معظم موقع القرية على بعد (٢٠٠) ياردة إلى اليمين، بينما يقف إلى اليسار قصر منعزل بمبانيه الإضافية العادية. تسمى القرية الرئيسة العطف أو عطف الديلمى، محتفظة بالاسم الأصلي لملاك أرضها وهم القسم الديلمي لأكلب، يوجد في اتجاه أسفل الوادي، على الجانب نفسه، وتقريباً في استمرار مع الديلمى مزارع نخيل عطف الجبرة- قسم آخر من أكلب- كما توجد قريتان صغيرتان تسميان الدّواره والسقيفة. قضيت معظم فترة الظهر في هذه المنطقة، متجولاً باحثاً عن الطيور ومتحدثاً مع من

---

(١) هذه تضم الروشن ونمران والنغيله والحرف – على جانب الوادي الأيسر- كلها في اتجاه الوادي عدا الرقيطاء فهي في اتجاه أعلى الوادي بالنسبة للدحو. (المؤلف)

أقابلهم من الناس أثـناء أدائهم عملهم في مزارع النخـيل أو في الحقول. أخـبرني أحدهم أنه قبل حوالي (١٥) شهـراً وقع سيل عظيم دخل الوادي وملأ المجرى من عند حافـة حزام النخـيل في الديلمي والجبـرة إلى السلسلة الصخـرية التي تكوِّن جانب الوادي المقابل. ويقولون إن هذا الوادي ليس بالجاري، بمعنى أن مياه السيول تنساب بعيداً عنه ولا تتسرب إلى حوضه لتكوِّن أنهاراً تحت أراضيه، كما هو الحال في رنية والخرمة وتربة. وبناء على هذا القول، فـإن قرى بيشة لا تعاني من حمى الواحة التي تعم الثلاثة الأخريات- وتوجد على أي حال- عـدة برك معتبرة للمياه في هذا الجزء من المجـرى نتيجة الأمطار الأخـيرة، غير أنه لم تكن هنالـك سيول كبيرة تذكر.

تقع قرية الدحو بأشجار نخيلها القـليلة على أرضها المرتفعة إلى حد ما، في مـقـابل الجـبـرة عند منحنى سـلسـلة صـخـرية، وكـان الجانـبـان في وقت من الأوقـات- ليس بالزمن البعيد- يتحـاربان من حين لآخر بأسلوب قبلي قديم. قال أحد محدثي من الجبرة مشيراً إلى الدعوة السلفية لعام ١٩١٠م وما يليها: «قبل أن نصبح كلنا مسلمين، كنا وهم دائماً في حروب، ولكن الآن-ونشكر لابن سعود- لقد أطل السلم بـيننا لزمن طويل. الحمدلله! الحـركة السلفيـة بالكاد وصلت إلى بيشـة قبل العشـرينيات[١]. أشار مـحدثي وهذا أدهشني، إلى شهـران بأنهم قسم لقـحطان وأكد وبفـخـر أن أكلب فرع من تغلب وأن شـهـران اشتـقت من أصل قحطاني وأن هذا القسم الأخـير تمتع باستقلالية كبـيرة، وحقيقة فهـو يتمتع بمرتبة قبلية كاملة، بينمـا لم تعد قبيلة تغلب حية، اللهم إلاَّ في شـجرة نسب سلالاتها

(١) دون شك أن انتشـار الدعوة السلفية إلى بيـشة وغيرها من أجـزاء الجزيرة العربية نتج عن ذلك تـصحيح الكثير من مفاهيم الناس الدينية فصاروا يوحدون الله (عز وجل) ويتركون كثيراً من الشركيات والمعتقدات الخاطئة. (ابن جريس).

الذين يدينون بالولاء للقادة القحطانيين[١]. ذكر لي محدثي إلى أن أكلب يملكون قرى بيشة وهي: الجنينة، وعصْلان، والشقيقة، والنقيع، والجبرة، والديلمي كما استقروا كذلك في الثنية في المرتفعات العليا لتبالة.

يبدو أن أهل الديلمي فقراء، ومكوثنا في وسطهم مكرمة من عند الله لهم، وكان ذلك لأنهم تحصلوا على مبلغ جنيه استرليني واحد دفعناه مقابل تموينهم لنا بالبيض والدجاج والخضراوات، أو بالاستجداء، أو في حالة مساعدة الأطفال لي في أبحاث الطيور التي انتعشت بسببهم. كانت جائزتي الكبرى هي الحصول على بومه سكوبس والتي أطلق عليها المتحف البريطاني فيما بعد اسم (Ots Scops Pamelae). أحضر لي أحد المواطنين أربعة منها وأحضر لي كذلك ثلاثة من بوم الحظائر، وجرذاً واحداً وعدداً من الجرابيع. وقد كانت آكلات النحل في وفرة بين أشجار النخيل، وهي تعشش هنا بلا شك، وذلك لأنه قد أحضر لي فرخ صغير لم ينبت نصف ريشه بعد إلى جانب بيض لبعض العصافير في مرحلة مماثلة من النمو. كانت طيور الهدهد والبلبل أيضاً شائعة وكذلك يمام النخيل طويل الذيل. أضفت إلى مجموعتي حيوان الورل وكان عليّ أن أستغني عن خدمات صبية لم أكافئهم على ما أحضروه لي من الطيور التي اصطادوها وذلك لأنهم مثلوا بها بتحطيم أجنحتها أو بنزع ريش الذيل[٢].

---

(١) لقد خلط فيلبي وبعض رواته في أنساب قحطان وشهران وتغلب، والمعروف أن قبيلة شهران العريضة تُنسب أساساً في قبائل خثعم، وبلاد شهران وخثعم المعروفة اليوم تأتي مواطنها إلى الشمال من بلاد قحطان التى من حواضرها الرئيسة: سراة عبيدة، وظهران الجنوب، وأحد رفيده وغيرها من المراكز. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن أسماء بعض الطيور والحيوانات المتواجدة في منطقة بيشة، انظر: العواجي، **بيشة**، ص٤٥ ــ ٥٠ . (ابن جريس).

تجمع حشد كبير من الرجال والنســاء والأطفال في الحديقة الجميلة التي نصبنا فيــها معــسكرنا لكي يقومــوا بوداعنا في صباح اليــوم التالي وقد جلــبوا لنا اللبن والبــيض والخضــراوات على أمل أن نشــتري منهم عــند آخر لحظة. يبــدو لي أن الديلمي، بناء على جهاز قــياس الارتفاع غير السائل أنها عند الارتفــاع نفسه فوق سطح البحــر الذي تقع عليه رنية، والتي تبعــد عنها حوالي (١٠٠) ميــل. عبرنا الوادي على طريق مائل لنصل إلى نهــاية السلسلة الصخرية المقــابلة، ولم تواجهنا صعوبة في العبور، لم تكن هنالك مياه في مجرى السيل الأصلي عند هذا الموقع، حيث كان عــرض الوادي (١٠٠) ياردة، وكان القاع الطيني متيناً. اكــتسى معظم بطن المجرى بأشــجار طرفاء قصــيرة وبنبات الشار ذي الــسائل اللبني. وصلنا إلى الجانب الآخــر فوق الحريرة حيث رافق طــريق السيارات درب الجمــال القديم عن قرب على الجانب الأيسر للروشن ذلك الدرب الذي كنت قد سلكته عام ١٩٣٢م. لم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا إلى باب قــصر الحاكم وتمت إقامــة معسكرنا في مزرعة النخيل الجذابة، التي تقع خلفه.

يُعرف مــقر إقامة الحــاكم رسمياً باسم قلعــة بيشة، برغم أنه يشار إلــيه عادة وباختصار بالقصر. يقع القــصر بجوار حلة الروشن ولكنه يقف في منأى عنها في أرض واسعة مكشــوفة. كان الحاكم آنذاك (١٩٣٢م) هو عبدالله بن مــعمَّر، رجل جذاب ولكنه غــير مسرف في الكفاءة وهو سلــيل أسرة آل معمَّر ببلدة العــيينة في وادي حنيفة. تولى بعــده، بعد عدة سنوات محمــد بن جبرين[(١)] من الرياض ثم تنازل، بعد فترة قصيرة لم تكن ناجحة جداً، إلى محمد بن عبيكان أيضاً من أبناء

(١) الصواب أنه سليمان بن عبدالله بن جبرين من القويعية وليس من الرياض. (ابن جريس).

الرياض وأحد تابعي الأمير فيصل المقربين. وحدث هذا التغيير في يناير ١٩٣٦م، وعليه فقد كان يشغل وظيفته مدة خمسة شهور فقط. كان يعرفني من قديم وتساءل في محبة عن زوجتي مستخدماً اسمها المسيحي وكان قد قابلها أثناء زيارتنا لمعسكر الأمير فيصل في عشيرة في طريقنا من الرياض في ديسمبر الماضي.

استغل الملك هذا التغيير للأمير ليجري عملية غربلة للموظفين القياديين في بيشة ليفسح المجال لبداية جديدة. لهذا فقد صاحب ابن عبيكان حين وصوله تعيين قاضٍ جديد ومدير جديد للزكاة. كان الأخير هو سليمان بن إبراهيم الرّواف من أسرة ذات علاقات وأملاك في العراق والذي كنت قد قابلته في عام ١٩١٨م في القصيباء أثناء حملة ابن سعود الأولى ضد حائل. كان القاضي هو محمد بن الشيخ، اسم العائلة هذا يدل على أنه سليل مؤسس الدعوة السلفية، الشيخ محمد بن عبدالوهاب. الذي لا يشبهه هذا الحفيد إلا في القليل. كان ضعيفاً ومصاباً بالأنيميا (بفقر الدم)، ويتحدث بصوت صديري ولكنه برغم هذا كان ذكياً، وكان شخصاً لطيفاً للتحادث معه. ولا يبدو بالتأكيد أنه مرتاح لمركزه المنفي في هذه المحافظة النائية، التي لم تكن حتى مرتبطة بلاسلكي في ذلك الوقت، مع بقية العالم.

كان ابن عبيكان أنيقاً في تخير ملابسه وكان جميلاً بشكل مدهش مع صورة جاذبية إغريقية ولحية سوداء معتنىً بها تغطي جانبي الوجه والحنك. كان كرمه نموذجاً للأحسن في شبه الجزيرة العربية، وكان يبذل أقصى إمكانياته ليجعل إقامتنا مريحة إلى أبعد حد. كان مصراً علينا أن نشغل منزلاً لأجل أن ننال راحة أكثر، ولكنه رضخ لتوسلاتي وسمح لنا بأن ننصب معسكرنا في مزرعة النخيل، والتي وضعها تحت تصرفنا، كانت مزرعة قريبة من القصر ورائعة.

عدت إلى المزرعة للراحة بعد الغداء الممتاز الذي قدم لنا عند نهاية هذه المقابلة الأولى مع الأمير. لقد سمح لي بالمناسبة أن استمتع بأخذ حمام في غرفة حمامه الخاصة الملاصقة لغرفة جلوسه الخاصة، المؤثثة في رفاهية، والمفروشة بالسجاجيد والمزينة بتصميمات هندسية بأحبار وألوان مختلفة على كل الجدران. هذا الضرب من الزخرفة مميز للبلاد حول أبها وهو عادة من اختصاص النسوة في تلك الأجزاء، لا بد أن يكون بعضهن فنانات أصيلات. تم تزيين هذه الغرفة بواسطة فتاة من الرقيق جلبها الأمير عبدالله بن معمَّر من أبها عندما كان حاكماً هناك، وبلا شك كان هو ومن جاؤوا بعده يملأون أوقات فراغهم في هذه الغرفة في دعابات لطيفة. سنرى الكثير من هذه الزخرفة أثناء تحركنا تجاه الجنوب[١].

نمت في العراء تحت ظل شجرة نخيل كبيرة منتشرة وعليها ثمر عظيم أخضر غير مستوٍ وهو يتساقط من حولي منها ومما جاورها من أشجار وله صوت مكتوم، ثقيل حينما يرتطم بالأرض. لفت هذا نظري لغرابته لأن تجربتي تؤكد لي أن ثمار البلح لا تتساقط ولو كان ناضجاً. ولم أجد سبباً يفسّر لماذا يتساقط الآن وبهذه الطريقة وهو لم يزل أخضر؟ عرضت هذا الأمر على خبير في وقت لاحق في اليوم نفسه، فأخبرني أن بعض أنواع الحشرات الضارة كانت هي المسؤولة عن هذا التساقط، وأن هذه الحشرة أصبحت وباءً في ذلك الموسم في بيشة، حيث لا يتوقع أن ينضج البلح قبل شهر يوليو. بيعت في هذه الأثناء كميات كبيرة من هذا البلح

(١) إن أهل عسير وبخاصة النساء عرفن في القرون الماضية بفن زخرفة البيوت من الداخل وتزويقها بألوان جميلة مستمدة من نباتات وأشجار محلية، ومن يزور في يومنا الحاضر بعض القصور أو المنازل القديمة الموجودة في حواضر منطقة عسير، مثل: أبها، وخميس مشيط، والنماص، وبيشة، وسراة عبيدة، وغيرها فإنه سوف يلاحظ أشكال وألوان مختلفة رُسمت على جدران البيوت والقصور من الداخل، وفي الغالب كان نساء المنطقة هن اللاتي يقمن بعملها، بخلاف منازل الأمراء وأعيان البلاد فالجواري ربما كانوا من يقمن بهذه الأعمال. (ابن جريس).

المتساقط قبل أوانه في الأسواق وتم شراؤها بشغف. التهمها رفاقي بشره شديد ولكني وجدتها بلا نكهة.

كانت الثمار من الصنف الذي يسمى صفري. تناولنا بالمناسبة أول إنتاج لعنب هذا الموسم وفي هذا اليوم بالذات في بيشة، ولكنها أيضاً كانت غير ناضجة وحامضة بعض الشيء. كما أخبرت بأن الخوخ لا ينجح في هذه المنطقة برغم المحاولات التي تمت لتشجيع زراعته. يُزرع الليمون على نطاق محدود، غير أن تربة وادي بيشة بصفة عامة لا تبدو مناسبة لزراعة أشجار الفاكهة، غير التمر. تنمو الطماطم والبامية -أصابع السيدة- بسهولة، ويوجد الزعتر في معظم الحدائق. كان المحصول المفضل علفاً للجمال هو البرسيم، إلى جانب القمح والشعير، والدخن (الذرة)[١].

يظهر الفقر والكآبة هنا على المزارعين كما لاحظت في الديلمي. كان عمق الماء هناك بالمناسبة في الآبار حوالي ثماني قامات، وكان الجزء الأعلى من الصهريج منغمساً عبر كثافة معتبرة من الطين حتى أنه يصل إلى طبقة صخرية رفيعة يوجد الماء في أسفلها عند عمق قامة واحدة أو قامتين في الطبقة الحصوية ويوجد الماء هنا في الروشن على بعد عشرة أميال أعلى الوادي، عند عمق عشرة قامات أو إحدى عشرة قامة، علماً بأن البئر الموجودة في مزرعتنا كانت شاذة بوجود الماء فيها عند عمق ست قامات فقط.

كنا محظوظين في توقيتنا لزيارة بيشة في منتصف الأسبوع. ذلك لأن سوق الروشن الأسبوعي. يقع أيام الأربعاء (سوق الربوع)، بينما يكون السوق في نمران

(١) توجد مثل هذه المزروعات في معظم جنوبي البلاد السعودية، وتعتمد في ريها على الأمطار، وأحياناً على مياه العيون والآبار الجوفية. (ابن جريس).

المجاورة يوم الخميس (سوق الخميس). يُعقد سوق الروشن في فترة متأخرة من بعد الظهر، بينما يستمر سوق نمران طيلة اليوم. وعليه، فقد عدت للقصر، بعد فترة راحة، لأجد الأمير جالساً في أبهة ومعه موظفوه الرئيسيون، والعديد من أعيان البلدة، على طاولة طويلة من الطين خارج القصر في ظل جداره الأمامي، كما هي عادة النجديين.

كانت مناشط السوق الأسبوعي على أشدها في الساحة الواسعة، كما كان نشاط مجلس الأمير، ومن حين لآخر، يتجه فرد أو مجموعة أفراد من داخل الحشد الذي كان كبيراً، نحو الأمير ليعرض شكواه أو يعرض بعض الالتماسات. كانت كل حالة تعالج ويقطع فيها في التو واللحظة وعلى مرأى ومسمع العالم، وفقط في الحالات التي لا يمكن علاجها بهذه الطريقة فإن الأمير، يوصي أو يوجه المدَّعي بأن يرفع الأمر إلى القاضي[١]. يخصص يوم سوق الروشن تقليدياً لتنظيم المواشي، برغم أنني رأيت مجموعة من النسوة يجلسن القرفصاء على الأرض وهنّ يعرضن صحافاً للبلح الأخضر موضوعة أمامهن، لعله ضرب من الوجبات الخفيفة لمن يحتاج إليها. أما الجمال، والأغنام، والماعز، وبعض الأبقار فكل هذه قد اختلطت مع البائعين والمشترين، بينما يتحرك وكلاء البائعين يعلنون آخر مزايدة أو مناقصة تم عرضها حول هذا الحيوان، أو ذاك.

---

(١) الأسواق الأسبوعية كانت منتشرة في جميع أنحاء الجزير العربية، بل هي من الأساسيات في اقتصاديات الناس وتداولهم السلع التجارية. كما كانت هذه الأسواق ملتقى اجتماعياً وفكرياً وثقافياً تمارس فيها عدد من النشاطات الحضارية المختلفة مثل: ـ تبادل الأخبار بين الناس، وإعلان الأخبار الهامة التي تخص أمور الناس، كإعلان الحرب أو إيقافها، أو إقامة الحدود الشرعية، أو الدعوة إلى إقامة صلاة الاستسقاء وغيرها من الأمور التي تولتها مؤخراً وسائل الإعلام المختلفة وبعض المؤسسات الفكرية والثقافية والاجتماعية المتنوعة في أهدافها ووسائلها. (ابن جريس).

تحول الحديث في حلقة الأمير بغموض إلى موضع البحث عن الذهب في المناطق المجاورة لبيشة[١]، وأخبرني الأمير أن الرجل التابع لشركة المناجم الذي وصل إلى بيشة عن طريق رنية، لم يكن إنجليزياً بالمرة، ولكنه كان عربياً يعمل سكرتيراً- مترجماً تصحبه مجموعة صغيرة من الهنود. لقد ذهبوا إلى موقع الطبقة البارزة فوق سطح الأرض الكوارتزية والتي تسمى العبلا (Abla) بالقرب من الجحيفة، وهي رحلة تستغرق يومين بالجمال، ناحية الغرب من بيشة. لم تتمكن السيارة من إكمال الرحلة، برغم أنها تحركت من بيشة، وعادت الفرقة على ظهر الجمال. تحرك رجل إنجليزي في هذا الأثناء، واسمه السيد لاركن (Larkin) تابع للشركة ومعه فرقته راكبين الجمال، من الطائف وليس من تربة لدراسة البلاد الواقعة في الطريق إلى أبها. لم تصل إلى بيشة أي تقارير عن هذه الحملة بعد.

كان أكثر الحضور المستمعين اهتماماً بهذه القصة هو سعيد بن كدسة، تاجر بيشة الرئيس، الذي دعاني فيما بعد لزيارته في منزله. سرنا راجلين عبر الروشن، لكي نصل إلى منزله، وكان الشارع عريضاً وغير مميز، مارين بمنزل كبير، كان قد امتلكه حديثاً وسكنه، ولكنه باعه مقابل (٩٠٠٠) ريال بعد أن شيد لنفسه بيتاً كأنه القصر في عام ١٩٣٤م، عند حافة مزرعة نخيل ممتازة تحتوي على حوالي (٤٥٠) نخلة، اشتراها كلها بمبلغ (٥٠٠٠) ريال. يقع هذا المنزل إلى مسافة فيما يلي النهاية الغربية للبلدة. كما أنشأ فيه حديقة على مستوى طموحي، لأشجار

---

(١) ولمزيد من الإيضاح عن المعادن، وبخاصة الذهب، في جنوبي الجزيرة العربية، انظر: الحسن بن أحمد الهمداني. **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء**. (الرياض، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م) ص٨٦ وما بعدها، وانظر أيضاً: تعليقات حمد الجاسر الجيدة التي أوردها على صفحات هذا الكتاب، بالإضافة إلى البحث الذي ألحق بنهاية الكتاب بعنوان: ـ (التعدين والمعادن في جزيرة العرب) ص ٣١٧ وما بعدها. (ابن جريس).

الفاكهـة وللخضراوات، داخل سور محـيط بها ليزيد من أسباب الراحـة، غير أن هذا المشروع كـان لا يزال في مراحله الأولية. كان المـنزل يتكون من طابقين وكان مقسماً إلى قسمين: أحدهما، بالطبع، كـان للنساء. يوجد فناء كبير، غير منظم، أمام غرفة الاسـتقبال الرئيسة لحـفظ أفضل إبله، وبعض الأغنام، وفرس أُبّيٍّ، في اسطبله، وكان على حق في أن يفخر به. كانت الغرف الأخرى، من حول الفناء، لتخزين بضاعتـه، ذلك لأنه كان تاجراً على مستوى كبير. كانت غـرفة الاستقبال كبيرة وبسـيطة، كما أنه أخذني إلى الطابق الأعلى حيث غرفـة ذات رسوم خاصة وذات حصائر غنيـة، وبها أعمدة من خشب الأثل، مزخـرفة لدعم السقف المكوّن من شرائح بسيطة بلا طلاء، ومن الخشب نفسه. كانت الأعـمدة منقوشة بتصاميم بسيطة ومطلية بالأسـود وكانت النوافذ واسعة مصنوعة من الخـشب- لم يستخدم الزجاج في بيشة بعد-، وكان الباب مطلياً بالأسود أيضاً.

لقد كان المنزل في تضاد مدهش مع جدران مـنازل جيرانه العارية، البسيطة، عديمة النوافـذ، والجافة ويـعلن منزله هذا عن أن مالكه رجل ذو أفكار حـضارية. تعيش زوجاته الأربع في الجـزء الآخر من المنزل، والذي لم أره بالطبع، كان لكل واحدة منهن شـقتها الخـاصة. ولكنهن فيـما بينهن، أنجبن ابناً ذكراً واحـداً، كان يراجع المدرسة المحلية في هذا الوقت[١].

هاجر سعيد إلى بيشة عام ١٩٢٠م من بلاد غـامد في مرتفعات الحجاز حيث يعيش والده في العاصـمة الظفير، حيث كـان الحاكم في هذا الوقت هو تركي بن

(١) في عـام (١٣٥٤ ــ ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤ ــ ١٩٥٣م) بدأت أولى المدارس النـظامية في بيـشـة، وأبهـا، وجـازان. للمزيد انظر: غـيثـان بن جـريس. تاريخ التعليـم في منطقة عـسيـر (١٣٥٤هـ - ١٣٨٦هـ) (١٩٣٤م - ١٩٦٦م). (جده: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) الجزء الأول، ص٥٢ وما بعدها. (ابن جريس).

ماضي، من سدير، كانت خدمات البريد تصل كل أسبوعين من الطائف، وكانت الخطابات إلى بيشة تصل عادة عن ذلك الطريق، إلاَّ إذا حدث أن كانت هنالك سيارة متجهة إلى الجنوب. لا توجد سيارات في بيشة ولا يوجد جهاز راديو واحد.

لقد نجح سعيد بن كدسة اقتصادياً، على أي حال، واستمتع بضربة حظ حديثاً. في السابق كانت بلدتي وادي الدواسر والسليل تؤديان دوراً مهماً كأسواق داخلية لاستيراد البن من اليمن، وتوزيعه في مدن ومناطق نجد. ولكن حدث أخيراً ولأسباب أميرية وجيهة، تم اختيار بيشة لتكون المركز الوحيد لاستيراد البن وتوزيعه لكل من نجد والحجاز. وقد تم منع مرور قوافل البن إلى وادي الدواسر. تسبب هذا في إحضار طحين كثير لطاحونة سعيد ولطواحين مواطنين قليلين آخرين قريبين منه من منطقة غامد وهم الذين يكوّنون النخبة التجارية لبيشة(١). لقد كان سعيد بحق رجلاً لطيفاً ذا أفكار متطورة ويبدو أنه محبوب بصفة عامة في المنطقة. فهو إلى جانب تجارته العادية، وكإضافة جانبية، مضارب في سوق العبيد، وكان نوع ما يعرضه من سلع معروف في كل مدن الجزيرة العربية.

كان معظم سكان الروشن، باستبعاد عنصر غامد، من بني سلول التابعين لشهران، بينما كان سكان نمران من معاوية، وقد أعطت اسمها أيضاً للسهل الكبير الممتد شرقاً من الروشن وسلسلة ملحة على بعد خمسة أو ستة أميال. كان سوق الخميس في نمران، الذي زرته مع سعيد، الذي كان راكباً فرسه، بينما كنت أقود

---

(١) كثير من رجالات غامد اشتهروا بممارسة التجارة حتى صاروا من كبار التجار في بيشة: ـ أمثال سعد بن كدسة وبعض وبعض إخوانه، وكذلك رجال آخرين في الطائف، وأبها، وجدة وغيرها من مدن المملكة. (ابن جريس).

سيارتي، أكثـر إثارة للاهتمام مقارنة بأحداث ظهر الـيوم السابق في الروشن. كان العنصر الرسمي غائباً تماماً، وكان الحشد ليس فـقط كبيراً، ولكنه كان أكثر مرحاً. لقد عـقد السوق في مسـاحة كبيـرة مربعة، مبـنية خارج البلدة، وتحيط بهـا تماماً صفوف من مـتاجر مبنية من اللبن لا يزيد ارتفـاعها عن ستة أقـدام. كان للسوق مسجده الخـاص، بالكاد أكثر ارتفاعاً من مسـتوى المتاجر، ويبدو- بالتـأكيد- كأنه صف من المتاجر، أكـثر منه مكاناً للعبادة، لأنه ليس له مئذنة. توجـد بين المسجد وخلفيـة المتاجر، على الجـانب الشمـالي للسوق المسوَّر، سـاحة مكشوفـة أخرى مخـصصة لسـوق النساء وقد رأيت فـيها عـدداً كبيـراً من النسوة يعـملن بائعات متـجولات ويعرضن للبيع أشـياء مثل الحـبال، والحصائر، والفلفل، والبـهارات، والتمر. وتوجـد على الجانب الشرقي للسوق ساحة أخـرى لسوق المواشي، حيث تباع الجـمال عن طريق الدلالة، ذلك لأن الأسـعار تتـفاوت من (٢٠) إلى (٨٠) ريالاً في هذا الوقت، فـإن (٢٠) إلى (٢٢) ريال تعـادل جنيـه اسـترليني ذهبي واحد. وتباع الأغنام بسعر ريالين أو ثـلاثة ريالات وقد رأيت ثوراً جميلاً ذا سنام يباع مقابل (١٤) ريالاً فقط. وقد استأجـر دليلي، القادم من رنية، جملاً ليعود به إلى هناك بقيمـة (٣,٥) ريالات ونصف الريال فقط، وقد استـأجر الرجال الذين صحـبوني من الخرمة، جـملاً بمبلغ ثلاثة ريالات في رنيـة، لأجل رحلة العودة. يبدو أن الأسعار كانت منخفضة بصورة مدهشة في كل شيء[1].

لفت نظري أكثر من غـيره، ذلك المنظر المعروض على شكل رسوم متـحركة في السوق، حيث تجتمع عناصر متـعددة لسكان البلدة، ورجال من جبال الحجاز،

(١) لقد ازدادت الأسعار، بالطبع، منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية. (المؤلف).

وأناس فقراء، كأن الواحد منهم- حقيقة، هو أفقر الفقراء. يبدو أن سمعتي في المناشط الخاصة بالتاريخ الطبيعي قد وصلت إلى الحشد، حيث إنني حينما كنت أقوم بالتقاط الصور الفوتوغرافية للمنظر أعلاه، كنت أجد نفسي محاطاً برجال متحمسين يسألونني كم سأدفع لهم مقابل ثعبان أو شيهم أو ذئب أو وعل. أما النسوة فإنهن كنَّ يحمْن على حافات الحشد، يظهر أنهن كنَّ متشوقات لرؤية أجنبي بينهن، وكان بعضهن سيدات شابات وكانت أعينهن لامعة، ولكن معظمهن كن متقدمات في السن، ومهزولات ومتعبات مع كفاح الحياة. يلبس معظمهن زي السَّمق، ولكن عدداً كبيراً منهن كنَّ يرتدين الأحمر، والقليل منهن قد ارتدين ما لونه أصفر، غير عادي، وجذاب. كلهن كن يرتدين الحجاب الإسلامي الأسود الذي يغطي الرأس والوجه ويمتد إلى الصدر. توجد في سوق الرجال بضائع تباع بالقطعة وبكميات وافرة، إلى جانب أشياء مصنوعة محلياً من الجلد، بالإضافة إلى ما يعرضه البقال وما شابه ذلك. كان منظراً مدهشاً غير أنه تذوق مبدئي لما يمكن أن نراه، من النوع نفسه، ناحية الجنوب.

قمت بزيارة سليمان الروَّاف في أحد الأيام، بعد تناولي الإفطار مع الأمير، وكان قد حدثني عن نظام الضرائب الذي كان يسيطر عليه. إلى جانب الرسوم التي تدفع على البن المستورد وغيره من البضائع التي ترد من اليمن، ذكر لي أن الضرائب المحلية تنحصر في الزكاة التقليدية، تجبى عادة في النوع برغم أنه يمكن قبول النقد المالي في بعض الأحوال. يؤخذ العشر على التمر ومحاصيل الحبوب الشائعة- (قمح، وشعير، ودخن). يُقدر المحصول في كل حالة بواسطة الخبراء الذين يرتبون مع رئيس القبيلة أو القرية كيفية تسليم نصيب الحكومة في الروشن، مقابل تعويض مالي. يباع هذا الجزء من المحصول لأعلى عرض، إلاَّ إذا أمرت

الحكومة المركـزية بجمع الحـبوب لأجل حملة عـسكرية أو ما شـابه ذلك. تقبض ضريبة الجـمال نقداً، بينما في حـالة الضأن والماعـز فإنه يتم أخذ ثـلاثة حيوانات لكل (١٢٩)- فقط واحد على أربعين من حجم القطيع[1].

اغتنمت فترة إقامتي هنا لأقوم بـجوله في الواحة وما يجاورها، لملء فراغات في استكشافاتي السـابقة. ينبعج الوادي، بالفعل، في السهل من السـفوح الجبلية على بعد مـيلين ونصف الميل جنوب غرب قريـة الروشن ويقف فوق هذه، وعلى حافة المجرى قصـر الصفار المنعزل ومجموعة النخيـل الصغيرة صفن. من الروشن توصلت إلى اتفاق للحصول على خدمات دليل جديد، يسمى فايز ومن فخذ بني معـاوية إذ أن له معرفـة كبـيرة بتضـاريس البلاد المحلية ولكـنه كان قليل الإدراك بالطيور.

كانت هنالك مـجموعـات من نخيل أخرى إلى جـانب مجمـوعة الروشن، نمران، والنغـيلة. كانت المزدهرة منهـا، هي: مقطر البـاقرة، إلى جـانب تل عارٍ منخفض يســمى هضيبـة الذي يقال إنه كان موقـعاً لمستـوطنة قديمة (بني هلال). كانت جبلة مزرعة نخيل أخرى صغيرة، بينما يقع تقريباً في مقابل نمران، الشريط الطويل للنخيل الذي يتبع قريتي أبي شوك والحرف الصغيرتين.

توجد بعيداً عن الساحل، ناحية شـرق الجنوب الشرقي، مجموعة تلال حادة تسمى الصواير (مـفرد الصايرة)، كان أحدها من كـوارتز أبيض، أو تقريباً وردياً، والذي اعتقـدت أنه منجم الذهب المحتمل! كان شاخصـاً إلى ارتفاع (٤٠٠) قدم فوق مسـتوى السهل، في شكل هرمي كامل، ويبعـد إلى مسافة سبعـة أميال من

---

(١) وهذا نص فقهي في زكاة البهائم. (ابن جريس).

مخرج الوادي ومن التلال السفحية. كان الصعود فيه صعباً ولكنني وصلت إلى القمة قبل دليلي الشاب الذي اعترف بتفوقي عليه وبإعجاب. كان أحد الصقور الداكنة اللون يحلق فوق القمة حين وصولنا إليها ولكنه سرعان ما هرب عنا، والشيء الوحيد الذي عثرت عليه أثناء بحثي عن عش محتمل بين الصخور البيضاء كان ريشة واحدة.

كان المنظر عند القمة واسعاً جداً، ونظرت بعيداً جهة الجنوب، فوق الطريق الذي سنسلكه غداً، في بلاد لم يرها أوروبي من قبل أبداً[(١)]. كان أبرز ما ظهر في هذا المنظر هو سلسلة جبال أبط، ذات القمة المسماة طويل العبد البارزة، إلى جانب سلسلة جبال الصواير التي كانت مطوقة للمنظر من ناحية الجنوب. ويقف قريباً منا، على بعد ثلاثة أو أربعة أميال قوس تلال ملحة الذي يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي ويرافقه خشيم الذيب إلى جانب كتلته الصخرية على مسافة نحو البعيد، وتقع إلى يساره.

لا يزال من الممكن رؤية صدعه بعيداً ناحية الشمال الغربي، بينما اكملت تلال مطوّقة السفحية ومعها كتل مرتفعة أخرى من وقت لآخر، الحاجز من ناحية الغرب من الصايرة.

تقع بيشة في الوسط وتقع مزارع نخيلها خلف سهل عشبي شجيري هو حمى أو محميات رعي تابعة للحكومة. تناولت العشاء مع سليمان الروّاف في ليلتي الأخيرة، ورافقني إلى معسكري للاستماع للأخبار والاستمتاع بالموسيقى.

(١) لم يكن فيلبي أول أوربي يشاهد هذه البلاد، وإنما سبقه بعض الأوربيين أمثال (تاميزيه) في القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). (ابن جريس).

استمعت إلى نتائج سباق الدربي ليلة الأمس! نمت تلك الليلة على أنغام موسيقى سحب مياه الآبار والتي تعمل بواسطة جملين أو أحياناً ثلاثة جمال[١]، كان الجميع في صباح اليوم التالي، على استعداد للمرحلة التالية من الرحلة.

تناولت ومعي إبراهيم بن فرج طعام الفطور مع الأمير الذي أخبرني أنه قد بدأ حياته تاجراً للؤلؤ على مستوى بسيط ودون نجاح كبير، بسبب التغيرات الكبيرة التي صاحبت الحرب العظمى[٢] التي أثرت كثيراً على سوق اللؤلؤ العالمي ودفعته نحو الأسوأ. جاء سليمان الروّاف مسرعاً وفي آخر لحظة للوداع، جالباً معه ثلاث من الماعز الحلوب كهدية وداع. كانت فكرة كريمة، ولكن، ربما من حظ الماعز، أنه كان لا يوجد لهما موقع في سياراتنا.

وهكذا انطلقنا نحو الجنوب. في اليوم التاسع والعشرين من مايو، وبذلك نكون قد التزمنا تماماً بالأحد عشر يوماً التي وضعتها في برامجي الخاصة بهذا الموقع. وصلنا إلى تل يسمى الشهيلا يقع على بعد مسافة ستة أميال من بداية انطلاقنا، وتوقفنا عنده، ويتكون من صخور بللورية مزرقة اللون الأبيض مع شقوق نحيلة كالخنادق من البازلت. يمكن رؤية قصر الأمير، أمامنا ناحية الشمال، كما تضمنت التلال المكوّنة في ترتيبها شبه الدائرة، والتي تقع أمامنا كتلة هضب المنابه التي تقع إلى يسارنا، بينما يقع إبط إلى الأمام من موقعنا وتقع مطوّقة إلى اليمين. توجد في هذا الاتجاه الأخير تلال منخفضة يمتد فيها مجرى بيشة الذي لا نراه غير أنه ليس بالبعيد.

---

(١) وهو ما يعرف بالسواني لرفع المياه من الآبار وري المزارع. (ابن جريس).

(٢) الحرب العظمى: يقصد بها الحرب العالمية الأولى التى بدأت عام (١٩١٤م) واستمرت مدة أربع سنوات. (ابن جريس).

عبرنا بعد عشرة أميال قاع رافد عظيم هو هرجاب، الذي يأتي من الجنوب وينحرف هنا انحرافاً حاداً ناحية الغرب، في ممر رملي مكسو بكثافة بالشجيرات والحشائش والجنبات وحتى بعض الأشجار. توجد مزرعة نخيل صغيرة تسمى الحازمي عند نقطة التقائه مع وادي بيشة، قليلاً إلى الشمال الغربي من موقع عبورنا، وتوجد إلى أسفلها مزرعة مماثلة في مجرى بيشة تابعة لمدرا. تقع ترج بالقرب من الملتقى على جانب الوادي وعلى الطرف الآخر، وتوجد فوق الملتقى، نخيل الحيفة، واعر وسحام، بهذا الترتيب وباتجاه أعلى الوادي. يأتي وادي هرجاب إلى هذه النقطة عبر فجوة في تلال بني منبه إلى يسارنا.

يستمر طريقنا جنوباً فوق ممر رملي لنعبر لساناً منخفضاً لسلسلة مرياش المعترضة ثم إلى الدلتا العريضة لشعيب رنوم، وهو أحد روافد هرجاب وهو كثير الأشجار خاصة شجيرات الشار الطويلة والتي تكثر فيها طيور التمير بأعداد كبيرة وهي طيور مغردة. تتبعنا، فيما يلي الدلتا، الجانب الأيسر لرافد آخر هو شعيب سحي والذي يتحد مع هرجاب أعلى دنوم. كل شيء سار كما يرام، إلاّ من حادث ثقب في إطار إحدى السيارات، في بلاد قفرة كئيبة. كنا قد أزعجنا بحركتنا طائر حجل الصخور التي فرت من أمامنا تتبعها ذريتها، كما كان تواجد طيور آكل النحل واضحاً للعيان.

كنا مطوّقين طيلة الوقت بسلسلة سحي المنخفضة من كل الجهات، وقد تتبعناها مسافة ثمانية أميال حينما انحرفنا إلى ناحية اليمين نحو رافدة شعيب ميضر الذي يهبط من مستجمع الأمطار لبيشة– هرجاب على مسافة من هذا الموقع، وإلى ما يلي أرض مرتفعة تسمى وشعة. كان عرضها حوالي (٣٠٠) ياردة ولكنها

مغطاة بالشجيرات والحشائش. ولما كانت قمته مغلقة بسلسلة جرانيتية من جلاميد، فقد اجتزنا عن ممر منخفض، ضيق، للهبوط إلى شعيب الضور الذي يبدأ في وشعة، ويلتقي بهرجاب بالقرب من تل يسمى هضيبة.

هرب من أمامنا سرب صغير من طيور شاكور محلقاً فوقنا ليصل إلى بئر ابن سرّار، حيث خطَّطنا لقضاء الليلة. لقد قطعنا مسافة (٣٦) ميلاً من الروشن وقد هبطنا، دون شعور منا، حوالي (٨٠٠) قدم. لا بد وأننا قد كنا عند ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان هنالك بئران، إحداهما جافة غير أن لها فوهة رهيبة قطرها (١٥) قدم ومبطنة بالحجارة، توجد كمية كبيرة من المياه في البئر الثانية، وهي ضيقة ولها صهريج قطرها أربعة أقدام، أيضاً مبطنة بالحجارة، وكان عمق الماء فيها عند أربع قامات. ينتمي هذا المشرب إلى بني منبه وهو قسم من شهران، وبناء على ما ذكره دليلنا-القادم من بيشة- وهو من أبناء شهران يسمى حمود من فخذ واهب فهي بئر ضاربة في القدم. ذكر لنا ببساطة أن البئر قد تم حفرها وبناؤها بالاستعانة بالفيل(١).

إذ أسند حفر البئر إلى أنه من إنجازات بني هلال، فإن هذا القول سيؤخذ ليدل على أنه لا أحد يعلم من الذي حفر هذا البئر ومتى تم ذلك. ولكن الإشارة إلى الفيل حددت التاريخ. كنا حقيقة على الدرب المشهور، درب الفيل، الذي

(١) الأخبار عن درب الفيل لا زالت دارجه على ألسنة الناس إلى اليوم، وبخاصة الساكنين على مقربة من هذا الطريق الذي يخرج من اليمن إلى الحجاز، فتجدهم أحياناً يذكرون أسماء ومصطلحات تدل على اسم وموقع هذا الطريق فيقولون مثلاً: مشرب الفيل، أو ممر الفيل، أو ما شباه هذه الأسماء التي تدل على الطريق التي مرت منها جيوش أبرهة الحبشي ذاهبة نحو الحجاز. (ابن جريس).

سلكه أبرهة وجيش الأحباش في الاتجاه المعاكس عام ٥٧٠م، العام الذي ولد فيه الرسول ﷺ، وكان هدفه هو الهجوم على مكة. حسب علمي، فإن تلك الحادثة هي آخر مناسبة شوهدت فيها الأفيال في الجزيرة العربية. وعليه، فإن هذا البئر لا بد وأن يكون عمرها الآن ١٣٦٦ سنة، وربما يرجع تاريخه إلى الأيام المبكرة لملكة سبأ التي استخدمت أيضاً الأفيال في سفرها إلى سليمان، حوالي (٣٠٠٠) عام مضت. يشير العرب إلى درب الفيل هذا أو إلى من افتتحه بأسعد كامل وهو التبع، حاكم مشهور على اليمن حوالي (٤٠٠)م والذي تحت اسمه، تم توضيح عدد من أقسام الطريق لي في عام ١٩٣٢م أثناء رحلتي الشمالية من بيشة. لقد كنا نتبع درب الفيل القديم في هذه الرحلة الجنوبية فوق كل المسافة وحتى هذا الموقع، لأنه لا يوجد طريق ملائم للحركة الثقيلة بين هرجاب وبيشة. يقال إن هذا الدرب من هذا الموقع، يتجه أكثر نحو الجنوب الشرقي، عابراً هرجاب عند بئر آخر تسمى عليان ثم يستمر على الطريق الصحراوي بعيداً عن هذه البلاد التلالية السفوحية الصعبة.

كانت الليلة مضيئة بالقمر ولا توجد حشرات كثيرة، عدا البعوض، بالقرب من البئر. ولهذا السبب فقد نصبنا معسكرنا بعيداً تماماً عن البئر، عند طرف الوادي المسمى، شعيب الضور والذي يتصل في نهاية الأمر مع شعيب الزو في طريقه إلى هرجاب. بدأنا رحلتنا في اليوم التالي بالتسلق إلى قمة جبل ارتفاعه (٥٠٠) قدم يسمى أم ومر على أقل من ميلين ناحية الجنوب من معسكرنا. كانت البلاد المحيطة، لسوء الحظ، مغطاة بالغمام وكانت العلامات الأرضية غير واضحة. كانت البلاد المعترضة صخرية ومقطعة إلى متاهة من مجاري التصريف، كان أكبرها شعيب تلغ عند سفح أم ومر وكانت كلها تجري ناحية هرجاب.

لا يوجد شيء مثير للاهتمام في هذه البلاد المحيطة، باستثناء اللمحات التي التقطناها للصحراء، بعيداً ناحية الشرق، إلى ما يلي هرجاب مع مواقع مرتفعة هي: الرهوة، والصنقة، والأخضرين، ونمرة، وحفايلة في مجملها مكوّنة حاجزاً من أرض مرتفعة تفصلنا عنها. قمت بصيد الطيور في هذه المنطقة ومن حولها، وأدخلت إلى الكيس طائر حجل ودرسه، بينما كانت طيور القداف مروحية الذيل، والخطاف وآكل النحل وطائر الشمس متوافرة. لم نلحظ أي علامات للحياة حول البئر أثناء الليل. ولكننا رأينا قطيعاً من الضأن من قمة أم ومر، كانت بالفعل تشرب من هناك. لا بد وأن الرعاة كانوا قريبين منا بما فيه الكفاية ليحسوا بوجودنا ولعلهم ربما لم يكونوا راغبين في الاتصال بنا. إذ ربما دار بخلدهم أننا جباة الزكاة.

كان رفاقنا قد استقروا لإعداد طعام الإفطار، حينما كنت أنا وحمود نلقي نظرة عامة على أم ومر، اشتركنا معهم في تناول الإفطار قبل أن نواصل الرحلة. كنت قد قمت بجمع كمية كبيرة من النباتات من الجبل، وهذه يجب أن تضغط وتعلم. عبرنا الآن مجرى تلع ورافده كضان لنجد أنفسنا في ممر صحراوي تنتشر من فوقه في كثافة جلاميد جرانيتية كأنما قد جلس في هذا المكان عملاق هنا وبدأ يفتت الجبل إلى قطع صغيرة ويقذف بهذه القطع الصغيرة في كل مكان. اجتهدنا للخروج من هذه المنطقة، لنصل، بعد ثمانية أميال إلى الخط الفاصل بين نظام تلع الذي كنا فيه، ووادي السرّين وهو رافد ينساب شرقاً إلى هرجاب. كان كل ما حولنا تلال وتلال أكثر وأكثر، غير أن أهم ما يمكن ذكره هنا هو كتلة باح[1] التي تقع إلى الجنوب الغربي وعلى بعد (١٢) أو (١٤) ميلاً، إلى حيث ينساب مجرى

(١) ويعرف باسم (جبل باح) (ابن جريس).

بيشة، بناء على ما ذكره لي دليلي. يحتوي نظام تصريف السريّن على أنهار، متوازية عديدة ويقع وراءه ذلك الوادي المزدوج الذي يسمى سيلين وفيما يلي هذا أيضاً تقع مختبية وكذلك معمَّر وكلها خطوط تصريف تنحدر من التلال المنخفضة إلى الغرب لتتقارب في نهاية الأمر في الخط الرئيس للسرين قبل اتحادها مع هرجاب. تقع فيما يلي هذا الوادي، بلاد يكثر فيها الجرانيت وعلينا أن نقطعها فهي بلاد صعبة، خشنة وجرداء ولكنها منحدرة إلى الأمام ناحية شعيب كتنه وهو رافد آخر لهرجاب يمكننا رؤية واديه الذي بدا مرصعاً هنا وهناك بأشجار ضخمة، وعلى بعد ميل واحد، ناحية الجنوب الشرقي.

كان سفرنا صعباً في كتنه وذلك لأن قاع الوادي كان طينياً، ومشققاً بواسطة السيول، وكان مغطى بالجنبات الخفيضة. تركنا كتنه بعد فترة وجيزة وتتبعنا رافده شعيب رجعال متجهين نحو كتلة جرانيت بارزة جداً تسمى ضور ابن سرار. أصبح سيرنا هنا صعباً جداً وفي بعض المناطق كان طريق السيارات قد محته السيول تماماً. استدرنا حول تل الجرانيت، عندما اقتربنا من القمة، وذلك عند منتصف الطريق، مارين بكتلة جلمود ضخمة ساقطة على الأرض تسمى جلبة، لندخل بعدها إلى وادي شعيب سمران الثانوي الذي يرتفع إلى كتلة ضر ومن ثم يجري مباشرة إلى هرجاب.

يقال إن هنالك بئراً قديمة اسمها كومخة، في موقع ما في الصحراء إلى الشرق معادلة لهذا الموقع وعلى طريق درب الفيل وفي وادٍ يسمى نهر ينساب إلى المسيرق.

قادنا وادي آخر صغير يسمى حشة إلى حافة سهل واسع ينحدر إلى الأمام حيث يوجد خط تصريف كبير يسمى خلائل وتحيط به تلال عديدة مكوَّنة نوعاً من

الأحواض المستديرة وكـان منفذه تجاه هرجاب. مررنا كذلك بـزوج من خيام البدو على حافة هذا الممر، فيهما بعض نسوة وبعض كلاب فقط، وقد جلب لنا كرمهن المعروف اللبن، وفي المقابل دفعنا إليهن بعض النقود. كان رجالهن في المراعي مع الأغنام، ووجود هذه الخيـام أفادنا بأننا أصبحنا نقترب تدريجـياً من المساكن. يقع بعيـداً ناحيـة الجنوب الغربـي جبل منعـا في سلسلة الحاجـز الرئيس في بلاد بني شهر، لا عـلاقة لهذه القبيلة مع قبـيلة شهران. يقع جبل باح الآن ناحيـة الشمال الغربي، بينما كان تل حـرب الذي يقع قليلاً ناحية الشمال الغربي، مـعلماً أرضياً آخر على الجـانب القريب لمجرى بيـشة، كذلك كـانت قمة قـمعة ناحـية الجنوب الغربي، كمـا ظهرت إلى البعيد نقـاط سلسلة الحجاز الرئيسـة التي تدعى لحية أو ضحية. كان النسوة اللائي أكـرمننا ينتمين إلى فخذ كود التابع لشهران من منطقة واحة خيبر[1].

امتدت أرض ممر خلائل إلى مسافة ثمـانية أميال عبر طريقنا وانتهى إلى أرض سهلة مـررنا من فوقـها لنواجـه بوادي هرجاب نفسـه، وبكل عظمتـه فهـو غابة لأشجار سدر حقيقية تحتل مـساحة كبيرة على جانبي بطن السيل الرملي العريض. عسكرنا هنا، تحت الأشجار، بعد أن سافـرنا لمسافة (٤٠) ميلاً من بئر ابن سرار، وحوالي (٩٠) ميلاً من بيشة. لقد كان المنظر -حقـيقة- جميلاً وغير عادي. يبدو الوادي هنا منبسطاً على الجانبين ليكوِّن بصفة رئيسة غابة ضخمة من أشجار السدر مع وجود عنصر متواضع من أشجار الطلح. كـانت هذه البقعة جنة شائعة للطيور التي تعود للأنواع نفسها التي شاهدتها في عشيرة، كما سمعت أثناء الليل الصرخة المألوفة لطائر الزقزاق -يسمونه محليـاً سماق أو كروان-، والذي كنت قد لاحظته

(١) قبيلة كود إحدى القبائل الرئيسة لشهران. (ابن جريس).

عند بئـر ابن سرَّار. كان ارتفـاع أشجـار السدر (٣٠) أو (٤٠) قدمـاً وكانت مـورقة بكثافة. لا بد أن يكون ارتفاعنا هنا (١٤٠٠) قـدم أعلى من بيشة وربما (١٢٠٠) قدم فوق ملتقى هرجاب- بيشة، إلى ارتفاع (١٣) قدماً لكل ميل نقطعه في المتوسط.

كان وادي بيشة، وعلى مـسافة (١٢) ميلاً ناحية الغـرب، معلَّما بنقطتين من سلاسل جبلية منخفـضة تسميان ثمد يجري عبرهما الوادي، كـما يُرى إلى البعيد ذلك الخط الشاحب للجـبال العالية ذات الـقمم التي ورد ذكرها من قبل. سـافرنا مبتعدين عن وادي هرجان وذلك حين قـمنا بمواصلة الرحلة في آخر صباح، لآخر أيام شهر مايو، عـبر رافد يسمى عنت وهو ينساب متعـرجاً في اتجاه جنوبي. كان عنت مسيلاً، موحـشاً، مغلقاً، صعب المراس، غير أنه بَعد مسافـة حوالي خمسة أميال، انفـتح على أرض واسعة خاليـة من النبات ما عدا عـدد من الأشجار التي تجمعت عند ثقوب الماء عند فضية.

لم تكن هذه الآبار حقيقة، بل كـانت زوجاً من ثقوب قد حفرت في الوادي إلى عمق قدمين وكانتا ممتلئتين بالماء. كان هنالك قطيع كبير من الأغنام يشرب من عندها في ذلك الحين، وكـان الرعاة كعـادتهم، كرمـاء باللبن، الذي كان منعـشاً جداً، بخاصة بعد قيادة شـاقة للسيارات أعلى هذا الوادي. خرجت شاحنتنا، عند هذه النقطة، من مسيل عنت لنتـتبع الرافد عطيـفة إلى سـفحه علـى مسـافة ميل أو ميلين، ثم عدنا إلى دخول مسيل عنت في موقع آخر من مجراه، وجدنا أنفسنا عند قمة مسيل عنت فوق مجموعـة تلال تسمى أدمان تبعد حوالي ميل واحد من هنا إننا نقف على حافة مـستجمع أمطار كبير الأهمـية، ذلك لأن البلاد التي تقع خلفنا تصب في هرجـاب ومنه في نهاية الأمـر في وادي بيشـة، أما الأرض التي أمامنا فهي منحـدرة إلى أسفل، إلى شعيب الدهابيـة، الذي ينساب إلى وادي نهر

العريض، والذي يمكن رؤيته من الواجهة، أمامنا، والذي بدوره سيصب في وادي المسيرق الذي هو أحد روافد وادي تثليث، وهو الوادي الثالث وربما الأعظم بين الأودية الرئيسة في جنوب غرب نجد.

وصلنا الآن إلى الحد الفاصل بين بيشة وتثليث، ونستطيع أن نرى أمامنا بوضوح نخيل قضَّة وهي في وادي المسيرق. وتقع، في التلال الصعبة إلى الغرب من موقعنا، وبجوار هضبة تسمى ركيبة، القمة الحقيقية لوادي هرجاب ولا يبعد مجرى بيشة كثيراً منها. يتصل شعيب الدهابية مع وادٍ على بعد ميلين ناحية الشمال الشرقي، ويجري وادٍ إلى سلسلة خسا وهناك يلتف ناحية اليمين إلى المسيرق. وتقع البئر القديمة كوماخه في مجراه، وقد ورد ذكره من قبل، وكنا مرة أخرى على درب الفيل القديم. يمكننا رؤية القمم الجرانيتية على حافة وادي المسيرق، وكان لبعضها أشكال غريبة، وهي على شريط ممتد من تجاه الجنوب الشرقي إلى الجنوب: مسقه-وهذه من ثلاث نقاط-، جمرة-ذات قمة مزدوجة مسطحة كالطاولة-، عمود شتبة، وعدمان وثلاثتهم إلى الجنوب الشرقي. تقع كتلة شمران في الاتجاه نفسه، ولكن إلى البعيد، وهي سلسلة جبلية معتبرة إلى جانب الهرم الكوارتزي أم القصاص ذات القمة المسطحة وشعة المسطحة القمة كالطاولة أيضاً.

كنت أجلس، ومعي دليلي على كومة من الحجارة على أرض مرتفعة لتعليم اتجاه مياه فضية، أثناء قيامي بتسجيل هذه الملاحظات. كنا جالسين هناك لمدة من الوقت، حينما-وفجأة ومن أسفل منا- طارت أنثى حجل مطنطنة. كنت، بالطبع، متأخراً جداً في استخدام بندقيتي، غير أن شقشقة ضعيفة صدرت من ركام الصخور نفسها التي نجلس عليها، حيث كانت هنالك (٤) أو (٥) فراخ

مختبئـة. وبصعوبة شديدة حررت اثنتين منها لتضاف لمجـموعة عيناتي وكان ذلك كافيـاً للتعريف العلمي. كـانتا من نوع السيسي الشـائع في هذه المناطق. تحصلت كذلك على قنـبرة صحـراوية، بينما كنت قد وضـعت من قبل وفي الأكـياس من فضية ووادي هرجاب بعضاً من عصافير الصخور. ظهر في وادي هرجاب نوع من الطير محلي جديد إلى جانب الباز، والعصافير، والقنابر، وبعض الطيور الصغيرة النساجة. كانت هذه المقاطعة، في الحقيقة، أرض صيد للطيور مربحة.

يقع مسارنا الآن تجاه الجنوب الشرقي واخترقنا قـبل فترة وجيزه شعيب دهابية وشعيب نهـر وبالتتالي لنجد أنفسنا في بلاد ذات بـروزات جرانيتية صعـبة، مررنا فيـها برعاة من بني واهب (شـهران) بقطعانهم. إنه هو الفـخذ نفسـه الذي مررنا ببعض منسـوبيه وأغنامهم عند موقع الشـرب في فضية. عـبرنا، في هذا الموقع، عدداً من روافـد نهر بما في ذلك مسقـه الذي توجد به بئر بالاسم نفـسه تقع على بعد ميل واحد من الـطريق، ناحية اليسار. يوجد إلى ما وراء هـذه المسايل شعيب أثب وهو شعيب مـتعدد المجاري، ويهبط من جـمرة ليتصل المسـيرق بالقرب من نخيل القضَّـة وتتبعنا، فيـما يلي هذا، ومرة أخرى، مجـرى شعيب حمـيته الذي يتحـد مع المجرى الرئيس نفسـه قليلاً إلى أسفل مع واحـة خيبـر، والتي ظهرت سريعاً أمامنا إلى ما وراء شعيب تلح، وهو رافد آخر لمسيرق. علينا أن نعبر خلال كتله تلالاً جرانيتـية رهيبة تسمى غار وذلك قـبل أن نصل إلى حافة الوادي، وقد قـررنا التوقف عنـدها، عند منتصـف النهار، في صـحـبة بعض الأعـراب ذوي القطعان مـن قبيلة كـود، والذين انتشـرت خيامـهم وأغنامهم بين هذه الصـخور العظيمة.

أصبحنا الآن عند الطرف الجنوبي لمحافظة بيشة. التي تتضمن كلا من وادي خيبر ووادي المسيرق. كانت كتلة الجرانيت هذه على ارتفاع أقل من (١٠٠) قدم فوق مستوى السهل، وقد يسرت لي مسحاً أولياً للواحة. كان عرض الوادي هنا ميلاً واحداً تقريباً، حتى حافة سلسلة جبال شمران التي ينبعج من خلالها مسيل صغير يسمى شدا داخل الوادي الرئيس في نقطة تقع ناحية الجنوب الشرقي. كان فم الوادي مغلقاً تقريباً بمزرعة نخيل صغيرة ولكنها كثيفة وبداخلها قصور قليلة. تكوّن هذه المزرعة قرية شع الصغيرة. يعرف الوادي الرئيس أعلى هذا الموقع باسم شعيب السليل، ويطلق اسم المسيرق محلياً على الوادي من خيبر إلى أسفل. هما في حقيقة الأمر وادٍ واحد. تتكون خيبر من مجموعة قصور منعزلة متفرقة في مزارع النخيل، أكثر من كونها قرية. يتكون قسمها الرئيس من أحد عشر قصراً مع مجموعات مبعثرة من النخيل والأثل تقع في منتصف الوادي، ممتدة إلى حوالي الميل الواحد من النهاية إلى الأخرى. ولا يبعد مركزها بأكثر من (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة عن صخور غار التي يجري فيما وراءها مجرى السيل الرئيس. توجد قصور وأشجار نخيل واسط على بعد ميل واحد من موقعنا، وتجاه مجرى أسفل الوادي، وتابع للمجموعة الرئيسة، وأكثرها أزهار في الواحة، بينما إلى أسفل قليلاً يوجد كل من الحامض والقضة في هذا الترتيب.

كان هذا كل ما يمكن أن يشاهد في الواحة من غار، غير أنه توجد سلسلة من مزارع نخيل صغيرة مماثلة وعدد من القصور في الوادي تجاه مجرى أسفل الوادي لقضّة وهي: الأخضرين، وبادية، والقوز، وحسو، والعين، والبَغَثُ، والمريفق، والحرفين، والجزيرة. وهذه الأخيرة تبعد حوالي (١٣) ميلاً من قضّه والبقية تتوزع على مراحل بينهما. يجري الوادي، فيما يلي جزيرة إلى مسافة

(١٢) أو (١٣) ميلاً في مـجرى يسمى الثَفْنُ وهو موقع اتـصاله الفعلي مع وادي تثليث. يكون طول وادي المسيرق على هذا الأساس حوالي (٣٠) ميلاً باتجاه أعلى الوادي اتجاه النهر، من نهاية مجموعة خيبر الأساسية، وتمتد الواحة كلها، وبشكل متـقطع فوق امـتداد طولي يقـدر بـ (١٧) ميـلاً. ومعظم سكانهـا من بني واهب (شهـران). وقد كـان رئيسهـم، في هذا الوقت الشيخ هيف الفـوية. كمـا يبدو احتـمال وجود عناصـر من كود بين السكان برغم أن هؤلاء بـدو بصفة قـاطعة. يرأس قبيلة شهران سعيد بن مشيط، والذي سنقابله ببلدته فيما بعد.

لقد عثرت على عدد قليل من النقـوش الثمودية إلى جانب رسم بدائي لجمل وذلك أثناء تجولاتي بين صخـور الغار، أخبرني حمود بأنه توجد تـسجيلات مماثلة على جبل جمـرة الجرانيتي الذي ذكرناه من قبل. وبعـد أن أمضيت بعض الوقت في نسخ هذه النقوش والرسوم إلى جانب البـحث عن الطيور التي شاهدت منها: الهدهد، والعوسق وبعض العـصافير، وكذلك شـاهدت نوعين من الغداف وعدداً من القنابر المتوجة في مساحات معتبرة في حقول الجذامة التي تم حصادها منذ فترة طويلة. مررت وزملائي على الواحة، حيث عسكرنا في المروج المعشبة المريحة عند نهايـة القرية في اتجـاه أعلى الوادي. كانت توجـد فوقنا بركـة كبـيرة ممتلئـة بمياه السيول، وكما لاحظت أن حقول الذرة الصـفراء كانت كلها ذات حواجز للإمساك بالماء لري الأحواض. يشاهد بوضوح كـمية كبيرة من المياه فـي الطبقة السفلى في هذا الوادي ذلك لأن معظم الآبـار كانت عبـارة عن نقر مفـتوحة تم حـفرها في آراضٍ طينية إلى عـمق (٤) أو (٥) قامات وبلا جـدران. وتمتلئ هذه النقر مع كل سيل بالطمي ولكنها سهلة الحفر مرة أخرى.

كان الناس فقراء إلى حد بعـيد ولكنهم ودودون وكرماء برغم شح ما لديهم. حينما كنت أتجـول في الواحة حاملاً بندقـيتي، رأيت امرأة تعتني ببـعض الثيران،

وتنظر ناحيتي في كآبة كانت بحق امرأة شابة ذات عيون جميلة وجبين جميل ومرتدية سمق ملتصق، أوضح كل تقاطيع جسمها الجميل. كانت تلبس أيضاً عصابة للرأس من الفضة، ويبدو بوضوح أنها ذات مكانة في المجتمع المحلي. كان اسمها حمرا، وقد أخبرتني به في الوقت المناسب، حينما أشارت بخجل إلى حمامة تجثم على إحدى شجيرات نخيلها. أطلقتُ النار على الحمامة وقدمتها لها فكان لي شكرها الجزيل وابتسامتها الساحرة. بادرتني فتاة أخرى بالكلام، كانت جميلة أيضاً، وجريئة، ولكن كانت من درجة أدنى مقارنة بالأخرى، وذلك يبدو من ملابسها التي كانت بالية وكان لونها أصفر متسخ- اللون الطبيعي لقشرة الرمان- طلبت مني أن أهديها طائراً أيضاً، ولكن كان لا يوجد لديّ طائر، غير أنها فرحت بأخذها لبعض البنسات. وامرأة ثالثة أكبر منهما سناً جاءت من داخل بعض الخيام المنتشرة أسفل النخيل، سألتني عن عصفورٍ كنت قد صدته لأجل مجموعتي الخاصة غير أنني قدمته لها عن طيب خاطر. كان تجوالي في مزارع النخيل بخيبر في إجماله، تجربة مسلية.

خرجت مرة أخرى، في الصباح، إلى القسم الثاني من القرية واسمها وسيط. يقع هذا القسم في الوادي قريباً من مجرى السيل وعلى جزأين يفصلهما سهل صعب عرضه حوالي (٤٠٠) ياردة. كانت كل الحقول هنا ذات حواجز، كما هو الحال في خيبر، لأجل الإمساك بالماء. يقع القسم الثاني هذا تجاه أسفل الوادي بالنسبة للقسم الأول، ويتكون من مزرعة صغيرة لأشجار النخيل، وكانت المنازل في كليهما صغيرة وحقيرة. كانت الحقول مقسمة أيضاً إلى مربعات صغيرة لأجل الري الملائم. كما بدت شجرة زيت الخروع مزدهرة بكثافة في هذه القرى، وفي بعض الحالات نمت إلى حجم الأشجار الحقيقية. رأيت بئرين في الوسط

وبهما الماء عند عمق أربع قامات وبئراً ثالثة كان يحفر بالفعل في تكوين بازلتي- عند عمق خمس قامات- حينها، بجوار الجانب الأيمن للوادي. كان النساء يقمن بالعمل، وأثناء مروري بالقرب منهن، دعتني إحداهن أن أُقْبِل لتناول بعض اللبن. ذهبت إليهن، فقط لأتبين أنهن حقيقة ليس لديهن لبن، ولكنهن أردن أن يرين الرجل الذي كان يطلق النار على طيورهن. وقفت لحظة لأتحادث معهن، ووجدت أن النسوة الثلاث كن يمثلن ثلاثة أجيال للأسرة نفسها. الابنة، والأم، والجدة. ربما لا يفصلهن أكثر من (٣٠) سنة، عن السيدة الكبرى، وقد تكون الصغرى أقل مني سناً، كما كانت في صحة سليمة ومعافاة.

كان إنتاج التمر في هذه الواحات من صنفين- صنف صغير يسمى واغ وصنف أكبر يسمى صفري وهما النوعان الرئيسان لمزارع النخيل في بيشة[1]. كانت الواحة الرئيسة، حيث عسكرنا، محمية من السيول بحاجز منخفض من الرمل عبر مجرى السيل في اتجاه أعلى الوادي، ويوجد حاجز مماثل أسفل المزارع الرئيسة ليمسك المياه أطول فترة ممكنة لأغراض الري. رأيت من الطيور إلى جانب اليمام والهدهد-الأخير هذا منه أعداد معتبرة- بشنون البقر (غرنوق) بالقرب من البركة وأيضاً حصلت على خرشنة، كما يكثر الحمام المحلي الشائع في الجزيرة العربية، وهو الذي يزور المسجد الحرام في مكة وفي أسراب كبيرة.

كان الظهر قد ارتفع حين غادرنا خيبر لبداية المرحلة التالية لرحلتنا عبر مجرى السليل الذي يمكن أن نعد جانبه الأيمن على امتداد سلسلة جبال شمران حدوداً جنوبية لمنطقة بيشة. يعبر الطريق بطن السيل من أعلى البركة ويصعد الوادي في اتجاه الجنوب الغربي، ثم يدور بعد مسافة ثلاثة أميال أكثر ناحية الجنوب والجنوب

---

(١) التمر الصفري من أهم وأكثر أنواع التمور التي تشتهر بها بيشة. (ابن جريس).

الشرقي في المرتفعات العليا للمجرى، لقد أصبح المجرى هنا ضيقاً ومخترقاً السفوح الجبلية للبلاد. تركنا السليل بعد مسافة ستة أميال أخرى في الاتجاه العام نفسه، إلى بعض التلال التي تسمى روضان، ثم اتجهنا شمالاً إلى شعيب معو[1]، حيث وصلنا بعد ميلين أعلى الوادي والحد الفاصل لمنطقة بيشة. كنا على ارتفاع (٣٥٠) قدماً من خيبر وحوالي (٢٠٠٠) قدم من الروشن، وحوالي (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر.

ألقينا النظرة الأخيرة على خيبر والعلامات الأرضية التي ألفناها إلى شمال هذه البلاد. يقع أمامنا الآن مرتفع من الأرض ذو أحواض واسعة (أغراف) في وسطه. فنحن الآن على أطراف منطقة جديدة هي: خميس مشيط.



(١) وربما: أطلق على هذا الشعيب أيضاً اسم (شعيب خذام). (ابن جريس).

الفصل الثامن

خميس مشيط[١]

لقد تحاشينا المسيل الصعب الذي عن طريقه يدخل شعيب شدا إلى وادي شاع المواجه لخيبر[٢] ووصلنا إلى مستجمع الأمطار عند المسيرق. اتجه طريقنا الآن إلى شعيب شدا عبر المضايق، وتعمقنا في هذا المجرى مسافة ميلين إلى جنوب مرتفع معو. تأكد لنا الآن أنه أسوأ قطعة أرض تسلكها السيارات حتى هذا الموقع. كنا بلا شك في مناطق غزيرة الأمطار، على الرغم من أننا لا نزال عند السفوح الجبلية للبلاد، شيئاً ما ناحية الغرب من الجبال العظيمة، ولم يكن وادي شدا هذا فقط محفوراً بكثافة بواسطة السيول، ولكن بطنه كان مملوءاً بالشجيرات الخفيضة. وكانت قيادة مضنية أن نتصادم داخل سياراتنا ونحن في هاتين العقبتين. يجري الوادي شمالاً وجنوباً ومجرى سيله عريض متعرج مكوّن من رمال وحصى وكان عِرضه في المتوسط، ما بين (١٠٠) و (١٥٠) ياردة.

اتسع الوادي تدريجياً أثناء صعودنا لمجراه، وقد توقفنا عند إحدى النقاط لوضع زوج من طيور الرقراق (سمق) في حقيبة العينات. وبعد قيادة مسافة (١٢) ميلاً، وكانت صعبة في بطن هذا الوادي حيناً وعلى أي من جانبيه حيناً آخر، كنا نبحث عن شريط قليل المقاومة وخرجنا أخيراً إلى واد واسع، كان -أيضاً- صعباً جداً؛ لنجد أنفسنا عند تقاطع الطريق. كان الطريق اليسار والمتجه إلى الشمال

---

(١) لمزيد من الإيضاحات عن منطقة خميس مشيط، أو بلاد شهران التي حاضرتها مدينة الخميس، انظر: عبدالكريم عائض آل طالع. **قبيلة شهران بين الماضي والحاضر**. (د.م/ د.ن / ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٢٢ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) خيبر مركز يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة خميس مشيط ويتبعها إدارياً. (ابن جريس).

الشـرقي هو طريق نجـران الرئـيس، الذي سنسلكه في الوقت المـناسب. ويهـمنا الطريق الذي يقع إلى الجانب الأيمن، الذي يقـود عبر شعيب الجـحف إلى خميس مشيط وما يليها، وإلى أبها نفسها عاصمة منطقة عسير.

ارتفع الهرم الكامل لقرن ذلك الـبركان الخامد القديم، إلى مـسافة منا وعلى يسار طريق نجران. كما ارتفع إلى البعيد، ناحية الجنوب الشرقي، جبل القعمة من سلسلة جبال السراة الرئيسة[1]. وبرز ناحية الجنوب الغربي -أيضاً في السرات- تل يذكرنا بقرنيت كما يرى من الطائف.

أما شعيب الجحف الذي يبدو كأنه امتداد مرتفع لشدا فهو يأتي منحدراً من منبعه من عند تل يسـمى مشـو إلى جنوب الجنوب الشـرقي، ويقع أمامنا على طريق أبـها، أرض كبيـرة من قمم جرانيـتية وجلامـيد. وتوجد إلى ناحيـة جنوب الجنوب الغربي السلسلة الطويلة العالية التي تسمى أحد، وهي مناطق رفيدة التابعة لقحطان[2].

كنا عند تقـاطع الطريق هذا على ارتفاع (٧٠٠) قـدم فوق خـيبـر، وحوالي (٣٠٠) قدم أو ما يقارب ذلك فوق قمة المعو. كنا نصعد باعتدال طيلة الوقت.

انغرزت إحـدى سياراتنـا في رمال بطن الجحف، وأضـعنا بعض الوقت في إخراجـها، وقد أصـبح الوقت متأخـراً بعد الظهر. عـبرنا الفـاصل المنخفض بين

---

(١) جبال السراة وجمعها (السروات) وهي البلاد الممتدة من اليمن حتى بلاد الحجاز، وربما أطلق عليها أيضاً (جبال الحجاز) وللمزيد من التـفصيل، انظر: عبدالله الوهيبي. (الحجاز كما حـددها الجغرافيون العرب) **مجلة كلية الأداب، جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً)** (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) جـ١، س (١) ص ٥٣ ـ ٧٠؛ ابن جريس، **دراسات في تاريخ تهامة والسراة**، جـ١، ص٢٢ وما بعدها . (ابن جريس).

(٢) أحد رفيدة من المـناطق الرئيسة في بلاد قحطان وهي تقع إلى الجنوب من خمـيس مشيط، وعلى الطريق الذي يربط بين الخميس ونجران. (ابن جريس).

الجحف وروافده، على مسافة أربعة أميال فيما يلي التقاطع وذلك بعد عبورنا المسيال قبيح شديد الانحدار ورملي، يسمى المديد، ويقع وادي الحنجور أمامنا الآن.

عبرنا هذا الوادي بعد قيادة استمرت ثلاثة أميال فوق بطن سيل رملية، ضيقة مغطاة بالقصب وجنبات النخيل القصيرة وعدد كبير من أشجار التين البري -الحماط- كانت نامية بين الصخور الجرانيتية والجلاميد على كلا الجانبين. كان الوقت الآن يقترب من الخامسة مساء، وقد أحسست بالتعب؛ لذا قررنا أن نعسكر هنا لقضاء الليلة في هذه البقعة الجذابة.

اتضح لي حقيقة أنني أكثر من مجرد امرئ مرهق فقط. فما أن تخفف عني ضغط القيادة في هذه البلاد الصعبة، حتى أحسست بالقشعريرة تتملكني، وقد امتدت أصابعها وبدأت أرجف فجأة كأوراق شجر الحور التي ترتعش إذا هب عليها النسيم. ودخلت تحت ملاءات سريري بملابس النوم كي أنام للتخلص من الحمى بمساعدة دواء الإسبرين، ولحسن الحظ فقد كانت نوبة الحمى خفيفة، والتي أملت عليَّ أن أنام طويلاً حتى الصباح. لم أقبل العشاء حينما أحضر إليَّ، ونزعت من ذهني كل تفكير في ملاحظة الفلك. يكفيني هذا في هذه الليلة التي حطَّ عليَّ فيها المرض وصحوت مبكراً، نشيطاً وعلى أتم استعداد لمواصلة أنشطتي المعتادة.

وشاهدت بعض الأبقار ترعى الأعشاب الغنية داخل المجرى وصوله، ومن المعتقد أنها وصلت من قرى تندحة وهي ليست بعيدة من هنا[1]. حتى التين البري

(١) تندحة عبارة عن واد يبلغ طوله حوالي (٣٠) كم، ويوجد به العديد من القرى، والتي من أهمها: - آل الذيب، وآل عجير، وآل حجاج، وآل مستنير، وآل الزلال، وآل الصدر، وآل يعلا، وآل دبابة، وآل التوم (آل جميل)، وآل زاحمة، وآل سويد، وآل عياش، والفيض، والحوطه. ومعظم سكان وادي تندحة يعودون في قبائل شهران العريضة، ويمتاز هذا الوادي بوفرة مياهه، وكثر منتوجاته الزراعية. (ابن جريس).

كان له زبائنه مـن الطيور، خاصـة السوَّادية، وهذه علامـة مؤكدة عـلى قربنا من المرتفعات الحقيقية، كما شاهدت يمامة، وهي من نوع جديد بالنسبة لي ومميز لمنطقة اليمن والحبشة. كما قمت بوضع جرذ فـي كيس العينات كان يتحرك فوق صخور جرانيتـية. وصلَتْ إلى المعسكر في هذه الأثناء سيـارتان لمجموعتين صـغيرتين من أتباع الأمير فـيصل برئاسة عثمان بن عـثمان، في طريقهما إلى أبـها. لقد غادروا السيل في اليـوم الثلاثين من الشـهر، ورنية في اليـوم التالي وبيـشة في الأول من يونيو ليصلوا إلى معسكرنا في تمام الساعة الثـامنة صباحاً في اليوم الثاني من يونيو - سفر جيد ولكنه كان صعباً بالنسبة لسياراتنا. أستطيع أن أرى جبال تَيَّة التي تقع وراء أبها[١]، من رأس أعلى قمة جرانيتية في هذا الجوار - ترتفع إلى (٥,٥٠٠) قدم فـوق سطح البحـر-، والتي يقال إنها تـقع على الجانب القريب لـتل منعزل يسمى ضرة الذي يمكن -أيـضاً- رؤيته في الاتجاه نفسـه -غرب الجنوب الغربي-. تواصلت سلسلة جبـال أحد في الجنوب الغربي -الحـاجز الدائري- مع تل هرمي بارز يسمى ضمَك وتقع في السهل أمامه وبالقرب من المرتفعات العليا لمجرى وادي بيشـة. تقع سلسلة جبال الصنعـة إلى الجنوب الشرقي، وهي سلسلة غيـر مميزة، جرانيتية فيما وراء القفر المنتشرة فيه الجلاميد والذي يمتد أمامنا، ويعرف بالهضب. تستـمر سلسلة جبـال القعمـة إلى جهة الشـرق لتواصل الحاجـز الجبلي الرئيس. وينحدر من هذا الاتجاه شـعيب الحنجور ليواصل سيره ناحيـة الجنوب الغربي (تجاه بيشة) ماراً بمعسكرنا. وتقع فوهة القرن إلى الشمال منا.

---

(١) جبال تَيَّة: تقع إلى الشـمال من مدينة أبها، وتوجد بها عقـبة شعار التي يخترقها طريق مـعبد يربط أبها بمحائل عـسير في تهـامة، ومن هذه الطريق يتم الوصول إلى مكـة المكرمة عبر الأجـزاء التهامـية. (ابن جريس).

اكتشفنا مع استمرار رحلتنا، أن الحنجور يتصل مع تندحة على بعد ميل واحد إلى أسفل، وليعود بعد فترة من سلسلة جبال القعمة وينساب ناحية الشمال الغربي قليلاً من هذا الموقع إلى داخل بيشة. اخترنا بعد عبورنا هذا أرضاً صعبة تعبره وتتقاطع معه، خطوط تصريف صغيرة مغطاة وبكثافة، بنبات القصب (النمص)، إلى أن نصل مجرى تندحة -هذا غير تندحي المتقدم- الذي وصلنا عبره، وعلى بعد نصف ميل إلى قريه تندحه، وفيما يليها إلى قرية أخرى تسمى القرارة تقع في مجرى يحمل الاسم نفسه وينحدر من سلسلة جبال الصنعة.

كان يوجد بعض الماء في المجرى، وفي الموقع الذي عبرناه فيه كانت هنالك بقعه كبيرة ذات مروج ترعى فيها أغنام وأبقار. يتصل مجريا القرارة وتندحة قليلاً أسفل القريتين اللتين يحملان اسميهما، وتعلّم المجرى المتحد عدد من قرى أخرى، تجاه وادي بيشة هي: غيثان، وآل حجّاج، وآل ألزلال، آل مستنير، والحوطة، بهذا الترتيب تتتابع إلى أسفل على مسافات من نصف الميل حتى الحوطة، وفيما يلي هذه، فلا توجد قرى في مجرى الوادي إلى أن يصل إلى قرى بيشة التي تم ذكرها سابقاً. تنتمي القرارة إلى قبيلة ناهس التابعة لشهران، وكل القرى الباقية إلى كود.

سرنا فوق سهل ضخم منحدر، فيما يلي القرارة، كانت عليه بروزات وقمم جرانيتية، تذكرنا باقتراب الطائف. كما وقفت إلى ناحية الغرب تلك الجبال العظيمة التي يزداد وضوحها كلما اقتربنا منها، كما يمكننا الآن رؤية كل الامتداد للحجاز من عند فجوة أبها (ضيره) تجاه غرب الجنوب الغربي إلى فجوة أخرى تجاه غرب الشمال الغربي والتي شمخت من خلفها الكتلة البارزة لتلال شعار، معلمة الموقع الذي عبره يمر واحد من أعظم الطرق التجارية بين أبها وموانى البحر

الأحمر، والذي يصل إلى قمته في هذا المكان. يتم تصريف هذا السهل- الهضبة، المنحدر والذي نسافر فوقه الآن، عن طريق حوض منخفض يسمى الشَّرَف[١] والذي يميل تدريجياً تجاه ناحية الطريق المنحدر الذي نسلكه الآن للوصول إلى وادي بيشة.

كان المنخفض مكسواً بغطاء نباتي وشجيرات خفيضة وبعض أشجار الطلح التي شاهدت فيها بعض الطيور، وكثيراً من العصافير المغردة، إلى جانب القنبرة المتوجة. عبرنا فوق الجانب الأيسر للمنخفض لنواصل السفر فوق سهل جرانيتي مماثل -والذي من ورائه- وبعد أن غطينا مسافة ثمانية أميال من القرارة، بدأت تظهر أمامنا أول علامات القلاع العظيمة والمباني لخميس مشيط. وصلنا إلى قصر أبو ملحة بعد دقائق من منتصف النهار، بعد أن غطينا، ١٤ ميلاً من معسكر الحنجور فقط، (٥٠) ميلاً من عند خيبر. وبالضبط كانت المسافة من الروشن (١٤٨) ميلاً [٢]، غير أن المسافة عن طريق الوادي من الروشن إلى خميس مشيط ربما كانت لا تزيد عن ١٠٠ ميل، والأخيرة هذه ربما كانت على ارتفاع (٢٥٠٠) قدم أعلى من الروشن، وكان متوسط الارتفاع هو (٢٥) قدماً لكل ميل.

ما يدهش فيما يخص السفر في صحراء الجزيرة العربية، أن المرء قد يجد نفسه فجأة، حين وصوله إلى أي من الواحات العظيمة قد أصبح محاطاً بكل أدوات الحضارة عالية التطور. من حيث الأساس، فإن ثقافة كل القرى في المناطق

---

(١) كان الشَّرَف منطقة رعي لبعض عشائر شهران أثناء زيارة فيلبي للمنطقة، والآن هي موقع القاعدة الجوية بمنطقة خميس مشيط. (مقابلة مع الأستاذ إبراهيم بن محمد بن فائع الألمعي) (ابن جريس).

(٢) المسافة اليوم بين بيشة وخميس مشيط حوالي (٢٣٠) كم على طريق معبدة. (ابن جريس).

متشـابهة، غير أن لكل منطقة خـصوصيتهـا - يستطيع المرء أن يميز شخـصية كل منطقة عـن المناطق الأخرى. ويوجد بصـفة عـامة خط قاسم عـريض بين مناطق الشمال (نجـد وتوابعها) وتلك التي في الجنوب. كانت بيشـة -وهي ما يخصنا في هذه الرحلة- آخر ما يمثل الحضارة الشمالية، على الرغم من أن منظر السوق هناك -كما ذكرت- كانت له مسحة واضـحة لنمطه الجنوبي. كانـت خميـس مشـيط -بالتأكيد- أول المناطق «الجنوبية» في طريقنا(١).

لم اذكر خيبر لأنها ليست بذات أهمـية، على الرغم من أنها قد عاشت أياماً أحسن، وكان اكتشافي للنقوش الثـمودية هناك يشرح الصلة مع حضارة سابقة في المرتفعات في تضاد مع حـياة البدو الأمية في الصحراء. ربمـا لم يكن لحياة البادية الضاربة في التـاريخ أداة معرفـة بالقراءة والكتابـة مطلقاً. وجواهر شِـعْرها، التي قيلت لهواء الصحـراء قد اختفت إلاَّ من جزء يسير تم الحفاظ عليـه بالصدفة بعد مولد الإسلام. بينمـا في القرى والمدن، من الجهة الأخرى، فإن النقـوش الحميرية والسبئية أذكت الطموحات الأدبية ليقود هذا إلى ظهور الأبجدية التي كانت ميسرة لنقل السجلات الأدبية وغيرها من السـجلات من جيل إلى جيل. على أي حـال، فـإن أول نقش كتابي -حقيقة- أصبح معـروفاً لدينا، هو اختراع جاء به الفينيقيون الذين كانت أصولهم، من هذه المدن الجنوبية الغربية في جزيرة العرب القديمة(٢).

---

(١) خميس مـشيط: اسم يطلق على المحافظة وعلى المدينة التي أصـبحت من المراكز الحضاريـة العصرية في المملكة ومن الأسواق التجارية الهامة. (ابن جريس).

(٢) من يتجول في المناطق الجنوبية من المملكة العربية السعودية فإنه سوف يشاهد الكثير من النقوش والرسوم التي تعود إلى العصور الثـمودية، والفينيقية، والحميـرية والسبئية، وتحتاج إلى من يدرسهـا دراسة علمية أكاديمية ونحن ننادي الأخوة الآثاريين المـتخصصين داخل البلاد وخارجها إلـى أن يلتفتوا إلى هذه الكنوز العلمية الثمينة فينقبوا عنها وتُدرس بطريقة علمية جادة. (ابن جريس).

بشَّر عثمان باقترابنا، وكان قد سبقنا من الحنجور ومنحنا باستقبال أميري عند بوابة القصر الكبير من قبل أبناء مضيفنا الثلاثة، وهو عبدالوهاب أبو ملحة(١) الذي كان حينها متغيباً في أبها فيما يخص واجباته كمفوض مالي لكل المنطقة، التي تضم خميس مشيط، وقرى تندحة ومجموعات من قرى أخرى عند السفوح الجبلية. كان الشيخ الأعلى لعموم قبيلة شهران، هو سعيد بن مشيط، من قبيلة آل رشيد والذي كان مسكنه قصراً مهيباً عند النهاية في أعلى الوادي لمنطقة خميس مشيط، بالتحديد في قرية تسمى ذهبان وقد زرته فيما بعد أثناء إقامتي في هذه الأنحاء. يملك كل القرى والأرياف الصغيرة لخميس مشيط(٢) - وهذا يعني سوق الخميس لمشيط(٣) -كنية الشيخ الإسمي للأسرة الحاكمة - أناس من قبيلة آل رشيد التابعة لشهران الذي ينتمي إليه مضيفي أبو ملحة.

على الرغم من أن أبناءه الثلاثة عبدالله، وعبدالعزيز، وسعيد كانوا كلهم قاصرين إلا أنهم استقبلونا بالأخلاق التي ولدوا بها بفطرة أرستوقراطية طبيعية

---

(١) عبدالوهاب بن محمد أبو ملحة من رجالات الملك عبدالعزيز، تولى أمور المالية في المنطقة الجنوبية من عام (١٣٤٢ ـ ١٣٧٤هـ)، وقد شارك في عدد من المهام مثل:ـ رسم الحدود بين اليمن والسعودية، والمشاركة في عدد من الحروب بين السعودية واليمن. للمزيد انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع الملك عبدالعزيز** (الرياض: رئاسة الحرس الوطني ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ص ٢٤٠ ـ ٢٥١، ابن جريس، **صفحات من تاريخ عسير**، حـ١، ص ١٢٩ ـ ١٤٥ . (ابن جريس).

(٢) لقد وقع فيلبي في خطأ والتبس عليه فهم حقيقة الأمر، فالقرى والأرياف في خميس مشيط ملك لأصحابها، وأملاك الأمير، سعيد بن مشيط مقصورة على أملاكه الخاصة، وهي قليلة جداً مقارنة بالقرى والأرياف كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

(٣) الخميس لمشيط: حقيقة الأمر أنه كان يطلق على السوق الأسبوعي الذي كان يقام يوم الخميس من كل أسبوع ويقال له سوق الخميس، أو سوق موجان أو سوق ابن مشيط كناية على أن سعيد بن مشيط شيخ شمل قبيلة شهران يتولى توفير الأمن لمن يرتاد ذلك السوق حسب الأعراف التي كانت تشمل جميع أسواق المنطقة بصفة عامة، وهذا لا يعني أن شيخ القبيلة يملك السوق، وقد التبس الأمر على المؤلف، والسوق أساساً كان ولا زال ملكاً للقبيلة. (مقابلة مع الأستاذ/ إبراهيم محمد فائع الألمعي) (ابن

لديموقراطيــة الجزيرة العربيــة، والتي كانت من عدة وجــوه مذكرة لنا بديموقــراطية الإغريق القدماء حتى إلــى مستوى العبيد والرقيق لتلك الحـقبة العظيمة[١]، وحتى إلى عزل النساء. قادنا عـبدالله، أكبر الثلاثة وهو صبي جميل في الـسادسة عشرة من عمره، إلى الطـابق الأول من قصره، الذي توجد فيـه غرف الضيافـة الرئيسة وهي مكونة من: غرفة كبيـرة أرضيتها مغطاة جيداً بالبســاط، وغرفة رسم أصغر، مغطاة أيضاً ببساط مماثل، ويخرج منها المرء إلى غرفة حمام واسعة ومؤثثة بأسلوب بسيط، متصل بها مرحاض ذو الأخدود المألوف والثقب في الأرضية.

أخبر عثمان مـضيفنا أن يتوقعونا عند الساعة الحادية عـشر صباحاً وقد رحب بنا محـبوب[٢] وهو العبـد المنزلي الرئيس وكبيـر الخدم بعد سـاعة، حاملاً مـعه الأخبار بأن الغـداء جاهز. جلسنا، في هذه الأثناء، نتبادل شرب القـهوة والشاي ونتحـادث مع مضـيفينا الشـباب، - بالمناسـبة فـقد تم إشعـال مجمـرة ضخـمة لراحتنا[٣]- غير أني قد توسلت لإبعـادها حيث إن الطقس دافئ أكثر من اللازم - حـوالي (٩٠) درجة في الظل مـن الخارج وباردة في الغـرفـة دون حاجـة للنار- وظللنا مشغولين هكذا إلى السـاعة الثانية مساءً دون ظهور أي علامـة لوجبة غداء قادمة. تطل نوافذ هذه الغرفة على أحد الجـوانب على ساحة داخلية، حيث تحفظ الحيوانات المستأنسة، ومن الجـانب الآخر، إلى الخارج، تطل النوافذ على عدد من

---

(١) هذه وجهة نظر فـيلبي، ويُعذر على هذا التشبيه كـونه عاش وتربى في مجتمع غربي يخـتلف في طباعه عن مجتمعات الجزيرة العربية في عاداتها وأعرافها. (ابن جريس).

(٢) محبوب: أحد موالي الشيخ عبدالوهاب أبو ملحة المناط به خدمة الضيوف. (ابن جريس).

(٣) المجمـرة:ـ يسمى في عـرف أهل البلاد بـ (الصلل) إذا كان ثابتـاً، وإذا كان مـتحركـاً، أي مصنوع من النحاس، سمى كانوناً. وكلا النوعـين يُحرق فيهما الفحم أو الحطب لغرض التدفـئة وإبقاء أواني القهوة والشاي في حالة من السخونة الدائمة لغرض الاستعمال أطول وقت ممكن. (ابن جريس).

القصور ناحية الشمال، والتي تكوّن قـرية العرق، بالإضافة إلى القصر الذي نحن فيـه الآن. لاحظت وأنا أتطلع إلى هذا المنظر حديقـة بجوار القـصر، وأعتـقد أن مضيفينا قد ارتاحوا كثيراً لاقتراحي أن نقوم بزيارتها في انتظار الغداء.

وهكذا انطلقنا بنشاط ووجدت نفسي في حديقة فواكه صغيرة ولكنها مزروعة بكثافة بـأشجار فواكه مـختلفة. كانت الفـاكهة الوحيـدة التي يمكن أكلها في هذا الوقت هي المشمش الذي كان من نوعـية ضعيفة، إلى جانب بـعض التفاح الخالي من الطعم، ومع هذا فقد التـهمناها بشراهة أثناء تجولنا لجمع الطيـور والفراشات، وكانت مطاردة اشتـرك فيها الصبيـان بشغف. احتوت الحديقـة أيضاً على خوخ، ورمان، وتين، وسفرجل، وشجرات التين الشوكي، وعنب معرَّش، ولكن نتاجها لم ينضج بعد. كان المكان مملوءاً بالعـصافير بينما احـتوت حقيبتي لفـترة ما بعد الظهر على طائر أبلـق من جنوب الجزيرة وأبيض العين الجذاب. وتحـصلت كذلك على حرباء كبيرة زرقاء تسمى محلياً وحر.

دُعينا أخـيراً لتناول الغداء، وكـانت وجبة ممتازة، وخـاصة خبـز البر لم نذق أحسن مـنها أطلاقـاً. وألحَّ علينا مضـيفنا أن نقـضي الليلة في المنزل، غيـر أنني فضلت -كـعادتي دائماً- أن أقـضي الليل في الفضاء حـتى أقوم بجمع الحـشرات وبدراسة الفلك، وكان معسكرنا قد أقيم على أرضية درس الحبوب التابعة للقرية، وهي أرض كبيرة مسطحة مسـتديرة، مكسوة بالإسمنت المحلي، ونظيفة إلى درجة الجمال(١). كان علينا أن نغادر في اليوم التالـي لنتحاشى أيّ ضرورة تتطلب عودة عبدالوهاب من أبها، غير أنه قد تم الترتيـب لنا بقضاء يوم آخر في خميس مشيط

---

(١) وهذا المكان يسمى بلهجة أهـل البلاد (الجرين) وغالباً تقلب (الجيم) (ياء) فيـقال: (اليرين)، وقد يطلق عليه أيضاً (البيدر)، وهو مكان درس الحبوب وتنقيتها من التبن أو القصب. (ابن جريس).

بعد عودتنا من العاصمة في طريقنا إلى نجران. لقد أمضينا، ليلتين هنا في تلك المناسبة (١٤ و ١٥ يونيو)، ولما كانت الفرصة أكبر لاستكشاف كل المناطق المجاورة، فقد كان من المناسب أن أضمن كل معلوماتي عن هذه الواحة الممتعة في هذا الفصل. يخصص الطابق العلوي والسطح في هذه القصور الفارهة لحريم المالك ولكن، وقريب جداً من قصر عبدالوهاب، يوجد قصر آخر طويل، يبدو أنه مؤجر لخدم الحقل، واستجابة لطلبي أن أقوم بمسح المنطقة من موقع مرتفع، فقد أذن لي بالصعود إلى سطح هذا البناء بعد إبعاد امرأة أو امرأتين من الغرف العليا. يطل البناء من السقف، على منظر جميل للواحة وما حولها.

أكثر ما يلفت النظر حول هذا المكان أنه خالٍ من أشجار النخيل، أو أن ما يوجد منها قليل وبائس، ذلك لأننا على ارتفاع يفوق ذلك الذي تكون عنده مزارع النخيل مربحة. كما لا يوجد الكثير من الجنائن وحدائق الفاكهة، على الرغم من أنه في هذه الأوقات قام المواطنون الأثرياء في خميس مشيط ببذل جهد خاص لإنشاء مثل هذه الرفاهيات. كانت زراعة الحبوب هي الصناعة الرئيسة لهذه المنطقة، بالذات القمح كمحصول ربيعي (صيف مبكر)، والدخن (ذرة) في الخريف والبرسيم. تغطي مزارع الذرة الصفراء، التي تم حصادها في هذا الوقت بالطبع، مساحات واسعة على كلا الجانبين لبطن مجرى وادي بيشة الواسع الرملي وروافده المحلية التي تروى بواسطة السيول وجزئياً من الآبار، والتي تكون في معظم الأوقات ذات فم واسع -في بعض الحالات يصل قطرها إلى (٢٠) قدماً- مع وجود حاجز غير ثابت من الحجارة لحجز الطمي عن حفرة البئر، والذي بعد عمق أقدام قليلة يخترق الجرانيت التحتي ليصل إلى الماء الذي يوجد عند عمق

ثلاث قامات فقط من عند السطح. يسمى أحسن آبار المقاطعة دويحاً[١] ويبعد حوالي (٣٠٠) ياردة من قصر أبي ملحة الرئيس.

كانت المسافة التي تفصل ذهبان عن العرق - وكلاهما على الجانب الأيمن- حوالي ميل ونصف الميل، ويجري المجرى بينهما ناحية الشمال الغربي. كما توجد بينهما على الجانب نفسه قريتان صغيرتان هما: آل عزيز قريبة من البئر الأولى، ودويح -قصر منفرد بجوار البئر- قريباً من البئر الثانية، وتقع أسفله قريتان صغيرتان على الجانب نفسه هما: شباعة ومصلوم، كما تقع قريتان صغيرتان وكلاهما يسمى الصفق وأسفلهما قليلاً قرية المثناة كلها مكونة مجموعة من ثلاث قرى وكلها على الجانب الأيسر في مقابل ذهبان. توجد أسفل هذه ومقابل العرق قرى أخرى هي: آل قصال، والدرب، وقمبر، الأولى صغيرة، والأخيرتان متوسطتا الحجم وتوجد بينهما أرض مكشوفة، هي موقع سوق الخميس. توجد قرية ثالثة صغيرة تسمى الصمدة بجوار مكان السوق[٢] - ولكن على الجانب الأيمن- ولكنها مدمرة. كما توجد مع اتجاه مجرى الوادي من هذه المجموعة من القرى، وأيضاً على الجانب الأيسر قرية آل هميلة مقابل شباعة ومن ورائها الغرابة حوالي (٣٠٠) ياردة أسفل منها، وقرية طيب الاسم إلى الخلف وراء آل هميلة. يتحد وادي عتود وهو رافد لبيشة مع بيشة بين الغرابة - على الجانب الأيمن لوادي

---

(١) واسم هذه البئر:ـ بئر أم الدويح، وهي أشهر بئر للمياه عالية العذوبة في خميس مشيط، وهي معروفة ومشهورة، وقد تم طمرها وردمها بعد أن أصبحت في تنظيم المدينة وسط أحد الشوارع الرئيسة، وبعد أن تلوثت مياهها وأصبحت غير مناسبة للاستعمال. (مقابلة مع الأستاذ/ إبراهيم محمد فائع الألمعي) (ابن جريس).

(٢) الصمدة: ـ أقدم قرى الخميس، وكان يقام فيها السوق الأسبوعي، وتشير بعض الروايات إلى أنها كانت مقر السوق منذ عهود بعيدة، ولها اسم آخر هو:ـ (الزويراء) (مقابلة مع إبراهيم فائع الألمعي) (ابن جريس).

عتود - وطيب الاسم على الجانب الأيسر، ويقع أسفل هذه أبو سليك وهي مجموعة نخيل واحدة عند منحنى مجرى بيشة من جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي. توجد قرى صغيرة مبعثرة على امتداد وادي عتود أيضاً - هي الخلصة بعيداً في اتجاه أعلى الوادي، وعلى بعد ثلاثة أميال عن العرق وتكون قرى العطفة، وآل راشد، ومشرف، وآل الزعاك، وشعابة كلها أسفل منها في هذا الترتيب.

تتكون منطقة خميس مشيط، بناءً على هذا، من (٢٠) قرية وعدد من القرى الصغيرة. تشتهر الخلصة بأنها موقع قديم لكنني لم أقم بزيارتها. كما علمت عن عدد من القرى، أسفل أبو سليك وهي أكثر القرى انخفاضاً، وقرى صغيرة، في وادي بيشة منتشرة فوق مسافة من خمسة أميال إلى (٢٥) ميلاً أسفل العرق. وهي والجنفور -ويسكنها بنو منبه من بني مالك من عسير-، معامل -لبني بجاد شهران- ورشيدة، وأهل بشور، وظرافة، وأهل الشال، وشرقة، وقريرة -كلها أراضٍ الذرة الصفراء التابعة لشهران-، ثم شفان -رقعة مزروعة نخيلاً- ومعها بتنات ومعاملٍ أخرى غير السابقة يقعان أسفلها. ومن القرية الأخيرة إلى واعر بالقرب من ملتقى هرجاب - بيشة، فإن الوادي -كما يقولون- خالٍ من القرى وهي مسافة يومين بالجمال أو حوالي (٥٠) ميلاً.

رافقت عبدالوهاب في اليوم الخامس عشر من يونيو، بعد عودتي من أبها، وبعض رجاله في جولة في الجزء الأعلى للوادي فوق ذهبان وقد رغب بصفة خاصة أن يريني هضبة معينة تسمى حمومة يعتقد أنها موقع لكنز مخبأ. استمتعت تماماً بليلتي في العراء المكشوف على أرضية درس الحبوب في العرق، بعد أن كنت أنام داخل المنازل طيلة إقامتي في أبها، وأن أجد نفسي بعد هذه الليلة المريحة وقد

تقوى جسمي بوجبة إفطار ممتازة من خبز وبيض ولبن وتمر، وبعدها بدأنا مغامرتنا عند الساعة السابعة والنصف صباحاً. وصلنا إلى الجانب الأيمن للوادي، بعد مغادرتنا لقصر سعيد بن مشيط بمسافة نصف الميل، حيث تنتهي مزارع ذهبان عند نقطة التقاء شعيب ذهبان مع بيشة حوالي الميلين من القصر في اتجاه أعلى الوادي. وصلنا فوراً إلى مجموعة من ثلاثة أو أربعة قصور تسمى الوقواق بعد أن انطلق ثعلب من بين الصخور عند تقاطع ذهبان، مررنا من وراء مجموعة الوقواق هذه، وعلى بعد ميل واحد، وأيضاً على الجانب الأيمن، قريباً من أكبر قرية، وهي الوقبة ذات القصور العديدة المبعثرة فوق مساحاتها الكبيرة المزروعة.

وصلنا إلى الهرير على بعد ميل آخر وقريته الصغيرة على الجانب الأيسر للوادي، وذات عدد قليل من المنازل أيضاً على الجانب المقابل. وعبرنا المجرى بعد ميل واحد آخر، وكان عرض المجرى حوالي (٥٠٠) ياردة، أسفل قرية نعمان مع مساحة مزروعة معتبرة على الجانب الأيسر. وتقع قصور وحقول ذرة الرونة قليلاً بعد ذلك، أيضاً على الجانب الأيسر، وتمتد إلى مسافة نصف الميل على طول المجرى وتنتهي عند رافد شعيب ويسمى أجبال وهو يتحد مع الوادي الذي يقع أعلاه. يهبط هذا السيل من تلال ضمك.

دخلنا منطقة زراعية كبيرة في صفوان على بعد ميلين أو أقل، وهي ذات قصور مبعثرة، تجري فيها حدود قبلية بين شهران -هنا رشيد كما في خميس مشيط- وقحطان (رفيدة). توجد أشجار في قصور الأخيرة وحدائق فيما بينها، بينما تلك التي في شهران فإنها تقوم على أراضٍ لزراعة الذرة الصفراء. كانت نقطة الحدود الفعلية هي قصر يتنازع عليه والذي أُمر أهل قحطان بمغادرته قبل

اكتمال بنائه[١]. يتحد عند هذه النقطة وادي بيشة، الذي عبرناه الآن لنزور تل حمومة، مع شعيب عنقة ويرتفع إلى حوالي (٢٠٠) قدم أعلى من خميس مشيط. يقف تل حمومة على مثل هذا الارتفاع فوق مستوى السهل قليلاً إلى الخلف من الجانب الأيمن لبيشة وقد كشف لنا عن منظر يثير الإعجاب لمرتفعاته العليا.

كانت قمة بركان القرن واضحة ناحية شمال الشمال الشرقي، بينما تقع تلال القعمة ناحية الشرق وتقع الأراضي المرتفعة لسلسلة الأحد ناحية الجنوب الغربي. كانت جبال عسير مرئية لنا من خلال حجاب من الغيوم. ويقع أمامنا ناحية الجنوب سهل واسع من رمال جرانيتية متموجه عارية صعبة، يخترقها وادي بيشة متجهة إلى موقعنا ليقابل عنقة الهابط من الشرق وشعيب آخر هو شعيب البغث من ناحية الغرب. كانت أقصى نقطة في وادي بيشة نستطيع رؤيتها، تبعد حوالي خمسة أميال في تجويف واسع في سلسلة جبال الأحد حيث تنحدر مارة بأرض مرتفعة تسمى (المَرْبَع) بارزة؛ لتعبر إلى الجانب القريب من خلال المضيق توجد فيه قريتا القرحاء وميسرة – وكلاهما يتبع ابن هيف من قحطان[٢]–. توجد قرى آل قفيع (أو ضاعي رفيدة) وبني تميم وآل مضر وكل هذه على الجانب الأيسر، وتقع آل بريد على الجانب الأيمن مقابل القرية التي ذكرت أخيراً وتتقاسم معها شرف

---

(١) لقد زالت هذه الحواجز بين القبائل في العهد السعودي الزاهر، وأصبح المواطن السعودي يتحرك ويستثمر ويسكن في أي مكان يرغب الاستقرار فيه دون عوائق. أما القصر المذكور في المتن فهو معروف في المنطقة، ويعود إلى رجل اسمه مسفر بن قعصوم، وقد تم الصلح حول هذا القصر وتم إكمال تشييده. (مقابلة مع سعيد بن جفشر طالب الدراسات العليا بقسم التاريخ جامعة الملك خالد) (ابن جريس).

(٢) صحة العبارة هي: ـ «من خلال قريتي المضيق والقرحاء واللتين تتبعان آل ميسرة من قبيلة جارمة، وجميعها تتبع ابن هيف وهم من رفيدة قحطان» (ابن جريس).

إقامة السوق المحلي، الذي يقام يوم الأحد، وبسبب هذا فإن الموقعين يسميان محلياً (سوق الأحد). يوجد موقع السوق الفعلي على الجانب الأيسر بين آل مضر وسلسلة منخفضة، ويبعد أكثر من ميل واحد بقليل، من حمومة التي تمر من خلالها الحدود بين قحطان - شهران من القصر المتنازع عليه الذي ورد ذكره سابقاً.

تتجمع كل هذه القرى من هذا الخط الحدودي إلى آل قفيع تحت اسم بيشة ابن سالم، وتسيطر على نفوذ حسين بن صُمّان بن سالم من رفيدة. تشتمل هذه المنطقة على مساحات واسعة لحقول الذرة الصفراء لآل ضاعي مع قصور مبعثرة من حولها. توجد قريتان في شعيب البغث تبعدان حوالي ميلين من حمومة وبالذات عند ملتقاه مع شعيب مخش، وهما تابعتان للمراغة التي يدخل من أسفلها البغث إلى بيشة بالقرب من قرى السوق. كانت القرى الصغيرة في شعيب عنقة هي: ألربَّة (بني قيس)(١)، ودرب العقيلة(٢) (بني قيس) ولزمة (آل الشواط) وكلها على الجانب الأيسر، تقع الأخيرة على مسافة ميلين من حمومة وتقع القابل مقابل درب العقيلة (على الجانب الأيمن).

هكذا كانت القرى في هذه المرتفعات العليا لوادي بيشة، والتي بناء على ما أوردته مصادر إخباري تنبع من البعيد إلى الجنوب من الجبال (تسمى الشعف) التابعة لقسم آل دحث التابعة لرفيدة(٣) - على مسافة رحلة يوم كما قالوا، لنقل

---

(١) بني قيس من رفيدة قحطان ومشيختهم في ابن صمان. (ابن جريس).

(٢) درب العقيلة: ـ واسمها مشهور عند الناس بدرب العقيدة، وهي قرية تتبع محافظة أحد رفيدة. (مقابلة مع إبراهيم فائع الألمعي) (ابن جريس).

(٣) لا يوجد مكان بهذا الاسم، وربما أنه حصل عليه التغيير في العقود الماضية. والشعف تسكنه عشائر من قبائل جارمة وخطاب القحطانية، وهو يعرف باسم عام هو: (شعف جارمة). (مقابلة مع سعيد جفشر) (ابن جريس).

(٢٠) ميلاً. لينحدر شعيب عنقة أيضاً من سلسلة جبال السراة عبر وادي الأبيض. وتوجد بركة كبيرة لمياه السيول أسفل الربّة وعلى الجانب القريب من سد الصعب وهي من مواد بازلتية.

اتضح لي أن قصة الكنز المخبأ في حمومة ما هي إلاَّ خرافة، وبعد فحص دقيق للمكان، تقدمت برأي «كخبير» بأنه لا يوجد مكان في التل (وهو من صخور بسيطة) يمكن إخفاء كنز فيه. عبرنا مجرى بيشة، بعد ذلك، مرة أخرى في منطقة تابعة للضاعي إلى أعلى من موقع عبورنا السابق، ووصلنا إلى تل آخر منخفض تحيط به بقايا قلعة قديمة، مبنية بمتانة من حجارة جرانيتية كبيرة ومشذبة بعناية. تغطي مساحة كبيرة منها بقايا لمبانٍ قديمة مهجورة، ممثلة لمستوطنة أكبر من أية مستوطنة أخرى في الموقع أو قريباً. وجدنا من بين هذه حجر رحى ضخماً ساقطاً على الأرض، منحوتاً من صخرة جرانيتية، كان قطره (٦٩,٣) بوصة وقطر ثقبه المركزي (١٠,٤) بوصة. كانت هذه الأطلال -وبكل وضوح- التي لا يعرف الناس أي شيء عن تاريخها هي التي أطلقت القصة الشائعة عن الكنز المخبأ[١].

تناولنا غداءنا في موقع ليس بالبعيد من هذه الأطلال، تحت أجمة أشجار طلح جميلة، متوسطة الحجم، والتي وجدت فيها لدهشتي، عدداً كبيراً من طيور نقار الخشب، كان نقار خشبي الخاص - بالمناسبة - تابعاً لجنس جديد وقد اكتشفته

---

(١) الموقع الآن أنقاض بلدة جُرَش التاريخية، وهي مشهورة لدى أهل المنطقة، والرحى لا تزال في موضعها إلى الآن. ولمزيد من التفصيلات عن تاريخ وحضارة مدينة جرش، انظر: غيثان بن جريس. «تاريخ مخلاف جرش «عسير» خلال القرون الإسلامية الأولى» **مجلة العصور**. مج (٩) ج (١) (رجب / ١٤١٤هـ / يناير / ١٩٩٤م) ص ٦٣ ــ ٧٨ . (ابن جريس).

لأول مرة بالقرب من الطائف وأيضاً في عشيرة. كان من المثير لي أن أجده هنا في هذا المكان البعيد ناحية الجنوب، غير أننا لسنا عند حدود انتشاره الجنوبية بعد، كما أمكنني أن أتحقق من ذلك في وقت لاحق في هذه الرحلة. كان هذا الطائر أعظم اكتشاف لي في التاريخ الطبيعي خلال رحلاتي في الصحراء. ومن المدهش أيضاً وجود نقار الخشب في الجزيرة العربية، كانت اليمامة اليمنية وآكلات النحل، أيضاً متوافرة، وكذلك الطيور النساجة وأعشاشها الجميلة المتأرجحة والطيور الثرثارة. تمكنت أيضاً من الحصول على صائد الذباب. ورجعت وزملائي إلى منزل أبي ملحة بقناعة كبيرة، بأن هذه النزهة كانت مثيرة بصورة غير عادية.

أقمنا في موقع المعسكر نفسه كما فعلنا من قبل، حين عودتنا من أبها عند غروب الشمس في اليوم السابق، غير أن عبدالوهاب كان قد سبقنا في هذه المناسبة، وأعد لنا مأدبة محترمة. فقد نشرت لنا ملاءة طاولة بيضاء كبيرة على أرضية غرفة الاستقبال الكبيرة وعلى حافتها تم ترتيب الخبز المحلي المسطح المصنوع من القمح بالتبادل مع أوصال لحم الضأن. امتلأ وسط هذا القماش بزخم كبير من قحاف(١) وسلطانيات محتوية على ما لذ وطاب، صحون من أرز في شريط مركزي وقد انغرزت ملعقة كبيرة في قلب كل واحد منها، وكانت هناك أطباق مملوءة بكميات كبيرة من السمن المستخلص من إليات الضأن - طعام شهي لم أستلطفه بالمرة- وسلطانيات تحتوي على قطع دجاج في حساء، وسلطانيات مملوءة بالخضراوات، وصحون من حلوى مختلطة مثل المهلبية وكعكات محلاةً مقلية بالزيت (لقيمات) لقد كانت وجبة سخية، بالتأكيد.

(١) أعتقد أنه يقصد بكلمة (قحاف) أي (صحاف) وهي آنية تصنع من الخشب ويوضع فيها الطعام وبخاصة العصيد المصنوع من حبوب الحنطة أو الذرة أو الدخن. (ابن جريس).

ناقشنا بعد تناول القهوة شؤون الدولة وأموراً خاصة عائلية، علمت - الآن فقط - أن عبدالله أكبر أبناء عبدالوهاب الثلاثة - وعمره (١٦) عاماً - متزوج. ليس هذا فقط، بل إن والده كان مشغولاً في بناء قصر آخر، إلى الغرب من قصره، ليشغله ابنه الثاني وعمره (١١) عاماً بمناسبة زواجه الذي يتوقع أن يتم في المستقبل القريب. لاحظت أنه، في هذا القصر الجديد، كما في العديد من القصور القديمة، فقد تم استخدام شرائح من الخيزران على فترات في البناء القائم على طوب اللبن، ربما لأغراض اللصق، برغم أن التأثير العام كان للزينة. كانت أساسات هذه القصور والأجزاء التحتية من بلكات من الصخور، بينما كان البناء الفوقي مستدقاً عند أرضية عريضة إلى قمة عليا، أيضاً من الطين واللبن[(١)].

يجب أن أذكر زيارة قمت بها إلى أبها في الحادي عشر من يونيو، لأكمل وصفي لخميس مشيط، لغرض مستعجل وهو رؤية سوق الخميس. وبالمناسبة، لزيارة سعيد بن مشيط الرئيس الإسمي لقبيلة شهران. أعارني أمير أبها سيارته لهذا الغرض، واستغرقت رحلتنا قليلاً فوق الساعة الواحدة لنغطي مسافة (١٨) ميلاً فوق الطريق الصعب المتعرج الذي يصل بين الموقعين. قدنا السيارة مباشرة إلى قصر سعيد بن مشيط، ولكننا وجدناه قد خرج، وذهب إلى السوق، حيث تبعناه. وجدناه في منزل عادي يمتلكه في قرية الدرب، عاقداً مجلسه، الذي

---

(١) ولمزيد من التفاصيل عن أنواع العمارة في منطقة عسير، وطريقة تشييدها، انظر: غيثان بن جريس «العمران في إقليم عسير خلال القرون المتأخرة الماضية (دراسة تاريخية حضارية). **مجلة المنهل**، العدد (٥٧١) مج (٦١ العام (٦٦) (شوال ــ ذي القعدة / ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م) ص ٢٦ ــ ٤٩ . كما نشرت هذه الدراسة في كتاب لابن جريس بعنوان: ــ **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر**. ص ٣٣ ــ ٧٦ . (ابن جريس).

يحضره أي شـخص، خاصة من لهم مظلمـة ليعربوا عنها، وذلك خـلال فترات التسوق. كان معه ابنه الأكبر، حسين، وعمـره (٢٠) عاماً، وأكبر أشقائه السبعة، وهو شاب جميل المحيا، متجهم الوجه قليلاً تكذبه جاذبيته التحتيه. كان بحق، ذا ميل لأن يكون ودوداً ومعـه كل الثقة بالنفس لأن يكون أرستقراطيـاً بالميلاد. يبدو لي أنه سيكون شاباً واعداً.

كان والده -كما كان عبدالوهاب- ذا سمات سامية مبالغ فيها إلى حد ما -أو على الأقل مؤكـدة في هذه الحـالـة- بلحيتـه الطويـلة المتجهـة إلى الأمـام. جاء سلفه مـشيط إلى هذه المقـاطعة من بلاد جنوب قـحطان (سنحان)، حـوالي نهاية القرن الثـامن عشـر واحتل هذا الجـزء من وادي بيشـة بالقوة. كـان هو وأسرته، وحتى إلى أزمان حديثة حقيقة حتى ضم مـرتفعات عسير بواسطة قوات السعوديين تحت قيادة الأمير فيصل بن سعود[١] في عام ١٩٢١م، في انشغال مستمر بالحروب والثأر مع رفيدة وأقـسام أخرى لقحطان، وقد لقب والده بالبـاشا مع بدلات مالية من الحكومة التركـية لخدماته التي سـاعدت على السيطرة على هذه البلاد الصـعبة المراس أثناء الاحتلال التركي والذي انتهى فقط نتيجة للحرب العظمى.

كانت إجراءات السوق مملة، برغم وجود جمـهور من (٥٠٠) فرد كلهم فيما يبدو كـان مشغولاً بالبـيع والشراء وكلهم يبـدون في سعادة. وقد خـصص قسم منفصل من السـوق لكل بضاعة، في مـساحة تسـمى «مناخ» أو «أرض المعسكر» والتي استضافت في عـام ١٩٢١م و ١٩٣٤م بالتتالي جيش الأمير فـيصل والأمير

(١) لمزيد من الإيضاح حول دخول منطقـة عسير تحت حكم الملك عبدالعزيز، وكيف اسـتطاع الأمير/ فيصل ابن عبدالعزيـز دخول مدينة أبها عام (١٣٤٠هـ / ١٩٢١م). عبدالله العثيمين. **تاريخ المملكة العربية السعودية**، حـ٢ ص ١٧٨ ــ ١٨٠ . (ابن جريس).

سعود، خلال مرورهما عبر خـميس مشيط. تعرض كل البضائع للبيع في الأرض المكشوفة، غير أنني لاحظت أن البضائع التي تباع بالقطعة، وما يباع لدى البقالات كانت توضع في أكشاك[١] وكانت مغطاة بمظلات منخفضة.

سجلتُ بعض الأسعار التي كانت سائدة للفائدة وقد كانت كلها بالتأكيد على الجانب الرخيص. ثمن صـفيحة تمور عبـوة أربعة جوالين -مستوردة من خـيبر أو بيشة- أو سلة قصب (حفص) ذات حجم مشابه، ما بين (٢,٥) إلى (٣) ريالات (ماريا تريزا). كـان سعر القمح وزن (٦) أو (٧) أصْـوُع للريال الواحد، والدخن (٨-٦) لأجل التقـاوي، بينما كـان الشعيـر عند (١٢) وسعر الـبن ريالان للصاع الواحد -كـان قشـر البن ثلاثة أَصْوُع للريال الواحـد-. وكـانت الصمـعاء -وهي حبوب برية تؤكل، شـبيهة بالسمسـم-، تبـاع بسعر (٧) ريالات للصفيـحة عبوة أربعة جـوالين. كان سـعر الضأن ثـلاثة ريالات والثور أو البقـرة عند (٢٠) ريالاً والجمال عند (٤٠) ريالاً.

دعاني سعيد وأخـوه حسين مباشرة بعد الظهر لتناول وجبة الغـداء معهما في قصرهمـا في ذهبان، الذي كان أكثر رفـاهية من قصر عبـدالوهاب. كانت الغرف التي شاهـدتها بما في ذلك غـرفة الاستـقبـال الرئيسـة، مزخرفـة بإحكام بالطراز العسيري للفن، بأنماط هندسـية بالحبر، قام بتنفيذها النسـوة كما هي الحال في أي مكان آخر. كانت الحديقة أيضاً أكبر بكثيـر من حديقة عبدالوهاب، وقد استمتعت باستراحة ما بعد الظهر في ظل أشجار فاكهتها الكثيفة، وأحضرو لي بعدها صحناً

(١) الأكشاك ومـفردها (كشك)، وهي دكـاكين من الخيش تقام يوم إقامـة السوق ثم تطوى وترفع لإقامـتها واستخدامها في الأسبوع القادم. (ابن جريس).

من ثمار التين الـشوكي (برشوم) باكـورة إنتاج الموسم غيـر أنها كـانت ليست في أحسن حالهـا، ولكنها مقبولة بما فـيه الكفاية. تركت المنزل المضيـاف عند الساعة الخامسة مساء، لأعود إلى أبها، التي وصلتهـا مباشرة بعد الغروب. كانت خميس مـشيط تجـربة لذيذة. واحـة عظيمـة بلا أشـجار النخـيل، يسكنهـا أناس بسطاء ودودون، ذوو كياسـة لافتة للنظر. تقع إلى ما يليهـا، تلك المرتفعات الأسطورية لعسير، وعاصمتها أبها، التي لم ترها أعين الأوروبيين بعد.



الفصل التاسع

مرتفعات عسير

عبر الطريق إلى أبها وادي بيشة قليلاً إلى أسفل قرى السوق، ثم استمر بعدها ماراً بالقرى الصغيرة على الجانب الأيسر، ليتفرع إلى ذهبان على اليسار، بينما توجهنا نحن ناحية اليمين في اتجاه الجنوب الغربي، على طريق من سلاسل جرانيتية، لنعبر وادي عتود على مسافة نصف ميل أعلى قرية الخلصة. كان الأتراك، أثناء فترة احتلالهم لهذه البلاد التي نُسيت تماماً، قد قاموا بالفعل بتعبيد طريق من ذهبان إلى أبها[1]، ونستفيد نحن الآن مما تبقى منه بعد عشرين عاماً من الإهمال، تلتها محاولات حديثة لصيانة أجزائه التالفة، لم يكن طريقاً سيئاً، على كل حال، لولا أنه صعب وبشكل واضح في بعض المواقع.

وجدنا أثرين من آثار العصور القديمة عند المضيق الذي يشق السلسلة الجرانيتية بالقرب من جانب عتود الأيسر. كان الأول منهما، جلموداً جرانيتياً ضخماً وكان وجهه المسطح المقابل للطريق مغطى برسومات لعدد من الحيوانات وبعض النقوش الثمودية أو الوسوم، وكانت متآكلة بسبب الطقس، كما كانت مخدوشة أكثر منها منحوتة على الصخر وكانت الثانية فنجاناً عميقاً، أو حوضاً أو مغرفة كبيرة، وقد

---

(١) الأتراك حكموا منطقة عسير حوالي نصف قرن من الزمان من عام (١٢٨٩ ــ ١٣٣٧هـ / ١٨٧٣ ــ ١٩١٩م)، ولمزيد من التفاصيل عن تاريخهم في جنوبي البلاد السعودية، وبخاصة بلاد عسير، انظر: غيثان بن جريس. «وثائق من عسير خلال الحكم العثماني» **مجلة العرب**، حـ (٣ ــ ٤) س (٢٨) ١٤١٢هـ / ١٩٩٣م) ص ١٥٤ ــ ١٧٠ (القسم الأول)؛ **مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير)**. جمع وإعداد محمد أحمد العقيلي (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) ص ٩ وما بعدها.

يكون طبيعياً أو غير ذلك، في كتلة جرانيت على الجانب الآخر من الطريق وتسمى محلياً «مدير عنتر».

ورد ذكر الخلصة في الأدب العربي في العصور الوسطى بأنه مقر «صنم»، أو مكان للطواف، ويعد أهل خميس مشيط، أن الصخرة المنحوته في هذا المضيق هي النصب التذكاري الذي أشار إليه القدماء. يوجد من الأسباب ما يفيد أن الخلصة الوارد ذكرها في الآداب القديمة، هي موقع آخر بالاسم نفسه في جبال الحجاز والذي -للأسف- لم أزره مطلقاً[1]. لم تبدُ نقوش بيشة مثيرة، ويظهر وكأنها ليست إلا أسماء لرحالة سجلوها تذكاراً لمرورهم بهذا المكان.

يتجه الطريق بصفة عامة، مع السماح لبعض التعرجات، ناحية الغرب فيما يلي وادي عتود، وفوق سلاسل من تلال سطحية في هذه البلاد، تقاطعها شعيبات عديدة صغيرة، كان علينا أن نعبرها كانت منحدرة أو صاعدة، في سلسلة جبلية متناهية في الطول وطرق متعرجة، ينتج عنها ارتفاع تدريجي للطريق. كان المنظر العام هو نفسه، عند كل القمم المتتابعة، كذلك المنظر الذي رأيناه من برج عبدالوهاب، والذي ألقينا منه نظرة أخيرة، ناحية الخلف، على سلسلة جبلية تبعد حوالي ثلاثة أميال ونصف الميل، وقفت كتلتا جبل دخان إلى ناحية الجنوب

---

(١) صنم ذو الخلصة الذي ذكر فيلبي يقع في بلاد السروات، وعلى وجه الخصوص في بلاد غامد، وكان يُعرف بالكعبة اليمانية، وتحج إليه عدد من القبائل في الجاهلية مثل: قبائل دوس، وخثعم، وبجيلة وغيرها. وللمزيد عن تاريخ هذا الصنم في الجاهلية والإسلام، انظر: محمد بن سعد. **الطبقات الكبرى** (بيروت: دار صادر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) حـ٢، ص ١٥٧ ـ ١٥٨، محمد بن إسماعيل البخاري . . **صحيح البخاري** (بيروت: دار العربية للطباعة والنشر، د.ت) مج (٣)، حـ (٥) ص ١٢٣، عثمان بن بشر. **عنوان المجد في تاريخ نجد** (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، د. ت) حـ١، ص ١٨١ ـ ١٨٢ . (ابن جريس).

الشرقي من عند هذه الـنقطة، معلّمة بلاد بني حـموض شهـران، بينما بدأنا نرى أمامنـا، تجاه الغرب، الـروابي الصغيـرة لوادي حجـلا المهم الذي يصرف مـعظم مسايل هذه البلاد في وادي أبها، الذي بدوره يتحد في نهاية الأمر، مع وادي بيشة عند أعلى قـرية الجنفور. يعد مـجرى حـجلا الحدود الإدارية المؤثرة بين مـنطقتي خميس مـشيط وأبها[١]، ولكن الأهالي المحليين يضعون الحدود على الطريق عند موقع كان الأتراك يقيـمون معسكرهم فيه، أثناء قيـامهم بإنشاء الطريق، ولا يزال هذا الموقع معلّماً بفرن للخبز ضخم كان يعد فيه الخبز الذي كانوا يحتاجونه.

كان طريقنا، يتـبع بطن شعيب حـموض تقريبـاً، أحد روافد حـجلا، الذي ينطلق من سلسلة جبلية كـنا قد ألقينا النظرة الأخيرة عندها على خمـيس مشيط. كانت قيادة السيارات هنا فوق تربة متـينة مغطاة بالحشائش كما كانت هنالك أعداد كبيرة من أشـجار الطلح الجيدة النمو في أسـفل الشعيب. بقي القليل الآن لندخل حجلا، الذي عـبرنا حوضه الرملي الحـصوي عند الساعة الواحـدة ظهراً، حوالي تسعة أميال فقط من نقطة البداية. يقوم حاجز كثيف ضخم من أشجار التين البري على امتداد الجـانب الآخر للوادي، بينما في المجرى وحوله كـانت هنالك أشجار طلح عديدة من حجم كبير.

بدا لنا أن هذا مـوقع مثـالي لإغفـاءة الظهر ولكن، مـا أن أقمنا في مـواقع مريحة وتحت ظل سـور التين، حتى أخذتني الرعشة والحمى، كـما حدث لي في الحنجور قبل ثلاثة أيام. على أي حال كانت الحمى أكثر خطورة هذه المرة، وظلت

---

(١) حجلا: بعض المصادر توردها (حجلا) وأخرى تكتبهـا (حجلة)، وتقع بين مدينتي أبها وخميس مشيط، وقد تبدل اسمها في الوقت الحالي إلى اسم (مدينة سلطان)، نسبة إلى الأمير سلطان بن عبدالعزيز. (ابن جريس).

الحمى متمكنة مني، ماشياً أو نائماً، حتى الساعة العاشرة مساءً. شعرت بتحسن بعد ذلك، ونمت نوماً عميقاً حتى الساعة الرابعة صباحاً عندما أوقظت لصلاة الفجر.

تجولت بين الصخور، ما بين ذلك الوقت والساعة التاسعة صباحاً، باحثاً عن الطيور ومتفقداً المباني الغريبة التي تكوِّن القرية الصغيرة والمجتمع الفقير من بني مالك، قسم من حلف عسير العظيم[١]. كانت مساكنهم، منتشرة على انفراد بين مساحات لمزارعهم البالية الهزيلة - وجذامية في هذا الوقت التي كانت غريبة كأي شيء لم أر مثله ومعلماً تقدمياً إلى أسلوب جديد في فن العمارة. كان كل مسكن وكأنه برج مراقبة وليس بمنزل - طويلاً جداً بالقياس إلى قطره - اسطواني الشكل وبه -وعلى فترات على طول امتداده- شرائح صخر اردوازي بارزة ومنحدرة قليلاً إلى أسفل، لكي تقي الجدران من الأمطار العنيفة في هذه الأجزاء. أكسبت هذه الشرائح الأبراج مظهراً شرقياً فبدت كأنها الهيكل أو المعبد الصيني. تبدو معظم الأبراج التي تتخللها مساكن عادية ذات مظهر رديء ومدمرة، وتعكس بلا شك فترة مبكرة لا سلام فيها في التاريخ المحلي. حينما كان منزل كل مزارع هو -بالفعل- قلعته للدفاع عن نفسه ضد هذا العدو الغازي[٢].

(١) اسم (عسير) أساساً يطلق فقط على أربع قبائل رئيسة في مدينة أبها وما حولها وهي: ـ بنو مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك. ولكن القوى السياسية التي استوطنت مدينة أبها منذ قرنين من الزمان كانت تتخذ من هذه المدينة مقراً للعاصمة ثم تمد نفوذها في كل الجهات، وأحياناً تتسع وأحياناً تتقلص حسب الأوضاع السياسية، ومع مرور الزمن وتعاقب القوى والإمارات على هذه البلاد منذ أيام الدولة السعودية الأولى، صارت بلاد عسير (كمسمى إداري) تمتد من ظهران الجنوب إلى زهران؛ وفي وقتنا المعاصر تمتد من حدود منطقة نجران شمالاً إلى حدود منطقة الباحة جنوباً. (ابن جريس).

(٢) تكثر في منطقة عسير الأبراج المبنية من الحجارة أو الطين، أو بهما معاً، وتستخدم لأهداف عديدة، منها ما هو عسكري، أو اقتصادي، أو اجتماعي، وللمزيد انظر: غيثان بن جريس. **عسير دراسة تاريخية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية (١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ / ١٦٨٨ ـ ١٩٨٠م)**. (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ص ٥٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وجدت فيما بين الصخور ثعلباً متسللاً، لم أنجح في الإمساك به، ونقشاً عربياً واحداً وقد تآكل جداً، ورسماً بدائياً جداً لجمل. كانت الصخور أيضاً موبوءة بالفئران، التي فشلت في الإمساك بأي واحد منها، بينما كانت السحالي والجرابيع متوافرة، مستمتعة بالشمس الدافئة. كانت الطيور في كثرة بين أشجار وجنبات الوادي، متضمنة طيور اليمام الأخضر التي يسمونها خرود، وصياد ذباب صغير وأخيراً وليس آخراً، الزرزور اللامع الجميل والذي فيه يكون الديك وحده مكسواً بريش كأنه قوس قزح، بينما تكتسي الدجاجة منه ريشاً ذا لون رمادي منقط ومريح.

عبرنا بعد حوالي ميل واحد فيما يلي حجلا، فرعاً ثانياً للوادي، به قرية صغيرة تسمى آل غليظ على الجانب الأيسر، وبعدها واجهتنا تلك البلاد المتموجة، الجرداء، الصخرية نفسها كما سبق. عبرنا - بعد فترة - شعيب لعصان وبه هضبة بالاسم نفسه على بعد نصف ميل داخل بطن الوادي، وهو رافد من روافد حجلا، وعلى الجانب البعيد منه تقابلنا مع مجموعة من رجال الأمير وهم يستقلون إحدى السيارات، وقد أوفدوا لتقصي أحوالنا وما قد يكون قد حدث لنا، حيث إنهم كانوا يتوقعون وصولنا عصر اليوم السابق. لم تعد -من هنا وما يلي- تخفى عن أعيننا علامات سكنى البشر. أولاً كانت قرية بن نعمان على تل منخفضة متعرجة على جانب الطريق، ثم فيما يلي شعيب الشرف وشعيب جوحان كانت قرية آل لفلت، أيضاً بجوار الطريق، ثم القرية الكبرى غير المنتظمة الدارة وبها مبانٍ عديدة شبيهة بالقلاع على هضباتها المبعثرة. كنا قد ارتفعنا عند هذه النقطة إلى (٧٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، كان الإحساس بهواء الجبال وهو يهب علينا عند الحاجز العظيم الذي يعترض طريقنا، منعشًا في صباح هذا اليوم

الصيفي الرابع من يونيو. انحدر الطريق عند المرتفع التالي للأرض بشدة إلى تجويف منخفض حيث توجد قرية أكبر من القرى التي عبرناها وكالعادة، سألت دليلي عن اسمها. فبدا عليه الحيرة فيما يخص أسماء القرى في هذه البلاد غير المألوفة له، وبدا عليه التردد حيناً، ولكن إجابته أدهشتني. إذ قال إنها لا بد أن تكون أبها.

أبها! اسم عظيم في التاريخ العربي، ولكنها أكبر قليلاً من قرية بعد كل هذا كانت في حقيقة الأمر، عبارة عن مجموعة من القرى امتدت إلى بعضها البعض على جوانب ثلاثة من أرض مربعة مجوفة لتكوِّن عاصمة المنطقة(١). كان الجانب الرابع من المربع محفوفاً بالركائز الضخمة للمنزل الحكومي، قلعة قديمة لهذه البلاد المضطربة والذي كان يجدد مراراً ويطوّر بواسطة الحكام المتتابعين(٢). شمخ برجه الأبيض، لامعاً في ضوء الشمس، متوعداً بالسلطة وقوتها لكل من له عين ليرى ويحترم القانون. غير أنه وخلال ثلاثة عقود، فقد شاهد أولئك الذين رأوه علم البرج الرسمي وهو يتغيَّر ثلاث مرات. انتهت فترة الحكم التركي الصعبة في هذه البلاد الهمجية مع الحرب العظمى، ليحل محله الحكم الإدريسي والذي تم إخماده عام ١٩٢٠م بواسطة الحكم السعودي العظيم، والذي نجح وحده في صناعة

(١) للمزيد من التفصيلات عن موقع وتاريخ وحضارة مدينة أبها، انظر: غيثان بن جريس. **أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية)** (الرياض: مطابع الفرزدق التجارية) ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، ص ١٤ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) يطلق على هذه القلعة قصر شدا، وكان في وسط مدينة أبها قصر قديم بني في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي يسمى (شدا)، ثم هدم واستبدل بقصر آخر بناه الشيخ/ عبدالوهاب أبو ملحة (رئيس ماليات الجنوب) ليكون سكناً له، ثم صار مقراً للأمير والإمارة، وأطلق عليه اسم (شدا) أيضاً، وهو القلعة التي يعنيها فيلبي. (ابن جريس).

السلام حيث كان العنف قد نشر جناحيه دون توقف ولقرون عديدة. ينظر العديد مع ذلك، بحنين وشوق للأيام الجميلة السابقة للأتراك، حين كانت يد كل رجل تمتد ضد جاره وكل الرجال كانوا متحدين ضد الحكومة[١]. لم تكن أبها -على ارتفاع (٧٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر عند سفوح جبالها الجبارة- أبداً مركزاً لتلك الفوضى البدائية.

يجري واديا جوحان والدارة، وقد عبرناهما، إلى أسفل ناحية الشمال ليصبا في وادي أبها أسفل البلدة التي تقع على الجانب الأيمن للأخير، وتمتد جزئياً ناحية الوادي. كانت قيادة السيارات سهلة بعد مرورنا بالقرية الأولى (الخشع) من قرى العاصمة لنجد أنفسنا أمام الباب الرئيس لمنزل الحكومة، حيث قابلنا الحاكم بالإنابة بنفسه شخصياً، خالد السديري، وقد كان ينوب في هذا الوقت عن أخيه الأكبر تركي الذي كان غائباً في رحلة طويلة إلى نجد والحجاز[٢]. ظلت عائلة السديري -التي يقع موطنها الأصلي في الغاط في منطقة سدير في شمال طويق، ولعدة أجيال متصلة عن طريق الزواج مع البيت الملكي لابن سعود- يتمتع أعضاؤه بمكانة تنقص قليلاً عن أمراء الأسرة المالكة. احتلت أجنحة خالد الحيوية قسماً من القلعة على جانبها الجنوبي ولم تكن مرفهة بأي حال. أُرشدنا إلى صعود درج مظلم متعرج إلى غرفة ليست بأقل ظلاماً ذات أبعاد صغيرة، ويستخدمها مكتباً لأداء المعاملات الرسمية. كانت جدرانها مزخرفة على نمط أبها، ذات خطوط هندسية بالقلم والحبر، وتصميمات زهرية، وكانت أرضية الغرفة مغطاة بالسجاد. في

---

(١) وهذا مما يدل على فقدان الأمن، وعند مجيء حكومة الملك عبدالعزيز آل سعود، صار الأمن يجد طريقه في البلاد حتى أصبح جميع الناس آمنين مطمئنين في أوطانهم. (ابن جريس).

(٢) تركي بن أحمد السديري تولى إمارة منطقة عسير من عام (١٣٥٣ ــ ١٣٧١هـ)، انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، لابن جريس، ص٦٠ (ابن جريس).

إحدى الزوايا توجد مكتبة عادية وعليها أوراق مبعثرة من فوقها وعلى أرفف متدلية من الجدار. يوجد جو من القذارة والفوضى في هذه الغرفة، لا تتناسب مع مكانة ووقار مضيفنا الشاب، الذي لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين.

لم تترك لنا مودته وكرمه، على أي حال، شـيئاً كنا نتمناه، وبعد الحديث مع دورات أكواب الشـاي والقهوة العادية، أعلن لنا عن الغـداء، وتحركنا جميـعاً إلى الطابق السفلي عبر الـساحة المركزية إلى درج من مجموعـة متواصلة من الدرجات قادتنا إلى غـرفة الطعام -وهي غرفة مـتوسطة الحجم وبسيطة جـداً. وضع أمامنا الطعام الثري في أصحن كبـيرة تستقر على مقاعد معدنيـة كان المضيفان على رأس الطاولة- بالطبع كـان الطعـام كله على الأرض- أكـبـر الأطباق وأطولـها كـانت مخصـصة للأمير وضيـوفه الخاصين. وجلس إلى جانب فرقـتي كل تابعي الأمير والعديد مـن موظفي الحكومـة إلى جانب زوار خاصين، كـانوا في القلعـة بصدد بعض الأعمـال، جلسنا للطعام الذي اشـتمل في الأساس عـلى أرز مطبوخ ولحم ضأن إلى جانب المشهيات الأخـرى (إدام) في صحون منفصلة أو أطباق، وبالطبع الخبز، والخبز المحلي من أجود دقيق القـمح المعد في قوالب متطاولة يصل سمكها إلى نصف بوصة.

من سمات الكرم العربي أن الضيف المسافر المرهق يجب الترفيه عنه منذ لحظة وصوله إلى حين إطعـامه - وتكون الفـترة أحيـاناً طويلة. كانت الفـترة هذه المرة قصيرة نسـبياً وكنا غير مقيـدين بعد تناول الغداء لنذهب إلى المنزل في حي مناظر الذي خصص لسكنانا أثناء إقامتنا في أبها. لم يكن قصراً غير أنه كان منزلاً مريحاً بما فـيه الكفـاية، يملكه أناس بسطاء عـاديون ظلوا - رجل وزوجتـه- في الطابق الأرضي تاركين الطابقين العلويين لنا. قمت بحـجز الشقة العليا، كاملة بحـجمها

ووسائل الراحة الأخرى- لي ولعفشي الضخم، بينما شغل رفاقي الطابق السفلي، يقضي سعد، حينما لا أحتاج له، كل الوقت مع شقيقته التي كانت تعيش معه في سكني في الطائف في صيف عام ١٩٣٤م، قد خطبت الآن وتزوجت أحد الخدّام التابعين للمجلس الملكي وقد تم نقل الزوج أخيراً إلى أبها مع موكب الأمير تركي السديري وكان قد أحضر زوجته معه.

لقد دعيت إلى وجبة -حسب التقاليد- في إحدى المناسبات أثناء إقامتنا في أبها، واعترافاً بالكرم الذي كان في أسلوب تقليدي، فقد أرسلت إلى مضيفتي التي لم أرها جنيها إنجليزياً ذهبياً.

كان انعزالها، بالمناسبة، مفروضاً عليها بعادتها النجدية وليس بالمستويات السائدة في أبها، حيث تتحرك النساء، كل النساء عدا الطبقات العليا، بحرية، تقريباً، وغير محجبات يرتدين السمق الجذاب مع حزام. كانت المرأة العاملة في منزلنا تحضر مراراً إلى شقتي لتنظيفها وترتيبها، وكانت في مثل هذه المناسبات، تتخلف لتجاذبني الحديث في أمور عالمها الصغير، وتسألني عن هدف علم الطيور وعن مطاردتي للحشرات وعن ملاحظاتي للنجوم وهكذا. كان إدماني لهذه الأشياء حديثاً شائعاً محلياً، وأكسبني العديد من الزوار، بعضهم يتمنى -بلا شك- أن أكون قد أحضرت معي الدواء الشافي لكل الأمراض، والتي كان سببها الرئيس هو فقرهم المدقع.

يعزى ذلك لحقيقة أن المغادرة النهائية للأتراك عام ١٩١٨م لحقتها ثلاث سنوات من حروب محلية، نتج عنها الدمار المتعمد لبساتين الفاكهة في أبها وما جاورها من قرى وأيضاً للمباني في العاصمة، بدأت أسمع القصة الكاملة للتاريخ

الحديث لأبها مساء يوم وصولي، حينما صحبت الأمير في إحدى نزهاته العادية إلى مشيع إحدى القرى الصغيرة للدارة، حيث اجتمعنا على منصة في الهواء الطلق مواجهة لغروب الشمس، ذلك بعد أن فحصت الممشى الذي يربط الحديقة الفقيرة مع المنزل، الذي يسمى بيت المصري، ربما كان هذا أحد موظفي النظام التركي من الذين كانوا يرغبون في الحياة خارج البلدة. وجهنا السيارة، حين عودتنا إلى أبها، ناحية ساحة كبيرة مكشوفة، وراء القلعة، مزينة ببعض الأشجار ذات الحجم الجيد ومعدة لأن تشغلها الحامية العسكرية المحلية الوهابية الذين يعيشون معظم الوقت تحت الخيام. استدعى الأمير أحد الأعيان المحليين، واسمه أحمد بن هليل، ليقدمني له، وجلسنا إلى وقت متأخر من المساء نتحادث حول أبها ومغامراتها. وجدت أحمد سريع الاستجابة للحديث. جدير بالاحترام، حقيقة، وواسع المعرفة، مع خبرة شخصية بالصعود والنزول لنمط الحياة في هذا الجزء من العالم. ولد في أبها، كما ولد فيها والده، غير أن أسرته ليست من مواطني المكان، لأن جده، من أصل عنزي فقد جاء من دمشق ليستقر هنا عند منتصف القرن الماضي في تلك الأيام التي كانت فيه هذه المرتفعات جزءاً من الدولة السعودية الثانية للعظيم فيصل بن سعود[1].

كان الملك هو الذي منح أسرة آل عائض المحلية الرئاسة بالوراثة على قبائل مرتفعات عسير، وكانوا هم حكام البلاد حينما أبدى الأتراك اهتمامهم وللمرة الثانية بساحل البحر الأحمر للجزيرة العربية وأراضيها الداخلية، وذلك بعد وفاة فيصل وافتتاح قناة السويس بعد أربع سنوات لاحقة (١٨٦٩م). كان احتلالهم للمرتفعات قد تم عام ١٨٧٢م كجزء من المخطط الاستعماري الكبير للوزير

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله. (ابن جريس).

الأعظم، مدحت باشا. ظل الأتراك منذ ذلك الوقت وحتى نهاية الحرب العظمى في احتلالهم مع حامية عسكرية، مكونة غالباً من (١٥) كتيبة، غير أنهم على الرغم من بنائهم لقلاع جيدة الموقع وأبراج المراقبة، في شكل حزام حلقي حول أبها[1]، فإنهم لم يستمتعوا أبداً بسلام حقيقي أو أمان.

كانت القبائل دائماً متمردة وقامت بثورة كبيرة عام ١٩١١م حاصرت فيها قوات الحكومة في أبها لعدة شهور وجعلت من الضرورة إرسال حملة نجدة من الحجاز تحت القيادة الاسمية لشريف مكة -قدّر لنفسه أن يثور ضد القوة المتسلطة وليدخل التاريخ لفترة وجيزة تحت اسم الملك حسين ملك الحجاز-، الذي كان يرافقه في هذه المغامرة ابناه الشابان، عبدالله وفيصل، مستمتعين بتجربتهم الأولى للحرب.

كان الرئيس الإدريسي، محمد، من أبناء صبيا هو الذي وضع نفسه على رأس الثورة القبلية، وأنه هو الذي دخل إلى الجبال عند دروب غير معروفة متحاشياً درب الأتراك عن طريق شعار إلى السودة ومعه قواته وحشودها تندفع أسفل الطريق تجاه أبها، وانتصارهم على قوة تركية مهاجمة عند غاوة وإجبارهم الأتراك للحصول على الحماية من خلف تحصيناتهم. تمكن جيش الشريف من

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن القلاع والتحصينات التي عملها الأتراك في أبها وما حولها من بلاد عسير، انظر: عبدالمنعم عبدالعزيز رسلان. (بعض استحكامات منطقة عسير الحربية في العهد العثماني). **مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي بجامعة أم القرى**. س (٥) عدد (٥) (١٤٢٠هـ / ١٩٨٢م) ص ٣٧٩ ـ ٤٢٨ . وللمزيد أيضاً: انظر دراسة علمية جيدة تحت عنوان:ـ **تحصينات أبها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (دراسة حضارية)**. رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة، إعداد/ . محفوظ بن سعيد بن مسفر الزهراني (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م)، ص ٢٥ وما بعدها. (ابن جريس).

أتراك وعرب -بعد مواجهته للعديد من المصاعب في الطريق- أن يشتت المتمردين وأن يخلص الحامية التركية، ولكن في هذه الأثناء، كانت قبائل قوز بالعير في جبال تهامة قد ثارت من ورائهم، وأن حملة النجدة بعد فشلها عادت إلى مكة عن طريق خميس مشيط وبيشة[(١)].

ظل شيوخ آل عايض، كما يبدو، مخلصين للأتراك خلال هذا الحدث، ولربما قاموا بدور مهم في المعاهدة المشكوك فيها للقبائل التي تضمن نجدة أبها. كما ظلوا مخلصين للولاء نفسه أثناء الحرب العظمى، وتركتهم المغادرة النهائية للأتراك وهم ذوو سيطرة عليا، برغم أنهم الآن يواجهون تحدي الإدريسي، والذي اعتُرف له بسلطتة على عسير أثناء الحرب، بواسطة البريطانيين.

استمتع الإدريسي بالتعاون النشط لقبائل رفيدة (قحطان) في الجبال إلى جنوب شرق أبها وقبائل رجال ألمع في جبال تهامة ناحية الجنوب الغربي[(٢)]. وحققت قواته القوية والجيدة العدة والعتاد نسبياً، تقدماً معقولاً أول الأمر في نقل سلاح مدفعيتهم تجاه أبها نفسها. وطلب شقيقا عائض، حسن ومحمد، بيأس، من ابن سعود أن يتعاون معهما لطرد الغزاة من بلادهم، وحضر عبدالعزيز بن

---

(١) وللاطلاع عن حصار الإدريسي لمدينة أبها بهدف السيطرة عليها، ثم إرسال المدد من مكة المكرمة لإنقاذ أبها من السقوط في يد الإدريسي، انظر: **مذكرات سليمان شفيق باشا**، ص ٣٦ ــ ٨٧ ، حنان سليمان الملكاوي. **العلاقات بين أمراء الأدارسه في عسير وأشراف مكة (١٩٠٨ / ١٩٢٥م)**. منشورات لجنة تاريخ الأردن، سلسلة البحوث والدراسات المتخصصة رقم (١٢) (عمان، ١٤١٧ / ١٩٩٧م)، ص ٣٨ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن قبائل منطقة عسير في الأجزاء الجبلية والتهامية، انظر: هاشم بن سعيد النعمي. **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**. (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م) ص ٦٨ ــ ١٠٥ . (ابن جريس).

مساعـد، من أبناء عمومة الملك، ومعـه قوة سعودية عام ١٩١٩م. وقـد تغير المد وهزمت قوات الإدريسي آخر الأمر وطردوا إلى الخلف، إلى السهول[١].

فكر أشقاء عايض الآن في نقل الحـرب إلى أرض العدو وتحدثوا عن احتلال صبـيا، وأبي عـريش وغيـرهما من مـراكز الإدريسي في سـهل تهامـة، وهنا لم يعتمدوا على ضيفهم. لقد جاء السعوديون، حـقيقة لمساعدتهم، استجابة لرجائهم المساعدة، غـير أنهم جاؤوا أيضاً ليبقـوا. كان جيش أبها جاهزاً لحملة تـهامة عام ١٩٢٠م، حينما تلقى حسن بن عايض الأخبار بتحـرك جيش سعودي كبير بقيادة الأمير فيصل[٢]، الذي كان عمره آنذاك (١٥) سنة فقط، قـادماً مؤخراً من رحلته إلى أوروبا، والذي جـاء مـعـه المهـيب خـالد بن لؤي من أبناء الخـرمـة. وصل السعوديون إلى خميس مشيط، حيث قوبلوا بحرارة. أدار حسن جيشه وتحرك إلى الأمام بثقة لمقـابلة الأصدقاء القدماء الذين أصبحوا الآن أعـداء. دمرت قوات أبها في حجلا، وعبر البلاد وتقدموا فيها حـتى تم لهم فتحها . انتشر السعوديون فوق كل البـلاد ووصلوا حتى مـحايـل على الطريق الرئيس النازل إلى القنفـذة. هكذا لقنت القبائل المتمردة لعسير درساً قاسياً في سبيل السلام.

تم إخضاع حسن ومحـمد، شقيقي عائض، ومعهمـا أحمد بن هليل نفسه، وقد ردوا جـميـعاً على كـعوبهم، وروى لـنا ابن هليل قصـة نقلهم إلى الرياض

---

(١) الصحيح هو أن حملة الأمير عبد العزيز بن مساعد جاءت إلي المنطقة عام ١٣٣٨هـ، لتوحيدها ولرفض حسن بن عـائض الوسائل السلميـة، ونتج عن الحملة هزيمة ابن عائض في مـعركة حـجلا، وتمكن ابن مساعد من دخول أبها، واستسلم ابن عائض وابن عمه وأعلنا مبايعتهما للدولة. انظر: العثيمين، **تاريخ المملكة**، حـ٢، ص١٧٧ .(ابن جريس).

(٢) الصحيح هو عام (١٣٤٠هـ / ١٩٢١م) عندمـا وصل الأمير فيصل بحملته إلى عسـير لإخضاع تمرد آل عائض وإعـادة السلطة إلى المنطقة،للمـزيد انظر: العثـيمين. **تاريخ المملكة** ، حـ٢، ص ١٧٨ . (ابن جريس).

ليكونوا «ضيوفاً» على الملك، وليتلقوا دروساً، بالمناسبة في التاريخ السابق لبلادهم كجزء لا ينفصل عن الدولة السعودية السابقة حتى دخول الأتراك لإفساد رؤسائها بالإعانات المالية والأوسمة. فمكثوا في الرياض مدة سبعة أشهر، بعدها سمح لهم بالعودة إلى أبها كمواطنين عاديين، بعد وعدهم الجاد بالسلوك الطيب في المستقبل، برفقة قافلة أول حاكم مدني نظامي من أبناء الشويش[1] من الرياض، وأحد تابعي الملك.

لقد أمر الحاكم الجديد أن يلطف العنف بالرحمة وكانت احتكاكات شقيقي عائض وتجاربهما الجديدة بالرفق بعد الدروس القاسية في الماضي القريب، ذات أثر سيء عليهما، علماً بأن صديقي أحمد بن هليل، انسحب عن التمرد المتوقع، وذهب بعيداً إلى حين أن تنتهي العاصفة. لم تكن نهايتها بعيدة. تم القضاء على التحرك الأول فوراً وبقسوة أكبر.

وتم إبعاد كل أعضاء أسرة آل عائض الرئيسيين إلى الرياض أو إلى جهات أخرى، ومنذ ذلك الوقت لم يسمح لهم بالعودة مطلقاً. رأى أحمد نفسه أنه من الحكمة أن يبقى بعيداً إلى حين، وفكر في أن يجد وظيفة في الخدمة المدنية السعودية. شغل عدداً من الوظائف لعدد من السنوات في مصلحة المالية في القنفذة ومواقع أخرى في تهامة، وقام بإمداد الملح الصخري في عام ١٩٢٥م أثناء حصار جدة، للقوات المحاصرة، الملح الذي تم الحصول عليه من بعض الأودية

---

(١) الاسم الصحيح هو: شويش بن ضويحي، تولى إمارة عسير حوالي (١١) شهراً عام (١٣٣٨ ـ ١٣٣٩هـ). انظر: ابن جريس. **أبها حاضرة عسير**، ص ٦٠ . وعن أوضاع المؤسسات الإدارية في منطقة عسير خلال عصر الملك عبدالعزيز، انظر أيضاً: **كتاب عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، لابن جريس، ص ٢٧ ـ ٨٧ . (ابن جريس).

المنسابة من الجبال إلى السهل الغربي، ويوجد الملح أيضاً في أبها. تم إنشاء وصاية وسعودية عام ١٩٢٦م على إقليم الإدريسي، والتي ألحقت عام ١٩٣٠م بالنظام الإداري العام لحكومة ابن سعود، وقد تمت دعوة الإدريسي نفسه وأسرته إلى الإقامة في مكة، بعيداً عن كل الإغراءات غير المناسبة.

انتهت عملية إخضاع مرتفعات ومنخفضات عسير الآن، وأمكن لأحمد أن يعود إلى حياته الخاصة والعودة إلى أبها، حيث عاش منذ ذلك، مواطناً محترماً ومخلصاً، سعيداً بما فيه الكفاية، بلا مسؤوليات وظيفية تثقل كاهله. فبنى لنفسه منزلاً جديداً في حي القرى وأحاط المنزل بحديقة واسعة، وكان يمتع نفسه بالترفيه والترحيب بالزوار بكرم شديد، ويتحدث عن تجارب حياة مملوءة بالأحداث. كانت حديقته تروى بواسطة نهر جارٍ طوال السنة من نبع مجاور قام بتوصيله بماسورة معدنية إلى بئر في الحديقة لتدعيم الإمدادات المائية. كان يبدو فخوراً بمقدرته على الزراعة وكان مولعاً بالأزهار التي كانت في هذا الوقت تغطي مساحات كبيرة وهي أزهار من الزينا، وجينداس، والزعتر المزهر، وبعض شجيرات الورد إلى جانب المتسلقات مثل اللوبيا القرمزية وأخيراً وليس آخراً، شجرة توت كبيرة نجت من محرقة الوهابين وأنتجت ثمارها بالتطعيم -كانت عقدة التطعيم واضحة في منتصف الساق- فأعطت ثماراً قرمزية بدلاً من الثمار البيضاء. كانت لديه أشجار فاكهة أخرى، ولكنها كانت لا تزال في مرحلة التجربة. كما عرض عليَّ في اسطبل في إحدى زوايا الحديقة، فرساً أبيض جميلاً أحضره -كما قال- من بلاد تثليث، غير أنه يبدو لي من الطراز النجدي الأصيل. وكان قد اشتراه حديثاً، لابنه، سيف -إنسان عينه- وهو صبي في السادسة عشرة من عمره، وفي كل سماته شاب جذاب وذكي.

كانت العادة هنـا، كما في خميس مـشيط، أن يحتفى بالضـيف فور وصوله بإشعال مـجمرة النار وبها البخـور لتعطير الحجـرة. أول تجاربي لذلك، كانت في منزل أحمـد، وقد أشرفت امرأة بوضع المجـمرة مع كلمة تحيـة «أرحبو» (مرحـباً بكم)[١]. يشـرح أحـمد لي ذلك، ربما اسـتجابة لدهشـتي التي لم أعـبر عنهـا بالكلمات، بأن هذه هي العادة في هذه البلاد ذلك أن تقوم النساء بخدمة الضيوف وتحيتـهم. إنهن بكل تأكيد، أكثـر حرية من نساء نجد، حـيث لا يمكن أن يحدث مثل هذا. كان بـعض النسوة، وتقريباً كل النسـوة اللائي يقمن برعي الأغنام على جوانب التـلال، أو يعملن في الحـقول، كن يرتدين قبـعة عـريضة من القش[٢]. وترتدي كل النسـوة هذه القبـعات في المحـافظات أعلى الجبـال، وكذلك مـعظم الرجال حـينما يـعملون تحت الشـمس. أدركوا أن الشـمس أكثر حـرارة في هذه الأجزاء منهـا في الحجاز، إلى الشـمال، غيـر أن درجة الحرارة فـي الظل في أبها كانت تبدو، بصفة عامة، منخفضة جداً. كانت الدرجة القصوى هذه الأيام (٧٥) درجة في المتوسط، وكـانت السفلى حوالي أقل بعشـر درجات بصفة عامـة، غير أنها في إحدى الليالي تدنت إلى (٥٤) درجة.

لعل قلعة أبهـا ضاربة في القدم، وبرغم أنها قـد قاست تقلبات مخـتلفة من حصـار ومن تدمـير جـزئي عبـر العصـور، فإن الفـحص المتأني قـد يكشف عن

(١) أرحبو، كلمة اشتـهرت حتى اليوم عند سكان منطقة عسير، وأحيـاناً يقولون: ـ «مرحباً ألف»، وهناك عبارات مشابهه في مناطق جازان، ونجران، والباحة، والطائف، مع اختلاف بسيط في حروف الكلمات، فهناك من يقول: «مرحباً ألوف» أي بالآلاف، أو «مرحباً تراحيب السيل» أي المطر، وغيرها من العبارات واللهجات المتنوعة. والحقيقة أن اللهجات في جنوبي البـلاد السعودية بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية جادة حبذا لو تصدى لها بعض الباحثين. (ابن جريس).

(٢) وتسمى هذه القـبعـة عند أهل البلاد بـ (الطفـشة) وأحيـاناً بـ (المظلة) وهي مصنوعـة من الخوص. (ابن جريس).

إسهامات فترات عديدة مختلفة. يعود تاريخ الجزء الجنوبي مثلاً -للمبنى الذي يحتله الأمير خالد- إلى زمن بعيد، وذلك لأن مثل هذه الغرف المظلمة، لا يمكن أن تبنى في هذه الأيام المتطورة. لم يستثن السعوديون، حين هجومهم على أبها، القلعة، والبناء القائم اليوم والمثير للإعجاب، إلى جانب أنه احتوى على كل التراكيب القديمة التي قاومت، قد تم بناؤه خلال الخمسة عشر عاماً التي سبقت زيارتي، بينما لا يزيد عمر البرج العظيم الأبيض عن (٣) أو (٤) سنوات. تقع الحديقة الحكومية خلف القلعة عند الزاوية الجنوبية الغربية، محتوية على بعض الأشجار الكبيرة ولا شيء آخر إلا القليل.

لقد ذكرت سابقاً، قرية الخشع الصغيرة التي تقع على الجانب الشرقي للقلعة. يتفرع الطريق، قبل الوصول إلى هذه القرية، تجاه اليسار وتجاه اليمين ومن حول المنازل والقلعة والحديقة ليتحد فرعاه مرة أخرى على الجانب الغربي للحديقة ثم يستمر تجاه الجنوب الغربي بين المعسكر الحربي وقرية القرى (إلى الغرب من الحديقة) ثم أعلى الوادي – وادي أبها.

على الجانب الآخر من الوادي وإلى الغرب من قرا تقع القرية الصغيرة الطفيفه المفتاحة ومزارع فاكهتها عند المنحنى الحاد للنهر. تقع قرية القابل على الجانب نفسه للوادي (الجانب الأيسر) حيث يلتف الوادي من الشمال إلى الشمال الشرقي، والتي تتصل مع الجانب الآخر عن طريق جسر بناه الأتراك ليحمل الطريق الرئيس من أبها إلى كل من السودة وشعار. يمر هذا الطريق على الجانب الغربي للقرية الكبيرة بن نعمان وعلى جانبها الآخر مبانٍ مبعثرة ليست بذات أهمية. يلف الطريق حول أرض الاستعراض عند جانبها الجنوبي بين القرى وحديقة الحكومة، والطرف الجنوبي لصف من المتاجر مكوناً جانباً واحداً من محل

السوق، ليصل إلى القلعة، والتي في مقابلها -وعبر محل السوق- توجد أكبر قرى أبها واسمها مناظر وعلى جانبها الشرقي قرية صغيرة يفصلها عنها مساحة مكشوفة ضيقة. تكتمل مجموعة أبها -أخيراً- بقرية النصب الصغيرة الواقعة إلى الشمال من بن نعمان على الجانب الأيمن للوادي حيث ينحني الوادي مرة أخرى ليكون مجراه الشمالي الشرقي إلى الشمال[١].

كانت المباني من اللبن وذات طابقين في معظمها، غير أن بعضها كان من طوابق ثلاثة، وأساسها كلها حجري ومظهرها بسيط إلا من تلك الصفوف من ألواح الصخر الأردوازي التي تبرز من الجدران الطينية لتحمل مياه الأمطار بعيداً عن الجدار، أو ربما لتمنعها من أن تسيل فتصل إلى الأساس. كان أدنى هذه الشرائح موضوعاً عند منتصف ارتفاع البناء وبعد ذلك، تتتابع على مسافات من (١٨) بوصة إلى القمة. يبرز شكل الهيكل الصيني للبناء بوضوح خاصة حينما يبرز تجمع من منازل، مكوناً قرية وتبرز هذه الشرائح إلى الخارج في اتجاه المشاهد، إلى جانب أن المنازل نفسها قد شيدت فوق هضبات والتي ترفع المباني الداخلية إلى مستوى أعلى من تلك التي على الحافة. لقد انطبع في ذهني دائماً، هناك في خميس مشيط وهنا في أبها، ومن كل الجهات، أنه ومنذ قيام الحكم السعودي، فإن الازدهار، مع السلام، كان يعود في بطء إلى كل هذه البلاد، غير أن انطباعي العام عن الناس في هذا الوقت، أنهم كانوا فقراء لدرجة البؤس، وتقف كل مزارعهم مهجورة، وفقط بقيت مزارع الذرة الشامي تمدهم بما يفي بالبقاء في نطاق

---

(١) وعن أحياء وقرى وضواحي مدينة أبها خلال القرون الماضية انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، لابن جريس، ص ١٧ ــ ٤٨ . (ابن جريس).

متواضع. كان للمكان -رغم كل ذلك- كبرياء خاص به -شخصية حقيقية- وقد يتمادى المرء فيقول انفرادية مؤكدة. لم أر مطلقاً مكاناً آخر مثل أبها[١].

يعد وجود أحد الضيوف في أوساطهم، أحد الأعذار في المجتمعات العربية لإعداد سلسلة من الاحتفالات، تكون عادة على شرف الحاكم المحلي - ممثل الملك. لم تكن أبها شاذة عن القاعدة، غير أنني في يوم وصولي إلى هنا، هاجمتني الحمى، التي يبدو أنها ذات دورات كل (٤٨) ساعة، وظللت طريح الفراش لم أر أحداً ولم أقم بعمل أي شيء.

خرج الأمير ومعه عبدالوهاب في اليوم التالي يصحبهما الفوج الكبير المعتاد من موظفين وأعيان وشيوخ القبائل، لقضاء اليوم مع سعيد بن مشيط في ذهبان. لقد قدمت لي الدعوة ولكنني اعتذرت لأمضي اليوم بهدوء لكي أتعافى من الحمى ومن متاعب السفر وأيضاً لحزم عينات التاريخ الطبيعي، استعداداً لإرسالها إذا توافرت أي سيارة متجهة إلى مكة أو جدة، لنقلها آخر المطاف إلى المتحف البريطاني. يمكن لليوم الجميل في هذه الأيام أن يمتلئ بالسحب سريعاً بعد منتصف النهار، وتظل السماء مملوءة بالسحب، بصفة عامة، حتى الغروب، حينها يصفو الجو ويكشف عن سماء صافية مرصعة بضوء النجوم.

---

(١) لم يكن فيلبي هو الوحيد الذي أُعجب بمدينة أبها، وإنما عُشاقها والمعجبون بها كثير، ناهيك عن أنها عروس الجنوب، فهي المصيف الأول في المنطقة الجنوبية. ومن يشاهد المصطافين الذي يفدون إليها كل صيف يجدهم يُعدون بالآلآف، ولكن لا زالت تحتاج إلى كثير من التنمية والتطوير كي تصبح مدينة اصطياف عالمية. للمزيد انظر: غثيان بن جريس. (أبها مدينة المستقبل، مقترحات ووجهات نظر) **بحث منشور في مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي**، عدد (٣٥) (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ص ١٣ ــ ٣٤، كما أعيد نشره في كتاب: ــ **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر**، ص ١٥ ــ ٣٥ (ابن جريس).

استقبلتنا قطرات قليلة من المطر في اليوم الرابع وكان هنالك مطر غزير في اليوم السابق لقدومي. كان خط العرض هنا (١٨,٥) درجة شمال، ولعلنا كنا داخل الحدود الشمالية للرياح الموسمية، كان معي جهاز اللاسلكي الخاص بي، الذي استمع عن طريقه للأخبار وإشارات الوقت -عادة من الإذاعة البريطانية أو القدس- وذلك لأجل تحديد أوقات ملاحظاتي للنجوم، غير أنه يوجد في أبها (في القلعة) جهاز لاسلكي للإرسال والاستقبال لغرض أعمال التلغراف ومعظمها على حساب الحكومة. كان الجهاز من طراز ماركوني القديم، وهو أول جهاز اشترته الحكومة السعودية للاستعمال في القنفذة عام ١٩٢٦م، وقد أرسل حديثاً إلى أبها حيث صنعوا له برج أسلاك عالياً ليحمل هوائيه. ما يهم هنا، أنه لا يزال يعمل.

لقد تم منح أبها، - على عكس بيشة، دعك عن رنية والخرمة- أسطولاً صغيراً من سيارات رسمية نزولاً لمكانتها المحلية والمرتبة الاجتماعية لحاكمها.

كان أكثر الأمور أهمية ذلك الجهد الذي بذلته الحكومة لتأمين خدمات طبية متواضعة. يوجد في أبها «مستشفى» يرأسه طبيب هندي يدعى. دكتور عبدالحميد[١]. لم يكن المبنى حقيقة مستشفى بل أكثر منه صيدلية من أكثر الأنواع بدائية، عارضة صورة حزينة للحضارة في غرفة منفردة، صغيرة، في الطابق الأرضي مقسمة إلى أجزاء بواسطة الستائر، خالية من الأثاث إلاَّ من علب القاز عبوة أربعة جوالين فارغة وضعت إلى جوار بعضها البعض لتكوِّن طاولة من نوع ما، وعلب مماثلة رتبت الواحدة فوق الأخرى في صفوف لتكون أرففاً توضع فيها

---

(١) يذكر أحد الرواة:ـ أنه كان يوجد في أبها في الخمسينيات بعض الأطباء الهنود، ثم أصبح الأطباء السوريون هم الأكثر خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الهجري الماضي. لمزيد من التفاصيل، انظر: كتاب: ـ **أبها حاضرة عسير**، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٩ . (ابن جريس).

قارورات الدواء وما شابه ذلك. امتدت مسؤوليات عبدالحميد إلى نجران في الجنوب وإلى تهامة في الغرب. كان رجلاً لطيفاً، صغيراً، مسرفاً في التعبير عن عاطفته وزائد القلق لإرضائه. كان لا يزال في مرتبة أدنى في مهنته والتي كان فخوراً بها وكذلك في مكانته كرجل متعلم. يتحدث الإنجليزية بطلاقة ومعه هنا، في المنفى، زوجة هندية من ترنداد، من دون كل أماكن العالم، وابنة صغيرة وقد بدأت تتكلم الإنجليزية بتلعثم. يبدوا أنه استطاع أن يتعامل بصورة جيدة مع العرب هنا، مسؤولين ومرضى، ولكنه يميل إلى أن يرى نفسه مميزاً عنهم، ولذا فهو يرتدي بنطالاً أبيض وقلنسوة مستديرة مسطحة سوداء[(١)].

كان اهتمامه الرئيس، إلى جانب عمله وأسرته، في الحياة هو آثار العصور القديمة، وحينما زرته بعد الظهر حينما كان الأمير غائباً في خميس مشيط، كان قد عاد لتوه من حملة آثارية إلى مشيع. التي كنت قد زرتها مع الأمير عصر أول يوم وصلت فيه إلى أبها. كان هنالك لينسخ بعض الرسوم الصخرية، وقد قادني بعد أيام قليلة إلى ذلك الموقع. وقفت منازل قليلة عبر الوادي من عند مشيع وهي منازل من النوع الأفقر وبها حدائق متواضعة في وسط قطعة أرض لزراعة الذرة الصفراء، والتي توجد بالقرب منها سلسلة من جلاميد جرانيتية عظيمة بعضها

---

(١) وعن وضع الأحوال الصحية أثناء زيارة فيلبي لمنطقة عسير، انظر: غثيان بن جريس. «ملامح التطور الصحي في جنوبي المملكة العربية السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجرى (العشرين الميلادي)». **بحث منشور في مجلة بيادر الصادرة عن نادي أبها الأدبي**. عدد (٣٣) جمادي الأولى (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) ص ٥١ ــ ٨٣ . ثم أعيد نشر هذه الدراسة في كتاب. **بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر**. ص ٧٧ ــ ١٠٨ . (ابن جريس).

يحمل نقـوشاً لرسوم بدائية تمثـل حيوانات. كان من بين هذه الرسـوم شكل أسد يبدو وكأنه يطأ وعْلاً بقوة، ورسماً لرجل وقـد امتدت ذراعاه، ورسماً لمارية وعدد من الوعول. توجد أيضاً أحجار جرانيتية ضخـمة تم تجويفها إما طبيعياً أو بواسطة الإنسان، لتكوِّن حـماماً واسعـاً أو وعاءً كبيـراً، وبجوارها توجد ثلاثة جلامـيد، الواحد فوق الآخر، كأنها نصب تذكاري، غير أنه من المستحيل القطع إن كان هذا ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ وضعه الإنسان أو كان فلتة طبيعية. كانت نزهتنا مريحـة جداً وعدنا بعـدها عند حلول الظلام تحت سمـاء مرصعـة بالنجوم، عن طريق مبـاشر، يعبـر الوادي (أبها) عند مـوقع كان جانبـاه على ارتفاع (٣٠) إلى (٤٠) قدمـاً، مع طين ندي سُمكه ١٥ قدمـاً كأنه كتلة مشكلـة ملتصقة في غـير تماسك شبيه بحلوى المهلبية. تكون صخور الوادي في مواقع أخرى، كما في قرية النصب صخوراً جرداء. أخبرني عبدالحـميد عن مكان آخر بالقرب من أبها يسمى ذو القـرنين، والذي لم أسـتطع زيارته، بأنه يحـتوي على نـقوش وعلى حـوض حجري. وأخبرتُ لاحقاً أنه يقع بـالقرب من قرية بن نعمان التي مررنا من عندها في طريقنا إلى خميس مشيط.

قمت بزيارة الأمير في الصباح بعد عودته من خـميس مشيط، وكانت غرفته مزدحمـة بالزوار الذين أبدوا اهتماماً كـبيراً بشخصي وبنشـاطاتي وكانوا ودودين. كـان من ضـمن أولئك الذي حـضـروا، في زيارتي الأولى، علي بن حـسين بن هيف، شيخ رفـيدة، الذي كان في العاصـمة لأداء بعض الأعمال وكـان عليه أن يعود إلى جباله[1] في اليوم نفسه. لقد حاول مرتين مقابلتي عصر ذلك اليوم، مع

(١) يقصد بـ (جباله) أي بلاد رفيدة قحطان التي تقع إلى الجنوب من خميس مشيط بحوالي (٢٠) كم. (ابن جريس).

ذلك، كلاهما للأسف بلا نجاح، ذلك لأنني كنت بالخارج، عصر ذلك اليوم، ولدي اعتقاد أنه يرغب في دعوتي لزيارة بلاده. كنت آسفاً ألاَّ أجد الفرصة للتحدث معه، ذلك لأن جبال رفيدة ستبعدني بعيداً إلى خارج مساري. كان هنالك من الناس من يطلبني من نجران، في تلك الأيام، حيث استطعت مقابلة العديد منهم في وقت لاحق. كان ذلك الشخص هو حمد بن حسين بن نصيب، الشقيق الأصغر لجابر، الشيخ الرئيس لمجموعة المواجد التابعة لمذكر يام. كان القسم الآخر لمذكر، كما قالي لي، هو آل فاطمة وشيخهم جابر أبو ساق. يتكون اتحاد يام من مذكر وشام (جشام)، ويرأس الأخير سلطان بن منيف[1]. كان حمد هنا في طريقه إلى مكة وغادر بالفعل على ظهر شاحنة بعد أيام متجهاً إلى هناك، غير أن الشاحنة كانت تحمل فوق طاقتها (٢١) راكباً وكتلاً من العفش مما دعا حمد وخادميه لترك المحاولة في خميس مشيط والعودة إلى أبها. نظراً لمعرفته باهتمامي بالآثار القديمة. قيل لي إن أمين المستودع بمصلحة المالية له علم أيضاً بهذه الأشياء، غير أن هذا الرجل واسمه لاحق، كان فيما يبدو، غائباً أثناء زيارتي.

نعود من هذا الاستطراد إلى موضوع الاحتفالات، دعيت ذات مرة إلى العشاء عند ابن ضاوي، أحد الموظفين الرئيسيين للقسم المالي المحلي، والذي دعا الأمير لتشريف حفلة الانتقال إلى قصره الجديد بمناسبة الانتهاء من بنائه ليسكنه هو، وكان المنزل على طرف قرية بن نعمان. اجتمعت فرقة كبيرة حول عشاء ممتاز

(١) لمزيد من التوضيحات عن قبائل نجران، وعن بلاد نجران بشكل عام، انظر: غيثان بن جريس. **نجران دراسة تاريخية حضارية ق١ ـ ق٤ هـ / ق٧ ـ ق١٠م** (الرياض: العبيكان، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م) الجزء الأول، ص ١٨٨ ـ ١٩٦ عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة وحضرموت**. (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) ص ١٢١ وما بعدها. (ابن جريس).

وتحركنا كلنا بعد ذلك إلى منزل عـثمان بن عثمان، ذلك الشـخص نفسه الذي مر بنا في الحنجور في طريقه ليتسلم وظيفـة رسـمية في أبها، لنقضـي هنالك سـاعة أو بعضها نتحدث على أكواب القهوة والشاي.

أديت صلاة الجمعة في الجـامع في قرية مناظر. لم يكن الجامع بالواسع الذي يستوعـب كل السكان البالغين في أبها، وكان على من لـم يستوعبهـم المسجد أن يذهبوا إلى مـساجد في القرى الأخـرى، لقد كان عدد الحـضور حوالي (٥٠٠)، يجلسون في (١٥) صفـاً، كل صف من (٣٠) إلى (٣٥) شخصاً. حـضر موكب الحاكم يسبقه عـبيده في أزيائهم المبهرجة وكلهم مسلحـون بالمسدسات، والأحزمة العريضة ذات الجيـوب التي يوضع فيها الرصاص والسيوف، ويـتبعهم بعض جنود الحامية - كان مشهداً مثيراً أثناء مروره من القلعة عبر مكان السوق، وعبر الشوارع الضيقة التي تقود إلى المسجد. أحتل المحراب منتصف الجدار الخلفي، موجهاً تماماً ناحية الشـمال، بجواره كوة أخـرى إلى يمينه، (متجهين نحـوها) مع سلالـم قليلة تقود إلى كرسي يستخـدم منبراً لقراءة الخطب. يرفع المؤذن النداء للصلاة بأسلوب لطيف ومـشجع، وذلك عندمـا يدخل الإمام عن طريق باب في الجـدار الخلفي. كانت الدعـوة المحلية للصلاة والتي تسـمع من كل المساجد عند أوقاتهـا المحددة، تستـحق الإشارة هنا للغناء الواضـح أو التداخل[١] (يعرف بـ إدغـام للحروف في الصيـغة العادية: مثـلاً: لا الله، بدلاً من: لا إله إلاَّ الله، ومحمـد رسول لاه، بدلاً من: محمـد رسول الله - يتبع أعيان القـرية الأمير في أثر موكبـه بعد نهاية الصلاة إلى القلعة للاستقبال العادي ليوم الجمعة.

---

(١) الأذان عند المسلمين لا يسمى (غناء) كما يذكر فيلبي، وإنما يسـمى نداء للصلاة، واستخدام فيلبي لكلمة (غناء) ربما قياسـاً على طقوس المسيحـيين الذين يمارسون الغناء والأصوات الموسيقـية في صلواتهم داخل الكنائس. (ابن جريس).

لقد قيل، ولا أدري إن كان هذا حقيقـة أم باطلاً، أن الأمير سعوداً حين كان يستخدم أبها قـاعدة أمامية للعمليات ضد اليـمن في عام ١٩٣٤م كان عائداً هكذا من المسجد إلى القلعة وكان بالفعل على درج مدخل القلعة حينما انطلقت رصاصة وسقط عبدٌ ضخم ميتاً تحت أقدامه، وكان هذا العبد يتبعه مباشرة.

كانت هناك بلا شك محاولة للاعتداء على حياة الأمير وكان أعوان اليمن في ذلك الوقت متواجدين بلا شك، بغرض شرير، ولكن حسب علمي فإن المجرم لم يعرف مطلقاً.

كـان مضـيفنا لحـفل عـشاء في مناسـبة أخـرى هو مـدير مصلحـة الدخل الحكومي، محمد البسام، صديق قديم لي، جاء إلى هنا من مكة قبل حوالي ستة أشهر وقد رأيته مراراً خلال الأيام الأخيرة. كان الأمير -بالطبع- حاضراً، وكذلك كل موظفي الحكومة في أبهـا، بما في ذلك عبدالوهاب، وطلعت أفندي[١] -أيضاً من المصلحة نفسها- وابن ضـاوي الذي ذهبنا إلى منزله لتناول القهوة والشاي بعد الوليمة.

كان السـعي لإعادة تنظيم إدارتي المالية والدخل للمـنطقة في ذلك الوقت هو الشـغل الشاغل لكل مـوظفي الحكومـة من الأميـر إلى أدنى مـوقع وظيفي وقـد تجمعت لديَّ حقائق عديدة مثـيرة للاهتمام أثناء محادثاتي مع هؤلاء الناس، ولربما كان من الأفضل أن أتحـدث عنها بأقل قدر ممكن. كانت العملة الرسـمية في هذه الأنحاء هي دولار مـاريا تريزا -ريال أو ريال فرنـسي- والذي كان يقسـم من أبها

---

(١) طلعت أفندي، أول مـن تولى إدارة الشـرطة في أبهـا، ويـسمى:ــ طلعت وفـاء مـكي، من أهل مكة المكرمة، كان له شأن وشخصية قوية، انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، ص ٤٤٧ . (ابن جريس).

وإلى الجنوب متضـمنة خميس مشيط من (٦٠) إلى ٧٠ زلط -مـفرد زلطة، قارن مع زولطى البـولندي-، والتي كانت من فـئات واحد زلطة ونصف زلطـة، عملة نحاسيـة صغيرة أصلهـا اليمن حيث توجد فئـات أخرى تستخـدم كما سنرى في نجران. لا تتداول هذه العـملات الصغيرة في أي مكان في هذه الأنحـاء، مثلاً في ظهران الجنوب يستبدل ما تبقى من الريال بحبوب البن أو الذرة بأسعارها السائدة. بصفة عامة، فإن الريال والزلطة عملتان يستعملان في الأسواق المحلية[١].

يوجد سوق أيام السبت ويسمى سـوق السبت في الطريق إلى شعار[٢]، إلى جانب سوق الخميس بخـميس مشيط وسوق الجمعة (أعـتقد) في أبها، وقد زرت سوق شعـار خلال هذه الفترة -ويعـرف بصفة عامة بسـوق بني رزام التابعين لبني مالك في عسير-، وبالطبع كان هنالك سوق الأحد لرفيدة. كانت الموازين السائدة في هذه الأنحاء هي الصاع والعكة يعادل الأخير زنة (٤٥) ريالاً أو (٤٠٠) درهم والتي يعادل (٣١٢) منها كيلوجراماً واحـداً. ويعادل الصاع ثلاث عكات أو تقريباً أربعة كـيلوجرامات - بـالدقة (٣,٨٤٦١٥٣) -. يبنى الدخل على العـشر ولكنه حقيقة يجمع على أســاس نصف العشر من إنتاج الأرض من الجنس المحصول في كل من بلاد شهران وعسير -مرتفعات أو سراة عسير-.

---

(١) وعن سير الحياة الاقـتصادية في أبها، وبخاصة التجارة خلال القـرن الهجري الماضي، انظر: ابن جريس **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠**، ص ١٦٣ ـ ١٨٩ . (ابن جريس).

(٢) ويسمى هذا السوق أيضاً «سوق بني رزام» ولمزيد عن المنطقة والقـبائل التي يقام فيها هذا السوق، انظر: عبـدالله بن علي بن عفـتان. **بنو رزام تاريخ وحـضـارة** (أبها: نادي أبهـا الأدبي، ١٤٢٤هـ) ص ٣ وما بعدها.

يصل مجمل الدخل الذي يتم جـمعه إلى (٣٠٠,٠٠٠) صاع في السنة من هذه المناطق، نصفه قمح ونصفه شعـير يبلغ الإنتاج الكلي ستة ملايين صاع -أقل قليلاً من (٢٤) مليون كيلوجرام- في السنة لكل المنطقة، وتبلغ قيمته، باعتبار ستة أصوع قمح و(١٢) صاع شـعير للريال الواحد، يصل ذلك إلى (٣٧,٥٠٠) ريالاً أو (١,٨٧٥) جنيه استرليني ذهبي، بقيمة (٢٠) ريالاً للجنيه الاسترليني. لم يكن دخلاً كبيراً بالتأكيد لمساحة كبيرة كهذه[(١)].

وفي عصر إحدى الأيام ذهبت أنا والأميـر ومعه بعض بطانته إلى أعلى وادي أبها مـارّين بقرية المفتـاحة، حيث يتسع المجـرى إلى مروج جذابة، حـيث كانت أعداد كبـيرة من الأبقار ترعى تحت رعاية النسـوة. يدخل الوادي قليلاً، أعلى من هذا الموقع، مسيل تتناثـر عليه الجلاميد ومغطـى ببركة ينمو عليهـا القصب وممتلئة بالضفادع والعلق وسرعان ما كان الجميع يتسابقون يجمعون هذه الكائنات الصغيرة لأجل مجموعتي. كـانوا مستمتعين بعبث هذا العمل، ولـيس الأمير بأحسن حالاً منهم وقد كـان مسروراً ولو لهـذه المرة. كان هنالك النعناع البـري، في هذا الجزء من الوادي، كما كـان طائر أبلق جنوب الجزيرة متوافـراً وكذلك العصافـير أيضاً.

---

(١) كانت المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية من أغنى المناطق بثرواتها الزراعية والحيوانية، ولم يكن هذا منذ عصر فيلبي فحسب، ولكن هذا الثراء الاقتصادي يعود مئات السنين إلى الوراء، كما ذكرته كثير من المصادر التاريخية المبكرة. وللمزيد من الاطلاع انظر: أبو معين الدين ناصر خسرو. **سفر نامة (رحلة ناصـر خسـرو)**. ترجمة من الفـارسية. أحمد خالد البـدلي (الرياض: عمادة شؤون المكتبات بـجامعة الملك سعود، ١٩٨٣م) ص ١٥٤، محـمد بن جبير. **رحلة ابن جبـير** (بيروت: دار الكتب، د.ت) ص ٩٨ ــ ٩٩؛ جمـال الدين يوسف بن المجاور. **صـفة بلاد اليـمن ومكة وبعض الحجـاز، المسـمى تاريخ المستـبصـر**. تحقيق أو. لو فـغرين (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٥١ ــ ١٩٥٤م) حـ١، ص٢٧، مـحمد بن عبدالله بن بطوطة. **رحلة ابن بطوطة**. تحقيق علي المنتصر الكتاني (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) حـ١، ص ١٨٣ . (ابن جريس).

اتجهنا إلى منزل ابن ضاوي في رحلة العودة للجلوس في بلكونته عند الغسق نطل على أرض المنتزه وحديقة الحكومة، حينما كـانت طيور الحدأة المحلية تهبط لقضاء الليل وكانت الخفافيش المحلية تغادر أعشاشها للصيد.

أثناء إقامـتي اغتنمت أول فرصـة لأجل الحصـول على منظر جيد لأبهـا وما جاورها، وذهبت لـزيارة القلعة التركـية على جـبل ذرة والذي بدا كأحـسن موقع للمراقبـة لهذا الغرض[١]. رافقني كل من مـحمد البسام وأحـمد بن هليل الذي جلب معه دليـلاً محلياً جيداً، وبعد أن استـعددنا بتجهيز غـداء خفيف، تمكنا من قضـاء عدة ساعـات نشاهد المنظر مع الكثـير من المتعـة والفائدة، نتحـادث حول التاريخ الماضي للبلاد راصـدين كل سماتها. شمـخت قمة التل إلى علو (٤٠٠) قدم أو أقل قليلاً، فوق مستوى البلدة، وعلى قـمتها حطام القلعة التركية (١٠٠) (خطوة مربعـة) بقي منها ثلاثة أبراج سلـيمة وبعض ثكنات للحـاميـة. توجد في القلعة نفـسها عدة أحـواض مبطنة بالأسمنت لخـزن الماء الذي لا بد من جلبه من البلدة. بنى الأتراك - على أية حـال- طريقاً متعـرجاً منحدراً على التل، وقـاموا بصيانته بتـعبئة مستمرة للشـقوق التي تسببها الأمطار لكي يتواصل اسـتعماله لنقل الإمدادات المائية، وعربات المؤن وللمـدفعية التي تسحبهـا البغال. لم تهتم الإدارة السعودية بهذه القلاع وكل المتاريـس حول أبها قد أهملت لتتآكل[٢]. وكاد الطريق

---

(١) للمزيد من المعلومات عن هذه القلعة، انظر: محفوظ الزهراني، **تحصينات أبها**، ص ١٣٨ وما بعدها؛ ابن جريس (العمران في إقليم عسير)، ص ٥٧ ــ ٥٨ . (ابن جريس).

(٢) ومن يبحث عن هذه الآثار اليوم يجد أغلبها ضاع واندثر، وننادي الهيئة العليا للسياحة وأقسام الآثار في المملكة أن تبذل قصارى جهودها للحفاظ على ما تبقى من هذه الآثار في منطقة عسير وغيرها من مناطق المملكة. (ابن جريس).

المتعرج أن يختفي تماماً ويصعب استخدامه فعلياً لأي نوع من المواصلات. كان علينا أن نتسلق بأقصى ما يستطاع. وكانت محاولة مجزية، برغم أنه كانت توجد غيوم ناحية الجنوب والجنوب الشرقي ورياح جنوبيه قوية.

تقع تحت أقدامنا قلعة أبها ومن حولها قوس من القرى يحيط بها إلى شمال الشمال الغربي من موقعنا. ينتظم عدداً من أبراج المراقبة في شبه دائرة حول القلعة على مسافات متباينة، يبدو أنها تكون حزاماً واقياً في مواجهة الجبال وهذا يشرح -وفي بلاغة - الاتجاه الذي كان الأتراك يتوقعون منه المتاعب إن كان لها أن تقع - حيث توجد القبائل في مرتفعات عسير - كانت من بين هذه الأبراج ذرة عند أحد الطرفين تجاه جنوب الجنوب الشرقي تحرس القدوم من ناحية السهول عن طريق وادي ضلع. وكانت قلعة عوافة عند الطرف الآخر، وتخدم هدفاً مماثلاً، فيما يخص الطرق من السودة وشعار -حيث بالطبع كانت توجد الحامية التركية لحراسة طريق النقل-. وتوجد بينهما ستة مواقع خارجية مدعمة على تل منخفض هي: خرت، وأبو خيال، وجميمة على مسافات تتباين بين نصف الميل إلى الميلين من ذرة، إلى الجنوب الغربي، والجنوب، بينما تقع ثقل ودقل وشمسان على بعد ميلين ونصف الميل إلى (٤) أميال بعيداً ناحية الشمال الغربي. تقع شمسان، مثلها مثل عوافة، إلى اليمين من طريق محايل (شعار)، وكانت البقية تختص بمقاومة أي تجاوزات من مدخل وادي ضلع[١].

بصورة عامة تسمى الجوانب الشرقية للجبال العظيمة «الشرقي»، والتي ينبعج من جوانبها الرفيعة حوض سيل وادي أبها الذي يقف فيه، على مسافة ميلين

---

(١) وعن القلاع والحصون حول مدينة أبها، انظر: محفوظ الزهراني. **تحصينات أبها**، ص٦٢ وما بعدها. (ابن جريس).

ونصف الميل من ذرة ناحيـة الغرب، البرج المنفـرد العثربان على مسـافة الميلين من أولى قرى أبها وهي المفتاحة.

توجد قـرية صغيرة فـي رافد صغيـر يدخل وادي أبها من جانبـه الأيسر عند القابل تسـمى ضباعة على مـجراه الأسفل، بينما تقع قـرية صغيرة أخـرى تسمى الصفيح على الجانب الأيسر للوادي الرئيس قليلاً إلى أسفل. يدخل الوادي، فيما وراء منحنى كبيـر عند النصب في انسيابه تجاه الجنوب الشـرقي، وتقع إلى الجانب الخارجي لمناظر الـتي بالقرب منها توجـد قرية أم حـمار الصغـيرة[١]، أيضاً على الجانب الأيمن، إلى جانب قـرية أخرى صغيرة تسـمى البصرة في مواجهـتها على الجانب الآخر. تتكون مشيع وقد ورد ذكرهـا من قبل، من عدة مجموعات منازل على امتداد مجرى قصير يتصل بالجانب الأيمن للوادي، وينحدر عبر طريق خميس مشيط. تقف، أسفل هـذا الملتقى قريتا العرين الصغيـرتان على جانبي وادي أبها، الذي ينحني بعد ذلك جهة اليمين إلى قاعد وهي قرية صغيرة على الجانب الأيمن، وعلى مسـافة نصف الميل إلى أسفل، حـيث يوجد منحنى آخر إلى اليـمين يقوده ماراً بالدارة وبن نعمان في مجراه تجاه وادي بيـشة. انتصب بناءان على هيئة القلعة على تلّين إلى الجنوب من الطريق الرئيس يقومان بحراسـة الأرض الواسعة لحقول الذرة الصفراء إلى الشرق منـهما، إنهما يكونان قرية ثبتـة الصغيرة[٢]. تعطي هذه

---

(١) من أحياء أبهـا القديمة أم حمار، وشـعبة الحمَّار، وهي مـتقاربة في الموقع، وعند مجيء الأمـير/ خالد الفيصل إلى منطقة عسير غيَّـر أسماء هذه المناطق إلى اسم جديد هو:ـ (لبنان)، ولا زال من أحياء مدينة أبها الرئيسة حتى اليوم، انظر كتاب: ــ **أبها حاضرة عسير**، ص٢١ ، ٨٠ .(ابن جريس).

(٢) وتسمى هذه المنطقة اليوم باسم (سر ثبته)، وربما إن الاسم الصحيح هو (سيرثبته) . (ابن جريس).

القائمة مسحاً شاملاً لكل المناطق المأهولة مكوِّنة ما يمكن اعتباره أبها الكبرى[(١)]، يقدر عدد السكان فيها كلها، بما في ذلك العاصمة حوالي (٧٠٠٠) و (٨٠٠٠) نسمة إلى (١٠٠٠٠) بالمناطق الخارجية.

يواجه المرء السلسلة الجبلية العظيمة، إذا ما أدار ظهره ناحية هذا المنظر، لكل من القمة والحافة لهضبة شبه الجزيرة العربية. أنها السلسلة الفقرية للجزيرة العربية، وفيما يليها فإن كل الأودية تنحدر في شقوق عميقة وممرات ضيقة بين سلاسل شامخة، ممزقة، مستعرضة، تجاه البحر.

يوجد صدع واسع وعميق أمامنا مباشرة ناحية الجنوب، في الجبال التي تشمخ عالية في انحدار على جانبي الهاوية الفاغرة، المنسقة، وكأنها تتثاءب وهي تقود إلى وادي ضلع وعلى جانبها درب البغال. وينحدر إلى أسفل شق عميق يصل وادي عتود، غير المجرى الذي يحمل الاسم نفسه في خميس مشيط، والذي يجري بعد ذلك عبر سفوح جبلية تضمحل باستمرار إلى القرية الكبيرة درب بني شعبة التي تملكها قبيلة من تهامة بالاسم نفسه، ثم يعبر سهل تهامة إلى الشقيق حيث يدخل إلى البحر[(٢)]. عند الموقع الذي ينحدر فيه وادي ضلع والذي يبدأ في الأرض الصعبة حول قلعة جميمة، وينساب ناحية الشرق لمسافة الميل الواحد قبل أن يدور جنوباً إلى النطاق المقاوم للترسب والذي يقع على مسافة نصف الميل من

---

(١) وفي مخططات البلدية الحالية، وضمن مخططات التنمية في السنوات الماضية والحاضرة، فإن هناك تطويراً لمدينة أبها ليصبح اسمها:ـ (أبها الحضرية)، وهذا التخطيط والمسمى الجديد يشمل مدينة أبها الأم، وخميس مشيط، وأحد رفيدة، ومنطقة الشعف (الفرعاء، والجره وما حولهما)، وكذلك مناطق السودة وما حولها. (ابن جريس).

(٢) ويسلك هذه الطريق اليوم طريق معبدة تربط أبها بساحل البحر الأحمر، ويتجه هذا الطريق إلى جازان فبلاد اليمن، وقد ينحرف في بلدة درب بني شعبه ليواصل سيره إلى مكة المكرمة. (ابن جريس).

موقعنا، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي، وهنا وإلى أسفل قليلاً، يتصل الوادي بمجرى سيل آخر من الشرق، شعيب قرضة الذي يبدأ في القمم العليا لمجار بقمتيه العظيمتين الشامختين من سلسلة جبلية مثلّمة طويلة تمتد إلى الجنوب الشرقي، وينساب عبر شق عميق حتى يتصل بضلع. تمتد حافة الفجوة التي يقع فيها ضلع، من نقطة تبعد حوالي نصف الميل من موقعنا، قليلاً ناحية الجنوب الغربي، إلى أخرى تبعد ميلين ونصف الميل شرق الجنوب الشرقي لقرية ذرة ومنها يستدير إلى اليسار ليتصل بالأرض المرتفعة على مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل أو أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من موقعنا.

تكوّن الفجوة شفة ممزقة ومن فوقها من ذرة يستطيع المرء أن يرى الجلاميد الساقطة وكتوف الهاوية - منظر عظيم، لكنه كالح. تشمخ من جانبية كتل الجبال العظيمة لرخمة إلى اليسار وضمرو إلى اليمين وهي شديدة الانحدار خارج الوادي وتسمو إلى ارتفاع (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. تقف الأولى بشموخ وجدارها يتوج بقمم ثلاثة مثلّمة، بينما يرفرف ضمرو بلطف إلى هضبة حادة القمة إلى الجنوب من ذرة ويستمر شمالاً على سلسلة جبال نبشة بقمة عالية ناحية الجنوب الغربي وقمة نهران المستديرة في هدوء حيث تصل السلسلة إلى ارتفاع متوسط (٨,٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، شيئاً ما تجاه الغرب. يستمر الشريط، فيما يلي هذه، لسلسلة جبال الكوثري وحليفة منحدرة من جهة جنوب الجنوب الغربي إلى شمال الشمال الغربي، على امتداد سلسلة ذات قمة عالية، ناحية الغرب، بينما خلف هذه يوجد ظهر جرده. وهو مرتفع ذو منحدرات مكسوة بالعشب تنتهي في فجوة خفيفة شمال حليفة فوق أرض راسية بارزة، تستمر بواسطة سلسلة جبلية

مسطحة، تحملها كتلة السودة العاليـة وفيها أعلى قمة في السلسلة الجبلية[١]، على ارتفاع (٩٠٠٠) قدم فوق سطح البحر وهي أقصى نقطة تجاه الشمال الغربي يمكن رؤيتها من ذرة.

لقد ذكرت من قبل رخمة على الجـانب الآخر من فجوة ضلع والتي يحجب جدارها الصـخري الشديد الانحدار المنظر الذي يقع من ورائهـا في ذلك الاتجاه - جنوب الجنوب الشرقـي- غير أن شـريط الجبال التي تكوِّن امـتداداً لهذا الحـاجز، يستـمر شرقاً، غـير أنه يميل بعد ذلك جنوباً بجـوار مجار، الذي ذكـرناه من قبل متبعاً لوادي قرضة والسلسلة الجبلية الضـخمة الطول المسطحه (بركانية) لتمنية ذات العقـد والثلمات[٢]. وتقع نهايـتها بعـيداً عنا قليـلاً ناحية الجنوب الـشرقي. تقع سلسلة جبال الأحد إلى الشمـال من هذه النقطة وإلى يسارنا، وقريباً منا، وتشاهد قمة بركان القرن ناحية الشمال الشرقي. ويقع رخيني أخيراً بعيداً إلى الجنوب فوق التلال الممزقة، مكوِّناً الجانب الأيسر لوادي عتود، وهو كتلة مرتفعة لتهامة. وكان الحاجز من الســودة إلى أقصى طرف لتمنية نبـيلاً من تلال عالية وســلاسل جبلية ذات حافة مهدَّبة وقد دخلنا فيها[٣].

من بين النقاط القريـبة المهمة، كانت هنالك مـجموعة من القرى الصـغيرة، وحقول الذرة الصفراء، في المجرى العـريض الضحل لشعيب الشرف الذي يخرج

(١) جبال السودة من المواقع السياحية الجميلة في بلاد عسير، وتتـوفر فيها اليوم جميع وسائل الترفيه للسواح والمصطافين. (ابن جريس).

(٢) تمنية: تقع في شـعف شهران، إلـى الجنوب من مدينة أبها بحـوالي (٣٠ ـ ٤٠) كم، وهي من المناطق السياحية الجميلة في منطقة عسير. (ابن جريس).

(٣) البلاد الـممتدة من الســودة، جنوب غرب أبهـا، إلى تمنية، في النـاحية الجنوبـية من المدينة، عـبارة عن سلاسل جبلية مـرتفعة ذات انحدار شديد من الناحية الغربيـة حتى تتصل بالأجزاء التهامية لمنـطقة عسير وأجزاء من منطقة جازان. (ابن جريس).

من أرض صعبة أمام تمنية وبالقرب من شفة فجوة ضلع لينساب إلى أسفل عبر أرض صخرية وسلاسل ليتصل بشعيب جوحان في طريقه إلى وادي أبها. القريتان الوحيدتان الصغيرتان اللتان يمكن رؤيتهما من هذا الموقع من ذرة في اتجاه أعلى الوادي، في هذا المجرى، هما حصن الأعلى -على بعد ميل ونصف الميل من موقعنا- والعمارات -حوالي ثلاثة أميال-. تقع أسفلهما القرى الصغيرة هضبة[١]، آل منسم، آل بالفلاح وأخيراً الحصن الأسفل، على بعد ميلين ونصف الميل من موقعنا. تكون هذه القرى وتراً يقع قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من ذرة. يُوجد إلى الغرب من هذه، وعلى بعد نصف ميل فقط منها حقل منفرد في حقول صخرية تسمى قيشا! يمكننا رؤية الطريق وهو في استقامة واحدة مع قمة السودة، وهو ينحدر شيئاً ما إلى حيث تقف تلال غاوة بارزة كأنها الكتف حيث تستدير ثم تختفي فوق حاجب الجبل، وبرزت في هذه الأثناء، بعيداً ناحية السفوح الجبلية السفلى، قمتان، هرميتان غير أنهما ليستا بالحادتين ولكنهما مرتفعتان جداً، ومن خلفهما يمكن رؤية طريق محايل (شعار) مختفياً فوق الممر المنخفض المعلَّم بقرية أم الركب الصغيرة[٢].

هكذا كان المنظر الذي يشاهد من ذرة والذي لم تقع عين أوربي غيري عليه. هكذا كنت أفكر حينما بدأنا نزحف إلى أسفل على جانب التل الصعب، ومنه إلى بلاد صخرية ظهرت فيها دلالات محاولات سابقة لتنظيفها وإعدادها للزراعة في مساحات من تربة هنا وهناك. وجدت بجوار واحدة من هذه دائرة كبيرة من صخور خشنة كالأردواز، وما بدا كأنه القبر في مركزها. وحين السؤال عنها، اتضح أنها قبر لأوروبي! كان الأتراك هنا، كما ذكرت من قبل، ولزمن طويل قبل عام ١٩١٨م، ويدَّعي بعض الأتراك أنهم، في الاعتبار، أوربيون.

(١) ويطلق على هذه الهضبة اسم (هضبة بني جري) (ابن جريس).

(٢) تعرف باسم (أم الركب) فقط دون كلمة (الصغيرة). (ابن جريس).

يمكن -على أي حال- بصفة إجمالية، أن نعد الأتراك عنصراً آسيوياً، غير أن هذا القبر كان لإغريقي، بلا شك إغريقي لافانتي من أولئك الذين كانوا يزورون الموانئ البحرية على السواحل العربية مثل جدة والحديدة، ولكنه إغريقي على كل حال، وربما من أصل أوربي، وبالطبع كان مسيحياً. كان هذا الإغريقي بالذات، ويدعى خواجه بولو (السيد بول)، كما يدعونه، تاجراً محترماً جداً، وقد سعى إلى تكوين ثروته منذ (٣٠) عاماً في بداية احتلال الجيش التركي وعاش ومات في أبها. جاء ابن شقيقته ويسمى سبيرو من الساحل ليدفن خاله في هذا القبر غير المناسب في العراء، ولتصفية أعماله، استغرق ذلك (٢) أو (٣) سنوات قضاها في أبها. وعليه، لم أكن أنا، بعد كل ذلك، أول أوربي يزور هذه البلاد. اتخلّى الآن وإلى الأبد عن أكاليل الفتح لذلك الرجل الميت في ذلك القبر الذي يجب أن يساق إليه كل الشرف لمغامرته المنفردة في هذه الأرض القاسية. وإذا عاش سبيرو، ووقعت عينه على هذه السطور، فسيدرك أن سجلات أعمال خاله قد تم تأمينها ضد النسيان.

لا يعرف رفاقي السنة التي مات فيها ذلك الخال، كما لم أستطع تحديدها باستفساراتي اللاحقة، غير أنه ربما كان يعرف الجنرال سليمان شفيق باشا، والي هذه المرتفعات في بداية هذا القرن، أو مَنْ قد خلفه وهو حيدر باشا، الذي شغل الوظيفة نفسها مدة عام واحد فقط، أو إذا عاش حتى فترة الحرب العظمى، كان آخر الولاة الأتراك هو الجنرال محيي الدين باشا، الذي حكم أبها مدة ٥ أو ٦ سنوات[١]، وحافظ على اتصالاته، بطريقة غامضة أثناء الحرب، مع الجيوش التركية في المدينة ودمشق، عن طريقهما بالقسطنطينية نفسها.

(١) للمزيد عن أسماء وتواريخ ولاة الدولة العثمانية في عسير من عام (١٢٨٩ - ١٣٣٧هـ / ١٨٧٣ - ١٩١٩م)، انظر كتاب: - **أبها حاضرة عسير**، ص ٥٤ . (ابن جريس).

قابلت مؤخراً، واحداً من هؤلاء الرجال العظام، هو سليمان شفيق باشا، في سنوات عمره المتقدمة كان أباً، بالمناسبة، لثلاث بنات جميلات، إحداهن فازت بمسابقة «آنسة تركيا» في مسابقة جمال عالمية، قليلاً قبل هذا الوقت في جدة والطائف، حيث كان يقضي شتاء حياته كضيف ومتقاعد لدى ابن سعود. كان ملتحقاً بالفرع الهندسي للجيش التركي وإليه يعزى الجسر ذو البناء المتين، والجذاب، فوق وادي أبها، الذي يصل القابل مع الجسم الرئيس للبلدة. وتمكنت من رؤية الفيلا التي قام ببنائها لنفسه في ضاحية القابل.

ذكرت سابقاً، في حديثي عن الحكام، أن شويش[1]، أول حاكم سعودي، بعد فترة ابن عايض، والتي بدأت بعد مغادرة الجنرال محيي الدين وذلك بعد الحرب العظمى. كان شويش قد خلف في منصبه بواسطة ابن عفيصان[2]، بعد حملة الأمير فيصل، وكنت أعرفه حاكماً على الأفلاج في عام ١٩١٨م. جاء بعده ابن حيفان الذي لا أعرف عنه شيئاً والذي ظل في الوظيفة لوقت قليل ثم خلفه المهيب عبدالعزيز بن إبراهيم، والذي، فيما بعد، نقل إلى المدينة وظل هناك لعقد من الزمن حتى عام ١٩٣٦م، حينما قبل الملك استقالته في عشيرة قبل أن أبدأ هذه الرحلة. ثم صار عضواً، من حينها، في مجلس الوكلاء في مكة، حتى وفاته عام ١٩٤٦م أو ١٩٤٧م[3].

---

(١) شويش بن ضويحي، أول أمير عين في أبها في عهد الدولة السعودية الحالية. (ابن جريس).

(٢) إن الذي عقب شويش بن ضويحي في إمارة أبها هو عبدالله بن سويلم (١٣٣٩ ـ ١٣٤٠هـ) لمدة (٩) شهور، ثم جاء بعده فهد بن عبدالكريم العقيلي، لبضعه شهور خلال عام (١٣٤٠هـ)، ثم جاء سعيد بن عفيصان من عام (١٣٤٠ ـ ١٣٤٢هـ)، ثم ابن جيفان بشكل مؤقت بعد موت ابن عفيصان، ثم عبدالعزيز بن إبراهيم من عام (١٣٤٢ ـ ١٣٤٣هـ). ولمزيد من التوضيحات عن أمراء منطقة عسير منذ بداية الحكم السعودي الحالي إلى الآن، انظر. ابن جريس. **أبها حاضرة عسير**، ص ٦٠ . (ابن جريس).

(٣) كانت وفاة عبد العزيز بن إبراهيم في شهر رجب عام (١٣٥٦هـ / الموافق عام ١٩٤٦م)، انظر: عبدالله بن سعيد أبو راس. **عبدالعزيز بن إبراهيم آل إبراهيم** (الرياض، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) ص ٣٤٤ . (ابن جريس).

حينما غـادر أبها، جاء في مكانه عبداللـه بن عسكر الذي توفي عام ١٩٣١م أثناء إجازة اضطرارية من وظيفته، حيث ترك أحـد أبنائه ينوب عنه. استمر الأخير يقوم بدور الحاكم حـتى حل محله الأمير تركي السـديري، الذي أصبح من بعدها صاحب المنصب وبمساعدة أخـيه خالد، حتى انتقال الأخير إلى تبـوك حاكماً على المنطقـة الشمـالية في عـام ١٩٤٨م. كـانت هذه هي قصـة أمراء أبهـا - أتراك، ومحليين، وسعوديين -وبالتالي- كاملة لفـترة (٤٠) عاماً- تلك الفترة التي بدأت بمحنة وانتهت باسـتقرار سلمي وُضع تحت الاختـبار لمدة عشرين عـاماً، ويبدو أنه باقٍ.

كان من البديهي أن أقوم بزيارة السودة وشعار أثناء إقامتي في أبها. غير أنني في هذه الأثناء، شغلت نفسي بالبلدة وما جاورها. كـان البعوض موجوداً، ولكن ليس بالكثرة، كـما في خمـيس مشيط وشعـيب حجلا ويبـدو أنه غائب عن هذه المرتفـعات، علمـاً بأن إقامـتي داخل منزل قـد تكون سببـاً في فشلي مـلاحظة البعوض. يوجد في المنزل الكثـير من البراغيث والبق التي كانت صحبتهـا القبيحة تمحو من آثارها مـلاحظة نوعين من الفراشـات خطافية الـذيل. كانت فواكـه أبها مخيبة للآمال، فقط المشـمش والتوت من مزرعة أحمد بن هليل. لم تكن الطيور بأقل تثبيطاً للآمال. كانت طيور البلبل واليـمام، والعصافير وأبلق جنوب الجزيرة، في كثرة وطيـور الحابك وعششهـا. كان من الطبيعي مـشاهدة كل أنواع الغربان، وقد سبق أن ذكرت الحدأة كما لاحظت السُّبَد.

كان هذا كل ما شـاهدته في جوار أبها غير أنه هناك، وفي الجـبال، ستكون القصـة غيـر ذلك. شاهدت، فـيما يخص النـقوش، إلى جانب تلك الـتي سبق ذكرها، نقشاً دينيـاً باللغة العربية بالقرب من بيت المصري في مـشيع، بينما نقش

الجنود الأتراك في حامية ذرة أسماءهم على هذه الصخور الكئيبة مع أشكال من حين لآخر لبشر وحتى لسيارات، والتي بلا شك لم يروها في هذه الأنحاء والتي ربما ذكرتهم -في المنفى- بمسيرة الحضارة في أجزاء أخرى من الإمبراطورية التركية.

رتبت رحلتي إلى السودة على أن تبدأ في عصر يوم ٨ يونيو، وكنت ميالاً إلى أن أقوم بملاحظاتي للنجوم في الأمسية السابقة، وعند الساحة بجوار برج القلعة العظيم. تحرك قطار الحمير، حاملة متاعي، بعد منتصف النهار، للرحلة الطويلة إلى أعلى الجبال، بقيادة سعد وتحت تصرفي طباخ من طرف الأمير. ولحقت بهما، بعد ساعة، بعد أن تناولت الغداء مع الأمير ومعي حرسي، على ظهور البغال من اسطبلات الأمير. استغرق وصولنا إلى الممر عند القمة التي يطل عليها جبل غاوة الذي يشاهد من ذرة ناحية غرب الشمال الغربي من قلعة أبها، حوالي الساعة وربع الساعة. كان على رأس فرقتي، عبدالله بن راشد من أبناء قبيلة علكم (عسير)، أحد تابعي الأمير، ويبدو أنه ملم بمعرفة البلاد إلى جانب رغبته أن أكمل رحلتي بنجاح.

واصلنا سيرنا من الممر، فوق امتداد مستوى فوق أنف التل مع شعيب ضمن على يسارنا منساباً ناحية العُثْرَبَان والمجرى الأكثر أهمية الذي هو شعيب عشران على يميننا، ماراً عبر منطقة علكم ومنطقة بني مالك -كان شيخ القبيلة الأخيرة هو ابن هشبل[1]- ومن ثم إلى وادي بيشة والذي يتصل به أسفل وادي أبها. يبدأ

(١) أخطأ فيلبي بذكر أن ابن هشبل شيخ قبيلة بني مالك، والصحيح أن ابن هشبل شيخ قبيلة بني بجاد الشهرانية، وابن معدي شيخ قبيلة بني مالك العسيرية. وسبب تجاور مواطنهم وقراهم ربما تكون السبب الرئيس الذي أوقع فيلبي في هذا الخطأ. (ابن جريس).

الوادي بالفعل عالياً على تل السودة نفسه، ويجري مسارنا، موازياً له تقريباً، في معظم الوقت. تقع إلى البعيد وعلى يسارنا، بعض حقول ومباني المخضُ عالياً في الجبال، بينما عند نهاية المسافة المستوية عبر أنف غاوة هبطنا من حقول ذات مساطب لبعض المحاصيل البقولية إلى قرية السحراء ذات الحجم المعقول، بارزة في جمال فوق المساحات الزراعية المعتبرة على جانبي المجرى. تتبع القرية -المبنية من الحجارة على تل منخفض- بني مغيد (من عسير) وكانت على ارتفاع (٤٥٠) قدماً فوق أبها. لا بد وأن يكون ممر غاوة على ارتفاع (٨٠٠) قدم فوق مستوى البلدة. كان سفرنا مستوياً لفترة على امتداد الوادي، في اتجاه غرب الشمال الغربي، غير أنه، بعد نصف ساعة بدأ الطريق يصعد في انسياب، تاركاً المجرى على يميننا يتحول وبسرعة إلى غابات.

كنا خلال نصف ساعة عند ارتفاع (٣٥٠) قدماً فوق السحراء، وتفرع الطريق على اليمين، متجهاً إلى وادي التلاع هبطنا هنا قليلاً، قبل أن نصعد مرة أخرى تدريجياً، ولكن في هدوء، إلى أعلى جانب الجبل، الذي كان مخضراً بكثافة الأشجار مثل:ـ الشث، والجبر، والعثرب - الذي انتشرت فيه -، مثل الوادي، بأشجار الطلح جيدة النمو[(١)]. وصلنا عند هذه النقطة إلى أول أشجار العرعر الجبلية، والتي سرعان ما تحولت إلى غابة حقيقية، فوق مستوى الوادي، حيث رأيت حقول قمح، على وشك الحصاد، والورد البري ويسمى العَبَل في قمة إزهاره[(٢)]. كان منظراً رائعاً بعد صحراء الأسابيع الماضية وبعد قفر السفوح الجبلية الصخرية. تزداد البلاد جمالاً أكثر وأكثر مع كل خطوة نخطوها إلى أعلى.

---

(١) للمزيد عن هذه الأشجار في منطقة عسير وما جاورها من المناطق، انظر: فريدة بنت محمد بن حسين قدح. **الغطاء النباتي الطبيعي في الإقليم الجنوبي الغربي**. (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ص ٩٣ ـ ١٠٨. (ابن جريس).

(٢) الاسم الصحيح لهذه الشجرة هو:ـ (العَبَالْ). (ابن جريس).

تقع قرية حصن جارن بعيداً، إلى اليمين من موقعنا، على جانب تل، فيما يلي المجرى، في مسيل شعيب العكاس الصغير، وظهرت غابات العرعر الحقيقية، بعد مواصلتنا السير لمدة (١,٥) ساعة من السحراء، تكسو جانب التل سلسلة جبال غاوة التي وصلنا إلى قمتها بعد نصف ساعة. كنا هنا على ارتفاع (١٥٠٠) قدم، تقريباً، فوق أبها و(٨٥٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. كنا فعلاً في الجبال، وهناك فيما وراء الحافة العليا لغابات العرعر، نظرنا إلى حقول القمح والشعير الذهبية لمنطقة السودة، تهبط في مساطب على سطح محسن كشرائط من لون أصفر ذهبي ومن خلفها العرعر الداكن الخضرة مبعثراً في مجموعات صغيرة أو كبيرة حول القمة. لا تزال محاصيل قمح الشتاء والحبوب في انتظار المنجل اليدوي للحاصد، بينما كان الشعير قد تم حصده تقريباً. كانت الأكوام لا تزال في صفوف في حقول الجداثه. مررنا بعد قليل بأولى قرى الجبال وهي دهيلة على مسافة نصف الميل وعلى يميننا تحت جبل يسمى مرتمة وهي مجرد قرية صغيرة في وسط حقول قمح واسعة. أصبح الطريق، فيما يليها، صعباً جداً، وفي بعض الأجزاء، صخرياً جداً ومتعرجاً، مخترقاً غابة عرعر، تتخللها هنا وهناك مناطق مكشوفة لغربلة القمح. كانت المسيرة صعبة جداً بالنسبة للحيوانات، وقد تعثرنا كثيراً في الصخور عند الغسق ذلك لأن الشمس قد غربت بمجرد مرورنا دهيلة لنصل أخيراً إلى قرية السودة نفسها، أقل من (٢٠٠٠) قدم فوق أبها، وحوالي (٨٩٠٠) قدم أو أكثر قليلاً، فوق سطح البحر.

كانت السودة قرية غريبة جداً، ليست بالكبيرة، ولكنها مكوَّنة من صف مصمت من منازل مظلمة ذات طابق واحد، بلا شوارع أو ممرات ولا أبواب إلاَّ في المنازل التي تكوِّن المحيط الخارجي والتي تتجه مداخلها كلها إلى الخارج. لا توجد

وسائل للحركة الداخلية من منزل إلى آخر، غير أن كل منزل - وكلها تتكوَّن من غرفة جلوس واحدة ملحق بها مطبخ، ومن حين إلى آخر ارتدادات تبدو كأنها دواليب أكثر منها غرف- به درج واحد ثابت، يقود من الطابق الأرضي إلى السقف عن طريق كوَّة خشبية. تستخدم هذه الكوَّة لخروج الدخان المتجمع في الغرف وتساعد السكان بوسيلة يزورون بها بعضهم بعضا، دون الحاجة إلى مغادرة القرية. إذا ذهب أحدهم لزيارة آخر، فإنه يطرق، ليس على الباب، وإنما على الكوَّة. كان السبب من وراء هذا الترتيب الغريب واضحاً، يلاحظ في حالة عدم الأمان التي ميزت هذه المرتفعات حتى وقت قريب، مما اضطرهم إلى سد وغلق كل الأبواب ليلاً، لتحويل القرية إلى حصن مستقل. لم يكن للسكان الوقت الكافي للتفاعل، خلال ١٥ عاماً مع نظام السلام والأمان الجديد. تبدو كل القرية كأنها ذات سقف واحد مثقب بالعديد من الكوَّات ومقسم إلى منازل مجزأة بواسطة سلسلة طينية منخفضة ارتفاعها لا يزيد عن (١٢) و (١٨) بوصة. كان البناء الوحيد، المكشوف للسماء، هو المسجد الذي يقع في وسط القرية، وبه درج من سلالم طينية عند السور المحيط به (سور القرية) الذي يقود إلى مدخله الوحيد.

استُقبلنا بكرم ظاهر من قبل أسرة تسكن أحد المنازل المتجهة إلى الخارج في القرية. مررنا عبر صالة تشبه النفق المظلم إلى غرفة ذات حجم لا بأس به، أيضاً مظلمة وممتلئة بالدخان. كانت فرقتنا التي تحمل العفش قد سبقتنا إلى هنا لتُعلن عن قرب قدومنا، وكان كل شيء جاهزاً لاستقبالنا. تجمع لديّ الانطباع، خلال الظلمة الكئيبة بأن الغرفة كانت ممتلئة بالناس - الوجوه المألوفة لزملائي، ومما لاشك فيه أن مضيفينا من أعيان البلدة وأخيراً وليس آخراً، نسوة المنزل، غير

متحجبات ويجلسن على مساطب منخفضة مبنية من اللبن من حول الجدران، بين الرجال، ويشاركن في الحديث فيما يبدو وكأنه أمر عادي، مقاطعات من حين لآخر الحديث، بالذهاب إلى المطبخ والذي يمكنني رؤيته من مقعد التشريف الذي أجلس عليه. كان عدد النسوة، على ما أظن، ثلاثة: منهن أثنتان في وسط العمر، والثالثة، ابنة صاحب المنزل، عذراء مع بعض الغرور بالجمال. كانت الوجبات الخفيفة المعتادة قد تم تقديمها، ومعظمها من مستودعاتنا الخاصة، ذلك لأن هذا المجتمع كان وبكل وضوح مجتمعاً ريفياً فقيراً، ينظر إلى أشياء مثل الشاي والقهوة، والسكر، كأنها كماليات ورفاهية. غير أن لحم الضأن، والخبز، لوجبة العشاء كانا من جانبهم، ناقشنا ترتيبات قضاء الليلة بعد أن انتهينا من تناول وجبة العشاء(١).

يبدو أنه سيكون موضع نوم كل واحد منا هو مكانه حيث هو الآن، غير أنني لن أفعل ذلك، وأعلنت رغبتي في الهواء الطلق واعترفت بعدم استطاعتي النوم إلاَّ في خيمة، هذا كان له وقع كالصاعقة على مضيفيّ الذين حذروني من البرودة الشديدة لهواء الجبال ليلاً. أجبتهم بأنني قد قدمت من بلاد أكثر برودة من بلادهم هذه، أخيراً كانت الموافقة المرحة بالسماح لي بالنوم فوق السطوح. وفعلته بمجرد ما سمعته. وقام سعد بنقل فرشي ومعداتي التي أحتاج إليها في معسكري، عبر الكوَّة، بما في ذلك مصباحي اللامع، الذي لا بد وأنه قد أضاء كشعلة المنارة فوق الريف الواسع. كان النوم المبكر هو القانون في القرية، وسمح لي بالذهاب إلى جناحي الغريب، بين الدعوات العالية والآمال من جانب مضيفيّ ومضيفاتي -هؤلاء قد ناموا في المطبخ- بألاَّ أصاب بالبرد.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية في منطقة عسير، انظر: ابن جريس. عسير (١١٠٠ ـ ١٤٠٠ هـ)، ص ٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

قــررت، بعد يوم مليئ بالنشــاط أن أنام مــبكراً، ولكن، قبل أن أقــبل على ذلك، عند الساعة الحادية عشرة مساءً، قمت بفحص الترمومتر (مقياس الحرارة). كانت درجــة الحرارة (٥٥) درجة فهــرنهايت وكانت الدرجــة الدنيا لليلة (٥,٥٣) درجة. هــبطت الحرارة في الليلة التــالية إلى (٥١) درجــة. نمت طويلاً تحت قــبة مدهشة من النجوم في سلام الجبال الهاجعة.

صحوت مع بــزوغ الضوء في الصباح عند الســاعة الخامسة لأشــاهد الشمس مشرقة من بين غمــام الشرق البعيد، ومضيئة لحقــول الذرة الصفراء الذهبية، تحت أقدامي، ذات المساطب إلى أسفل المنحدر الواسع، المنحنى، للتل في شكل مسرح روماني ضخم، وأشجار العرعر على حواف غــاوة كأنها المسرح. أحضر لي سعد الشاي مــن الكهف تحتي وجلست أعــبئ الحشــرات التي جمــعتهــا بالأمس، التي جذبهــا ضوء المصباح، في أوراق، ولأكــتب مذكراتي، غــير أن موقفي هذا غــير القويم ســرعان مــا أدى إلى هجوم، إذ بدأ القــرويون الفضــوليون، الواحــد بعد الآخر، يمدون أعناقهم ورؤسهم خارج الكوات ويتــقدمون في حذر حتى بدا، بعد قليل، وكأنني استقبل سكان القرية، في مقــدمتهم كبار السن، يجلسون في وقار، على حواجــز السور حــول جناحي من السور المشــترك، والأطفال ينطــلقون على أطراف الحشد وجماعات من نسوة فــضوليات هنا وهناك في خلفية الصورة كن بلا شك مستغربات للرجل المجنون الذي قــضى الليلة في السطوح. كان أمامي النهار كله، ولم أكن في عجلة من أمري لأقطع روعة حشــد كهذا، تقدمت نحوي امرأة دون خجل، لتــضع سلطانية لبن طازج بــجوار سريري، ومن حين لآخــر يتقــدم أحد الصغــار في خجل، ليرى الحشــرات التي كنت قد جمعــتها أثناء الليل ويسجل نــفسه كزميل في بحثي عن كائنات الأرض سحالي أو جرذان أو طيور أو بيض أو أي شيء.

رضخ المتقدمون في السن من رجـالات القرية للإجابة عن أسئلتي وأدلوا إليَّ بمعلومات كـثيرة والتي منها نظمت التـاريخ القبلي المحلي كما يلي: ينـقسم اتحاد عسير الـقبلي -كل النجدين بلا شك- إلى مجموعـتين رئيسيتين - عسـير الحجاز وعسـير تهامـة- بناءً على موطنهم إن كـان في السلسلة الرئيسـة أو في السلاسل المتعارضة والأودية بينها وبين الـسهل (تهامة) الساحلي[١]. يشتمل عسـير الحجاز على أربعة أقسام:

(١) بني مغيد ويرأسها عشيرة آل عـايض العشيرة الرئيسة في عسير[٢]، وقد تحـدثت عن رؤسائهـا من قـبل، وتعيـش في الجبـال العـالية والأودية في الجـزء الجنوبي، تقريباً من وادي ضلع إلى شعيب عشران.

(٢) علكم، تقع إلى شمال السابقة من شعيب عشران إلى شعار.

(٣) ربيعة ورفيدة، إلى الشمال مرة أخرى. وأخيراً.

(٤) بني مالك إلى الشرق والشمال الشرقي بالنسبة للقسمين السابقين[٣].

---

(١) انظر إلى تفصيـلات أكثر عن الطبيعـة الجغرافية لمنطقـة عسير، السروية والتـهامية. عبـدالرحمن صادق الشريف. **جغـرافيـة المملكة العـربيـة السـعودية. إقليـم جنوب غـرب المـملكة**. (الرياض: دار المريخ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) حـ٢، ص ١٨٥، ٢٧٥ ـ ٣٣٣، ٤١٣ ـ ٤٤٣.

(٢) آل عائض هم أمراء منطقة عـسير من عام (١٢٤٩ ـ ١٢٨٩هـ/ ١٨٣٣ ـ ١٨٧٣م). أما مشيـخة قبيلة مغيد، فكانت في أسرة ابن مشيبة، ثم انتقلت إلى أسر آل مفرح، ولا زالت فيهم إلى الآن، انظر: علي أحمد عـسيري. **عـسير من ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٣م ـ ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م) (دراسة تاريخية)** (أبها: نادي أبها الأدبي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) ص ١٢٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٣) وقع فيلبي في بعض الخلط أثناء ذكره مواقع قبال عسير الرئيسـة الأربع (مغيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك). وربما نلتـمس له العذر لأن بعض مـواطن هذه القبائل الأربع مـتداخلة مع بعضـها. (ابن جريس).

تقع إلى ما وراء هذا الاتحاد، شمالاً فيما يلي شعار، مجموعة قبلية أخرى، تتكون من بللحمر وبللسمر وبني شهر، بينهما إلى الجنوب، من وادي ضلع إلى سلسلة جبال تمنية توجد عناصر شهران التي إلى شرقها وجنوب شرقها توجد عناصر قحطان، رفيدة وغيرها. يكفي هذا للأقسام الرئيسة لقبائل السلسلة الجبلية والقبائل المرتبطة بها. أما قسم تهامة عسير فيتكون من سبعة أقسام: (١) بني زيد يرأسه علي بن محمد الحياني، (٢) آل ثعلب يرأسه محمد الأرثي، (٣) بني جونة يرأسه محمد بن سلطان، (٤) بني قيس يرأسه حسن بن أحمد بن متعالي، (٥) بني قطبة يرأسه محمد الشقير، (٦) بني شحب يرأسه أبو عوجه، (٧) بني ظالم يرأسه إبراهيم بن عبدالله الرفيدي. يوجد بني قطبة تحت قسم مستقل تقريباً، يسمى أهل العوص. يوضح الترقيم أعلاه هذه القبائل في توزيعها الجغرافي من الجنوب إلى الشمال ممتدة في اعتقادي، من وادي عتود إلى أعلى[1].

صرفت جمهرتي هذه بعد أن استوعبت كل المعلومات وزيادة، وعمدت إلى الوضوء وارتداء ملابسي، لأتنزه بجولاتي حول قمة الجبل. كان معظمها مغطى بحقول الذرة الصفراء، في قنوات واسعة منخفضة مكوِّنة الرؤوس لمثل مجاري التصريف هذه كما في شعيب عشران - كلها روافد لوادي بيشة. كانت الأراضي المرتفعة مملوءة بغابات أشجار العرعر مع الورد البري والزعتر والخزامى ونباتات أخرى بوفرة. وفي وسطها كلها، وجدت نفسي في عالم للطيور جديد، وكانت الجواهر الرئيسة بينها هي: العقعق الجديد والزقيقة الجذابة - اكتشف لأول مرة في

---

(١) لمزيد من الاطلاع عن قبائل منطقة عسير في السراة وتهامة، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة**، حـ٢، ص ٢٧٥ ـ ٣٣٣، ٤١٣ ـ ٤٤٣، هاشم النعمي. **عسير**، ص ٦٩ وما بعدها . (ابن جريس).

اليــمن بواسطة وإيمان بري Wyman Bury ويوجـد بوفرة هنـا. يغرد بين أفـرع العرعر، وخجول جداً، واليمامة اليمنيـة في أعداد معتبرة إلى جانب يمام الصخور ودخلة بري وقـد اكتـشفـها هو في اليـمن، مـخلوق صغـير، دقـيق يختـبئ في الأجمات، وقنبـرة حمراء الرأس تعشعش في حقل الذرة أو تحت الصـخور وقنبرة متوجة، اكتـشفت أول مرة في اليمن، ونوعان من الجشنة وعصافيـر متزاوجة وقد اصطدت اثنتين في حالة تزاوج والسلوى والحجل الذي وجد لأول مرة في الطائف والذي تحصلـت منه على عشر بـيضات، والأبلق والهـازجة وكـثير مـن السوّادية وطيور أخرى يبـدو أن معظم هذه الطيور معـشعشة. وقد قتـلتُ بالرصاص قنبرة حمراء الرأس وهي في عشها وأخذت فراخـها الأربعة للمساومة. وكان مما أضيف إلى مـجمـوعـتي، جرذ، وأرنب، وثعلب وغـيـرها، ومن وجهـة نظر التـاريخ الطبيعي، فإن حملتي إلى السودة كانت نجاحاً منقطع النظير.

لقد نجحت في أن أربط بين مساحـتين جبليتين منفصلتين، اليمن في الجنوب وأقليم الطائف في الشمال وأوضحت أن المجموعة الحيـوانية منهما كانت متماثلة. كان كل هذا الحزام من الجـبال واقعاً تحت تأثيـر الرياح الموسمية، ومناخـها، بينما شمال الطائف كانت البـلاد الجبلية منتمية بكل تأكـيد إلى النطاق الصحراوي ومن حيث الثراء الحيواني فهو مختلف جداً من الجزء الجنوبي للحاجز[١].

كان المنظر مـختلفاً بالدرجـة نفسها، تجـولنا هنا عند قمة السـودة بين غابات العرعر، تضربها الرياح وقد نمت وجذوعهـا ضخمة مشوهة وورق غزير في تضاد

---

(١) للمزيد عن الجغرافيا الطبيعية للبلاد الممـتدة من الطائف شمالاً حتى جازان ونجران وعسير جنوباً، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة**، جـ٢، ص ٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

مع الأيكات اللطيفة في السفوح الشمالية الأكثر حماية، ذات الشجيرات الطويلة المشذبة، التي يرغب فيها البنّاؤون في المدن المجاورة. كان محط العرعر في القمة غطاء نباتي ثري من نباتات زهرية، وأجمات ضخمة هنا وهناك إلى جانب المياه التي تقطر والتي بالكاد يستطيع المرء أن يقول إنها جدول حيث ينمو القصب، والدفلى، والزعتر العطري، والنعناع البري، والخزامى. عند حافة الجرف هناك صخرة عظيمة كالكتف تدعى الفاس، تبرز في انحدار عنيف إلى مئات الأقدام إلى الهوة المتثائبة عند المخاوية، -ربما أم خاوية بدلاً عن الخاوية[١]- لتستمر كحوض سيل عليه جلاميد منتشرة تساقطت في كتل من جبل محطم.

يقدم على الجانب الآخر من الفاس، صدع آخر في صفحة الجبال منبعاً لمسيل آخر يطلقون عليه اسم جوآل النجيم ويتصل به في المخاوية بعيداً، عند الأنف الذي تمتد إليه قدم فاس. يجري، بعد ذلك، المجرى المنتظم لحوض السيل الممتد بين سلاسل منحدرة ليتصل مع شعيب مربة، أيضاً ومن مواليد جانب الجبل، الذي ينساب إلى البحر عبر حقول الدخن الثرية في الدرب في سهل تهامة، والذي يسمى هنا باسم: الخبت، أو البلاد المنخفضة.

تسلقنا إلى قمة فاس، التي ترتفع إلى (٩٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وعندها تمكنا من مشاهدة منظر باهر للأراضي الرأسية للجرف ناحية الجنوب، كل

(١) وفي الجزء الجنوبي من المملكة العربية السعودية، وبخاصة في مناطق عسير وجازان التهامية، يقلب أحياناً (ال) التعريف لتصبح (أم) فمثلاً يقال:ـ (الرجال) وأحياناً يقال (أمرجال)، والأمثلة من هذه الكلمات والعبارات كثيرة. وكما ذكرت سابقاً أن اللهجات في هذه المناطق جديرة بالدراسة العلمية الجادة. (ابن جريس).

منها منبع لسـيل جارف يهبط في انحدار شـديد إلى شبكة من جبال ليـشق طريقه إلى مربة والتي رأينا جـانباً لها ناحـية الجنوب، حيث يلتف إلى اليـمين من حول سلسلة جبلية طويلة تفصـلها عن المخاوية وتستمر مارة بسلسلة جبـال سفح وعرفة وتجري جنوباً لتصل بوادي ضلع في طريقها إلى السهل وإلى البحر. يسمى الوادي من هذه النقطة شعيب درب بني شعبـة. تكوّن كل من سلسلة جبال سـفح وعرفة -الأولى ذات قمـتين والثانـية ذات قمـة واحدة- الحـدود القبليـة بين علكم على الجانب القريب حـيث ينساب جوآل النجيم إلى الأسـفل، ورجال ألمع على السفح الأبعد، والذي يجري أسفله شعيب حسوة وهو رافد آخر لشعيب درب بني شعبة، والذي يمكن رؤية مجراه الأعلى إلى الجانب القريـب لسلسلة أخرى تسمى الشرفة إلى الجنوب الغربي من موقعنا، والذي توجد على قمته أربعة أبراج مراقبة (للنظام التركي). كان يقع أكثرها ناحية الغرب بالفعل أسفل القمة، قريباً من حيث تنحدر السلسلة الجبلية انحداراً شديداً ناحية القرية المهمة شعبين التي يمكننا رؤية جزء منها ناحية الجنوب الغربي. يجـري وادي الشعبين إلى ما وراء سلسلة جبال الشـرفة، كأنها قائمة على الحراسة فـوق القرى، كانت ذات يوم مرصداً عسكرياً مهمـاً لحماية مم أبها عن طريق السـودة ولا تزال تخـدم غرضـاً مماثلاً كـمركـز إداري وتجـاري تحت نظام الوهابيين، والذين كان يمثلهم في هذا الوقت عبدالله الدويش وهو تاجر سوري سابق.

ينقسم مـجرى الشعبين عن شـعيب درب بني شعـبة بسلسلة جبلية عـريضة تسمى عقبة رز والتي عند سفحهـا توجد قرية مهمة أخرى هي رجال ألمع[1]، عند

---

(١) بلاد رجال ألمع بلاد واسـعة تمتد حـدودها من محافظـة محائل شـمالاً إلى أطراف بلاد درب بني شعـبة جنوباً. أما القرية التي أشار إليها فيلبي فيطلق عليها اسم: ـ (قرية رجال) فقط دون إضافة كلمة (ألمع). (ابن جريس).

النقطة التي يتحـول فيها وادي الشعـبين إلى اليمين ليذيب نفسـه في مجرى وادي حلي الذي يخترق سـهل تهامة إلى البحر عند مـيناء حلي. لقد تمكنا بذلك، من فاس، رؤية منظر لاثنين من أعظم نظم الأودية الـتي تنسج طريقها إلى البحـر عبر المتاهة الحقيقية لجبال تهامة.

تقع عرفة على بعد ميل واحد من موقعنا، وفي خط مستقيم، أما سفح فهي على بعد ثلاثة أميال وربما كـانت سلسلة جبال الشرفة على بعد أربعـة أميال. كان الاتجاه العام لخطوط الصـرف هذه هو ناحية الجنوب فيـما يبدو، إلى أن تصل إلى الخطوط الحاملة الرئيسة المتجهة غرباً إلى السهل. شمخ بعيداً ناحية الغرب، إلى ما وراء سلسلة جبال سفح وعرفة، جـبل فخر العظيم ذو القمتين (رجال ألمع) وعلى جانبه القريب وادي الشـعبين، بينما على مسافة ناحـية الجنوب الغربي يوجد تلان بارزان يربطهمـا مرتفع عمـيق يسمى قـرية آل قفيل وعند سـفحه توجـد القرية، وكذلك فقوة -ولهـا هضبة صغيرة-، كلاهما فـي منطقة رجال ألمع. تصعب رؤية سهل تهامة فعلياً فيما يلي هذا الحاجز لجبال صعبة، بسبب الغيوم الكثيفة، مما ثبط من توقعاتي أن أتمكن من رؤية البحر.

يقع منبع المخاويـة الفعلي، قريبـاً من نقطة مشاهدتنا، علـى بعد نصف الميل إلى ناحيـة الشمـال الغربي في الحـدبة ذات الغابات الكثـيفة عـند النهاية القـريبة لسلسلة جبلية منخفضة تسمى العريض، ولها حدبة مركزية وحدبة أخرى ثانية عند طرفها البعيد الشرقي وتسمى آل مجدة وتبعد مسافة ميل ونصف الميل من موقعنا. تقع قـرب الأرض المغطاة بالعـرعـر والمسـماة ضـرره وبهـا نبع في بطن سـيلهـا الحصـوي، وهو ماء يقطر نازاً من بين النقر الخـشنة في الصخـور التي تقودها إلى

الهاويــة. كانت أقرب الأراضي الــرأسية الجنوبــية على بعــد ميل واحد، وتــسمى جدعة إلــى الجنوب الشرقي من موقعنا، وتقع العــشّة ناحية الجنوب، كــما برزت الحفير مع قرية الرحمة على جانب تل من ورائها، وأخيراً قرية الحرملة[١] التي تقع ناحيــة جنوب الجنوب الشرقي. يمكننا رؤية حقــول مخضٍ بين جعدة والعــشة إلى الداخل من عند الجرف.

واصلنا تعرجــاتنا عبر الغابة، وتوقــفنا للنزهة لتناول الغداء في فرجة مــريحة في الغابة فوق منبع المخاوية، وتحركنا منها إلى أطلال لقــرية صغيرة تسمى السهوة، والتي هجرها ساكنوها الذين كــانوا من أهل الخميس ـ فخذ من بني مغيــد ـ منذ زمن بعيد بسبب عدم الأمان الذي كــان سائداً، وانتقلوا منها إلى قرية السودة نفســها، التي تبعد فقط بمســافة نصف الميل. تــنتمي قرية ثالــثة، الضحــية إلى الفــخذ نفــسه، ولا تزال مأهولة، وتبعد نصف الميل من السودة ومن السهوة وتكوّن القــرى الثلاثة مثلثاً متساوي الأضلاع يغطي هذا الجــزء من القمة وحقــول ذرتها الواسعة. يعــيش في قرية المخضً وقرية أخــرى، بطينة مجمــوعة من فخــذ علكم، غير أن مــعظم المنطقة الملامــسة بين الأرض الرأسيــة للعشَّة ووادي ضلع يسكــنها بني مغــيد، بما في ذلك قرية الرحــمة. تحركنا من الســهوة إلى نصب الشبرام، وهي ربوة تبــرز وتطل على جبال تهامــة ناحية الشمال من مجرى الجو الذي لم نتمكن من رؤيته بوضوح من فاس.

كان الوقت ظهراً وكنا قد غــادرنا فاس عند الساعة التاسعة صبــاحاً، غير أنه في هذه الفترة هبت عــاصفة فوق جبال تهامــة، برغم أن كل شيء تجاه الشرق من الجرف قد نعم بالشمس الساطعة.

---

(١) قرية الحرملة: تقع في تهامة عسير، وهي مكان حــصين كان يلجأ إليه أمراء آل عائض عند الضرورة أمام هجمات خصومهم. (ابن جريس).

تدحرجت سحب سوداء ثقيلة مرعدة شمالاً، مسقطة أمطارها على وادي الشعبين وبعيداً إلى وادي حلي، وترتد فجأة جنوباً حاجبة عنا المنظر قبل أن نتمكن من رؤيته كاملاً، لقد رأينا على أية حال، بعيداً ناحية الغرب، الموقع الذي يتصل فيه وادي الشعبين مع مجرى آخر من الجرف –واسمه وادي شصعة الذي ينبع من سمّا وهو ممر طريق البغال–، ليكوِّن بداية وادي حلي. تقوم في هذه النقطة قرية شوكان أسفل سلسلة ذات غابات، تكوِّن امتداداً لخط سفح وعرفة، ربما على بعد أربعة أميال وهو مدى تحليق الغراب. يقع مجرى وادي الشعبين إلى ما وراء هذه السلسلة وخلف شوكان، والذي منه، يجري وادي حلي ناحية الشمال الغربي عبر التلال إلى أن يلتف ناحية البحر قليلاً من ناحية الشمال الغربي.

كانت نصب الشبرم أعلى قليلاً من قمة فاس، غير أننا جعلنا من قمة الحدبة أهل مجده، أعلى البقاع، معلماً ومرجعاً لتجولاتنا. كان ارتفاعها، بناءً على جهازي اللاأسلكي لقياس الارتفاع، حوالي (٩,١٥٠) أقدام فوق سطح البحر، ولا يبدو بالتأكيد أن هنالك موقعاً أعلى منها في وادي ضلع وشعار. يفضل الأهالي المحليون هذا الموقع، كأعلى نقطة لديهم، وقد ترك أسلافهم على جلاميدها الجرانيتية سجلاتهم للحيوانات التي كانت معروفة لديهم – الغزلان، والوعل، والمها، والنعام، إلى جانب خربشات من طبيعة غامضة لم أفهمها. وجدت في الإجمالي سبع مجموعات منفصلة لمثل هذه الرسوم الصخرية، كلها بدائية نحواً ما وتقريبية، محفورة على سطح الجلاميد، وقد يكون هنالك الأكثر منها.

كان المنظر العام كما وصفته من قبل، غير أننا نستطيع الآن رؤية رابية حمومة في الجزء الأعلى من وادي بيشة، وجبل ضمك في السفوح الجبلية الشرقية.

ظهرت سمات أخرى ناحية الشمال الغربي، حيث تقع الرأس الأرضية المطمر وحقول محجر الموحلة -ولا توجد بها قرى- أمامنا على بعد الميل الواحد والسلسلة الطويلة. تقع تهلل منحرفة حولها من الجانب الأيمن، وفيما يليها تقع الهضبة المسطحة - الشرف، مع عدد كبير من الحقول وجبل رثبا. كونت كل هذه جزءاً من الجرف وما جاوره. تقع الحقول بين السودة والضحية - بالمناسبة: كل هذه القرى الجبلية مبنية من الحجر، علماً بأن الحجارة غير مصقولة- كما تُرى من هنا، في منخفض من مساطب، يضيق من عند وتر أعلى إلى مقدمة ضيقة عند النهاية السفلى. أعطاني هذا المنظر، مرة أخرى، الانطباع بمسرح روماني صغير، مثل المنظر الأوسع على الجانب الشرقي من السودة.

تقع القرية الأخيرة على بعد ثلاثة أرباع الميل ناحية الشرق من موقعنا، تقع الضحية فقط على مسافة ربع الميل على الخط نفسه تقريباً. كانت كل من حزم وكتف الرمادي، كلاهما ناحية شمال (الشمال الغربي) أقصى نقطة شمالية، استطاع دليلي من السودة أن يسميها لي، غير أنه توجد أرضان رأسيتان بارزتان، إلى البعيد وفي الاتجاه نفسه قيل إنهما أراضٍ أجنبية تابعة لبللحمر[1]. قيل لي إن النقاط الإدارية الحدودية بين السراة وتهامة، كانت قمتا فاس ونصب الشبرم.

عدنا إلى السودة قبيل الغروب وجلست لحظة فوق السطح أراقب السحب الوردية للغروب البديع، مظللاً حواف الأشجار التي جمَّلت الأرض المرتفعة عند حافة الجرف.

(١) يقصد بـ (أجنبية) أي أرض تتبع لقبائل أخرى، غير بلاد السودة التي شاهد منها تلك الأرض الأجنبية في بلاد بللحمر الواقعة إلى الشمال من موقع مشاهدته في أعالي جبال السودة. (ابن جريس).

هبطتُ، مع تقدم الليل إلى ظلام غرفة الجلوس الكهفية، حيث أمضينا الساعة التالية أو الساعتين في حديث على أكواب القهوة والعشاء وقهوة أكثر وحديث أكثر في لقاء لطيف. كان موضوع «المرشد» هو الأكثر استمرارية للخلاف بيني وبين رفاق سفري في الجزيرة العربية ليس بوصف كل منهم بأنه «مرشد» ولكن في مقدرة المرشد كخبير في الجغرافية المحلية. تفهم المرشد عبدالله بن رشيد، برغم أنه من مواليد المنطقة، من أحاديث زملائه في خدمة الأمير أن النهج النجدي المثالي هو أن تنحصر مهمة المرشد فقط في توضيح الطريق، وليس في إشباع فضول المسافرين. أنا أخالف هذا النهج بالطبع، غير أن الرجال المحليين الذين يعرفون جغرافيتهم، كانوا بصفة عامة إلى جانبي، وأهم ما برز كان وعدهم بأنه في طريق العودة إلى أبها في صباح الغد، فإن أحسن رجل لديهم، مقيم في الضحية، سيكون تحت تصرفي كمرشد جديد. عدت إلى السطح، تاركاً رفاقي يواصلون الحديث، أو النوم الخفيف، حسب المزاج. وصحوت في اليوم التالي قبل الساعة الخامسة صباحاً وبدأنا الرحلة بعد حوالي الساعتين بعد ذلك، سيراً على الأقدام خلال الجزء الأول للطريق، علماً بأن حمير العفش ومرافقيها قد تحركت مسبقاً على الطريق النظامي.

وصلنا بعد تتبعنا حافة الجانب الغربي الطويل للقرية تجاه هضبة ذات أشجار كثيفة، ناحية الجنوب الشرقي، إلى ممر ضيق طبيعي مكوِّناً الفاصل بين شعيب تهلل الذي ينساب شمالاً ماراً بالسلسلة الجبلية التي تأخذ الاسم نفسه، والتي سبق ذكرها، ليتحد مع شعيب آل قاسم، وهكذا لري قرية الحمرة إلى أسفل وفي مجرى آخر، وشعيب خبيبي[١] يجري في الاتجاه المعاكس عبر الحقول المنحدرة

(١) شعيب خبيبي يسميه بعض سكان المنطقة شعيب (خبيبو). (ابن جريس).

للقرية الجميلة حربة تجاه قرية عشربان ثم عبر شعيب بالاسم نفسه إلى وادي أبها. صعدنا مرة أخرى، فيما يلي آل القاسم، الذي هبطنا من مستوى قمته، إلى سلسلة منخفضة ناحية الغرب قليلاً من قرية آل محسن، وهي مجموعة من المنازل المتهدمة بين حقول متساوية. كنا هنا على ارتفاع (٢٥٠) قدماً على سفوح السودة، والجانب الرفرفي من التل من خلفنا، بينما كانت توجد إلى جنوب آل محسن والتي عبرنا بها سريعاً بعد حين، قريتان صغيرتان هما السوق والمعجزة في الطريق إلى آل رحمة وعلى حافة الجرف.

واصلنا السير إلى الطريق الرئيس، عند الساعة التاسعة والربع صباحاً، مرة أخرى عند مضيق غاوة وصعدنا من عنده إلى أعلى السفح المنحدر للتل نفسه، الذي كانت قمته على ارتفاع (٨,٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. كانت سفوحها الخارجية، ناحية الجرف، عارية وصخرية، بينما كانت جوانبها المواجهة للوادي، أسفل مغطاة بالعرعر بكثافة. تقع قرية صغيرة تسمى كفية عند قاعدته في مسيل ضحل على الجانب الجنوبي الغربي يسمى سبا والذي عند اتحاده مع خبيبي تقع قرية السوق الصغيرة مواجهة لوادي ضحل آخر به قريتان صغيرتان شط آل خضران. ظهر عدد من القرى الصغيرة ناحية الجنوب على جانبي مصرف خبيبي وهي: رأس السر وهي الأقرب إلينا على بعد الميل الواحد، والقرن ناحية الجنوب على بعد ميلين من الولجة التي تقع خلفها عن قرب. كان لكل قرية من هذه، بالطبع حقول ذرتها الصفراء، مبعثرة حولها، ولا بد أن يكون هنالك بلا شك، مجموعات أخرى سكنية زراعية في طبقات هذه الجبال، لم أرها. تمثل قرية خبيبي -بالمناسبة- الحدود القبلية بين علكم وبني مغيد والأخير تشمل القرن، والولجة، وشط آل خضران، والرحمة، وتضم علكم، بقية القرى الصغيرة التي ورد اسمها. تكوِّن المخَض بمفردها، عالية في الجبال، جزيرة من علكم في منطقة بني مغيد.

تعرف قـمة غاوة محـلياً باسم قرن آل غليـبة، والتي من عندها يهبط مـسيل يسمى شعيب غاوة، عن طريق مضيقها، الذي ورد ذكره، إلى القرية الجميلة ذنب غاوة في مساحة واسعة مستوية، في القاع. ليتصل هذا المسيل في هذا المكان، مع شعيب عشران أو قريباً منه.

توقفـنا عند هذه القرية، على ارتفـاع (٦٠٠) قدم على سـفوح جـبل غاوة حوالي الساعة (١١) صباحاً، لأجل تناول وجبة الغداء وبعض الراحة، التي كانت بالنسبة لي هي صيد الطيور. قمت بمطاردة زوج من طيور العقعق داخل أجمة من أشجار العرعر -تسمى مـحلياً ضوضية- غير مهتم بنصيحـة مرشدي لأن أتركهما وشأنهمـا، ذلك لأنني لن أجد مثل هذه الطيـور المراوغة. ولم أتحصل، حقـيقة، على أيٍّ منها عند القـمة، برغم أنني قد شاهدت العديد منـها وأطلقت الرصاص على أحدها فسقط كالحجر عبر الأوراق الكثيفة للعرعر. توقعت أن أجده ميتاً عند أسفل الشجـرة، وعبثاً كانت مـحاولة العثور عليـه! أصررت هذه المرة أن أحصل على عينة مـهما كانت مـضايقات المطاردة، ويبدو أن الحظ قـد واكبني، ذلك لأن الطيور تظل في تجمعـاتها ولا تغادر منطقة الخطر، التي توجد فيهـا، أعشاشها بلا شك. لمحت أخيراً الطائر الذكر مختبئـاً في كثافة الغطاء النباتي التحتي عند أسفل شجرة عرعـر طويلة، وبدأت أتقدم وبحذر على طريدتي التي كانت مختـبئة تماماً في الغطاء الكثيف، عندمـا ظهرت الأنثى بصرخة حـادة واتخذت موقعـاً واضحاً فوق الشجرة مكشوفة تماماً، زاعقة تحذيراتها، وتعليماتها إلى رفيقها، الذي واصل تواريه. تحركت إلى مسافة تصويب سهلة، محاولاً كل ما يمكن للبحث عن الطائر الذكر غير المرئي، ورفعت بندقيتي فـجأة، ناحية الأنثى، وهي محذرة زوجها إلى آخر لحظة، فسقطت ميتة إلى الأرض.

ارتفع رأسمالي فجـأة أمام الجمهور المحلي، فقدموا لي أربعـة فراخ عقيق لم ينمو لها ريشها بعد من عش مجاور وحـاولت أن أجعلها تظل على قيد الحياة بلا نجاح. ارتفـعت سمعتي كـرامٍ وهداف ماهر أكثـر في الطريق، حينما اقـتربنا من السحـراء. شاهدت طائر الوقواق على شـجرة كبيـرة على مسافة، وكنت أراقـبه بطريق غير مـباشر حين طار، وأسقطته رصاصـتي ميتاً. قد تكون رصاصـة قياس (٤١٠, ٠) مع بندقية أم سبع قاتلة، إذا أصاب المرء الهدف.

عرضوا عليَّ نبـاتاً يسمى مليان في قرية ذنب غاوة، وهـو نبات يصنعون منه في مـرتفعات هـذه البلاد ضـمادة لحالات الـطهارة. تجولـت حول حقـول الذرة الصفراء، حيث كـانوا قد بدأوا حصاد القمح، كما قـمت بزيارة مسيل غاوة الذي كان به -قليلاً إلى أعلى- شـلال مياه جيد. تستخـدم هذه المياه للري وقد وجدت في الغطاء النباتي الثري حول جداولها طائر التمهيد الجميل الأسود وبأعداد كبيرة. ولأجل المقابلة، فإن حجلي ويسمى قهبي (جمع قهابي) كان متوافراً هنا في غابات العرعر التي تحيط بالمزارع عند أسفل تل غاوة.

كان طريقنا، عندما واصلنا مسـيرتنا من هنا، مبكراً عند الظهر، مماثلاً لذلك الذي سلكناه في الصعود. مكثنا فترة في السحراء، لسقيا الخيل من بئر في المجرى أعلى القرية، وأيضاً لـنشاهد جانباً منه، وهو يتكون من قسـم رئيس يحتوي على قصـر رهيب ومجـموعات من عـشش عادية. قـمت أيضاً بجمع بعـض النباتات الناميـة بغزارة على جـانب النهر وتطلعت للطيـور، والتي من بينها كـانت الطيور النساجة أكثرها وفرة. كان مجرى السـحراء الفعلي رافداً لعشران إلى الشمال منه، والذي في اتجاهه ينساب، ماراً بقرية صغيرة تسمى آل زيدي على بعد نصف الميل.

لقد سرت مترجلاً بالفعل، كل المسافة من السودة إلى هذا المكان، غير أنني الآن لحقت برفاقي وامتطيت ظهر حصان للسفر عبر الممر الشرقي إلى قواعدنا في أبها حيث وصلنا عند الساعة الثالثة والنصف عصراً. وأمضيت بعد ذلك جزءاً من المساء في شحن ثلاثة صناديق وجوال من العينات للمتحف البريطاني -طيور، وثدييات، وحشرات، ونباتات، وصخور- هي مجمل عيناتي التي جمعتها خلال الشهر الماضي. وقد أرسلتها في الصباح التالي إلى مكة وجدة بسيارة البريد.

كان ذلك يوم الخميس، حيث زرت سوق خميس مشيط، ورأيت حين عودتي إلى أبها، وأنا أتجول قبل الغروب، ضرباً بدائياً من لعبة الكريكيت تؤدى في بطن الوادي. استخدم فيها حجر كبير، أو شريحة صخر مقام عصاة الوكت وحجر مكوَّر مقام الكرة، التي تقذف، بينما كان ضارب الكرة يهتم فقط بالدفاع عن الوكت حاملاً قطعة خشب متينة. لم يكن هنالك ركض أو جري. للأسف لم أسجل الاسم المحلي لهذه اللعبة(١). كان هنالك شيء آخر من الخصوصية حول أبها هو صناعة أوعية الطبخ من الفخار، إذ أن لها أشكالاً متباينة، من لبنات وردية ذات لمعان مما أكسب القدور مظهراً معدنياً. وكانت تباع بأعداد كبيرة في الأسواق هنا، وفي المقاطعة المجاورة(٢). قيل إنه في عام ١٩٣٤م، قام موظف

(١) هناك العديد من الألعاب الرياضية ووسائل التسلية الاجتماعية القديمة التي كان يمارسها سكان جنوبي البلاد السعودية، حبذا لو تصدى لها أحد الباحثين فيخرج عنها دراسة علمية أكاديمية جادة، وللمزيد حول هذا الجانب، انظر: كتابيّ ابن جريس. **أبها حاضرة عسير** ص ٢٦٤، **وعسير ١١٠٠ - ١٤٠٠**، ص ١٠٨ - ١١٧ . (ابن جريس).

(٢) لمزيد من المعلومات عن الصناعات المحلية في منطقة عسير خلال القرون الماضية، انظر كتاب: **- عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠**، ص ١٤٧ - ١٦٣ . (ابن جريس).

حكومي بارز بإجراء عقد زواجين في شهر واحد، أثناء أداء مهمته هنا، كان الأول لسيدة من بني مـغيد وانتهى بالطلاق بعد عـشرين يوماً بتفضـيله لامرأة أخرى من علكم، التي تحصلت على طلاقها بمغادرة ذلك الموظف بعد عشرة أيام لاحقة.

كانـت تكلفة الزواج من امـرأة سبق لهـا أن تزوجت مرة واحـدة أو أكثـر، وتسمى راجع، يتباين بين (١٠) و (٢٠) ريالاً أما في حالة الفتاة العذراء فقد كان بالطبع، أعلى من ذلك[١]، وفي حالة النساء الرقيق -حيث يقوم بعض أبناء حسوة والشعبين بدور الوسيط الرئيس في هذه التجارة في الفـتيات الأفريقيات من ساحل تهامة، اللائي كن يختطفن غالبـاً، أثناء رعايتهن لقطعانهن في الغابة- كن الأغلى سعراً على الجميع حسب درجة الجمال وإنجازات أخرى.

كان آخر فـقرات برامجي للمرتفـعات، هو أن أقوم بزيارة شعـار، وقد حدد الأمير اليوم الثالث عشر من يونيو للقيام بذلك، وقد أعارني عبدالله بن رشيد مرة أخرى، وسيارتين لرفاقي وللعفش. تحركنا عند الساعة السابعة صباحاً وعبرنا جسر القـابل وسرعـان ما مـررنا، على يسارنا وعن قـرب، بقريتي رظف الصـغيـرتين وقصريهـما أو قصورهمـا الثلاثة المدمَّرة المتبـاعدة عن بعضهـا، وبدأ طريق العربة يتعـرج فيما يلي هذه القـرى، صاعداً جانب التل إلى ممر يسـمى أم الركب. كان الطريق طويلاً وصعبـاً وخشناً إلى حد بعيـد، وقد استغرقت رحلة السـيارات مدة (١٥) دقيقة لكي تصل إلى القمة، حوالي (٣٠٠) قدم فوق أبها، وعلى بعد ثلاثة أميال نـاحية الجنوب. كانت هذه القـمة نقطة حدود بين بني مغـيد (في الجنوب)

---

(١) يوجد لدى معظم الـقبائل وثائق اجتمـاعية تنص على اتفاق أفـراد كل قبيلة في تحديد المهـور وما يتعلق بأوضاع الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة. (ابن جريس).

وعلكم (في الشمال). وتقع أمامنا مباشرة وتجاه الشمال، تلال سر بن حامد والاسم الأول مشتق من مسيل السر والذي تتبعناه إلى أسفل من الممر، وإلى اليسار إلى أسفل أكثر، حيث اتجه ناحية الشرق ليتصل مع وادي ابن هشبل، وهو أحد روافد بيشة.

دخلنا شعيب بني مغيد[١]، بعد عبورنا المضيق في سلسلة منخفضة مكونة جانبه الأيسر، وعن طريقه وصلنا سريعاً إلى قرية المغمر التي كان رئيسها، الذي توفى حديثاً، مشهوراً بأنه قد بلغ من العمر مئة سنة. تقع قرية عطف بن حامد، عكس اتجاه الوادي، من هذا الموقع -على بعد ستة أميال من أبها- في منحنى شعيب غير مرئي من الطريق بسلسلة جبلية منخفضة -يبدو أنها القرية الرئيسة لمجموعة قرى بني مغيد هذه[١]- وعبرنا بعدها جدولاً صغيراً يغذيه نبع اسمه، واسم القرية التي بجانبة، عين ابن مصافح أو باختصار العين، تبدو القرية مدمرة وسط المساحات المعتبرة لحدائق الفواكه التي تحتوي على أشجار التين، والمشمش، وغيرهما، وكان بينها مستعمرة لطيور السوّادية تمرح. اشتملت القرية على مسجد مهجور وبئر عادية مبطنة بالحجارة على جانب الطريق، وقد وجدنا إلى ما يليه، أن الطريق قد سدَّ بجدار حجري مبني من جانب إلى آخر للوادي الضيق لحجز الماء لأغراض الزراعة. كان علينا أن نزيل جزءاً من الحاجز لتتمكن السيارات من العبور. وصلنا، من وراء هذا الجدار إلى حدود علكم وبني مالك، وهو شعيب غيرمهم استدار سريعاً ناحية الشرق من الطريق ليتصل مع شعيب السر على مسافة قليلة في شبكة من تلال منخفضة.

---

(١) هذا الشعيب يتبع قبيلة علكم العسيرية، ويطلق عليه شعيب (المغمر). (ابن جريس).

(٢) الصحيح قرى علكم وليس كما ذكر المؤلف. (ابن جريس).

تبـتعد الحـدود من هذه النقطة عن المجـرى وتضرب من خـلال ممر بين تلال منخفضة على الجانبين، ثم تتصل بعـد حين عند مضيق (علامة حدودية أخرى)[١] ويدخل على جانبـه الآخر إلى وادٍ واسع لطيف يجري فـيه مجـرى سر بني رزام الذي يبدأ من مجموعة التلال على مسافة نصف ميل إلى اليسار من المضيق. مررنا بعد قليل بأول المسـاكن (آل محمد بن علـي) بقرية سوق السبت تركنا السـيارات وبعد نصف ميل آخر على جانب الطريق وعبرنا المجرى لزيارة القرية الرئيسة لهذه المجموعة من القرى، والتي امتـدت إلى الشمال على امتداد الوادي مع العديد من مزارع الفـواكه هنا وهناك، إلى جانب حقـول الذرة الصفراء. يشتـمل هذا المركز التجاري على قرية السوق وقريتين صغيـرتين تسميان القرايات وتكون كلها ما يبدو وكأنهـا قرية واحدة. كانت القـرية التالية على بعد الميل الواحـد مع اتجاه الوادي، هي آل صعب على الجـانب الأيسر، وتقع قـرية ذمالة في مقـابلها عبـر المجرى. تجري الحدود بين بني مـالك (شرقاً) وربيعة ورفـيدة، فيما وراء سلسلة منخـفضة معترضة هذا الوادي من ناحية الغرب (أو على امـتداد قمتها). يسكن قرى السوق مجموعة بني رزام، قسم من بني مالك.

كان علينا أن نمر، على مـسافة أسفـل الوادي، عبر أراضي قريتين أخـريتين هما بالتتـابع الملاحة وآل مجـمل. تتكون قرى أخـرى تابعة لبني مالـك، يبدو أنها قـبيلة ضخمـة، من آل مسلت، والشلفاء، وآل الصبح، وآل هتـان، وآل جاهل، والطحل، وصـعـبـان، والمجزعـة، وقـرين، وآل بيـشـة، وهتـان، والجنفـور، والعطفـة[٢]،

(١) هذه العـلامة الحـدودية تقع بين قبـيلتي علكم وبني مـالك العسـيريتين. (مـقابلة مع عـوض بن ناحي العسيري، طالب دراسات عليا في قسم التاريخ، جامعة الملك خالد). (ابن جريس).

(٢) الاسم الصحيح هو (العطف) (ابن جريس).

والخارجة، والخنـق، والموسطة، والنبعة، والجعـجاع، وآل جمعة، وسـبل المحالة، وهمـا قريتـان: العين، والعطف، وعـدوان، ولحسـان أو (آل لحسـان)، وآل بن نعـمان، وآل جـرجـر، وحجـلا، وآل الغليظ، والمجـارذة، وآل بالكبـاش، وآل الجندي.

يقيم شيخ بني رزام ويدعى ابن عـفتان[١]، في ذمالة، غير أن يوم زيارتنا له كان يوم السبت وهو يوم السوق المحلي، لذلك فقـد حضر الشيخ إلى السوق وقد قوبلنا من طرفه بحفاوة وترحيب وعلى مسـتوى مشرف، من جانب المسؤول المقيم في المنطقة واسـمه محمد بن لـبدان. لقد كان شخـصية معـروفة ومحتـرمة ولها معجبـون في كل الريف، وقد رفع هذا من مقامه ومقـام أسرته، إلى الصدارة في موقع القيـادة عند درجة ليست بأقل من تلك للشـيخ نفسه. انتعـشت أموره حتى غدا رجلاً غنياً بالمستوى المحلي، واعترف الجميع بجاذبيته وبكرمه. ليس له أعداء، وكان يترأس جلساته في الصـالة. لقد قضينا أكثر من ساعة نسـتمتع بكرمه وسرده للتاريخ المحلي وخرجنا من ذلك بانطباع حسن لشخـصيته الجذابة والخارقة للعادة. كانت إجراءات السوق تكراراً ضعيفاً لمشاهد مماثلة في خميس مشيط وفي أبها[٢]، والتي كانت تبعـد فقط بحوالي ثمانية أميـال على الطريق. كان الارتفاع هنا مماثلاً لذلك في أبها، ذلك لأننا كنا نهبط باتزان عبر ممر أم الركب.

عدنا إلـى السيارات وواصلنـا رحلتنا مارين بآل صـعب، والمصرمـة، وذمالة ومن ثم إلى الملاحـة، عبر قريـة تنتـشر فيهـا بـساتين الفاكهة والقصور المنفـردة

(١) ابن عفتان نائب قرية بني رزام المالكية العسيرية والشيخ هو ابن معدي. (ابن جريس).

(٢) تكاد تكون جمـيع الأسواق الأسبـوعية القديمة في الجـزيرة العربية مـتشابهة في نـظامها وترتيبـها. (ابن جريس).

أو بمجموعات من منازل تمتد إلى مسافة الميل الواحد أسفل الوادي. بدأت قرية آل مجـمل، مباشرة فـيما يلي هذه القـرية وهي في داخل المجرى الذي كان عـرضه حوالي (٤٠٠) ياردة، ومنتـشرة على امتـداد (١,٥) ميل أو أكثـر، وذات بساتين فواكه مزدهرة وحقول واسعة. عبر الطريق هنا من عند الجانب الأيمن للمجرى إلى الجانب الأيسـر، ليمر بالقـرية التالية ذات المسـاكن المبعثـرة، والبساتين في متسع واضح للمجرى على يميننا، حـيث يميل ناحية الشمال الشـرقي بعيداً عن الطريق، ليتصل في نهـاية الأمر، مع مجرى بيشة بعـد مسافة عبر السفـوح الجبلية. كنا هنا على ارتفاع (٢٥٠) قـدماً تحت مـستوى أبهـا، غير أن الطريق الآن يـتجه ناحـية الشمال، وقـد بدأ يصعد قليلاً في اتجـاه سلسلة منخفضة تحـجب ممر شعار. تقع قرية آل مـسلت إلى البعيـد، على يميننا وعلى الشعـيب الذي كنا قد غـادرناه قبل قليل، بينما بعد ذلك قليلاً، ضربنا في الحـوض الضحل الذي يسمى شعار المزرع الذي ينساب مـوازياً لسر بني رزام[١] ويمر بقرية المجـزعة ليتصل مع مـجرى ابن هشبل كما فعل السابق، في طريقه إلى بيشة.

خرجنا منه إلى المنحدر المريح لسلسلة جبال شعار، الذي تقف عند قمته ثلاثة أبراج مراقـبة وثلاثة أبراج حراسـة، كل منها يقف على قـمة صغـيرة ولمحنا عند الوصول إلى المضيق المنخفض -العبل- ممر شعار، يمتد أمامنا وعليه ثكنات الأتراك المدمرة وقلعة صغيرة غير أنها جليلة، قـائمة في موقع جيد لحماية البناء الكبير من أي هجوم. كنا على ارتفـاع (٢٢٠) قدماً تحت مـستوى أبهـا، عند الثكنات التي قضينا فيها وفيما جـاورها، حوالي الساعتين، ونبعد الآن عن أبها بمسافة (١٦,٥) ميلاً ونصف الميل.

(١) في الواقع أن شعار يبعد عن بني رزام شمالاً بحوالي (٥ ــ ١٥) كم .(ابن جريس).

كان الغرض من المعسكر الحربي في شعار في عهد الأتراك -وهو الآن مهمل تماماً من جانب الإدارة السعودية- هو حماية خط المواصلات الرئيس بين أبها وميناء القنفذة على البحر الأحمر. أُنشئ هذا الطريق مع صعوبته لتي لا تزال قائمة في بعض الأجزاء، للحركة ذات الدواليب ومع قليل من أعمال الصيانة، يمكن إعادته كطريق سيارات نظامي. لا بد وأن يكون هذا قد حدث منذ زيارتي، حيث إن الحكومة السعودية تبذل اهتماماً كبيراً بمشكلة المواصلات. سيعود بعدها البناء التركي القديم مفيداً لتخزين البترول واحتياجات أخرى.

كانت القلعة والمعسكرات الصغيرة، والثكنات في حالة سيئة من الدمار في عام ١٩٣٦م. تم نزع كل الأجزاء الخشبية بواسطة رجال القبائل في المنطقة لأجل استخدامه للوقود. وأصبحت الثكنات هياكل بأبواب فاغرة ونوافذ تصرخ الرياح خلالها في دوي مخيف. كانت تغطي مساحات كبيرة من الجرف العالي الذي يسيطر على الهاوية والساحة، وحصل تساقط من طرف الجرف من ارتفاع (١٠٠٠) قدم أو يزيد، إلى سفح وادي تية الذي على امتداده يجري طريق العربات ماراً بالقريتين الصغيرتين العارضة وبعرور، واللتين يمكن رؤيتهما جزئياً عبر الامتداد الأول للمجرى الذي يبلغ طوله ميلين، إلى محايل التي لم نرها، وقد قيل إنها تقع إلى الجنوب[1]، على سفح تل مرتفع يسمى القرين الذي يبدو أنه على بعد ستة أميال من هنا. ينساب تيه إلى ما وراء محايل ليتصل مع وادي حلي[2]

(١) الواقع أن محائل بلدة حضارية قديمة في تهامة، وتبعد عن مدينة أبها ناحية الغرب، وليس إلى الجنوب، بحوالي (٨٠)كم. (ابن جريس).

(٢) وادي حلي: هو أكبر أودية تهامة الشمالية حيث يرفده عدد كبير من الروافد التي تنبع من السفوح الغربية لسروات عسير مثل:ـ وادي تيه، ووادي قنا والبحر، ووادي الريش، ووادي بقرة، ووادي الهيجة، ووادي شري. للمزيد انظر: عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة واليمن** (مكة المكرمة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ١٨٩ وما بعدها. (ابن جريس).

الذي يقال إنه يقع فيما وراء سلسلة جبلية عالية ويرى في مشقة، خلف القرين. كان بطن الوادي من رمل عميق، وكان سير السيارات فوقه صعباً جداً، ويتباين عرضه من (٤٠٠) إلى (٥٠٠) ياردة في الامتداد المرئي، ويجري ناحية الشمال الغربي، وتتجه الجبال نحوه على الجانبين في صخور عمودية على ارتفاع (٢٠٠٠) قدم، مرتبة في سلسلة من الكتوف التي يجد أهل القرى الصغيرة فيما بينها بعض التربة الصالحة للزراعة فيزرعونها.

اصطدم الوتر الضحل للجرف على الجانبين مع الجبال الضخمة. كان من بين تلك الجبال التي على الجانب الأيمن، جبل بعرور ومن خلفه سلسلة جبلية مرتفعة، وكلاهما يتجه ناحية الشمال الغربي بالنسبة للثكنات، وتتبع منطقة بللحمر التي تنفصل بواسطة شريط وادي تيه عن بلاد ربيعة ورفيدة واللتين كانت سماتهما الرئيسة هي الأرض الرأسية لأملحي على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب، وتقع قمة مبارك خلفها مباشرة.

يشمخ تل سعد، قريباً منا، وعلى بعد حوالي الميل الواحد ناحية الجنوب الغربي، تفصله قلعة شعار عن الثكنات وتكون سلسلة وقمة خوير من خلفه على مسافة خمسة أميال. يكوِّن هذا -كما كان حال مرتفعات المبارك وبعرور- جزءاً من السلسلة الظهرية الرئيسة الجبلية للسراة، أو الحجاز، كما يسمونها إلى الشمال من وادي ضلع. يقف على مسافة الميل الواحد إلى غرب الجنوب الغربي من موقعنا قمتان عظيمتان من الصخور على جانبي جرف شديد الانحدار وعميق على جانب الجبل ينحدر منه مسيل شعيب رفيدة[١] إلى رأس وادي تيه.

---

(١) رفيدة هذه أرض عسيرية، وهي: (ربيعة ورفيدة) إحدى قبائل عسير الأربع الرئيسة. أما رفيدة الأخرى التي سبق ذكرها كثيراً في الصفحات السابقة وتقع إلى الجنوب من خميس مشيط فهي قحطانية، وتسمى (رفيدة قحطان). (ابن جريس).

أمكننا رؤية جبل نمري ناحية الجنوب على بعد (٩) أو (١٠) أميال، وهو بقعة أخرى عالية تتبع بلاد ربيعة ورفيدة، بينما يقف التل المنخفض واسمه جبل مجاريض إلى الخلف على الطريق الذي كنا نسلكه، في مكان ما، بالقرب من الحدود بين القبيلة الأخيرة وعلكم (بني رزام). ووقف تل على هيئة القبة قليلاً إلى الخلف، ناحية الجنوب، يسمى آل عاصم إلى جوار قرية بالاسم نفسه لعلكم على جانبه القريب. يقال إن شعيب رفيدة يصرف كل السفوح الشرقية لبلاد ربيعة ورفيدة إلى وادي تيه.

هكذا كان المنظر العام، ناظرين إليه من ناحية الثكنات تجاه البحر، حيث كان الجندي التركي قد حضر إلى هنا، في تلك الأيام المنصرمة، لخدمة هذه البلاد في أرض المنفى المظلمة هذه، لا يزال طريقه الذي سلكه للصعود من رأس وادي تيه عبر المنحدر، المغطى بالحصى، واضحاً للعيان وهو يتعرج، على الأقل، في تلك المواقع التي لم تنجرف إلى الهاوية. يصل هذا الممر، على بعد (٢٠٠) ياردة من الثكنات، إلى قمة الجرف في انحدار سهل، والذي عند نهايته يجد المجند الجديد، ما هو ملائم بما فيه الكفاية، المقبرة الكبيرة، التي دفن فيها العديد من مَنْ قد سبقوه.

تمتد المقبرة من طرف الهوة بعيداً عن الثكنات شاغلة جزءاً من مساحة السهل الصخرية الكثيبة، والتي لا بد وأن قد خدمت كأرض استعراض في تلك الأيام الجميلة المنصرمة، تجاه اليابسة وعند الثكنات. تم إغلاق هذا الممر من الجانب البعيد لسلسلة عبل بالقلعة الصغيرة والتي تقع ناحية الجنوب الشرقي، ويسدّها كذلك، على الجانب الشمالي الشرقي، على بعد الميل الواحد، تل غفلة الصغير. يجري بين الاثنين، منخفض ضحل، يبدأ من المنحدر الشرقي للجرف، ويتصل في نهاية الأمر مع مجرى شعار المزروع. أقام عليه الأتراك، قليلاً إلى الخلف من

جانبه الأيمن، وعلى بعد (٥٠) ياردة شرق الثكنات، حوضاً ذا حجم وسط، ليعمل خزاناً لمياه الأمطار والسيول لاستخدامها بواسطة الحامية. وقفت إلى جواره شجرة طلح حزينة، منفردة، إلى جانب أشجار طلح أخرى وجنبات ممتدة تجاه وإلى داخل المنخفض. كانت البركة خلال زيارتي، مملوءة بالماء غير أنها لا تعطي الانطباع بالاستدامة كخزان. كانت المياه في تلك الأيام بلا شك، تضخ من آبار قرى بني رزام خلال أشهر الصيف.

انتهت زيارتنا إلى شعار، وهو مكان حزين، ميت، ليس به إلاَّ طيور الغراب وقنبرة الصحراء لإحياء منظر للخراب، كان ذات يوم مقراً للراغبين في حماية السلام في هذه الأرض القاسية. أدرنا ظهورنا نحوها في فترة ما بعد العصر الباكرة لنتحسس خطواتنا إلى أبها. توقفنا عند ذماله مدة نصف ساعة لزيارة الشيخ بن عفتان كما قد وعدناه بذلك، وتلكأنا عند السوق في سرور برفقة محمد بن لبدان. تناولنا القهوة والشاي في كلا الموقعين بينما كنا نتحادث حول شؤون العالم، ووصلنا أبها بعد ذلك قبل الغروب بنصف ساعة. غادرت أبها في اليوم التالي إلى الأبد، ولكني تركتها بذكريات حلوة لكرمها الجذاب وبيئتها الجميلة. لقد وفَّرت لي أول مذاق حقيقي «للجزيرة العربية السعيدة» عند القدماء وقد جاوزت في ذلك كل توقعاتي[1]. لقد أمدت الطبيعة هؤلاء الناس البسطاء، بمحيط عظيم وكانوا في قناعة للحياة مع الطبيعة، يتقاتلون ويتشاجرون فيما بينهم، كما فعل أسلافهم من قبل، حتى جاء فجر السلام السعودي.



(١) من يطالع مدينة أبها اليوم وما حولها يجدها أصبحت من المدن الجذابة الجميلة في المملكة العربية السعودية بل في دول الخليج العربي، لما امتازت به من مناخ جميل وطبيعة خلابة، للمزيد انظر: **كتاب أبها حاضرة عسير**(دراسة وثائقية) ص ١٤ وما بعدها. (ابن جريس).

الفصل العاشر

وادي تثليث[(١)]

وصلنا إلى منزل عبدالوهاب في خميس مشيط بعد المغرب مباشرة من اليوم الرابع عشر من يونيو، وقضينا الصباح التالي نستكشف المناطق العليا من وادي بيشة، كما وصفت سابقاً. غادرنا خميس مشيط عصر ذلك اليوم، وقد استغرقت الرحلة حتى الآن أربعة أسابيع من جملة الوقت المخصص لرحلتي، وقد حدد لها برنامجي المبدئي مدة (٢٦) يوماً - على الأكثر-. سارت الأمور حتى الآن على ما يرام. أعيد تكوين فريق رفاق السفر وقد تحسن كثيراً بإدخال تغيرات معينة بالتشاور مع الأمير خالد في أبها. تم الاستغناء عن خدمات إبراهيم بن فرج ومساعديه النجديين، مع تقديم نفحات مناسبة اعترافاً بالخدمات التي قدموها. لقد خدموني بدرجة جيدة، غير أنهم لم يكونوا ذوي فائدة مباشرة لي، كما أنهم أنفسهم لم تكن لديهم الرغبة في الذهاب إلى أي مكان يبعدهم عن الحضارة. أعفينا -كذلك- سعيداً، مساعد سائق الشاحنة، وقد كنا قد دفعنا لدليلنا حمود من بيشة أجرته منذ فترة ورجع إلى بلده.

أصبح الآن محمد العسيري بدلاً عن إبراهيم رئيساً لمجموعتي. وهو رجل من أبناء علكم، وقد خدم عند تركي السديري مدة طويلة في أبها وفي الجوف

---

(١) يقع حوض وادي تثليث إلى الشمال من هضبة نجران ويتخذ شكل المستطيل فيحتل الجزء الشرقي من هضبة عسير، ومع أنه يتجه من الجنوب إلى الشمال، إلا أن اتجاهه هذا ينحرف عن اتجاه سلاسل الجبال، فيمتد ما بين تلك السلاسل في سراة قحطان في الجنوب الغربي وبين حوض عاليه وادي الدواسر. للمزيد انظر: عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص ١٧٣ ـ ١٧٤؛ عمر بن غرامة العمروي. **منطقة تثليث وما حولها من ٦٥٠ ـ ١٤١٤هـ** (الرياض: دار الشبل للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) ص ٣٣ وما بعدها. (ابن جريس).

وفي مناطق أخرى. لقد كان حقيقة، خادماً مستديماً لأسرة السديري ويبدو أنه رجل ذو شأن. كان دليلي -في الحقيقة- مكسباً عظيماً لي، واسمه فرج بن قرقة من أبناء قحطان، كان قد افتتح هو وأخوه بداح فعلياً طريق السيارات إلى نجران، وبقيامهما بهذا، فقد تمكن من استكشاف دقيق لكل البلاد التي تقع أمامنا لتحديد اختيار أحد الطرق البديلة. كان بالمناسبة، من أبناء هذه البلاد الجنوبية، إلى جانب أنه ذو ذكاء عظيم وجاذبية. لقد برهن حقيقة أنه رفيق جيد. صنع هذان الاثنان قواماً متماسكاً للفريق الجديد الذي تضمن بالطبع، المخلص سعد بن عثمان وسائقي، محمداً، إلى جانب عباس سائق الشاحنة الأصلي. جلب الأخير هذا مساعداً جديداً له يسمى -كسابقه- سعيداً. كما أصر الأمير أن يكون معي طباخ محترف من موظفي مطبخه الخاص، وهو رقيق زنجي محرر يدعى ابن جابر. كوّنا بذلك، بما فيهم أنا، فريقاً من ثمانية أفراد يبدو في كل مظاهره أنه أكثر تجانساً من الفريق القديم.

قد يكون من المناسب أن نعيد باختصار المسافات التي غطتها حملتي حتى الآن قبل متابعة المزيد من السفر. سأوردها بالكيلومترات كما سجلها عداد سرعة السيارة بدقة كبيرة - آخذين آبار عشيرة كنقطة انطلاق وممر شعار الهدف النهائي. لقد غطينا إجمالي (٨٥٢,٤) كيلومتراً بين هذه النقاط، غير أن المسافة النهائية، باستثناء الرحلات المحلية، والتحويلات في سيارتي- لم أضع في الاعتبار مسافات إضافية غطيتها بواسطة عربات مُضيفيَّ في خميس مشيط (-٣٦,٨) كيلومتراً من خميس مشيط إلى الحمى والعكس- وأبها -رحلات داخلية- كانت الحصيلة (٧٩٧,٧) كيلومتراً، أو فعلياً ٥٠٠ ميل.

كانت المسافة النهائية الفعلية من عشيرة إلى تفرع نجران- خميس مشيط (٧٠٥,٢) كيلومترات، تفاصيلها كما يلي: من عشيرة إلى الخرمة (١٧٠,٦ كيلومتراً)، إلى رنية (١٤٧ كيلومتراً)، إلى الروشن (١٨٥,١ كيلومتراً)، إلى خيبر (١٥٠,٦ للوحدة) وإلى مفرق الطرق (٤٥,٩ كيلومتراً). كانت المسافة من هذه النقطة الأخيرة (٣٤,٥) كيلومتراً إلى خميس مشيط، (٣٠) كيلومتراً إلى أبها، (٢٨) كيلومتراً إلى شعار، إجمالي (٩٢,٥) كيلومتراً. عدنا على طريقنا من شعار إلى مفرق نجران، كانت المسافة النهائية ذهاباً وإياباً (١٨٥) كيلومتراً. كما أن المسافات من المفرق إلى نجران يجب أن تدخل في الحسبان من عند عشيرة - (١٠٩,٤) كيلومترات من مكة و(١٨٧) كيلومتراً من جدة- فإن المسافة النهائية ستكون (٧٠٥,٢) كيلومترات، أو (٨١٤,٦) كيلومتراً من مكة و(٨٩٢,٢) كيلومتراً من جدة. إذا أضفنا إلى الرقم الأخير مسافة (١٨٥) كيلومتراً من المفرق إلى شعار، فإن المسافة النهائية الإجمالية التي تم تغطيتها من جدة ستكون (١٠٧٧,٢) كيلومتراً، والتي ستزيد بسبب التحولات المحلية بمقدار (٩١,٥) كيلومتراً، سيكون الناتج النهائي (١١٦٨,٧) كيلومتراً غطيتها بنفسي منذ أن غادرت جدة في السادس عشر من مايو لأبدأ حملتي، أو ما يعادل (٧٣٠) ميلاً. كانت المسافة بين جدة وأبها (٩٥٦,٧) كيلومتراً، أو ما يعادل (٥٨٥,٥) ميلاً.

رجعنا إلى القرارة بعد مغادرتنا خميس مشيط، وأمام ناظرينا قرية ظهور آل عجير الكبيرة، إلى البعيد ناحية الشرق على سفح تل في وسط سهل صخري يمتد تجاه سلسلة جبال القعم. عبرنا مجريين لشعيب ذهبان -غير ذلك الذي يقع بجوار قرية بالاسم نفسه- على بعد ميلين من نقطة انطلاقنا، الذي يجري إلى أسفل عبر الطريق، من الجنوب إلى الشمال، كرافدين للمجرى الأسفل لوادي الشرف. يتبع

أحد هذه المجاري بئراً له على بعد نصف الميل يسمى ذهبان، وكلها تنساب ناحية قرية تسمى آل غمر تقع أسفل آل مسلم في وادي بيشة. وهي القرية الأخيرة التابعة لقسم آل رشيد. وصلنا إلى مجمَّع الأمطار عند تقاطع الشرف - تندحة على بعد ستة أميال من العرق وبدأنا الهبوط عبر البلاد الصخرية، الجرانيتية المتموجة العارية التي تصب ناحية الأخير. أزعجت حركة سيرنا سرباً من طيور شاكور التي كان منها ما يقدر بحوالي (١٠) أو (١٢) طائراً صغيراً مع رفقة والديها. وعند وصولنا إلى مروج شعيب القرارة رأينا زوجاً من طيور الأوز الأبيض والأسود يطير عند الوادي الجاري. لم اتمكن للأسف من إطلاق النار نحوهما، غير أنني أثناء تجولاتي بين الصخور، تمكنت من إدخال زوج من طائر درسة الصخور. رأيت أيضاً على الصخور رسماً بدائياً ليدين بشريتين وشيئاً يبدو وكأنه صورة إنسان.

كنا نستقبل الأحداث في هدوء، وكان أن قررنا أن نعسكر، بعد غروب الشمس بقليل، في أرض مخصصة لغربلة الحبوب، طينية، تابعة لقصر طويل بقرية القرارة الصغيرة التابعة لآل الضب، كما تحصلت عند الغسق على طائر السبد من هنا، كما أحضر لي بيضتان ليمامة الصحراء من عش قائم على شجرة تين. تحصلت أيضاً على بعض الضفادع المحلية من الوادي، وسرعان ما ظهر البعوض مع قدوم الليل، غير أنه ليس بأسراب كبيرة، كما قد يخطر بالبال. لم أعاني بالمناسبة، من تكرار الحمى التي هجمت عليَّ ثلاث مرات في الخنجور وفي حجلا وفي أبها.

صحوت قبل شروق الشمس على أمل الحصول على طائر السبد عند الشفق أو حتى العثور على الأوز مرة أخرى في الوادي على مدى التصويب. لم يظهر الأول وكل ما شاهدته من الأوز هو ثلاث أو أربع منها وهي طائرة إلى البعيد.

رأيت منظراً لن أنساه ما حييت أثناء تجولاتي بين السلاسـل الجرانيتية ذات الجلاميد المبعـثرة المهدبة للـوادي. جلست مجمـوعة من طيور الحـجل، عند أفق السلسلة الجبليـة، مظللة في مقـابل الضوء النامي عند الأفق وكـأنما كانت تتـرنم بنغم ما، وهذا ما لفت انتباهي، يقدر عددها بحوالي العشرين، وكان ظهورها تجاه المشاهد، وهي تنتظر بزوغ الفـجر، كأنما هي صف لعـبَّاد، في انتظار توقـير أول شعـاعات لقرص الشـمس المشرقة. طاردتهـا، بأسف، فوق التل لأجل الحصـول على عينة منها، واقتربت من مدى التصويب نحوها دون أن يضطرب احتفالهم الديني. كانوا في درجة من التقارب لبـعضهم البعض لدرجة أن الرصاصـة الواحدة قد أسقطت اثنتين منها، وطـارت البقيـة تجاه الشمس الصـاعدة، والتي كانت قـد برزت فوق الأفق، حينما وصلت القمـة لالتقاط طيوري كان كلاهما ذكراً. اكتـملت حقيبتي بأبلق وقنبـرة صحـراء، غيـر أنني رأيت طيـوراً عديدة حـول الحقـول والبسـاتين لمجموعة هذه القرى الجميلة منها -يمام أخضر، ويمام الصخور- وحمام- وهداهد- وبلابل- والأبلق العربي. وبعض "الاسكوتوسركا". كـان محصول الدخن (ذرة الصغير قد نما بوضوح في الحقول، على جانبي مجرى القرارة الرملي، يطغى عليه هنا وهناك أسوار شجر التين وأشجار النبق الكبـيرة والعديد من الأثل الجيد النمو. لقد خُصـصت بعض الحقول لزراعة البـرسيم (برسيم أو جت) كمـا توجد بعض زراعة للخضراوات، البـقول وغيرها(١). كانت المنطقة فقيـرة بوضوح غير أن لها جاذبية مؤكدة وأن آهليها ودودون. حتى النسوة، حيينني وسألنني عن نتائج إطلاق النار الذي سمعوه.

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن الزراعة في منطقة عسيـر، انظر: أحمد محمد حيدر. **الجغرافيا الزراعية لمنطقة عسير** (أبها: النادي الأدبي، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص ٣٧ وما بعدها. (ابن جريس).

يمر شعيب القرارة، قادماً من الجنوب -عبر المروج التي كنت قد ذكرت من قبل- خلال عنق ضيق لسلاسل صخرية ليصل لأرض زراعية وسكنية يجري إلى ما وراءها ليتصل مع شعيب تندحي الذي سلكناه إلى القرارة عند قدومنا لأول مرة لهذه البلاد. يسمى المجرى المشترك، الذي ينساب إلى بيشة، بشعيب تندحة. تسمى أعلى القرى الصغيرة لهذه المجموعة آل الضب وتشتمل على عدد من القصور المنعزلة منتشرة على جانبي المجرى، وقد عسكرنا بجوار أكبرها، وهو مقر سكن الزعيم. تقف قصور قليلة مبعثرة لآل الحماس إلى اليمين، بعيدة شيئاً ما عن المجرى، بينما إلى أسفل، عند التقاء القرارة مع تندحي، تقع قرية غيثان أو آل عجير ذات التل البارز (صلة) في الجهة الخلفية مع قمتيه الهرميتين. كانت سلسلة الصخور الجرانتية الواقعة ناحية شرق القرية، وتسمى هضبة الصاليت. يمتد طريق السيارات خلال القرية الصغيرة، إلى شعيب تندحي بين سلسلة العين المنخفضة وتل يسمى مجيبة. تقع قرية ضرحبه (أو العجير) التي رأينا تلّها بعد مغادرتنا خميس مشيط بقليل -وهو علامة أرضية بارزة. كما تشاهد الكتل الصخرية المنخفضة لحمام والعريض وهضبة الظلان وسوا والعرف، والتي تطوق المحافظة بشكل نصف دائري من جنوب الجنوب الغربي إلى الجنوب الشرقي. كما تظهر على بعد فوق ثانية هذه المجموعة (أي العريض)، الأرض الرأسية (مجالح) التابعة لسلسلة جبال أحد ويشمخ أحدها واسمه نيس فوق قرية العظيمة التي تستقر عند سفحه.

تقع قرية آل قتير في مجرى الصُّلة إلى ما وراء غيثان الذي يجري ناحية تندحة على مسافة ميل ونصف الميل، وآل حجاج على مسافة ميلين ونصف الميل، وكلاهما عبارة عن قرية صغيرة. توجد قرى المزارقة وآل مستنير وآل جَرْف أسفل القرية آل مستنير، غير أنها غير مرئية لنا من فوق قرية الصلة عند الاتصال

مع تندحة. تتبع قرية الصلة نفسها، وكل القرى الصغيرة فيما يليها مع أسفل الوادي، إلى كود (شهران) بينما تنتمي القرى الوارد ذكرها قبل الصلة أعلاه إلى أهل تندحة (أيضاً شهران).

كان كل ما استطعنا رؤيته من منظر لهذه القرى الصغيرة في شعيب تندحة من وراء السلسلة هو برج آل القنا على بعد ميلين ونصف الميل. لا توجد قرى في شعيب قرارة مع اتجاه أعلى الوادي لآل الضب، بينما تعرف البلاد الجرانيتية الصخرية الواقعة على جانبه الأيسر إلى ناحية مجمَّع الأمطار، الذي لاحظته في الطريق، محلياً باسم الحضرة. تعج هذه البلاد الصعبة بالأرانب البرية التي تحصلنا منها على عينة واحدة قبل مغادرتنا بقليل.

عبرنا مجرى شعيب السراة بعد خروجنا من شعيب تندحي عند مواصلة رحلتنا، وهو شعيب لتندحة وكما قال دليلنا فرج، فإنه ينبع من قرية سوق عبيدة عند سفح سلسلة جبال القعم المسطحة القمة، غير أن شبكة خطوط التصريف في هذه البلاد الصعبة ذات السلاسل الصخرية، تكون متشابكة جداً ويصعب فكَّها. لم تتغير، فهي نفسها تمتد إلى مجمع الأمطار وما يليه، والذي وصلناه بعد عبورنا الحنجور والذي يعلِّم -حقيقة- الفاصل بين نظام بيشة ونظام تثليث. وصلنا إلى مفرق الطريق وهو موقع معلَّم أيضاً بركام من حجارة.

لقد أكملنا المرحلة الأولى من حملتنا وشرعنا في الثانية وذلك بأخذنا طريق نجران، الذي يجري من هذه النقطة ناحية الشمال الشرقي تقريباً، تجاه قمة القرن البركانية المرتفعة. كان الارتفاع عند مفرق الطريق حوالي (٦,٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، وكانت البلاد استمراراً لقفر صخري عارٍ والذي كنا نسير فوقه منذ

أن أعدنا عبـور مجرى الحنجور. ملنا تدريجيـاً إلى اتجاه شرقي مكوناً نصف دائرة حول صخور وسلاسل آل الغلفقة التي تقع على يميننا. وعبرنا مجرى الخليلة على بعد ميل ونصف الميل مـن المفرق، والذي يجري شمالاً ليـتصل بوادي شدا الذي يسمى شج أيضاً، وقـد ذكرته من قبل وقلت بأنه ينساب إلى خيبـر. وتوجد بركة ماء مستديمة تقريباً بين الصخور الجرانيتية في جانبه الأيسر على مسافة نصف ميل، في حوض طبيـعي، يطلق على مثل هذه البرك الصخـرية في هذه المناطق المجاورة اسم وقر مفرد وقرة[١]. يقع سهل عريض إلى مـا يلي الخليلة وهو مظلل بأشجار العوسج وينتهي ناحية الجنوب في أرض منخفضة الارتفاع تكوِّن رأس وادي شدا.

بدأت التلال الصـخرية والسلاسل الجبليـة من حولنا تتخذ لوناً داكناً (تـقريباً أسود) مقارنة بالبلاد الجرانيتية الحمراء التي خرجنا منها إلى سهل على امتداد مسيل إلى مضيق نجد الجـمع الذي ينحدر منه مصرف ضحل عبر سلسلة القـعمة السوداء إلى شـعـيب وطاط عند سـفحـه. تكون هذه الـسلسلة، التي تجـري من الجنوب الشرقي إلى الشمال الشرقي، مجـمّع أمطار الذي يفصل بين شدا وطاط، والأخير هذا عبـارة عن وادٍ عريض ضـحل ذي مجـرى سيل ضـيق بين جانبين مـرتفعين وعليهما كثافة من جنبات وشجيـرات شوكية. كما يبدو أنه يرتفع في أعلاه لمسافة الميل الواحد أو الميلين متجهاً إلى الجنوب من موقعنا، ليواصل امتداده ناحية شمال الشمال الشرقي، والذي تمكنا من مـتابعة مجراه وفي اتجاهه هذا إلى البعـيد ناحية شعيب الضـرس -حيث توجد قرية فـيه تسمى يعرى-، وكـذلك عن طريق واحة

---

(١) الوقره: هي النقرة في الصخـرة تُمسكُ الماء. وفي الحديث، التعلم في الصبا كالوقـرة في الحجر. للمزيد انظر: ابن منظور. **لسان العرب**. (بيروت: دار أحيـاء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) جـ٥، ص ٣٦٥ . فعل (وقر). (ابن جريس).

الصبيخة في وادي طريب ومن هذا الوادي إلى تثليث. يقف جدار من حجارة منخفضة من المضيق على الجانبين، على امتداد سنام لسلسلة القعمة غير أن مغزاه يبدو باهتاً إلاَّ إذا قصد منه أن يكون حدوداً مرئية بين قبائل شهران من خلفنا وقحطان أمامنا(١).

بدأنا في التقاط منظر جيد للخصائص الرئيسة للبلاد الواقعة أمامنا، ونأمل عن قريب أن نتحصل على مشاهد أكثر عمقاً ولذلك سوف أؤجل الوصف إلى ذلك الحين. عبرنا وطاط عند سفح السلسلة مسافة خمسة أميال، عابراً رافدين آخرين للضرس هما شعيب الطلاح وشعيب زعزع، وبينهما أرض من قمم جرانيتية ناعمة وعدد من برك المياه تسمى الوقران. تطلق على هذه الأرض المستوية ذات السهل الطيني المكسو بغزارة بالحشائش الطويلة اسم جميم. وصلنا عندما بلغنا إلى وسط هذه الأرض إلى مجرى شعيب القرن الشجري الرملي الجميل وقررنا أن نتوقف طويلاً هنا لتناول وجبة الغداء، والتي في أثناء إعدادها، كنت قد صعدت إلى قمة القرن، البركانية العظيمة أو قرن القعس كما يسمونها لتمييزها عن قرن مجعل وهي قمة بركانية مماثلة تقع إلى الغرب من شعيب الحنجور.

فصلت مئات قليلة من الياردات للسهل الحجري الشعيب عن القاعدة الفعلية لقمة البركان، الذي كانت منحدراته السفلى مكوّنة من بازلت صعب يغطي قشرة من جرانيت أحمر ويرتفع بميلان شديد إلى بناء فوقي عظيم من أنابيب بازلتية، معطية التأثير بشكل الأرغن العظيم المرفوع عالياً في وسط سهل أخضر عظيم،

---

(١) في هذه النواحي تتداخل بعض قرى شهران مع قحطان، حتى يصعب على الغريب عن هذه البلاد معرفة الأسماء والمواطن الصحيحة وإلى من تتبع له من القبائل الشهرانية أو القحطانية. (ابن جريس).

جرت خلاله الشرائط الخضـراء لستة من المجاري المصرفية كانت كلهـا تتجه ناحية الشـمال الـشرقي وهي: وطاط، والطـلاح، وزعزع، والقـرن، والغـول والخليلة القاع. -وهو الأبعـد ناحية الشرق وقـد سمي هكذا لتمـيزه عن الخليلة الذي ورد ذكره رافـداً لشدا-. تنبع كل هذه الشـعاب من قعم البـعيد إلـى الجنوب الشرقي وتنساب في نهاية الأمر إلى مجـرى الضرس، الذي يتحد مع وادي طريب إلى ما وراء تل ضداعين الذي يقع إلى شمال الشمال الشرقي من القرن. يبدو هذا السهل في بعض أجزائه كأنه مـرج حقيقي أو حقل هشيم ضخم، تهب عـليه رياح لطيفة تداعب الحشـائش الجيدة النمـو، وقد أصبـحت الآن ذات لون بني إشعـاراً بمقدم الصيف.

لا بد وأن تكون قمة القرن هذه قد أدت دورها محطة مـراقبة لأجيال عدة لا حصر لهـا لقحطان[١]، وتحت القمـة مباشرة، كـانت الأسطح المستوية لصـفوف الأعمـدة الأنبوبية البـازلتية قـد تزينت بأوسام القبـائل أو تخدشت بكتابات أكـثر طموحاً باللغة الثمودية[٢] لقد قمت بنسخ ما يقدر بستة من هذه الرسوم والنقوش -لقد رأيتها كلها، علماً بأنه قـد يكون هنالك الكثير منها-، ولم يشتمل أي نقش من هذه النقوش التي عثـرت عليها على أكثر من عشرة أحـرف، ربما كانت أسماء شخصيـة، أو نقوشاً جنائزية. كما وجدت على أحدهـا صورة ليد بشرية، وعلى أخرى رمزاً بدائياً لما يبدو وكأنه قد قصد به حيوان الوعل[٣].

---

(١) من يتجول في جنوبي البلاد السعودية فإنه يشاهد كـثرة أبراج المراقبة المبنية على رؤوس الجبال والهضاب والتي كانت تستخدم في العهود السابقة لأهداف حربية. (ابن جريس).

(٢) تمت دراسة النقـوش الثمودية التي ورد ذكرها مـراراً في هذه الصفحات بواسطة د. البـرت فاندن براندن Dr. Albert Vanden Branden من لوفان، وعلى وشك أن تنشر بواسطته (المؤلف).

(٣) توجد الكثير من الآثار والنقوش في السروات الممتدة من الطائف حتى نجران،ولا زالت تحتاج إلى تضافر جهود الآثاريين والمتخصصين في التاريخ القديم كي يدرسوها ويفكوا رموزها. (ابن جريس).

ترتفع القمة البركانية للقرن إلى (٣٠٠) قدم من قاعدتها، ويبدو أنها نتجت عن اقتحام الصخور البازلتية خلال أرضية جرانيتية وانزلاق الحمم الذائبة من الفتحة. تطل القمة على منظر مدهش للبلاد من كل اتجاه وإلى مسافة بعيدة. برزت ناحية الجنوب الغربي وناحية الغرب كل العلامات الأرضية المألوفة لبلاد خميس مشيط وأبها، بما في ذلك الامتداد العظيم لسلسلة الحجاز وسلسلة السراة التي يصعب إعداد تفاصيل أكثر لها. نستطيع رؤية القمم الجرانيتية لمنطقة خيبر التي تقع تجاه الشمال الغربي، بينما انحجب المنظر ناحية الجنوب الشرقي بواسطة القمة المسطحة ورؤوس الأراضي المرتفعة البارزة للقعمة. كانت الفجوة بين الأخير هذا وبين نقطة الشمال ذات أهمية كبرى بالنسبة لي عند هذه المرحلة من تجولاتي، حيث إنها هي البلاد التي سنكتشفها خلال الأيام التالية.

احتل وادي طريب كل الأرض الأمامية منحدراً من سلسلة القعمة البازلتية ماراً بالتل الهرمي لطويلات الجوف تجاه جنوب الجنوب الشرقي من موقعنا وتوجد على الجانب القريب منه وفي مجرى طريب نفسه قرية جوف بن فردان. ينحدر الوادي بعد ذلك إلى واحة طريب الرئيسة، التي لم نر منها أي شيء من هذا الموقع، إلاَّ بعضاً من التلال والسلاسل التي توجد على الجانب الأيمن. وسأتحدث عن هذه بتفاصيل أكثر عندما نصل إلى الواحة حيث سنقضي فيها الليلة.

ارتفعت كتلة عظيمة فيما وراء هذه ناحية شمال الشمال الشرقي، تسمى حَبْرُ ويمكن رؤيتها من فوق كتف مساد، أحد تلال طريب بالقرب من موقعنا. ووقفت ضريعان إلى يمين السابق وعلى الجانب الأيمن لطريب، معلِّمة اتحاد الضرس التي تجمع كل أودية الصحاري، مع مياه طريب. وشخصت سلسلة كتلة مسليخ بعيداً

على اليمين ومباشرة خلف الواحة، ومعها الأرض الرأسية الحمراء لخشم زيد. كما برزت عدة سمات بين هذه الأخيرة وطويلات الجوف وعلى فترات من التلال المتدحرجة المتراكمة - السلسلة الطويلة أم القصص ذات القمة المسطحة البارزة، والنقاط العديدة المنعزلة لسن الوعر وإعبال الدروع، وسلسلة واعل ذات البثرة الصغيرة في نقطة الوسط وسلسلة وعل. تقع خلف هذه السمات تلال وأودية وادي العرين ووادي تثليث نفسه من خلفه، إلى البعيد، كنت على وشك أن أتتبع الوادي الأخير، إلى منبعه في جبال السراة، ولا أحتاج أن أقول الكثير عنه الآن، إلاَّ أنه ينبع من بعيد في بلاد سنحان قحطان.

يعلم موقع الغرس سلسلة الحمراء إلى الشرق من موقعنا والغرس قرية صغيرة فيها نخيل كثير تقع في الأجزاء العليا لوادي العرين الذي ينساب إلى منطقة العرين نفسها من موقع ما أعلى من نقطة اتصالها مع تثليث، بالقرب من بعض الآبار التي تسمى البُغْبُغُ والتي تقع فوقها الحمضة داخل تثليث نفسه. قيل إن القرية الوحيدة أسفل البُغْبُغُ هي الكهيف بينما توجد جاش في وادي طريب على مسافة حوالي عشرة أميال بعد التقائها مع تثليث. سأذكر طريب والصبيخة وهما واحتان أخريان ضمن هذه المجموعة فيما بعد.

هبطنا من موقعنا الممتاز على القرن إلى المعسكر، حيث أعد لنا الطباخ الجديد ابن جابر، الذي تفوق على ذاته، بإعداده غداءً لذيذاً من رز مخلوط بالتوابل والبصل والزبيب. ورفض في قوة أن يجلس معنا ليشاركنا الطعام.

خرجنا سريعاً مرة أخرى، بعد أن استكشفت طيور شعيب القرن، الذي وجدت فيه أحد طيور الشادي "الأرفياني" بالإضافة إلى أنواع أخرى من الحمام،

واليمـام، والبلابل، وطـيور شائعـة أخرى مـتضـمنة عدداً من القنابر المـرحة في حشـائش البراري، التي ترتفع إلى القدمين. كـانت هنالك الأغنام، في كل مكان وقـد قابلنا بعض الرعـاة وهم يسـتريحـون تحت ظلال أشجـار هذه المسايل كـان معظمهم من شهران، حيث إننا لم ندخل بعد منطقة قحطان، كما ظل الجدار على سلسلة القعمة من خلفنـا غامضاً بلا تفسير. ولدت إحدى النعـاج حملاً قبل قليل بجانب الطريق، ويبدو أنهـا كانت مرتبكة بالتجربة، لأنهـا هجرت وليدها، حين مرورنا بالسيـارة، ولاحقتنا بعد ذلك. يوجد إحسـاس بالربيع هنا، برغم أن شهر يونيو قـد انقضى مـعظمه، في هذه الأراضي الرعـوية المرتفعـة، وقد لاحظت أن الحشائش كانت مبللة بالندى في الصباح الباكر في القرارة.

وجدنا السـهل يتحلل تدريجيـاً من أرض حشائش إلى أرض صخـرية ممتلئة بسلاسل جرانيـتية منخفـضة، ذات منخفضـات رملية فيما بينهـا، ويكسوها غطاء نباتي قليل، بعد أن عبرنا مجرى الغول ومجرى الخليلة القاع.

وصلت أرض القاع إلى نهايتها بعد مسافة (١٦) ميلاً من القرن، ودخلنا إلى منطقة عبيدة قحطان. قادنا ممر بين سلسلتين صخريتين، وليس هو بالوادي، برغم أنه يعـرف محليـاً شريا، في لطف إلى أسـفل، تجاه الجنوب الشـرقي إلى سلسلة جبـال أم القصص، التي اتسع الممر على امـتدادها حتى وصلنا إلى سـهل عريض رأينا عنده منازل ونخيل واحة طريب التي هي ليست بالبـعيدة. يسمى هذا السهل حدبة سـيلان ويبدو أنه نوع من الدلتـا لممر شريا. كـانت ليلتنا الأولى في طريب مثـبطة للآمال وغيـر ملهمة، غـير أن الوقت كـاد أن يكون مغرباً وكـاد النهار أن يتضـائل. كنا مرهقين جداً بعـد يوم طويل مليء بالنشاط ونحن نقتـرب من أحد قصور مشـروفة، القرية الرئيسة الصغيرة في هذه الـواحة، وجلسنا نرتب معسكرنا

على ما تبقى من ضوء النهار. كان منعشاً لنا أن نعود مرة أخرى إلى أحضان مزارع النخيل التي كنا قد رأيناها آخر مرة في خيبر قبل أكثر من أسبوعين.

تقع مشروفة على بعد (٢٢) ميلاً من تفرع الطريق وعلى ارتفاع (٦١٠٠) قدم فوق سطح البحر. هبطنا دون أن نحس بذلك إلى (٤٠٠) قدم عند تلك البقعة. يبدو أن الحدود الارتفاعية لأشجار النخيل في هذا الجزء من الجزيرة العربية تصل إلى حوالي (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. تقع خيبر على ارتفاع (٥٧٠٠)، قدم وخميس مشيط على ارتفاع (٦٥٠٠) قدم. يقبل وادي طريب من قرية جوف ابن فردان، ولا توجد قرى أخرى في واديه حتى يصل إلى القصر المنعزل وحقول شائع بن ادريس على مسافة الميل الواحد أعلى مشروفة، التي تشتمل على (٨) أو (٩) قصور مبعثرة في أرض صعبة ذات مزارع نخيل وحقول عبر مجرى السيل المتعرج الذي يصل عرضه إلى (٥٠) ياردة. كانت هنالك محاصيل البرسيم في بعض الحقول، بينما نهض محصول الدخن إلى ارتفاع ست بوصات. كان هنالك العديد من شجيرات الرمان، في حالة متقدمة مقارنة بتلك التي في خميس مشيط، وكانت لا تزال مزهرة. كانوا يقيمون حواجز ترابية مفككة (مساطب) لتوجيه مسار الماء لأغراض الزراعة، خاصة حينما تأتي السيول من أعلى وتفيض خارج مجرى السيل. يزرع العنب أيضاً هنا، وقد رأيت شجرة معترشة جميلة فوق إحدى الآبار التي يتباين عمقها من ست قامات إلى (١٣) قامة ومبطنة بالحجارة إلى مستوى الماء، الذي يوجد في صخور جرانيتية تقع أسفل طمي ورمل الوادي[١]. كانت شجيرات الخروع متوافرة هنا، كما كان الأثل والنبق وغيرها من نباتات الواحات[٢].

---

(١) وللمزيد عن أوضاع الزراعة في منطقة عسير خلال القرون الماضية انظر: غيشان بن جريس. **عسير ١١٠٠ - ١٤٠٠هـ**، ص ١٢٩ ــ ١٤٢، أحمد حيدر. **الجغرافيا الزراعية لمنطقة عسير**، ص ٥٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) وعن نباتات وأشجار منطقة عسير انظر: حسين أبو الفتح. **نباتات طبية من الجنوب الغربي للمملكة**، ص ٣٣ وما بعدها فريدة قدح. **الغطاء النباتي الطبيعي**، ص ٨٧ وما بعدها. (ابن جريس).

يسكن قصور مشروفة، بالتساوي، فخدان من قريش والجرابيع التابعين لعبيدة. كان الناس فقراء بشكل مدقع، وكان الأطفال، الذين انبعث عليهم زياراتنا، يلبسون أفقر الأسمال وكانوا بالفعل عراة، غير أنهم مرحين مؤدبين. لا يوجد لدى سكان القرية دجاج ولا بيض للبيع غير أن لديهم كميات قليلة من لبن الأبقار، والذي يطلبون في مقابله ثلاث زلطات للطاسة الواحدة (قل باين واحد). رفض أحد الصبية، وقد أحضر إلينا لبناً، قبول هذه العملات النحيلة الصغيرة، وعرض علينا أن نقايض السعر، بالبُن، والذي يعتبر رفاهية عظيمة في هذه الأجزاء.

كانت الخُمر النسائية أكثر ما تكون حقاً منها تقليداً أكثر ما تحترم حين تخرق وليس حينما يلتزم بها. كانت وجوههن واضحة تماماً من خلفها، وقد جاءني فرج، ومعه، فتاة عذراء، جميلة جداً، ممتلئة القوام، في سن الزواج واقترح عليَّ أن أقوم بتصويرها، وقد فعلت بالطبع. ذهبنا ثلاثتنا لزيارة لوالدها في أحد القصور القريبة، والذي أذن لي بالصعود إلى سطحه لرؤية المنظر العام للوسط. كانت الأم واسمها شارة ذات جاذبية، وكانت حياتها بلا شك، صعبة في رعاية وتربية ستة أطفال. كانت شرف وزهرة هما البنتان الكبريان، -وقد كانت شرف هي التي زارتني-، وقد صحبتاني عبر الطابقين المظلمين داخل منزلهما المتواضع، إلى أعلى، وكذلك فعل مفلح شقيقهما الصغير، ربما عمره (١٤) عاماً. تمنع التقاليد المحلية زواج شقيقتيه الكُبْرَيَيْن حتى يتأمن له هو العثور على عروس خاصة به[١]، غير أنهما مازالتا صغيرتين مما يكفي لانتظارهما سنة أو سنتين قبل أن تكون لهما مساكنهما الخاصة.

(١) هذه العادة ربما كانت موجودة عند بعض السكان وبخاصة في البوادي والأرياف، أما اليوم فأصبحت شبه نادرة. (ابن جريس).

يجري الوادي في اتجاه الشمال تقريباً عبر الواحة ومن ورائها، حيث توجد قرية أخرى أسفل مشروفة مكوَّنة من قريتي الفرعة الصغيرتين وحزام نخيل كثيف على بعد ميلين، عبر الوادي. كان سكانها من فخذ الجرابيع. تقع أسفل منها مباشرة قرية الحدبة الصغيرة، تابعة لقسم آخر من عبيدة آل سليمان. تقوم أشجار نخيل وقصور عرفة -أيضاً تسمى ابن فهيد- على الجانب الأيمن للوادي، مقابل الفرعة والحدبة، ويتقاسمهما أهالي كل من قريش وآل سدر -وهو قسم آخر لعبيدة-، كانت آخر قرى واحة طريب، -وهي تقع بعيدة من جسم الواحة الرئيس- هي المضة التابعة آل معمر، إلى ما وراء الموقع الذي تدخل منه سلسلة جبال زيد إلى حافة الوادي في أرض رأسية منتصبة. يقال إن وادي طريب خالٍ من القرى ومن أشجار النخيل وحتى من الآبار، ذلك من عند المضَّة، إلى أسفل، إلى الصبيخة وإلى جاش حوالي (١٥) ميلاً من ورائها. تحمل قريتا فرعة الأسمين الأحمى والحرف بينما تُعرف مجموعة منازل أخرى منفصلة على الجانب الأيسر باسم الجربوع وهو فرع من جرابيع تحت قسم الشيخ ابن عادي. يوجد أسفل هذه مباشرة، وعلى الجانب الأيسر، قصور قليلة تسمى الجمعان.

كانت هذه خلاصة وصف واحة طريب، التي هي الآن محطة هامة على طريق نجران، كما كانت في الدهور القديمة، على درب الفيل التاريخي، والذي -كما أخبرت- يأتي من عند ظهران -التي تقع بعيداً ناحية الجنوب- عبر بلاد قحطان من أعلى القعمة إلى تل العار على الجانب الأيمن لوادي طريب، حيث يواصل انطلاقه بين سلاسل وعل وعال، ويبعد الأخير ميل ونصف الميل عن مشرفة، ليعبر سفح سيلان على الشاطئ الأيسر لطريب ماراً بهضبة سن إلى براري

قعة العظيمة، والتي يخترقها وهو في طريقه إلى التلال الواقعة عند خيبر ومن ورائها. يسمى السهل بالمناسبة، على الجانب الأيمن لطريب، والذي يخترقه هذا الطريق القديم الذي ينتهي أعلى مشرفة، حيث تحف بالوادي مجموعة من سلاسل، جبال الحرجة[١].

كانت تربة الواحة فقيرة، ومعظمها من رمل خفيف، وكانت أشجار النخيل، برغم كثافتها في بعض المزارع -أحسنها كان نخيل الفرعة- إلاَّ أن ثمرها معظمه من النوع الرديئ، ويسمى الدقل. كان البعوض منتشراً أثناء الليل، غير أنه ليس بأعداد كبيرة، ولا شيء جديد يذكر حول الطيور في هذه الواحة إذ أنها عصافير، وآكلات نحل، وبلابل، وهداهد، وقنابر فنشية أو متوجة، ويمام، وحمام، إلخ، عدا ذعرة صفراء تسمى محلياً بسبس وكان أكثرها شيوعاً طائر يقال له مقوقس، وهناك واحدة من هذه الطيور لم تستطع مرافقة زميلاتها شمالاً في هجرة الربيع بسبب أنها كانت قد فقدت إحدى ساقيها، ربما في شرك صيد.

كنا نعالج الأمور بهدوء، صباح السابع عشر من يونيو، وواصلنا رحلتنا عند الساعة التاسعة صباحاً فوق سطح سهل سيلان على الجانب الأيسر للوادي. وتقع الواحة على يميننا. عبرنا، بعد ثلاثة أميال من نقطة البداية، بطن مصرف شريا الرملي حيث يتصل مع طريب بالقرب من الحدبة مارين الآن في ممر صخري يسمى مجراد عليه شجيرات صحراوية قليلة.

(١) الحرجة:ـ بلدة تقع إلى الجنوب من سراة عبيدة وهي موطن شيخ مشائخ قحطان وودعة المعروف بـ (ابن دليم) (ابن جريس).

عبـرنا شعيـباً بالاسم نفسـه على مسافـة أربعة أميـال وهو يصب في طريب بالقرب من تلال ضريـعان وسلوخ التي تعلَّم الحدود بين شهران -تـقع بعيداً على الجانب الغربي-وقحطان. كانت البلاد، فيما يلي ذلك، ممزقة بالعديد من المجاري الصعبة -مثل شعيب العرضه- النازل من ضريعان حينما اقتربنا من الأرض الرأسية لزيدي، حيث عبـرنا طريب إلى جانبه الأيمن، وقد غطينا الآن مسـافة (١١) ميلاً من عند مـشرفـة وتركنا الواحـة خلفنا إلى البعـيـد. رأينا عند فم مجـراد بعض علامـات الحياة الحـضرية، غيـر أن قصور بئـر ابن عويرة كانت قـد هجرت ومن حولهمـا مزارع نخيل قليلة ميتـة. تباين اتجاه طريقنا بعد ذلك، من جهـة الشمال الغربي إلى الشمال وعـلى امتداد الوادي. ولكنه يتجه بعد نقطة عـبورنا إلى ناحية الشمال الشرقي، تاركاً المجـرى مستمراً ناحية الشمـال، قبل أن يدور شرقاً موازياً للطريق، على مسافة، فيما يبدو وكأنه في بلاد صـعبة جداً. شمخت بعيداً ناحية الشمـال الشرقي كتلة صخـور سنبلة مطلة على وادي تثليث على الجانب البـعيد، بينما وقف حبر بعيداً تجاه شمال الشـمال الشرقي، كما تشاهد إلى البعيد، سلسلة طبب العالية، من عند فجوة بين هذين الموقعين.

دخلنا شعيب أصـدع الذي يصرف السفوح الشرقيـة لسلسلة جبال زيدي إلى وادي طريب، وانتـقلنا سريعـاً فوق سهل أم سليـم الذي ينحدر في هدوء ناحـية الشمال إلى الجانب الأيمن لطريب حينما يسـتدير حول منحناه الشرقي. توقفنا بعد ستـة أميال من التقـاطع لنطل على منظر البلاد من قمـة جرانيتيـة منخفضة تبـعد حوالي خمـسة أميال إلى الجنوب من نخـيل المضَّة، التي يمكن رؤيتهـا من مجرى طريب من أمام تـل أسود معلِّمـاً الطرف الشرقي لسلسلة جـبال حبـر، التي يمكن رؤية كتلة البقيع من ورائها.

وقفت القمم الجرانيتية التي تسمى ظور الشعره وظور الكعبة على الجانبين القريبين لحبر ناحية الشمال الغربي، وقيل إن الأخيرة هذه تحتوي على مياه في أحواض طبيعية، وبجانبها بئر درعة. تجري سلسلة قنا العالية فيما يلي الطرف الأيمن لحبر، على مسافة، وباستمرار غربي لسلسلة جبال طريب، بينما إلى يمين سنبلة، أمكننا رؤية رفيقها الصغير سنيبلة معلِّمة موقع واحة الحمضة، على وجه التقريب، داخل وادي تثليث. تشير قمة الحمراء تسمى طبب الحمراء إلى اتجاه جاش، والتي تقع فيما يلي سلسلة طبب الرئيسة، التي يقال إن وادي طريب يجري بينها وبين قنّا، إلى أن يتصل مع تثليث.

انسد الأفق أمامنا -من عند سنيبلة، وإلى يمينا- بسلسلة الجبال السود والتي ينحدر منها وادي العرين من جهة الجنوب إلى الشمال، ماراً بقرية الغرس الصغيرة -أيضاً تسمى هجرة زهير- التي توجد فيها حقول الذرة الصفراء، وليس بها نخيل. يجري مجرى شعيب رحبة في طريقه إلى واحة العرين ناحية الجنوب الشرقي من موقعنا، على الجانب القريب للجبال السود، إلى الشمال، في طريقه إلى شعيب رمرم، أحد روافد وادي العرين. وجهنا طريقنا ناحية قمة جرانيتية رهيبة وعالية، تطل على منخفض رمرم، عبر مساحة من أرض صعبة جداً ومتموجة، من صخور وسلاسل تسمى حمات السوادة، منحدرة تجاه شعيب رحبة وهي تبعد (١٩) ميلاً عن تقاطع طريب و(٣٠) ميلاً من مشرفة. وقد صلنا إلى هذه النقطة، في وقت مبكر من العصر، وقررنا أن نعسكر عند سفح التل بجوار شجرة سرحة باسقة، لقضاء الليلة، لأجل الاستعداد للحملة إلى الصبيخة.

بدأنا سريعاً بعد تناول وجبة الغداء على عجل، متجهين ناحية الشمال الغربي فوق أرض صعبة ليس عليها أيّ ممرات واضحة، علماً بأن فرج يعرف الطريق

جيـداً، ومن حين لآخر، كنا نمر بدروب سـيارات نصف ممحـية كـانت قد زارت صبـيخة قبلنـا. أظهر القفر الصـخري بعض أشجـار الطلح الطويلة، هنا وهناك، وشكلها على هيئة المظلة، ولاحظنا، بعد بداية المسيرة بقليل، أن وادي طريب يميل تدريجياً ناحية طريقنا. سرنا بعد ذلك بجوار جانب الوادي الأيمن، لا نبعد عنه إلاّ لنلف حول صخور وسلاسل وهضاب تكون في طريقنا.

دخلنا، وتتبعنا مصرفـاً ضحلاً، معشباً، يسمى شعيب فـدعر، ينساب ناحية الشمال، وذلك بعد أن سرنا ثمانية أميال، وسرعان ما ينبسط هذا الشعيب إلى وادٍ ضخم من حصى بازلتي، كـان السير من فوقه مريحاً مع مـساحات من رمل متين من حين لآخر. كان عرضه ميلاً واحداً تقريباً وكان طريب قريباً منا وعلى يسارنا، وكانت سلسلة جبل طبب بعـيدة وعلى يميننا. بدأت أشجار نخيل الصبـيخة تظهر أمامنا، بعد مسيرة ثلاثة أميال، مظللة تحت كتلة سلسلة جبال قنا التي ينساب بينها وبين طبب وادي طريب بعيداً إلى السهل.

وصلنا وعبرنا الجانب الأيسر طريب، وهو مـتدحرج فوق سهل رملي منحدر في لطف ويعـترضـه بعد مـسافـة قليلة، خط صرف نجـد الغتـات من عند تلال وضبان.

كان أول المناطق المأهولة التي مررنا بها في الصبيـخة، على مسافة (١٦) ميلاً من معـسكرنا، هو قرية القـوز الصغيـرة ذات مزرعة نخـيل صغيـرة على الجانب الأيسر لوادي طريب. كانت قـرية صغيرة بائسة، تحتوي عـلى حوالي (١٢) عشة بسيطة مـبنية من اللبن، وأخرى قليلة العـدد مبنية من الوتل وبعض خيـام للبدو، غير أن هذه الـقرية مثيرة للانتـباه بكونها واحدة من المـنشآت الحديثة، مثلـها مثل

غيرها من هجر الإخوان العديدة التي تم تأسيسها خلال الربع الأول من هذا القرن في طول البلاد وعرضها تحت رعاية ابن سعود.

كان لهذه القرية الصغيرة شرف كونها موطن مطلق بن شلفوت الرئيس المعترف به على جنوب قحطان. كان نظيره في هذا الوقت في الشمال، هو المحارب القديم، الرهيب، فيصل بن حشر، الذي توفي بعد عام أو عامين بعد ذلك، ليخلفه ابنه خالد وهو شاب لطيف، على وجهه علامات عميقة للجدري.

كانت مباني الرئاسة لهذه المناطق الشمالية لقحطان هي هجرة للإخوان وتسمى الضبعة وتقع في إقليم الخرج. كان مطلق، لسوء حظي، غائباً في الصحراء ولذا لم نتوقف للقيام بأي اتصالات في غيابه مع مواطنيه.

هبطنا بعد هذه القرية مباشرة، إلى بطن الوادي، الذي لم تواجهنا فيه أي مشكلة، لنصل إلى حافة مزارع نخيل الصبيخة نفسها، وتبعد حوالي (١٧) ميلاً من موقع معسكرنا عند وقر فجعة.

كنا هنا على ارتفاع (٤٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، مقارنة مع (٦١٠٠) قدم في مشروفة. هبط وادي طريب، كما يبدو، إلى (١٤٠٠) قدم أثناء تقدمه، أي بمقدار (٥٠) ميلاً من هاتين النقطتين.

تبعث حالة الصبيخة، نفسها على الأسف مما دفعنا إلى قيادة سياراتنا إلى بقعة أفضل، على تل منخفض، كاشفة لنا أطلال قصور ثلاثة قائمة على سفحها في أعلى الوادي. وقفت أربعة قصور أخرى، على بعد (٣٠٠) ياردة إلى الشمال الغربي من هذه المجموعة، وكانت أيضاً مدمرة، ويوجد كذلك قصران آخران يحتلان مساحة كبيرة (حوالي ٢٠ أكرا) من الأرض الطموية ترتفع إلى (٢٠) قدماً، بين طرف حزام النخيل والمضيق الذي يعبره طريب من خلال الجبال.

كان هنالك قصر منعزل آخر، يشاهد في مسيل ينحدر إلى الجانب الأيمن لطريب عند حافة الواحة. كما كان هنالك حضور قليل من الناس، وإلاً فإن المكان يعد مهجوراً تماماً. حقيقة فباستثناء القصر الأخير الذي يسكنه عشرة أشخاص، فإن المكان يعد مهجوراً بالفعل. وظهر تعليل لذلك سريعاً.

كانت حمى الواحة وبائية هنا، ويهرب العرب منها كما يهربون من أيّ وباء، هذا هو السبب لماذا اختيرت هجرة الإخوان في مكان بعيد عن منطقة مزارع النخيل الرئيسة، علماً بأن البعوض -أو أيما كان المسبب للوباء- قد وصلهم بلا شك حتى إلى هناك، لذا فهم يذهبون إلى الصحراء في موسم السيول ليعودوا -مثلهم مثل بقية السكان- فقط لحصاد التمر في يوليو وأغسطس. ترتفع أشجار النخيل في مساحة معتبرة من أرض ملحية (سبخة) تبدو فيها كأنها مريضة المظهر، أما في وسط بطن الوادي الواسع فتبدو أشجار النخيل بصحة جيدة، علماً بأن مزارع النخيل في معظم أجزاء الواحة، غير كثيفة. كان التمر، على أي حال، من نوعية جيدة، من صنف برني، وغير متعب للسكان، لأنه لا يتطلب الري. يكوِّن الوادي صاداً للمياه، لأنه مقيد بممر ضيق تعبره مياه فيضانه عبر حاجز جبال قنا - طبب، وتربته مشبعة بالمياه الراكدة المالحة، وهي غير صالحة لشرب الآدميين، أما مياه الآبار وهي عند عمق خمسة أو عشرة أقدام، فهي تستخدم لسقي الأبقار وري بعض الحبوب التي يقومون بزراعتها في مساحات صغيرة فوق أرض أقل ملوحة.

كان الوادي منقطاً بكثافة بجنبات نبات الشار وقد نمت إلى حجم الأشجار الكبيرة وقد كانوا يستخلصون منه الملح الصخري، أو يستخدمونه لعمل فتيل

إشعال البندقية أو فتيل البندقية. توجد كذلك كميات كبيرة من أشجار الأراك والطرفاء والأثل ومساحات واسعة من القصب التي كانت نابتة في مياه راكدة آنذاك. السلاسل الجبلية لقنا وطبب شبه دائرة مهيبة حول هذا المنظر الجميل للأقفار، وبينما ارتفعت على بعد نصف ميل تقريباً ناحية الشمال من موقعنا، فيما وراء منطقة الطمي، هضبة صغيرة معلَّمة مدخل المضيق الضيق المسمى المضيق، وهو شق عميق يمر من خلاله الوادي في طريقه إلى الخارج باتجاه الشمال الشرقي تقريباً. يبدو أن قرية جاش تقع في نقطة ما في هذا الوادي.

كانت أشجار الشار في قمة أزهارها، وهو نبات كريه الرائحة، ذو منظر مثير للاشمئزاز وأوراقه كبيرة كأذن الفيل وثمرته ثقيلة خضراء وسيقانيه ذات سائل لبني تهواه طيور الشمس كما كانت الطيور آكلات النحل وافرة في مزارع النخيل وكان يمام النخيل أيضاً في كثرة. كما كان الغراب مروحي الذيل في أعداد كبيرة.. أثارت حركتنا ونحن في طريقنا إلى نقطة الملاحظة مجموعة من طيور «شاكور».

تركنا الصبيخة غير آسفين بعد أن قضينا في استكشافها أقل من الساعة الواحدة، وسلكنا طريقاً مختلفاً بعض الشيء إلى أعلى الوادي حيث تقع القوز ومن ثم عدنا إلى طريقنا السابق الذي أوصلنا إلى هنا. كانت الشمس على وشك الغروب حينما التحقنا برفاقنا في المعسكر، لنجد في انتظارنا عشاءً جيداً من لحم الضأن والرز. كانت هنالك مجموعة من رعاة آل سليمان (عبيدة) في الجوار حين وصلنا، وهم يسقون حيواناتهم من عند أحواض جرانيت وقر فجعة ووقر مبارك وهما في مسيل شعيب حمجة الصغير الذي يجري إلى أسفل ماراً بمعسكرنا من عند شق تكوَّن باتصال قمة رمرم الجرانيتة -تسمى دثيث حقيقة- وسلسلة جرانيتية

سفلى تحمله من حولنا إلى خلف معسكرنا الجيد الوقاية. ينساب حمجة عبر طريق السيـارات، إلى داخل منخفض كثـيف الشجيـرات يسمى سر الفلج يجـري تجاه الشمال الشرقي، ويـتحول سريعاً إلى مجرى وادي نظامي، أثـناء سيره إلى أسفل ليتصل مع وادي العرين.

كذلك يدخل مصرف رمرم إلى هذا المنخـفض نفسه في مكان ما بالقرب من هذا الموقع، قـادماً من الجـنوب، بينما تابـع طريقنا سر الفـلج الذي بالكاد يمكن الإحســاس به كمنخـفض أول الأمر، ووصلنا إلى مجـمّع الأمطار سريعـاً بعد أن توقفنا لتـسجيل بـعض الملاحظات عند واحدة أو اثنتين من القـمم الجرانيتـية التي تسمى قـراتين. لا يبدو أن شعـيب رحبة يتصل من هذه الـنقطة مع رمرم، ولكنه ينساب مباشرة إلى وادي العرين خلف قمة دثيث.

قدم لنا الرعاة، بدافع حسِّهم البـاطني بإجراء عمل تجاري مع الزوار، خروفاً للعـشاء والذي سـاعدنا عـدد منهم بإخلاص، في التـخلص منه، مما فيـهم ذلك الشاب الجميل والذكي الذي يسمى خلفاً وقـد أمنت خدماته لي كدليل محلي إلى جانب فـرج بن قرقة. يعرف هذا الأخـير بلاده بدرجة جيـدة بالتأكيد، غـير أنني بدأت أجده ضعيـفاً بعض الشيء وغامضاً فيـما يخص تفاصيل الجغرافـيا المحلية، وعلى أي حال، قد كنت دائماً سـعيداً بكل المساعدة التي أستطيع الحـصول عليها من الأهالي الذين لهم معـرفة لصيـقة بالمناظر المحلية. كـانت الليلة ذات سحب، وحالفني النجاح جـزئياً في ملاحظة النجوم، وبعدها انتبهـت لدهشتي، إلى كثرة البعوض. كان موقع توالده البركتين الصخـريتين اللتين ذكرتهما من قبل، إحداهما حوض طبيعي مهيب ذو عمق معتبر ومغطى من أعلى بجرانيت بارز.

صعدت قمة دثيث العظيمة، الملساء، المستديرة ويرافقني، خلف فقط، وكان ارتفاعها حوالي (٣٠٠) قدم، وذلك لأجل مسح المنظر. يصعد ممر من عند قاعدتها عند المسيل إلى القمة، وجداره مدرَّج على الجانبين، وتالف بعض الشيء في بعض الأجزاء، غير أنه من الممكن متابعته معظم الطريق - خطر بذهني، بالطبع، أنه طريق مراسيم واحتفالات قديمه يقود إلى «مكان عالٍ»[١]. ولا أظن أنه، حسب رأيي، يصلح لخدمة أي غرض آخر حديث، وأكد خلف حدسي هذا بإسناده هذه الظاهرة المدهشة إلى بني هلال.

لم أستطع اكتشاف أي رسوم أو نقوش حوله، وكذلك لم يعلم خلف بوجود أي منها في الجوار. غير أنه قد أمكننا رؤية تلال واحة طريب ناحية الجنوب وهي: عر، ومطوي، وغتيت، وزيدي، وأم القصص، وضريعان، والصلوخ، وملته وهذه تتصل مع سابقتها ناحية اليمين. انتشرت سلسلة جبال جبر من ناحية الجنوب الغربي إلى الغرب، خلف وادي طريب، ويقع بقيع ناحية اليمين أمام ظور الكعبة وسلسلة جبال حسسة، عند بقعة تسمى منعا والقمة المخروطية ظور سليم التي تقع خلف البقيع. وقف عتم مويتيه إلى يمين ظور سليم، وهو قمة حادة أخرى. تقع الصبيخة تجاه الشمال الغربي إلى الغرب هي وتلالها المعقدة مع وجود فجوة لسلاسل جبلية غير ذات أهمية تفصلهما عن كل من سنبلة وسنيبلة إلى الشمال الشرقي من موقعنا. تواصلت سلسلة سمبك ناحية الشرق، إلى البعيد، لتلتقي مع سلسلة أخرى تسمى الهضبة ثم إلى سلسلة الجبال السود الرئيسة والتي يجري على الجانب القريب منها وادي العرين، بينما تقع وراءها تثليث نفسها. لم

---

(١) (High Place) المكان العالي هو مصطلح أثري يطلق على أماكن العبادة التي أقامها سكان الجزيرة القدماء فوق قمم الجبال لممارسة بعض الشعائر الدينية وخاصة تقديم القرابين. (ابن جريس).

أستطع رؤية واحة العرين ولا الغرس من فوقها، ولكنهما يقعان ناحية الجنوب من دثيث كما يقول خلف. أستطيع أن أرى بعيداً، خلال الفجوة بين سنبلة وسنيبلة مجموعة من تلال وسلاسل قال خلف أنها تسمى جبل الكلاب.

هكذا كان المنظر المحيط. لمحت فتاة تقود قطيعاً من الماعز نحونا أثناء استمتاعي برؤية هذا المشهد وأشار خلف إلى أن جرعة من لبن من هذا القطيع ستكون منعشة. وافقته على رأيه هذا، وحينها، رفع صوته منادياً: يا راعية الغنم. أقبلت الفتاة نحونا وتوقفت على مسافة لتحلب لنا واحدة من معزها في قحفة خشبية، ثم أحضرتها إلينا بابتسامة واثقة، كانت فتاة جميلة ولكن في أثواب مهلهلة كشفت عن تقاطيع جسمها الشاب الجيد التكوين. احتسينا اللبن وتحادثنا مع الفتاة، التي كانت مهتمة بشبكة صيد الفراشات التي أحملها بينما كنت أنا أتطلع إلى معرفة المزيد عنها هي، وناولتها ريالاً مقابل اللبن. قال لي خلف إنها شقيقته ولم تتزوج بعد. ضحكت الفتاة كأنها مؤكدة قوله، أو ربما مستغربة إن كان صديق شقيقها طالباً يدها.

رأيت عند ذلك أن الوقت قد حان لنتحرك تجاه ثقوب المياه التي كنت أود رؤيتها قبل مواصلة الرحلة. اعتذر لي خلف، الذي كان سيرافقني في المرحلة التالية، بحجة أن لديه تعليمات خاصة يود نقلها إلى شقيقته، ومضيت وحدي إلى أسفل الطريق. لم يعد خلف حين وصلت إلى المعسكر غير أن والده كان هناك يصفي حسابات خاصة بعشائنا، مع محمد العسيري، كان والده رجلاً مرحاً، مسناً، ويبدو أنه معجب بنفسه. سألني ماذا فعلت بابنه؟ فأجبته بأنني تركته هناك مع شقيقته وقطيع ماعزها. فقال لي في ضحكة خافتة: إنها ليست شقيقته، وكيف

يقول: إنها شقيقتــه الآن لماذا؟ إنها زوجته! بدا لي ذلك كأنه رجع الصدى من أيام إبراهيم!.

غضب خلف حين عــودته من مداعبــاته، غير أنــه بدا سعيــداً. وتحركنا كلنا لمواصلة المسيــرة. تبع طريقنا الجــانب الأيمن لــسر الفــلج من عند ممر ضــيق من السلاسل الصخرية. بعد أن عبرنا شعيب مــويتيه في موقع التقائه مع السر، عبرنا الأخير لنجــد أنفسنا في طريق صعب جداً في أرض رملية مــغطاة بغطاء نباتي من أراك وثمام. وأخبــرني خلف بوجود أحواض سفوح جــبلية، ناحية اليــسار قليلاً هي: وقر بن عيسى، في السلسلة الجرانيتية لبني غراب التي تحيط بالجانب الشمالي للوادي، والتي من عندها يجري مسيل صغير إلى السر.

أصبح الأمــر الآن هو تحسس طريقنا بأحــسن ما نستطيع، ذلك لأن الســيول الشتوية قــد حطمت الطريق إلى درجة بعيدة. وقد فــقدنا في إحدى المرات طريقنا تماماً، وكان علينا أن نعود إلى الوراء قليلاً، لنجد ممراً يــقودنا إليه، غير أن عبورنا وإعادة العبــور للمجرى على فتــرات متكررة أوصلنا إلى الثقوب المائيــة لملحة التي تبعد حوالي عــشرة أميال من نقطة البداية وعلى ارتفــاع يقل (٢٨٠) قدماً، حيث وجدنا بعض الرعاة يسقون قطعانهم، تبادلنا معهم التحيات قبل أن نستمر للدخول في وادي العــرين -كنــا عند هذه النقطــة على ارتفاع (٤٨٠٠) قــدم فــوق ســطح البحر-. كان الوادي هنا ضــيقاً، مكوناً نوعاً ما من المضيق بين ســلاسل مرتفعة، وهذا سبب تسميته المــضيق. كان بطن الوادي الرملي مملوءاً بالأراك والطرفاء وكان بينها بعض أشــجار النخيل الشــاذة النمو ربما لأنها نمــت من النواة التي جاءت من الواحة، من مسافة بعيــدة إلى أعلى. يصل وادي العرين إلى هذه النقطة من جهة

الجنوب الشرقي ويستمر في اتجاه الشمـال الغربي مسافة ميل ونصف الميل ومن ثم ينحني انحناء حاداً إلى اليمين على امتداد الجانب الجنوبي المرتفع لوادي طبب على بعد ميلين ونصف الميل من مـوقعنا. تباطأنا قليلاً هنا بحثـاً عن الطيور، ولم نجد شيئاً مثـيراً للاهتمام، ما شاهدناه كان نكتارينيا في أعـداد كبيرة، وبلابل، ويماماً، وبعض أبي الحناء الأسود. كانت منطقة وقر فجـع بالمناسـبة، كثيرة الطيور، ومن بين أشيـاء أخرى فـقد أدخلت إلى الحقـيبـة زوجاً من طير الدغـناش وواحداً من ودرسة الصخور.

لا يتبع الطريق هنا مجـرى العرين ولكنه يضرب مائلاً عبـره ليدخل إلى رافد ضـيق متـعرج يسـمى صدع المضـيق يقع في وسط هضـبات وسـلاسل صخـرية منخفضة، وصلنا إلى قمتها خلال أقل من مسافة ميل واحدٍ، لنهبط بعده عبر بلاد مشابهة في مـجرى أعرض هو مجرى قرا الذي يقود مبـاشرة إلى الأمام إلى كتلة سنبلة المرتفعة.

كان طريق الصعود القـصير على صدع هو الأكثر صخوراً، الأكـثر صعوبة، والأكثر مـدعاة للسخط مقـارناً بكل الطرق التي واجهناها حتى الآن. كان صـعباً بدرجة مخيـفة على السيارات، غير أنها كلهـا وصلت بدون حوادث. خرجنا من قرا بعد ثلاثـة أميال على طريق الهبوط، سـالكين سهلاً صخـرياً ينحدر في لطف إلى سفح سنبلة، التي يدور حولها طريق السيارات ليمر بينها وبين رفيقتها سنيبلة.

رغـبت في أن أتسلق سنبلة، ولذا فـقد تركنا السـيـارات تواصل السيـر مع توجيهات باختيار موقع مناسب لقـضاء الليلة، بعد الخروج من الفجوة إلى السهل الذي يليها.

سرنا مسافة ميلين من المكان الذي غادرنا فيه السيارات لنصل إلى سفح الجبل، إلى الموقع الذي قرر فيه محمد العسيري إقامة المعسكر عند الساعة الثانية ظهراً. لم نصل نحن: فرج، وخلف، وشخصي - إلى المعسكر إلاَّ عند الساعة السادسة مساءً، بعد نصف ساعة من غروب الشمس، والذي يعتبره العرب بداية ليومهم أو تمام الساعة (١٢). لقد تبنى الأوربيون العادة المتبعة بأن يسمونها الساعة السادسة، غير أنه من المهم أن نذكر أن الساعة دائماً تعني غروب الشمس -مهما كان المعنى الحقيقي المحلي لغروب الشمس-، وهي النقطة الوحيدة الثابتة في يوم العرب. يعتبر شروق الشمس والظهر مواعيد دينية متنقلة تتباين بغروب الشمس والساعة (١٢) -أو بالأصح ساعة صفر-. قد تكون صلاة الظهر عند الساعة الخامسة (عربي) في أحد المواسم والساعة السابعة في مواسم أخرى[١]. تعتبر مدة الساعتين في الجزيرة العربية هي الفرق بين أطول يوم وأقصر يوم. رأيت أن أذكر هذه التفاصيل العامة هنا لأنها كثيراً ما يساء فهمها بواسطة الأوربيين.

فَرَضَتْ رؤيتي غير المتعمدة لنقش على ركام حجارة تحديد موعد مغادرتنا للجبل كانت النقوش على جانب الطريق، عند نقطة بدأت فيها البلاد التي كنا فيها، تنحدر ناحية فجوة تقع بين تلَّين. كان هنالك، حقيقة، عدة نقوش على الصخور في هذا الجوار، غير أن ما يستحق منها النسخ كان ثلاث مجموعات من حروف ثمودية. هبطنا أسفل السفح بعد أن أنجزنا هذه المهمة ووصلنا إلى قمم مسيل ينحدر كثيراً إلى شق عظيم على جانب الجبل، والذي أوصلنا خلف إليه عن طريق ممشى للغنم فوق الصخور الثعبانية (سرينتين) الخضراء، التي كان يصعب تسلقها في بعض الحالات.

(١) هذا التوقيت الذي يذكر فيلبي كان يستخدم عند معظم الناس إلى عهد قريب، ثم تحولت جميع قطاعات الدولة، وكذلك عامة الناس إلى استخدام التوقيت السائد بين الناس اليوم. (ابن جريس).

كـان صعـودنا قـد تجاوز (١٠٠٠) قـدم وكـانت القمـة -حـسب المقيـاس اللاأسلكي- أكثر من (٦٠٠٠) قدم (٦٠٧٠؟) فوق سطح البـحر. تقع القمة تماماً في موازاة مع وادي العـرين - يعني- جنوب شرقي وشـمال غـربي، يكون الجزء الشمالي مـرتفع صعب مسطح القمة الـصعب، والذي تتناثر فوقه كتل كـبيرة من بازلت، مستديرة أو مفلقة، وينتهي في الشمال بصخرة شديدة الانحدار تنحدر إلى ساحـة واسعة مـن كتل فلزية صخـرية. يحتل هذا الجـزء من القمة حـوالي ثلثي المساحـة. يشتـمل الباقي على سلسلة ذات ظهـر عريض، خشن، تـنحدر خطوة خطوة إلى المضيق عند طرفه الجنوبي، وينفصل عن القسم الرئيس ممر عميق يجري إلى أسـفل، تجاه الشـرق. تنهض سنيبلة، التي تطل عـلى النهاية الجنوبيـة لسنبلة لتكوِّن المضيق، من عند المضـيق نفسه مع ميل منحدر إلى نقطة مـركزية تهبط من عندها أكثر تجاه الجنوب.

ينحـدر سهل الحـزم، إلى الشرق من هذين الحـارسين المهيـبين، ويكون في مبدئه حجـرياً وعارياً، غير أنه يبدأ تدريجيـاً في تكوين الطمي على سطحه وتنمو عليه شرائط من شـجيرات وأعشاب، ثم ينحـدر بلطف إلى الجانب الأيسر لوادي تثليث. أمكننا رؤية بعض القـصور التي تقع شيئـاً ما ناحيـة الجنوب الشرقي، في وحول الوادي، وهي تتبع القـرية الصغيرة الحمـضة وعند نهايتها الجنوبيـة أشجار نخيل. تقع آبار الأمواه في اتجـاه أعلى الوادي ومعلمة بتلال ديمة ضـور النقعة في الوادي نفسه الذي يجـري فوق سهل واسع أبيض (جيري) يسـمى العمق ويشاهد فيـما يليهم. وتقع ناحـية الشرق من مـوقعنا وعبـر مجرى تثليث مـساحة كبـيرة لمجموعة كبيرة من صخور متراكمة وسلاسل جبلية مدعمة بالشريط الطويل المعتدل لسلسلة جبل العشة إلى البعيد. ويقع جنوباً، خلف سهل العمق الجزء الأعلى من

وادي العرين كل من سلسلة جبال سمبك والهضبة والسود وهي متطابقة جزئياً بعضها فوق بعض، بينما انتشرت ناحية الشمال الشبكة العظيمة لنظامي تلال طبب وقنا، وسلاسل أخرى بالكاد ترى من ورائهما.

يمكننا رؤية مسيل قرا في هذا التكوين المعقد، وهو ينساب من عند الفاصل، الذي من ناحيته كان مدخلنا إليه، في منحنى خفيف ليتصل بوادي العرين في مجراه عبر الجبال على بعد ميلين فقط، كما أمكننا رؤية امتدادين لوادي العرين نفسه، حين خروجه من المضيق ناحية الشمال الغربي، وقبل خروجه من التلال بقليل، وهو يدخل السهل تجاه شمال الشمال الغربي. كما كانت أجزاء من وادي طريب في مجال الرؤيا في المضيق الواقع بين قنا وطبب ناحية الشمال الغربي، كما أمكننا رؤية بروز من سلسلة تبب الذي عن طريقه يدخل السهل، بينما إلى البعيد، ناحية الشمال، تقف السلسلة العالية لخشيم الذيب على الجانب البعيد من مجرى الثفو الذي يحمل سيل وادي المسيرق إلى السهل. هكذا اجتمعت النهايات الطرفية لثلاثة مجارٍ مهمة، بدأت من عند نقاط متباعدة في طريقها لتتصل بتثليث، أمام أعيننا في إطار مسافة ضيقة لا تزيد عن عشرة أميال، أثناء بحثها لطريقها إلى الخارج حيث السهل، مثلها مثل العديد من النهايات السائبة. تفيد معلوماتي أن هذه المجاري الثلاثة ستتحد فيما يلي التلال لتتصل في نهاية الأمر بتثليث في مجرى واحد يبعد عنا مسافة (٢٠) ميلاً أو أكثر ناحية شمال الشمال الغربي.

تقع إلى ناحية الشمال الغربي، وإلى البعيد من المعقد التلي المباشر لهذه الأودية، سلسلة جبال حسير حاجبة من ورائها سلسلة جبال بني مبنه، غير مرئية

خلفه. وقفت شضبة وهي تل بارز بأذنين بارزتين، إلى جهة اليمين من التل السابق وربما قريباً من نقطة التقاء المجاري الثلاثة مع تثليث. كانت التلال المألوفة حول واحة طريب واضحة أيضاً، بينما وقفت سلسلة جبال الكلاب المنخفضة بعيداً في السهل الصحراوي تجاه الشمال الشرقي.

كانت النقاط البارزة لسهل الحزم والتي تقع مباشرة أسفل موقعنا هي تل زعبل، مظلل في مقابل السهل الأبيض الرملي من خلف الوادي، ويظهر من أعلى معسكرنا على المضيق أسفلنا مع سلسلة جبال الحجف الممتدة من عنده غرباً متعامدة مع مجرى تثليث، وكتلتا الصفا وبنى مريمر الجرانيتيتان، والقمتان المخروطتان لضيران الخشب. سرنا عبر الخلفية العريضة لسنبلة، بعد أن رأينا كل هذه الأشياء، لنصل إلى رأس مسيل يفصل جزءها الجنوبي، والذي واصلنا السير فيه فوق قمته الصعبة الضيقة نسبياً إلى نهاية أرضه الرأسية، والتي زحفنا فوق جرفها المنحدر ونحن نرى ضوء معسكرنا يضعف تدريجياً مباشرة تحتنا.

كان العشاء جاهزاً، وقررت أن أنام مبكراً ولفترة أطول من المعتاد، وأدرت مؤشر الراديو عند الساعة التاسعة والنصف لأستمع إلى إذاعة القدس حول موضوع كسوف الشمس صباح الغد، والذي أعلنته أثناء حديثنا حول نار المعسكر، والذي نتج عنه تأثير أعظم من الكسوف نفسه، وهذا ما كان مثبطاً لي. كان الكسوف في خطوط العرض الجنوبية هذه، شأناً جزئياً، ولن يكون الكسوف، في أي وقت بأكثر من حجب سدس سطح الشمس، كما كانت هنالك سحب، وربما لم ينتبه رفاقي إلى حقيقة الكسوف إن لم أخطرهم به مسبقاً، وعلى أي حال، فإن بعضهم كان مهتما بما فيه الكفاية، ليحضر إلى حيث التلسكوب المركب في مزواتي

ليروا الظاهرة وهم مرتاحون. كان خلف هو الأكثر اهتماماً من بينهم كلهم، ولكن لسبب شخصي، إذ إن أكثر ما أثَّر فيه هو معرفتي المسبقة بحدث غير متوقع كهذا وليس الحدث نفسه. أخبرني في ثقة، فيما بعد، بأن زوجته الجميلة، وذكر اسمها لي «مقبولة» كان يسكنها روح شرير (جن) واقترح عليَّ إن كنت أعرف دواء لعلتها. غير أنه كان عليَّ أن أثبط آماله.

لاحظت زوجاً من طيور الشاكور بين الصخور بالقرب من معسكرنا حينما كنا نتأهب للمغادرة. لم أتحصل على عينة منه غير أنني أدركت أنه الحجل الشائع في التلال المنخفضة وفي سهول الجزيرة العربية. كان هو الأول من نوعه الذي أراه في هذه الرحلة. كان ارتفاعنا هنا حوالي (٤٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، وهو تقريباً أقصى حدود الارتفاع لمدى هذا الطائر والذي -إلى درجة ما- يتداخل مع مدى طيران الحجل الذي اكتشفته أنا من قبل، والذي لم أجده مطلقاً عند ارتفاعات أقل من (٤٠٠٠) قدم وقد تمتد إلى (٩٠٠٠) قدم وربما إلى أعلى من ذلك، إذا كان هنالك موقع بهذا الارتفاع، في السلسلة الغربية.

بدأنا السفر عبر سهل حزم حوالي الساعة الثامنة صباحاً، عابرين شعيب زعبل في الحال، وهو ينحدر من سلسلة سمبك مباشرة لوادي تثليث. خرجنا من الطريق بعد مسافة ستة أميال من بداية الانطلاقة لزيارة إحدى قمم صفا، التي وجدنا بجوارها عدداً من النسوة (من قحطان) يرعين أغنامهن. كان هنالك العديد من الأحواض والجرف في هذه الكتلة الجرانيتية وكلها ممتلئة بالماء، وفي وفرة، خاصة في شق ضيق عميق. يصعب صعود قمة هذه الكتلة، واكتفينا بالتقاط المنظر من عند مسطبة عند سفحها. غير أن السمة الوحيدة التي لم نكن نألفها من قبل

كانت مجموعة صغيرة من النخـيل تسمى رغوان على بعد ميل واحد، في مجرى تثليث تجاه الشـمال الشرقي من مـوقعنا، كمـا توجد أشجـار نخيل الحمـضة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا، وهي ليست بالبعيدة.

واصلنا رحلتنا بعد هذا التحويل وسرعان ما عـبرنا مجرى شعيب مربع الذي يجري من سلسلة جبل نخرة إلى الوادي عند رغوان، وكان مميزاً بشريط طويل من أشجار الطلح الشبيهة بالمظلة التي يوجد فـيها الكثير من أعشاش الطيور. كان من بين الطيور التي تحصلت عليها: أبو الحناء الأسود، و"الـبلاكستارتت" وله فرخان صغيران، والشادي. كان المجرى هنا عميقـاً جداً وصعب العبور، غير أننا سرعان ما وصلنا إلى نهايته مع اتجاه النهر إلى نخيل حـمضة، وعسكرنا في مزرعة جذابة على مسافة (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة من عند حافة مجرى تثليث.

لقد سـبق لي أن عبرت وادي تثليث من مـوقع أسفل كثيـراً من هذا (حوالي (٥٠) ميـلاً) في عام ١٩٣٢م أثناء سفري بالجـمال من وادي الدواسر إلى بيـشة، غيـر أن هذه هي أولى واحاته التي أقـوم بزيارتها، أو قل حقـيقة، يقـوم بها أي أوربي. تناولنا غداءً ممتازاً من رز ولحم ضأن، وبعدها خلدت إلى الراحة والإغفاءة المعهودة، وكانت طويلة، تحت ظل النخيل الرشيق. وأخذت حماماً في المساء، هو الأول لي منذ أيام أبها.

غطينا مسافة (٥٨) ميلاً -باستثناء رحلة الصبيخة- من عند مشروفة، وحوالي (٨٠) ميلاً من عند مفترق نجـران - أبها، وكان ارتفاعنا هنا حوالي (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحـر. كانت الحمضة واحـة صغيرة بائسة ذات نخـيل منتشر يمتص، دون مسـاعدة الإنسـان، حاجـته من الماء من الميـاه السطحيـة للمجـرى عند هذه

النقطة. لا توجد آبار، فقط فيضات (مفرد فيضة)، تحفر إلى عمق (٣) أو (٤) أقدام في الرمال حسب الطلب. يمكن للماء هنا أن يصبح راكداً ومالحاً في فترات الجفاف، غير أنه في هذا الوقت كان جيداً، نتيجة للسيول، التي كان آخرها قبل ستة أسابيع من زيارتي. وجدنا فيضة بالقرب من معسكرنا أمدتنا بكل ما نحتاج إليه من ماء، وكذلك البدو الذين كانوا في المنطقة مع أغنامهم وماعزهم.

كانت هنالك (٤) أو (٥) قصور مبعثرة -أحدها منظري جداً يقف على قمة هضبة على الجانب الأيمن للوادي- غير أنها كلها كانت قصوراً غير مأهوله ومدمرة كما لا يوجد في الحمضة سكان مقيمون.

جذب وصولنا بعضا من الناس الذين يبدو عليهم البؤس أقبلوا علينا من عند خيامهم الصغيرة المبعثرة حول منخفض مربع. كانوا جمعاً بائساً من بشرية متآكلة، ذوي معرفة قليلة أو ليس لديلم اهتمام بأي شيء خارج هذا الامتداد الضئيل للصحراء والوادي اللذين كانا وطناً لهم. كانوا بالطبع، قحطانيين من آل مسفر تحت فخذ آل مسعود التابع لمجموعة الجحادل وبعد ممانعة شديدة وافقوا على إمدادنا بدليل للمرحلة التالية من رحلتنا، حيث إن خلف قد وصل إلى نهاية حبل معرفته، والتي كانت على كل حال، مفيدة جداً لي في حدود إمكانياته. كان ثمن التيس الذي صنعنا منه وجبة الغداء، والآخر الذي كان منه العشاء مبلغ ريالين فقط لكل رأس، كما أمدونا باللبن، كان هذا هو كل ما أمدنا به الأهالي، ولعله من النادر أن هؤلاء القوم قد انغمسوا ذات يوم في رفاهية تناول اللحوم. كان اللبن والتمر الذي يتحصلون عليه من إنتاج نخيلهم هو وجبتهم الرئيسة، وكان النسوة اللاتي حُمْن حول معسكرنا مرهقات وهزيلات. يبدو أن الشدائد قد أزالت كل جاذبية فيهن[1].

(١) كان الجوع وقلة ذات اليد من سمات العصر الذي زار فيه فيلبي هذه البلاد، في منتصف القرن الهجري الماضي. (ابن جريس).

ينحدر وادي تثليث من فوق الواحة، مخترقاً طريقه عبر ممر ضيق رائع جداً، يبلغ عـرضه حـوالي (٣٠) ياردة، مع نتـوءات وتعـرجات من حين لآخـر، بين جلاميد الصخور التي يصل ارتفاعها إلى (٣٠) أو (٤٠) قدماً.

قمت بقيـادة سيارتي إلى مسافـة ميل واحد عبر بطن هـذا الممر الرملي حتى وصلت إلى حاجز صخري كان المجرى، فيما يليه، صعباً وممتلئاً بالبرك المائية التي تخلفت من السيـول. ينبعج هذا الممر عـند نهايته السـفلى على الوادي في اتساع وتحيط به الصخور الجلاميـد، في اتجاه الشرق -اتجاه أعلى الوادي- والغرب، يبدو أن الممر قـد ازدوج بظهور ممر آخـر أقل رهبة، مع بـروز لسان صخـري يقع بين الاثنين كأنه جزيرة.

توجد أرض كـبيرة فـوق الممر، مملوءة بالطمي، وهي رديـئة، ويشق الوادي طريقـه عبرها في يـسر فوق مـجرى عـميق ليـصل وينحت طريقه عـبر الحـاجز الصخري، غير أنه بدا لي كأنما مجرى السيول، قد طوّق الحاجز على أحد جانبيه أو على كليهما من نقطة ملاحظتي من على هضبة مجاورة. ويبدو غريباً أن الوادي قد اختـار الشريط الأكثـر مقاومة. تسـمى الأرض الطينية فوق الممر باسـم الجمد ويبدو، من قطاعـات رأيتها لها، أن عمـقها يصل إلى (٣٠) قدمـاً، وقد ترسبت على الحاجز إلى مسافة بعيدة بسيول القرون المتتالية.

كان من أكـبر السيـول ذلك الذي حدث في صيف عـام ١٩١٧م، يعرف في تاريخ العرب بـ «الليلة» والذي وصلت مياهه بالفـعل إلى وادي الدواسر. أخبرني أهل مشروفة أن السيل لم يأتِ جهتهم، وعلمت الآن من خلف وآخرين أن المنطقة التي جادت بالسـحاب الممطر والتي تسببت في السـيل وحركته قد اشـتملت على الجبال في الشريط الشمالي والشريط الجنوبي عبر سنبلة.

اندفعت مياه أمطار عنيفة، يصحبها الرعد والبرق وإعصار رهيب، فوق هذا الريف، وانصبت مياه الأمطار عبر كل مجرى صغر أو كبر إلى وادي تثليث، الذي اندفعت على امتداده، جارفة كل شيء أمامها في نهر واسع إلى حجلة المختمية، ثم إلى وادي الدواسر. كان سهل العمق هو الحدود الجنوبية للعاصفة، وتأثرت به قليلاً الأجزاء السفلى من العرين – من عند المضيق شرقاً– وطريب –من عند الصبيخة وشرقاً–. لم يرد إلى علمي أنها وصلت إلى الشمال إلى مجرى الثفو وأسفل مجرى المسيرق، إلا أنها قد وصلت إلى قنًّا وطبب لأنهما داخل مدى السنبلة وسمبك إلى الجنوب. كانت المساحة صغيرة نسبياً غير أن حجم الماء الذي انصب فوقها تلك الليلة كان عظيماً. فُقدت العديد من الأرواح البشرية في السيل ونفقت أعداد كبيرة من الضأن، والجمال، وحيوانات أخرى. يقال إنه حتى نبات الخروع الموجود اليوم في وادي الدواسر، والذي لم يكن معروفاً في المنطقة من قبل، قد نما من بذور جاء بها ذلك السيل العظيم[١].

يقال إن الكهيف وهي القرية التالية أسفل الوادي[٢]، تقع على بعد (١٥) ميلاً إلى الشمال من رغوان، ويعلِّم موقعها تل عشيرة على جانب الوادي الأيمن. يقدر أن جاش تقع على بعد (٨) أو (٩) أميال داخل وادي طريب. قضيت، ومعي فرج، ساعة أو ساعتين قبل حلول المغرب في ظلال مربعة والجوار نلحظ

---

(١) يذكر لنا بعض الرواة عن وقوع عدد من السيول العظيمة في جنوبي البلاد السعودية، خلال القرن الرابع عشر الهجري، أدت إلى دمار وخراب الشيء الكثير من الزروع والمنازل وأحياناً البشر والمواشي. (ابن جريس).

(٢) الكهيف: ـ هي المركز الرئيس لبلدة تثليث اليوم. (ابن جريس).

تنوعاً غير عادي للطيور، إلى جانب مشاهدتنا لأرنب بري والورل. اشتملت الطيور على سيسي (A.H) والحمام الأخضر. واليمام طويل الذيل (O.C.capensis) ويمام النخيل والشرثار والشادي ونوعين من السبد وقنبره الصحراء. كان صيداً جيداً لمكان غير مشجع كهذا. قمت بفحص الممر الضيق في الصباح الذي بلغ طوله كاملاً حوالي ميلين حتى نهايته العليا، حيث يجري الوادي في سهل عريض مشجر بين ظور النقعة على اليسار وتلال الحميراء والجعيفره على اليمين.

قمنا بوداع مضيفينا البؤساء وقد تجاوزت الساعة الثامنة صباحاً بقليل وواصلنا رحلتنا على امتداد جانب الوادي الأيسر لتثليث ودخلنا إلى سهل متموج ذي شجر قادنا بعد مسيرة ميلين إلى الجزء الأعلى من وادي مربع الذي ما زال كثيف الشجر ويقع بين سلسلتي جبال الحجف والجرشعة وعلى بعد مسافة قصيرة إلى الأمام، حيث يمتد بين جرشة على اليمين وكوم الطمي لجمد على الجانب الآخر، يعرف الوادي باسم العجاجان.

مازلنا نصعد هذا الوادي إلى مسافة نصف الميل، غير أننا كنا نسير فوق أرض طينية، كانت صخورها العالية تحجب عنا المنظر، سرعان ما خرجنا منه إلى سهل ذي شجر لنصل إلى مجرى تثليث مرة أخرى على بعد خمسة أميال فوق الحمضة. يسمى الوادي محلياً هنا العطف (المجرى)، في الأعلى، وعليه غطاء نباتي غني من شجيرات وأشجار، معظمها أراك وطلح. عبرنا المجرى لنتبع جانبه الأيمن في أرض رملية بحته، وقد امّحت من فوقها كل آثار دروب السيارات. لم ير دليلنا الجديد، مطيع، عربة طيلة حياته، وكنا مضطرين للتوقف مرتين لنسمح

له أن يتقيأ في هدوء. تكون أنوف هؤلاء الذين يسكنون الصحراء شديدة الحساسية لأي رائحة دخيلة. يسدون أنوفهم عادة حينما يزورون مدينة، بحشوات من صوف، كما نفعل بآذاننا لمواجهة صوت إطلاق الرصاص، غير أن بخار البنزين في السيارة كان له التأثير نفسه. كالذي ينتاب العديد منا حين نستنشق ما تطلقه باخرة نهرية.

انحرفنا تدريجياً عن خط وادي تثليث، مخترقين السهل الرملي الواسع الذي يفصله عن رافده، شعيب لسان، الذي وصلناه بعد خمسة أميال. يتفرع الوادي من أسفل إلى فرعين منفصلين، أحدهما بالاسم نفسه -ويسمى الآخر شعيب لهو- من عند منبعه في كتلة لهو على مسافة تجاه الجنوب الشرقي من الحمضة، يتحد الفرعان مع تثليث عند النقطة التي كنا قد عبرناها بالقرب من الحافة الجنوبية لجمد، والتي قد كانت ذات يوم بطناً لوادٍ ثم امتلأت بالطمي منذ القدم جلبه سيل عظيم غاب في ظلام النسيان. رأينا في هذا السهل غزالاً، غير أننا تركناه في سلام ذلك لأن الرمال لا تسمح بالمطاردة. وصلنا إلى خط صرف آخر يسمى ميري، إلى ما وراء لهو، ويهبط إلى تثليث من عند تلال قعوان إلى الجنوب من لهو وفوق شعيب يحمل اسم الأخير. كانت هذه البلاد موحشة، غير منتظمة من كل الجهات، ولما كان مطيع يشعر بالرغبة في التقيؤ للمرة الثالثة، ولما كانت السيارات الأخرى لا تزال بعيدة من ورائنا، لعلها تواجه بعض المصاعب، طلبت أن نتوقف وأن ننقل الدليل إلى السرير لفترة يرتاح بعد تناوله حبة إسبرين لعلاج صداعه تحت شجرة لطيفة.

كان اتجاهنا حتى هذه النقطة هو ناحية الشمال الشرقي، غير أن طريق نجران يتجه الآن شرقاً عبر وادي المدبغ، بينما يجري منه فرع آخر، تستخدمه السيارات

كثيراً، ناحية الغرب تجاه الأمواه، خاصة لمن يرغب في الحصول على ماء أو لقضاء ليلة لطيفة في معسكر.

لقد قطعنا (٢٤,٥) ميلاً ونصف الميل الحمضة وأود أن أرى ما يمكن مشاهدته من وادي تثليث. لذا، فقد قررت أن نعسكر عند الأمواه لقضاء الليلة، وعليه فقد تحولنا بعيداً عن الطريق الرئيس متجهين ناحية الغرب بعد أن وصلتنا السيارات الأخرى التابعة لنا، وأعلن مطيع أنه بدأ يشعر بالتحسن. كان سهل الطمي الواسع الذي ينحدر تدريجياً من سلسلة جبال لهو قعوان نحو تثليث ويسمى العمق وكنت قد رأيته من حمضة يلمع في بياض من بعيد. قادنا الطريق داخل منحنى يبلغ طوله خمسة أميال إلى قمة عنق ومن عندها استدرنا قليلاً ناحية الشمال الغربي لنصل إلى تثليث على مسافة ميلين. كان المجرى هنا رملياً وعرضه حوالي (١٠٠) ياردة، ينساب عبر ممر ذي جدران جرانيتية عالية، قمنا بقيادة سياراتنا بينها إلى مسافة قليلة وصلنا بعدها إلى آبار الأمواه لنستقر هناك لإقامة معسكر في حمى جلاميد ضخمة جرانيتية على جانب الوادي الأيسر.

كان موقع المسقى فوق المضيق الجرانيتي، الذي كان بلا شك يخدم في حجز المياه مما يؤدي إلى تغلغلها في تربة بطن الوادي وإلى داخل ثقوب مائية كبيرة محفورة من الرمل وضحلة العمق. ولقد وجدناها جافة ذلك لأن قطيعاً كبيراً من الماعز كان يستقي هنا عند الصباح وقد استنزفها كلها، غير أن الماء بدأ من جديد واضحاً وهو ينز مرة أخرى ليملأ الحفر من جديد خلال وقت وجيز. كان هنالك سرب كبير من الزنابير يحتسي سائلاً من بين الرمال الرطبة، ومتزاحماً لأجل الحصول على ما ينعشه. كان قطيع المعز من أملاك جحادل قحطان، وقد زارنا

اثنان من رجالها بعد وصولنا بقليل، كانا عظيمين متيني البناء، طويلين نحيلين، وعليهما علامات سامية، ويتحركان في قفزات وحيوية غير مألوفة بين العرب. اشترينا منهما عنزة واحدة مقابل ريالين كما اشترينا بعضاً من اللبن، وكان هذا كل ما يمكنهما بيعه لنا، غير أن أحدهما واسمه عبدالله من فخذ آل مسفر، رضي أن يرافقنا كدليل إضافي مقابل مكافأة إلى حيث أعلى نقطة قمت باختيارها لتكون الأكثر فائدة لملاحظاتي. لاحظت قبل ذهابنا إلى هناك، في صخور جرانيتية خلف معسكرنا نقشين كبيرين وبشكل واضح فقمت بنسخهما فوراً. كانا بالكتابة الثمودية العادية. تضمنت الطيور في هذا المكان الأنواع العادية للغداف (الغراب) وبعض السيسي وقطاة واحدة.

ترتفع الأمواه بحوالي (٤٠٠) قدم أعلى من حمضة، أو (٤٩٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان الموقع الذي اخترته لإجراء مسوحاتي هو قمة كتلة جرانيتية، يكوّن جانبها، من عند البئر إلى الموقع الذي دخلنا من عنده إلى الوادي، الجانب الجداري الأيمن للممر. وكان ارتفاعها حوالي (٢٠٠) قدم فوق الوادي. لمحنا من الجانب الشرقي سهل عمق العظيم، ممتداً بيننا وبين سلسلة جبال لهو وقعوان وجنوباً من خط ظور النقعة وديمة إلى السلاسل البعيدة لكتادة، وشدر، وحجر وعداد مكوِّنة السفوح الجبلية لسراة وكلها تجاه ظهران، إلى الجنوب من موقعنا. ينحدر السهل تجاه الغرب ناحية المجرى وكان قسمه الأعلى (الشرقي) رملياً طينياً، ويتحلل تجاه الغرب إلى أرض لينة تغذيها السيول مع كثافة من شجيرات خفيفة تتطور بجوار الوادي إلى أرض غنية بالأشجار ويصعب قيادة السيارات فيها، بسبب وجود كتل العشب ونحوه وفي الفراغات، مثل الأراك والسمر والطرفاء، يميز هذا الجانب المشجر من السهل محلياً عن بقية السهل باسم الحضرة.

يمكننا الآن رؤية الأمـواه، وهي تشتـمل على ثلاثة ثقوب مـائية وليس ثقـباً واحداً، أحدها يسمى بيبوت الذي عسكرنا عنده، من قبل، والثاني قليل على بعد نصف ميل تجاه أعلى الوادي والثالث بقعاء على مسافة ربع ميل إلى أعلى.

أمكننا مـتابعة المجـرى، فيـما وراء الأخيـر، وهو يمر على الجانـب القريب للهضـبة مزدوجة القمـة التي تسمى جبلين على بعـد ستة أميال إلى أعـلى، كما يوجد أيضاً على الجانب القريب من سنـام، تل مدهش حاد الأنف على بعد ميلين من الأمـواه. اختـفى الوادي بعـد هذه العلامـات، في ارتبـاك لتلال منخـفضـة وسلاسل جـبلية، ولم يعد يرى. يمـكن رؤية الوادي في اتجاه مجـرى الوادي تجاه الحمـضة وهو يعـبر هضـبة نجد بن سـالم السوداء، ثم يدور إلى اليـمين إلى تل الحميراء ومنه يلف إلى الخلف جهة اليسار، ماراً بظور النقعة. تقع الأرض الرأسية للهو عند نهـاية سلسلتهـا، تجاه الشمـال الشرقي، بينمـا برزت إلى الشرق وعلى طريقنا إلى نجران، كتلة جبلية واضحة تسمى المدبغ، تمتد من عندها سلسلة طويلة في اتجاه مائل نـاحية الجانب الأيمن للوادي، على مـسافة معتـبرة إلى الجنوب من موقعنا. تسمى هذه السلـسلة الجبلية كفة، وإلى البعيـد ومن خلفها، تجري سلسلة أخرى تسمى رخ.

تفصل سلسلة كـفة أرض قحطان عن أرض يام (اتحاد نجـران)، حتى المدبغ، حيث تجـري الحدود بعـده شرقاً إلى واحـة العين، على مسيـرة يوم -كمـا قيل- بالجـمال من الأمـواه، لتقل (٣٠) مـيلاً. إن العين قـرية مهـمة ذات آبار عـديدة ومزارع نخيل مزدهرة، يمـلكها جحادل قحطان التي كان رؤسـاؤها الأساسيون في هذا الوقت هم خليل بن قرملة وخالد بن حشر وعذار بن مسفر بن سعدان. تكون

مجرى تثليث أيضاً، الحدود الشرقية لقحطان عبر المنطقة الجنوبية لكفة، إلى المركز الإداري للحرجة.

هكذا كان المنظر الذي رأيناه من تلك القمة. لقد اختفت بعض العلامات الأرضية القديمة مثل سنبلة، وبزق فجر عالم جديد علينا، أرض قبائل يام التي كانت ذات هيبة. أقيم احتفال، بالمناسبة، برؤية الهلال الجديد (٢٠ يونيو) وكنتُ تلك الليلة أسلِّي عن دليلينا القحطانيين، مطيع -الذي تعافى الآن من مرضه- وعبدالله إلى جلسة مع الراديو من القدس، متضمنة خلاصة لكلمة السيد اورمسبي جور (Mr.armsby Gore) عن متاعب الفلسطينيين. كانت هذه المشكلة العظيمة مدار التخمين حتى في هذه الزاوية البعيدة غير المحنكة بشؤون العالم[١].

كانت الدرجة الدنيا للحرارة في الليل (٦٦) درجة فهرنهايت، وعند الساعة الرابعة والنصف صباحاً كنا نتتبع أثر طريقنا - عائدين إلى المفترق لنواصل تقدمنا عبر وادي المدبغ الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً، وهو يرتفع تدريجياً بين الأنفين الجرانيتيين، الداكنين لهو وسلسلة كفة، ثم يضيق تدريجياً إلى قاسم يفصله عن شعيب الرهوه، وهو وادٍ صعب إلى حد ما ومملوء بالشجيرات الخفيضة والجنبات، التي تبعناها بين سلاسل صخرية مشابهة إلى إقليم قبائل يام. تقع قمة المدبغ إلى يسار الطريق تقريباً تجاه الغرب وليست ببعيدة، بينما تطالعنا إلى الأمام تلال جديدة، كانت من بينها نقطة مشاف وهضبة حيحان وكانا بارزين. هرب سرب

---

(١) إن قضية فلسطين قضية المسلمين عامة، فلا غرابة إذا كان سكان هذه البلاد التي زارها فيلبي في بوادي قحطان منشغلين بما يحدث على أرض فلسطين في منتصف القرن الهجري الماضي، وهذه القضية أيضاً لا زالت شغل المسلمين الشاغل حتى اليوم، وسوف تبقى حتى ينقذ الله المسجد الأقصى (بإذن الله تعالى) من أيدي اليهود الصهاينة. (ابن جريس).

صغير من طيوري (الحجل) منزعجاً لحـركتنا، أثناء اقترابنا إلى القمة، وقد تمكنت من إدخال أحدها إلى الحقيبة بعد جـهد مطاردة محدودة. كان الفاصل على ارتفاع (٥٥٠٠) قدم فوق سطح البحر. أثبت وادي الرهوه أنه -بعرضه الذي يبلغ نصف الميل- وادٍ طويل ومتعـب. وانتشر على مسافـة سبعة أميـال من عند القاسم، إلى انبعـاج عريض من رمـال صعـبة مملوءة بأشـجار الغضـا، نموذجاً لما تكون عـليه الصحارى. ابتعد الشـعيب عنا بعد مسيرة ميلين، ناحية اليـمين، بينما دخلنا عبر السهل الذي يدعى الجحر وهو ممـلوء بالعديد من أشجار الطلح وشجيرات خـفيفة على سطحه الرملي. وكان مـحاطاً تماماً بتلال وسلاسل جبلية تدعـمها من أمامنا الحجارة الرملية الرهيبة وهي سلسلة علم التي تنـتهي في أرض رأسية عظيمة. يمتد هذا السهل، وعرضه ثلاثة أميال ويصب مجرى الجحر في وسطه، والرهوة، الآن على مسافة ناحية اليمين من موقعنا، تجاه الشرق إلى مسافة عشرة أميال إلى هضبة صغيرة، حيث توقفنا لنلقي نظرة على الوسط المحيط من حولنا.

إن ما كنا نعتقـده من بُعْد على أنه قمة جرانيتـية، اتضح لدهشتي، أنه بروز لحجـر رملي. إننا إذاً عند الحدود الجيـولوجية بين الكتل البـركانية لغـرب الجزيرة العربية والقُرارات الترسبية المميـزة لصحراء نجد. تقع سلسلة العشّة إلى الشرق من لهو وتتواصل بواسطة سلسلة علم التي هي أيضاً حجر رملي. يمكن القول لذلك، أنه في هذه المنطقـة تكوِّن كل من لهو، ومدبق، وكـفة السـور الخارجي للأراضي البركـانية. وجدت علـى قمة الهـضبة التي نقف عليـها نقـشاً ثمودياً وقـد قمت بنسخه. شمخت الهضبة إلـى ارتفاع (١٠٠) قدم، كان جزؤها الأسفل عبارة عن قاعدة من جرانيت يحمل من فوقه البناء الفوقي لحجر رملي متآكل جداً.

واصلنا سيرنا على امتـداد شعيب الحجر ذي الشجيرات، غـير أننا قد أُغرينا بالتوقف لتناول وجبة الغداء تحت ظل لطيف لأشجار سمر باسقة. كانت أوامري، التي أمليتـها ونحن في الأمواه، بأنه من الواجب إعـداد وجبة الغداء لليـوم التالي أثناء الليل، لنؤمن لأنفسنا انطلاقـه مبكرة -كما حدث بالفـعل- قد أُهملت لسوء الحظ ولم يُعمل بها، ولم يكن هنالك طعام جاهز. أزعـجني هذا كثيراً وأفصحت عن انزعاجي بأسلوب مـؤكد. لقد فقدت أعـصابي حقيقـة، ولعنت الجميع. ثم أمرت بمواصلة الرحلة بلا طعـام لأجعلهم يدفعون ثمن عصـيانهم، بمنعهم من أن يتناولوا أي نوع من الأكلات الخفيفة. كانت هنالك علامات للتمرد وكانت هنالك كلمات جارحة، غير أنني أصررت على موقفي.

لم يكن للدليل مطيع يداً في هذا الإهمال غـير أنه طلب الإذن بأن يعود إلى موطنه الحمضة وفوراً ومن هذا المكان، وطالما قد وصل إلى نهاية بلاده فإنه سيعود لوحده وعلى رجليه، لم أعطه فـقط الإذن بالذهاب، ولكنني ناولته سـتة ريالات -ضعف المبلغ المتفق عليـه مقابل خدماته- إلى جـانب بعض من المؤنة الكافية من التمر والدقـيق والماء، وإضافة إلى ذلك، أهديتـه نصف المعزة التي لم تطبخ والتي كان من المؤمل أن نتغـدى بها. كان هناك تمرد مكشوف بين رفـاقي في مقابل هذا الجزء الأخير من عدم التوقير لشخـصي من جانبهم، غير أنني لعنتهم كخادمين لي ولمحت مطيعاً وهو يبدأ مسرته الطويلة محملاً بغنائم الفضيلة.

كان الفـريق الذي واجه الرحلة الجنوبية فـريقاً مخـيباً للآمال، فـريقاً لا يزال جائعاً وبلا أمل له بـاللحوم في وجبة عشـاء. غير أنني كنت جائعـاً مثلهم، وقد قررت أن ألقنهم درساً لأول وآخر مرة بأن يتـجنبوا مغبة عصيان لأوامر مـستقبلية

من هذا النوع. كانوا يدركـون بأنني ربما أواصل السفر لمسافـة (١٠٠) ميل، ذلك لأن الوقت كان لا يزال مبكراً - قليلاً بعد الساعة التـاسعة والنصف صباحاً. كان لدي رأي حول هذا الموضوع أيضاً. فقد قـررت أن نعسكر لقضاء الليلة عند سفح أرض علم الرأسية، لكي نقضي النهار التالي مسـتكشفين مرتفعات الجبال. وصلنا إلى علم بعـد انطلاقة بالعـربات في خفـة ورشاقة فـوق وادي رملي ثابت لمسـافة (١٠) أميال، لقد استغرب رفاقي -بلا شك- عند سـماعهم أنهم سيقضون النهار كله تحت شمس حـارقة وبعيداً عن أي مـصدر للماء وليس لديهم لحوم. تركـتهم يتحدثون وذهبت وحيداً لمهاجمة الجبال فقد كان سلوك فرج أيضاً مخزياً.

لقد اقتربت من هذه الجروف العظيمـة في خوف وبارتعاش وقد أخبرني فرج -وربما كان يتشكك في رغبتي أن أتسلق هذه الجبال، وذلك قبل حادثة الغداء- أنه لا يوجد طريق يقـود إلى أعلى الجبال. رفضت بالـطبع هذه الإفادة، بعلمي بكره العرب لأي جهد لا ضرورة له. بدت الصـخور من قريب وهي شديدة الإنحدار، وتعجبت في قرارة نفسي إن كنت فقط أستطيع الصـعود دون معرفة محلية. ويبلغ الأمـر أسوأه، أنـني خرجت وليـس معي زاد، ولم نتـناول أي طعام منـذ عشـاء الأمس، ولم آخذ معي حتى الماء.

كان عليَّ أن أواجه وقتـاً عصيباً، وكان النجاح ضـرورياً لأحافظ على هيبتي في مواجهة الـتذمر الذي تركته يغلي من ورائي. كان سـفح الجرف -ولمئات قليلة من الأقدام- مغطى بتركمـات للفلز الصخري لجلاميد مبعـثرة في فوضى عظيمة، ولم تكن هنالك صـعوبة لصـعود ذلك الجـانب إلى حيث انـتصب جـدار الجرف عمـودياً أمامي. لم يكن -على كل حال- الانـحدار أو الململوسة التي تشـاهد قطعاً

متآكلة للدرجة التي جعلتها سلسلة من أرفف عميقة منقرة بالكهوف أو ناثرة فوقها قطعاً من صخور، ساعدتني أحياناً في صعوبة، لتحسس مواطئ خطواتي، الواحدة بعد الأخرى، متحركاً أفقياً فوق الأرفف لأجد الوصول الأسهل للرف التالي. كان عملاً مضنياً، وكانت الشمس حارقة، وأحسست بالارتياح حينما رأيت -وأنا في منتصف الطريق- فرجاً يقبل ناحية الجرف ومعه قربة ماء صغيرة فوق كتفه. لم أخطط، على أي حال لانتظاره، وحقيقة فهو لم يتقدم إلى أكثر من ثلث الطريق إلى أعلى. كانت المهمة كثيرة المشقة عليه، ولما كان الماء في حوزته، فقد لجأ إلى أحد الكهوف اتقاء للشمس منتظراً نزولي.

وصلت في هذه الأثناء إلى قمة الجرف على ارتفاع حوالي (٧٠٠) قدم فوق السهل، ومتحركاً في يسر على القمة الواسعة إلى أقصى ارتفاعها والذي أوضحه جهاز قياس الارتفاع اللاأسلكي عند (٨٥٠) قدماً فوق سطح السهل -أكثر من (٥٠٠٠) قدم بقليل فوق سطح البحر-. استغرق هذا مدة ساعة ونصف الساعة لكي أصل إلى القمة، حيث وجدت كتلة كبيرة من الصخر وقد حفرت بكهوف رحيبة، لجأت إلى أحدها اتقاءً للشمس، إلى جانب أنه مجال لرؤية جيدة للبلاد المحيطة. كنت جائعاً جداً، وشديد الظمأ والتصق لساني بأعلى فمي، غير أنني لم أتمكن من العودة إلى المعسكر إلاَّ في وقت متأخر بعد الظهر. أزعجني في هذه الأثناء غياب دليل يوضح لي مسميات السمات الجديدة التي ظهرت حتى الآن، غير أنني سجلت مواقعها وتحصلت على الأسماء لمعظمها في وقت لاحق.

تمتد سلسلة جبال علم ناحية الشمال الغربي والجنوب الشرقي في خط متعرج توضحه أراضيه الرأسية البارزة. يوجه الجانب المنحدر من الجرف جهة الجنوب،

بينما بدأت السلسلة تنحـدر قليلاً تجاه الشمـال والشرق، ناحية الصـحراء. كوَّنتْ سلسلتان جبليتان منفصلتان -في ذلك الاتجاه- خط الأفق وكلاهما فيما يبدو قسم من نظام يسمى السواده. كـانت سلسلة الكوكب القصيرة السـوداء، والقريبة منا، مظللة مقابـل الشريط الأصفر للنفود الواسـعة. تقع نفود أخرى صـغيرة، وتدعى نفوذ المسمة بين الطرف الجنوبي الشرقي لعلم والبلاد الصخرية الحجرية الرملية إلى ما يليها، والتي إذا عبرها سنكون سـالكين طريق السفر. ينسد هذا الحاجز الرملي في سهل جهر إلى الشرق، ويمكنني رؤية شريط شعيب الجحر الضحل واضحاً في مواجـهته. أسـتطع كذلك رؤية السـمات المخـتلفة من جهـة الغرب إلى الشـمال الغربي، التي اختـرقهـا طريقنا خلال الصبـاح وهي حلمة هفاف ورزة، وصـخرة صغـيرة ذات نقوش، ورزة أخـرى في أرض القهـرة الحجرية الرمـلية وحيـحان. يمكنني رؤية سلسلة أخرى ولكن دون وضوح، بعيـداً تجاه الجنوب، لعلها الحشرج ويقف عليها تل مربع مسطح القمة.

يبدو أن سلسلة علم كلها من حجـارة رملية، ولـم ألحظ أي علامة للجرانيت عند قاعدتها. وعليه فإن الصخرة الصغيرة التي لحظتها في وقت مبكر بدأت وكأنها تعلِّم الخط الفعلي للتـحول إلى النظام الترسـبي للصحراء العربيـة. شاهدت طائر الأبلق طويل الذيـل وأنا مـستـلق في كـهفـي، ولم أتمكن من إصـابتـه، مما أثار اشمئـزازي، غير أنني في الصباح الـباكر لحظته وأصبـته وأدخلته الحقيـبة، أو قد يكون هذا طائراً غيره لكنه من النوع نفسه كان بجوار المعسكر، على أنني لاحظت هذا النوع عـدة مرات في البـلاد الجنوبية. وهو نوع نادر. كـما وجـدت في هذا الجوار عصفور الدغناش وكان اسمه العلمي«بلاكستارت».

استطعت أن أعـثر على طريق أكثـر سهولة أثناء هبـوطي من القمة، مـقارنة بطريق الصعود، ووصلت إلى منتـصف المسافة. سرني وجود فرج وهو يـتعثر بين الصخور محاولاً اعتـراض طريقي ومعه ما ينعش من شراب. كنت على وشك أن أصل المعسكر حـينما وصل إليَّ فرج عـارضاً عليَّ الماء الذي رفضت تناوله، غـير أنني كنت مسروراً بالشراب الذي تناولته، عند وصولي إلى رفاقي، بعد غياب دام ست ساعات.

لا يزال الإحساس بالتمرد قـائماً ولذلك، أعددت هجوماً من ابتكاري وذلك بأن أوجه اللوم، بـألفاظ جارحـة إلى فرج لفـشله في مواجهـة الشمس وصـعود الجبل. كـان -لدهشتي- يتـميـز غضبـاً لنقدي له، غـير أن سـعد، الذي اتهـمه بالضـحك، ربما على غـيـر وجـه حق، أثناء مـحاضـرتي هذه عن قـصـور أداء المجموعة، كان يحمل ضغينة ولم يشارك في المساعدة في أعمال المزولة، وقد كان يمسك المشعل الكهربائي لإضاءة الأجزاء المخـتلفة، أو يسلخ جلد طيوري. غير أنه تراجع عن ذلك حينما أعلنت له، بأنه إذا رفض أداء عمله، فَـسَيُتْرك في الصحراء هنا ليسـير ماشـياً إلى الحمـضة كما فـعل مطيع من قبل. يكفي هذا التـوجه لأن يخيف سـاكن المدن العربي العادي، فجـاء بسرعة خاضـعاً. كنت في هذه الأثناء بحاجة إلـى دليل، غير أننا لمحنا نار مخـيم لبعض البدو بعد المغـرب، على بعد، وأرسلت كلاً من محمـد العسيري وفرج للعثـور على دليل، وإذا أمكن الحصول، على بعض اللحم للعشاء. كانا مستعدين لذلك، غير أنهما عادا بخفي حنين. فقد أفزع قدوم سيارتهما مشعلي النار فاختفوا ولم ترد استجابة منهم في الظلام للتأكيد لهم بأنهما يكنان المودة والصداقة.

كان الطقس، بصفة عامة، بارداً وفي لطف أثناء النهار، عدا فترة تسلقي للجرف، وقبل دخول الليل، استرخيت على موسيقى حفلة جلبرت وسليفان مذاعة من القدس. نسيت عند الصباح كل مشاكل الأمس، وتحركنا إلى الأمام. فريق متحد مرة أخرى، نحو المرحلة الثانية من رحلتنا.

اتجه مسارنا ناحية الجنوب الشرقي مسافة أربعة أميال حتى الطرف الأقصى، الجنوبي الشرقي، لعلم، على سفح الجرف العظيم الذي يقع فوق سهل رملي خشن، وكان غطاؤه النباتي المتوافر -برغم جفافه- قد جذب عدداً من الغزلان -معظمها من نوع العفري- لتتناول وجبة الصباح.

تركناها ومراعيها وأسرعنا، متوقفين فقط عند الرأس الأرضي الأخير لعلم، لتفقد البلاد التي تقع أمامنا، يسمى هذا الرأس الأرضي عند البدو باسم خشم الضميان (أرض العطش) في مقابل خشم الرويان الذي عسكرنا تحته. وكانت صخوره مملوءة بأحواض صخرية طبيعية مملوءة بالماء الذي تجمع بعد الأمطار، بينما كانت الواجهة المنحدرة ليست بالثراء نفسه. يقع من هنا، متراس علم الخارجي، أو الشرقي، في اتجاه الشمال الغربي، إلى الخلف، مواجهاً الصحراء العربية الجنوبية الضخمة. تقع قرية عين قحطان، في مكان ما في الطبقات الخارجية ومحتضنة في وادٍ بعيد كأبعد ما يمكن أن يكون، وكأنها قاعدة أمامية للإنسانية في مواجهة كفاحها الشرس مع الطبيعة. تقع السلسلة الجبلية الصغيرة لكوكب، هناك في الصحراء نفسها، إلى الشرق من موقعنا، وهي محاطة بالرمال، بينما انتشرت إلى البعيد أكثر، وفي اتجاه الشمال الشرقي، السلاسل العظيمة لكل من السوادة وحضا.

يمتد مـن أمامنا لسـان عريض للصـحراء العظيـمة غـرباً داخل سهل الجـحر وتفصله عن القرا البلاد الحجرية الرملية التي تقع في ممر سيرنا المتوقع، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي إلى جانب عدد من السمات البـارزة منها: الأرض الرأسية الجميلة لأثيبه، قمة الصماء المسطحة وسلسلة لب السعدة. تسمى هذه القطعة الرملية نفود المسمة، وتبطن حافـتها القريبة بالسلسلة حمة المنخـفضة، بينما يمتد جانبهـا البعيد بذيل طويل لساحل رملي حجري يسمى سـهي. تندمج البلاد الحجرية الرملية تجاه الجنوب والجنوب الغربي، على بعـد، مع سلسلة ذات سمات أكثر ارتفـاعاً (لعلها بركانية) مكوِّنـة وتراً ممزقاً من جهة الجنوب الغربي، وإلى الجـنوب - يحتوي على لجم، وأبلم، وعبد، وأم أصبع، والحشرج وغيرها. ويقف في وسط أرض المسمة الرملية تل صغير ولكنه بارز بلونه الداكن.

يتجه مسارنا الآن ناحية الشـرق على شعيب الجحر ، والذي يسمى عند هذه النقطة السليل. ويسمى السهل إلى ما يلي حافة علم باسم المسيرّ وهي أرض عارية إلى عمق ستة أمـيال، يتحول بعدها إلى كثـافة شجيرية، خفيـضة وبعض جنبات على امتـداد ذيل المصرف، حـيث يتم حجز مـياه السيـول الموسمـية -بلا شك- بواسطة الرمال المتقدمة على الدوام. تتبعنا طريقنا بسهولة ومسافة خمسة أميال كان ممحواً في بعض أجزائه مخترقين هذه المـساحة من الأرض ذات الغطاء النباتي الجيد والذي توافرت فـيه الغزلان بأعـداد كبـيرة، إلى أن خرجنا مـرة أخرى إلى أرض عارية. يجـاهد مجـرى السليل الضحل، من عند هذا الموقع، ليـشق طريقه عـبر الرمال ليتـلاشى نهائياً، كما قـيل، في سلسلة الكوكب غير أننا لا نحتاج لمتـابعته لأبعـد من هذا الموقع إذ يتـجـه الطريق عند هذه النقطـة، وفجـأة، تجـاه الجنوب الشرقي، ناحية الطرف الشرقي لسلسلة قرا إلى ما وراء رمال المسمة.

لم تواجهنا متاعب في عبور مجرى سليل الخيطي الممزق، وبدأنا بعده مباشرة نبحث عن منطقة ذات أحواض سبخات مبعثرة (ملح)، تمثل مياهاً راكدة قديمة من سيول السليل. دخلنا، فيما يلي هذه، إلى رمال المسمة الحقيقية، بعد أن سرنا مسافة (١٩) ميلاً من المعسكر وحوالي (١٤) ميلاً من خشم ضميان الذي -بالمناسبة- يُعد حدوداً معترفاً بها بين قحطان (إلى الشمال) وبين يام. أصبحنا الآن ولعمق بعض الأميال داخل أرض يام والتي سنمكث فيها لعدد من الأسابيع، بعد أن تتبعنا تخوم قاسم الرهوة إلى خشم ضميان[١].

كان سطح النفود متيناً بما فيه الكفاية، لولا أنه يكوّن بعضاً من المرتفعات والمنخفضات بسبب الأجمات الكبيرة للعشب الجاف. تبادلت مساحات مكسوة بهذا العشب مع أخرى من رمل خشن متماسك ولقد قدنا سياراتنا بمرح فوق الأمواج المتدحرجة للرمال، في اتجاه الجنوب. كان عرض النفود في موقع تقاطعنا لها حوالي ثمانية أميال تنتهي في مساحة بطبقة من الرمال، ساقطة كالمئزر عند الجزء المتداعي الأسفل من جروف قرا نفسها، والتي عبرها إلى داخل الطريق حيث يوجد وادٍ متعرج في اتجاه الجنوب الشرقي. كشف لنا هذا المجرى الملتف والمتعرج المجرى والمسمى نجد سهي، الذي يتباين عرضه عن تغيير غير متوقع لمناظر أكثر دهشة لنا وأكثر ترحيباً بنا مما سبقه.

ما كنا بالكاد ندخل ممره ذا الجدران العالية التي تكون قمته حتى قفز غزال كان مستلقياً في استرخاء في أحد الكهوف ومخترقاً في سرعة مجموعتنا، إلى

---

(١) من يتجول في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية لبلاد قحطان يجدها أحياناً متداخلة في بعض المواطن مع قبائل يام النجرانية، وبالتالي فإن الغريب عن هذه النواحي يصعب عليه تمييز ملاك المواقع، ولا يمكن معرفة المعلومات السليمة إلاّ من العارفين بها وبأهلها. (ابن جريس).

سلامة الرمال قبل أن يتهيأ أي منا بالسلاح. ما كنا نخرج من مرارة الهزيمة بفقدنا هذه الوجبة المعتبرة حتى لفت انتباهي شيء هزني مراراً وتكراراً. كان وادي سهي، أو قل مدخل الممر على الأقل، إذ أنه كان كل ما أستطيع رؤيته تلك اللحظة، وكأنه صالة عرض حقيقية لرسوم فنان بدائي، وقد هجرت منذ زمن بعيد وتركت لسحالي وثعالب الصحراء، غير أنها لا تزال سليمة، بليغة بإنسانيات عصور طواها النسيان، التي لم يتحرج فنانوها من استخدام هذه الأحواض العظيمة للصخور الرملية الحجرية الملساء لتزيينها بما بدا أنه طريق سريع هام للتجارة أو الغزو، ولربما كان الرسم لطريق التوابل القديم نفسه مع مناظر لحياة تلك الأيام[(١)].

يشغل أول جانب من هذا العرض، حوالي ميل واحد من المدخل إلى الوادي، كل مساحة اللوحة الضخمة المكوَّنة من حجارة رملية تقع بالقرب من كهف كبير على الجانب الأيمن من الممر، وتبدو أنها تتكوَّن من قطعة عمل واحدة كبيرة، وثماني قطع أخريات بمستوى أقل طموحاً تملأ الفراغات من حولها ومن تحتها. تمثل الصورة المركزية نعامة ذات أبعاد واسعة بدائية ولكن قوية، هي في الوسط، مع مجموعات لحيوانات أخرى وبشر، على نظام أدنى على الجانبين، إلى جانب بعض النقوش المختصرة -ربما كانت أسماء شخصية أو شعارات جنائزية-. وبعض الحروف الثمودية منفردة مبعثرة. كان أكثر ما يستحق التقدير من بين هذه المواد، هو صورة لرجل، يبدو متحضراً، عاري الرأس، ورافعاً يديه والأصابع

---

(١) وفي أثناء تجوالي في بلاد قحطان ونجران خلال صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م)، شاهدنا العديد من النقوش والرسوم المنتشرة على كثير من الصخور والوهاد والجبال، وكثير من هذه النقوش ذات فائدة علمية عظيمة. وإنني أنادي أقسام الآثار، والهيئة العليا للسياحة في المملكة أن تُولي هذه الأجزاء بعض الاهتمام فُترسل بعض المختصين لدراسة مثل هذه النقوش والآثار القيمة. (ابن جريس).

ممتدة. واكتمل المشهد بصور لثور، وبعض الجمال، وحمار وحصان وكائنات أخرى يصعب تعريفها، إلى جانب رسم خطي لرجل يحمل درعاً بإحدى يديه، وملوحاً بسيف بالأخرى. وكلها كانت محاولات بدائية جداً. أبرزت ثلاث لوحات ثانوية أخرى إلى يمين اللوحة المركزية، ومما جاء فيها، -متضمناً بعض الكتابة-، نعامتان -في حيوية تامة-، وبقرة يسهل التعرف عليها، ورجل وامرأة مع وجود الأعضاء التناسلية، وشيء بدا وكأنه على الأقل القنطور[(١)]، ورسوم أخرى غير معروفة. كان يوجد إلى يسار هذا المشهد لوحة لرجال يمتطون الخيول، مع كلب سلوقي -ظناً-، وإلى يسار هذه اللوحة، توجد لوحتان تحتويان على خربشة غير ذات أهمية، واضح أنها يقصد بها مجموعة جمال. وقد امتلأ أخيراً، الفراغ عند أسفل وجه الصخرة وعلى الجانبين بنقشين ثموديين من (١٢) حرفاً و (٢٤) حرفاً على التوالي، وكان يرافق الثاني منها رسم للضبع وشيء بدا وكأنما قصد به منزلاً.

واصلنا رحلتنا إلى أسفل الوادي بعد أن تم نقل محتويات هذا العمل الفني العظيم، إلى دفاتري بأقصى ما لديّ من مقدرة بسيطة، غير أننا توقفنا مرة أخرى على بعد (٤٠٠) أو (٥٠٠) ياردة لفحص مجموعة أخرى من الأشكال. كان هذا العرض الفني الثاني من قسمين متجاورين، الأول منهما (إلى اليسار) يشتمل على نقش واضح من (٣٢) حرفاً فوق رسم بدائي لجملٍ يجري غير أنه مليء بالحياة. وكان الرسم الذي إلى اليمين عبارة عن مشروع طموح أكثر يشتمل على ما يلي:

---

(١) حيوان خرافي مكون من قسمين الجزء السفلي يمثل جسم حصان والجزء العلوي جسم إنسان. (ابن جريس).

(١) تصوير لرجل دين ذي عمـامة على رأسه يبدو كأنه يلقي خطبـة مدعمة بإشارات قوية.

(٢) رسم ممتاز للمارية (للبقر الوحشي).

(٣) رسم حي جـداً لإنسـان أغلب الظن أنه لامـرأة في حالة إثـارة عاليـة، فالأيدي مرفوعة والأرجل منفرجة.

(٤) رسم لا بأس به لجـمل وهو يخبب مع شـكل غريب لا مـعنى له يقف على ظهره -لعله إضافة حديثة-.

(٥) رسم بدائي جداً لثور و(كما يبدو) نعامتين.

(٦) رسم خطي لكلب سلوقي.

(٧) نقشان موجزان ثمـوديان (إجمالي ١٣ حرفاً) وأخيراً كتـابة عربية حديثة (لا إله إلا الله، محـمد رسول الله) مـن الواضح أنها إضافـة من أحد المسافرين حديثاً.

وجدت على مـسافة (٢٠٠) ياردة فـقط صخرة يحـمل وجهها العديد من النقوش (أسـماء أو نذور) تشتـمل على (١٠٧) أحرف في مـجموعـها، وبالطبع كانت ثمـودية، إلى جانب رسـومات أخرى، مـحاها عامل الطـقس أو قد تكون أزيلت عن عمد، تصوير لجمال وحيـوانات أخرى. كانت النقوش، لشدة الغرابة، واضحة ومحددة. اتسع الوادي بعد هذا الموقع بقليل إلى عرض يقارب ميلاً واحداً حيث يتـتبع مجرى سـهي على جانب الوادي الأيسر، تاركـاً الطريق على الجانب الآخـر من الوادي، فوق أرض كـثيـرة المهـاوي والمطبات، ذات كـتل الأعشـاب الكثيرة، غير أن هذه لم تعق تقدمنا.

عبـر طريقنا وعلى مسـافة تقـدر بستة أمـيال من نقطة دخـولنا إلى الوادي، مجرى سـيل شعيب شيـشع، الذي يحمل تصريف السلاسل على يميننـا، ليتصل بسهي، الذي يمر آخر الأمر، عبر سلاسل منخـفضة من حجارة رملية على جانب الوادي الأيسر لينفذ فـي مواجهة رمال النفـود على حافة الصحراء العظيـمة. كان اتجاه مسـارنا الآن ناحية الجنوب وسرعـان ما عبرنا مجـرى شعيب الصمـاء المتجه ناحية الشرق، والذي انحدر من تل بارز مسطـح القمة، بالاسم نفسه، إلى اليمين من موقـعنا، وإلى البعيد وجـدنا على مسافـة ميلين من عند هذا الموقع مجمـوعة ضخمة من رسوم على الصخور مـوزعة على العديد من البروزات الحجرية الرملية المبعثرة على سلسلة منخفضة على الجانب الأيمن للوادي الذي اتسع الآن وضحل. كان من المسـتحـيل نسخ كل هذه الرسوم، بما تبـقى لدي من الوقت، غـير أنني اخترت من بينها عشرة كانت هي الأحـسن من بين المجموعة، وعالجت وجهًا آخر للفن القديم مـقارنة بالعينات التي تم وصـفها، من أعلى الوادي، وتفـصلها هذه المجموعة من آخر تلك المجموعة، مسـافة تقدر بأحد عشر ميلاً -حوالي (١٣,٥) ميـلاً ونصف الميل من عند رأس الوادي-. كانت هذه أيضـاً في أراضٍ مكشوفـة وقد رسمت على جدران هضـبات منقرة بالكهوف والتي -بلا شك- ساعـدت على حماية الفنانين أثناء راحة ما بعـد الظهر، أو ربما كانت مساكن لمجتمع شـبه ساكن الكهوف. كان العنصـر البشري هنا أكـثر وضوحاً فـي أعمالهم مقـارنة بموضوع الحيـوان السائد هناك، أعلى الوادي الذي محوره منظر صيد وحرب ومشاهد زراعية من حين لآخر.

كانت أحسن الرسوم، حـقيقة، تلك التي تمثل مجموعـة مختارة بعناية لأربع نخلات ولا شيء آخر يصرف نظر المشاهد من جمال تجـمعها، بينما كررت صورة

أخرى موضوع مزارع النخيل في درجة اكتمال أقل إلى جوار نقوش عديدة ثمودية من (٦٤) حرفاً، يحيط بـها رسم بدائي جداً لثعلب، ولرجل يمتطي فرساً كسيحاً ولأحد المشاة الذي يبدو وكأنه يلوِّح بمنديل -أو ربما رافعاً سيفاً عريضاً-.

رافق رسم آخر بدائي جـداً لرجل يمشي وفارس يحمل حـربة، نقشاً يشـتمل على (٢٢) حرفاً. وبدا رسـم آخر وكأنه لوح وعليه محـاولة غير ناجحـة لتركيب شكل لرجل ممتطٍ ماسكاً حربة عند مستوى الكتف على رسم أصلي وحيوي لثور ذي قرون ضخمة مقوسة. كـانت هنالك مجموعة أخرى لرسم بدائي جداً وبالكاد يمكن تفسـيره، لفـرسان مصطفـين، وهم يحملون الحراب، بلا شك فـهم يمثلون مجمـوعة مغيرة منطلقة لأداء عـملها، برغم أن اثنين من الخيول كانا مـتجهين في الاتجـاه المعاكس للخـيول الأربعـة الأخرى. قـد يكون القصـد من صورة أخـرى وبوضوح، هو التـعبيـر عن منظر حربي أو ربما منظر الطراد، إذ أنه يشـتمل على أربعة فرسان يعدون في اتجاهات مخـتلفة، يلوحون بالسيوف، إلى جانب شخص يحمل حربـة مستوية، وحصـان بلا راكب، وأخيراً صورة لرجل وهو يسـير على قدميه، كـان نصفه محجوبـاً بواسطة حيوان غير محـدد، وذيله منتصب قد يكون هذا الأخيـر قصد به رسمـاً لفارس آخر إلاَّ أنه كـان فاشلاً من وجـهة نظر الرسم المنظوري.

احتوى رسم آخر -في بدائية شـديدة- على ثلاثة فرسان، اثنين منهم أيديهما مرفوعـة وبلا سلاح والثالث معـه حربة وهو مُتهـيّء لطعن حيـوان غريب الشكل وقد يكون قـصد به الحمار البـري. كانت هنالك صورة أخرى لمعـركة بين رجلين يحمـلان الحراب يهـاجمان ثالثـاً يقع بينهمـا، وتوضح الصورة آخر جـاء ليلحق المشاجرة، وحصاناً بلا راكب، وفـوق خط الأفق لهذه الرسوم كان هنالك ما يمثل

حقيقة النمر أو ربما نمر مخطط، حكماً بالشرائط الواضحة على الجسد. توضح صورة أخرى شكلاً بالكاد يعرف أنه لرجل يحمل درعاً بإحدى يديه، وقطعة من سيف مرفوع في الأخرى، ويبدو وكأنه يصرخ متحدياً اثنين من الأعداء، أحدهما منبطح على الأرض مسدداً نحوه بما يبدو وكأنه بندقية، غير أنه قد يكون حربة، أو قوساً طويلاً، بينما انحنى الآخر فوق الأخير كأنما هو على وشك إطلاق سهم عليه من قوس واضح مشدود على مرمى نقطة الانطلاق. يمكن أن يكون الرجل المنبطح، بعد كل هذا، هو ضحية لهجوم الاثنين الآخرين. كانت الصورة الأخيرة لهذه المجموعة - وبالمناسبة واحدة من الأحسن- توضح وعلاً -واقعياً إلى حد بعيد- وهو على وشك الانهيار وقد أطلقت عليه حربة طويلة بواسطة فارس تم تصويره من الخلف. أعترف بأن الميزة الفنية لهذه الرسوم ليست كبيرة جداً في أي مستوى مطلق ولكن لا يوجد أي مجال للخطأ في القوة الحقيقية التي دفعت إلى تصويرها.

لمحنا ولأول مرة سلسلة طويل المراد من هذا الموقع. معلَّماً بالتقريب المكان الذي ستنتهي إليه الرحلة هذا المساء وهو المسقى الصحراوي في الحمى. وقد وصلنا إلى طرفه الغربي بعد مسافة خمسة أميال أخرى لتواجهنا مرة أخرى، كتلة من نقوش ثمودية تتخللها رسوم مختلفة من نوعية متدنية. كان عددها كبيراً واكتفيت بنسخ (١٤) رسماً منها فقط، هي تلك التي تستحق النسخ، كان العديد منها لرسم بدائي، وكانت في حالات كثيرة متآكلة بفعل عوامل التعرية، وهي لحيوانات مستأنسة -ثيران، وجمال-، وبشر، ومن أميز هذه الأخيرة صورة لرجل وهو يجري حاملاً قوساً في إحدى يديه وخنجراً أو جراب سيف على خصره وعند مفصل الورك. ارتكز اهتمامي لهذه المجموعة من الصخور، على النقوش،

التي بلغ عددها الأربعة عشر وقد نسختها وهي مكوَّنة من (٦٣٢) حرفاً ثمودياً. كان سفرنا، حتى هذا الموقع في اتجاه الجنوب الغربي، مسافة تبلغ ستة أميال، وكانت المسافة، من عند أولى المجموعات للرسوم الصخرية التي شاهدناها عند رأس وادي سهي، تقدر بثمانية عشر ميلاً، وقد كنت مشغولاً مدة بلغت في مجموعها حوالي ست ساعات في نقل هذه السجلات بأقصى ما أستطيع من مقدرة.

لا تزال أمامنا ستة أميال أخرى متبقية لنصل إلى آبار الحمى، ويكفيني إنجاز ما كان على عاتقي من أعمال مضنية. وقررت أن نترك ما تبقى من دراسة لأعمال القدماء إلى الغد، وعليه شققنا طريقنا بين صخور صخرية رملية سوداء تسمى ريع المباني، وتعني ممر المباني لندخل في الوادي المكشوف فيما يليها، والذي تقابلنا فيه مع مجرى شعيب سيلة قادماً من أرض قرا ومن ثم تتبعناه إلى التقائه مع شعيب الحمى في وادٍ جميل كثير الشجر في جوار الآبار، أو الينابيع، التي تكوّن هذا المشرب المهم. يعبر المجرى المتحد هذه الآبار متجهاً شرقاً إلى النفود مثله مثل كل المجاري التي اعترضتنا من عند شعيب سهي وما يليه إلى الأمام.

كانت رحلتنا متواصلة بلا انقطاع لمدة ثماني ساعات منذ أن غادرنا معسكرنا في عَلَم، وقد غطينا خلالها (٤٥) ميلاً، وكنت سعيداً بأن أستقر في معسكر مرة أخرى. كان يوماً شديد الحرارة ومرهقاً، ودهشت حين مراجعة قياس الارتفاع اللاأسلكي بأننا بدلاً من أن نهبط خلال كل هذا الوقت، كنا حقيقة نصعد لارتفاع بلغ (٢٠٠) قدم فوق مستوى رأس نجد سهي. كانت المسافة بين مفرق الأمواه وحمى تقدر بـ (١٣٦,٣) كيلومتراً. بينما كانت المسافة (٣٠٣,١٥) كيلومترات

من عند مفرق أبهـا - نجران (حوالي ١٩٠ ميلاً). كان ارتفاعنا فـوق سطح البحر في هذا الموقع (٤٤٠٠) قدم، وهو ما يمكن اعتـباره الطرف الغربي للربع الخالي، ذلك لأنه لا يتوقع وجود ماء في هذا الممر إلى الشرق من الحمى[١]. يمكن أن تعد الحدود في هذه الصحراء -عديمة الماء- تتكون من تل الكوكب إلى الشمال، حيث الأحواض الصـخرية المملؤة بالمـاء بعد هطول الأمطار، ومن الحـمى نفسـها ومن الحصينية إلى الجنوب حيث الآبار الجيدة في مجرى حبونا إلى أسفل[٢].

قابلنا قطيع كبير للماعـز، ونحن نقترب من الحمى، في طريقه أسفل الوادي وكان في رعاية عـدد من النسوة، كل واحدة منهن منهمكـة في غزل الصوف أثناء حركة سيـرها في الجناح الخاص بها. كنَّ يقمن بسقي حيوانـاتهن وقد حيينا وهن في دهشة حـينما مـررنا أنا وفرج بالسـيارة بقـربهن، وكانت الشـاحنة حينهـا قد انغـرزت في الرمال في مـجرى سـيلة، وتأخرت سـيارة النقل لمسـاعدة الشـاحنة للخروج من المأزق.

وصلت أنا وفرج إلى الـينبوع، الكائن داخل دائرة مطوَّقـة بالجرف عند رأس الوادي يبلغ قطرها حـوالي (٣٠٠) ياردة، والتي تبـاعدت عـنها جـدران الحجـر

(١) يوجد ماء بالفعل في قرية الفاو ومواقع أخـرى قليلة على امتداد الجرف الغربي لطويق، التي تعد الحدود الحقيقية للربع الخالي. (المؤلف).

(٢) حبونا:ـ هو ثان واد مهم في منطقة نجران، واسمـه قديماً في كتب التراث (حَبَونن). ويأخذ هذا الوادي أعلى مسـاقط ميـاهه من السراة الواقـعة إلى الشـمال الغربي مـن بلدة نجران، وإلى الغـرب من ظهران الجنوب. أما من نـاحية الشـمال فيـقاسم تثليث الماء من حـزوم تقع جنوب سهل العـمق شرق خـميس مشيط. وسكان هذا الوادي من قبائل يام، ما عدا منابعه العليا فلوادعة وفروع من قحطان، للمزيد انظر. الحسن بن أحمد الهمداني. **صفة جزيرة العرب**. تحقيق: محـمد بن علي الأكوع (الرياض: منشوارات دار اليمامة للبحـث والترجمة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م) ص ١٦٦، ٢٥١، ٢٥٤؛ ياقوت، **معجم**، جـ٢، ص ٢١٥، عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة**، جـ٢، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ . (ابن جريس).

الرملي الرفـرفية مـتجهـة إلى الخلف، إلى مسـافة ملائمـة، وفي صفـوف ممتلئة بالكهـوف، التي تأوى الزوار الذيـن يصلون إلى هذا الموقع. أضـافت أعـداد من أشجار الطلح الجيدة النمو سحراً للمنظر، وقد استمر انتشارها ناحية أسفل الوادي في تتـابع جذاب. وهناك بئـر تقع عند المركز، وهي عـبارة عن ينبـوع يبلغ قطره حوالي عـشرة أقدام وماؤه ممتـاز ووافر حتى مـستوى سطح التـربة، حتى أن المرء يستطيع أن يلعق الماء بمجرد الانبطاح على الأرض، وأن يغرف إلى فمه أو يملأ منه بيديه قرب الماء. توجد نقرة أخرى مستديرة مماثلة تقع على مسافة قريبة وهي مملؤة بالقصب، كـانت بلا شك ينبوعاً آخر وقـد امتلأ بالطمي لسبب مـا، وقد أهمل. كما يقع بين هذين الاثنين ينبـوع آخر صغير مستـدير يبلغ قطره حوالي ثلاثة أقدام وهو مبطن بالحجارة كما كان الينبوع الكبير.

شرع فـرج في البحث عن النسوة الـراعيات وذلك بمجـرد أن وصلنا وأخذنا نتأمل هذه الصفوف من الصخور، لأجل أن يشتري منهن تيساً وبعض اللبن لوجبة العـشاء. كنت من جـانبي، مـرهقاً بأعـمال اليـوم التي انصـبت على نقل ونسخ النقوش تحت حرارة الشمس لذلك عمدت إلى أن أستلقي تحت ظل شجرة مضيافة طلباً لبعض الراحة. كان الوقت الثـالثة عصراً، ولم أعِ إلاَّ على صوت مزعج عند الساعة السادسـة والنصف مساء، وكان الظلام قد هبط، وكـان مصدره هو وصول الشاحنة وسيارة النقل التي واجهت صـعوبات عديدة لإخراج الشاحنة من انغرازها في الرمل.

كنت مرهقاً إلى جانب أن رصيد ساعـات نومي العادي سجل عجزاً في عدد ساعات النوم، كانت أعمالي قـد تم إنجازها جزئياً تحت عَلَم، غير أنني كنت نادراً

ما أستغرق في نوم عميق، وأشعر أنني أحتاج إلى براد من الشاي وبعض جرعات من لبن طازج لتنشيط أحاسيسي المخدرة لتعود إلى نمط عملها. توج العشاء هذه العملية، إلى جانب أن فرجاً -حقيقة- كان في أحسن سلوكياته طيلة اليوم، بينما ظل سعد، من بين كل مجموعتي ينمّي شكواه المتعلقة بالأمس. غير أنه كان هنالك عامل واحد أدى إلى اضطراب الشعور العام بالراحة والرفاهية. كان المكان موبوءاً بالبعوض، والبعوض أكثر إلحاحاً في عدوانه خاصة في هذا المكان، أكثر من أي موقع آخر عبرناه على امتداد الطريق، لقد جعل البعوض ليلتنا بشعة بالأزيز، وقد كنت مسروراً بأنني قد نمت قبل أن يبدأ البعوض الهجوم سريعاً مع ظلمة الغسق، على أمل أن أظل نائماً خلال الليلة ذات السماء الملبد بالسحب، المصحوبة بالدفء اللطيف.

كان معسكر البدو على مسافة منا، في الصحراء -وبلا شك بسبب البعوض- غير أن عدداً من النسوة حضرن إلى معسكرنا مع شروق الشمس. ومعهن مئونة من اللبن. علمت فيما بعد أن هؤلاء النسوة كانت إحداهن من قطّاع الطرق المشهورين وكذلك كانت شقيقتها التي تدعى بنت البثة. كن معروفات بأنهن يكْمُنَّ للرجال في الصحراء ويسرقْن منهم جمالهم. كانت المرأة الأكبر سناً بينهن عرجاء بسبب جرح قديم أصابها في مثل هذا القتال، غير أنها تقوم بأمورها على أحسن حال[(١)].

(١) الجوع وفقدان الأمن هما من الأسباب الرئيسة التي جعلت بعض الأقوام في نواحي عديدة من الجزيرة العربية يقومون بقطع الطرق وسلب أموال الناس. والرجال هم في الغالب من يقومون بمثل هذه الأعمال، أما النساء فقليل من هن يقمن بهذه الممارسات، وربما الأمثلة التي ذكر فيلبي تكون من الحالات النادرة. (ابن جريس).

ذهبت إلى مجموعة الركام الحجرية لكي أطل على منظر عام للبلاد، تؤدي هذه الركامات الحجرية وظيفة أعمدة العلامات لمواقع الشرب، وتطل من فوق الهضبة الحجرية الرملية خلف موقعنا. وكما يشاهد من هنا تتكون مجموعة قرا من سلسلة تصادفية تقع تجاه الشمال والجنوب، على بعد ثلاثة أميال، ناحية الغرب مع انتفاخ رملي عند سفحها، والذي من عنده تنحدر الهضبة بلطف إلى مسافة خمسة أميال لتندمج في رمال الصحراء الشرقية. أستطيع أن أرى، بعيداً، وفي الاتجاه نفسه الشريط البني الشاحب للرمال المكوِّنة لحافة الربع الخالي وتمتد إلى الخلف، بلا سمة واضحة وإلى الأفق المليء بالغيوم.

بدا من الواضح أن هضبة قرا هذه ليست فقط قريبة جداً من خط الالتماس السطحي بين التكوين الترسبي والتكوين البركاني، بل إنها تقع فوق هذا الأخير وعلى عمق ليس بالكبير ذلك بسبب وجود بروز جرانيتي مكسر إلى جلاميد ضخمة مكورة على بعد نصف الميل أسفل الوادي من عند البئر، إلى جانب بازلت متكشف ومبعثر. تشققت الجلاميد التي تحيط بمنطقة البئر بواسطة أخاديد عديدة تمتد مسافة إلى الخلف داخل هضبة الصخور الرملية التي تحمل مياهها حيث أسفل إلى وادي الحمى. من المحتمل أن تكون كل هذه المجاري من عند الحمى وحتى الجحر -وكلاهما متضمن- في الأصل روافد لوادي حبونا، غير أنها تحت الظروف الحالية لا يمتد أي منها إلى أبعد من الرمال الخارجية للصحراء العظيمة، التي تمتص كل المياه التي يحملونها.

كان عليَّ، وأنا أتحدث في جدية أن أنهي هذا الفصل الخاص بوادي تثليث قبل أن استهل رحلتي إلى بلاد يام، غير أنني رأيت أنه من الملائم أن أتطرق إلى

الأرض الواقعة بين شعيب الجحر وبئر الحمى كهمزة اتصال انتقالية، ليس فقط بين المنطقتين القبليتين كـما هما اليوم، بل بين إقليمين لحضارتين مـختلفتين في الجزيرة العربية القديمة.

لقد أسسنا مـوقعاً لقدم في بلاد لم تكن أبداً خالية من بصـمات تذكارية لفن أو نقش لحضـارة اندثرت، كانت تخـتلف كثيـراً عن حياة الـبدو وشبـه البدو في عصـرنا هذا الحديث، بينمـا رأينا القليل فيمـا يخص السجـلات القديمة، في كل البلاد الواقعة إلى الشمال، والتي لا يمكن تفسيرها بأنها من فعل مسافرين عابرين، قادمين من الجنوب في مناسبـاتهم المشروعة للتجارة أو للحج، إلى المسـجد الحرام في بكّة[١]. لاحظت في الصـخور الحـجـرية الرملية مـن حول البـئر عـدداً من الخربشات والـرسوم ذات الأهمية الثانـوية مقارنة مع تلك التي قابلتنا عـلى امتداد الطريق. كانـت إحدى هذه الرسوم خطيـة مصـغرة لنعامـة نصف محـاطة بالرمز المألوف لدلو البئر الذي يستخدم دائماً في هذه الأنحاء ليدل على وجود الماء. ترك كل من محمد النشمي، شقيق حاكم نجران[٢]، وتابعه حسين بن رويشد اسميهما إلى جـانب الرسم وتركا كـذلك تاريخ زيارتهمـا، عام ١٣٥٤ هـجري أو ١٩٣٥ ميلادي. كان يوجد أيضاً رسم بسيط لجمل وآخر لفارس نشط يشد لجام فرسه إلى الخلف، كأنما كـان على نهاية سـباق. لقد اكـتشفت أطـول وأهم نقش خلال كل

---

(١) بكّة: اسم من أسماء مكة المكرمة (ابن جريس).

(٢) أمير نجران أثناء زيارة فـيلبي جنوبي البلاد السعودية، هو:ـ إبراهيم بن عبـد الرحمن النشمي (١٣١٣ ـ ١٣٩٨هـ)، وكان من الرجال الذين يُعوّل عليهم وتسند إليهم المهـمات، تولى عدة إمارات في عهد الملك عبدالعزيز في أمور كثيرة، كما غير الملك اسمه من إبراهيم الوشمي، نسبة إلى بلادة الوشم، إلى إبراهيم النشمي. للمزيد من التفاصـيل انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**، ص ١٨ ـ ٤٩ . (ابن جريس).

رحلاتي وذلك بعد أن واصلنا سيرنا صباح الغد وعلى بعد ميل واحد من الوادي. كان النقش، جزئياً، قد تأثر بعوامل التعرية وبصورة سيئة، غير أن ما تبقى منه قد احتوى على (٤٠٠) حرف وعندي أن السجل الأصلي لا بد وأن يكون محتوياً على ما يزيد عن نصف هذا العدد، إضافة إلى ما كان على طرف الصخرة الأيسر مونوقرام (علامة ترمز لشخص ما) ضخم شيئاً ما مثل شمعة الزينة، وللأسف فإن هذا النقش السبئي لا يزال ينتظر التفسير من جانب الخبراء ولا أستطيع أن أدلي بشيء عن مغزاه[١]. كانت هنالك مجموعة أخرى من نقوش إلى جواره، وقد تمكنت من نسخ أربعة منها وتحتوي كلها على (٧٢) حرفاً، يبدو أنها كانت تمثل برجاً مستطيلاً ذا باب مقوَّس[٢].

لم تكن دنيا الطيور في الحمة مثيرة للاهتمام، كان معظمها من النوع الصحراوي المكون من سيسي، وقنبرة الصحراء، -طار أحدها من عند البئر عند وصولنا لأول مرة، وبلا شك كان يشرب منه-، والأبلق العربي، و"بلاكستارت"، غير أن البلابل وأبو الحناء الأسود واليمام كانت ذات غلبة أكثر وكذلك كان حمام الصخور. سمعت عن الحمى في عام ١٩١٨م، وأنا في وادي الدواسر، بأنها موقع سقي مهم في الطريق الصحراوي الطويل بين ذلك المكان

(١) يبدو أن تاريخه كان عام (٦٣٣) للتقويم السبئي أو (٥١٨م). تم نشره في دورية (Le Museon) عام ١٩٥١ بواسطة البروفسور رايكمانز. (المؤلف).

(٢) زار فيلبي نجران مرة ثانية عام (١٣٧٠هـ / ١٩٥١م)، ومعه بعض المتخصصين في النقوش والآثار القديمة، أمثال: ـ الأستاذ / كونزاك ريكمان، أستاذ اللغات السامية في جامعة لوفان ببلجيكا، والسيدان فيليب ليبنز، وجاك ريكمان. وقد عملوا العديد من الدراسات، أشار فيليب ليبنز إلى بعضها في كتابه: ـ **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**. ترجمة ومطبوعات دار الملك عبدالعزيز (الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م). (ابن جريس).

ونجران، وقد اهتــززت فرحاً أن أتمكن من رؤية هذا المكان بأم عيني لتأكــيد صدق من حدثني عنه في تلك الأيام، والتي انقضت منذ زمن بعيد، إنه لمن سحر السفر في الصــحــراء مراجـعـة المعلومـات المنقـولة عن الآخـرين لتـشبع نهـم فضـول الاستكشاف.



الباب الثالث

بلاد يام(1)

٢٥ يونيو إلى ٢٤ يوليو ١٩٣٦م

١٢ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر ١٩٣٦م

---

(١) بلاد يام في نجران نسبة إلى يام بن أصبي بن دافع بن مالك بن جُشَم بن حاشد، فهي بذلك فرع من حاشد بن همدان واولد يام بن أصبي: ـ جشم ومذكراً، وهما فرعا يام إلى يومنا الحاضر. وكان من يام رجال معدودون قادة وشعراء وعلماء في الجاهلية والإسلام. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **نجران**، جـ١، ص٣٨ ـ ٤٠ .

كما انظر شجرة يام، **في المرجع نفسه**، ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧ . (ابن جريس).

الفصل الحادي عشر

عتبة نجران[١]

تتبعنا مجرى شعيب الحمى عندما واصلنا رحلتنا، لمسافة ميل ونصف الميل إلى موقع التقائه مع شعيب سيلة. واصلنا سيرنا من عند هذا الموقع وبعيداً من المجرى الذي يتجه ناحية شرق الجنوب الشرقي إلى حيث رمال الصحراء، في اتجاه جنوبي شرقي فوق الطرف الخارجي للهضبة الصخرية الرملية أثناء انبساطها فوق السهل.

كان سيرنا جيداً على أرض رملية وطموية مع مساحات حجرية من حين لآخر وتلال منخفضة على جانبينا. عبرنا شعيب مخش بعد مسيرة ميلين ونصف الميل الذي يقبل من ناحية التلال على اليمين من موقعنا ليتحد مع شعيب الحمى في نهاية الأمر، وفيما يليه، فهو يخرج إلى سهل بركاني واسع، حصوي. يمكننا رؤية هضبة النقا الصغيرة السوداء وهي بارزة من بين رمال الربع الخالي، إلى البعيد ناحية الشرق، بينما يقع إلى ناحية الجنوب الغربي تل قطن البارز المميز، وإلى جهة الشمال الغربي توجد أرض الحمى. اخترق طريقنا رافد آخر للحمى، على مسافة من شعيب نعوان[٢]. وانطلقنا بسرعة جيدة فوق سهل رائع رملي، منقط

---

(١) لمزيد من المعلومات عن جغرافية وتاريخ نجران انظر: حسين علي المسري. «نجران ودورها السياسي والاقتصادي» **مجلة المؤرخ المصري**. جامعة القاهرة، كلية الآداب، عدد (٩) (يوليو ١٩٩٢م) ص ٤١ ـ ٩٠؛ غيثان بن جريس. **نجران، دراسة تاريخية حضارية**، حـ١، ص ٣٠ وما بعدها؛ عاتق بن غيث البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص٢٢٢ وما بعدها، عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ٣٩١ ـ ٤١٠ .

(٢) الاسم الصحيح هو (نعوان)، وليس معوان كما ذكر فيلبي. (ابن جريس).

هنا وهناك بكتل من صخر رملي مكسر، يتآكل ببطء ولكنه بكل تأكيد يذوب داخل رمال الصحراء. لمحت سلسلة سابل ذات التلال المرتفعة نسبياً ناحية غرب الشمال الغربي، إلى البعيد. بينما تقع على مسافة ليست بالبعيدة من موقعنا، سلسلة تسمى وريك، يقال أنها تمتلئ بالبرك المائية بعد الأمطار، وتقع ناحية جنوب الجنوب الغربي.

دخلنا إلى منخفض الخور الواسع الضحل بعد مسيرة ستة أميال من نعوان، و(١٥) ميلاً من الحمى، ويبلغ عرضه ميلين ويكسوه غطاء نباتي كثيف غير أنه ميت، ولعله لم يتلقَّ أية أمطار لعدد من السنوات. تحصلنا على زوج من غزال الأدمي في هذا الوادي، أثناء عبورنا، كما جمعت قرناً لغزال ريم ميت. يبدأ هذا الوادي، فيما يبدو، في مكان ما عند سفوح تلال سابل، ودخلنا، فيما يليه، وعبرنا منخفضاً مماثلاً متجهاً شرقاً، وبه غطاء نباتي مماثل وميت، من عند سلسلة وريك. كان المنظر موحشاً، حقيقة، خالية حتى من طائر صحراوي، وباستثناء الغزالين، فهي خالية أيضاً من أية علامة للحياة. يقع تل قطن الآن إلى الشمال الغربي من موقعنا ويقع النقا، الذي لا نزال نراه، تجاه الشمال الشرقي. استدرنا الآن إلى الجنوب فوق أرض رملية هي متموجة قليلاً، مجتمع صحراوي، تتخلله سلاسل لصخر رملي تكنسه الرمال، يسمى بغموض برق الأباعير وهو يكوّن الحد الفاصل بين مصرف الحمى من ورائنا ووادي حبونا من أمامنا. كنا هنا على ارتفاع (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، أو تقريباً، على نفس ارتفاع آبار الحمى.

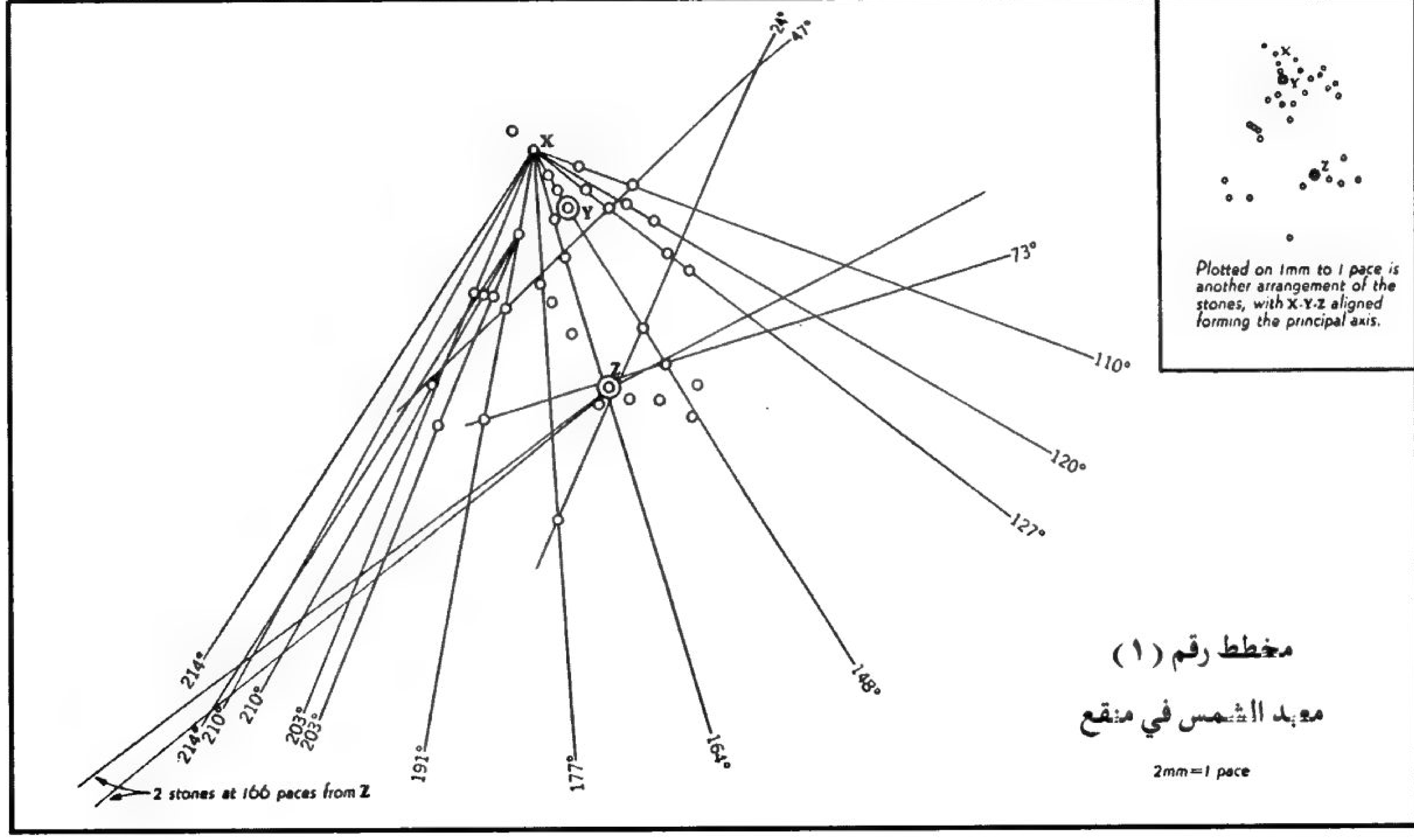
هبطنا بلطف من هذا الموقع إلى سهل واسع منخفض يسمى المنقعة أو منقعة التريبث والتي كان سطحها البركاني مغطى بكثافة بنبات النجعة الجاف، ويبدو السهل وكأنه يكون خط صرف لتلال سابل ووريك. سرنا فوق هذه الأرض لمسافة

ثلاثة أميال، حينما جذب انتباهي تجمع غريب لصخور جرانيتية اضطررت للتوقف لفحصها. يلاحظ وفرة الصخور البارزة في هذا المكان، غير أنه لم يساورني الشك بعد فحص مطول لهذه المجموعة من الجلاميد خاصة، أن ترتيبها هذا هو من عمل الإنسان، ربما كانت موقعاً لتجمع قبلي بدائي للعبادة أو أية أغراض أخرى، في الحقيقة فقد كان الموقع معبدا!(١).

يمكن استيعاب الترتيب الفعلي للجلاميد وذلك بالرجوع إلى المخطط رقم (١)، غير أنه يمكن شرحه إذ أن المحور الرئس للمجموعة كان يمر بالحجارة الرئيسية (X-y-Z)، بزاوية تتراوح بين (٣٤٤) إلى (١٦٤) درجة، أو تقريباً تجاه شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي. كان الجلمود (X) جلموداً منفرداً، بينما كان الجلمود (Y) مكوّناً من مجموعة من جلمودين كبيرين يبعدان عن بعضهما بخطوتين ونصف الخطوة، ومعهما اثنان آخران أصغر منهما يقعان فيما بينهما. ويبدو أن الجلمود (Z) كان العنصر الرئس للمجموعة كلها، ربما قام مقام المذبح للقرابين وكان مكوِّناً من حجر واحد كبير وآخر موضوع أعلى منه ومن فوقه. لا يوجد ما يشير إلى أن الترتيب دائري لهذا العدد المعتبر من الحجارة المكوّنة للمجموعة.

يحتوي التجمع عند طرفه الشمالي على ثلاثة جلاميد (X)، (X1)، و (X2)، تمتد على زاوية (١١٠) درجة من عند (X) لمسافة (١١) خطوة، أو قل ٢٧,٥ قدم. امتدت ثلاثة خطوط بالأسلوب نفسه من الحجارة من عند (X) بزاوية (١٢٠) درجة (١٥ خطوة)، و(١٢٧) درجة (١٧ خطوة)، و(١٤٨) درجة

(١) لا يستبعد أن يكون مكاناً للعبادة؛ لأن منطقة نجران معروفة منذ القدم بالعديد من الديانات السماوية والوضعية. (ابن جريس).



مخطط رقم (١)
معبد الشمس في منقع

(٣٤ خطوة) ليتكون من هذا الخط المركزي من عند (X) عبر الفجوة في (Y) إلى (Z) بزاوية (١٦٤) درجة (٣١ خطوة). امتد بعد ذلك، خط من عند (X) بزاوية ١٧٧ درجة (٣٩ خطوة) وآخر بزاوية (١٩١) درجة (٢٩ خطوة) وعليه فإن إجمالي عدد الحجارة كان أربعة، كان الحجر الثاني منها -يقع على بعد تسع خطوات من (X)- هو لنقطة البؤرة لثلاثة خطوط أخرى على زاوية (٢٠٣) درجة (٢٢ خطوة)، (٢١٠) درجة (١٩ خطوة) و (٢١٤) درجة (٧ خطوات)، بالتتالي. يمكن القول بصفة عامة، أن كل الأشعة من عند (X)، مركز الإشعاع، تقع بين (١١٠) درجة و (٢١٤) درجة، شاغلة أكثر من ربعية البوصلة بقليل. يجب أن أترك مغزى وضع هذه الصخور للخبراء المتخصصين في مثل هذه الأمور، قانعاً نفسي بالحقائق المؤكدة بعناية إلى أقصى حد، في الموقع. كانت كل الحجارة المستخدمة في المجموعة من جرانيت خشن غير مشذب.

قضيت ما يقارب الساعة وأنا أدرس هذا النصب التذكاري، بينما كان بقية الرفاق قد تقدموا أمامي بمسافة الميل الواحد إلى حيث ظل مناسب لجلاميد جرانيتية، حيث استقروا لإعداد وجبة منتصف النهار وهم في انتظار وصولي. كان هذا فيما يلي أول مجريين لشعيب قطن، ووضح لي وأنا أتوجه للحاق بمجموعتي، أن مسارنا، قد تغير قليلاً منذ هبوطنا من قاسم برق الأباعير، ناحية الجنوب الغربي وأننا قد تحولنا إلى الخلف من عند الأراضي الصخرية الرملية الشرقية إلى ناحية الأرض البركانية الممتدة إلى البعيد إلى سلسلة السراة التي بالكاد تُرى، وبرزت بعض سماتها المرتفعة في مدى الرؤيا ناحية الجنوب الغربي.

لم نصرف كثيراً من الوقت في الطعام، وسرعان ما واصلنا السير عبر مجرى شعيب قطن في طريقنا إلى بئر الحصينية على الجانب الأيسر لوادي حبونا العظيم

الذي يبعد حـوالي ثمانية أميـال من «المعبد» وحوالي (٣٢) ميـلاً من عند حمى، وكغيره، كان ارتفاعه (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر. كان مجرى حبونا محجوباً عنا، ونحن نقترب منه، بسلسـلة محددة لجانبه الأيسر، غـير أننا كنا نلمح أجزائه العليا وخطـوط غطائه النباتي ذات اللون الأخضـر الرمادي، إلى البـعيد، ناحـية الأفق الشرقي. كان محيط البئر نفسه حوالي (٢٢) قدماً ويقع على الجانب الأيسر لبطن السـيل، والذي كان مبطناً بمتـانة ببلوكات جـرانيتيـة على كل امتـداده حتى مستوى الماء على عمق (١٤) قامة.

عسكرنا بجـوار صخرة لسلسـلة مواجهة لـلوادي العريض، الممتلئ بأشـجار الطلح المظلية الـشكل، وأشجار الأرطى -هكذا يسـميه القـحطانيون- واليامـيون يدعونه عبالاً[١]، وجنبات أخرى أكسبته منظراً باهتاً رتيباً غير أن هذا لم يؤثر على قناعتي، حسب علمي، بأنني أول أوربـي يلقي نظرة على هذا الوادي الصحراوي المشهور في الجزيرة العربية. وقد كـان خالياً من المياه في هذا الوقت، بالطبع، غير أن البئر قـد جذبت إلى ناحيتهـا حشداً كبيراً من بـدو يام الذين كان وجودهم هنا خلال الصـيف سبباً لجـذب مجموعـة من جامعي الضرائب الحكومـيين، يرأسهم الصبي محمد، وعـمره (١٥) سنة، ابن إبراهيم النشمي حاكم نجران[٢]. كان أول

(١) ذكر المصطلحات وأسـماء الأشجار وغيرها من المفردات المحلـية تختلف كثيراً ما بين مـنطقة نجران، وما جاورها من المناطق السعـودية مثل:ـ مناطق عسير، وجازان، والرياض. بل إن الاخـتلاف في اللهجات أحيـاناً يكون بين قرى وعـشائر وقـبائل المنطقـة الواحدة. ولهذا فـإنني أحث طلاب الدراسات الـعليا، والأقسام الأكاديمية في الجامعات السعودية أن تولي مثل هذا الموضوع اهتماماً من البحث والدراسة. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن إبراهيم النشمي، أمير نجران، أثناء زيارة فيـلبي للمنطقة، انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**، ص١٨ وما بعدها. (ابن جريس).

من حيَّاني عند وصولي إلى هنا هو يحيى بن نصيب الذي أحضرت له خطاباً من أخيه حسين، وقد استأمنني عليه في أبها لكي أقوم بتسليمه له في نهاية الأمر. كان يحيى في شكله العام شبيهاً بأخيه.

اعترضت ملاحظاتي للنجوم تلك الليلة سحب، أترقب انكشافها، ملأت السماء، برغم أنني جلست طول الليل، ذلك لأهمية أن أقوم بتسجيل هذا الموقع بدقة. قررت، لذلك، أن أقضي اليوم التالي وليلته هنا ولم يتملكني الأسف على ذلك، حيث أنني رأيت الكثير من رعاة يام، وتعلمت الكثير منهم عن بلادهم كاملة. زارني عند الساعة السادسة صباحاً الصغير محمد النشمي ومجموعته، والذين كانوا يعسكرون وسط أشجار الطلح في وسط الوادي، في طريقهم إلى سلوة، وهو البئر التالي (وعمقه ١٤ قامة)، ويقع أعلى الوادي في واحة صغيرة، ذلك لأنهم يقومون بجمع الضرائب. قيل إن الرحلة تستغرق نصف يوم من هناك إلى واحة حبونا الرئيسة التي تتضمن أيضاً -الخضراء، والشط الأعلى، والقابل، إلخ-، التي كان عليَّ أن أزورها شخصياً في وقت لاحق، ولا أحتاج لوصفها الآن. كان النهار كريهاً إلى حد بعيد، بعد أن ظللت الليل كله يقظان في الحصينية وكانت الرياح قوية والرمال متطايرة، غير أنني ظللت منشغلاً بالزوار طيلة فترة الصباح، زارني جمع من الرجال بوجوه فظة ومعهم أطفال يشبهون الإناث، كانوا قد أحضروهم معهم على أمل أن أقوم بتوزيع هدايا أو بعض المال. كان أحد زواري واسمه حمد الخثيلي، رجلاً كبير السن جداً، يعرف باسم راعي البئر أو (حارس البئر) وأظنه ينوب عنهم أثناء غياب القبيلة في المراعي.

تحاشيت الجشع العام بأن طلبت من الأطفال إحضار الكائنات البرية التي في المنطقة إذا رغبوا في جائزة مناسبة، وبهذه الطريقة ازدادت مجموعتي بأرنبين بريين، وبعض السقنقورات (دمص) وبعض سحالي (تيهي) كما أحضر لي فرج طائر أبي اليسر.

كنت قد استلقيت بعد تناول وجبه الغداء مدة أربع ساعات لتعويض فترة نوم ليلة الأمس ثم تسلقت من بعدها إلى موقع على سلسلة جرانيتية على الجانب الأيسر لمجرى الوادي لأجل أن أقوم بمسح المنظر المحيط. كان دليلي لهذه الحملة هو حسن بن حسين التابع لفخذ شيخ أبو ساق من آل فاطمة، فرع يام[1]. كان الجانب الأيمن لوادي حبونا، المواجهة لمعسكرنا، كتلة مصمدة من تلال تسمى شرا، ترتفع إلى (٥٠٠-٦٠٠) قدم في المتوسط وتمتد حتى تخوم وادي نجران في البعيد. تكون منها، بذلك، أنف للهضبة العالية الرئيسة مع وجود نقاط عديدة بارزة منها -عمود الرمض، وبدوه، وفريق، إلخ- وكل هذه تقع إلى يمين الطريق الذي يتجه إلى نجران، والذي يجري تجاه جنوب الجنوب الشرقي من هذا الموقع، وعبر فجوة[2] في السلاسل البارزة إلى الشرق من الأنف. كان عرض الوادي نفسه ميلاً كاملاً من الجانب إلى الجانب وتنتشر تلال برقة حليث، عند الطرف الأقصى للأنف، في رمال الصحراء. تقع سلسلة سوداء، محززة فيما يلي حليث، تسمى ضبع، بينما إلى جهة الجنوب من معسكرنا شمخت الأرض الرأسية خشم

(١) حسن أبو ساق، أحد الشيوخ الرئيسين في قبائل يام ببلاد نجران. وللمزيد عن أسرة آل بوساق، انظر: عاتق البلادي، **بين مكة وحضرموت**، ص ٩٧ ـ ٩٩ . (ابن جريس).

(٢) تقع هذه الفجوة بين سلسلة المختلف وتلال برقة حليث. (المؤلف).

خشخـاش، والتي يخترقها طريق الجـمال عبر الأراضي الجبليـة إلى نجران. توجد بعض الهضاب المنخفضة في الوادي نفســه، تجاه الجنوب الشرقي من موقعنا منها: مشارق وأبرق حسن.

ينطلق مجرى الـسيل، في اتجاه الوادي من عند معسكـرنا، ماراً بأبرق حسن ومشارق وإلى البعيد تجاه المعلم الأرضي البـارز خشم العان إلى الشرق من موقعنا عند الطرف الشرقي لسلسلة برق الأباعير، على بعد عشرة أميال، حيث يوجد بئر قديم مهجور يسمى ثليقة عند سفح المجرى. لا توجد آبار بعد تلك النقطة غير أنه قد يعثـر على ثلاثة برك أو منخفضات تمسك بميـاه السيول (ملازم) خـلال المسافة المقدرة بأربعة أو خـمسة أميال فـيما يلي ثليقـة، هي بالاسم: زبادة وأم خضا وأم جيرة. يمتد الوادي أعلـى معسكرنا ناحية الغـرب مسافة مـيل واحد، ثم يدور تجاه غـرب الجنوب الغـربي ويضـيق إلى عـرض نصف الميل وهو مكوّن من سـلاسل جرانيتية منخفضـة هي: شرا إلى الجانب الأيمن وعان الجمل على الجانب الأيسر. تبدأ كلها من مسافة ثلاثة أميال من عنـد بئر الحصينية. يمكن رؤية جبل صخا وهو أعلى سلسلة[١]، من خلال الفجوة بين هذه السلاسل.

هدأت الرياح عند الساعة الرابعة عصراً، وخف معها الغمام الرملي، غير أن السماء ظلت مـتوعدة ومملؤة بالسحب. كـانت خيام البدو تنتـشر في كل جوانب الوادي ولكل مجموعة من الرعاة مجموعة الماعز المرافقة، ولكن لا يوجد خرفان. أفادني دليلي أن مجرى حبونا معروف بهذا الاسم مسافة عشرة أميال ما يلي خشم العان، وأنه يسمى أيضـاً عن حيوتلة، قبل أن يختفي في رمـال الصحراء. كل هذه

(١) صخا: يُنطق أحياناً باسم (صخي)، بكسر الصاد، والباء بعد الخاء معجمة. (ابن جريس).

الأراضي، كما ذكر، هي أرض المها (الوضيحي) والمعروف أن هذه الحيوانات تأتي إلى الوادي إلى أن تصل الحصينية وإلى أبعد منها. وقد اعتاد البدو أن يصنعوا أحذية الصندل من جلود المها، غير أنه في هذه الأيام فإن إطارات السيارات المهملة التالفة تستعمل في صناعة الصنادل مع تثبيتها بمسامير غير مغمدة لإمساك الأجزاء. يبدو أن هذه المنطقة خالية من البعوض، غير أن طباخنا، محمد بن جابر أصبح طريح الفراش بالحمى وذلك أثناء إقامتنا هنا، وكذلك كان حال سعد، الذي تعافى تقريباً من صدماته الأخلاقية.

كان أحد زائريَّ غريباً من محافظة حضرموت، وهو رجل كبير السن اسمه ناصر بن شماخ من عشيرة مردعة من نهد[(١)]، والذي سيلحق بحملتي للجنوب في سحر بصفته دليلاً. كان في طريقه، في هذه الأثناء إلى خب والجوف (بلاد دهم) في حملة جمع ديون، والتي وعد، بعد عودته منها أن يرافقني إلى شبوة، وكان عند وعده. تستغرق الرحلة، كما قال، يومين من نجران إلى خب، ويومين من خب إلى بئر بوعة ويوماً واحداً من بئر بوعة إلى الجوف. وتستغرق الرحلة يوماً واحداً إلى دحيضة (وهو وادٍ صحراوي) ويوماً آخر إلى تلال رويك، ويوماً في تل العرين ويوماً من هذا المكان إلى شبوة. لم يكن يخطر بذهني أنني سأرى كل هذه الأماكن وفي وقت قريب. كان العرض المسبق للرحلة -بصفة عامة- الذي اقترحه عليَّ ناصر، صادقاً وصحيحاً في كل أساسياته. ستأخذه رحلته الخاصة القادمة عبر السفوح السفلى لوادي نجران إلى الخلقة خلال يوم واحد، ومن

---

(١) نهد: ــ قبيلة عربية تعود في أصولها إلى قبائل قضاعة، وينتهي نسبها إلى معد بن عدن، ولا زال فروع من هذه القبيلة يقطنون منطقة شرورة من بلاد نجران حتى اليوم. (ابن جريس).

هناك عن طريق حضـبة إلى خب ومنها إلى الجـوف. قدم لي ناصر أيضاً أسـماء أقسام كـثيرة لقبيلـته نهد كما يلي: (١) مـردعة -قسمه الخـاص، بالطبع سيكون الأول في الترتيب-. (٢) قمَّزين (٣) آل الذيب (٤) اليـميني (٥) آل حدجان (٦) آل بدر (٧) حتيريشة (٨) الحكمان -وهي القسم الرئيـسي ويتمركز في قعوضة-، (٩) مقيزة (١٠) آل منيف (١١) السـرمان (١٢) آل حويل (١٣) العطاير (١٤) آل عـرفان (١٥) بني شـبيـب (١٦) آل الزوع (١٧) آل عبـري (١٨) آل نهيـد (١٩) المقارم. تقع كل هذه الأقسام لنهد، كما قال، بين وادي دحر -ويبعد مسيرة أربعة أيام من شبام ويومين من شبوة- وبين سفح وادي حضرموت (قعوضة)[١].

كان ناصر رجلاً غريباً، كالشبح، قليل الحجم، مسناً ذا لمعان في عينيه يكذب روحه الجشعـة. غير أنه بصفة عامة قـد خدمني بجدية، وكنت ممتناً للظروف التي جمعتني به والتي أعزوها إلى تلك السحب التي حجبت النجم القطبي على امتداد الليلة السـابقة. فلم أتمكن من إجـراء ملاحظاتـي للنجوم إلاَّ عند منتـصف الليلة الثانية، وقد أويت إلى فراشي وضميري صافٍ في انتظار تجارب الغد الممتعة.



(١) وللمزيـد عن قبيلة نهـدُ وعشـائرها في نجران وأجـزاء من بلاد اليمن، انظر: عـاتق البلادي، **بين مكة وحضرموت**، ص ١٥٠ ــ ١٦٢ . غيثان بن جريس، نجران، جـ١، ص ٤٢ ــ ٤٦ . (ابن جريس).

الفصل الثاني عشر

كعبة نجران[١]

قد يكون عرض وادي حبونا - وهو مميز عن مجرى السيل المؤثر - أكثر من الميل الواحد، غير أنه من الصعب تحديد الموقع، على الجانب البعيد، الذي يختفي منه الوادي بلا حس في السهل الرملي المستوي. كان سيرنا جيداً في كل من الوادي والسهل الذي يكون جزء منه فوق رمال ثابتة، وجزء آخر فوق مساحات من الحصى (رقة)، وتتخللها من فترة لأخرى هضبات رملية صغيرة، ربما معلَّمة آثار مساحات قديمة لمجرى السيل، وتحيط بها جنبات الطلح والعبال[٢].

قطعنا مسافة ستة أميال فوق هذا الضرب من سهول الأودية إلى أن وصلنا إلى تلال على الجانب البعيد وتوقفنا عندها على ممر يقع بين سلسلتين منخفضتين من جرانيت أسود وبازالت. كانت هذه السلاسل، إلى اليسار، تتكون من المختلف، وحليث، وضبع، بهذا الترتيب تجاه الجنوب بينما برزت تلال أكلب القارورية الشكل، إلى البعيد، في الصحراء العظيمة ناحية الجنوب الشرقي، وعلى يسارها حمير وسلسلة حميقة المنخفضة إلى اليمين. يسمى السهل المغطى

---

(١) كعبة نجران:- بناء ديني مسيحي، شيده عبدالمدان بن الديان الحارثي الذي ينتسب إلى بني الحارث بن كعب من قبائل مذحج. وقد تم الاعتناء بهذ الكعبة حتى صار يزورها الأدباء والشعراء القدماء ويقولون فيها قصائد تعد من روائع الشعر. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **نجران**، جـ٢، ص ٥٢ وما بعدها (ابن جريس).

(٢) العبال: شجر ينبت في الجبال والهضاب، وبخاصة في المرتفعات الباردة، ويمتاز بأزهاره البيضاء الجميلة، ويصل ارتفاعه عن الأرض إلى ثلاثة أمتار تقريباً. (ابن جريس).

بالشجيرات الخفيفة والذي يمتد من عند الجانب الأيمن لوادي حبونا تجاه تلال أكلب باسم جذيم. كانت سلسلة حـضب غير واضحة تقع بعيـداً ناحية الجنوب، مكّونة الجانب الأيـسر لسفح مـنخفض لوادي نجران. وقـفت عن قرب، وعلـى الجانب البعيد لسهل جذيم سلسلة تصلال[1] والتي كانت هدفنا الفوري أثناء عبورنا لسهل درة الداخلي، الممتلئ بعشب النصي الوافر، الجـاف، في اتجاه الجنوب على امتداد طريق السيارات الواضح الذي ظل محازياً للحافة الشرقية للتلال.

وصلنا إلى بئـر تسمى برق الدرة، بعـد أن قطعنا مسـافة عـشرة أميـال منذ مغـادرتنا الحصـينية. كـان بارزاً في السهل والذي من عنده اسـتطعنا أن نرى كل مواقع أكلب (خـمسة أو عـشرة منها) في الصـحراء. يتجـه طريق نجران من هذا الموقع ناحية الجنوب الغربي مطوقاً التلال إلى قـمة تسمى شعثة، والتي من عندها يميل تدريجياً إلى اليمين ويدخل وادي نجران. تقع تصـلال، وهي سلسلة معتبرة، كما تشاهد من هذا المكان، ناحية الجنوب الشرقي عبر سهل الدرة - وجذيم. قيل لنا أن وادي نجران ينسـاب ماراً ببئر الخضـراء وعلى امتداد سفح حـضب يعبر بين تلال نويدرة ورويكبـة إلى الصحراء مـاراً بأقصى بقـعة جنوبية مـن نقاط أكلب. ويقال أيضـاً أن مجـراه، الممتلئ بالغطاء النبـاتي الرمادي - الأخـضر والمكوّن من الحمض والطرفاء. . . إلخ. يمكـن مشاهدته من مسافـة تصل إلى (٥٠) ميلاً إلى الشرق من الخضراء، ثم يذوب بعد ذلـك في الرمال العظيمة. أمكننا رؤية سلسلة برك المنخفضة في بطن وادي نجران أعلى من بئر الخضراء، تجاه الجنوب الغربي من برق الدرة وكذلك رؤية العديد من التلال الأخرى على الجانب البعيد من الوادي.

---

(١) وأحياناً يطلق على جبل (تصلال) اسم (جبل كعبة نجران). (ابن جريس).

يقول مثل سائر عن برك: «إذا جاك الحيا فارفع الصوت وأعلن من رأس برك منادي»[١].

أستطيع أن أرى تل تنصب الداكن -البعض يسميه خطأ جبل سلة- إلى البعيد في الصحراء، عند الطرف الشرقي لتصلال، ويعتبر أقصى بقعة شرقية للحدود اليمنية السعودية، وقد تم تعليمه منذ سنتين قبل زيارتي، بواسطة لجنة حدود مشتركة، والتي لم تقم بالفعل بزيارة تنصاب لتتوج رأسه بركام من الحجارة. كان الخط الحدودي الفعلي هو الوسط الباهت المتلئ بالرمال لوادي سلة، الذي يمر بين تنصاب على جانب الوادي الأيمن والهضبتين الصغيرتين اللتين تسميان أبرقين، وقد برز رأساهما فقط خارج الرمل الرهيب. يبدو أن وادي سلة ما هو إلا الامتداد الصحراوي لوادي الفرعه، وهو الوادي التالي ناحية الجنوب من نجران. لا يوجد ما يمكن رؤيته إلى الشرق من الشريط الذي يربط بين حبونا، وضبع، وحامر، وأكلب، وتنصاب -اللهم إلاَّ قفار لا نهاية لها- هو الامتداد الميت المستوي للربع الخالي.

وصلنا إلى الطرف الشرقي من تصلال بعد قيادة سريعة وجيدة لمسافة أربعة أميال عبر سهل الدرة، الذي يندمج هنا في جذيم بما عليه من شجيرات خفيضة وهضبات رملية عليها شجيرات أراك. يتخذ سهل جذيم، الذي يمتد من وادي نجران، مظهراً يدل على أنه جزء من دلتا الأخير، وربما يكون هذا هو الحال. تنهي صخرة تصلال تجاه الشرق عند جدار عمودي ارتفاعه حوالي (١٥٠) إلى (٢٠٠) قدم ويبلغ طوله ما يربو على ربع الميل. يتجه الصخر إلى الخلف من عند نهايته

(١) يوجد عدد كبير من الأمثال الشعبية المحلية في منطقة نجران وما جاورها من المناطق، ومثل هذا التراث يستحق الدراسة العلمية الأكاديمية وبخاصة في الجوانب اللغوية والتاريخية والاجتماعية. (ابن جريس).

الجنوبية، وهي أقل اعتدالاً وأكثر مصادمة، وفي اتجاه جنوب غربي ولمسافة (٢٠٠) ياردة.

وصلنا إلى مقبرة معتبرة عند نهاية هذا الجانب كانت تحتوي على قبور عديدة مبنية من بلكات جرانيتية غير مشذبة. ارتفع البناء الفوقي لأكبر القبور إلى ثلاثة أقدام وقياسه حوالي الخطوتين، ومشتملاً على طبقات عديدة من حجارة، بينما كانت بقية القبور منخفضة، وكان بعضها بيضاوياً، والآخر مستطيلاً وكان أسلوب البناء واحداً. كان وضع المقبرة وكل القبور التي تحتوي عليها عند زاوية (٢٥٥) درجة إلى (٧٥) درجة في اتجاه وجه الصخرة، وبدا القبر الرئيس كأنه المركزي من بين مجموعة من تسعة قبور هو الأقرب منها إلى الصخرة -عدا أن قبراً مربعاً صغيراً وآخر مستديراً، قد تعارض بينه وبين قاعدة الصخرة، بينما برز اثنان آخران (كلاهما صغير) من عند الخط الأمامي بالقرب من الزاوية الشرقية للمجموعة-. كان عدد القبور، في الإجمالي في هذه المقبرة، حوالي (٣٠) قبراً والتي تواصلت بعد مسافة خالية يقدر بـ (٢٥) قدماً مع مقبرة أخرى، تحتوي على حوالي (٥٠) قبراً في الترتيب والاتجاه نفسه، وهي قبور لها الشكل العام نفسه كالبقية، غير أنها أقل طموحاً، ومواجهة للصخرة[1].

انتهى هذا عند الزاوية الجنوبية الغربية للصخرة، والتي يمتد سطحها الآن تجاه الشمال الغربي مسافة (١٣٠) ياردة إلى حيث توجد أكثر السمات إثارة ولفتاً للنظر

(١) من خلال جولاتي في المنطقة الممتدة من نجران إلى الطائف، فقد شاهدت العديد من القبور والمقابر القديمة التي يوجد بها بعض الأضرحة المبنية فوق سطح الأرض، وتتكون بعضها من دور، ودورين، وثلاثة، وأحياناً يظهر بعضها منقوشاً بحجر المرو. حبذا لو نالها الاهتمام البحثي من قبل المتخصصين والأقسام المتخصصة في جامعات المملكة. (ابن جريس).

في تل تصـلال. وفجـأة وجدنا أنفـسنا في مـواجهـة ما يمكن أن نعـده «الطريق الموكبي»[١]. كانت قمتاه المستدقتان منحنيتين على قاعدة الصخرة على كلا الطرفين في شـبه دائرة ذات قطر يقـارب (١٧٤) خطوة (قل ١٤٥ ياردة). يجـري المطاف (الطريق الموكبي) على الحافة الخـارجية لشبه الدائرة كانت معـلَّمة ببلكات متوسطة الحجم أو صغيرة من حجارة موضوعة على جانبي الممشى، الذي كان عرضه أربع خطوات في المتوسط، غير أنها، هنا وهناك قد اختل ترتيبها بسبب السيول أو بفعل الإنسان.

كان الشكل العـام للطريق الموكبي، على أية حال، واضـحاً بما فيـه الكفاية. يوجد عند طرفه الغربي وعلى مـسافة (٢٥) خطوة (قل ٢٠ ياردة) من عند قاعدة التل، مساحة مستطيلة تقـريباً، طولها ثلاث ونصف خطوة على خط اتجاه شرق - غرب، وخمس خطوات تجاه شمال - جنوب. وكـانت محاطة ببلوكات حجرية، بدأ هذا وكأنه مكان محـجوز أو غرفة خاصة أو قد يكون مـعبداً، على الرغم من أنه لا يوجد دليل على أنه كـانت هنالك مبانٍ من أي نوع. قد تكون هــذه السمة هي النهاية الطرفـية للقمة المسـتدقة الغربيـة «للطريق الموكبي» والذي كانت قـمته المستدقة الشرقـية متناثرة بسبب الصخور المتساقطة وآثار تـشويش أخرى عليها، مما لم يدعم قناعتي باحتمال وجود «غرفة» مماثلة أخرى عند تلك النهاية.

لاحظت على أي حال، في حـينها، أن هنالك مساحـة محجوزة أو حـجرة متطابقة عند هذا الطرف أيـضاً، وداخل شبه الدائرة ومساحـتها (٣×٥) خطوات. علماً بأن الحجـارة المكوّنة للشكل العام قد اخـتل ترتيبها بشكل كـبير. لاحظت،

(١) يمكن أيضاً ترجمة (Proccssionalway) (بالطريق الجنائزي) حيث كان الكهنة يقـومون بأداء جميع مراسم الدفن بواسطة هذا الطريق الذي يرتبط دائماً بمعبد ومقبرة. (ابن جريس).

على أية حال، من عنـد «الغرفة» الأخرى أنـه وعلى بعد مسـافة (٥٠) خطوة من نقطة الملاحظة، والتي تكون زاويتـها شمال - غـرب تمس طرف الطريق على خط يجري شرق الجنوب الشرقي، ويكون بذلك، موازياً تماماً لقاعدة التل، كان هنالك جلمود ضخم ارتفاعه تسـعة أقدام، وطوله أربع خطوات ونصف وعرضه خطوتان وطرفه الشـمالي يبـعد (٣٨) خطوة من عند قـاعدة التل. ويقع من حـوله، على الجانب الغربي، وعلى النصفين الغـربيين للجانبين الشمالي والجنوبي -ولكن ليس على الأجزاء الشرقية إطلاقاً- شريط ضيق من صخور صغيرة غير مشذبة.

لم يعد لديَّ أي شكوك بأنني، حقيقة، قد اكتـشفت كعبة نجران المفقودة منذ القديم، وبها نصف المطاف[١]. إن الصور التي التقطت في ذلك الوقت تؤكد هذه الصفة للمنظر، وفي إحدى هذه الصور يبدو من المؤكـد أن وجه جلمود الكعبة قد كان يحمل في تلك الأزمان القديمة، شكلاً مـرسوماً أو منحوتاً بصورة بسيطة لإله ما. والذي ربما كان هو ما قد لاحظته في حينها كضرب من لون متغير على سطح الصخـرة. توجد ثلاث كعـبات معـروفة للعرب أيام الوثـنية القديمة، قـبل ظهور الإسلام - كـعبـة مكة، وهي أعظم الثـلاثة، وكعـبة صنعـاء، قيل إنهـا لا تزال موجودة في مـسجد غمدان، غيـر أنني لم أسمع تأكيداً لهذا من شـاهد عيان ذي صلاحـية وسلطة وأخيـراً كعبة نجـران التي اكتشـفتهـا أنا في ٢٥ يونيو ١٩٣٦م. ذكرت ببعض الجـهات الرسمية كـعبة رابعة قيل هي ذو الخلصـة التي تحدثت عنها مسـبقـاً في موضوع زيارتـي إلى خميس مـشيط، وبلا شك فـإن وجود الكعـبة والطواف حولها كانت ظاهرة شائعة في الحضارات العربية الوثنية القديمة، على أنه لم تدم أي من البنايات التي أقيـمت لتضاهي الكعبة المشرفـة مثل: (القُـلَّـيْس في

(١) وللمزيد من التفصـيلات عن كعبة نجران وذكرها في كتب التـراث الإسلامي، انظر: الهمداني، **صفة**، ص ٢٦٨، البكري، **معجم**، مج١، جـ٥، ص٢٦٨ . (ابن جريس).

اليمن)، والتي سبقت الإسلام للقيام بدورها في الطقوس الدينية عدا الكعبة المشرفة في البيت الحرام بمكة المكرمة، والتي يعود تاريخها إلى النبي إبراهيم.

يجري سطح تصلال، من عند قمة الجبل المستدقة المتجهة جنوب - شمال، لطريق الاحتفال، -الذي كان محيطه حسب قراءة عداد سيارتي، (٢٠٠) متر- على زاوية (٣٠٠) درجة لمسافة (٥٠٠) ياردة، ثم يدور على زاوية (٣٤٥) درجة لمسافة (١٠٠) ياردة حيث يصل المرء بعدها إلى علامات أساس معقّدة وبارزة وغريبة، والتي قد تكون قبوراً أو مخططات لغرف معبد. والتي يقود إليها ممشى معبّد أو مخطط على جانب التل، الذي يترفرف في تتابع من درجات سلم عريضة على الجانب الغربي من عند القمة إلى حيث توجد مساحة مستديرة عند مستوى أقل، ومنها يجري الممشى المعبّد عند زاوية (٢٩٥) درجة إلى مسافة (٥٩) خطوة إلى وسط مجمع الغرف -أو مهما كان المقصود منها- التي قد ذكرت أعلاه. كان الاتجاه من عند الممشى الرملي الأسفل إلى القمة بزاوية (١٢٤) درجة وكانت المسافة تزيد قليلاً عن نصف الميل. يقع الطرف الشرقي لسلسلة تصلال على مسافة نصف الميل. وبذلك تكون المسافة الكلية ميلاً واحداً، عند زاوية (٥٠) درجة. يحمل جزء آخر خارجي للسلسلة هذا الممشى الأخير عند زاوية (٣٠٠) درجة مسافة ربع ميل.

يبدأ مجمع الدوائر أو الغرف من قاعدة هذا الجزء من السلسلة ويطل من تجاه الغرب تقريباً. توجد عند قاعدة التل دائرة، من تسع بلكات من الحجارة، قطرها أربع خطوات وتحيط بحجر واحد كبير في مركزها. يأتي ناحية الغرب من هذه فجوة مسافتها عشر خطوات معترضة وفاصلة لها من صف مزدوج من الحجارة

طوله أربع عشرة خطوة وغـالباً ما يكّون ممشى يقود غرباً إلى دائرة أخـرى، معلَّمة بحجارة وقطرها ثلاث خطوات. تفصل فجـوة مسافتها ثلاث خطوات هذه الدائرة من «غرفة» مـستطيلة ذات ثلاثة جوانب مـعلَّمة أما الجانب الرابع فـهو مكشوف، كانت أبعـادها خطوة واحدة تجاه الشـمال والجنوب، وثماني خطوات تجـاه الشرق والغرب. وتقع مباشرة إلى الجنوب من هذه دائرة أخرى، معلمة بلا نظام بحجارة صغـيرة وقطرها خطوتان. تنفصل، أخـيراً، الدائرة الوسطى في الصف الشـمالي بفجوة طولهـا سبع عشرة خطوة عن دائرة أخـرى قطرها ثلاث خطوات على اتجاه مئة وخمس عشرة درجة في خط مستقيم تماماً مع الممشى المعبَّد الذي ذكرناه سابقاً والذي ينفصل عنها بدرب جمال حديث.

توجد على الجانب الشمالي للممـشى المعبَّد دائرة أخرى من الحجارة، قطرها ثلاث خطوات، تقع قريبـاً من درب الجمال، وغـرفة أخرى ثلاثيـة الجوانب يبلغ طولها أربع خطوات ومكشوفة تجاه الشمال الـشرقي، وقريبة منها من جهة الجنوب الشرقي. أعـترف أنني لم أتمكن من تـكوين أية تخمين لمعنى هذه البـقايا الغـريبة لاحتفالات قديمة أو معرفة الغرض منها.

كانت قـمة تصلال، مكوّنة من صـخور شبـيه بقرص العـسل ذات أحواض طبيعية ممتلئـة بالمياه لعدة أشهر بعد موسم أمطار جيد، وربما قد اسـتخدمت موقعاً لذبح القرابين (المكان العالي) أو مـعبد، غير أنني لم أجد من العـلامات ما يدعم هذا الاستـخدام. كان ارتفاعـها (٣٠٠) قدم فـوق مستوى سطح السـهل المجاور وسـيطرت على منظر ممتـاز من كل الجـهات بما في ذلك الطـريق شبـه الدائري، والمقبرة ومعالم تذكارية أخرى تقع «العان» سفح السلسلة.

لا يمكن رؤية واحة نجـران الفعليـة، غير أن مـجرى الوادي من عند مـضيق العان أزلم، الذي يخـرج من خلاله، إلى أن يدخل الدلتا، إلى أسفل، عـبر برك والخضراء إلى الصحراء، فقد كـان واضحاً. أن تصلال مكان يتحاشاه الناس الذين يؤمنون بالخرافـات في هذه الأجزاء، خاصة أثناء الليل، وقـد انزعج دليلي حسن الذي صحبني من الحصينية وذلك حينما طلبت منه أن يقف إلى جوار القبر الكبير في المقبرة لألتقط صورة فوتوغرافـية له. اعترف لي حسن في وقت لاحق أنه كان يخشى إزعاج الجن له والذين يعتقد أنهم يسكنون مثل هذه الأماكن.



الفصل الثالث عشر

أولى الخطى في نجران

أصدرت أوامري للشاحنة أن تتبع الطريق وتتوقف في مواقع حددتها لإعداد القهوة والمأكولات السريعة، بعد أن قررت أن أتحول إلى الطريق المباشر الذي يقود إلى تصلال.

أنهيت مهمتي في تصلال وعصورها القديمة وضربنا الطريق في مسار معوجّ عبر سهل جذيم إلى حيث التل البارز المسمى الشعثاء[١] - يبعد حوالي ستة كيلومترات وهو ملازماً للطريق من عند برق الدرة - حيث أدركنا رفاقنا بعد قيادة مسافة ثلاثة أميال. لم نتراخَ كثيراً هنا، غير أنني قمت بجمع بعض الثمار من بعض أشجار الطلع (سمر وسلم) والتي كانت تكوّن أجمة كثيفة في هذا الجانب من السهل. كان اليوم، حتى هذه اللحظة، جميلاً وبارداً على عكس اليوم السابق الذي هبت فيه العاصفة الترابية، غير أنه مع تقدم النهار، بدأت الرياح تهب من جديد حاجبة المنظرية بالغيوم.

مررنا أثناء السفر ببعض الإبل الحلوب، وهي تستريح في ظلال بعض الشجيرات -ولا أحد يقوم برعايتها- أو على الأقل، لم نر أحداً، ولم يعترض أحد على رفاقي الذين سارعوا بقحافهم وأوانيهم التي يبلغ تعدادها نصف الدستة، وعادوا بها وهي ممتلئة بالحليب الطازج، الدافئ، ذي الرغوة. ينتمي البدو

(١) تل الشعثاء: يطلق عليه أيضاً اسم (الشعث)، ويقع إلى الشمال الشرقي من مطار نجران. (ابن جريس).

في هذه المنطقة إلى آل الهندي بصفة أساسية -والذين، مثلهم مثل قبيلة آل مرة، يعدون فرعاً من شم[١]- وآل فاطمة، بينما يتردد الأسلوم وآل رزق بدورهم على مراعي حبونا. تنتمي كل هذه العناصر الأربعة إلى يام، والذين، إلى جانب قبيلة دهم (من منطقة الجوف)، يلتقون عند جد مشترك هو همدان بن زيد.

اتجه طريقنا ناحية الجنوب الغربي من عند الشعثاء مسافة خمسة أميال حيث تنحدر التلال المحيطة لسهل جذيم إلى الغرب (أي إلى يميننا) ومع الطريق إلى بقعة حادة تسمى الوعير، ومنها تلتف التلال حول خليج واسع ناحية الشمال الغربي. انحرف الطريق هنا إلى ناحية الغرب عبر وتر هذا الخليج، الذي احتوى على أشجار أراك كثيفة نسبياً وعلى شجيرات طلح منخفضة، تقع كلها على مسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة من موقعنا على اليسار تجاه الوادي نفسه. وصلنا إلى مقبرة أخرى تقع بين الطريق وبين الزاوية التي تكوِّنها التلال عند المنحنى تجاه نجران شبيهة بتلك التي في تصلال - ربما كانت مقبرة للحجاج الذاهبين أو العائدين من الكعبة، أو ربما كانت فقط مكاناً للدفن لموتى المسافرين، أو ربما كانت بالصدفة مقبرة حربية في موقع لمعركة في أزمان سابقة. لا يستطيع دليلنا حسن أن يلقي الضوء على هذا الموضوع رأساً من ذاكرته أو من المعلومات المحلية.

كانت المقبرة أقل نظاماً مقارنة بتلك التي في تصلال، غير أن بعض القبور كان ذا حجم كبير، كما كانت هنالك رواب منخفضة، والتي، إن كانت دائماً قبوراً بالمرة، فقد بدأت وكأنها مشتركة، ربما دالة بذلك على معركة. كان قطر أحد هذه الهضاب المستديرة (١٢) خطوة وكان بداخلها دائرة داخلية أخرى قطرها ثلاث

---

(١) هذا هو النطق المحلي لجشم. (المؤلف).

خطوات ونصف الخطوة، وترتفع إلى حوالي قدمين ونصف القدم فوق مستوى المحيط الخارجي، الذي كان معلَّماً ببلكات من حجارة وبالأسلوب المعروف. كان ترتيب القبور المنفردة متبايناً كثيراً، وكان الاتجاه من الرأس إلى القدم (٢٤٤)، و (٢٥٦)، و(٢٦٦)، و(٢٨٠) درجة في الحالات الأربعة التي تحققت منها باستخدام البوصلة. هذا يوحي بأن الدفن تم بتوجيه الوجه ناحية الشمال أو الشمال الغربي، بمعنى آخر، تجاه مكة. كانت المسافة من الوعير إلى بئر الخضراء تبلغ حوالي خمسة أميال ناحية جنوب الجنوب الشرقي.

توقفت لإجراء مسح لأرض وعرة من عند قمة هضبة المنارة، وهي عبارة عن رابية صغيرة، قبل الانتقال إلى ما يليها، كنا قد غطينا حوالي (٧) أو (٨) أميال وكانت التلال -الجانب العكسي لتلال شرا والذي يرى من عند الحصينية- على يميننا وليست بعيدة عنا وكان السهل الرملي أو كثبان الوادي على يسارنا وهي مغطاة إلى درجة معقولة بالأراك والطلح، والحمض وشجيرات خفيضة منوعة. انطلق طريق السيارات، بصفة عامة، غرباً على مسافة متساوية تفصله من التلال ومن المجرى، والذي تتفرع منه مجاري صغيرة من حين لآخر مخترقة له ومتجهة إلى المجرى السابق. كان شعيب الدخول بطن سيل رئيس من هذا النوع، وعلى جانبه الأيمن وقفت هضبة المنارة، بينما يقع على حوضه إلى جهة اليسار بئر قديم مهجور يسمى العريسة.

كان علينا أن نفاضل ونختار مساراً أفضل من تلك الأرض السيئة التي قابلتنا، التي كانت ممتلئة وبكثافة بتلال رملية يكسوها الأراك، كان علينا أن نقود سياراتنا خلالها بأقصى ما نستطيع، وذلك حينما نكون فوق رمال لينة، وحيناً نقود

فوق سبخه خطرة. كان طول المسافة من المنارة إلى برك، عبر هذه البلاد، حوالي خمسة أميال على امتداد الجانب الأيسر لشعيب دخول الذي يلتقي مع وادي نجران فوق البرك، حيث تتكون جزيرة صخرية في الأخير، طولها نصف ميل وعرضها (١٠٠) ياردة. كانت المسافة من برك إلى الخضراء، على امتداد المجرى، حوالي ستة أميال.

وصلنا منارة، وهي هضبة جرانيتية، ترتفع من (١٢٠) إلى (١٣٠) قدماً، وقد تسلقتها لأنظر للصورة الحقيقية الجميلة لنجران نفسها، والتي كانت أقرب مزارع نخيلها وقراها على بعد أربعة أميال من موقعنا، إلى الأمام، قليلاً ناحية الجنوب الغربي. امتدت من ورائها مزارع النخيل المتشابكة الرؤوس، إلى البعيد وإلى أقصى ما يمكن رؤيته فوق الوادي الضيق نسبياً والذي تحيط به من كلا الجانبين سلاسل جبلية عالية وقد انطبقت على رأسها المعلم الأرضي الرئيس للوادي، وهو القمة العظيمة الجرانيتية التي تسمى أبو همدان وكانت شامخة من خلف مزارع نخيل الحضن. أستطيع أن ألمح هنا وهناك بين النخيل مجرى السيل الواسع الرملي للوادي، وهو يتعرج خلال الواحة إلى فجوة (عان أزلم) وليدخل بحرية للصحراء فيما يليها.

مررنا ونحن نواصل رحلتنا، بمجموعة صغيرة من الرضم (قبور) على جانب الطريق، وعلى يميننا، وتبعد حوالي (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة فقط من المنارة، وتقع قريبة من الخط الذي يسهل تتبعه ويقود إلى سد قديم من صخور وتراب يخترق السهل، إلى طرف مجرى الوادي، فيما يبدو. قد يكون قصد بهذا السد حجز المياه التي يحملها شعيب الأثايبة الذي يقع إلى أمامنا، وقد يدل على أنه في أزمان قديمة كانت زراعة الحبوب، على الأقل، تمتد مسافة إلى أسفل أكثر من حدودها الحالية عند منجم على مسافة ثلاثة أميال من هذا السد.

بدأنا البحث عن عدة خيارات للطريق ونحن على بعد ميل واحد، وفي شعيب الأثايبة الصعب الذي ينحدر في مجريين تفصلهما مسافة نصف الميل عبر انبعاج واسع للسهل الذي يسمى سعيد، من عند التلال التي بدت الآن بعيدة إلى الخلف وعلى يميننا.

وصلنا إلى مجموعة صغيرة من القصور بعد مسيرة ميلين آخرين، كانت متجمعة داخل سور عند طرف إحدى مزارع النخيل في آل منجم، حيث توجهنا إلى ساحة مكشوفة في وسط النخيل بجوار قرية زبيد الصغيرة حيث أمضيت أول ليلة لي في واحة نجران. كانت المسافة، عن طريق السيارات، من عند الحصينية حوالي (٣٠) ميلاً، علماً بأننا قد غطينا (٣٥) ميلاً عن طريق التحويل إلى تسلال. كان ارتفاعنا هنا (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، يتباهى قسم منجم التابع لنجران بأنه خالٍ من البعوض، وذلك، كما يقولون، لغياب البرك المائية، والمستنقعات والنزوز، والتي كانت كلها تضج بالبعوض قليلاً إلى الأمام من هذا الموقع.

أخذت الحكومة أحد قصور زبيد لتسكن فيه فرقة صغيرة من الشرطة ورفرف عليه علم السعوديين، الذي أصبح لونه أبيض مع تقدم الزمن، فوق السارية. كان المسؤول عن هذه الفرقة هو أسامة بن عبدالرحمن الذي اعتبر نفسه مضيفا لنا، وحقيقة فإنه قد فعل كل شيء لراحتنا. أخبرني خلال حديثه عن قصر الرئاسة للأمير، في قصر ابا السعود، أن عدد الجنود السعوديين كان ١٠٠ جندي نظامي و (١٠٠) رجل أمن، كانوا مستقرين. كما كانت هنالك ست نقاط شرطة منتشرة في الواحة، في آل منجم، (زبيد)، ورجلا، والأخدود، والحضن، ونهوقة،

والموفجة، وشعب بُرّان. كانت الحامية في زبيد مكوَّنة من عشرة رجال فقط، ولم يكن جميعهم حضوراً في ذلك الوقت، ولدهشتي، فقد وجدت نفسي وهم ينظرون إليَّ كأنني موظف حكومي مهم جداً في جولة تفقدية، وكان كل فرد منهم متطلعاً إلى أن يدلي إليَّ بكل ما لديه من معلومات. حتى القرويون، أحسوا بمقدم قوة شرائية سهلة وبالأمل في تصحيح مشاكلهم الثانوية، تجمعوا حول معسكرنا ومعهم من المؤن المعروضة للبيع بالكثافة التي اضطر معها الشرطة إلى إبعادهم عنا.

كان من الصعب عليَّ أن أوضح أنني لا أمانع إطلاقاً من مثل هذه المضايقات، وبمرور الزمن، تمكنت أن أقبض بيد من حديد ليس على الحشد، ولكن على الشرطة.

تزاحم الأطفال كالنحل من حولنا غير أنني شغلتهم في خدمتي فأرسلتهم يبحثون لي عن عينات من التاريخ الطبيعي لغرض إثراء مجموعتي مقابل العطايا الصغيرة التي كنت أقذفها دون اهتمام كبير ودون علمي بأن ذلك سيقود لخرابي. كانت الشمس على وشك الغروب حينما وصلنا، ولم يحدث شيء خلال الساعة أو الساعتين التي تلت ذلك، قبل أن يذهب بسطاء القرية إلى النوم، وكان بعضهم قد شاركنا وجبة العشاء، غير أننا لم نجد للراحة طعماً منذ الساعات الباكرة لصباح اليوم التالي. إذ يبدو أن كل أطفال القرية قد قاموا بسرقة كل أعشاش الطيور المحلية، ثم جاءوا ليضعوا الفراخ الصغيرة، تحت أقدامي! كان باكورة هذه الخدمات زوج من فراخ البلبل ثم تبعته هداهد صغيرة، وبدا لي أن ما قصده الصغار في آل منجم هو الحصول على ثروة وبأقل جهد. لكنهم اكتشفوا سريعاً أن

ما قدموه من صغار الطيور قد فاق وفاض على احتياجاتي وأنني لن أدفع ثمناً آخر لأكثر من عدد معين لنوع واحد من الكائنات، ثم انصرفوا على هذا الأساس، ليعودوا ومعهم ضفادع وسحالي وثعابين، وقد رحبت كثيراً بصنفين من الخفافيش. يحق لبعض كبار القرية أن يتشككوا في سلامة عقلي، غير أنهم أعجبوا باستعراضي لكرمي الفياض. كان من بين الحشد يهودي جذاب جداً، اسمه جميل الذي سأرى عن جاليته الصغيرة -التي تقيم بصفة مؤقتة في نجران داخل البوابة- الكثير خلال زيارتي هذه.

لما كان الغد هو يوم الجمعة فقد رأيت أنه من الأجدر بي أن أتراخى لفترة عند هذا الجانب للواحة لأتحاشى بذلك التطفل على الحاكم أثناء توجهه للصلاة وما يتبعها من استقبال رسمي. لذلك، وبعد أن تحصلت على ما بدا لي أنه نماذج مناسبة للمجموعة الحيوانية في آل منجم، توجهت إلى نقطة الشرطة لأتحاشى الحشد، ومن عند سطح المكان استطعت أن أقوم بمسح للواحة عن قرب وبسرور. كان بعض هذه القصور المحلية -وكل واحد منها كأنه قلعة رهيبة، وكما يقول مثلهم «قلعة النجراني هي منزله»- مؤلفاً من خمسة طوابق بينما كان معظمها مؤلفاً من أربعة طوابق وبعضها الآخر بثلاث طوابق فقط. كان كل قصر منفصلاً عن الآخر وعلى مرمى السهم من جيرانه إلاَّ في حالة قصور آل منجم، حيث يلاحظ ما يقارب نصف دستة من القصور وهي متلاصقة متقاربة أو داخل حظيرة مشتركة مما يعطي الانطباع بأنها قرية صغيرة[1]. لم أر في كل نجران حالة مماثلة لحياة المجتمع كما هي هنا.

---

(١) من يزور نجران في وقتنا الحالي فإنه يشاهد العديد من القرى والقصور القديمة المتناثرة في أجزاء عديدة من المنطقة، حبذا لو تم الاهتمام بمثل هذه الآثار القديمة في جميع أنحاء المناطق الجنوبية، وهذا مما يزيد في رصيدها السياحي والتنموي. (ابن جريس).

يجب أن أذكر هنا، عرضاً، أنه في أيام السلم، كالتي عشناها منذ حرب اليمن ١٩٣٤م، كان أهل نجران - إلى حد بعيد - يعيشون في الساحات المكشوفة وبعيداً عن مزارع النخيل، داخل زرائب أو عشش من أعواد الأراك، ذلك لتحاشي حمى الواحة -خاصة خلال موسم الأمطار حينما يستقبل الوادي سيول متكررة على فترات منتظمة.

رجعنا إلى السكن بالمركز الرئيس بالقيادة بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً تاركين مزارع الفرحة ومواصلين السفر خارجها على طرف وادي سعيد الكبير، وقد انبعج إلى جهة الشمال في خليج كثيف الشجر مسافة ثلاثة أميال إلى موقع تتصل فيه شبه دائرة التي تكونها التلال إلى حزام النخيل في تعزة وتترك ممراً ضيقاً جداً يعبره الطريق. عبرنا فيما يلي هذا، حقلاً لنبات الحلفاء النجيلي على الجانب القريب من نخيل سكر والتي يطوّق الطريق حافتها الجنوبية. بدأ الطريق الآن يشق مساره عبر حقول زراعية وعبر جسور محفوفة بالمخاطر فوق مجاري الري العالية الجوانب، والتي وصلنا، فيما يليها، إلى المدخل الرئيس الشرقي للبناء الحكومي المستطيل العظيم الذي يعرف باسم قصر أبالسعود(١). لم تزد كل الرحلة من عند آل منجم عن سبعة أميال أو ما يقارب ذلك. كانت المسافة من الحصينية أقل من (٣٧) ميلاً بقليل، وكانت من عند تفرع طريق أبها - نجران إلى الوراء البعيد، حوالي (٢٦٠) ميلاً (٤١٥ كيلومتراً حسب تسجيل عداد السرعة).

لقد استقبلت عند المدخل استقبالاً رسمياً على رأسه سالم، القائد العسكري المحلي للقوات والشرطة، ومعه فرقة من حرس الشرف، ثم أوصلونا إلى البوابة

---

(١) قصر أبو السعود:ـ بناء يتكون من دورين ونصف بالإضافة إلى مرافق وغرف عديدة ملحقة به. ويقع في وسط البلد، وأصبح اليوم من المعالم الرئيسة في منطقة نجران يرتاده السواح والمصطافون من كل مكان. (ابن جريس).

المركزية التي تقع إلى الجنوب والتي كانت الغرف الواسعة التي حجزت لي ولرفاقي فيما يليها. سيكون هذا مقري مدة شهر على الأقل إلى حين أن أبدأ رحلتي الطويلة إلى شبوة في الرابع والعشرين من يونيو.

تركت زملائي لتفريغ السيارات وتنظيم العفش ورافقت سالماً والأعضاء الرئيسين لمجموعتي للذهاب إلى قاعة الاستقبال في منزل الأمير حيث قابلني إبراهيم النشمي بترحيب شديد وهو أحد الأفراد البارزين في الجزيرة العربية الحديثة. كان إبراهيم بحكم عمله تاجراً من سكان القصيم، وفي هذا الإطار فهو رجل مهم بين تجار القوافل (العقيلات) على طرق الأردن وسوريا. لقد نجح تماماً في هذا المجال خاصة أثناء الحرب العظمى، غير أنه برز عسكرياً خلال حصار المدينة الذي قام به السعوديون عام ١٩٢٥م. ذهب إلى هناك ضمن جيش الأمير محمد، عندما قرر ابن سعود سحب قوة الإخوان بقيادة فيصل الدويش على أمل أن تستسلم المدينة، تحت ضمان بالمعاملة الإنسانية من جانب المنتصرين. كانت المدينة في ضائقة شديدة بالنسبة للطعام. وأعلن النشمي، الذي كان قائداً على المنافذ الشرقية، أن كل المواطنين الذين يستطيعون الهروب من المدينة سيتم الترحيب بهم في معسكره ويؤمن لهم كل احتياجاتهم. قوبل عرضه بالترحيب على مستوى كبير وكان اسمه على لسان كل أسرة في المدينة، مما قاد إلى الاستسلام في (٥/ ديسمبر/ ١٩٢٥م.

ظل النشمي في خدمة الحكومة وكانت آخر مرة قابلته فيها في ينبع حين كان أميراً عليها، لبعض السنوات قبل زيارتي إلى نجران، ومنذ الحرب اليمنية كان النشمي يشغل نفسه وبنجاح في أداء الواجب الصعب لتهدئة واحدة من أكثر

مناطق الجزيرة العـربية اضطراباً. غير أنـه أعفى من منصبه في العـام التالي، وتم نقله إلى إدارة المشروع الحكومي الزراعي الكبـير في الخرج[١]، حيث تمكن بالفعل من تحويل الصحراء إلى جنة كـأنها الورود حينما زرته عام ١٩٤٠م[٢]. لقد شغل -بالمناسـبـة- قائداً عـسكرياً، أثناء حـرب اليـمن، وكـان مسـؤولاً عن القـوات الاحتياطية في أبي عريش مسانداً لحملة فيصل في تهامة.

وجدته الآن متحـمساً لتاريخ وتقاليد نجران، وأخـبرني أنه يتحرى الآن بعض الشائعات التي أطلقـها زائر من صعدة عن وجود أعمال تاريخـية قديمة في نجران. كان النشـمي سعيداً لسـماعه اكتـشافاتي الشـخصية في تصـلال وفي سهل المنقع (قطن) كما لَمَّح لي، في كلمات قليلة، أن تحـضيراته لي حول رحلتي إلى الجنوب تسير بصـورة حسنة. تحدث النشمي لفـترة عن مشروعي لإعداد خـريطة للحدود اليمنية ووعد بالمساهمة إلى أقصى حد في استكشافي لنجران نفسها.

ذهبت بعد ذلك لـزيارة الموظف الرئيس المسؤول عن أموال الدولـة في المنطقة ويسمى **سيد علي الجنيدي**، والذي سبق لـي أن قابلته وهو في مـوقع مماثل في العلا عام ١٩٣١م. قدم لي سيد طبقاً، على سبيل التسلية، لعنب أبيض لذيذ من وادي الفرع المجاور، عـبر الحدود، حيث تقـوم زراعة العنب على مسـتوى تجاري كبير. ينـمو العنب الممتاز في وادي نجران، ولكن، ولسبب مـا، لعله عدم الأمان

---

(١) ثم عُيِّن أميراً للخرج من غرة محرم (١٣٦٣هـ) إلى غرة محرم (١٣٦٦هـ) إلاّ إنه مكث في الخرج قرابة ثمانية عـشر عاماً أي من (١٣٥٧هـ) إلى (١٣٧٥هـ). وتوفي سنة (١٣٩٨هـ) في لندن ودفن في مـقبرة العدل في مكة المكرمة. للمزيد انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**. ص١٨ ــ ٤٩ . (ابن جريس)

(٢) يعيش الآن – وقد تقاعد – في الخرج في مزرعته الخاصة. (المؤلف).

القديم، فإن زراعة العنب قد أهملت كمحصول تجاري[١]. تضمن كرم السيد علي أيضاً تقديمه سيجارة لي غير أنه أدرك أنني أفضل تدخين الغليون، وكنا ندخن في استرخاء حينما دخل علينا الأمير. رجاني الأمير أن أواصل التدخين غير أنني أطفأت غليوني، كان من عادتي ألاّ أدخن في حضرة موظفي الحكومة الكبار، إذعاناً للأمر العام بمنع التدخين، والذي -على أي حال- لم يعد معمولاً به الآن.

اجتمعنا كلنا عند الساعة الرابعة مساء في سكن الأمير، وهو بناء كبير، ومشتت إلى حد ما، غير أنه جديد، ومن طابقين ويقع داخل فناء القصر الضخم وفي مقابل البوابة الجنوبية. كانت الدعوة للعشاء قد وجهت أيضاً لكل الموظفين المحليين الرئيسين، لمقابلتنا في تلك المناسبة وقد قابلت من بينهم، ولأول مرة قاضي نجران الذي جمع بين الصلاحيات الشرعية والقضائية، الشيخ عبدالمحسن، وهو من مواطني عنيزة. وقد كان كثير الاهتمام بالشؤون الجغرافية وتساءل عن أعمال المسح، وتحديد دوائر العرض، إلخ. كما يبدو أنه منهمك في تأليف كتاب عن قبائل منطقة نجران وتاريخها القديم. تناولنا في العشاء إلى جانب لحم الضأن والأرز -وقد كانا في غاية الامتياز- عناقيد عنب نجران من حديقة مجاورة، وليست في جودة تلك التي وصلت من وادي الفرع المجاور وعبر الحدود غير أنها جيدة بما يكفي.

---

(١) نجران أرض غنية بمزارعها ومنتوجاتها الزراعية منذ القدم، وقد ذكرتها كثير من كتب التراث الإسلامي، ووضحت نوعيه المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها أرض نجران، لمزيد من التفاصيل عن دور نجران الزراعي، انظر: الهمداني، **صفة**، ٣٤٥ ـ ٣٦١؛ محمد الإدريسي، كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) جـ١، ص ١٥١، أبو القاسم الاصطخري، **مسالك الممالك** (بيروت: دار صادر، د.ت) ص٢٤، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، **تقويم البلدان** (طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م) ص ٩٣ .

نما إلى علمي أن أهل نجـران، وإلى وقت قـريب، كـانوا يتحـاشـون تناول الخضراوات من أي نوع كانت، باعـتقاد أنها كانت سبباً لحـمى الواحة، غير أنهم في الفترة الأخيرة عملوا على نهج حركة التنوير للدعوة السلفية الجديدة ومنذ ذلك الحين وزراعة الخضـراوات في ازدياد. شجع النشمي هذا الاتجـاه إلى أقصى حد، وظهـرت على مائدته وبانتظام الـطماطم الممـتازة، والبـاذنجان، وأصـابع السيـدة (البامية) وخضراوات أخرى[١]. كان رجلاً ذا حماس شديد. وكان محدثاً عظيماً وذكياً، مع ميل عنده إلى السيادة في النقاش، إذ أنه مثقف إلى حد بعيد وتقدمي. كان النشـمي حقيـقة أشبـه ما يكون بسلك كهـربائي حي. شديد البطش بما فـيه الكفاية علـى المولعين بالأذى، غير أنه إنسـان عطوف تجاه الضـعفاء والمحـتاجين. خرج الـنشمي يتـمشى مع الشـيخ بعد العـشاء إلى طرف مـجرى الوادي، بينـما اجتـمعت في سكن علي الجـنيدي[٢] مع القائـد سالم، وموظفين آخـرين لتناول القهوة والتدخين، وأمضينا ساعة أو ساعتين في تجاذب أطراف الحديث.

أخبـرت بأن القوات اليمنية قـد مكثت مدة ثمانيـة أشهر محـتلة لنجران من خريف عام ١٩٣٣م إلى ربيع ١٩٣٤م، حينما تمكن السعوديون من طردهم أخيراً. لقد حطموا عدداً من القصور أثناء احتلالهم - وقد رأيت واحداً منها عبر الوادي، في زبيد، مـوطن ابن مرضي بجوار مـزرعة نخيل عمـير - ومزارع نخـيل يملكها أناس ينظرون إليهم في شكوك، يضمرون العداوة أو فاترين. كان الشيخ القحطاني ابن مذكر يقـود الكتيبة السعودية الـتي دخلت وادي نجران عن طريق وادي الأثايبة

(١) ويُصدَّر اليوم من نجـران إلى أسواق كثيرة في المملكة بعض المنتـوجات الزراعية من الخضـروات والفواكه المتنوعة. (ابن جريس).

(٢) لم يستقر فيلبي على اسم واحد للجنيدي، فيذكره مـرة (سيد) وأخرى (علي)، واعتقد أن اسمه سيد بن علي الجنيدي لتكرار هذا الاسم أكثر من مرة عند فيلبي. (ابن جريس).

وانتشرت فوق سهل سعيد، الذي كانت تحت إمرته أعداد كبيرة من البنادق والمدافع الرشاشة، وسرعان ما جعل موقف اليمنيين، الضعيفي التسليح، صعباً لا يطاق. كان العشر في محصول التمر هو مصدر الدخل الرئيس لخزينة الحكومة في نجران، وكان يدفع عادة من جنس المحصول. جلب المحصول السابق للحكومة نصيباً يقدر بـ (١٥٠٠) فرق، ويعادل الفرق (٢٤) صاعاً، أو إجمالي (٣٦٠٠٠) صاع، مما يدل على المحصول الإجمالي كان (٣٦٠,٠٠٠) صاع -صاع نجران أقل من صاع مكة-، على أقل تقدير. وإذا أخذنا سعر الصاع الذي يزن أربعة كيلوجرامات في أبها (٣,٨٦ كجم) فإن المحصول النهائي سيكون حوالي (١,٤٤٠,٠٠٠) كجم، ولكنه ربما كان أكثر من ذلك، لنقل مليونين من الكيلوجرامات[١].

رافقت الأمير صباح اليوم التالي في دورة تفتيش أولية استكشافيه لأطلال الأخدود، التي سأحتفظ بوصفها إلى فصل خاص بها. كان علينا أن نعبر في طريقنا مجرى الوادي الواسع، غير أن سيارتي غاصت في المستنقع، وقد تركتها للآخرين ليخرجوها من المأزق وسرت مترجلاً بقية مسافة المجرى لألحق بالأمير وجماعته الذين كانوا في انتظاري في ظل بعض الصخور على جانب الوادي البعيد. أمضينا فترة النهار، في طريق العودة، في مزارع نخيل الحضن، وقد لحق بنا جابر بن نصيب، (ثالث الأشقاء) وأيضاً سالم بن منيف أكبر أبناء سلطان وهو شيخ قبيلة جشم يام[٢]. كما تجولت في أنحاء مزرعة النخيل بحثاً عن الطيور في

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأوزان والمقاييس في جنوبي البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري، انظر: مبارك المعبدي. **النظم الإدارية والمالية في تهامة عسير خلال الإشراف السعودي (١٣٤٥ ـ ١٣٥١هـ)** ص ٩٤، ٢٠٤؛ ابن جريس، **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ١٨٧ ـ ١٨٩ . (ابن جريس).

(٢) تعود زعامة قبائل يام إلى ثلاثة مشائخ أساسيين هم: ـ ابن نصيب، وابن منيف، وأبو ساق. ولمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير** (الرياض: مكتبة النصر، ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م) ص ١٧٦ ـ ١٨٠ . (ابن جريس).

صحبة مجموعة من الصبية الصغار وعدنا إلى قصر أبالسعود في وقت متأخر من العصر، وفي الوقت المناسب لتناول العشاء بمنزل علي الجنيدي. كانت هنالك قطرات مطر قليلة عند المغرب (٢٧ يونيو)، وظل الطقس لعدة أيام غير مستقر، كأنما يتهيأ لعاصفة. تداخلت الظواهر الجوية الكهربائية مع استقبال جهاز اللاسلكي. كانت أقصى درجة حرارة في الظل أثناء النهار ١٠٤ درجات وكانت الدرجة الدنيا في الليلة السابقة ٧٢ درجة، وبرهنت الأحوال الجوية لمنتصف الصيف في نجران أنها مريحة بدرجة مدهشة.

كان من بين زائريَّ في صباح اليوم التالي، شخصية قيادية لجالية صغيرة يهودية في نجران، والذي كنت قد سمعت عنه من قبل في أبها أنه خبير في الآثار القديمة. اسمه يوسف، رجل في منتصف العمر، ذو جاذبية وجميل خارج المألوف. سأراه والعديد من مجموعته الدينية كثيراً هذه الأيام، لجمع كل الحقائق عن تاريخهم ونشاطاتهم والتي سأناقشها كاملة في وقت لاحق[(١)].

أعد لي الأمير، في هذه الأثناء، برنامجاً ليوم كامل لفحص بعض الآبار المهجورة القديمة والأطلال عند مقرن مسيل نهوقة مع الوادي تحت سفوح سلسلة أبو همدان وخلف مزارع الحضن. كان الإحساس بقيمة الماء ملموساً في أوساط العرب، فقد خطر بباله أن وجود مجموعة من الآبار القديمة عند ذيل بطن السيل في وادي نهوقة، عند البقعة التي يلتف فيها إلى أسفل عبر مجموعات نخيل

(١) كان في بلاد نجران وما حولها من المناطق بعض الأسر اليهودية المحدودة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ثم هاجر معظمها إلى اليمن أو إلى فلسطين، في حين أن عدداً قليلاً منهم ترك اليهودية ودخل الإسلام وبقي في موطنه حتى الآن. (ابن جريس).

الحضن والبديع[١]، إلى الوادي الرئيس، يمكن إحياؤها بواسطة هندسة بسيطة وكان الغرض من الزيارة هو تفقد تقدم العمل الذي بدأه هو بالفعل على هذه الأسس خلال هذه النزهة والتي اختتمت بعشاء في العراء في الدلتا العريضة لوادي نهوقة، بينما خلد هو إلى الراحة بعد أن فحصنا الآبار[٢]، وانطلقت أنا في حرية مستكشفاً واحة نجران وتمكنت أن أصعد قمة أبو همدان في صحبة جابر بن نصيب وأحد رجال قبيلته لمواجد، واسمه مسفر، وهو رجل صموت، قليل الكلام ذو زخم موسوعي بالمعرفة حول جغرافية نجران. كان جابر بطيئاً في الاستيعاب ويميل إلى أن يكون خنوعاً، وبدا لي أنه أحسن من شقيقيه الآخرين خاصة في مقدرته تسلق السفوح الشديدة الانحدار، الصعبة، والصخرية في جبل أبو همدان، وهو حافي القدمين - كل هذا دفعني لتفضيله وبقوة. صار فيما بعد مرافقاً مستديماً لي في كل تجولاتي، وكل ما أتمناه له أن يكون قد ارتاح لما كنت أسقطه من فتات مودتي على أمثاله.

شمخت قمة أبو همدان إلى (١٢٠٠) قدم فوق مستوى وادي نهوقة الذي تقع أسفلها، وقد أمكنني أن أطل منها على منظر عام للواحة، ومن الطرف إلى الآخر كما كنت أتمنى. كان التل والسلسلة التي وقف عليها من جرانيت مع مساحات متكررة من كوارتز، على عكس جلاميد وادي نهوقة إلى الخلف، وفي الحقيقة فإن الجلاميد على الجانب الأيمن لوادي نجران، يكون فيها الحجر الرملي

(١) البديع يسمى أيضاً (البديعة). (ابن جريس).

(٢) من خلال جولاني في نجران خلال صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م)، تم مشاهدة العديد من الآبار المنتشرة في منطقة نجران والتي يعود تاريخ بعضها إلى الوراء مئات السنين، ومنها الذي ظهر عليه الخراب والدمار، وبعضها الآخر لا زالت تستخدم في الزراعة، وأحياناً يحتاجها البدو في سقي مواشيهم. (ابن جريس).

موضعاً فوق الأساس الجرانيتي وإلى عمق مـئات الأقدام. كان الوقت متأخراً فترة ما بعد الظهـر، لسوء الحظ، عندما وصلنا إلى القمـة وعلينا أن نعود من عند هذه الجلاميد قبل حلول الظلام، وفي الحقيقة، لم نتمكن من الوصول إلى منتجعنا في الوادي إلا بعد غـروب الشمس، وقد ثبـتت لنا أهمية هذا المعـسكر الدائم للقائد سالم، والذي فيـه تفضل أسرته استنشاق هواء الصـحراء الصحي، بدلاً عن ذلك الهواء الخانق في مسكنهم في قـصر أبالسعود. كان مضيـفنا سالم في هذه المناسبة قد أعـد لنا عشاء فاخـراً، غير أنني شعـرت بالأسف إذ أنه لم يتبق لي كثـير من الوقت لمسح المنطقـة من عند قمـة أبو همدان، والذي أترك الحـديث عن سمـاته العامة إلى مـرحلة لاحقة من قصـتي. لم نتباطأ طويلاً بعد أن تناولنـا العشاء في معسكر سالم وقدنا السيارة مع الأمير في الظلام.

كان اليوم التالي (٢٩ يونيو) هو يوم الإثنين، أحد اليـومين الذين يعقد فيهما السوق الأسبوعي في نجران - كان اليوم الآخر هو الخميس. يقام سوق الإثنين في أرض الاستعـراض الكبيرة المكشوفة أو السـاحة المخصصة للمـعسكرات والتي تمتد من عند الجدار الجنوبي لقـصر أبالسعود إلى حـيث الحافة العريضـة للغطاء النباتي المكوَّن من شـوك الجـمل، والقصـب والأراك، إلخ- على امتـداد الجـانب الأيمن للوادي. يقف صف من المتـاجـر وحيـدة الطابق، على الجـانب البـعيـد من هذه الساحة، مقابل القـصر، وكلها مبنية من اللبن، وقد أقامتـها الحكومة وتم تأجيرها إلى التجار الذين يرغبـون في تخزين بضائعهم. ينصب بقية البائعين خيـاماً مؤقتة أينما كان ذلك مناسباً أو ممكنًا ويقوم الحشد الكبير من الناس بالطواف، أو التجمع حول المتاجر والأكشاك يشترون مـا يريدون، أو يراقبون عمليات البيع والشراء من زملائهم فقط، أو يتحدثون.

كانت السيدات بكثافة عددية ملحوظة أيضاً، ومعظمهن متسخات، وفي أسمال بالية، كأزواجهن وأشقائهن. رأيت إحداهن ويجب أن أضيف أنها تبدو فاقدة لعقلها وهي تطوف أمام القصر في مرأى من حشد من الجنود ورجال الشرطة، وهي متراخية في ظل جداره. كانت أيام الأسواق هذه مناسبات عظيمة للفتيات المحليات ليرين أزواج المستقبل أو الواعدين منهم وكذلك ليراهن الشباب من العزَّاب وكانت الفتيات غير المتزوجات يأتين إلى سوق الجمعة في أحسن تسريحة لشعورهن وقد قمن بدهنه وتشحيمه وتجعيده طبقاً لآخر موضة.

كان اللون المحبوب والشائع هو الأزرق الداكن والذي يستخلصونه من النيلة (اندقو) المحلية، والذي كان يستخدم أيضاً كدهان للبشرة، ويكسب الأذرع والوجه مسحة مزرقة لامعة.

يرفع السوق عند حلول وقت صلاة الظهر، غير أنه في هذه المرة كان مملاً مما دفعنا إلى مغادرته مبكراً، مع جابر بن نصيب وزميلي مسفر وفرج المخلصين، وكلهم من مجموعتي، وقمنا بجولة على ظهور الحمير لتفقد الوادي إلى عند الموفجة وهي أعلى قرى نجران وكذلك خليج المضيق وسنذكره فيما بعد.

نزلنا ضيوفاً على نقطة الشرطة المحلية، في الموفجة لتناول بعض الشاي والقهوة، التي يحتلها حوالي نصف دستة من رجال مرحين، معظمهم من الحجاز، يخففون عن نفيهم لأرض أدركها الظلام، وأكثر ما زادهم خفة هو حقيقة أن رواتبهم لم تدفع لهم منذ أربعة أشهر، ويراودهم أمل ضعيف لأي تحسن متوقع وقريب[١]. كانوا متعجبين ومهتمين ببحثي في الطيور والحيوانات وأكثر ما أعجبهم إحساسهم بأنني أكسب من وراء هذا العمل.

(١) واليوم أصبحت نجران من البلاد التي نالها جزء من النمو والتطور الذي شمل أنحاء المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

استغـرقت الرحلة ساعة وثلاثة أرباع السـاعة، في سرعة متـوازنة للعودة من الموفجة إلى قصر أبالسـعود. وهي مسافة تقدر بثمانيـة أو تسعة أميال يكون الطول الإجمالي للواحة، من الموفـجة إلى آل منجَّم، على هذا الأسـاس حوالي (١٥) أو (١٦) ميـلاً. وتكون المسـافة من الموفـجة إلى بئـر الخضـراء، وهما النقطـتان الطرفيتـان لوادي نجران، حوالي (٣١) ميلاً على الأكـثر. يكون عرض الوادي في المتوسط من ميلين إلى مـيلين ونصف الميل من الجانب إلى الآخر، وأن نصف هذه المسافة حزام من النخيل المتقطع.

مررنا بالحديقـة الجميلة المسوَّرة، التي تسمى خـشيوة، ونحن في طريقنا إلى الموفجة، مقر رئاسة المكارمة بنجران[١]، وزرنا قلعتها الكبيرة المدمرة، وتدعى عَانْ المكارمة، وهي لا تزال قائمة في صورة جـذابة فوق جرف عالٍ يبرز من فوق تلال الجانب اليـسار لمجرى الوادي، مقـابل أبو همدان. وجدنا القلعة ليـست فقط في حالة مدمرة، ولكنهـا أيضاً مهجورة تماماً، ذلك لأن كل ساكنيهـا كانوا معسكرين في وادي نهوقة، عدا امرأتين أو ثلاث، من الخادمـات يقمن بالإشراف عليها. لم يكن لديهن شاي أو قهوة ليقدمنها لنا، ويبـدو أنه لا يوجد ما يؤكل غير دجاجات هزيلة. كانت الغـرف خالية مـن الأثاث من أي نوع كان، وهي مجـرد أكواخ مع محـاولات ضعيـفة لصور جـدارية كضرب من الزينة. يـبدو البناء، قوياً بما فـيه الكفاية من الخارج، غيـر أن عملية بنائه كانت ضعيفـة. كانت هنالك نقوش قليلة

(١) المكارمة: ـ نسبة إلى الداعي الإسـماعيلي المسمى محمد بـن إسماعيل المكرمي (ت ١١٢٩هـ)، والذي هرب من بلدة طيبة في اليمن إلى أن استقر به القرار في نجران، ثم نشر مذهبه (المذهب الإسماعيلي) بين سكان نجران اليامين، وأصبح هو وخلفه أصحاب الزعامة الروحية علـى معظم سكان المنطقة. للمزيد، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٧٢ ـ ١٧٥ . (ابن جريس).

على سطح الصخور باللغة العربية العادية، إلى جانب رسومات ضعيفة جداً للحيوانات. كما توجد قلعتان مدمرتان تابعتان للمكارمة، يمثلان أول القرى للمكارمة في منطقة نجران، ويقعان إلى مسافة أبعد، باتجاه أعلى الوادي على جانب تل لرافد يسمى شعب برّان.

ثبت لديَّ أن الأمير متحمس جداً للمساعدة في مشاريعي المختلفة كما كان القاضي أيضاً مهتماً بها. كان هنالك احتمال التأخير، ذلك بسبب ندرة البترول في نجران ولا بد من الانتظار إلى حين وصول إمدادات مستعجلة ترسل من مكة، والمفترض أنها في الطريق الآن. لقد استهلكنا عشرة براميل سعة (١٢) جالوناً من البترول، لعرباتنا الثلاثة من أبها إلى نجران، مسافة تقدر بـ (٣٠٠) ميل. أعطى هذا متوسطاً ضعيفاً جداً، حيث غطى الجالون الواحد في المتوسط (٧,٥) أميال لكل سيارة، غير أن الشاحنة لا بد أن تكون قد استهلكت ضعف ما استهلكته أي من السيارتين الأخريين. كانت النتائج، مع ذلك، مزعجة إلى حد بعيد، وسنحتاج إلى كمية كبيرة جداً من الوقود قبل أن نحاول الشروع في تنفيذ هذه الرحلة الطويلة إلى الجنوب والتي لن نستطيع في أثنائها أن نعوض ما فقدناه قبل الوصول إلى شبام. كان عليَّ أيضاً أن أنتظر وصول سيارة البريد، والتي لا نعلم شيئاً عن برامج إرسالها، ولزيادة متاعبي، فإن محطة لاسلكي نجران لم تسمح لي باستلام رسائلي المشفرة، إلى مكتبي في جدة بل طلبوا مني أن أقوم بإرسال كل مراسلاتي التلغرافية علناً.

قررت بكل ما لديَّ من حكمة مواجهة إقامة مؤقتة غير أنها ستكون طويلة في نجران. يوجد برغم ذلك، الكثير الذي يمكن رؤيته هنا، ولم أكن في عجلة من أمري إلاَّ أن هنالك إحساسي العصبي الذي ينتابني من حين لآخر بأن الملك قد

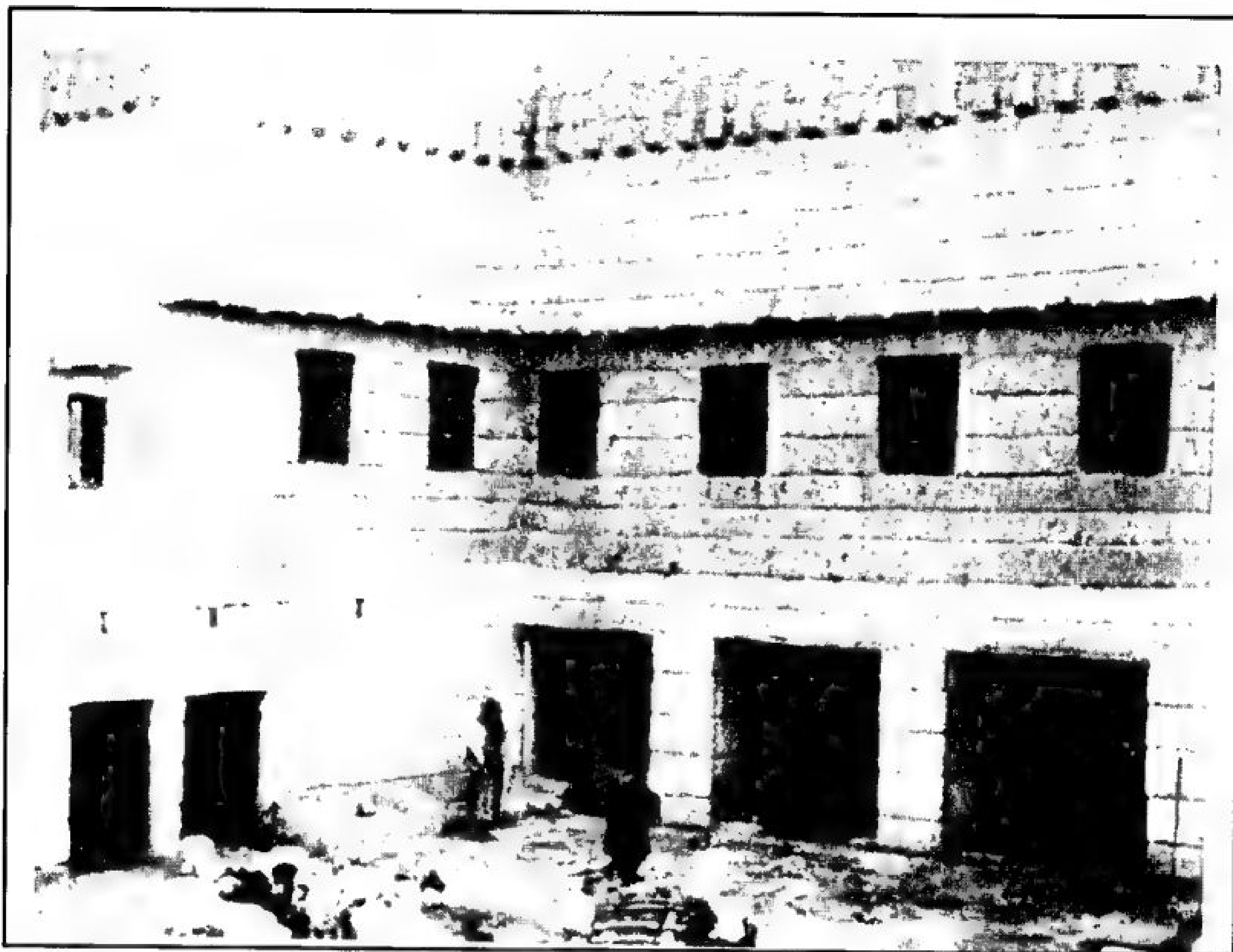
يغير رأيه حـول مشاريعي ويقوض برنامـجي. لقد استنزفت ستة أسـابيع مع نهاية يونيو من جـملة الوقت المحدد في برامجي الذي تضـمن (٤٥) يوماً كحـد أقصى «في نجـران» لتغطيـة خططي لرحلة إلى الجنوب. تبـقّى لي بناء على هذا، فـقط ثلاثون يوماً من مدة (٧٢) يوماً (حداً أقصى) المتوقـعة للرحلة الخارجية، من بينها (٢٤) يومـاً ستمـضي في نجران قـبل أن أبدأ رحلتي للجنوب، وبذلك أكـون في مأمن من أي ملاحقة أو أي استدعاء.

تناوبتني هذه المخـاوف على فتـرات متـقطعة. شـغلتني نجران تمامـاً في هذه الأثناء، في اليـوم الثلاثين من يونيو - وبـترتيب مع الأميـر - غادرت قـصر أبي السعود لزيارة مطولة إلى الأخدود، والتي لم أرجع منها إلى مقر الإمارة الاَّ عصر الثامن من يوليـو. دعاني الأمير، في تلك الأمـسية إلى تناول العشـاء، في حفل كبير حـضره القاضي والقائد سالم، وعلي الجنيدي، وغيـرهم، كلهم كان متطلعاً ليسمع عن استكشافاتي لأطلال نجران. كان الأمير نفسه غائباً عصر ذلك اليوم في مـهمـة لوضع حد للنزاع الذي وقـع بين أبي ساق وابن منيف حـول أرض في آل منجم، لقد قابلته عند حضوري وهو يتهـيأ لذلك، وقد أبلغني حينها بالأخبار بأن فريقاً علمياً مصرياً قد وصل إلى اليمن برئاسة سليمان أحمد حزيِّن، إلاَّ أن الإمام رفض السماح لهم بزيارة مأرب (وشبوة).

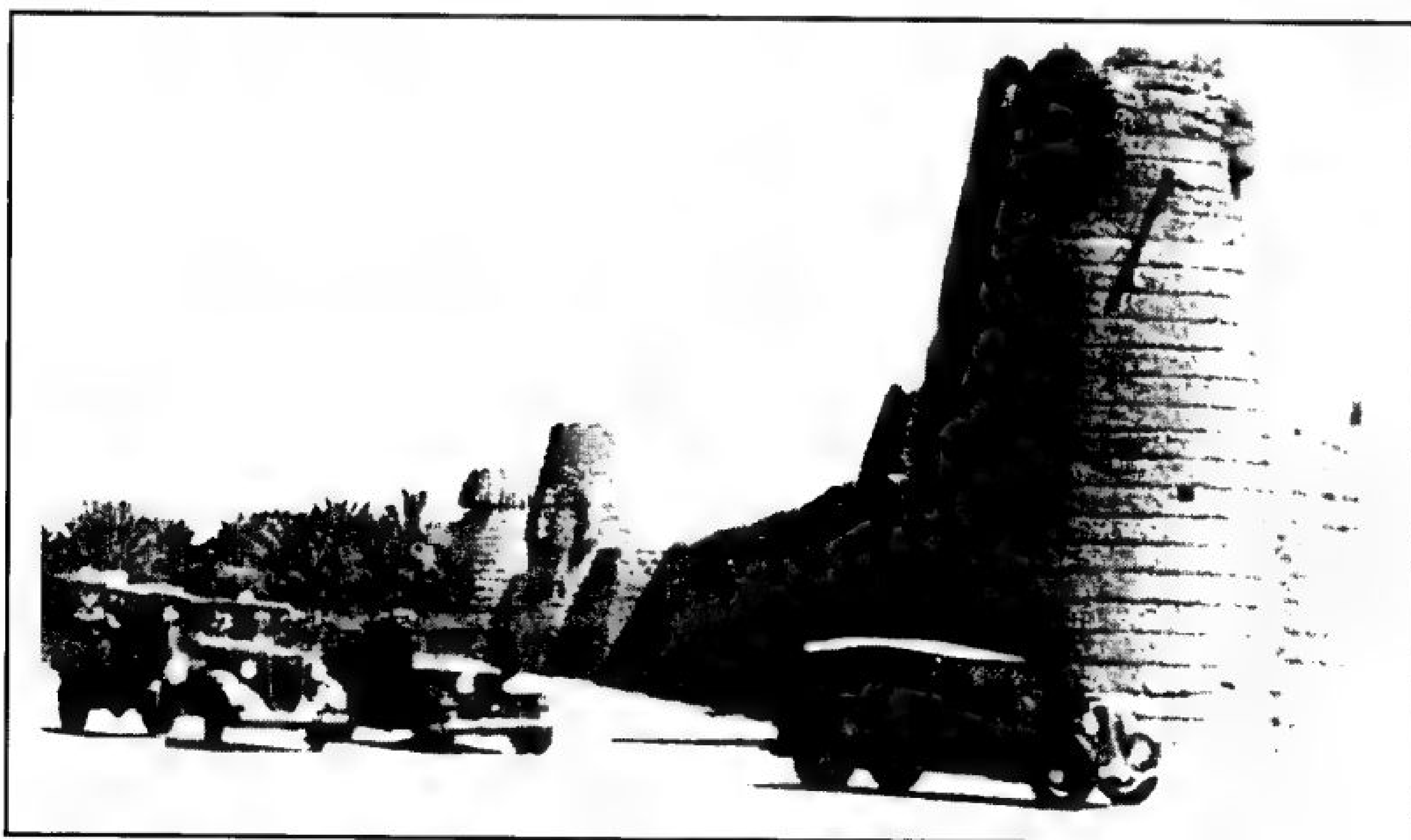
كانت هذه أخبار مفـرحة بالنسبة لي فيما يخص أهدافي المتعلقـة بشبوة، غير أنه يدور الحديث أن تلك البـعثة بعد أن زارت وادي خريد ووادي عـمران والقفلة ربما كانوا يخططون للوصول إلى نجران عن طريق صـعدة؟ وكنت متطلعاً أن أغادر نجران قبل وصولهم، ولم يتحقق هذا مـطلقاً، ذلك لأن الإمام رفض الإذن للبعثة

بزيارة صعدة وكان متشوقاً أن يحرمهم التمتع بكرم أراضي السعوديين. أشعر الآن بالأمان وذلك حـينما نقل إليَّ علي جنيـدي الأخبار الممـتازة بوصول حـاجتنا من البتـرول أثناء غيـابي في الأخدود. والآن سأتناول اسـتقصـاءاتي لذلك المكان في فصل قائم بذاته.





منزل وحديقة سعيد بن كدسة في بيشة



مغادرة قصر الروشن (بيشة)



عيون فضية وبجوارها بدو وأغنام



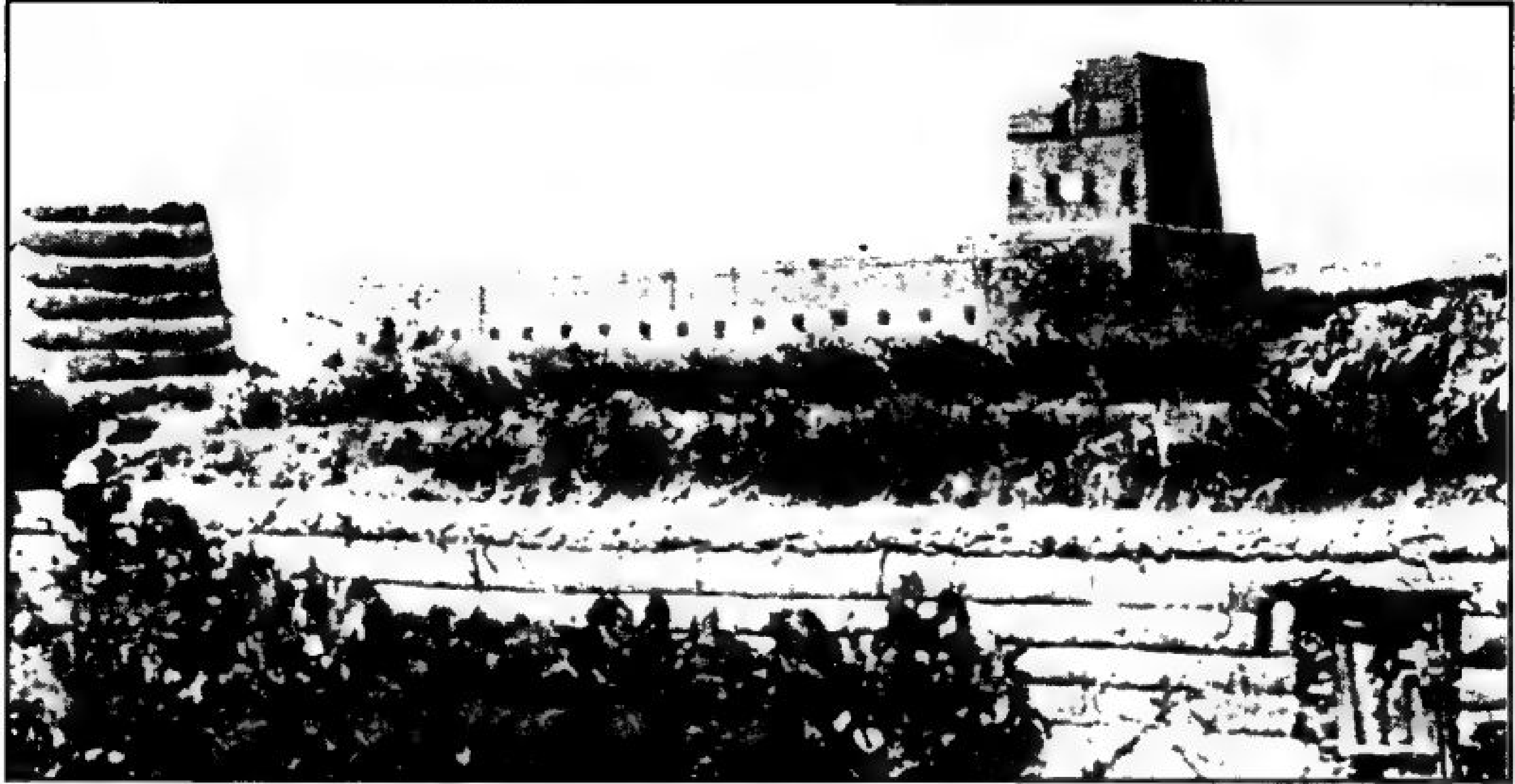
ثلاثة أجيال نسائية بجوار بئر جديد بالقرب من وسيط (خيبر)



سعيد بن مشيط بجوار باب القصر في ذهبان



قصر أبي ملحة في خميس مشيط



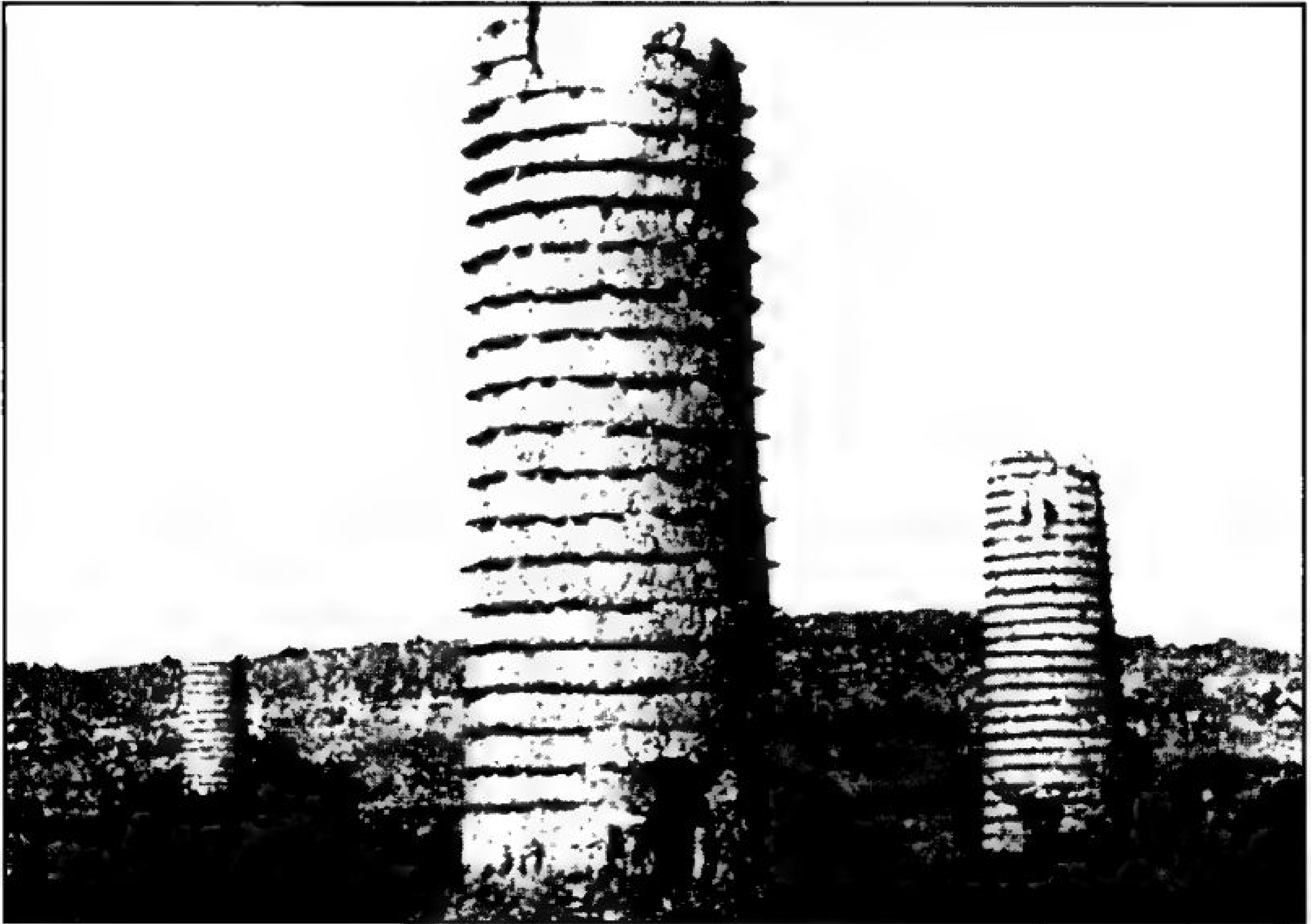
قصر وحديقة سعيد بن مشيط في ذهبان (خميس مشيط)



صخرة ذات نقوش بالقرب من خميس مشيط



الطريق الرئيس إلى محايل والقنفذة ماراً عبر جناح قرية مناظر في أبها



قرية حجلا في الطريق إلى أبها



علي ومحمد من قرية السودة في الجبال



نجران: صخرة معلقة ذات نقوش في ممر حوية



نجران: مجموعة من أهل زبدة بجوار بئر



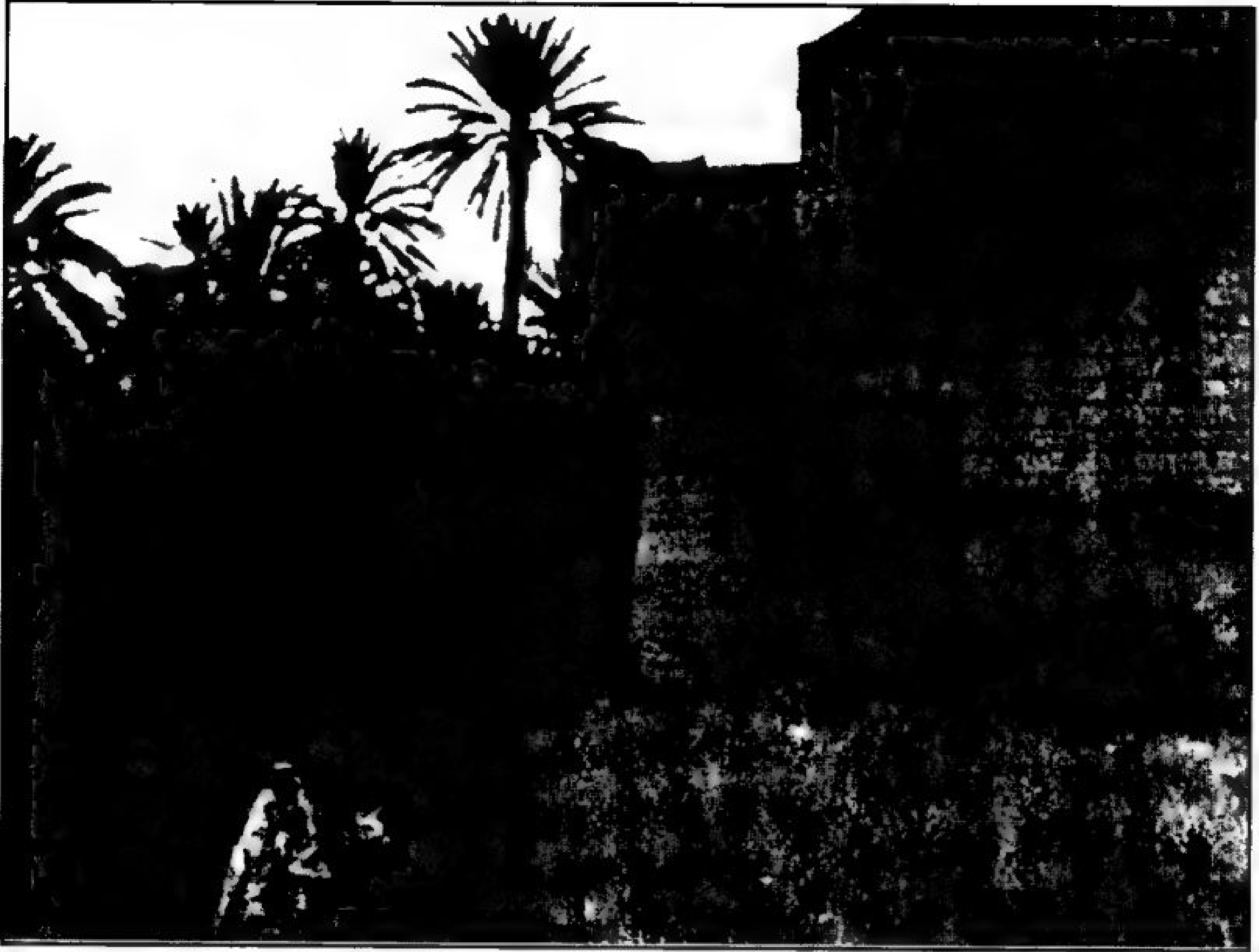
معبد الشمس في المنقع



نجران: قرية سلف الصغيرة في القابل



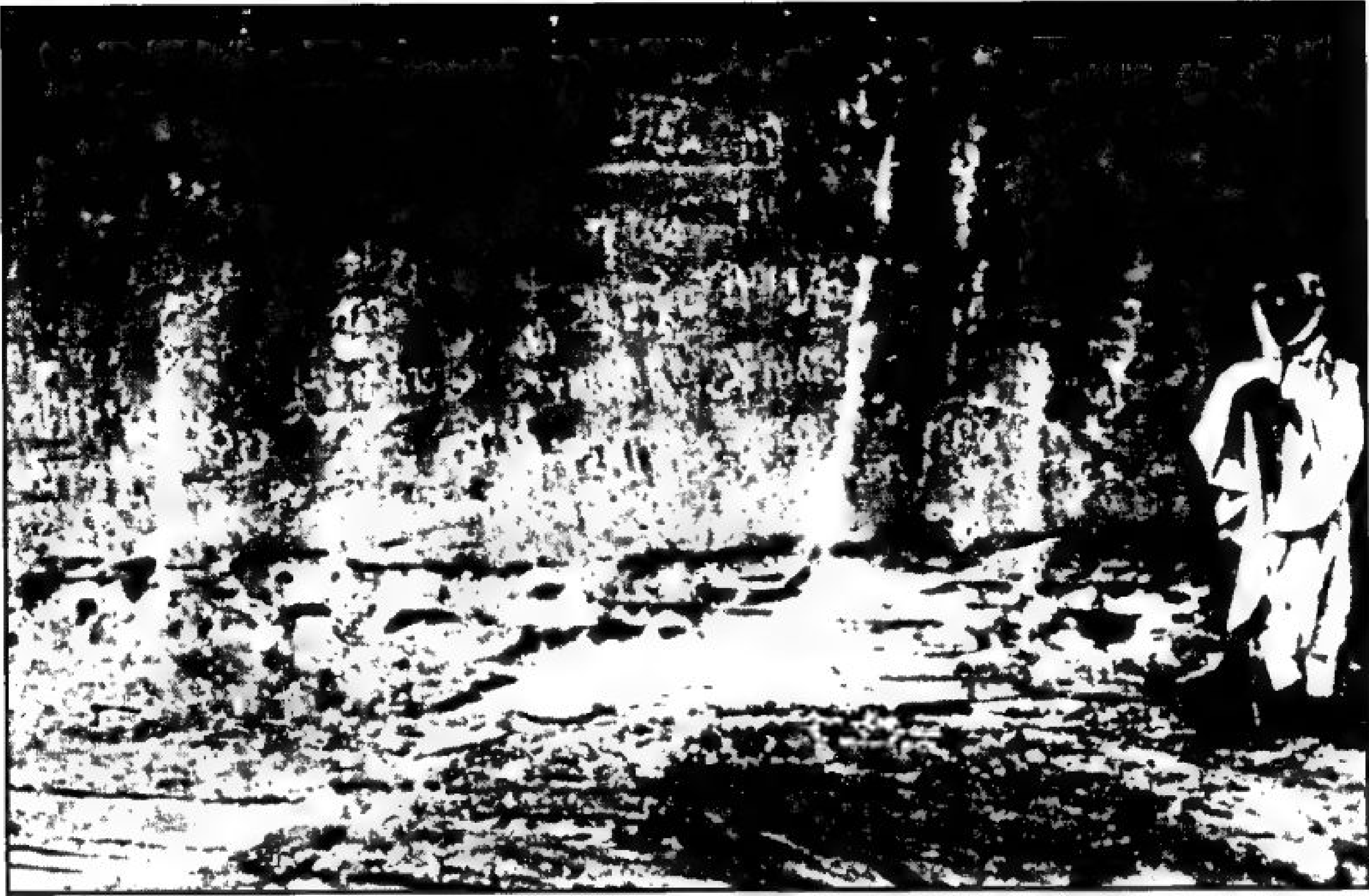
نجران: خيمة سلطان بن منيف بالقرب من الهفوف



نجران: قصر في رجلا



نجران: صور صخرية بالقرب من أم خرق



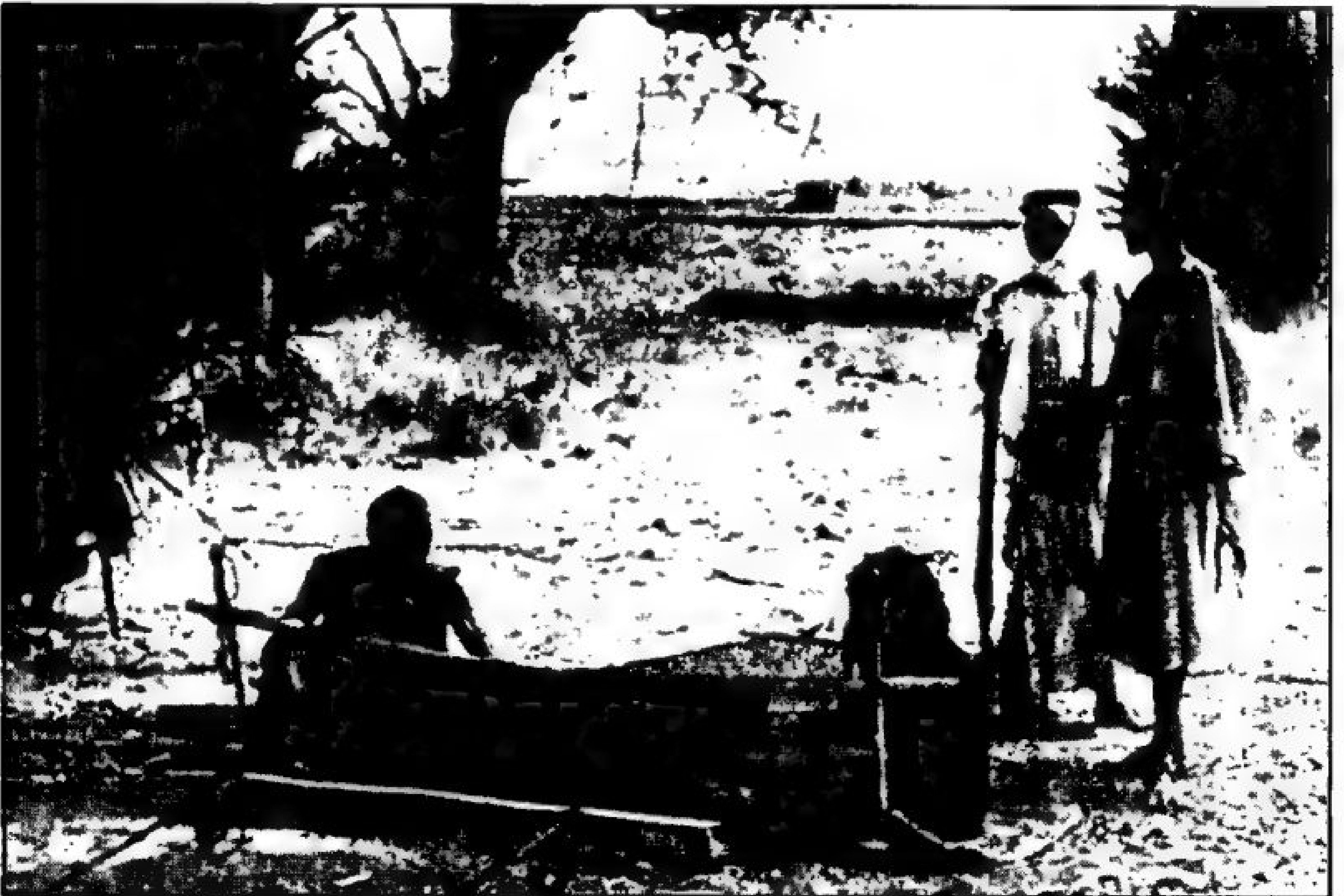
نجران: نقوش في قمة كهف عرير



نجران: كتلة حجر رملي ذات نقوش بالقرب من رأس شعيب نهيقة



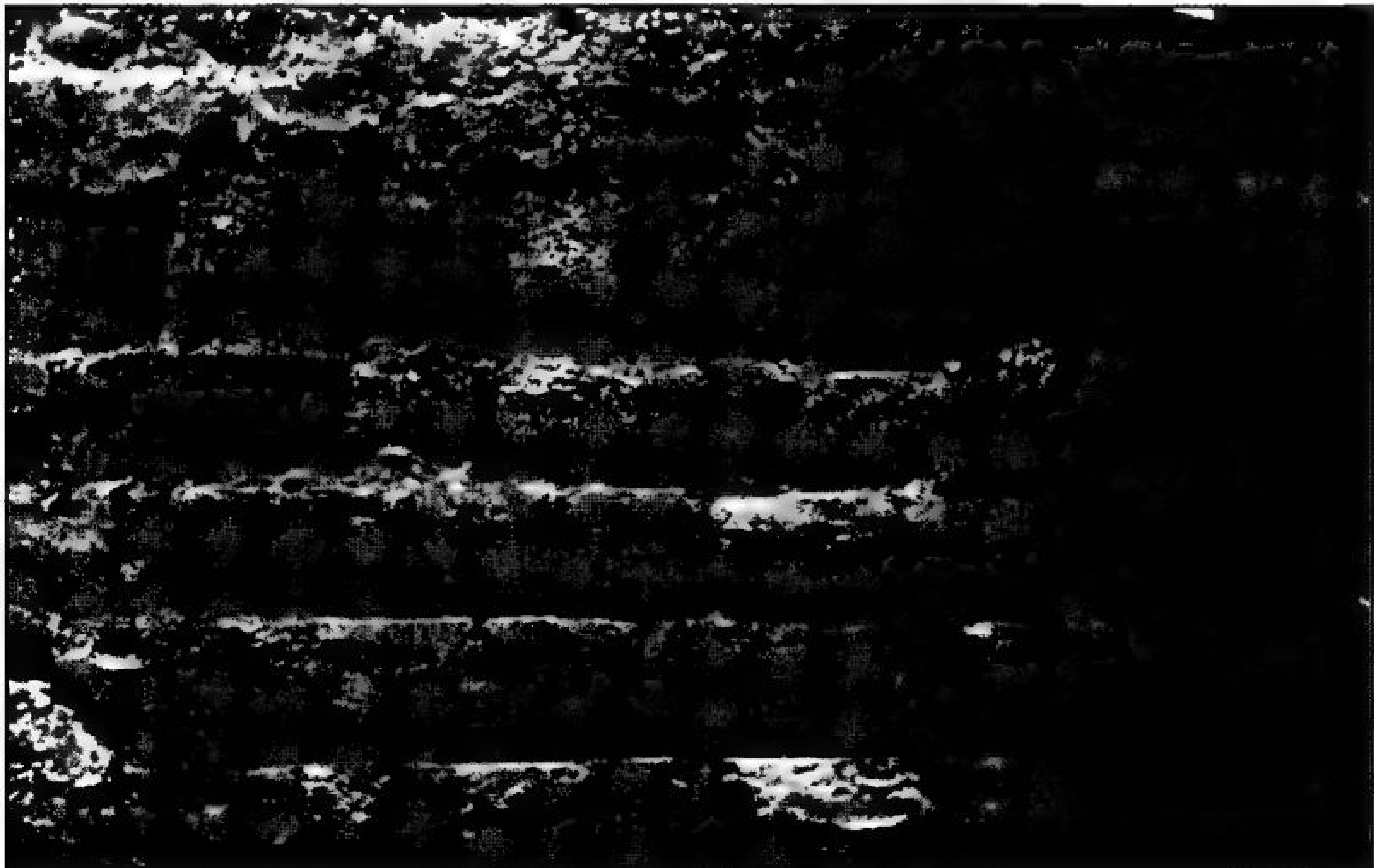
نجران : مجموعة اليهود في نجران في أوكلا



نجران : رجل وبنت ينسجان السجاد في دَحَضة



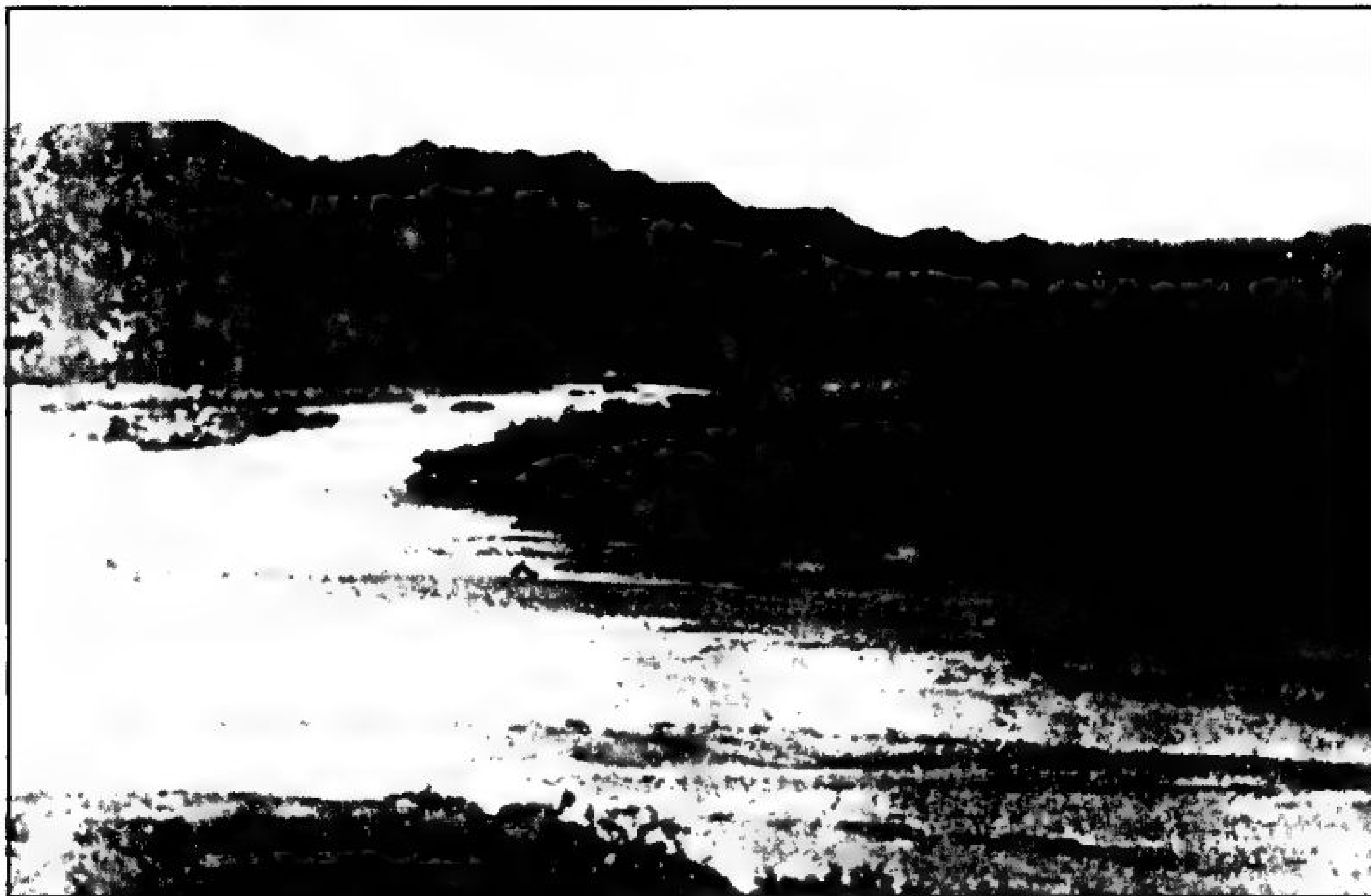
نجران: أطلال حصن الأخدود وقصرها



نجران: طابية الأخدود وقصر ثاني


بركة صخرية كبيرة في شعيب برّان


رأس أسد من نجران



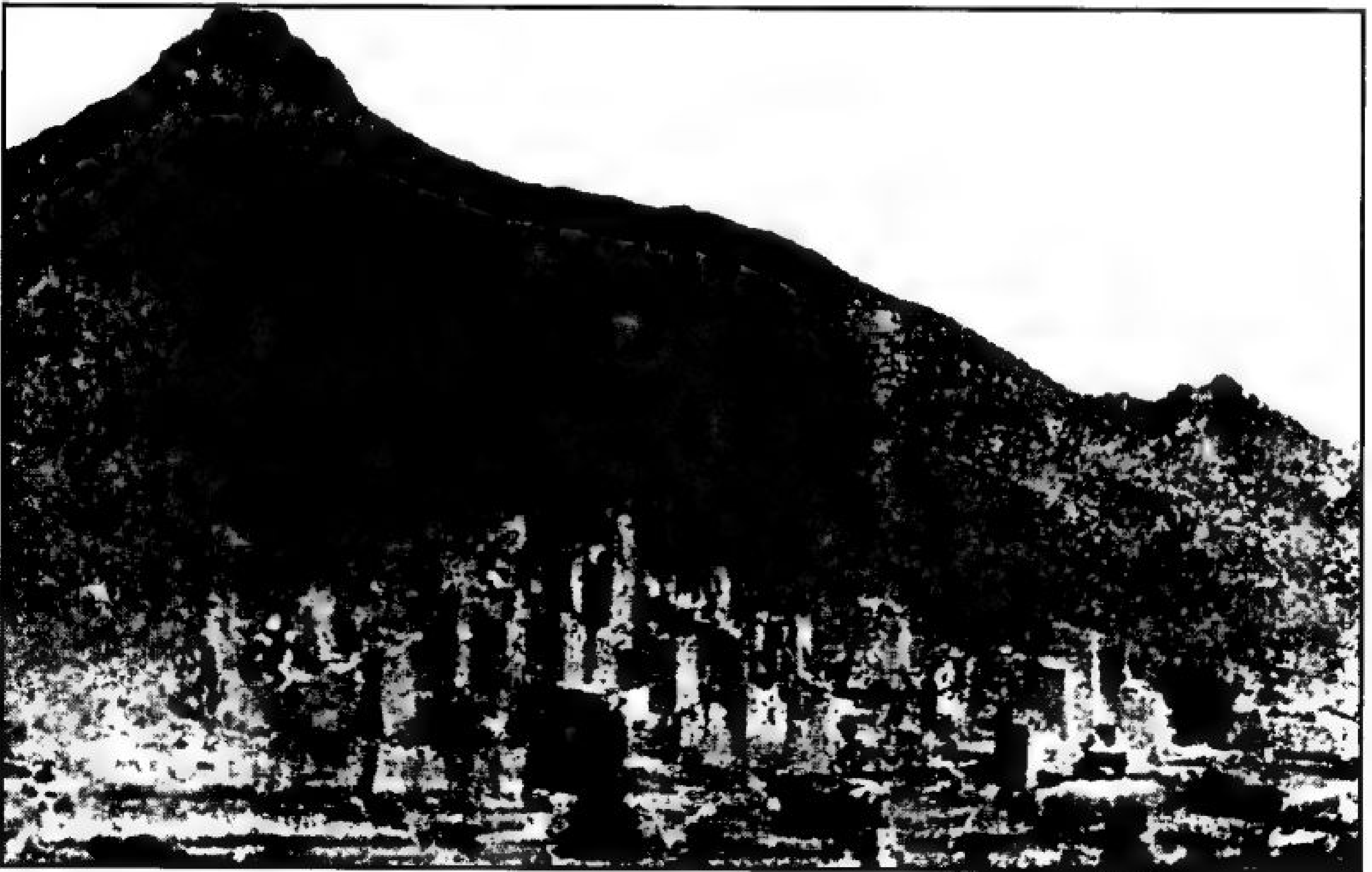
نجران: مسيل غيل في الجزء الأعلى من الوادي



نجران: مقر سكن المكارمة في خشيوة



بئر البقعة في وادي حبونا



قرية قبضة (قبظة) جنوبي ظهران



شجرة نجور منفردة على منحدر الأثم



طريق الفيل يقود إلى وادي تلاح

الفصل الرابع عشر

الأخدود[1]

قمت بزيارة قصيرة للأخدود، كما ذكرت سابقاً، برفقة الأمير، في السابع والعشرين من يونيو، بالسيارة عبر الوادي إلى الحضن ثم متابعة جانب الوادي الأيمن إلى نخيل القابل، ثم عند السهل الصحراوي إلى الأطلال. أما هذه المرة سرت راجلاً، في اليوم الثلاثين من يونيو، متخذاً الطريق المباشر، وبرفقتي فرج ودليل محلي، بينما تحركت بقية المجموعة مع العفش والخيام -التي تم استلافها من مستودعات الأمير- على الطريق المباشر نفسه ولكن في وقت مبكر لكي يستقروا في المعسكر، انتظاراً لقدومنا.

كان هنالك الكثير الذي مررنا به في الطريق والذي يستحق التأمل، ولذلك لم نصل إلى المكان الذي ستنتهي إليه الرحلة إلاَّ بعد المغرب. قادنا الطريق المباشر تجاه الشرق إلى حيث توجد مجموعة مزارع نخيل تسمى في جملتها مخابي وتمثل قرية للأشراف من منطقة جنوب الجوف، كان المستوطن المهاجر الأصلي فيها هو الشريف حسين بن قيشية. لا يوجد ما هو ملفت للأنظار في مزارع النخيل أو القصور الملحقة بها، إلاَّ أن هذه القصور تبدو وكأنها منازل سكنى عادية وليست حصونات ربما لأن الأشراف كانوا من أقرباء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعليه

(١) عن موقع الأخدود وتاريخه انظر. عاتق البلادي. **بين مكة وحضرموت**، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٩ . فؤاد حمزة، **في بلاد عسير**، ص ١٧١ ــ ١٧٢ . والأخدود: حفرة بشكل مستطيل كالخندق، ولا تزال آثارها واضحة في نجران حتى الآن، وبحاجة إلى دراسات آثارية جادة. (ابن جريس).

فهم خارج منطقة النزاعات القبلية ويعتــبرون مقدسين لدى أتباعهم وكانت القصور في معــظمها مــن طابقين. كانت المزارع صــغيــرة، ولكن تتلقى العناية والاهتــمام بدرجــة جيدة، مــع نزعة إلى زراعــة إضافــية. إن «مخــابي» هي صــيغة الجــمع «مخبأ»[1] اسم أبرز مزارع النخيل والتي تشمل **صنعاء**، **وصعدة**، **وخبية**، **وقليلة**، **وبير مرشد**، **وعويرة**، **وعضبة**.

سرنا بــعد ذلك عبــر بطن الوادي العــريض الرملي، التي بلا شك لا تصلح للسيارات، حتى وصلنا إلى مجــموعة من قصور قبلية منتشرة فوق مســاحة معتبرة من مزارع نخــيل مهــملة وبساتين تين، تســمى اللجام، تقع عند الطــرف الشرقي لمزارع نخيل القابل الكثيفة. تمتد واجهة نخيل القابل على يميننا في خط مستقيم في اتجاه غرب الجنوب الغربي تجاه أبو همدان، غير أن الجانب الأيمن للوادي يلتف هنا ناحية شمال الشمــال الشرقي إلى حيث توجد مزرعة نخيل صغيــرة وكثيفة تسمى سلوة على قمــة جبل مميزة على بعد نصف الميل، ومن عندهــا يجري الوادي تجاه الشرق. تقع قصــور ونخيل قريتي **مقشّبة وجــديدة (الشيبان)** بين اللجام وسلوة، ولكن إلى الداخل أكثر.

انطلقنا إلى داخل الجسم الرئيس لمزارع نخيل القــابل إلى الموقع القديم لسوق الخميس، والذي هُجر ونقلت كل التجارة المنظمة إلى مقر قصر أبالسعود. لا يزال هذا السوق القــديم يحتفظ ببقــايا من صف من المتاجر على الجــانب الشرقي لمربع السوق، ومن خلفه مــنظر جمالي لواجهة مــساحة خالية كــبيرة تحيط بهــا أشجار النخيل، وكان يــقـــام أصلاً تحت حمــاية ابن منيف، شيخ قــبيلة آل الهندي التي

---

(١) معظم السكان في نجران يقولون لمفرد كلمة (مــخابي) اسم (المخبأة). وهذا الموطن هو من قرى الأشراف في نجران. (ابن جريس).

تمتلك معظم أراضي القابل. تعتبر تجمعات السوق، المفتوحة لكل من يحضرها، أمراً مقدساً غير أن الروايات تحكي عن مقابلات الأعداء العشوائية التي لا مفر منها قد يتم التدبير لها في مثل هذه المناسبات، وينتج عن ذلك معارك تقود إلى سفك دماء أكثر يكفِّر عنها بعداوة جديدة. ربما مثل هذه الملابسات هي التي أكسبت المكان هذا الإحساس بالغموض.

خرجنا من مزارع النخيل لندخل إلى سهل صحراوي كبير يمتد إلى الوراء إلى قاعدة تكوّن جزءاً من الجانب الأيمن للوادي، الذي انتشرت حول أطرافه وبالقرب من حزام النخيل، بعض الآبار التي ألحق بها قصر ومزرعة نخيل صغيرة، مثل: بئر سلطانه التي تقع في طريقنا، وبئر المنهل -حيث توجد حقول ذرة صفراء ولا يوجد نخيل-، ومكرمانة، وبئر الدولة وغيرها. وصلنا إلى معسكرنا، على مسافة قصيرة من عند بئر سلطانه، وقد أقيم في أرض مكشوفة بجوار بئر وقصر ابن ثامر في إخراج جميل بين سبعة أشجار جميلة ظليلة من السدر، والتي يعزى بقاؤها لحقيقة أنها تقف على مقبرة عبدالله بن ثامر(١) وتلامذته والمعجبين به خصصت الحكومة القصر الآيل للسقوط لإيواء قوة شرطة صغيرة تحت قيادة شخص يسمى صالح وهو من أبناء حائل، والذي برهن على أنه مضيف لطيف ومساعد لنا أثناء إقامتنا القصيرة.

---

(١) عبدالله بن ثامر اعتنق المسيحية في نجران على يد أحد المبشرين بالنصرانية ويدعى (فيمون). وقد قابل ابن ثامر العديد من المشاكل مع ملك اليمن ذو نواس الحميري، الذي سعى إلى إجبار أهل نجران على ترك النصرانية ودخول اليهودية، وعاقب من عصاه بحفر الأخدود وإحراقهم فيه. للمزيد من التفصيلات انظر: **القرآن الكريم**، سوة البروج، آية (٤ ــ ٨)؛ **وتفسير ابن كثير لسورة البروج** (بيروت: دار المعرفة، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م)، حـ٤، ص ٥٢٤ ــ ٤٢٥ . الطبري، **تاريخ**، جـ٢، ص ١٢٣ وما بعدها؛ ياقوت، **معجم**، جـ٥، ص٢٦٦ . (ابن جريس).

استبشرنا بالفأل الحسن الذي استقبلنا به فور وصولنا إلى المعسكر فقد وصل في اللحظة نفسها رجل أرهقه السفر من أبناء وادي الفرع، وهو يسوق أمامه حماراً محملاً بصندوقين من النوع الذي تشحن فيه شركات النفط صفيحتان كيروسين عبوة أربعة جوالين. غير أن محتويات الصناديق كانت عنباً طازجاً تم جنيه في صباح اليوم نفسه من مزارع عنب وادي الفرع لأجل تسويقه بسوق الخميس بنجران[1]. لم تصل البضاعة إلى محطة الوصول بالطبع فقد كمن رجالي للقادم من الفرع وأحضروه إلى خيمتي حيث طلب ثلاثة ريالات للصندوقين، كل منهما يحتوي على (٢٠) كيلوجراماً (تعادل ٤٥ رطلاً) من هذه الفاكهة اللذيذة، وذهب في حال سبيله داعياً لنا ببركات ابن ثامر فوق جبيني حينما ناولته أربعة ريالات. علماً بأن الريال بقيمة سدس فقد تحصلت على (٩٠) رطلاً من عنب ممتاز بمعنى الكلمة مقابل ستة جنيهات، أو أقل من البنس الواحد للرطل. احتفظت بأحد الصندوقين لاستعمالي الخاص وأي ضيوف ربما يزورونني في هذا المكان وناولت الصندوق الآخر ليقتسمه أفراد مجموعتي.

يعتقد أنه يمكن الوصول إلى وادي الفرع ومزارع عنبه خلال رحلة يوم واحد، وسفراً مريحاً على الأقدام، وذلك عن طريق وادي ابن ثامر من نجران، ثم عبور الحدود على مسافة (١٠) أو (١٢) ميلاً إلى جنوب الأخدود. كان صالح، قائد الشرطة، قد خدم تحت قيادة ابن رشيد، وقد حارب ضد قوات الملك عبد العزيز

(١) يوجد في نجران أثناء زيارة فيلبي لها العديد من الأسواق الأسبوعية الهامة، مثل:ـ (١) سوق الأحد في دحضة بحماية ابن منيف. (٢) سوق الإثنين في بني سلمان بحامية ابن منيف أيضاً. (٣) سوقا الثلاثاء في بدر، والجمعة في صاغر بحماية أبو ساق. (٤) سوق الأربعاء في قرية العان وسوق الخميس (المذكور أعلاه) في القابل بحماية ابن منيف. للمزيد انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٨٧ . (ابن جريس).

في الحروب التي قادت إلى سقوط حائل عام ١٩٢١م، ومنذ ذلك الوقت ظل في خدمة ابن سعود.

كانت مشكلته الوحيدة في نقطة المراقبة النائية لهذه الإمبراطورية السعودية، هي أن راتبه الشهري ظل يتأخر ولعدة شهور وأن ابن ثامر الذي أزالت القوات السعودية ضريحه، بالمناسبة،ضم نجران عام ١٩٣٤م، كان الفقيه المناصر للبعوض. إذ يقع اللوم بتكاثر البعوض على البئر المظللة بأشجار السدر بجوار الضريح. كانت ظروف الطقس في نجران في هذه الفترة متأثرة بالرياح الموسمية حيث تكون الليالي كثيفة السحب والنهار بارداً، ولكن بلا أمطار عدا قطرات قليلة من حين لآخر، علماً بأنه قد يشاهد البرق على بعد مع دمدمة للرعد، من حين لآخر.

لم أستنزف كثيراً من وقت صباح اليوم التالي، إذا أسرعت بالشروع في دراسة أطلال الأخدود غير أن أعمالي قد أعيقت بوصول سلطان بن منيف وحفيده حمد من عند معسكرهم في وادي سقام على مسافة ناحية الشرق. دعوناهما لتناول وجبة الغداء معنا وقبلنا دعوتهما لنا بزيارتهما يوماً ما أثناء وجودنا هنا. كان سلطان رجلاً كبير السن، غير أنه رجل مشهور بأنه رئيس لمجموعة جشم التابعة ليام، والتي هي الأكبر من حيث مساحة الأرض من بين المجموعات القبلية الثلاثة، وتأتي لمواجد في المكان الثاني بالنسبة للأهمية ثم آل فاطمة. يبدو أن جابر أبا ساق رئيس المجموعة الثالثة، قد أمكن نفسه من السيطرة الشخصية على قبيلة يام كلها ولربما كان أهم شخص في نجران كلها في هذا الوقت. كان لسلطان ثلاثة أبناء، سالم أكبرهم، وهو في هذا الوقت في نجران حيث يقوم بالإنابة عن والده في كل الأمور الخاصة في مجالس المقاطعة. ذهب شقيقاه إحسان وكديسي إلى

زيارة ابن سعود في الرياض، وورد أنهما قد وصلا إلى هناك على التو بعد رحلة بالجمال استغرقت (٢٢) يوماً عن طريق وادي الدواسر.

كان الزائر الثاني لمعسكرنا هو يوسف اليهودي الذي أحضر معه حجرين مكتوبين. كان أحدهما يحمل نقوشاً حميرية، أما الآخر فيبدو أنه كان مسروقاً من مقبرة حديثة نظراً بما عليه من كتابة عربية عادية، وقد أخذت لهما صورة. قضى يوسف معنا الليلية ليستمع إلى نشرة الأخبار من القدس، لقد رفض الإذاعة العبرية بأنها تأملية النزعة وبأنها «اشكنازي»، وواضح أنه يعاني من صعوبة ما في فهمها، برغم أنه ورفقاؤه يتكلمون ويكتبون العبرية فيما بينهم، وبالطبع لم تكن لديه صعوبة في تفهم الأخبار باللغة العربية.

ساء الطقس في وقت متأخر من العصر وغطت الأجواء غيوم كثيفة غربية إلى الوادي يحملها نسيم جنوبي غربي لطيف. هجمت علينا العاصفة، حينما كنت أنا ويوسف نستمع إلى الأخبار، وكانت محملة بالرمال وكانت تضرب الخيمة بل ونزعت حتى الغطاء الخارجي لها. اتجهت العاصفة ناحية الشمال وعادت مرة أخرى نحونا وبقوة مخيفة أكثر حوالي الساعة (١١) ليلاً وظلت تضربنا مدة نصف ساعة لتنتهي بمطر غامر ولفترة قصيرة، ربما كان مقياسها عُشر البوصة. كانت ليلة قبيحة تماماً غير أن الفجر بزغ في لطف يصحبه نسيم غربي وسحب خفيفة غير أنني رأيت أن أوجه اللوم لرفاقي، الذين كانوا مشتغلين بالعناية براحتهم هم دون السؤال عني خلال العاصفة، وعن الفوضى التي يبدو أنها رافقت وتلت اضطراب الليلة.

سرعان ما واصلت جولاتي حول الأطلال ونسيت كل شيء عن رفاقي وعن عبثهم الطفولي. وجدت زائراً آخر ينتظرني عندما عدت إلى المعسكر لتناول

الغداء. كان ذلك الزائر هو جابر أبو ساق شخصياً الذي كان في قصر أبالسعود لمناسبة سوق الخميس وجاء الآن ومعه تابع معاق عرضه عليَّ على أمل أن أقوم بعلاجه، كان عليَّ أن أخذله بإقراري أنه ليس لديَّ الدواء ولا لديَّ المعرفة بالطب[1]. كان ملحاحاً يريد أن يعرف كل شيء كنت أفعله بقطع الزجاج والفخار التي كنت أجمعها وكانت إجابتي له أنني سأكون سعيداً لو قبلها كلها هدية مني له! أربكته هذه الإجابة واتجه إلى ما بدا أنه السبب الرئيس لزيارته، وهو أنه يريد أن يعرف ما الذي تحدث عنه ابن منيف، الذي كان يغار منه كثيراً. أخبرته أن ابن منيف دعاني للغداء، وحينها اقترح جابر عليَّ أن اتغدى معه أيضاً، وأجبته على الفور بقبولي الدعوة وحددت معه موعداً مبدئياً بعد عودتي إلى قصر أبالسعود، ذلك لأنه يعسكر في سهل سعيد في أرض آل منجم.

وصل منيف على ظهر فرسه من السوق وشاركنا هو ومرافقه وجبة الغداء واستمتعوا معنا بالعنب والقهوة فيما بعد، كما قد أرسل لنا الأمير بكرم، نصف صندوق من العنب دون أن يعلم بالكمية التي لدينا والتي لم تستهلك بعد. ناقش معنا كل شيء، غير أنني وجدت أن جابر كان أكثر مقدرة على الحديث من ابن منيف، أو على الأقل أكثر منطقاً. كان بالطبع أصغر من غريمه المكروه بعشرين سنة، وأعتقد أنه يبلغ من العمر (٥٥) أو (٦٠) سنة. كان بالطبع ودوداً بالرغم مما يعكسه مظهره من شكوك وحذر. كان، كما قال، أنه الوحيد على قيد الحياة بين أبناء والده، وأنه هو أب لخمسة أبناء تتراوح أعمارهم بين (١٥) سنة وأقل، ذلك لأن كل أبنائه الكبار قد توفوا. لقد تزوج فقط من خمس نساء خلال حياته، ومعه

(١) الأوضاع الصحية في عصر فيلبي كانت سيئة، فالأمراض متفشية بين الناس، والعناية الطبية شبه معدومة لضعف الأحوال الاقتصادية، وصعوبة المواصلات بين النواحي، والأوطان. (ابن جريس).

الآن ابنان يعيشان معه وقد أنكر بقوة القصة التي تقول أنه كان من عادة قبائل نجران ذات يوم، أن تقدم للضيوف النساء. كانت هذه الفكرة مخيفة له بصدق[1]. لم يفعل هذا الأمر الشائن المكارمة، كما قال، ولا حتى اليهود، قالها وكأنه قد حسم الأمر.

يجب عليَّ أن أقر بأنني لم أكتشف أي إثبات لعمل مثل هذا في هذه الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة العربية، والتي تدور حولها قصص مثل هذا القبيل في الشمال. لا يمكن أن تكون ذلك حقيقة وذلك يعزى إلى أن الزواج في الجزيرة العربية يعد بالأمر السهل، وكذلك الخروج منه، فإن اعتبارات مثل هذه لراحة الضيوف لا ضرورة لها. أخبرني جابر، فيما أخبر عنه، عن قصة رجلين من أبناء بلاد سنحان في اليمن، كانا قد هربا من تلك البلاد واحتميا بقبيلته هو، آل فاطمة. جاء له بإشاعة تقول إن هنالك كنزاً مدفوناً في قمة تل يسمى ميحار، وفي تجربة للأمر قام النشمي بإرسالهما لتبين إمكانية معرفة طريق للسيارات يقود إلى سفح التل حيث الكنز، وإنهما قد وجداه. لم أكن أدري أنني، وقبل أن يمضي وقت طويل سأكون سالكاً ذلك الطريق لكي أنفي أسطورة ميحار هذه كما قد أوردت ذلك في كتاب: **بنات سبأ**. إنه لمن المدهش أن أجد في مذكراتي ملاحظة حول ما قاله جابر حول الموقع، وأن أشيد بالدقة التي نقل بها جواسيسه المعلومة، والكيفية التي هضم بها هو هذه الحقائق.

(١) يعتبر ابن المجاور من الرحالة المسلمين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وممن أجحف في حق كثير من سكان جنوبي الجزيرة العربية، بما فيهم أهل نجران وغيرهم، حيث تحدث عن قضايا اجتماعية أخلاقية عديدة أمثال هذا النوع الذي يذكره فيلبي. انظر: ابن المجاور، **تاريخ المستبصر**، (الجزءان الأول والثاني) (ابن جريس).

زارني رجل كبير السن، بعد مغادرة جابر، يسمى حمد بن شقات، من أتباع ابن منيف، تشغله فكرة تدور في رأسه ربما حول زيارتي غير المفهومة لهذه الأنحاء، تقوده للاعتقاد بأن الحكومة السعودية تسعى لطرد سكان نجران وإعادة استعمار الموقع بقوم أفضل![١] رافقني هذا الزائر إلى السهل إلى حيث تقبع مقبرة قديمة خالية من النقوش وربما يعود تاريخها إلى العصور الوسطى، إلى عند قمة تسمى جبل السودة، وإلى جوارها سلسلة الجبل الأحمر[٢] ذات القمم المتعددة والتي تسد الوادي من هذه الناحية وتكوِّن جرفاً عالياً ينحدر من ورائه وادي سقام الواسع عبر خليج عريض في الجبال ليصل إلى وادي نجران عند رجلا. كانت أسرة حمد تعسكر عند سفح الجبل الأحمر وكان حمد يحاول إغرائي للذهاب إلى هناك لغرض في نفسه، إلاَّ أن الوقت كان متأخراً، وكانت هنالك نذر عاصفة ثانوية في الأفق، لذا عدت إلى المعسكر وقد لاحظت بعضاً من علامات النقوش على سفح جبل السودة ولاحظت مبانٍ على قمته ويبدو الأمر كأنه يستحق الدراسة مستقبلاً.

لا بد وأن تكون أمطار الليلة الماضية قد كانت عنيفة في الجبال أكثر مما هي في وادي نجران، ذلك لأنه اندفع سيل ضخم خلال ساعات النهار عبر المجرى إلى رجلا وعطل كل وسائل الاتصال مع جانب الوادي الشرقي، رغم أن عمق الماء كان يصل فقط إلى مستوى الركبة، وكانت بعض الأجزاء أكثر عمقاً عن ذلك.

---

(١) كان هذا الخوف موجوداً باعتبار ما تعود عليه أهالي المنطقة في الماضي بينما ثبت لهم عكس ذلك في عهد الملك عبد العزيز الذي عزز مكانة الأهالي وجلب لهم الأمن والاستقرار. ومن يزور نجران اليوم يشاهد ملامح التطور والنمو في البلاد، بل يتأكد له صحة ما ذكرنا. (ابن جريس).

(٢) يطلق على هذا الجبل أحيان (الجبل الحَمَر). (ابن جريس).

هبت رياح قـوية لمدة سـاعة وذلك قـبل غروب الـشمس وكـانت السـماء ممتلئـة بالسحب عند قـدوم المساء، غيـر أن المطر حتى حينهـا كان بعض قطرات. ثم بدأ البعوض الآن يكوّن إزعـاجاً لنا أكثر، حـول المعسكر، كما أزعجـتنا قطة سوداء، والتي ربما قد اكتشـفت نشاطاتي في عالم الطيور وجاءت تتحرى الأمـر! كما كان هنالك زوج من الكلاب يبـحث عن العظام التي خلّفهـا عشـاء الأمس وقد رأيت عند منتصف الليل ثعلباً يتجول حول المعسكر.

خصصت اليوم التالي لأجل أن أقـوم بزيارة لمعسكر ابن منيف، غير أن جابر ابن نصيب جـاء على ظهر حصـانه قبل انطلاقتنا ليـتأكد إن كنا فـعلاً ذاهبين إلى المعسكر المنافس. لم أضيع كثير وقت مـعه، غير أنني رأيت أن أخبره بأنه سيكون هنالك كسوف للقمر في الليلة التالية.

يبعد معسكر ابن منيف مسافة أربعة أمـيال شرقاً بالقرب من قصرين صغيرين مدمرين يسميان هفوف وكـويخ بجوار مزارع نخيل العمائر، وذهبنا إلى هناك على ظهور الحمير لقضاء يوم مثير للاهتمام في وسط أسرة ابن منيف. كان الحضور إلى جانب سلطان -الرجل المسن- ابنه الأكـبر سالم ومعه ابنه الصـغير سلطان، على اسم جده، كان كل من حـمد وصالح، ابنا إحسان وكديسي حـاضرين معنا هنا. كانت رحلتهما إلى الرياض، كما علمت الآن، لأجل تصفية نزاعات أراضٍ معينة كان قد رفع أمرها إلى الملك. مجموع أعضاء الفريق إلى الرياض يصل إلى (١٢) شخصاً من قـسمي مرغان والصقور. كان الأطـفال جذابين بحق، وازداد عددهم عند اقتراب موعد العشاء.

يجب أن أضيف إلى من ذكـرت إحسانًا وهـو ابن سالم، وسلطانًا ومحـمدًا وهما الابنان الأصغـران لإحسان وعددًا من أطفال صغـار هم أحفاد الرجل المسن وأخواله كان حشداً جيداً وكان أيضاً أكولاً.

قدم لي كل من سلطان وسالم معلومات قيمة جداً حول القسم الشرقي لواحة نجران والأحوال القبلية بصفة عامة. كان أصل القبائل بالطبع، هو يام، التي تفرعت إلى مجموعتين رئيستين هما جشم ومذكر وانقسم الأخير إلى لمواجد وآل فاطمة. يتفرع الأول منهما مرة أخرى إلى آل رزق والأسلوم، وآل الحارث. كان فخذ سلطان الخاص هو، آل الهندي بالطبع، فخذ جشم[1]. ولسلطان شقيق واحد لا يزال على قيد الحياة، يسمى حمد، بينما توفي الخمسة الآخرون وهم: حمد، ومحمد، وكديسي، وعبدالله، وعلي، يمثلهم معظم النسل الذي ظل على قيد الحياة، مكوِّنين بذلك قبيلة منيعة. يستطيع سلطان نفسه أن يؤرخ شجرة نسبه إلى (١٧) أو (١٨) جداً، وهي فترة لا يمكن تقديرها بأقل من (٥٠٠) عام. قد يكون من المفيد تسجيل ذلك لفائدة بعض القراء.

سلطان بن حسن بن حمد بن حسن بن منيف بن محمد بن بطين بن عبدالرحمن بن سلطان، بن سالم بن مقاتل بن صعيب بن هندي بن ضال بن جشم بن يام بن يصبع بن همدان[2] بن زيد. لقد ميزت اسم سلطان (بالخط المائل) وسلفه الذين تتوارث أسماؤهم في الأقسام القبلية المعاصرة. يبقى أن أشير إلى أن جشم القديمة هي جشم الحديثة.

(١) جُشم: أحد الفروع الرئيسة في نجران، وهم جشم بن يام بن رافع بن جشم بن حاشد من همدان. ويام يقولون اليوم (جْشَمْ) فيسكنون الجيم والميم، وتسكين الجيم في أول الكلمة لحن واضح. وربما هناك من يقول (أدشم) أو (أجشم)، وسوف نستقر على كلمة (جشم) في الصفحات التالية ونستبدل كلمة فيلبي التي استعملها في جميع صفحات كتابه، وهي: شم (Cham)، والمقصود بها (جشم). (ابن جريس).

(٢) يوجد ما يفيد بأن همدان عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، وعليه فهنالك كما يبدو فراغات كثيرة في هذه الشجرة التقليدية. (المؤلف).

أحضر الخدم حصيرة كبيرة وقحفاً خشبيّاً كبيراً ممتلئاً بعصيدة قمح وحساء، بينما كنا جالسين على أطراف خيمة سلطان ذات البساط الجيد، نتجاذب أطراف الحديث حول هذه المواضيع. خطر بذهني أنها صورة الكرم الضعيف لهذا المنزل العريق غير أنني كنت جائعاً وكانت العصيدة، مع شكلها غير المثير للشهية، لذيذة، وتسمى معصوباً وأكلت حتى شبعت.

كنت على وشك أن أغادر الحصيرة وعلى طرف لساني كلمات الشكر حينما أوقفني مضيفي قائلاً لي أن أنتظر اللحم. دخل الخدم لرفع قحف العصيدة من وسطنا ثم قاموا بوضعه مرة أخرى أمام ضيوف آخرين ذوي درجة اجتماعية أقل منا ومن بعدهم وقد قلّت كمية العصيدة، نقلتها إلى مجموعة أطفال الدار حتى شبعوا وأمروا بالذهاب إلى جناح النسوة بالخيمة وتفصله عن جناح الرجال ستارة فقط[(١)]. كان الحساء مصنوعاً من لحم ضأن بالأسلوب العادي غير أنه هذه المرة أضيف له العسل والسمن، وكان مذاقه طيباً.

وضعت أمام الضيوف الرئيسين سلتان كبيرتان مملوءتان بأوصال كبيرة من اللحوم والتي أقبلنا عليها بدعوة من مضيفنا بعزيمة برغم ما تناولناه من عصيدة. كان اللحم ناشفاً لكنه ذا مذاق، وشاركنا في هذا الجانب من الوجبة كل من سلطان الرجل المسن وسالم وحمد الشقات، وكان الرجل المسن يقوم باختيار قطع معينة من اللحم ليناولها للأطفال أثناء مغادرتهم، واعترافاً لجهده فقد كان يناولهم

(١) لمزيد التفصيلات عن بعض العادات والتقاليد الاجتماعية في منطقة نجران، انظر: هيفاء بنت محمد آل رزق اليامي. **الثبات والتغير في بعض عناصر الثقافة غير المادية في ضوء عمليات التحضر في منطقة نجران (دراسة تحليلية مقارنه)**. رسالة ماجستير بقسم علم الاجتماع كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبدالعزيز (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م) ص ٧٨ وما بعدها. (ابن جريس).

الأجود من اللحوم. ابتعدنا عن الحصيرة (السفرة) بعد أن انتهينا من الأكل، غير أن الرجل المسن وسالماً ظلا ينهشان ما تبقى من لحم وافر، الذي كان مصدره ست ذبائح ضأن وكانوا يناولونه إلى تابعيهم الجالسين من حول الخيمة. ظل بعض التابعين جالساً هناك يعرش اللحم من العظام باستمتاع واضح، بينما غادر البعض منهم المكان حاملين معهم اللحم إلى مساكنهم، ربما للمشاركة مع زوجاتهم وبقي آخرون وقد وضعوا اللحم بجوارهم إلى حين أكله أو حمله في وقت لاحق[1].

كانت هذه أول تجاربي مع هذا الضرب من المأدبة الذي أصبح بعد ذلك شيئاً عادياً في البلاد الجنوبية، حيث عولجت الإمكانيات المحدودة للمضيف وبذكاء في مواجهة الشهية غير المحدودة للضيوف، بالأسلوب البسيط الذي يتلخص في تقديم طعام صاد للشهية يهدف منه ألاَّ يشحذ الشهية عند الضيف للطعام، بل يقتلها. كان الاهتمام المطلق الذي قدمه الرجل المسن للأطفال جانباً ممتازاً للعملية كلها، وكان تقديم حصص من الطعام إلى الخدم بواسطة أسيادهم يدعم كثيراً هذا الأسلوب ويمدحه. لا يشتكي الضيوف بالطبع من شيء غير الخدعة الأولى، إلا أن المرء سرعان ما تعلم بأن يتغلب على هذا الأمر بتعلمه المحافظة على شهيته إلى حين قدوم الجزء الرئيس من الوليمة.

يفضل سلطان أن يعيش معسكراً في الصحراء، غير أن له سكناً ثابتاً في قصر في مزرعة نخيل صغيرة تسمى الحريزي وهي ليست ببعيدة عن أطلال الهفوف. لم تكن المسافة بعيدة من معسكره إلي طرف رجلا، فقط حوالي ميل واحد أو أكثر

---

(١) هذا النوع من العادات كان موجوداً عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية مع اختلاف بسيط في مفردات اللغة التي تستخدم أثناء ممارسة مثل هذه الأعراف. واليوم انقرضت فلا توجد إلاَّ في النادر عند بعض الأسر أو البوادي الموغلة في بداوتها. (ابن جريس).

قليلاً، حيث يوجد قصر من سبعة طوابق، يرفرف فوقه علم السعوديين، يزيّن به يوم الجمعة، ويحتل نقطة الشرطة المحلية. كان القصر متسخاً من الداخل إلى درجة بعيدة وكانت السلالم التي تقود من طابق إلى آخر منحدرة بشدة وسيئة الصنع، غير أن المنظر الذي يطل عليه المرء من فوق السطح كان جائزة ممتازة لقاء الصعود المرهق[١]. كانت أشجار نخيل رجلا طويلة بشكل واضح ورشيقة، غير أن الغريب في أمرها، أنها كلها كانت عارية من الثمار لعلها كانت أشجار مذكرة. تكوّن مزارع النخيل في رجلا واجهة نهرية تمتد إلى مسافة نصف الميل وعمقاً يصل إلى (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة، غير أنه يبدو أنها مهملة، وعلمت بأن مالكيها بدو غائبون في معظم الأوقات، يعودون إلى الموقع فقط في موسم الحصاد. لا تحتاج أشجار نخيل نجران بالمناسبة، إلى ري أو ري صناعي، ذلك لأن المياه كانت تحت التربة وبوفرة. غير أنه يحتاج إلى الآبار فقط لري محاصيل الحبوب[٢].

عدنا مباشرة إلى المعسكر بعد أن أضعنا الوقت سدى في أرض رجلا، يقودنا حمد بن شقات الذي أفاض عليّ حمايته. كانت معلوماته الجغرافية واسعة وشمولية ومفيدة، غير أن له تلك الأعين الواسعة شبه الثابتة الملائمة للأغبياء وكثيراً ما تصرف كواحد منهم إذ أنه يجيب على أسئلة دون أن يفهم المراد منها. يوجد بين مزرعة ابن رخيم الصغيرة عند الطرف الغربي لرجلا والقبيبات - الاسم الشائع لضريح ثامر والمقبرة- أرض براري واسعة ينمو فيها عشب الحلفاء تسمى الحسين، تكون أحياناً مستنقعاً خاصة بعد سيل وادي سقام وتكوّن دلتاه. توجد غابة مهيبة من أشجار الطلح على جانبي بطن السيل، يعسكر في وسطها ابن

(١) (٢) لمزيد من التفاصيل عن عادات البناء والتشييد، وكذلك الزراعة والحصاد في جنوبي البلاد السعودية، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠ - ١٤٠٠هـ**، ص ٣٧ ـ ٥٨، ١٢٩ ـ ١٤٧، فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١١٢ وما بعدها. (ابن جريس).

منيف، غير أن البراري نفسها قد انسدت بمساحات من هضاب صغيرة ممتلئة بنبات حلفاء منخفض تركت هناك حسب العرف الاجتماعي، لتدل على بقايا قرى عديدة هجرتها مجموعة من أبناء آل الهندي يسمون المصاعبين الذين هاجروا من نجران إلى وادي بيحان منذ زمن بعيد واستوطنوا الموقع الآخر وبأعداد كبيرة حتى اليوم.

حضر جابر بن نصيب على ظهر حصانه صباح اليوم التالي ليأخذني في رحلة استكشافية نهارية إلى وادي الفرع والجلاميد والتلال التي تعترضه. أخبرته أثناء اليوم كيف كان سلطان وأسرته مفيدين لي بإعطائي معلومات مفيدة. قفز إلى الطعم كسمك السالمون المرقط وقدم لي الحقائق المقابلة لما يخص شجرة نسب أسرته. كان جابر نفسه أكبر أربعة أبناء لوالده حسين وهم بالاسم جابر، ويحيى، وحمد، وعلي. وله ابنان هما: حسين وسمعان. كان لشقيقه يحيى ابن واحد اسمه وعيل، أما الشقيقان الآخران فلم يكن لهما أبناء. كان لعمّه الوحيد واسمه علي، ابنا واحداً يسمى حسين، ولهذا ابنان هما: علي وجابر. كان هكذا ترتيب آخر ثلاثة أجيال لأسرة تتلاشى بعد تاريخ طويل يعادل ذلك لأسرة المنافس جشم. لم يكن جابر سلس البيان في أمر شجرة نسبه مقارناً الرجل المسن سالم، إذ أنه كان يتلعثم ويخطئ مراراً ويصحح نفسه غير أنه بعد أيام لاحقه، قدم لي شجرة نسب مؤكدة ومكتوبة وهي كما يلي: جابر بن حسين بن جابر بن منيع بن سمعان، بن حمد بن جابر بن علي بن قطيان بن نصيب، بن غنيم بن مهري بن علي بن حسن بن مواجد بن مذكر بن يام بن همدان بن زيد وتضم تسعة عشرة جيلاً بما في ذلك جيله.

لا بد أن يذكر هنا أن اسم يسبع قد سقط وموقعه بين يام وهمدان في قائمة شجرة نسب جابر وعليه لابد من إضافته هنا وذلك أن الرجل المسن سلطان كان متأكداً من تضمينه. يتضح من مقارنة القائمتين أن كلاً من جشم ومذكر كانا شقيقين وكان الأخير هو والد مواجد وسلف آل فاطمة كما سيرد لاحقاً. ربما كان علي بن حسن (وربما إحسان) الوارد ذكره في القائمة السابقة هو الجد الأعلى لخطي رزق وحارث وأيضاً مهري، ربما كان هؤلاء هم أبناؤه الثلاثة. يبدو أن مذكرًا كان له، إلى جانب مواجد وفاطمة ابنان آخران هما الأسلوم ووادعة وكلاهما ممثل بقسم قبلي اليوم.

لقد تمكنت من إتمام الجيل النسبي ليام في وقت متأخر وقد حصلت على المعلومات بعد جهد جهيد أيضاً من جابر أبو ساق، والذي أرى أن أقدم رؤيته هنا للفائدة، هو جابر، الذي يكنى بأبي ساق، وهذا لقب خاص به، بسبب مرض أصابه في ساقه وقد عانى منه كثيراً منذ طفولته، وشقيقاه علي وأحمد، وثلاثتهم أبناء حسين بن منيع بن جابر بن منيع بن منصور بن واصل بن مذكر بن يام بن يسبع، بن همدان بن زيد -كما في قائمة سلطان- وهم يكّونون ثمانية عشر جيلاً. كان لمذكر، كما يقول جابر أبو ساق، زوجتان، إحداهما هي والدة مواجد، ولم يذكر اسمها، وهي سلف ابن نصيب، والثانية فاطمة التي ولدت له ابنين، هما هشام وواصل. كان الأخير منهما، كما يبدو في شجرة النسب، هو الجد الأعلى للفرع الذي ينتهي في جابر وأشقائه، والذين يسمون عادة آل فاطمة، من ناحية جدتهم العليا.

لم أتمكن من أن أتحقق إن كانت ذرية هشام -كما يعتقد- من فرع آل فاطمة من ناحية جدتهم العليا أم لا، لقد كان له ابنان هما عجيم الذي أجهل تطوره

التالي، ووعيل الذي يعرف بأنه سلف للأقسام المعاصـرة التالية: آل العرجاء وتحته قسم ويشـتق منه، آل رشيـد، وآل فهـاد، والمطلق، والفتيـح، وال حسن، وابن عيسى، والزايد، والوعلة وآل حمـد بن فضل، والعجمان -لعلها قـبيلة بالأحساء بالاسم نفسـه-، يتبع آل فاطمة أيضـاً النصيين في وادي مرخة في الجنـوب. كما كان لجـابر أبي ساق في ذلك الوقت خـمسـة أبناء أحياء - هم شـرفى، وعلي، وفيصل، ومنيع، ويحـيى. وكان لشقيقه علي ابنان هما: سـالم ومنيع، بينما كان للشقيق الآخر حمد ابنان أيضاً هما: حسين وحسن(١).

هكذا كانت أجـيال قبيلة يام كمـا رواها لي ثلاثة من شيوخ القبـائل الكبار. أعود الآن لحملتي التي رافقني فيهـا جابر بن نصيب والتي أنجزناها في اليوم الرابع من يوليو، وقد شرعنا فيـها قبل الساعة السابعة صبـاحاً على ظهور الجحوش(٢)، علماً بأن جابر نفسه فـضل أن يمتطي حصانه، وذلك للمرحلة الأولى من الرحلة. كان اتجاه سيـرنا العام هو تجاه شرق الجنوب الشرقي وكـان هدفنا الأول هو مضيق منخفض، ارتفاعه ١٠٠ قدم يقع فوق مستوى السهل، يقع بين قمتي جبل السودة اللتين ورد ذكرهما. هبطنا من هنا على الجانب الآخر إلى خليج وادي سقام الذي يقع على هضبـة حجر صـخري بالقرب من من رابيـة تسمى ملطة وينساب عـبر الخليج ماراً بتل ذروة -يقـال إنه يحتوي على نقـوش لم أفحصهـا-، ويتصل من هناك بعدد من التلال الثـانوية أو السيول من عند الجلاميد المجـاورة، وعلى رأسها

---

(١) للمـزيد عن أنساب يام، وأقسـامـهم، وقراهـم ومواطنهم في نجـران، انظر: عاتق البـلادي. **بين مكة وحضـرموت**، ص ١٢٥ ــ ١٢٩؛ غيثان بن جريس. **نجران**، حـ١، ص ٣٨ ــ ٤٠، فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٧٥ ــ ١٨٦ . (ابن جريس).

(٢) المقصود بـ (الجحوش) هنا، أي: (الحمير). (ابن جريس).

شعيب صرّة وشعيب تكتمـه، والأخير يهبط من عند تل على شكل القلعة بالاسم نفسه على قمة الجلمود.

ترجلنا عن ظهور دوابنا عندمـا وصلنا إلى بطن سيل صرّة الذي تنتـشر فوق سطحه الجلامـيد، وسرنا على الأقدام لمواصـلة حملة الاستكشاف، وقـد أعيدت حـيواناتنـا إلى المعسكر. يـنغرز رأس صـرّة، وهو مـثلث ضـيق، داخل قاعـدة الجلمود، وكان ارتفاعـه حوالي (٣٠٠) قدماً فوق مسـتوى السهل عند الأخدود، ويواجهنا الآن ممر شديد الإنحدار، صعب، ضيق، ومـتعرج وعلينا أن نتسلقه إلى جانب الجلمود، وهو ممر صـعب على الحمير، وبرغم ذلك فالحـيوانات تطرقه من وإلى وادي الفرع. قـابلنا في الممر رجـلاً وزوجتـه ومعهـما جمـال لهمـا، وهما هابطين الممر حينما كنا نحن نجاهد في الصعود. تسمى قمة الممر عقبة (ذات على) من عند تل كـهـفي مميـز ليس بالبـعيـد (ويسـمى أيضـاً أم خـرق)، وترتفع إلى (١٠٠٠) قدم فـوق مسـتوى السهل وكـان الصعـود من عند سفح صـرّة حوالي (٧٠٠) قدم. نقف الآن على هضبة حجـر صخري (ذات على) عند قدم أم خرق والتي بدأنا تسلقـها، وترتفع قـمتهـا على علو (٦٠٠) قدم فـوق سطح الهضـبة و(١٦٠٠) قدم فوق مستوى السهل، وكان المنظر من عندها واسعاً وعميقاً في كل الجهات.

استقررنا هـنا، جابر ومسفر، وشخصـي، لأجل القيام بمسح طويل للمناطق المحـيطة. كان أول منظر أشـاهده لمملكة اليـمن والحـدود، وقد تم توضـيح هذا الجانب من الحدود بدقة، بواسطة جابر وفريقه، بوضـعهم ركام من الحجارة، كما شارك في ذلك مسفر، بالتـعاون مع ممثلي اليمن. بدأت أرسم الخرائط، من هنا،

للحدود والتي قد شغلتني مدة ستة أشهر وقد انتهت إلى البعيد على ساحل البحر الأحمر.

كانت كل الهضبة وما على جانبيها من حجر رملي ممزق بواسطة الرياح والأمطار تقود إلى سلسلة من أودية ضحلة وسلاسل مسننة ذات قمم قليلة بارزة. ترتكز الحجارة الرملية فوق الأساس الجرانيتي الذي ينكشف في حالة الجلاميد في وادي نجران وكذلك في الصخور البارزة والتلال على حافة الصحراء من ناحية الشرق. يكشف السطح في المساحات بين الأودية والسلاسل عن حقول واسعة من حجر رملي ناعم مكسر هنا وهناك إلى أخاديد صعبة تهبط بين الجلاميد المهلهلة إلى الأودية الرئيسة. تشتق أم خرق هذا الاسم من شق يجري في قمة الصخرة من جانب إلى آخر، من عند كهف ذي حجم معتبر يبدو وكأنه من المستحيل الوصول إليه. انحجب من خلفنا معظم المنظر لواحة نجران بتعارض شريط من قمم حجرية رملية فنطازية الشكل تجري على امتداد القمة فوق جلمودها الجنوبي، غير أننا نستطيع رؤية أشجار النخيل من عند آل منجّم وغرباً إلى حضنة بالقرب من قصر أبالسعود، والذي لم يكن مرئياً. يمكننا أيضاً من رؤية مزرعة النخيل الصغيرة عند بئر ماجد وكذلك البحيرة كثيفة القصب التي تسمى مجبر سري القريبة من معسكرنا في الأخدود، والذي كان غير واضح لنا. يمكننا أيضاً رؤية مخرج الوادي في فجوة عن الدريب ورؤية المنارة على الجانب البعيد. كان ترتيب القمم الحجرية الرملية على الجلمود الجنوبي من ناحية الشرق إلى الغرب كما يلي: خريم، وحوية، والعبلاء، ومراحة، وملطة، إلخ، عند سفح خليج سقام ويقع جبل السودة على الجانب البعيد للمنخفض، ثم تأتي بعد ذلك السمة البارزة رير وقروة وهما تطلان على ممر نهيقة الذي يهبط إلى دلتا نهوقة، وتأتي إلى ما يلي

هذا القمة العالية لقرن بالحارث[١] وهي تقع في التلال الواقعة إلى الشمال من نجران، وتعتبر من أميز العلامات الأرضية للمقاطعة. نهضت قمم فرد ناحية غرب الجنوب الغربي على الحدود، حاجبة بذلك القرية اليمنية النقعاء التي كانت موقع بعض القتال في حرب ١٩٣٤م.

كان الجزء الأكثر إثارة للاهتمام والذي شاهدناه من موقع المشاهدة المرتفع هذا حيث يقع على التل الكهفي الذي يقع إلى الجنوب هو عبارة عن وتر عريض عميق، كانت أطرافه هي صخور تنصب بعيداً ناحية الشرق وسلسلة عششه المنخفضة إلى الجنوب الغربي التي تحجب عن أنظارنا سهل ومدينة صعدة. يوجد أسفلنا وإلى الأمام مباشرة وادي الفرع، وهو حوض ضحل في الحجر الرملي يمتد من الأطراف الممزقة للهضبة ماراً بموقعنا تجاه القمة لدلتا عظيمة لرمال متدحرجة مظللة بالصخور الجرانيتية الداكنة عند أطرافها وفي الوسط. يتواصل وادي الفرع، من عند الجانب الشمالي لهذه الدلتا، مع منخفض سلع الذي يجري داخل الصحراء بين تلال تنصاب وأبرقين. يوضح شريط من غطاء نباتي متقطع، إلى الجنوب البعيد، الموقع الذي يتحد فيه عدد من الأودية الصغيرة لتكوّن شعيب العليب الذي ينطلق إلى مقبرته في الرمال على الجانب القريب لسلسلة جرانيتية منخفضة تنتهي عند الأرض الرأسية لخشم العليب. كان المنظر حزيناً وعارياً، وقد ازدادت معرفتي به في وقت لاحق، والشيء الوحيد الذي برز من داخله بوضوح

---

(١) بالحارث هؤلاء، أو آل الحارث في بلاد نجران فروع صغيرة من قبائل يام ومذحج، وهم يختلفون عن قبيلة كعب بن الحارث التي سيطرت على بلاد نجران منذ العصور السابقة للإسلام، واستمر ذكرها حتى القرون الأول من عصر الإسلام، وقد أفاضت كتب التراث في ذكر هذه القبيلة وفي بطولاتها التاريخية. للمزيد انظر: الهمداني، **صفه**، ١٨١، ياقوت. **معجم**، جـ٥، ص ٢٦٨ ابن جريس، **نجران**، حـ١، ص ٣١ ــ ٣٧.

تام كان التل الرومانسي المسمى ميحار الذي يقع إلى البعيد، ناحية الجنوب الشرقي على حافة الهضبة وهو مشهور بكنزه الخرافي القديم غير الموجود.

صار وادي الفرع عـارياً تماماً من النبات بعد مـسافة أميال قليلـة من عند قمة دلتاه الرمليـة، غير أن مجراه ظل يجـري جنوباً ماراً بأم خرق على امتـداد مسيل ضحل يسمى عثيثة ومن ثم عبر الحدود ليدخل الوادي أسفل جمع من قرى صغيرة في الموقع الذي ينبعج فـيه من ممره في الهضبـة. في اعتقادي أن هذه القـرى تبعد حوالي خمسة أميال وفي خط مستقيم، أو حوالي ثلاثة أميال داخل الحدود. توجد من بين هذه القرى مع اتجاه الوادي، إلى أسفل، قرية عمير -أيضاً تسمى بئر زيد، وفوقها قليلاً بئر الفاس، ثم شقيم وهي أكـبر كثيراً وذات مزارع عنب واسعة ممتدة عبر مضيق الخنقه الضيق -وبها بعض المنازل-، وفـيما يلي هذه وإلى مساحة كبيرة توجـد مزارع نخـيل ومزارع عنب هي أيضـاً غيـر مرئيـة تسمى حلف فـي الجزء الأوسع من الممر. هكذا كانت واحة الفرع والتـي من إنتاج مزارعها وصلنا العنب الممتاز الذي ورد ذكـره. يدل كل ما رأيته فيها، إنهـا مجتمع مزّقه الفقـر، ليعيش أهله في خيـام ويشرفون على بساتينـهم وهذا كل ما يمكن أن يقال عنها، غـير أن جابر فاضل بين شقيم هذه وهفوف وقارنهما مع منطقة القابل المزدهرة في نجران.

يعلِّم موقع سنام الحـجر الرملي المنظاري المسمى بقَّع مخـرج وادي الفرع من عند ممره والذي تتصل عند أسـفله وعلى فترات المسايل التاليـة: ثربة -وبها ثقوب حسو المائية-، وثوع وعثيثة، وكل هذه تهبط من المرتفعات الحجرية الرملية القائمة حول كل من العـبلاء وأم خرق. يدخل إلى الفرع، من مكان مـا، أسفل أم خرق شعيب عبـيرة، من جانب التلال تجاه نجران، وهو الذي تقـام على امتداده الحدود

المعلمة. كانت صخرة تنصاب هي أقصى بقعة ناحية الشرق وتعتبر حدوداً ثابتة بالاتفاق المتبادل، غير أنها ليست معلمة بأي رمز ملموس أو مشاهد، يتبع الخط من عندها مجرى سلع متجهاً إلى قمة سوداء تسمى ثار تقع على رأس الدلتا والتي وضع عليها كوم من حجارة. تبعد ثار مسافة خمسة أميال من أم خرق ويتبع خط الحدود هذه التلال إلى شمال وادي الفرع، ومن هناك إلى هضبة عنيبان التي تبعد ميلاً ونصف الميل إلى جنوب غرب أم خرق والمعلم بحجارة عند منحنى شعيب عبيرة. بعد ذلك يلتقي الخط مع طريق نجران - الفرع مع وجود علامة على قمة تل ضلع الشري، ومن هناك يجري إلى تل الكوكب حوالي ميلين ونصف الميل من الجنوب الغربي من أم خرق.

يمكن القول بأن هذا الجانب من الحدود لن يقود إطلاقاً إلى نزاع عالمي إذ أنه لا يمكن لأحد أن يطمع في هذه الصخور العارية على جانبيها، والتي تكوّن أرضاً لا يملكها بشر، والتي تقع بين نجران والفرع. يمتد مجاز ضيق باهت لصحراء من الصخور الرملية العارية، فما يلي الفرع، تجاه الجنوب، وتتخلله سلاسل متقاطعة متجهة إلى أودية وعلة، في ضيدة واملح، والتي قيل لي أن بها مناطق سكنية فقيرة حيث يحتال الإنسان في معيشته بعمل دائب ومضن فوق تربة عارية.

هبطنا الجانب الغربي لأم خرق بعد أن شاهدنا كل هذا، وقد لاحظت على سفح أم خرق مجموعة جيدة من رسوم بدائية مخربشة على جدران الصخر الرملي. كان مجموعها عشرة رسومات، بعضها قد أتلفته عوامل الطقس، غير أن بعضها الآخر كان يمثل صورة حية لأناس وهم منشغلون في تسلية لعبة القتال التي تستمتع بقداسة القدم في الجزيرة العربية. كانت إحداها المبارزة بين رجلين متعادلين

في القوة إذ أن لكل منهما سيف ودرقة (ترس) وأظهرت لوحة أخرى رجلاً، مسلحاً بالعدة نفسها، وهو مهاجم عدداً عند لحظة إطلاق سهم نحوه من قوس، بينما أوضحت لوحة ثالثة نبّالاً يقف في مواجهة رجل آخر يمتطي فرساً ملوحاً برمح. كانت بقية الرسوم من نوعية متدنية، ويصعب التعرف على بعض الحيوانات، غير أن رسماً واحداً منها كان لمهاة كما توجد صور بعض الجمال.

رأيت جلموداً ضخماً وعليه نقوش ثمودية تتكون من ٢٢ حرفاً، وذلك عند ممر شعيب ثوع ذي الممر المنحدر وذي الرأس عديد التفرعات والذي يقع إلى ناحية الغرب من أم خرق. عبرنا بعدها ممراً ضيقاً طويلاً يقع بين قمة العبلاء على يميننا وسلسلة الكوكب بحدودها المعلمة بركام من الحجارة على يسارنا. لقد استنزفنا كل ما كان لدينا من مياه عند هذا الموقع. وأصابنا الظمأ بسبب حرارة منتصف النهار، غير أن مسفر كان على علم ببركة صخرية تقع في مسيل كوكب، فذهب إليها وعاد إلينا بمياه منعشة. عثرنا هنا وللمرة الثانية على رسوم لجمال، ورمّاحين ممتطين لخيولهم... إلخ. ثم تحركنا إلى ركام الحجارة الحدودي الخامس على هضبة صخر رملي منخفضة تسمى سبغة آل شنينة. كانت الهضبة المكسرة على يميننا ممزقة بتأثير مجاري أسداد الضيقة، عابرة ملطة للاتحاد مع سقام، ورافدة شعيب رخم.

وصلنا إلى رأس شعيب نهيقة وتل قروة بعد أن تركنا عمود شنينة لزيارة لاحقه أخرى وذلك لأن الوقت غدا متأخراً، ترتفع قاعدة قروة إلى (١٤٠٠) قدم فوق مستوى السهل. كان الوقت متأخراً للأسف، ولم نتمكن من عمل شيء غير التحقق فقط من الحقيقة التي وضحت لنا، وهي أن الجلاميد وأسطح الصخور، في هذا الموقع، كانت كلها وكأنها مكتبة لنقوش حقيقية. لقد قمت بنسخ نصف

الدستة من هذه النقـوش وبعجلة في دفتر مذكراتي على أن أترك البـقية إلى زيارة أخرى. كـان الوقت عند المغرب تقـريباً، حـينما بدأنا النزول عـبر الممـر الشديد الانحدار، والمحـفوف بالخطـر والذي يصل ارتفاعـه إلى (١٠٠٠) قدم أو أكـثر، والذي بدا لي من عند القمة وكـأنه مجرد صخرة، كان كل من جـابر ومسفر من متسلقي الجبـال الممتازين، وبصورة أو أخرى فقد كانا دائمـاً موفقين في إيجاد ممر عملي وهو يتلوّى بنا خلال الهبوط إلى أسفل.

وصلنا أخـيراً إلى مسطبـة المنحدر عند القـاعدة، ومنهـا إلى السهل نفـسه، والذي لا يزال علينا أن نسير فوقه إلى مسافة طويلة قبل أن نصل إلى المعسكر. لم نصل إلى المعسكر إلاَّ بعد الساعة الثامنة مساءً، وكنا لم نتناول طعاماً طيلة النهار، عدا كوب شـاي الصباح مع قطعة خبز جـافة. لقد كانت الحملة مـرهقة، ولكنها مثيرة للاهتمـام، وكان الهبوط إلى أسفل في صخور الحوية مـضنيا إلى حد بعيد. لقد استـمتعت بشرب كـوب الشاي وتناول العنب حينمـا دخلنا المعسكر، دون أن أتطرق لذكر لحم الضأن والأرز التي أعدَّ منها طعام العشاء سريعاً بعد ذلك. قضى جابر وصالح -دون وجود مسفر-، الليلة مـعنا لمشاهدة كسوف القمر، والذي كان مثبطاً للآمال نسبـة لوجود السحب، غير أنه قد تجمع حشد كبـير معي حول جهاز اللاسلكي لاستمـاع الأخبار والاستماع إلى تلاوة القرآن الكـريم الممتازة من إذاعة القاهرة، والتي نالت الإعـجاب كثيراً. احـتوت النقوش القليلة التي نسخـتها من قروة على ١٢٢ حرفاً وقد كان إلى جوارها رسوم للوعل وللمها ولكلب سلوقي، ولجمال، ولرمَّاحين وغير ذلك.

انتهزت أي فـترة فراغ لديَّ خلال هذه الأيام الأربعـة لأفحص وأقيس وأرسم الخرائط وأكتب مـذكراتي حول أطلال الأخدود نفـسها، وقد خصـصت كل اليوم

الذي تلي حملتي إلى أم خـرق لأداء هذا العمل. اعترض أعـمالي هذه زيارة قام بها لنا كل من سلطان بن منيف وسالم، وقد حضـرا عند موعد الغداء كما وصل داعياً نفسه حمد بن شقات، دون أي تشجيع لهذه الدعوة من جانبي، كان من بين الفريق أيضاً صالح، رئيس الشرطة، غير أنه وجه إلينا الدعوة لتناول العشاء معه، ومع رجاله تلك الليلة. لقـد استمتـعت بالإغفاءة الطويلة بعد الظهـر والتي قمت بعدها بزيارة بحيرة مجبر سري المستنقعية بحثاً عن الطيور.

يبدو أن هذه البحيرة وأخرى صغيرة تقع إلى الشمال منها بجوار مزارع نخيل ابن زليق كانتـا بقايا لنظام ري قـديم، ربما يعود تاريخه إلى أوج عظمـة الأخدود حيث إنني وجدت علامات لخندق مائي حول المدينة ولعله كان امتداداً مائياً تجميلاً للمـدينة. كمـا لا بد وأن يكون القنال الرئيس قـد انطلق من عند الجـانب الأيمن لمجرى وادي نجران ناحـية القابل، وقام بمهمـة ري مساحات كبـيرة من السهل هو وروافده، إلى جانب إمداد الأخدود بالميـاه. لا يزال هنالك فرع آخر بعض أجزائه واضحة، وبلا شك فإنه قد عبر من خلال مزارع نخيل القابل، ولا يستبعد أن هذا هو الذي أدى في نهاية الأمر لتكوّن بحـيرة مجبر سعد التي تتـخذ شكلاً بيضاوياً وتبلغ مساحتها حوالي (٥٠٠) إلى (٣٠٠) ياردة مربعة. تكشف امتداداتها الغربية الممتلئة بالقصب والأثل عن علامات بوجود مجرى صرف طويل، ينحدر إليها من عند جهة القابل. يغطـي نبات الحلفاء الأرض المرتفعة إلى شمال وشـرق البحيرة، ويربطها مع براري حـسين، بينما على الجـانب الجنوبي فإن السهل المنقط بأشـجار الطلع ينحدر إلى شريط عريض لنبات العاقول (شوك الجمل) الذي يحيط بالقصب من هذه الناحية. كان نمو القصب والأثل كثيفاً على حافات البحيرة والمجرى الذي يقود إليها، وكانت نامية ومـرتفعة مما يكفي لإخفاء إنسان يقف في وسطها. تؤمن

هذه النباتات الطويلة غطاءً ممتازاً طيور الماء والضفادع الكثيرة كما كان كذلك الذباب الصغير والبعوض، والتي كانت طيور الخطاف والعصافير، وحتى الخفاش تتغذى عليها حتى أفزعتها كلها جميعاً بصوت طلق بندقيتي. كانت طريدتي أوزة براهيمية، لابدة بين القصب، والتي لم أتمكن من إصابتها هذه المرة، غير أن فرج كان قد أحضر لي واحدة قبل يوم أو يومين قبل أن أوفق في الحصول على واحدة بنفسي، فيما بعد، في بحيرة ابن زليق. شاهدت في اليوم التالي ثعلبين بجوار بركة غليل، ليست بالبعيدة، بجوار مزارع نخيل الغريري، ربما كانا يطاردان خلسة أحد طيور الماء.

سرت عبر السهل صباح اليوم التالي لزيارة سلسلة الجبل الأحمر. وتفحصت في طريقي المدفنة الكبيرة -لعلها من العصور الوسطى- والتي تسمى القبر الأبيض. رأيت ناحية طرفها الشرقي قبة كبيرة ذات حجم غير طبيعي، مبنية من بلوكات حجارة خشنة يتراوح طول الحجر من (١٢) إلى (١٨) بوصة. لم يكن هنالك شيء غير طبيعي حول القبر غير حجمه، كان اتجاهه من شمال شرق إلى جنوب غرب، بمعنى آخر فهو مواجه للقبلة. ورأيت بجواره شاهداً وعليه نقوش عربية عادية. أثار الحجم الكبير للمقبرة وموقعها البعيد من مواطن السكن في الوقت الحالي، أسئلة محيرة لا يوجد لها حل الآن. كما وجدت نقوشاً أكثر عند قاعدة الجبل الأحمر، الذي هو من جرانيت بلون أحمر وكما وجدت ألواحاً لكتابة عليها رسوم بدائية جداً لأشكال بشرية وحيوانات، والتي تدل على تاريخ إسلامي مبكر لهذه المقبرة. كانت صخور هذه السلسلة ممتلئة بالكهوف والفجوات، وقد عسكر حمد ابن شقات في السهل قريباً من هذه الكهوف ليستقبل حمايتها أثناء حرارة النهار.

كدت أن أصل إلى نهاية استكشافاتي للأطلال، وحان الوقت أن أفكر في العودة سريعاً إلى المركز الرئيس، لأعد نفسي لإنطلاقة المرحلة التالية من تجولاتي. كنت متطلعاً لزيارة قروة مرة أخرى واستكشافها بدقة أكثر للمزيد من النقوش، وقد خصصت آخر يوم لي في هذا المعسكر لتنفيذ ذلك. أرسلت محمد، سائق عربتي، كسباً للوقت، لإحضار سيارة النقل (الفورد)، والتي ركبناها أنا وجابر وصالح وأحد رجال الشرطة، متوجهين عبر السهل عند الساعة الثامنة صباحاً إلى حيث توجد صخرة كبيرة منعزلة في موقع يلامس فيه أخدود نهيقة مجرى نجران، وقد أطلقت على هذه الصخرة، التي لم يكن لها اسم «صخرة الأمير» لأنها كانت المصيف المفضل للنشمي، الذي كان يأتي إلى هنا مع تابعيه لأداء صلاة المغرب ليستمتع بالمساء البارد مع تناول القهوة وفاكهة العنب.

يتسع نهيقة هنا في دلتا تتحد مع تلك لنهوقة، ويفصلهما عن بعضهما صخور متكونة على جانبه الأيسر، وصخور تكوِّن الجانب الأيمن للوادي الأكبر، وتضم الصخرتان هضبة معتبرة عند قمتيهما ثم يهبطان عند موقع اتصالهما إلى نتوء صخري طويل وحاد تقود إلى الدلتا. استطعنا قيادة السيارة بعضاً من الطريق إلى أعلى نهيقة، حينما كان المجرى ينحدر بلطف ولم يكن بالصعب، غير أننا تركنا السيارة في نهاية الأمر في ظل بعض الأشجار والشجيرات إلى حين عودتنا. كان ارتفاع هذا الموقع حوالي (٢٠٠) قدم فوق مستوى السهل، ومن هناك وإلى أعلى كنا نزحف على امتداد السفح الشديد الانحدار على جانب الوادي الأيسر الذي انتثرت فوقه صخور وجلاميد تساقطت من القمة. يضيق الممر بسرعة كلما ارتفع إلى أعلى تجاه مضيق قروة الذي كنا نتجه نحوه. كانت الساعة العاشرة والنصف عندما وصلنا قاعدة القمة الحجرية الرملية التي تغطي قاعدة جرانيتية

للجلمود. لقد تسلقنا إلى حوالي (١١٠٠) قدم منذ أن غادرنا السيارة، وكنا على ارتفاع (٥٩٠٠) قدم فوق مستوى البحر. تستقر الصخور الرملية أفقياً بالفعل على وسادة سمكها ثلاثة أقدام من مختلط أبيض شبيه بالأسمنت، تفصلها من الجزء الأعلى الغير مستو لصخور بركانية تحتية. أصبح الممشى الذي كنا قد تبعناه قبل يوم أو يومين للوصول إلى النقوش على ارتفاع (٤٠) قدماً فوق ملامسة الحجر الرملي، وهذا يمكن اعتباره بأنه الكثافة في السُّمك في المتوسط لقلنسوة الحجر الرملي، علماً بأن القمم البارزة مثل قروة، ورير، إلخ ارتفعت أكثر من ذلك بحوالي (٢٠٠) أو (٣٠٠) قدم. كانت هنالك مجموعة حجارة عند طرف الهضبة تقع بين سفحي ممري نهيقة وحوية ثم يتحدان لتكوين المجرى العريض الذي تركنا السيارة فيه.

بدأت العمل فوراً على الصخرة الكبيرة التي لاحظتها في المرة السابقة، والتي كانت جوانبها الملساء، المحمية من تأثيرات الطقس تحمل ثروة من النقوش. كان هنالك نقش آخر قريباً من هنا يرافقه رسماً جميلاً لبقرة، غير أن نسخه كان صعباً بسبب أن اللوحة التي كان عليها تتدلَّى من الصخرة الشديدة الانحدار إلاَّ أنني قد ثابرت عليها وعلى غيرها. كنت أعجب في بعض الأحيان كيف استطاع الفنان الوصول إلى مواقع مستحيلة كهذه حتى تمكنت من أن أنقل إلى مفكرتي نسخة من كل ما يستحق النسخ مما هو على الهضبة. تسلقنا بعد ذلك إلى القمم المجاورة: خريم ورير، اللتين تكونان أجزاء لسلسلة أخرى عالية تطل على وادي نجران وقد نحتتها الرياح إلى كهوف وفجوات مقوسة والتي قد تكررت زيارات الأقدمين لها أكثر مما فعل سلفهم. لم يكن هنالك مكان لقدم خال من الرسم أو الكتابة، وقد كان الوقت عند الغروب تقريباً عندما انتهيت من نسخها كلها. كانت قمة رير على

ارتفاع (٦٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، أو قل (١٦٠٠) قدم أعلى من الجزء الوسط لوادي نجران أي حول قصر أبي السعود.

وصلنا إلى مستوى تماس الحجر الرملي قليلاً قبل غروب الشمس واسترحنا قليلاً لتناول بعض الشاي قبل مواصلة هبوط الوادي عند الساعة السابعة والنصف، ونحمد الله على وجود السيارة التي خففت كثيراً من الأعباء. وترصعت السماء في هذه الليلة الأخيرة لنا في الأخدود بالنجوم ربما على سبيل الاتفاق معنا. كانت ليلة جميلة بحق وهي الأولى منذ وصولنا إلى الأخدود. غير أن البعوض كان سيئاً إلى حد بعيد وقد عمدت إلى النوم المبكر استعداداً لما نحتاج إليه من نشاط، إلاّ أنني وجدت أنه من الصعب عليّ أن أنام. كان الجميع على عجلة من أمرهم لمغادرة الأخدود، غير أن عملية ترتيبي لعفشي قد اعترضتها زيارات الناس، خاصة الشحاذين بحثاً عن الصدقات والطعام، وبعض البائعين لأشياء تافهة لا قيمة لها. كان أول من وقف أمام خيمتي فتاة تقود شحاذاً أعمى، وقد انتهزت فرصة تصويرها مقابل عملة معدنية قليلة كانت من نصيبهما.

جاء بعدها رجل مسن ولكنه صحيح البدن رأى أنه من الأفضل له أن يجرب حظه معي والذي لم يكن أكبر مما توقع. كان زائري الثالث ليس شحاذاً ولكنه بائع، رجل زنجي محرر وقد أحضر معه قطعة من مرمر من عند مبنى في الحقل الذي يعمل فيه. لم يكن في هذا الوقت رقيق بهذا المعنى في نجران، غير أنه يوجد عدد معتبر من الرقيق السابق الذين أعتقوا، ويعملون في المزارع. يرى البدو الذين يملكون معظم المزارع أنه مما يحط من مقامهم أن يقوموا بحراثة الأرض،

بينما يكون معظم القائمين بالإشراف على المتاجـر في نجران هم مهاجرون مؤقتون يتبعون الزيود، من اليمن، معظمهم من صعدة(١).

حان الوقت أخيراً أن نتحرك، وذهبت أنا وفـرج سيراً على الأقدام عبر طريق مختصر يخترق بعض المزارع التي كنت أرغب في رؤيتها، بينما غادر بقية الفريق، بالسيـارات، وبصحبـة العفش سالكين الطريق الذي وصلـوا به من قبل إلى هنا. ضربنا السير فوق أرض البلاد مارين ببحيرة سري إلى مزارع نخيل الغريري بجوار بركة مجبر بن زليـق، والتي فيها فاجأت بطلقاتي سبعـة أوزات براهمانية وأصبت منها واحدة. كما يوجد على الجانب البعيد من البحيرة مزرعة نخيل صغيرة تسمى بئر عتـيق، غير أننا رأينا أن نختـبر كرم أهل الغريرى، حين جلسنـا مع حشد من القرويين ضعـاف العقول لا يفهمـون شيئاً. ولمحت من بينهم امـرأة عجوزاً تجلس مبـاشرة من وراء أحـد صبيـان القرية، وتخـتلس النظر بدهشة من فـوق كتـفه، ناحيتي.

يبدو الناس هنا، كما في كل مكان آخـر، فقراء ترتسم على وجوههم الكآبة كان كل ما استطاعوا أن يقدموه لنا من طعام هو التمر وفي مرحلة التلون غير أنهم تمكنوا من إنتـاج نوع رديء من البن ونـوع أحسن إلـى حد مـا، من قـشـر البن المسحوق. تـوقفنا لحظة عند نعمان، بعـد مواصلتنا السير، وهو المقـر المدمر لموقع قديم به بعض قطع البناء ملقـاة هنا وهناك وعليها نقـوش حميرية قمت بنـسـخها قبـل الانتقال إلى موقع بئر كعب الجذابة وتتـبع هذه البئر أهل الكبيبة -فيما أظن-

(١) من يزور نجران أو جـازان في يومنا الحالي فإنه يجـد إعداد اليمنيـة (الزيود) كثيـرة جداً، بل يلاحظ أن بعضهم يعملون في مهن عديدة، إلى جانب صنف آخر يقـومون بمهنة التسول في الشوارع والمساجد وما شابهها. (ابن جريس).

وقد سبق أن ذكرها لي يوسف هالفي، حيث يُربط في الصورة ثوران وجمل لسحب حبال الدلو من وإلى المنحدر المعروف وذلك لري محاصيل حبوب الذرة التي كانت في هذا الحقل الصغير.

وصلنا إلى طرف بطن الوادي، بعد فترة وجيزة، بالقرب من مزرعة نخيل جديدات بن حمران، وعبرناها إلى الجانب الآخر لنخوض في رمل سميك. كان عرض المجرى هنا ٨٨٤ خطوة، أو ٧٤٠ ياردة، غير أن البطن كان جافاً تماماً على الرغم من السيول الأخيرة.

توقفنا قليلاً، على الجانب الآخر، عند قصر بئر المطر والتي تقع إلى ما ورائها مزارع النخيل الغزيرة لقصور دحضة - التابعة للصقور-، تمتد إلى الخلف إلى حافة الحزيمية الذي وجدنا في ظل جداره شخصين يرتاحان. كانت ثيابهم البسيطة متسخة إلى حد لا يوصف، وقد قرأت على قماش ذراع أحدهما العلامة التجارية للصانع (الملاءة الممتازة) تكلف هذه القطع المطبوعة من القماش أكثر مما تكلفه القطع غير المطبوعة وهو أمر غريب، وذلك للاعتقاد الشائع أنه لا مجال للغش حول نوعيتها! مررنا برجل وفتاة في إحدى الحدائق وهما ينسجان سجادة. كانت الفتاة ذات تقاطيع وسيمة بشكل ملحوظ ويبدوان كأنما هما من قبيلة هتيم الشبه غجرية، كما تعرف عنهم في الأجزاء الشمالية من الجزيرة العربية بأنهم ذوو مكانة متدنية في المعيار الاجتماعي. رأيت مساحة معتبرة من أشجار النخيل في الجزء الغربي من دحضة محترقة إلى حد بعيد، غير أنها ما زالت حية ومزدهرة. كانت هذه واحدة من المساحات التي أشعلت فيها القوات اليمنية النار أثناء الاحتلال كعقاب بسبب عدم الولاء المزعوم من جانب ملاكها بني شميخ. كما

شاهدت شجرة عنب كبيرة متسلقة شجرة تين ولكنها كانت جافة. وصلنا بعد ذلك إلى قصور بني سلمان وإلى مزارعـهم، وسرنا فيما يليها عبر سـاحة واسعة تحيط بالبناء الحكومي لقصر أبي السعود. كنا وكأنما قد عدنا إلى الوطن مرة أخرى.

سأخصص مـا تبقى من هذا الفصل لسرد مـؤقت لتاريخ نجران[١] وبخلاصة موجزه بقـدر المستطاع لنتائج استكشـافاتي لأطلال الأخدود، وهو عمل اسـتغرق أسبوعاً مرهقاً. توضح خريطة الوادي شرحـاً مرافقاً للتسجيل. ورد اسم نجران في التاريخ، بقدر مـا استطعت من جهد للوصول لهـذا، في بعض النقوش على سد مأرب العظيم، والتي قام بتسجيلها الرحالة ومصمم الخرائط المشهور (إدوارد قلاسر Edward Glaser) -وهو يهـودي نمسـاوي- خلال رحـلاته في اليـمن خـلال الثمـانينيات من القـرن الماضي. يرجع تاريخ النقوش إلى عـصر ازدهار السبـئيين وسيطرتهم على جنوب الجـزيرة العربية. كانت فتـرة نشاط زراعي وحربي عظيم، نتج عنه ظهور دولة سـبأ، كقوة رئيـسة في تلك الجزيرة العـربية. تطور الموقف، خلال أربعة قرون بدأت عام ١١٠٠ ق.م[٢]، وبكفاءة متزايدة، في مملكة معين، التي امتـدت مستـعمراتها شـمالاً عبـر طريق التوابل لتشـمل العلا وتيمـاء. لقد

(١) لقد نشرت موضوعاً كاملاً وبتفاصيل أكـثر عن تاريخ جنوب الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام، منذ كتابة هذا الفصل، في كتاب خلفـية الإسلام (الإسكندرية. وايتهد مورس ١٩٤٧م) وإلى ذلك أحيل القارئ؛ ذلك لأنني تركت هذا الفصل على حالته الأصلية التي حرر بها قبل عام ١٩٤٤م. (المؤلف).

(٢) هناك اختـلاف كبيـر بين مؤرخي الجـزيرة العربية القـدماء حـول التاريخ الزمني لممالـك جنوب الجزيرة العربية؛ لذلك لا يمكن الاعتماد على التواريخ التي دونهـا فيلبي للتطورات السياسية في جنوب الجزيرة. ولمزيد من التفاصيل عن تاريخ نجران قبل الإسـلام، ودورها في أحداث شبه الجزيرة العربية آنذاك، انظر: صالح أحمد العلي. **محاضرات في تاريخ العرب** (بغداد: دار الكتب للطباعة والنشر بجامعة الموصل، د.ت) جـ١، ص١٩ وما بعدها، محمد بيومي مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص٢١٣ وما بعدها، جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بغداد: مكتبة النهضة، ١٩٨٠م) جـ٢، ص ٢٨٣، ٤٣٨، ٥٤٨، ٦٠٢. (ابن جريس).

اقترحت في مكان آخر، أن مملكة معين هذه كانت المهد الذي تربى فيه الفينيقيون إلى أن أقاموا الإمبراطورية العظيمة التي سيطرت على الخليج العربي وساحل البحر الأبيض المتوسط. بناءً على هذا الافتراض فإن المعينيين كانوا فينيقيين. مهما كان الأمر، فإنه يبدو من المعلومات المتوافرة في النقوش أنه حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد كان أحد ملوك معين واسمه صديق آيل بسط نفوذه على منطقة حضرموت المنتجة للتوابل ثم تركها كمملكة قائمة بذاتها لابنه الأصغر شهر عيلان، بينما حكم الابن الأكبر آيل يفع يثع دولة معين. كان ابن هذا الأخير ويسمى معدكرب، الذي خلف خاله شهر عيلان، ملكاً على حضرموت وأسس لسلالة حاكمة قصيرة العمر.

لا نعرف إن كان لحضرموت ملوك منفصلون أو أنها أعيد دمجها في مملكة معين غير أن تغيرات مهمة كانت قد حدثت حوالي عام (٩٠٠) قبل الميلاد في التركيب السياسي للجزيرة العربية. عاشت مملكة قتبان[١]، والتي تغطي الزاوية الجنوبية الغربية للجزيرة العربية، دولة مستقلة منذ عهد أقدم ملوك معين، تحت تتابع لحكام دينيين، يطلقون على أنفسهم اسم مكارب. لقد مر علينا ما لا يقل عن (١٢) اسماً مثل مكارب من دراسة النقوش، غير أنه يهمنا هنا شهريجيل يهرجب الذي أطلق على نفسه لقب مالك قتبان ومعين عام (٨٥٠) قبل الميلاد ربما للاحتفال بانتصاره على الإقليم الثاني خلال فترة حكم ملكها الذي كان اسمه وقح آيل. بدأنا في الوقت نفسه نسمع أن سبأ وعاصمتها مأرب، دولة مستقلة، تحت

(١) قامت باستكشافها حملة آثارية أمريكية عام (١٩٤٩) و (١٩٥٠م)، وقد شرعت بالتنقيب في عدة مجموعات من الأطلال، لم تنشر التفاصيل الكاملة لهذه الحفريات بعد. (المؤلف).

تعاقب المكاربين، بينما في الوقت نفسه تقريباً، يفيد ظهور حكم ملوك حضرموت بأن البلاد قد نجحت في إسقاط عبودية المعينيين المتهالكة. حافظت حضرموت، على كل حال، على خط ملوكها سليماً لمدة قرنين بعد هزيمة وفتح آيل على يد قتبان وترك لنا أن نستدل أن سيادة الأخير على معين، بعد فترة حكم فعالة أما أن يكون قد سقط نهائياً أو أصبح حكماً إسمياً. يبدو أن الاحتمال الكبير أنه خلال فترة انحطاطها في القرن الثامن قبل الميلاد، وما بعده، فقدت معين سيطرتها على أقاليم شمال الجزيرة العربية التي استولت عليها الإمبراطورية الآشورية القوية.

ندين بالفضل للنقوش الآشورية التي دونها الملك سرجون (٧٢٢ - ٧٠٥ قبل الميلاد) ونقوش الملك سنحريب (٧٠٥ إلى ٦٨١ قبل الميلاد) التي ساعدتنا على تحديد تاريخ نهضة سبأ إلى موقع الصدارة في جنوب الجزيرة العربية وانقراض مملكة المعينيين، وذلك حوالي عام (٦٣٠) قبل الميلاد. تم وضع حجر أساس لنهضة السبأيين إلى وقت يسبق هذا التاريخ بقليل (لنقل ٧٢٠ قبل الميلاد)، وذلك على يد آخر مكارب سبأ واسمه سمة على ينف، الذي شيد سد رحب العظيم عبر وادي أذنه بالقرب من مأرب، لأجل ري تربة الدلتا الخصبة. ولم يقم ابنه يثع أمر بين (حوالي ٧١٥ إلى ٦٩٠ قبل الميلاد) فقط بترميم السد بعد الضرر الذي ألحقته به السيول، بل أكمل نظام الري المشهور في مأرب، وذلك ببناء سد آخر أكبر وأعظم يسمى حبض. ثم توجه اهتمامه بعد هذه الأعمال خلال السلم، إلى الغزو الحربي، وكانت حملاته الناجحة مستمرة وقد دعمها ابنه (أو حفيده) كرب آيل وتر. ثم امتدت هذه الحملات العسكرية الواسعة لمدة تقارب (٣٠) عاماً من عام

(٧١٠) إلى (٦٨٠) قبل الميلاد. تحصلنا، في هذا المضمار، لأول معرفة لنا بتاريخ نجران[١].

إن تحلل معين كإمبراطورية قد زامله تفكك أقاليمها إلى مقاطعات مستقلة، بعضها لا تزيد حجمه عن مدينة، لكل منها حاكم يسمى نفسه ملكاً مراعاة للأوضاع التي كانت سائدة ذلك الوقت. يبدو أن حضرموت وقتبان كانتا مملكتين حقيقيتين في ذلك الوقت وهما صديقتان لسبأ بل كانا في اتحاد معها. كان سمه وتر معاصراً ليثع أمربين في قتبان، وقد جاء بعده ابنه (؟) ورو آيل[٢]، حكم كلاهما الفترة من ٧١٥ إلى ٦٨٠ قبل الميلاد. تتابع ملوك حضرموت -ربما ما زالوا معتمدين اسمياً على معين وعليه فهم يتعاونون مع منافسهم- كانوا: سمه - يفع، وجاء بعده بالترتيب أبناه يدع أل بين وملك كرب والذي جاء بعده ابنه آيل سمع ذبيان[٣].

في تضاد مع هذه العناصر القوية الأساس هنالك زيادات لملوك ثانويين وسلالات ثانوية تنتشر فوق ملكية معين. كان لكمنه التي ربط هالفي بينها وبين أطلال بيضة على نهر الخريد إلى الغرب من معين نفسها، ذات ثلاث سلالات

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن تاريخ ممالك اليمن قبل الإسلام، وكيفية مد نفوذها على مناطق نجران وما جاورها من الشمال، انظر: محمد بيومي مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص٢١٣ ـ ٣٩١؛ السيد عبدالعزيز سالم. **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام** (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة) (د.ت) ص ٨٥ ـ ١٥٠ (ابن جريس).

(٢) لمزيد من الإيضاح عن ملوك اليمن في عهود دول معين، وحضرموت، وسبأ، وقتبان، انظر: محمد بيومي مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص ٢١٣ ـ ٤١٦ . (ابن جريس).

(٣) آيل: اسم غير صحيح، والصحيح هو «كرب آيل بين». انظر: محمد مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص ٢٧٨، ٢٨٢ . (ابن جريس).

لثلاثة ملوك ممثلة وجوداً مستقـلاً، ربما امتد (٤٠) عاماً أو ما يقارب ذلك. وردت إشارة عن نشن، ويمكن مقـارنتها مع الخربة السوداء، غير أن هـذا المكان كما يبدو من النقوش أنه كان يسـمى كتل. هنالك حريم التي يبدو أنهـا في منطقة الجوف، والتي يمكن تطابقـها مع مدينة الحـرم الحديثة، ولهـا أربعة أو خمـسة ملوك يمثلون ثلاثة أجيال ولقد ورد ذكر العديد من الأمـاكن والمقاطعات وورد أنها هزمت خلال هذه الحملات دون أية إشارة محددة لاسمـاء حكامها. ليس من الضروري أن نعيد قائمة أسمائهم هنا، غير أنه توجد ثلاثـة أسماء قبلية إلى جانب اسم مدينة واحدة يعتقـد بحق أنها تشير إلى أرض نجران والتـي يبدو أنها ذكرت بالتحـديد في فقرة أخرى من نقوش مأرب. الشخص الوحيد الذي ورد اسـمه في مسار العلاقة لهذه المحافظة الشمالية للمملكة المعينية هو عضر آيل ملك مهأمر[١] مقاطعة أو قبيلة في منطقة نجران تشتمل أيضاً على قبائل (أو مقاطعات) أمير وعوهب.

يقرن اسم يثع أمر بين (في مأرب) في النقوش المبكرة، باسم مهأمر وأمير مع معين نفـسها، بكونهـم ضحايا الحـملة العظمى التي نتج عنها مـقتل (٤٥٠٠٠) رجل، وأسر (٦٣٠٠٠) آخرين إلى جانب الاستيلاء على (٣١٠٠٠) رأس ماشية متضـمنة جمال وثيران وحمـير وأغنام. يشار إلى مدن مقـاطعة مهأمر، مـتضمنة رقمات، العاصـمة فيما يبدو ومـقاطعة نجران بأنها أصبـحت خراب وقد حرقت. يبـدو أن هذه الأرض، مع ذلك، قد اسـتردت بعض ازدهارها القـديم تحت حكم كرب آيل وتر الذي اعتلى كـرسي الحكم في سبأ حوالي عـام (٦٩٠) قبل الميلاد، ذلك لأن نقشاً لهذا الملك في سروه عند رأس وادي مـأرب، يشير إلى حملة ثانية

---

(١) (مهأمر) أيضاً (مه أمر) أو (مه أمرم) أو (مهأمرم). انظر: محمد مهران. **دراسات**، ص٢٨٤ .

نتج عنها مقتل (٥٠٠٠) رجل من رجال مهأمر، ورجال أمير ورجال عوهب، وأخذ (١٢٠٠٠) أسير والاستيلاء على (٢٠٠,٠٠٠) رأس ماشية. اختفت منطقة نجران بعد هذه الحملة من صفحات التاريخ إلى فترة من الزمن وليس لدينا ما يمكن عمله سوى التخمين بأن العاصمة رقمات(١)، عاصمة المقاطعة في القرن الثامن قبل الميلاد، ربما تكون هي تلك المدينة في الأزمان اللاحقة (الإسلامية) التي يطلق عليها اسم الأخدود، لا توجد صعوبة في مساندة الاعتقاد بأن البناء الضخم لقلعتها العظيمة يعود تاريخه إلى ذروة سيادة المعينيين.

ورد اسم نجران مرة ثانية في مسار الحديث عن الحملة المشهورة للقائد الروماني إليوس جاليوس Aelius Gallus عام (٢٤) قبل الميلاد، كما انتهت المسيرة لقتبان، منذ وقت يعود إلى قرن إلى الوراء، على يدي ملك سبأ آيل الشرح يحضب وهو أول من أعلن نفسه، عام (١١٥) قبل الميلاد ملكاً على سبأ وذو ريدان. أصبحت دولة سبأ، بعد ضم قتبان إليها، ولمدة طويلة العامل السائد في سياسة جنوب الجزيرة العربية إلى جانب حضرموت، الدولة الوحيدة الأخرى المستقلة في هذه المنطقة. ربما كان الملك على حضرموت أثناء الحملة الرومانية هو سلفان (أو علهان(٢)) والد آيل العزيلط، الذي اعتلى العرش عام ٢٩ قبل

---

(١) رقمات:ـ تنطق أيضاً (رقمه) و(رجمة) و (رجمات). ورقمات هذه تعد عاصمة نجران القديمة التي وردت في أحد النقوش الجنوبية، وربما كانت هي ما يعرف خطأ بالأخدود حالياً. ويذكر جواد علي أن رجمات (رجمة) كانت عاصمة لمملكة صغيرة هي مملكة مهأمر (مهأمرم). وذكرت النقوش المعينية أن رجمات (رجمة) كانت تقع على طريق القوافل التي تربط مملكة معين بمصر، انظر: عبدالرحمن الأنصاري، وصالح مريح. **نجران منطلق القوافل** (الرياض: دار القوافل للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٢م) ص ١٢ ـ ١٣ . (ابن جريس).

(٢) علهان:ـ يسمى (علهان بن نهفان) (ابن جريس).

الميــلاد -يطابق اسم الحاكم الذي كان اسمه إليزوس في كتاب بربليس-(١) غير أن الشــخص الوحـيد الذي ذكـره ســترابــو في هذا المضمــار هو الأســاورس رئيس الرحمنيين ولا يتوافر لدينا أي إثبات نتـعرف عن طريقه على ملك سبأ وذو ريدان -سمي سابوس بواسطة سترابو-، الذي كان يحكم ذلك الوقت.

نعلم بما لا يدع مجالاً للشك، مـهما كان الأمر، أن إليوس جـاليوس قد زار نجـران، أو نجرانه كـما ورد في ســجل ســترابو، وهو في طريقه إلى الجــوف وأن معـركة اسكه أو نسكه (نشق) كانت علـى نهر الخريد-. وأنه اســتولى على نسكه وفقد رجلين فقط من رجاله مقابل (١٠,٠٠٠) قتيل في صفوف الأعداء -نلاحظ لمسة حديثة حول هذه الأرقـام- وقد استولى على اثرله -تقع إلى الجنوب ولكن لا يمكن التعرف عليها في وقتنا هذا- دون مقاومة. وقام بحصار مرسيابه، والتي جاء وصفها بأنها مدينة الرحمنيين تحت رئاسة الأسورس واستمر الحصار لمدة ستة أيام. ثم اضطر إلى رفع الحصــار بسبب ندرة المياه، وانسحب إلى نجـرانه، التي وصلها خلال تسعة أيام. ثم واصل هذا الانســحاب إلى أن وصل إلى مكان يسمى «الآبار السبعة» (بئر سبــعة) خلال (١١) يوماً. ورد ذكر شلَّه وملوثس (Malothas) بأنها قرى يقابلهـا المرء في المسيرة إلى الشمــال نحو أكرا (Egra) (مداين صالح) داخل أراضي عـبادة (Obodas)، وهو حـاكم نبطي عاصـر (Aretas) الحارث. يمكن الوصول إلى أكرا خلال (٤٠) يوماً من عند الآبار ســبعة، التي تتطابق مع خميس

---

(١) بربليس: تعني رحلة أو دورة. (كتاب بربليس) الذي ذكره فـيلبي، هو عبارة عن كتاب بعنوان: ــ **دليل البحر الإرثري**، لتاجر يوناني مجهول كـان يعيش في مصر، ولعله من أبناء الإسكندرية، وقد تم وضع هذا الكتاب بين (٥٠ , ٨٠م)، مع العلم أن هناك من المؤرخين من يجـعل تاريخ التأليف في القرن الأول قبل الميلاد. للمزيد انظر: نقولا زيادة. «**دليل البحر الإرثري وتجارة الجزيرة العربية (الكتاب الثاني)**. **الجزيرة العربيـة قبل الإسلام**. (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ص ٢٥٩ ــ ٢٧٧ . (ابن جريس).

مشيط من حيث المبدأ. وعلى هذا الأساس فقد تكوّن شلة (قلعة) هي الواحة التي تتمركز في قلعة بيشة، وربما كانت ملوثس هي تربة أو الخرمة[١]. تقع الصحراء فيما يلي هذه الواحات حتى المدينة -كانت تعرف باسم يثرب- ومن الغريب ألا يذكر سترابو هذا المركز التجاري الهام. يمكننا فقط أن نخمن أنها قد تم تحاشيها عن قصد بواسطة الدليل الغادر واسمه سيلوس والذي كان غرضه الأساسي هو تحطيم قوة الحملة الرومانية. وقد قطع رأس سيلوس في نهاية الأمر في روما، غير أن هدفه كان قد تحقق. تمكن جزء صغير من جيش الاحتلال الروماني، الذي فقد سبعة رجال فقط في المعركة ضد العرب من الوصول إلى بر السلامة في مصر. وهجرت روما أي فكرة لها لتمديد سلطتها فوق جزيرة العرب.

إذا كانت مرسيابه، خطأ هجائي لـ مريابه (Mariaba) (مأرب) وقع فيه سترابو، أو الناسخ - وهذا هو المرجح-، فيمكننا أن نتعرف على الأسورس، ورئيسها الشرح يحمل والذي قد يكون أحد ملوك سبأ وذو ريدان في وقت ما بين عام (١١٥) قبل الميلاد و (٣٠٠) بعد الميلاد. غير أننا ما نزال بعيدين جداً من أن نستطيع التعرف على الرحمنيين إلا أنها قد تتطابق مع أية قبيلة أو مجتمع في الماضي أو الحاضر إلاّ إذا تطابقت مع ردمان أو ريمان وكلاهما معروف لنا من النقوش. يمكننا، على أية حال، الافتراض من حيث المبدأ، أنه عندما زار الجيش الروماني نجران، كانت تلك المقاطعة هي أقصى منطقة في شمال مملكة سبأ وذو ريدان. وذكر مؤلف البربليس، بعد قرن من الزمان، كما ورد من قبل، أن شخصاً بعينه يسمى اليزوس (Eleazos) (آيل العز) كان ملكاً على بلاد البخور

(١) هذه وجهة نظر فيلبي، ولكنها لا زالت آراء تحتاج إلى أدلة وبراهين، ودون ذلك لا يمكن الاعتماد عليها كحقائق مسلم بها. (ابن جريس).

(حضرموت) وأن عاصمته كانت سباته (Sabbatha) (شبوة). لا نعلم إذا كان هذا الملك هو ابن سلفان[1]، كما اقترح أعلاه، والذي ربما كان ملكاً على جاليوس في الوقت الذي كانت فيه حملة إليوس جاليوس، ومهما كان الأمر، فهذا لا يهم كثيراً. ربما كان آيل العز هذا هو حفيد آيل العزيلط نفسه، وفي هذه الحالة فإن فترة حكمه لا بد وأن تكون قد امتدت من عام ٢٥ إلى ٦٥ ميلادية. ويكون بذلك معاصراً لابن الحارث، ملك النبطيين أثناء الحملات العربية التي قام بها إليوس جاليوس، وهم بالتحديد وبالاسم: مالك (Malichus Malcus)، الذي حكم من عام (٤٠) بعد الميلاد إلى (٧٠) بعد الميلاد، وكان أخا زوج هيرود انتباس، حاكم الجزء الرابع من الجليل وزوج أم سالوم. وشخص آخر معاصر لهذين الملكين ورد ذكره في بربليس باسم شرابيل (Charibacal)، يبدو، على رأي جلاسر أنه يتطابق مع كرب يل وتر يهضم، ملك سبأ وذو ريدان، الذي حكم في الفترة (٤٠) بعد الميلاد إلى (٧٠) بعد الميلاد، وربما - علما بأن العلاقة لا يمكن إثباتها بالرجوع إلى النقوش المتوافرة- كان الحفيد الشرح يحمل، الذي ربما كان ملكاً أثناء فترة الحملة الرومانية، وربما كان حفيد حفيد الحفيد للشرح يحضب (الفترة ١١٥ - ٩٠ قبل الميلاد) وهو أول ملوك سبأ وذو ريدان. على أي حال، فإن كرب آيل وتر يهنم كان بكل الاحتمالات هو سيد نجران المعترف به خلال منتصف القرن الأول الميلادي.

دخلت نجران مرة أخرى إلى النسيان كتابع تحت حكم سيطرة المملكة الجنوبية الكبرى. ظلت نجران بدون شك، كما كانت من أزمان بعيدة، مركزاً للديانة الوثنية السائدة وكان لها كعبتها وكان لها موسم حجها السنوي، مثل صنعاء

---

(١) سلفان:ـــ يقال إن اسمه أيضاً (علهان بن نهفان). (ابن جريس).

ومكة. كانت هنالك أديان أخرى، في هذه الاثناء، مثل المسيحيه واليهودية. تؤثر هذه الأديان في الأجزاء الشمالية للجزيرة العربية، حيث الإمبراطوريات المتنافسة. البيزنطية والفارسية، واللتان كانتا في صراع دائم، وكذلك إمبراطورية الحبشة حيث تم تأسيس المسيحية تحت فرومنتيس، أول قسيس، في تاريخ يرجع إلى عام (٣٥٠) بعد الميلاد. كان مركز اليهودية في ذلك الوقت هو يثرب (المدينة) كما يوجد دليل على أن عملية التحول من دين لآخر بواسطة الجاليات اليهودية والمسيحية كانت جارية على قدم وساق في جنوب الجزيرة العربية في ذلك الوقت. يبدو أنه من المحتمل أن المسيحية دخلت هذا الحقل، قادمة من قاعدتها في الحبشة. انهزمت محافظة حضرموت قبل نهاية القرن الثالث (حوالي ٢٩٠ بعد الميلاد) وتم إدخالها في حكم شمر يهرعش. الذي تبنى ووسع لقب ملك سبأ وذو ريدان فأصبح، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات.

أثارت جنوب الجزيرة العربية وثرواتها في هذا الوقت طمع ملك اكسوم (الحبشة) والذي تمكن من أن يهزم في حوالي عام ٣٤٠م خليفة شمر يهرعش، ومن ثم دمج مملكة الأخير (يعتقد أنها تضم نجران)، واتخذ اللقب: ملك اكسوم وحمير وريدان وحبشات، وسبأ وسلح وتهامة[١].

استمر الاحتلال المؤثر اللامباشر على جنوب الجزيرة العربية -وقد حكمها الملك الأميده وخلفاؤه- مدة (٢٧) عاماً فقط، وذلك لأنه في عام (٣٧٥م)، استعاد ملك كرب يهمين ولعله ابناً أو حفيداً لشمر يهرعش، العرش، ومن

(١) لمزيد عن احتلال مملكة أكسوم (الحبشة) لبلاد اليمن بما فيها نجران، انظر: جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب**، جـ٣، ص٤٣٨ وما بعدها. السيد محمود شكري الآلوسي. **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**. تحقيق محمد بهجت الأثري. (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت) جـ١، ص ٥٣ . (ابن جريس).

المحتمل أن نوعاً من السيطرة الأكسومية على المناطق الساحلية قد استمر في منافسة مع المملكة المحلية. في كلمات أخرى، حافظت المسيحية على ضغطها على الوثنيين في جنوب الجزيرة العربية، والذين كما يحق لنا أن نتصورهم، قد بدأوا يفقدون الثقة في الدين القديم ورجاله.

تطلبت السياسة في مثل هذه الأحوال، إجابة شافية للتحدي المسيحي، وكانت الإجابة الصريحة، هي اليهودية. لا بد وأن الكهنة من المدينة قد تم تشجيعهم في مجلس ملك كرب (٣٧٥ إلى ٣٨٥م) للدعوة إلى تدريس مبادئ اليهودية، غير أنه لا يبدو أن الملك نفسه تبنى اتجاهاً محدداً في تفضيل الدين اليهودي الجديد، إلاَّ أنه بلا شك يؤدي مهمة سياسية مفيدة له في مقابلة المسيحية الحبشية التي يساندها البيزنطيون. كان مصدر القوة الأكثر فائدة هو التقارب إلى فارس المنافس الرئيس للإمبراطورية الرومانية[١].

اعتنق ابن ملك كرب وخليفته أبو كرب أسعد (٣٧٨ - ٤١٥م) اليهودية، وسافر لتدعيم هذا الاعتناق في الدين، إلى المدينة في بعثة حج، إمَّا لأجل احتمال التحول على الدين اليهودي أو لإكساب الأمر أهمية إعلامية واسعة خلال مملكته. لقد استخدم في حملة الحج هذه الأفيال، وبصورة بارزة، وقد عاشت هذه الظاهرة في التراث العربي إلى هذا اليوم. كما أن درب الفيل، الذي استخدم بعد قرنين من ذلك الحدث، حينما سلكه أبرهة إلى مكة لا يزال يسمى درب أسعد كامل إلى جانب تسميته باسم درب الفيل. ويطغى الاسم الأول في الاستخدام المحلي.

---

(١) للمزيد عن الصراع بين الفرس والروم في بلاد اليمن، ومناطق نجران وغيرها من بلاد السروات، انظر: صالح العلي. **محاضرات في تاريخ العرب**، ص٦٦، جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب**، جـ٦، ص ٦٥٩ . (ابن جريس).

صاحب تبني الملك الديانة اليهودية تسامح تام للتعاليم الوثنية لدى تابعيه، ولم يعرف عن شقيقه ورا – أمر ايمان الذي ربما يكون قد خلفه على العرش، أنه بدوره قد تبنى اليهودية. إلاَّ أن حفيده وخليفته شراحبيل يعفر، كان يهودياً أيضاً، وذلك لأنه خلال فترة حكمه (٤٢٠ إلى ٤٥٥م) قام بإعلان ارتداده عن آلهة بلاده الوثنية وفضل اتباع إله السماوات (ذو سموات). كان هذا، على أي حال، تنازلاً أثرت فيه اليهودية، في تفضل التوحيد غير أن ذلك لا يربط الملك بالضرورة باليهودية فضلاً عن ارتباطه بالمسيحية. اشتهرت فترة حكمة بظهور صدع في سد مأرب العظيم وقام بصيانته الفورية عام (٤٤٩م). كان خليفته عبد كلال[1]، والذي يظهر أنه قد اغتصب العرش، والذي وربما كان شيخاً لقبيلة، قد تمكن من قيادة تمرد ناجح، ربما بمساعدة مملكة أكسوم، ضد سيده الإقطاعي، وربما كان (مما يدل اسمه) كاهناً من عبدة إلهة الوثنين، يحاول أن يوقف التمرد العظيم ضدهم.

استمرت هذه الفترة التي خلا فيها العرش بوفاة الملك مدة خمس سنوات وفي عام (٤٦٠م) التقطنا الفرع الشرعي للملوك الذين أعيدوا إلى العرش، مع تمديد لفترة حكمهم على حساب المستعمرات الأكسومية كما يلي: شرحب آيل ياكف (من ٤٦٠ – ٤٧٠م)، ولعله حفيد شرحب آيل يعفر والذي زاد من لقبه بإضافة الفقرة: وأعرابها في الجبال وتهامة، إشارة إلى امتداد نطاقه الاستعماري، غير أن الأكسوميين واصلوا حربهم عليه من عند رؤوس جسورهم التي أصبحت ضيقة في ساحل الجزيرة العربية. لا توجد لدينا معلومات عن الدين المعترف به

---

(١) عبد كلال: ـ اسمه حسان بن عبد كلال الحميري. وللمزيد عن دور هذا الرجل السياسي في بلاد اليمن، وعن ما قيل عنه من آراء، انظر: محمد مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٨ . (ابن جريس).

لدى شرحب آيل ياكف وأبنائه الثلاثة الذين خلفوه بالتتابع على العرش، غير أننا نعتقد أنهم كانوا من الموحدين، وربما كانوا يهوداً.

كان اسم الملك الثاني مرثد إيلان[1] (٤٩٥ - ٥١٥م)، وهو اسم يشير إلى تمرد قبلي آخر وفترة حكم كانت بلا ملك، ربما وقع التمرد بمساعدة الأكسوميين وكان اتجاهه هو الاتجاه المسيحي (أو وثني). ونصل بذلك إلى نهاية الخط الطويل إلى آخر حكام سبأ وإمبراطوريتها ذو نواس، الذي اعتلى العرش حوالي عام (٥١٨م) واغتيل أو قتل في إحدى المعارك بعد سبع سنوات لاحقه، حينما انتقلت كل جنوب الجزيرة العربية إلى أيدي الأحباش لمدة نصف قرن من الزمن إلى أن هزمها واحتلها ملك فارس كسرى الأول عام (٥٧٥م).

كانت فترة حكم (ذو نواس) فترة نكبة على نجران، وقبل أن أدخل في هذا الموضوع، أود أن أعود إلى الوراء قليلاً، لأشرح لمَ كانت نجران مؤهلة للمشاكل. حينما خرج الملك أب كرب أسعد (أسعد كامل) إلى الحج إلى المدينة للاعتراف رسمياً بالدين اليهودي (لنقل حوالي عام ٤٠٠م) سلك طريقه إلى غرب نجران على الطريق الذي يقود من صعده إلى ظهران. لا يوجد لدينا إثبات عن حالة النمو الديني في نجران آنذاك. لكنه يمكننا الافتراض، باطمئنان، أن آهلوها لا يزالون مخلصين للخدمات المريحة للآلهة الوثنية القديمة. جلب المسافرون إلى المدينة وما يقع إلى الشمال منها على طريق التوابل، معلومات عن مبادئ وتطبيقات اليهود والمسيحيين غير أنه من الممكن القول، باطمئنان، أن نجران ظلت خارج نطاق الدعاية اليهودية والمسيحية. لقد رأينا كيف تمت الدعوة لليهودية

(١) أوضح نقش اكتشف حديثاً، أن هنالك ملكاً يسمى معد يكرب يعفر، اعتلى العرش عام (٥١٦م) وربما يكون الذي قد خلف آخر أبناء شرحب آيل ياكف. (المؤلف).

لدخول اليمن الأصلي لموازنة تغلغل المسيحية الحبشية، غير أن الأخيرة هذه لم تصل نجران بالتأكيد من جانب ساحل البحر الأحمر ومن المشكوك فيه أن تكون اليهودية قد حققت أي تحولات في الدين في المقاطعة(١).

كُتب على القرن الخامس أن يعرِّض نجران للتأثيرين، ويبدو أن المسيحية التي جاءت من ناحية الشمال قد كسبت الرهان باكتسابها للروح المحركة لنجران بسهولة. تبدأ القصة بالانشقاق السوري الذي يسمى النسطورية الذي هز أسقفية أدسا (Edessa) (تطابق عرفة الحديثة) عام (٤٣١م). دار النزاع حول موقع نشأتها مدة ربع قرن حتى عام (٤٥٧م)، وقد حُرم النسطوريون كنيسياً، وطردوا من الأراضي البيزنطية. فلجأوا إلى حماية ملك فارس الطيب، وتحصلوا منه عليها، وأقاموا مركزهم الرئيس في نصيبين (Nisibin)، ولهم مطلق الحرية في الدعوة لعقيدتهم لدى كل مواطن فارس ما عدا الزرادشتية(٢). وصلت دعايتهم بالطبع، إلى العرب الوثنيين وكانت مملكة الحيرة المهمة أول فتح لهم. انطلق النسطوريون من هنا عبر الصحراء العربية، ونعرف تماماً أنه من زمن محمد (صلى الله عليه وسلم) كان هنالك مجتمع مسيحي منظم في اليمامة، جنوب الرياض. يقود طريق للجمال نظامي من هنا عبر الأفلاج ووادي الدواسر إلى نجران، ويعتقد أنه من هذا الطريق وصلت البعثة السورية الفميون إلى نجران للدعوة إلى ما أسماه الدكتور دي. جي. هوجارث D.G.Hogarth بدعة كولريديان التي تتضمن عبادة العذراء مريم كآلهة، وذلك بأن تقوم النسوة بتقديم قرابين الكعك إليها.

---

(١) عن دخول اليهودية والنصرانية إلى نجران بل عموم بلاد اليمن انظر: لطفي عبدالوهاب يحيى. **العرب في العصور القديمة مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام** (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م) ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ . (ابن جريس).

(٢) الزرادشتية :ـ إحدى العقائد الرئيسة للفرس. (ابن جريس).

لا أدري على أي مـرجع ارتكز الدكتـور هوجارث في سـرد هذا الأمر بهـذا التفصيل، غير أنه يبدو أن فميون كانت مهتمة بالدعوة إلى النسطورية العادية وكان ذلك هو الصورة للمسيحية التي تبعها أهل نجران وأهملوا بذلك آلهتهم الوثنية وبلا اعتبـار للتعاليم الوحـدانية التي وصلت إلى العرب في جنوب الجزيرة العـربية من ناحية الحـبشة وتأسست في مقـاطعة بني غسان عند الحدود السـورية. ترتكز قصة زيارة فيميون إلى نجران على الروايات، وليس على سند محدد. كما لا ندري متى كانت. غـير أن المسـيحـية قد تأسـست في ثبات في نجـران في زمن (ذو نواس) (٥١٨-٥٢٥م)، ويمكننا أن نفـترض أنهـا احتوت على جـيلين حتى ذلـك اليوم. يمكننا كذلك أن نخمن أن عام (٤٧٥م) أو قبله قليـلاً، أنه هو تاريخ زيارة فيميون والافتراض بتولي الأسقفية للسيطرة على الشؤون الكنيسية في المحافظة، في موازاة مع الإدارة المحلية التي يقوم بها شخص يسـمى العاقب تحت السلطة العليا للسـيد أو الرئيس المحلي[1].

يبدو أن نجران قد اسـتوعبت المسـيحيـة بسهولة وطورتهـا إلى مجتمـع قوي أو حتى متـعصب، على أساس الكنيـسة الكاتدرائية، التي أضاف إليـها في وقت لاحق الإمبراطور البيزنطي هدايا قـيمة من المرمر والموزاييك لأجل أن يوطد دعواه في مجال تأثـيره في هذا الإقليم ضد التوسع المحـتمل للطموحات الفـارسية. لا ندري إن كـان فمـيون قـسيـساً، وإن كـان هو كذلك، فـلا ندري كم من الزمن استـغرقه ذلك. كـما لا ندري إن كـان عبدالله بن الحـارث رجل دين جلس على

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن دخول فيـميون إلى بلاد نجران ونشره ديانة النصرانية بين أهلهـا، انظر: أبو محمد عبدالملك بن هشام. **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السـقا وآخرون (بيروت: دار القلم، د.ت) جـ١، ص ٣٢ وما بعدها، الطبري، **تاريخ**، جـ٢، ص ١١٩ وما بعدها، ياقوت، **معجم**، جـ٥، ص ٢٦٦ وما بعدها. (ابن جريس).

الكرسي الأسقفي أو سيداً على نجران خلال الربع الأول من القرن السادس. نعرف بالتأكيد أن رجل الدين الوحيد في نجران، هو قس بن ساعدة[١] الذي جلس على الكرسي الأسقـفي في الجزء الأول من القرن الـسابع إلى أن تم إبعاد كل مـا تبقى من المسيحية من المقاطعة بواسطة الخليفة عمر (٦٣٤ - ٦٤٤م)[٢]. على أي حال، فمنذ بداية القرن السادس فـإن مسيحيي نجران كانوا يبدون متـعصبين بالدرجة التي دفعتهم إلى رفض دخول اليـهود، ومع هذا فهناك بعض الدليل على أن نجران كان بها بعض العناصر اليهـودية في ذلك الوقت، وربما أبعدوا فقط من منطقة المدينة. لا بد أن يكون تطور تهويد مجلس سبأ قد أغضب مـسيحيي نجران، وأن قبول ذو نواس، وهو يهودي متعصب، لاعتلاء العرش قد خلف بعض التوتر.

تقترح الروايات -برغم أن صحة تلك الروايات يشوبها الشك- أنه خلال فترة حكم (ذو نواس) زار نجران يهودي ومعه إبناه وتم القبض عليهم وقد عرض عليهم الردة أو القتل. ارتد الأب أو تظاهر بذلك، وتمكن بعد فـترة، من الهرب إلى (ذو نواس) يطلب منه الانتـقام. قـبل الملك هذا التـحدي، ووصل إلى نجـران ومعـه جيش، وعرض على سكانها كلهم إما القتل أو الالتحاق بالعقيدة اليهودية. أحجم القليلون أمام هذه المحنة وتم حفر خنادق ضخـمة بأمر الملك وملئت بحزم الخشب وأمر عبدالله بن الحارث ورفـاقه المسيحيون باعتلاء الخـشب، بينما أشعلت النيران

(١) قس بن ساعدة الإيادي، أسقف نجران، وكان من القسـاوسة الذين اعتادوا التردد على أسواق العرب في الجاهلية، أدركه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قـبل النبوه، ورآه بعكاظ، ومات قبل دخول أهل نجران الإسلام. للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **نجران**، جـ١، ص ٣٩٥ ــ ٣٩٦ . (ابن جريس).

(٢) لمزيد من التفاصيل عن نصارى نجران إلى أن أخرجهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب من نجران واستقروا في الشام والكوفة. انظر: القاضي أبو يوسف. **كتاب الخراج**، ص٧٤، البلاذري. **فتوح البلدان**، ص ٧٨، ابن جريس. **نجران**، جـ١، ص٩٩ ــ ١٠١، ٤٥٥ ــ ٤٥٩ . (ابن جريس).

في الأعواد المقطوعة. فيما عدا بعض الهاربين من عقاب الملك، فإن كل سكان نجران قد حرقوا وهم أحياء في أعظم محرقة، واهتز العالم المسيحي رعباً.

كانت هذه الحادثة هي التي أكسبت نجران اسم الأخدود أو الخنادق، وأكسبت كذلك زرعة ذو نواس (مجعّد الرأس)، إلياس يوسف (اسمه اليهودي)، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وأعرابها في الجبال وتهامة، مثالاً للانتقام يحتذى به تم بواسطة ملك أكسوم، كالب الأصبحة، مع تشجيع ودعم إمبراطور البيزنطيين. تقدمت جيوش الأحباش بقيادة القائد أبرهة الأشرم[١] نحو عاصمة السبئيين، ربما كانت ظفار في ذلك الوقت، في عام (٥٢٤) أو (٥٢٥م)، وأكمل الاحتلال في سنوات لاحقه لكل جنوب الجزيرة العربية. هرب ذو نواس نفسه إلى التلال، غير أنه طورد هناك وقتل بعد فترة. لقد أُنتقم لشهداء نجران، وبعد مُضي حياة طويلة في ظلال الاستقلال كواحدة من القوى العظمى في وقتها، والتي عاشت إلى عمر يصل إلى (١٨٢٥ عاماً)، أصبح جنوب الجزيرة العربية كله مجرد محافظة تابعة للإمبراطورية الأكسومية[٢].

تم تعيين الرئيس المسيحي واسمه السميفع لرتبة ملك بواسطة المنتصر الحبشي والحاكم العام، أبرهه، والذي ولفترة (٥٠) عاماً كان الشخصية السائدة في السياسات العربية. يبدو أبرهة حقيقة، وكأنه يمثل شيئاً أكبر من مجرد مكانة ملكية في مجلسه ولربما استخدم اللقب الملكي في الاعتماد الهش على الملك الأكسومي

(١) لم يكن أبرهة هو الذي قاد الحملة على جنوب الجزيرة، بل جعل القائد أحد الأمراء الحميرين ويدعى السميفع أشوع، والذي أقصاه أبرهة فيما بعد عندما استقل بجنوب الجزيرة عن الحكم الحبشي. للمزيد انظر: محمد مهران. **دراسات في تاريخ العرب القديم**، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣، السيد عبدالعزيز سالم **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ص ١٣٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) انظر: المراجع نفسها. (ابن جريس).

رمحيس ظبـيمان، ابن أو حفيـد، كالب الأصبحة. كـان هذا على كل حال، هو الموقف عام (٥٤٢م). حينما أجريت صـيانات أخرى على سد مأرب الذي أضرَّت به السيول مرة أخرى، بأمر منه وتم تسجـيل ذلك على النقوش، يبدو أن السميفع قد أبعـد من منصـبه (أو توفي) قـبل هذا بقليل، وكان على أبرهه أن يقـمع تمرداً نظمه ابنه وبعض نبلاء سـبأ، بما في ذلك يزيد بن حبشات الذي تم تعينيـه حاكماً على قبائل كدات (كنده).

يبدو أن تجربـة الحكومة غير المباشـرة قد تم هجرها، واشتـهر اسم أبرهه إلى علو أكثر دفع حتـى البيزنطيين والفرس إلى إرسال الوفود إلى مـجلسه، فضلاً عن الدول شبه المستقلة في الحيرة وسوريا. أصبح مجلس أبرهة مركزاً للسياسة الدولية والخداع. كانت العلاقـات التقليدية لأكسوم، بالطبع، مع البـيزنطيين ضد فارس، وكان مما لا شك فيه أن الإمبراطور الرومـاني، والذي كان في طموحاته أن يتمكن من السيطـرة على طريق التوابل وعلى ثروة الجـزيرة العربيـة، هو الذي أوعز إلى أبرهة بالمسيرة المشهورة على مكة، والتي كانت تمثل حرباً صليبية ضد الوثنيين[١]. وكما فعل إليـوس جاليوس منذ ستة قرون خلت من قبله، فقـد وجد أن الصحراء عامل مشتت عظيم للقوة العسكرية، وكانت حملته فاشلة تماماً.

كان إخفاقـاً لأبرهة على مستوى الكارثة، وذلك لغيـابه من اليمن، ولضعف قواته، مما أمـدَّ كسرى الأول بالفرصـة الملائمة للتدخل في شـؤون جنوب الجزيرة العربية والتي كـان ينتظرها. إذ قام بإرسال جيش فارسي لاحتـلال الجزيرة العربية

(١) للمـزيد عن غزوة أبرهة الأشـرم للحـجاز بهـدف هدم الكعبـة المشرفـة، انظر: **القـرآن الكريم، سـورة (الفيل) وتفسيرها**، كما انظر أيضاً: السيد عبدالعزيز سالم، **دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام**. ص ١٣٩ ـ ١٥٠ (ابن جريس).

بمجرد أن عُرف أن أبرهــة يواجه المتاعب مع حملتــه الصحراوية[١]. كان هذا عام (٥٧٠م). عام مولد الرســول محمد (صلى الله عليه وســلم) في مكة، عام الفيل المشهور. وقد سميت كذلك لأن جيش أبرهة كان مدعماً بعدد من هذه الحيوانات. كما انتصــر الفرس في العام نفسه أو قليلاً بعده على الأحبــاش، واستبدلوا الحكم الأكسومي في الجــزيرة العربية بحكام عينهم كــسرى. كان وهريز أول هؤلاء، ولا ندري كم كان عدد الحكام القائمين بالعمل في الفترة التي تفصله عن باذان آخر من عيّــنه الملك العظيم. بدأ محــمد (صلى الــله عليه وسلم) في هذا الوقت دعــوته العلنية، وبوفاة كــسرى عام (٦٢٨م). اعتنق باذان الإسلام وأعلن خـضوعه للنبي محــمد (صلى الــله عليه وسلم). فــصلت فتــرة تقل من القرن الواحــد، للحكم الحبــشي والفارسي بين سقــوط الإمبراطورية العربيــة الأولى وصعود الثــانية والتي كتب لها أن تكون ذات ارتدادات عالمية أبعد كثيراً وأكثر إثارة من سابقتيها[٢]، لقد نقل الجنوب المتفسخ الكرة الآن إلى ملعب الشمال النشط[٣].

نعرف أن قس بن ساعدة، كأســقف نجران في ذلك الوقت، كان على اتصال بالنبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإن لم يكن ذلك شخصياً. ونعلم أن النبي

---

(١) قدمت الحملة الفارســية بطلب من الأمراء الحميريين في سنة (٥٧٤م) أو (٥٧٥م)، فــقد تولى بعد أبرهة ابنه يكسوم ثم أخيه مسروق وليس بعــد فشل حملة أبرهة. للمزيد انظر: صالح العلي. **محاضرات في تاريخ العرب**، ص٦٦، جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب**، جـ٢، ص ٢٥٩، عصام عبدالرؤوف الفقي. **اليمن في ظل الإسلام** (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢) ص ٢٦ . (ابن جريس).

(٢) ليس من الإنصاف أن يقارن فيلبي بين الحكومات العــربية التي ظهرت في اليمن قبل الإسلام، وبين دولة الإسلام العالمية التي ولدت على يــد الرسول الكريم، محمد بن عبدالله (عليــه أفضل الصلاة والسلام). (ابن جريس).

(٣) للمزيد عن دخــول نجران وجميع بلاد اليمن في الإســلام، انظر: الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، جـ٣، ص ١٢٦ وما بعدها عصام الفقي، **اليمن** ، ص ٣٩ وما بعدها. (ابن جريس).

محمداً (صلى الله عليه وسلم) -ربما على ضوء ما كان يدور بينهما من مناقشات- مدَّ من تسامحه مع المسيحيين في نجـران. وكما نعلم من آيات قرانية أن مرور قرن من الزمـان لم يمح من الذاكرة وحـشيـات نجران والتي ربما سـاعدت على تبـرير التشديد المتـواصل لنهج النبي (صلى الله عليه وسلم) ضد اليـهود الخارجين على الطاعة في المدينة[1]. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾[2].

لا يوجـد سبب مـقنع يجعل المرء يتـشكك في أن هذه الآيات لا تشيـر إلى شؤون الأخـدود والتي يمكن إرجاعها بالـتدقيق إلى سنة (٥٢٢م). أي لفتـرة قرن كامل قبل الهجرة، ذلك لأنه في تلك السنة كانت حملة الأحباش التأديبية ضد ذو نواس. يتضح لنا أن المسيحية واصلت مسارها وسلطتها في نجران بعد هزيمة وموت الملك عام (٥٢٥م) ولفترة استمرت مدة قرن كامل من الزمان.

تعد نجران في الروايات، آخر مـعقل للمسيحية في الجـزيرة العربية، برغم ما يفيـد وجود اليـهود في المنطقـة خلال هذه الفـترة. غـير أنه يمكن الافـتراض بأن التغلغل اليهودي لم يُشجع بعد أحداث الخنادق. برغم ذلك، فقد أسست اليهودية موقعـها بثبات في المناطق الجـنوبية في اليمن في موازنة للاسـتعمار الحـبشي وقد

(١) لم يتشدد الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع اليهود بسـبب حادثة الأخدود وإنما بسبب مواقفهم المعادية للإسلام وللرسـول -صلى الله عليه وسلم-. وللمـزيد انظر: ابن هشام، **السيـرة**، جـ٢، ص ١٦٠ ـ ١٦٢، ١٧٧ وما بعدها؛ الطبري، **تاريخ** ـ جـ٢، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٣، ٥٨١ ـ ٥٩٤ . (ابن جريس).

(٢) سورة البروج، الآيات: (٣ - ٩). (ابن جريس).

شجعها علـى ذلك، أو احتمل الفرس منها ذلك، لأسباب سياسية أثناء صراعهم مع البيزنطيين. امتد الحكم القضـائي في خلافة عمر (٦٣٤م - ٦٤٤م) في الجزيرة العربية ضد أي تسامح مع أي عقائد منافسة للإسلام[١]، وكانت اليهودية في موقع أحسن من المسيحيـة في مقاومة تطبيق ذلك. لقد بقيت اليهودية حـية في مواجهة التحدي، وعاشت حتى اليوم في جنوب الجزيرة العربية[٢]، بينما أزيلت المسيحية تماماً، لكيلا ترفع رأسها في الصحراء مرة أخرى.

هكذا كانت هذه الخلفـية التاريخـية والتي على ضـوئها ننظر الآن في أطلال العاصـمة نجـران. يعرف هذا الاسم منـذ القديم -لعل الاسم هو للمنطقـة وليس للمدينة والتي قد يكون اسمها رقمـات- منذ القرن الثامن قبل الميلاد، ولربما يعود إلى أزمان أبعد لا نعلم عنها شـيئاً، قبل الظهور المتكامل للمعـينيين والقتبانيين في مطلع القرن العاشـر قبل الميلاد. من المؤكد أن تقودنا الحفـريات إلى أزمان العصر الحجري في وادٍ لا بد وأن يكون مـأهولاً في زمن عرف فيه الإنسـان الزراعة. قد يعود تاريخ القلعـة الضخمة للأخدود إلى الأيام الأولى في التـاريخ المعينيين لا بد وأنهم استخـدموا أساليب الري في هذا الوادي الواسع الخصب قـبل أن ترقى سبأ

---

(١) دين الإسلام هو دين التسامح على مر العصور، أمـا فيلبي فإنه لم يوفق في ما ذهب إليه من وجهة نظره عندما قال: ـ «امتد الحكم القضائي في خلافة عمر... ضد أي تسامح مع أي عقائد منافسة للإسلام». ومن يرجع إلى المصادر الموثوقة، والقرآن الكريم على رأس القائمة فـإنه يجد اليهود على وجه الخصوص نقضوا العهود التي كتبوها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكذلك الخلفاء من بعده، كما أن النصارى لم يكونوا بعيدين في منهجهم عن منهج اليـهود؛ لهذا اضطر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن بعده الخلفاء وبخاصـة عمر بن الخطاب على معاقبتـهم وإخراجهم من جزيرة العرب كمـا حدث مع يهود بني النضيـر وبني قينقـاع في المدينة المنورة في عهد الرسـول الكريم، وكمـا وقع مع نصارى نجران في عـهد الخليفة عمر بن الخطاب. (ابن جريس).

(٢) لم تستمر اليهودية في جنوب الجزيرة العربية وإن وجد بعض اليهود فقط. (ابن جريس).

وتكتسب أهميتها ببنائها لسدودها العظيمة. وذلك لأن الطبيعة في نجران لم تترك للإنسان شيئاً في مجال البناء ليقوم به. يبدو من الغريب أن نجران لم تبرز على مسرح التاريخ كدولة مستقلة أو عاصمة استعمارية، غير أنها قد تكون، كما هو حال مكة، مركزاً عاماً للحج والاحتفالات الدينية لكل الأمم المجاورة. لم يكن امتلاك كعبة شيئاً مميزاً في الجزيرة العربية القديمة.

ستكون نجران، في يوم من الأيام وهي تلك المدينة القديمة العظيمة، والتي تسمى الآن الأخدود، مركزاً للتنقيب والفحص بواسطة خبراء آثار مقتدرين[(١)]. لم أحاول توقع نتائج أعمالهم واكتفيت بأن أقوم بدراسة موسّعة على الإثباتات المتوافرة على السطح وبعمل مخطط للنسق العام للمدينة. تمتد المدينة بلا نظام وبلا شكل محدد على الجانب الأيمن لوادي نجران على سهل يكسوه جنبات خفيضة ينحدر في لطف إلى سفوح التلال التي تصطف على الوادي من جانبه الجنوبي. يحتمل أن هذا الوادي الذي يبلغ عرضه ميلاً واحداً وطوله (٣) أو (٤) أميال، قد تمت زراعته في أزمان سابقة عندما كان نظام الري عاملاً. لا تزال هنا وهنالك بعض آثار القنوات القديمة ظاهرة، بينما امتد شريط من بحيرات ومستنقعات على جانب الوادي دون الحديث عن الزراعة الحديثة التي تعتمد جزئياً على السيول وجزئياً على مياه الآبار - يكشف هذا الشريط عن الإمكانيات الزراعية لهذه المساحة وكيف كانت وكيف ظلت دائماً. هنالك الكثير من الأدلة لوجود قنوات

---

(١) هنالك إعداد لإجراء بحث أولي بواسطة بروفسور ريكمانز حدد له شتاء عام (١٩٥١ - ١٩٥٢م). وقد جاء ريكمانز إلى جنوبي البلاد السعودية ومعه فريق عمل من ضمنهم فيلبي خلال عام (١٩٥١م) (المؤلف)، وقام أحد أعضاء الفريق وهو فِلِيب ليبنز بتدوين أحداث رحلتهم في كتابه الموسوم: **رحلة استكشافية في وسط الجزيرة العربية**. ترجمة محمد محمد الحناش وطباعة ونشر دارة الملك عبدالعزيز بالرياض (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م) (ابن جريس).

وبحيرات صناعية أو خزانات في الجوار المباشر للمدينة. قد تكون المدينة كلها قد أحيطت من جهة اليابسة بقناة تنطلق من الوادي وعند جانبه الأعلى، وتصب فيه مرة أخرى أسفل المدينة. تبدو القلعة، على أي حال، وكأنها محاطة تماماً بخندق مائي يفصلها عن بقية المدينة.

تحتل القلعة الطرف الجنوبي الغربي للحقل المدمر، ولربما كانت السمة الوحيدة، التي ظلت قائمة من العاصمة القديمة، أما الأجزاء الأخرى من المدينة فبالتأكيد يحمل ادعاء نقش كرب آيل أنها قد تحولت إلى خراب وأضرمت فيها النيران، لقد اهتز حتى البناء الصلد القوي للقلعة من الحدث، ولا يستغرب المرء أن يظن أنه كان نتاج لزلزال، أكثر منه لعمل بشري، ذلك الفعل الذي قادها إلى حالتها الحالية الشديدة الدمار. لا يزال الجدار الخارجي، على أية حال، قائماً سليماً إلاَّ من بعض الأجزاء المحطمة، ويمكن متابعته بسهولة، وكذلك يمكن التعرف على العديد من الأبنية الداخلية بما تبقى من جدرانها القائمة. غطت العديد منها الرمال أو الطمي ونمت فوق هذا نباتات الصحراء، مثل الأراك والأثل وما شابه ذلك، غير أن انطباعي العام أن كل سقف لأي بناء قد اختفى، وهذا يمدنا بتفسير معقول بأن البناء الفوقي لهذه الأبنية كان من الخشب عندما نُهبت المدينة.

لا يبدو من المحتمل أن الأمراء والرهبان في نجران كانوا يسكنون الطوابق الأرضية فقط، كما لا يبدو أن هنالك طوابق ثانية مبنية من الحجارة. كانت القلعة ذات شكل مستطيل غير منتظم، ذات نتوءات عديدة وزوايا كازَّة بخاصة على الجدار الشمالي وإلى درجة أقل على الجانب الجنوبي، كانت الجدران الغربية والشرقية مستقيمة نسبياً. ويبدو أن المدخل الرئيس للقلعة كان من جهة الزاوية

الشمالية الشرقية في مواجهة المدينة. تقع المدينة تقريباً عند مربع نقاط الجهات الأصلية للبوصلة وداخل مربع (٢٥٠) ياردة وهي مجموع طول الجدارين الغربي والشمالي. كان طول الجدار الجنوبي (٢٣٥) ياردة، بينما كان طول الجدار الذي يصل بين الأطراف الشرقية للجدارين الجنوبي والشمالي، (١٧٥) ياردة فقط. كان طول المائل القطري من تجاه الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي (٣٤٠) ياردة، بينما كان طول المائل الآخر، -من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي- حوالي (٣٠٠) ياردة، وعليه، تحتل القلعة مساحة (٥٧٠٠٠) ياردة مربعة أو أقل قليلاً من (١٢) أكرات.

لعل الدمار الذي أحدثه السيل كان أكثر مما سببه العدو، ويدعم هذا القول أن جزءاً كبيراً من الجدار الغربي كان في حالة أسوأ بكثير مقارنة بالأجزاء الأخرى. إذ أن هذا الجانب من الجدار مكشوفاً تماماً لعنف السيول الموسمية بمجرد أن أهمل المكان وما تبع ذلك الإهمال من انهيار لنظام الري أو التصريف. يشير تراكم الطمي في هذا الجزء الجنوبي للقلعة، مقارنة في تضاد مع تراكم الرمال المنقولة في الجزء الشمالي، بأن السيول قد اخترقت هذه المنطقة وهذا الاقتراح يدعم أيضاً بوجود ثغرات على مستوى أصغر في الجزء الجنوبي للجدار الشرقي. ظلت كل بقية الجدران الأخرى سليمة تقريباً. كان من أحسن التراكيب التي سلمت داخل القلعة مجموعتان من مبانٍ فخمة ذات بناء ضخم كان أحدهما في موقع مركزي، وكان الآخر بينه وبين المدخل الرئيس الفخم الثاني. كانت كتل الجدران المدمرة بجوار هذه المجموعة الثانية مغطاة برمل كثيف وبطمي مما صعب عليَّ تأكيد شكلها أو شخصيتها. لقد تكوَّن لديَّ الرأي، على أي حال، مهما كانت أهميته، أن هذه قد تكون تركيباً على هيئة قبة ربما كان الكتدرائية المسيحية التي سمعنا عنها، أو كانت معبداً وثنياً قديماً.

كان سطح هذين الموقعين وما جاورهما مبلطاً بألواح كبيرة من بناء. ويربط ممشى أيضاً مبلط القصر المركزي مع بوابة أيضاً مبلطة وملحق بها غرف حراسة على الجانبين، في وسط الجدار الغربي. كما أن هنالك مدخل ثالث (في الجدار الغربي) محاط بواسطة الجزء الثاني وحصن للقلعة، كما توجد، على أقل تقدير، أربعة مداخل ذات أهمية ثانوية فيما يبدو في مناطق أخرى من الجدار الدائري. تحدى المستوى التدميري للمساحات الداخلية كل محاولة لي لوضع فكرة عن التنظيم الذي كان عليه البناء ولقد اكتفيت بالتوضيح على المخطط (مخطط رقم ٢) مثل هذه الأجزاء من الجدار، داخلية وخارجية كما يمكن التعرف عليها في موضعها الأصلي. تكفي الصور الضوئية (شكل٢٣، ٢٤) لتعطي القارئ فكرة عن الشكل الحالي للتذكار العظيم للعصور القديمة، والتي قد تتكشف أطلالها لعالم آثار محظوظ في المستقبل بمكسب عظيم. أود أن أضيف هنا فقط أن القلعة كانت، فيما يبدو، منفصلة عن المدينة بخندق مائي عريض وذلك لأن الجدارين الغربي والجنوبي ينفصلان بمسافة ٥٠ ياردة دون الزاويتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية للقلعة بالتتالي[1].

---

(١) من خلال زيارتي لنجران في صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) شاهدت بعض الجهود البسيطة، التي يقوم بها قسم الآثار، من الحفريات في منطقة الأخدود. وأستطيع القول إن التنقيب في تلك المنطقة جدير بالاهتمام وتضافر الجهود من الأقسام المتخصصة، وكذلك من المراكز العلمية والبحثية المختلفة، كما أن الأعمال في مثل هذه المشاريع يحتاج إلى الدعم المالي السخي حتى يتم الحصول على نتائج علمية قيمة. (ابن جريس).

مخطط رقم (٢)

أطلال أخدود في وادي نجران

يمكن التعرف على جدار المدينة، في أي موقع آخر، مع وجود بعض الفجوات ذات الأهمية المتدنية، ومتابعتها بوضوح في سور واقٍ من كسارة الحجارة ومواد البناء، مغطاة الآن في بعض الأجزاء بالرمل والطمي. لم تكن هذه أبداً شبيهة بجدران القلعة، ويبدو أنها نمت طبيعياً بلا شكل وبلا مخطط، في استجابة لا تساع المدينة لإيواء سكانها المتزايدين. ربما لم تكن بالجدران، بل كانت أشبه ما تكون بالسدود، لمنع تسرب مياه السيول إلى داخل المنطقة السكنية. تمتد مثل هذه السدود إلى مسافة تجاه الشمال الشرقي من عند الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة في استمرارية مع الخندق المائي أو القناه التي تجري على طول امتداد الجدار الشرقي. لم يكن هذا الجدار مستقيماً بأية حال، ويبدو وكأنه قد تم اختراقه بكسر بوابة واسعة. يلتف الجدار من عند هذه الزاوية الشمالية الشرقية وبغير انتظام حول فجوة عميقة هي أقصى بقعة شمالية في المدينة. يبدو أن هذه الثلمة في شكل المنطقة المأهولة كانت مستنقعاً قديماً أو بحيرة، ذلك لأن الجزء الداخلي منها يبدو وكأنه يمثل بركة أو مستودع للماء.

يقع بئر قبيبات داخل سور المدينة بجوار هذا الموقع والذي لا يزال يعمل داخل مزرعة لأشجار عَبَل جميلة، والتي بجوارها تقع بقايا الضريح المشهور وأطلال القبة المشهورة باسم عبدالله بن ثامر. الفقيه الديني المحلي الذي يطابق بالروايات المحلية الأمير المسيحي أو أسقف نجران الذي احترق مع أتباعه الأوفياء. يستحيل التأكد من هذا إلا بإجراء حفريات، إن كان صاحب هذا القبر هو حقيقة أو كان رجلاً آخر مسلماً في وقت متأخر، غير أنه لا يوجد ما هو لافت للنظر فيما يخص الأطلال. كان الضريح مبنياً من مواد قد سرقت من حطام المدينة القديمة إنه «وليّ» أو معبد على جانب الطريق وقد تمت زخرفته ببناء قبة عليه.

كان هذا الضريح في الأزمان اللاحقة مزاراً للمعتقدين في مقدرة القديس الميت أن يتوسط نيابة عن تابعيه، ولهذا السبب فقد أزالته السلطات السعودية[1]. وبناءً على قرب مشارب الماء الجيدة على الطريق الرئيس الذي يقود من نجران إلى الفرع، فإن سكن حارس الضريح والقبة قد حولته السلطات أيضاً إلى مركز للشرطة. استقر معسكري في أرض مكشوفة إلى الشرق من مجموعة أشجار العلب، وذلك أثناء إقامتي القصيرة في منطقة الأخدود. فاتني أن أذكر أن الضريح بمرور الوقت قد أصبح نواة لمقبرة كبيرة، والتي منها وصلتني بعض الشواهد المكتوبة. لم تكن هذه ذات أهمية كبيرة لي، فهي مجرد شواهد نزعت من عند قبور حديثة للعرب وتحتوي على كتابة عربية عادية.

تبين الأشجار التي ورد ذكرها خط تصريف للمياه يجري في ميلان من عند المستنقع إلى ثغرة في الجدار الشمالي للمدينة على بعد (١٠٠) ياردة من طرفها الشرقي. يقف معبد، أو بوابة احتفالات، خارج حدود المدينة ويقوم بتغطية هذه الثغرة جزئياً، وكان تصميم الدور الأرضي للمعبد أو البوابة من جدران من حجارة جيرية وكانت الأرضية لا تزال واضحة وكذلك جدار البهو الواضح، يبدو أن هذا البهو يقود مباشرة إلى أطلال ابن ثامر. تقع على المسافة شرق هذا البهو ألواح من حجارة جيرية عليها نقوش حميرية ربما ليست في موقعها الأصلي- وكما يوجد

(١) انتشرت الخرافات والبدع والشركيات في معظم أجزاء الجزيرة العربية، وذلك عندما ضعفت سلطة الخلافة الإسلامية منذ عصر الدولة العباسية، وهكذا استمرت الأمور حتى ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب يؤازره الأمير/ محمد بن سعود فعملا على توحيد العبادة لله وحده ومحاربه ما سوى ذلك، ثم تعاقبت الحكومات السعودية الثلاث على هذا النهج حتى أصبح الدين خالص لله وحده، وأصبحت الشريعة الصافية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) هي المطبقة والمعمول بها كما نشاهد اليوم. (ابن جريس).

حجرا رحى كبـيران جداً -لعلهما لعصارة زيوت-، بينمـا كانت الأسطوانة الفعلية لواحدة من مـعاصر الزيوت هذه ملقـية على بعـد (١٠٠) ياردة إلى جنوب شرق ضريح ابن ثامر وسط فخار كثير مكسـر، الذي يغطي الركام المدمر بصفة عامة كل المنطقة المأهولة في هذا الجزء الشمالي للمدينة[١]. يجري الجدار الشمالي من عند المعبـد الذي يقع بجوار المدخل إلى مسـافة (٥٠) ياردة إلى حافة مـا يمكن تصوره بأنه بحيـرة صناعية كـبيرة. كانت مـساحة هذا المنخـفض، حوالي (١٠٠) ياردة مربعة، تحتل الزاوية الشمالية الغربية لمساحة المدينة وكانت مسورة بالجدران من كل الجهات. تحـتل أرضية صغيـرة من الأسمنت، طولها (٤٠) قدماً وعـرضها (٢٠) قدماً، الزاوية الغربية لهذه البحيرة ولا أستبـعد أنها كانت مزخرفة بشيء في طبيعة المصيف لمتعة الزوار. لا يزال الامتداد العـريض للجدار الغربي من عند هذه البقعة وإلى موقع الكسر في الزاوية الشمالية الغربـية للقلعة، مشاهداً، وفي وسطه معالم قلعة صـغيرة أو منزل للحارس بـارزاً إلى الخارج. يحتل ركام الحـجارة كل وسط المدينة الداخلي، وبقـايا مواد بناء من نوع عـادي، وكسور من قطع أثـرية. كانت الفوضى ضـاربة إلى الحد الذي يسـتحيل مـعه تكوين فكرة عن مـخطط الشوارع ومناطق السكنى للناس العاديين، وعلينا أن ننتظر مجـراف عالم الآثار قبل المغامرة بوصف واحدة من أعظم العواصم.

كـان مما تبقى مـن آثار الماضي، إلى جانب الـنقوش التي جـمـعهـا يوسف هالفي، وشخصي، من هذا المكان ومن أجزاء أخـرى في الواحة والتي انبثقت من نجران تشتـمل على رأس أسد من البرونز وكف حيـوان وقطعة من ميزاب مـعبد،

(١) لا زالت منطقة الأخـدود تحتوي على الكثـير من القطع الأثرية الجـديرة بالدراسة، كمـا نقل العديد من القطع الأخرى إلى مـتحف نجـران الموجود في طرف الأخدود، وكـذلك إلى متاحف أخـرى في المملكة مثل: ــ المتحف التاريخي الموجود في مركز الملك عبدالعزيز التاريخي بالرياض. (ابن جريس).

أيضاً من البرونز وعليها نذر منقوش. كل هذه محفوظة الآن في المتحف البريطاني ويعزى الفضل ويعود الشكر لصاحب السمو الملكي الأمير سعود، والذي قدمت إليه أثناء حملة اليمن عام ١٩٣٤م. لا يُعرف تماماً مكانها الحقيقي. غير أنه يمكن القول باطمئنان أنها كانت تزين معبداً في الأخدود. وجد رأس أسد آخر مماثل، في حجَّة غير أنه لا يتطابق تماماً مع أسد نجران، وله صورة في صفحة (٨٩) من المجلد الثاني (Vorislamische Allertumer)، لمؤلفه دكتور كارل راثيانز Rathjens واتش فون فيسمان(H.Voh Wissmann)، وقد أوردا أن اكتشافهما هذا يكشف إثباتاً لتأثير إغريقي[١] وهو أكثر الأشياء حداثه من بين ما تم اكتشافه في معبد حجة. هذا يفيد بأن الرأس الذي اكتشف في حجة يعود تاريخه إلى ما بعد ظهور المسيحية، وربما يفترض أن الرأس الذي اكتشف في نجران له التاريخ نفسه. غير أنه، على أية حال، يبدو أكثر بدائية، ويختلف عن الآخر بأن له عرف أقل توهجاً ويظهر وكأنه أكثر رزانة، عدا الحواجب التي تبدو مروِّعة. كان الرأس في كلا الحالين مجوفاً وينقل دكتور راثيانز عن مصادر قديمة أن مثل هذه الرؤوس كانت توضع عند زوايا سقف المعبد لحجز الرياح، والتي حين تعبر داخل تجويف الرأس تصدر صوتاً يشبه الزئير. لقد وجدت، في الجانب الآخر، رؤوس مثل هذه محشوة حسب اعتقادي، بمادة سوداء قارية.

يصعب تقدير مساحة المدينة بدقة ذلك لأنها ذات شكل غير منتظم، غير أنه يمكن القول بأنها تقدر بخمسة وسبعين هكتاراً باستثناء قلعتين عربيتين، لعلهما من العصور الوسطى، تقعان خارج المحيط عند الطرف الشمالي الشرقي على جانبي

(١) تم اكتشاف أسدين برونزيين كاملين من الطراز الإغريقي في أطلال وادي بيحان بواسطة حملة أمريكية. (المؤلف).

القناة التي ورد ذكرها. أكبرهما تغطي مساحة (٢,٥) اكر، والأخرى تغطي مساحة اكرين، وليس لأي منهما أهمية تذكر. تمتد مقبرة كبيرة في وسط السهل بين المدينة نفسها وحاجز من جبلين هما الجبل الأحمر وجبل السودة وتوجد على قمة الجبل الأخير، الذي يطل على الممر الذي تسلكه القوافل النظامية إلى واحة الفرع قلعة كبيرة، لعلها من العصور الوسطى، مبنية من بازلت أسود، يتم تحجيره في الموقع نفسه. يكمل هذا إلى جانب النقوش على الصخور التي ورد ذكرها على صخور الحجارة الرملية الممتدة بين تل أم خرق وممر نهيقة، وقبور ردوم سرو، الصورة لما قد تبقى على سطح نجران القديمة. كما ويكّون مساحة الكعبة في تصلال، وسد الجلاد جزءاً من الصورة نفسها غير أنني تناولتهما بشمولية في موقع آخر، بينما في الغريري في الجزء الشرقي من القابل توجد مجموعة أطلال تحتوي على بلوكات ذات نقوش، من حجر جيري وقطع مبعثرة أثرية، لما قد يكون معبداً للقدماء.

تحصل هالفي على اثني عشر نقشاً من منطقة نجران، وقد قمت أيضاً باكتشاف معظم هذه، بينما أفرزت دراساتي واستكشافاتي في المنطقة كلها، بما في ذلك الحجارة الرملية على الجانب الأيمن للوادي، ما لا يقل عن (١٣٢) مجموعة منفصلة من النقوش، تشتمل على (٢٠٨٠) حرفاً -في مقابل (١٠٠) أو ما يقارب ذلك من جانب هالفي-. اشتملت خمسة من هذه المجاميع على (١١٥، ١٣٤، ١٤٠، ١٦٨، ١٨١) حرفاً، بينما كانت هنالك نقوش أخرى تحتوي كل منها على خمسة حروف أو أقل. احتوت المجموعة كلها على سجلات حميرية وثمودية إلى جانب بعض النقوش العبرية والعربية -ذات أهمية قليلة وتاريخ حديث-، قمت أيضاً بتسجيلها. لم تتضمن هذه المجموعة من النقوش الحميرية

والثمودية التي جـمعتها بأعـداد كبيرة من وادي حبونا ومـواقع أخرى خارج وادي نجران. كل هذه المادة المنقوشة تم تقديمها إلى الخـبراء للمعالجة، ولا أستطيع عمل شيء إلاَّ أن أعلق على بعض التـصاوير التي وجدتهـا على جدران قلعـة الأخدود وما جاورها وعلى أسطح سلسلة الجبال المثلمة.

تتطابق العديد من النقوش التي وجدها هالفي مع ما تحصلت عليه أنا بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة، كـما قمت بنسخ لتصوير لطيف غير أنه بدائي وجدته على صخور منفـصلة، كان الرسم لطفل (أو رجل) يبدو وأنه يلاعب كلباً ماسكاً أحد الكفين الأمـاميين بيده اليمنى ودافعـاً رأس الكلب إلى الخلف بيسراه. وجدت هنا أيضـاً صخرة تحمـل زخـرفة لرقعة الدامـا كانت بعض مربعاتها فاضية -اللون الرمادي للصـخرة- بينما امتـلأت مربعات أخرى بدوائر أو أصـفار عديدة بلون أكسـيد الحـديد. توجد في الجـزء الأسفل للجـدار صخرة منفـردة ضخـمة سوداء، من مادة بناء أبعادها (٣٠٥ x ٩٩x ٤٧) سنتيمتراً، مشذبه في بدائية، غير أنهـا لا تحمل أي ضـروب من ضروب الزينة، بـينما هنالك صـخور أخـرى أقل حجماً في هذه المنطقة يبدو أنها كانت معدة بكل وضوح لنوع من الزخرفة، حيث إنها كانـت تحتوي على ألواح مسـتطيلة ملساء على السطح المكشوف. كـما كانت هنالك بلكات صغيرة مشطوفة الحافة بعناية، كـما وجدت بلكتان كبيرتان من مادة بناء بالقـرب، الأولـى منهـا أبعـادها (٢٣٧ x ١٠٠x ٤٨سم) والثـانيـة أبعـادها (٢٧٠x٨٤x ؟سم).

يمكن للمرء أن يـخمن في وجود هذه الكتل البنائـية، أنها ربما كـانت لإنشاء معبـد أو لإقامة مبنى آخـر مهم أثناء عملية البـناء، حينما وقع حدث مـا اعترض مسـار العمل فـتوقف. كـان هنالك وبالفعـل نقش (هالفي رقم ٥٩٠) على بلكة

معدَّة بعناية أبعادها (١٧٢x٦٠سم) على قمة الجدار الخارجي، أو الطبقة الثامنة، بالقرب من بروز على الجدار الشمالي والذي تعلوه الآن طبقة ضخمة من الطمي تنمو فوقه شجرة أراك عملاقة.

توجد بالقرب من الجزء الناتئ التالي ناحية الغرب، وقريب جداً من الأول، بلكة ساقطة كبيرة، ملساء وتحمل انطباعاً شاحباً لغزالين أو وعلين. كما حملت صخرة منفصلة أصغر تقع إلى جوارها، صورة لجمل، وأخرى لحيوان غير معروف -ربما كان كلباً- كما حملت صخرتان بالقرب من هنا خربشة شاحبة لعدد من الجمال، وحملت صخرة أخرى صورة لرجل رافعاً يديه. كان هنالك عدد من بلكات أخرى عليها خربشات مماثلة -وشاحبة جداً-، وخطر بذهني أن الصور في كل هذه الحالات، قد أضيفت في وقت لاحق بعد أن تم إعداد البلكات لأمر آخر أكثر تأثيراً.

كشفت المباني للجزء الناتئ عند الطرف الشمالي الغربي للقلعة بعض آثار لنقوش (مكسرة) وصوراً متضمنة صورة لثعبانين يبدو أنهما يهاجمان بعضهما البعض، والمغزى مشكوك فيه. وصورة ربما تكون لرجل في قارب أو على نعامة. لقد كان محيط القلعة خالٍ من الرسم والزخرفة عدا ما ذكر أعلاه. وكان البناء المركزي للقصر يمثل مساحة مستطيلة أبعادها (١٨ X ١٥) ياردة وقد صمدت جدرانه إلى ارتفاع (٢٠) قدماً، وهي مبنية من ثمان طبقات من مواد بناء مشذبة بعناية ومتوسطة الحجم. احتوت معظم هذه البلكات على نقوش أو صور، غير أن الثلاث طبقات السفلى كانت خالية من الزخرفة. يوجد في بلكات في الطبقة الرابعة في الجدار الشمالي رسم لقدم إنسان وزوج من ثعبانين مجدولين مكررين كما كان هنالك رسم لجمل، بينما كانت جوهرة المجموعة كلها هي حصان عربي تم رسمه بدقة.

يوجد على الجدار الشرقي في الطبقة الثالثة رسم ليدين بشريتين منفصلتين، كانت إحداهما ذات الأصابع متجهة إلى أعلى بينما تتجه أصابع اليد الثانية إلى أسفل، بينما في الجدار الجنوبي يوجد رسم آخر ليد مشابهة غير أن الأصابع كانت ممتدة أفقياً. يوجد بناء آخر، إلى الشرق من هذا القصر ومنفصل منه بشارع عرضه ثمان خطوات، وهو قصر ضخم ومدمر تماماً تقريباً عدا الطبقات الثلاثة السفلى. كما توجد مجموعة أخرى من مبانٍ ضخمة إلى الشمال من هذا، غير أن الجدران الضخمة البناء كانت خالية من الزخرفة أو النقوش. لابد وأن كل هذه المباني قد كوّنت تحت كل الاحتمالات، مجموعة واحدة فخمة، تحتل الجزء الوسط والشمال الشرقي لسور القلعة. يمكن أن أذكر في ختام هذا الحديث، صمود الجدار الغربي، بين الأطلال الساقطة إلى غرب القصر المركزي، لبناء آخر فخم ومشذب بعناية، وتوجد على طبقته العليا بلكة عليها نقوش يبدو أنها لاسم رجل نبيل، هو تيم لات وتر. كما كان هنالك احتمال اسم ملكي آخر ورد في أحد النقوش (هالفي رقم ٥٨٣) بالقرب من الزاوية الشمالية الشرقية للقلعة هو عم كرب.

قد تكون القصور التي وصفت بأنها تابعة للقرون الوسطى في منطقة المدينة، قد قامت هي نفسها على أنقاض أطلال أقدم منها. كانت القصور مختلطة الداخل من كتل من طمي وجوانب مكشوفة توضح مواد بناء حجرية ولبن محروق بحرارة الشمس، وطوب محروق بواسطة الأفران. وتكسو سطح هذه الأطلال كتل من زجاج وفخار، على درجة أقل مما يشهد في المدينة نفسها، بينما يوجد في مركز القصر الشرقي ركام لحجارة يغطي ما مساحته عشر ياردات مربعة والتي قد تكون جناحاً لمستودع أو لإعاشة[1].

---

(١) الآثار والأدوات الأثرية الموجودة في منطقة الأخدود لا تعود فقط إلى التاريخ القديم فحسب، وإنما يوجد أشياء كثيرة منها تعود إلى عصور الإسلام المختلفة. (ابن جريس).

تقع إلى شمـال السياج الذي يفصل بين القـصرين مساحـة ضخمة مكـشوفة والتي ربما كانت ساحـة للسوق المحلي أو أرضاً للمعسكرات. كمـا توجد بالقرب منها بقـايا ضئيلة لمواد بناء وتنتـشر فوق المساحـة كذلك قطع أخرى مكسـرة، بينها حجرا رحى كبيرين قطر الواحد منهما (١٣٤سم). ذكرنا من قبل حجارة رحى تم اكتشافـها في الزاوية الشمالية للمدينة، بالقـرب من المدخل أو «المعبد» وتوجد إلى جواره بلكة بنـاء ضخمـه (أبعادها ٢٥١x ٨٠x ٢٧سم) وهي مرفـوعة عن سطح الأرض بعدد من الحجارة الخشنة إلى ارتفاع (١٨) بوصة. لا يحمل هذا اللوح أي نقوش أو صور، غير أنه يوجد بالقرب منه حجارة جرانيتة لعمل الأساس، مشذبة بعناية، لبناءين صغـيرين يفصلهـما ممشى، ويبدو أن هذا المـشى يقود إلى اللوح الكبير. كما توجـد على الجانب القريب (أو الممشى) لهذا الأخير قطعـتان كبيرتان للوح مكسور يحمل اللفظ «وضب» (ربمـا اسم إله) إلى جانب رسم بدائي للماريا والأسد والجمل.

يبدو أن كل هذه الأرض الـتي تقع حول المدخل الشمـالي وكأنما قـد أعدّت موقعاً لمجمـوعة كبيرة من المعابد. ولربما كانت على اتصـال مع مجموعة الأطلال الصغيـرة حول قصر الغـريري المدمر، متضـمنة ألواحاً كبيرة من مـواد البناء وكان واحد منهـا يحمل نقش (هالفي ٥٩١) مـتضمناً اسـم الآله «وضب». كان اللوح نصف مدفون في التراب وأبعاده (١٧١ x ٧٧ x ٤٥سم) وهو من الحجر الجيري، مثله مثل غيره، غير أنني وجدت هنا، كما في منطقة المدينة، كمية كبيرة من مواد البناء الجرانيتيـة. أشار هالفي إلى هذا الموقع بأنه قبيبات، غـير أنه يبدو وكأن هذا الاسم غير معروف هنا، برغم أنني قد سمـعت مرة كلمة قبوه والتي ربما تشير إلى بئر مـحلي. تسمى منطقـة نقطة الشرطة عند طرف المدينة بجـوار البئـر بابن ثامر

بصفة عامة، بينما الركام داخل المدينة يطلق عليه اسم «المدينة». وتستعمل الشخصيات رفيعة الثقافة اسم «الأخدود» الذي ينطق أحياناً أختون.

أشرت من قبل إلى المدينة العظيمة التي تقع على السهل بين المدينة والتلال. يمر طريق الفرع الجديد عبر هذه المدينة إلى سفح سلسلة البازلت التي تسمى السودة، ثم يصعد إلى ممر منخفض تم يصعد أكثر إلى وادي سقام في طريقه إلى ممر ذات علي في السلسلة الرئيسة وإلى تل أم خرق. تشمخ قمة جبل السودة إلى (٥٠٠) قدم فوق مستوى السهل وتحمل على سطحها مجموعة غرف تشبه الثكنات وكأنما هي قصر منتشر في غير ما نظام. وجدت عند أسفل السلسلة بعض المخربشات التي تآكلت إلى حد بعيد، وإلى الغرب قليلاً، وبالقرب من قاعدة الجبل الأحمر – تكوّن السلسلتان حقيقة، سلسلة واحدة بارزة من خط الجبال الرئيس – فإن الصخور الجرانيتية هي بالفعل منقرة بالكهوف وتحمل نقوشاً قليلة -واحدة عليها نقوش حميرية وأخرى عليها نقوش كوفية-. يحتفظ الحجر الرملي، من السلسلة الرئيسة نفسها من عند أم خرق وحتى رأس مسيل نهيقة، كما ذكر سابقاً، بمجموعة ضخمة من الأشكال والنقوش. لقد كانت نسبة النقوش عند سفح مسيل نهيقة أكثر من نسبة الصور، بينما كانت نسبة الصور التي توجد فعلاً، -جمال، بشر، ثعلب وعل تحيط به الكلاب، إلخ- ذات أهمية قليلة بصفة عامة. كان الاستثناء الوحيد هو رسم لثور رائع من النوع ذي السنام، ومعه نقش، يملآن لوحاً من الصخر يبرز فوق حافة الجرف حكماً بكثافة النقوش التي توجد في هذا الموقع -بما في ذلك الكهوف أو ملاجئ رير وقروه-، فلابد من الافتراض أن هذا المكان كان مدخلاً رئيساً للمدينة القديمة. علماً بأن الطريق الذي يقود إلى السهل صعب وخطر جداً، أو كان مكاناً مرتفعاً محلياً يزار لأغراض احتفالية. إن

كشف تفسير كل هذه النقوش سيؤدي بالتأكيد إلى إضافة ما إلى معرفتنا عن نجران القديمة.

توجد المخربشات والنقوش، ولكن في ندرة، في مناطق أخرى من الواحة. كما يوجد على جدران البرك الصخرية، في مسيل فوق شعيب برّان، مثلاً -وهو موقع مفضل لهواة التنزه في الأزمان القديمة- بعض الحروف الحميرية وبعض صور غير واضحة لحيوانات مع توقيعات عديدة لشخصيات مكرمية يعود تاريخها للقرن الثاني عشر الهجري. كان أول تاريخ رأيته هو (١١٠٧هـ) (١٦٩٦م) بينما كان آخرها هو (١١٧١هـ) أو (١٧٥٨م). كانت بعض التوقيعات غير مقروءة حقيقة، غير أن الأسماء التي قمت بتسجيلها كانت: سلمان بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المكرمي، وهبة الله بن إبراهيم (كلاهما عام ١١٣٨هـ) (١٧٢٥م)، وعلي ابن حسين بن علي المكرمي في السنة نفسها، ومهدي بن جعفر هبة الله (١١٥٣هـ)(١٧٤٠م)، وحسين بن سلمان بن أحمد (١١٧٠هـ) (١٧٥٦م) وأخيراً حسن علي بن هبة الله المكرمي (١١٧١هـ) (١٧٥٨م). لقد تحدثت عن القبور القديمة في هذه المنطقة، والتي يعزون بناءها إلى بني هلال، في موقع آخر[١].

سجلت في برك وهي بروز جرانيتي منخفض يقع بالقرب من بطن السيل، أسفل الوادي، عدداً من الرسوم والخربشة الثمودية وكانت ذات أهمية قليلة. اشتملت الرسومات على الجمال، وعلى رجال يمتطون ظهور الخيول وأشياء من

(١) مصطلح (بني هلال) يرد على ألسنة الناس كثيراً، فعندما يلاحظ أثر قديم، كالآبار، والكهوف، أو بعض الأبنية الأخرى يقولون: «هذه تعود إلى عصر بني هلال» دون أن يكون هناك دليل أو برهان. (ابن جريس).

هذا القبيل. لا بـد وأن هذه الصخرة كانت منذ القديم مـوضعاً مفـصلاً للبدويين المجاورين لها بسبب كثرة ما بها من البرك الصخرية، والتي، على أية حال، كانت جافة أثناء زيـارتي في شهر يوليو. توجـد صور أكثر أسفل الوادي عـلى الصخور حول بئر الخضراء وعدد قليل من النقوش (عربي وحـميري)، غير أنني كتبت عنها بما فيه الكفاية في كتاب آخر (بنات سبأ)[١]. أستطيع أن أنهي هذا الفصل الخاص بموضوع نجران القديمة بالتعـبير عن الأمل أن تكون دراسة السطح التي استطعت أن أقوم بها خلال إقامتي القصيرة التي تزيد قليلاً عن الشهرين سيكتب لها يوماً ما أن تغوص إلى أعـماق التربة بواسطة علماء الآثار الأكـفاء، والذين سيكافأ جـهدهم بكل تأكيد باكتشـافهم لمعلومات أكثر نحتاج إليها لتـملأ الفراغات في سجل تاريخ الجزيرة العربية القديمة[٢].

(١) قامت مكتبة العبيكان مشكورة بترجـمته ثم طباعته ونشر هذا الكتاب (**بنات سبأ**) في عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م). (ابن جريس).

(٢) وهذا النداء الذي أطلقه فيلبي قـبل أكثر من سبعين سنة، لا زلنا نناي به ونقـول:ـ إن منطقة نجران كنز أثري كبير وتحتاج درستـها إلى دعم مادي ومعنوي كبيرين، كما تحتاج إلى همه عـالية من المراكز البحثية العلمية ومن المتخصصين في علوم الآثار. (ابن جريس).

وادي نجران. المربعات تشير إلى مراكز التجمعات السكانية

الفصل الخامس عشر

الحياة في نجران[1]

لم نكن على استعداد للشروع في المرحلة التالية لرحلتنا، برغم أن إمدادات البترول قد وصلت، ذلك لأننا نحتاج إلى تحضيرات واسعة، خاصة إمكانية الحصول على المرشدين الضروريين واختيار الموظفين وتأمين الجمال لمثل هذه الحملة الطويلة. نحتاج إلى الجمال لنقل كميات الوقود الضخمة ومؤن الطعام إلخ، تولى العناية بهذه الأمور عامر الذي كان متحمساً لكل برامج الرحلة، وكان إلى جانب ذلك، على اتصال يومي باللاسلكي مع الرياض، ذلك لإصرار الملك على تأكيد عدم حدوث أية عقبات تقود إلى الفشل ويتأتى ذلك عن طريق تأمين اكتمال كل الاستعدادات. تحركت الحملة من عند قصر أبالسعود في اليوم الرابع والعشرين من يوليو، وتوفر لي بذلك من الوقت ما يزيد عن الأسبوعين لمواصلة استكشافاتي لنجران وما حولها.

عدت من الأخدود يوم الخميس (التاسع من يوليو) وقضيت الصباح كله أتجوّل في السوق والذي كان حيوياً أكثر في هذا اليوم مقارنة بسوق الإثنين، ويعزى ذلك لأنه من عادة الناس هنا، كما هي عادتهم في أية مكان آخر، أن تكون عطلة نهاية الأسبوع يوم الجمعة -اليوم الديني للمسلم ويوم عطلته-. يمهد سوق الخميس فرص

---

(١) لمزيد من المعلومات عن تاريخ الحياة الحضارية في جنوبي البلاد السعودية، بما فيها منطقة نجران انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ٣٣ ـ ١٩٣؛ هيفاء اليامي. **الثبات والتغير في بعض عناصر الثقافة غير المادية في ضوء عمليات التحضر في منطقة نجران**. ص ١١٩ وما بعدها. (ابن جريس).

العرض الممتازة لإعـداد المخازن الضرورية للبضائع ولجذب الزبائـن المرغوب فيهم. يبدو السوق في هذا الخـميس بالذات، وكأن كل سكان نجران قـد تقاطروا إليه في هذا الفضاء العريض الذي يعج بأنشطة السـوق المختلفة. جلست أتبادل الحديث مع صاحب أحد المتـاجر، ويدعى قاروتي وهو تاجر مـقيم دائم هنا ولكنه في الأصل من أبناء الجوف من الزيديين[1]. كان لـديه مخـزون كبيـر ومتنوع مـن البضـاعة المعروضة للبيع، ويبدو أنه كان موفـقاً في عمله، ذلك لأن متجره لم يخلو قط من الزبائن. كان لديه ما يكفي من البضائع التي تبـاع بالقطاعي، وكانت كلها مصنوعة في اليابان إلاَّ من لفة واحـدة لقماش كانت مصنوعـة في مانشستر، عـرضها عليَّ بكل فخر كما عرضها على زبائنه المعـدمين دون نجاح في بيعها ، وهو يعرضها هنا الآن بسعر القطاعي بسعر (٨) هندازز أو ثماني ياردات للريال الواحد (قل سـدس) يعني (٣) بنسات للياردة الواحدة.

تضمنت مـشترياتي زجـاجة فازلين ومرهم عطـري من صناعة شرقيـة وقوي الرائحة، كلاهما لعلاج لسعـة الشمس عند الضرورة، إلى جانب زوج حذاء (بنعل من المطاط)، ونوعين من التـبغ. تضمن مـخزون التاجـر علب الكبريـت (صناعة يابانية وروسية)، والصابون (صناعة مصرية وفرنسية من مرسيليا) والبن وقشور البن من اليمن، والحبوب من الإنتاج المحلي، إلى جانب كمية من أشياء أخرى متضمنة أدوات معـدنية (مثل خناجـر الزينة.. إلخ) التي جلبت من صنعاء ومواد فـخارية

(١) الزيديون أو المذهب الزيدي: نسبة إلى زيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذا المذهب أنشأه الإمام الهادي يحيى بن الحـسين بن القاسم عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) في صعدة ولا زال حتى اليوم هو المذهب السائد في معظم بلاد اليـمن. انظر: عبدالواسع بن يحيى الواسعي. **تاريخ اليمن المسمى فرجة الهـموم والحـزن في حوادث وتاريخ اليـمن**. (صنعاء: الدار اليـمنية للنشـر والتوزيع، ١٤١٤هـ/ ١٩٨٤م)، ص ١٧٩ وما بعدها، عصام الفقي. **اليمن في ظل الإسلام**، ص ٣٧٨وما بعدها. (ابن جريس).

جلبت من صعدة كنت أرغب في بعض الجنبيات (خناجر) إلاَّ أن النوعية التي عرضها عليَّ بعد أيام في مقر إقامتي كانت كلها متدنية ولا تستحق أن تقتنى. كانت علب الكبريت، بالمناسبة، اليابانية والروسية الصنع، قد خصصت للسوق الشرقي، غير أن كلاهما كان يحمل رقعة تعريف إنجليزية وأسماء إنجليزية، مثل ميدال وسبورت بالتتالي(١).

يبدو أن نسبة كبيرة من زوار السوق هم من النسوة، ومعظمهن طاعنات في السن عجائز شمطاوات، ملحاحات في البيع كما أنهن متسخات ويرتدين أسمالاً مهلهلة. جلس معظمهن على الأرض جاثمات فوق حطب الوقود، أو فوق أوراق النخيل (لأجل درس الحبوب) أو فوق حصائر يعرض عليها البرسيم (وهو علف للجمال) أو يعرض عليها بلح لم ينضج بعد، أو توضع عليها أطباق صغيرة من حبوب أو توابل، وعشرات من النثريات التي من المحتمل أن تفي بالاحتياجات المتواضعة لزبائنهن. وبالمقابل مع النساء كبيرات السن، فهناك سيدات شابات في أوج شبابهن وجمالهن -وكان بعضهن غاية في الجمال وكلهن يرتدين أجمل الأزياء. لا تغطي الفتيات غير المتزوجات رؤسهن، وأعتقد أن شعورهن الطويلة المستقيمة ذات التموج الطبيعي والمدهَّنة، واللامعة، كانت جذابة. يرتدي العديد من النسوة المتزوجات الشابات خصلات إضافية من نسيج صوفي أسود يزين رؤسهن، ويبدو أن النسوة كبيرات السن هن اللاتي يتميزن بارتداء الموصلين الأسود، وهو شبيه بغطاء الرأس المثبت المنتشر في نجد(٢).

(١) لا غرابة إذا كان سوق الخميس الأسبوع في نجران بهذا النشاط، لأن نجران أساساً سوق تجاري كبير منذ عصور سابقة للإسلام، واستمرت على هذا النهج حتى اليوم. انظر: عبدالرحمن الأنصاري، **نجران منطلق القوافل** ص ١٥ وما بعدها، غيثان بن جريس. **نجران**، جـ١، ص٣٢٧ – ٣٦٧ . (ابن جريس).

(٢) مثل هذه الألبسة تكاد تكون منتشرة في معظم أجزاء الجزيرة العربية، مع اختلاف فقط في مسمياتها من منطقة لأخرى. (ابن جريس).

كان معظم النسوة الشابات رشيقات الأجسام إلى حد بعيد رشيقات كذلك في كل حركاتهن، علماً بأن الأغلبية منهن لم تكن جميلات التقاطيع. كانت قاماتهن بصفة عامة جيدة. كانت أعناق جلابيبهن الداخلية مفتوحة وبلا أزرار بصفة عامة وقد شقت إلى أسفل كثيراً لتتيسر الرضاعة السريعة والسهلة للرضع اللاتي كن يحملن أولادهن حول خصورهن. كان مشهد السوق نابضاً بالحياة ومثيراً للانتباه، وقد ساعد هذا بالتأكيد، إكساب المرء فكرة عن المستوى المتدني فوق العادي للحياة في هذه الأجزاء دون إلحاق أي أذى يصيب سعادة هؤلاء القوم.

في الخميس التالي ظهر إعلان في السوق عن طريق المنادي[1]، بما يفيد أنه لن يسمح لأي مالك لمزارع النخيل أن يبدأ الحصاد إلاَّ بعد فحصها وتقييمها فيما يخص الزكاة -كان لهذا الإعلان وقع في نفسي، رحبت به كثيراً ذلك لأنه يعني أنه من الآن فصاعداً سيكون هنالك تمر طازج مع كل وجبة طعام. حضر شقيق الأمير، بالمناسبة، واسمه محمد بن نشمي، والذي كان أميراً فرعياً على بدر في هذا الوقت[2]، إلى نجران في مهمة جمع الزكاة من البدو (خاصة رسم الجمال) وقد تحصل على مبلغ (١٦٠٠) ريال لإيداعها لخزينة الدولة. قابلت أيضاً أحد

(١) المنادى: اسم مكان وله أسماء أخرى مثل:ـ الراية، أو المطل، أو المبدأ، وغيره من الأسماء. وهو عبارة عن مكان مرتفع في أرض السوق تعلن من عليه الأخبار المنوعة سواء كانت سياسية، أو اجتماعية، أو فكرية وثقافية ودينية وغيرها. وهذه عادة قديمة جداً نجدها انقرضت اليوم. كما انقرضت الأسواق الأسبوعية، إلاَّ في النادر، وحلت محلها الأسواق التجارية الدائمة. للمزيد انظر: حقي إسماعيل إبراهيم. **أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية** (عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ص ٧٠ ـ ١٠٥ ، ١٦٥ ـ ٢١٠ . (ابن جريس).

(٢) بدر: قرية كبيرة في وادي بدر الذي يمثل رأس وادي حبونا من الجهة الشمالية، ثم يمر شرقي ظهران الجنوب، ويأخذ مياهه من أطراف سراة عبيدة الشرقية. (ابن جريس).

زعماء المكارمة في آخر خميس في السوق واسمه السيد عبدالله، والذي كان حينها يقيم في خشيوة، وهي مركز طائفته[١]، والتي سأتحدث عنها فيما بعد.

كانت هذه الأسواق أماكن يتردد عليها كبار زعماء القبائل في يام، وقد قابلت من بينهم يحيى بن نصيب -كانت آخر مقابلة لي معه في الحصينية- وقد عاد للتو من حملة جمع الزكاة من حبونا ويصحبه في ذلك ابن النشمي، والذي عاد حديثاً أيضاً وفي صحبته ماريا (الوضيحي) صغيرة أهداها لي. وقد أرسلتها في الوقت المناسب إلى معرضي للحيوانات البرية بجدة، وقد أصبحت الماريا أليفة ومستأنسة هناك إلاّ أنها ماتت فجأة. علمت أنها قد تعرضت للعض من جانب أحد أرانبي الأوروبية والذي كان قد تسلل من قفصه، والمرجح أن لدغة ثعبان قد تكون هي السبب. زارني يحيى زيارة خاصة في الصباح وقبل مني هدية له عبارة عن عشرة ريالات وهو يلهج بالشكر، غير أنني عندما قابلت شقيقه جابر، في السوق كانت نظراته لي يشوبها كثير من اللوم وكأنه كلب السبنيلي المجروح. ذلك لأنني لم أكافئه بعد على خدماته التي كانت قيمة جداً غير أنني سأفعل ذلك عندما تنتهي هذه الخدمات.

خرجت معه، في هذه الأثناء، وذلك عصر اليوم التاسع من يوليو لزيارة وادي برّان الذي يدخل إلى وادي نجران من جهة الشمال، في مقابل قمم أبي همدان ورعوم. كان معظم سكان مزارع النخيل القليلة المبعثرة من لمواجد (قسم آل برّان) مع قليل من المكارمة (الإسماعيليين) والذين استقروا في هذا الموقع لأول مرة عندما وفدوا أصلاً من نجران. تشغل القرية سهلاً متوسطاً بيضاوي الشكل ينمو

(١) طائفة المكارمة لها عدة مراكز في نجران (بلاد يام)، منها: بلدة العان، وبلدة بدر، وقرى أخرى مثل:- خشيوة، وهدادة، وسهلة. انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٨٦ . (ابن جريس).

عليه نبات الحلفاء وبعض شجيرات الشار وجانب لغطاء نباتي نموذجي آخر والذي قد نما نتيجة التقاء مسايل ثلاثة جميلة محاطة بالصخور هابطة من عند سلسلة جرانيتية تكوِّن الجانب الأيسر من وادي نجران. تشمخ واحدة من القلعات التابعة للمكارمة بجمال، فوق صخرة منعزلة في موقع الانبعاج، بينما تقف قلعة أخرى -كلاهما مدمر- وعلى مسافة فوق الصخور من ناحية الغرب.

توجد على مستوى السهل أربع مزارع نخيل صغيرة مزدهرة بشكل مدهش وبداخلها قصور مبعثرة، هي بالاسم، الخضيرة، والجبجبة، وقردة وغيلة. يوجد في أولاها نقطة للشرطة حيث دعينا إلى شراب القهوة والشاي وذلك قبل مواصلة السير لأجل القيام بدراسة المسيل الرئيس المركزي. وصلنا إلى مقبرة للقدماء، على بعد مقبرة قليلة وراء الواحة على انبعاج في المسيل، وكانت هذه المقبرة تحتوي على قبور عالية بشكل غير طبيعي، كما كان يعلوها مجموعة قبور أخرى. تعزى هذه القبور محلياً إلى قبيلة بني هلال القديمة وهي بلا شك لا تبدو شبيهة بمقابر المسلمين العادية، أو بمقابر العرب.

تحول المسيل إلى ما وراء هذه إلى مجموعة من شلالات جذابة والتي لا بد وأن تكون شديدة الجمال في مواسم السيول. يوجد الماء حتى في هذا الوقت وبكميات كافية داخل التجاويف وفي البرك التي تنتشر بين الصخور والجلاميد وقد وجدنا على الكثير منها بعض أسماء للمكارمة السابقين وبعض التواريخ وبعض التضرعات الدينية وبعض الجمل العاطفية. يضيق المسيل في أثناء جريانه ناحية الشمال الغربي إلى ممر يقال إنه يقود إلى قرية تسمى غشمة تقع على بعد (٩) أو (١٠) أميال. يجري الوادي (أو المسيل) ناحية الشرق إلى ممر آخر يسمى عقبة وشيقر عبر التلال، وهو طريق مطروق لمن يرغبون الطريق الأقصر من نجران إلى

ظهران، وفي الحقيقة فإن هذا الطريق هو الوحيد المباشر بين الموقعين وهو مناسب للحمير والجمال، والتي لا يصلح لها الطريق الذي يمر بغشمة. كانت إحدى البرك، عند منتصف المسافة، على هذا الطريق، متميزة بأن ماؤها لا ينضب على مدار العام ما عدا في مواسم القحط.

وجدت من بين ضيوف الأمير، بعد غروب الشمس وعودتي للعشاء مع الأمير، ناصر بن شماخ النهدي. لقد قابلت ناصر هذا في الحصينية حينما كان يهيء نفسه للذهاب إلى خب لتحصيل الديون ويبدو أنه قد نجح في مهمته بحكم سرعة عودته (التي رحبت بها) إلى نجران. كما قابلت أيضاً أحد أتباع قبيلة الصيعر[1] بحضرموت وذلك أثناء ساعات الصباح في السوق، وكان قد جاء إلى المكان ومعه قافلة ملح جلبه من شبوة، غير أنه لم يبدو لي وكأنه يرغب أن يدعوني لزيارة موطنه. كانت كل الأمور في قبضة الأمير، على كل حال، ولم يكن هنالك ضرورة للانزعاج. لقد ورد الاقتراح بانطلاقة الرحلة خلال أسبوع، غير أن ذلك يبدو تقديراً متفائلاً جداً.

كان تصورنا أن تضم قافلتنا حوالي (٢٠) جملاً بالإضافة إلى سيارتين. لقد جلب محمد النشمي معه حجراً عليه بعض النقوش وذلك من حبونا، كانت النقوش على الجانبين -تحتوي كلها على (١٤) حرفاً فقط-. حضر الأمير والقاضي ومجموعة كبيرة في معيتهما إلى غرفتي عند المساء للاستماع إلى الأخبار، غير أن

---

(١) الصيعر ومفردها صيعري، وهو: الصيعر بن أشموس بن مالك بن خريم بن مالك (الصدف). ومالك أو (الصدف) يعرف في كتب النسب بـ (ثور) أو (كندة). ولازالت بعض فخود وعشائر الصيعر يعيشون في منطقة نجران حتى اليوم، وبخاصة في محافظة شروري. للمزيد انظر: الهمداني، **كتاب الأكليل**، جـ٢، ص٢٥ وما بعدها، وللهمداني أيضاً، **صفة جزيرة العرب**، ص ١٦٨ ـ ١٦٩، غيثان بن جريس. **نجران**، جـ١، ص ٤٢ . (ابن جريس).

التداخـلات والشوشرة الكهـربائية الجوية كـانت مثبطـة للنتيجـة. كان الموقف في فلسطين في هذه الفـترة قـد دخل إلى مرحلـة خطيرة وكـان الكل يرغب ويتطلّع لمعرفـة ما يحدث هـناك. كما وصل إلى مـقري اليهـودي يوسف وطلب مني أن أساعده في نقل جاليته من العربيـة السعودية إلى فلسطين، واقترحت عليه أن يأتي ليستمع للأخبار من القدس قبل أن يقرر.

كان الدافع، أو بعضاً منه، لرغبة اليهـود في الهجرة إلى فلسطين غريباً. لقد عاشوا لعدد من الأجيال في نجران في توافق مع أكثـر قبائل الجزيرة العربية شراسة ولم يصدر منهم ما يشـتكون منه. لا يمكن للعرب أن يستغنوا عنهم حقـيقة بسبب خدماتهم نحـو المجتمع، التي لا تقدر بثمن، إذ أنهم، إلـى جانب أنهم يصنعون الجواهر والحلي الصغيرة للنساء. فهم أيضاً صـانعو أسلحة ومختبروها في المنطقة. لقد أحسـوا الآن -وخلال السنتين الأخيرتين أو السنة الأخيـرة- أن عملهم أصبح متدنياً، ذلك لأنه تحت النظام السعودي الجـديد وأمنه، فقد تحولت السيوف، على سبيل المجاز، إلى شفرات محاريث، وأصبحت المحاريث المحلية تصنع من الخشب إلاّ من ظفر معدني لحـماية الطرف. أخبرني يوسف كذلك بأن الإمام يـحيى يبذل كل ما يستطيع من جهد لمنع هجـرة اليهود من اليمن إلى فلسطين، حقيقـة، فهم عنصر مهم جداً بين سكان هذه الأجزاء، وحقيقة، فإنهم يعاملون بأسلوب يشعرهم بالتفوق. كان من بين صناعاتهم في صنعاء، صناعة النبيذ والتي يحرم بيعها للمسلمين.

دعاني يوسف لقضاء يوم مع جاليته وقد تم الاتفاق المبدئي على الثالث عشر من يوليو، حـينما ذهبت برفـقة فرج وسـائقي محمـد بالسيارة إلى مـزارع نخيل عوكلة، بالقـرب من آل منجم، حيث أقام يوسف منزلاً دائـرياً لأسرته المكونة منه وزوجته وإبنهمـا الصغير سالم. كان منزله أكبـر قليلاً من الكوخ وكان مكوّناً من

ثلاث غرف، إحداهما في الطابق الأرضي والأخريان من فوقها وترتبط الغرف الثلاث بسلم حلزوني مبني من جدار من اللبن. لا يسمح لليهود بامتلاك الأرض في نجران، غير أن صاحب مزرعة النخيل العربي صرَّح ليوسف بالبناء. دعا يوسف عدداً كبيراً من جاليته للحضور لمقابلتي كما رحبت زوجته بالحضور، إلاَّ إنها وبعض النسوة اللاتي كن يعاونها في العمل، لم يجلسن معنا. علمت بأنه لا توجد حدود لعدد الزوجات عند اليهود، غير أنه بالنسبة للظروف الخاصة في جنوب الجزيرة العربية، وفعلياً، فإن زوجة واحدة تكفي. نادراً ما تعتنق الفتيات اليهوديات الإسلام لأجل الزواج من عربي، غير أنه قد قيل إن الإمام يحيى كانت له زوجة يهو دية -بالطبع بعد اعتناقها الإسلام- وكانت ذات جمال عظيم وقد طلب يدها العديد من الخطاب العرب، إلاَّ أنها فضلت أن تكون زوجة للإمام نفسه.

روفقنا عند قدومنا إلى غرفة الضيوف التي تقع بالطابق الأعلى حيث وجدنا طبقاً ضخماً مملؤاً بالعنب الممتاز، ودارت فناجين الشاي والقهوة أثناء تجاذبنا الحديث. كان موعد الوليمة قد حدد بفترة ما بعد الظهر، سبب ذلك، أنني ذهبت مع يوسف إلى سوق الإثنين، الذي ربما جُلب منه العنب، ولم نتمكن من العودة إلاَّ بعد أن تجاوزت الساعة الواحدة ظهراً. عرضت عليهم فكرة فترة للاستجمام والراحة بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث لبعض الوقت، فكان أن أحضر لي الفراش ووضع تحت بقعة ظليلة عند حافة المزرعة. استغرقت في نوم ممتع لمدة ساعة وصحوت على ضجيج أطفال كل المدعوين الذين دعاهم يوسف لمنزله، وقضيت لحظات سعيدة بالحديث معهم. كانوا يتمتعون بجاذبية شديدة وجدية وجمال عظيم، ثم لحقت بالكبار من الضيوف في غرفة الضيوف حيث يقدم العشاء. كان قحف اللحم الجيد الطبخ قد فاض قليلاً بالحساء وكان الأرز ليناً أكثر من اللازم،

غير أنه لا شيء ينقصه إلاَّ هذا، كما كان لدينا خبز ممتاز ومزيد من العنب، يتبعها مرة ثانية الشاي والقهوة، ومشروب قشر البن.

وصلني فيما بعد نقد لزيارتي هذه من جانب بعض العرب الأصدقاء يلومونني على تناول الخبز مع اليهود. غير أنى أوضحت لهم بأنهم «أهل كتاب» أيضاً وقد أكرموا الرسول ﷺ في المدينة. كما أن الرسول ﷺ تزوج من امرأة يهودية. مهما كان، فقد استمتعت تماماً بزيارتي للكوخ الصغير المظلم الشبيه بالحصن عند طرف عوكلة.

كان جد يوسف الأكبر، أكبر الجدود الكبار، وهو هارون، أصلاً مواطناً من مواطني حراز في اليمن، وغادرها ليعيش في أملح في بلاد الوعلة جنوب وادي الفرع. تناسل هارون وتكاثر هنالك وكان له خمسة أبناء انتشروا في عدة اتجاهات بحثاً عن سبل كسب العيش في مجال مهنة العائلة وهي صناعة الفضة، وصناعة الأسلحة وإصلاح الأسلحة، والطب البيطري وما شابه ذلك[1]. ذهب اثنان منهما إلى صعدة وخولان، وظل آخر في أملح لمتابعة أعمال والده وحضر الاثنان الأخيران إلى نجران وهما بالاسم: سعيد وسالم. كانت أسماء الثلاثة الآخرين هي إحسان، وسليمان، وداود، -وكلها أسماء خمسه عربية جيدة- وهذا للعِلْم. كان لسالم ابنان ما يزال نسلهما موجوداً في نجران وهما يوسف وهارون، وحفيد حفيد يوسف الأكبر، وسعيد بن داود بن يحيى بن يوسف، وقد كان واحداً من مجموعتنا التي تكوَّنت من ثمانية رجال بالغين وحوالي (١٢) امرأة وطفل. لعله مما يفيد تقديم جدول للأجيال التي جاءت من سلالة هارون والموجودة في نجران كما يلي:

---

(١) اليهود كعادتهم من قديم الزمان يعملون في الأعمال الحرفية المهنية مثل: صناعة الأسلحة، وصياغة الذهب والفضة، وغيرها من الأعمال الصناعية والتجارية، بخلاف العرب الذين كانوا يأنفون من العمل في مثل هذه الحرف، بل ويحتقرون من يعمل فيها. (ابن جريس).

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
هارون	سعيد	قلسة	يعيش	داود	موسى	
—	—	—	—	—	سعد	
—	—	—	—	—	يحيى	
—	—	—	—	—	يوسف	
—	—	سالم	يحيى	عباس	يوسف(مضيفي)	سالم
—	—	—	—	—	مذمان	
—	—	—	—	جميل	داود	
—	—	—	—	—	يوسف	
—	—	—	—	—	يحيى	
—	—	—	—	—	سعيد	
—	—	—	—	سليمان	يحيى	
—	—	—	—	—	موسى	
—	—	—	—	—	مسعود	
—	سالم	يوسف	جميل	سالم	سعيد (في أملح)	
—	—	—	—	داود	موسى	يحيى
—	—	—	—	—	—	سعيد
—	—	—	يحيى	(داود)	سعيد	
—	—	—	—	مسعود	سعيد	
—	—	—	مسعود	يحيى	سعيد	
—	—	هارون	سعيد	يوسف	يحيى	سعيد
—	—	—	—	—	—	مسعود

لقد وضعت خطاً تحت الأسماء الخمسة وكلهم من أفراد الجيل السادس، وقد تمكنت من مقابلتهم في هذه المناسبة، كما وضعت داود داخل أقواس، ذلك لأنه هو العضو الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة من أفراد الجيل الخامس. كان الأفراد القليلون الذي ورد ذكرهم في الجيل السابع قد بلغوا سن الرشد في هذا الوقت، غير أنني لم أشغل نفسي بالحصول على أسماء الأطفال، ما عدا ابن يوسف، واسمه سالم. كما لم أرهق نفسي بتأكيد أية تفاصيل عن أنسال هارون في أية مكان آخر غير نجران، فهم كثر بكل المقاييس.

لقد كان اليهود من نسل هارون، كما ذكرت، من أصل يمني، وقد ظلوا في نجران لمدة خمسة أجيال[١] أو ما يعادل (١٠٠ عام)[٢]. كانت هنالك فرقة يمنية أخرى تعرف في هذه الجالية باسم العوعوي تنتمي إلى جميل بن سعيد وهو يهودي نجراني أمكنني أن أقابله عند وصولي إلى آل منجم. كان هو وخاله الثاني، يوسف بن داود من ضمن حضور الحفل في عوكلة، وكانا هما الحفيدين لداود وسعيد، إبني جميل. كان من ضمن العواوين الذين ورد ذكرهم لي، غير أنه لم يكن موجوداً حينها، هو عيضة بن سعيد بن جميل، ويعتقد أنه خال ليوسف، كما كان ضمن الحضور شقيق يوسف، واسمه سعيد، أيضاً من أبناء نجران. وكذلك سعيد بن عفريم بن يحيى بن عواذ الشرعبي، ربما من أصل يمني أيضاً، وكان موجوداً في الحفل، غير أن هذه السلالة قد تكون خطاً محلياً، ويجد المرء نفسه مدفوعاً للتفكير في أن يكون هذا الخط للأسرة هو الصلة الوحيدة الباقية على

(١) هاجر كل يهود نجران الآن إلى فلسطين. (المؤلف).

(٢) البعض من يهود نجران تركوا اليهودية واعتنقوا الإسلام أثناء دخول منطقة نجران تحت حكم الملك عبدالعزيز، ثم عملوا في أعمال حكومية عديدة، ولا زال أولادهم وأحفادهم يعيشون في أماكن عديدة من المملكة العربية السعودية، وينهجون نهج أهل الإسلام. (ابن جريس).

قيد الحياة التي تربط اليهود مع الأخـدود القديمة أو المستعمرات القديمة في كل من ناحي، وأجمع وعرم -وكلهـا مدمرة الآن مع بعض النقوش العـبرية تـذكر الزائر بوجودهم-. وهذا مجرد تخمين اقترحه غير أنه يوجد خط آخر، ولعله أكثر قدماً ليـهود في نجـران أصلهم جـاء من العراق. يبـدو أن هؤلاء اليـهود يمثلون اليـوم بعائلتين على رأسهـما من بين الأحياء كل من سعيـد بن جميل بن هارون بن داود وسعيد بن يحيى بن داود بن سليمان. كان كاهن الجالية عراقياً أيضاً، رجل طاعن في السن، لم أتحصل على اسمه، ولم أقـابله، يجب عليَّ، في الختام، ألاَّ أنسى الأسرة التابعة لقبيلة لاوي العبرانية وهو الخط الذي تفخر به هذه الجالية والتي كان يمثلها في هذا الوقت هارون بن سعيد بن سالم بن سعـيد اللاوي. وتشير استدامة وتكرار ورود اسم سعيد -مع تحويرات أخرى مثل سعد ومسعود- إلى حياة سعادة ورفاهية، وهو أمر مثير للاهتمام، إلاَّ أنه مشوِّش ومحير.

تبدو الجاليـة وكأنها مؤلفة من نصف دسـتة من أصول مختلفـة، ربما كشفت هذه الأصول عن موجات هجرة مميزة. قمت بزيارة كل من أجمع وعرم في طريق عودتي لقصر أبالسعود، ويقعان بالقـرب من الصخور خلف مزارع الدحضة، غير أنه لا شيء يُرى هناك غيـر بعض القبور اليـهودية وبعض النقوش العـبرية. لم أر مثل هذه النقوش في الأخدود أو ناحي، إلاَّ أنه قد أمكنني العثور على بعضها في وقت لاحق بين (ردوم) (أو القبور) على ممر نهيقة. كان إجمالي عدد أفراد الجالية اليـهـودية في نجران فـي هذا الوقت حـوالي (٨٠) شخـصـاً بما في ذلك النسـاء والأطفال. وتنتشر مساكنهم في المزارع المختلفة[١].

(١) لم يستمر مكوث اليهود في نجران بعد دخـولها تحت الحكم السعودي، وإنما خرجوا إلى أجزاء عديدة من بلاد اليمن، أو إلى بلاد الشام، وبخاصة فلسطين. (ابن جريس).

لم تتحقق دعوة الغداء التي وعدت بهـا جابر أبو ساق حتى حان يوم رحيلي من نجران إلى الجنوب. عسكرنا في تلك الليلة عند الطرف البعيد لنخيل آل منجم، والذي تبلغ المسافة من عنده إلى الطرف الغربي لصفا في الممر الذي يفصل بين الأجزاء السفلى والأجزاء العليا لواحة نجران حوالي (٢٣) كيلومتراً بناءً على سجل عداد سرعة سيارتي أو حوالي (١٤,٥) ميلاً ونصف الميل، لم تستطع السيارة الاستمرار إلى أبعد من صفا، والتي أعتقد أنها تبعد حوالي أربعة أميال (على أقصى تقدير) من الموفجة. ويبلغ امتداد واحة نجران كلها، على هذا الأساس، حوالي (١٨) ميلاً. قمت بقيادة السيارة من هذا المعسكر الأخير عند العصر في طريقي إلى معسكر جابر في سهل سعيد الكثير الأشجار، والذي يمتد فوق محيط التلال الكبير الذي يصب فوقه مجرى الأثايبة ومسايل سيول ذات أهمية أقل من بين الجروف التي تمتد إلى التلال.

لقد رتبت تفاصيل سلسلة النسب التي جمعتها من جابر في هذه المناسبة والتي ليس لديَّ جديد يقال عنها. كان العشاء ذلك العصر سخياً جداً، إلا أنه من النوع العادي. لم يكن من عادة قبائل نجران، حتى وقت قريب، أن يجلس الضيوف حول طبق طعام مشترك، كما فعلنا في هذه المناسبة، غير أن كل ضيف يقدم له نصيبه منفصلاً، يقاس هذا النصيب، ربما، حسب أهمية الشخص[1]. دُعي هذه المرة أفراد قليلون ممن حضر وليمة جابر وقد دعيت أنا وكذلك فرج وبالطبع جابر نفسه. قدم اللحم في قحف ضخم منفصل ذي أبعاد كبيرة، ووضع

(١) للمزيد عن العديد من الأعراف والعادات والتقاليد الموجودة في جنوبي البلاد السعودية، بما فيها منطقة نجران، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ــ ١٤٠٠هـ**، ص ٣١ وما بعدها، فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٢٣ ــ ١٣٧ . (ابن جريس).

الخبز في قحف آخـر وهو خبز مخبوز بالسمن وبإسـراف ومنثورة عليه قطع شحم مسطحة، كان اللحم قاسياً ولكنه طبخ بطريقة لذيذة، كما كان اللبن ممتازاً.

تمكنت خـلال هذا الوقت من إتمام استكشـافاتي لكل القـسم الشرقي لـواحة نجـران من عند آل منجم إلى صـفـا، وهو امتـداد طولي يصل إلـى (١٢) ميـلاً وبعرض الميـل الواحد في المتوسط مـن طرف مزارع نخيل إلى الـطرف الآخر في الوادي الواسع، ذلك إذا تجاهلنا الانبعاج المشاهد في منطقة النخيل داخل الخلجان المختلفـة للتلال الشمـالية بواسطة الجانب الضـيق لصفا والحضن ومـواقع أخرى. تغطي شرق نجران، على هـذا الأساس، بما في ذلك مزارع نخيلها وحـقول ذرتها الصفـراء والأراضي الغير مـزروعة، مساحـة تقدر بـ (١٢) ميـلاً مربعاً أو تقـريباً (٧٦٨٠) اكرا، لنقل (٨٠٠٠) اكرا، وكلها محصورة في وادي يبلغ حجمه ثلاث مرات هذا الحجم من قاعدة التلال التي تمـتد من ممر صفا إلى موقع خروج الوادي إلى فـجوة الدريب التي تقع أسـفل خط رجـلا – منجم بقليل. لا توجد زراعـة أسفل هذه الفجوة عدا حقول صغيرة بالقرب من جزيرة برك الصخرية والتي تسمى أيضاً الرجا. يكسو بقية المجرى أشجـار الطرفاء والأراك وغيرها خاصة عند النقاط التي تخرج منها بطون سيول قـادمة من عند التلال على جانب الوادي الأيمن وعند فم شعيب دخل من ناحية الشمال.

لقـد قمت بوصف القـرى المقامـة على الجـانب الأيمن للوادي مسـبقـاً وهي بالاسم: الحضن والبديع، والقابل وما جاورها، ورجـلا وضواحيها. تنقسم مزارع النخيل التي على الجانب الأيسر في مساره إلى أعلى، إلى عدد من المزارع الصغيرة لكل منها اسمه الخاص وتكون عدداً من الأقسـام وأجزاء أقسام- أكثر هذه الأقسام

ازدهاراً في الواحة هو ذلك الذي يقع بـين آل منجم وبني سلمان[١] (بالقرب من قصر أبالسعود) وهو أغنى أجزاء المنطقة كلها.

لا تتلقى مزارع نخيل نجران رياً صناعـياً ذلك لأن جذور الأشجار تمتص الماء من المياه السطحـية في الوادي الرئيس ومن روافده العديدة. كمـا توجد، بالطبع، أعداد كبيرة من الآبار ذات الأعماق المختلفة غير أن معظمها ضحل، إلاَّ أنه يستفاد منها في ري محاصيل الحبوب التي بدت وافرة الثمار بشكل مدهش وكانت سريعة النمو. يُحـصد محصـولان للقمح في العام وثلاثة مـحاصيل للشعـير، وثلاثة أو حتى أربعـة، حسب الموسم للذرة والدخن. وتزداد سيـقان الذرة متـانة أثناء النمو وتطول، ولقد يتـجاوز ارتفاعـها من (١٢) إلى (١٥) قدمـاً. كما يوجـد تسويق ضعيف لمنتجات نجران وعادة ما تكون أسعار الجملة منخفضة بصفة عامة. ينحصر محصول التمر من الصنف المسمى حـمرة وهو من نوعية متوسطة. ويكوِّن الرمان محـصولاً نقدياً إضـافياً غيـر أنه لم يستو بعـد في هذا الوقت كما أنه من نوعـية متدنية وبذوره بيضاء وقشوره خضراء.

نذكر من بين المناطق المذكورة أعـلاه والتي تقع إلى أسفل مع اتجاه الوادي كل من المذنب التي تتشارك فيها قبيلتا آل فاطمة (عند آل منجم) وآل الهندي (عند زبيد وزبدة). ثم تأتي ملامـسة لها تقريبـاً، من ناحية الغـرب، بنى قدمة ويغلب فيـها مواطنو قـبيلة آل فـاطمة مقـارنة مع آل الهندي - فتتـكون من ست آبار أو مزارع مقابل خمس- وكما توجد إلى الغرب أكثر، وتقريباً بلا شيء يفصل بينهما، أكبر المجمـوعات، فعلياً، والتي هي أيضـاً مشاركة بـين القسمين. حيث تمتلك قـبيلة

(١) إلى جانب بني سلمان يوجـد في نجران قرى وفخوذ أخرى تدعى: ــ بني سليـمان، أو آل سليمان، أو ابن سليمان. (ابن جريس).

هندي تسع وحدات ويملك آل فاطمة (١٥) وحدة بما في ذلك زلع (أو ضلع) التي تقع بالقرب من النهاية الغربية، وأيضاً القصر الشخصي وممتلكات جابر أبو ساق. كما تدار، إضافة لذلك، أربع منشآت شراكة بين عناصر من قبيلة آل فاطمة وعناصر من قبيلة آل الهندي. تكوِّن هذه المجموعات الثلاث وهي المذنب، وبني قدمة، وصاغر، وهي منطقة مميزة تسمى مخلاف وهي مصطلح من عصور وسطى. يتوقع المرء، أن مثل هذه الأوضاع للملكية المشتركة (في الأزمان السابقة) قليلاً ما عاشت فيها القبائل في سلام مع بعضها البعض، علماً بأن أرض المخلاف هذه هي أكثر أجزاء كل نجران مشاكسة وتكوّن قضاياهم معظم دعاوى الملكية التي تعرض على كل من الأمير والقاضي[١].

تسود قبيلة آل هندي إلى الغرب من منطقة المخلاف وعلى جانب الوادي الأيسر متضمنة، مزارع نخيل الحاضنة، وآل مستنير، وبئر ربيع التي تقع قليلاً إلى ما وراء قصر أبالسعود، والتي تعتبر في عرف القبائل أرضاً لا مالك لها وتضم سوقاً وأرض المعارض.

تكوِّن قصور الأشراف ومزارع نخيلهم في المخبأه على الجانب الأيسر للوادي خروجاً واستثناء للعرف العام بملكية قبيلة آل الهندي لهذه الأرض، والتي تمتد، بالطبع، فوق الجانب الأيمن أيضاً من عند رجلا وحتى القابل. يتمم خط يربط بين النهاية تجاه أعلى الوادي لقابل، مع بئر سالم، الحدود الغربية لقبيلة آل الهندي، بينما تحتل قبيلة لمواجد تقريباً كل مكان، بصرف النظر عن الاقتحامات على حقوق

(١) صراع القبائل والعشائر وسكان القرى على حدود المزارع ومسائلها، وكذلك على الأحمية التي ترعى فيها المواشي تكاد تكون من أهم المشاكل والقضايا التي عاشتها ولا زال يعيشها جزء كبير من سكان جنوبي البلاد السعودية. بل إن أرشيفات المحاكم الشرعية، ودوائر الشرطة، والحقوق المدنية مليئة بالوثائق التي تؤكد صحة ما ذكرنا. (ابن جريس).

الغير من ناحية الغرب. يقع مركز سلطان بن منيف في الحريزي في ممر رجلا على الجانب الأيمن، بينما تقع عوكلة وهي مزرعة نخيل في اقصى الغرب، وكثيفة جداً، وتتبع المخلاف على الجانب الأيسر، وقد سبق ذكرها بكونها موطن يوسف اليهودي. تنتمي كل من ابن زبعان وكل من مزارع النخيل التالية من جهة الغرب وهي دحضة، بين الهضاب المنعزلة البارزة لكل من خلقه وفريخ، إلى قسم الصقور التابع لقبيلة آل الهندي، بينما يملك آل الحارث (أيضاً آل الهندي) مجموعة آبار بني سلمان الكبيرة وأيضاً المزارع التي تقع بينهم وبين قصر أبي السعود.

تقع مكاتب الرئاسة لإخوان ابن نصيب، وهي الأسرة الرئيسة في لمواجد، في مجموعة من القصور إلى الغرب من قصر أبالسعود وبالقرب من مزارع نخيل المراطة والشبهان. كما توجد بالقرب من هذه مزرعة صغيرة تدعى ابن حامد ومعظم مساحتها تشغله بركة كبيرة نسبياً ويتمركز فيها مجموعة من الأطلال ذات الأهمية الضئيلة، ويبدو أنها تتكون من ثلاثة أو أربعة قصور وكلها ليست حديثة، وربما كانت قديمة جداً. تقع خشيوة بالقرب من هذه القصور ناحية الغرب وهي مقر رئاسة طائفة المكارمة (الإسماعيلية) في نجران. يبدو هذا البناء وكأنه قصر أكثر منه منزلاً، كما أنه ليس بالقلعة، وهومحاط تماماً بحديقة ذات جدران ضخمة تحتوي الحديقة على أشجار النخيل وعلى العديد من أشجار الفواكه. كما توجد للمنزل واجهة ضخمة تفتح داخلياً ناحية الحديقة، والمنزل مكون من طابقين فقط، ويبدو أنه قد أعد لتأمين راحة النازلين فيه.

لقد ذكرت مسبقاً، قلعة عن المكارمة في شعب بران، وهي نصف مدمرة، وتطل على الوادي. توجد أسفل خشيوة وليست ببعيد منها مزرعة نخيل ذات اعتبار تدعى علو المخلاف، يمتلكها المكارمة أيضاً وتحتوي على قصر جذاب وقد

أحرقته قوات الزيدية المحتلة، وهم الذين قاموا أيضاً بتدمير جزء من المزرعة والتي ظلت جذوع أشجارها المحترقة واقفة لتروي القصة(١). لا يبدو أن الزيود أضروا كثيراً بخشيوة، وكما قيل لي، فإنها قد أنشئت منذ (٨) أو (٩) سنوات قبل زيارتي هذه. إن المكارمة محصنون، مثلهم مثل الأشراف، ضد مضايقات القبائل وذلك لاعتبار مكانتهم الدينية. يطلق على رئيس الجماعة عادة اسم داعٍ، -قارن مع لفظ داي في الجزائر- ويطلق على المجتمع أحياناً القرامطة وهم الذين قد انتشروا غرباً من منطقة الأحساء في الجزيرة العربية في القرن العاشر الميلادي. كان من أشهر المكارمة وإلى أزمان حديثة نسبياً المدعو حسن بن هبة الله وهو رئيس نجران في القرن الثامن عشر وهو الذي غزا وسط الجزيرة العربية وهاجم القوة النامية للدولة السعودية في الدرعية والرياض(٢).

قمت في نهاية استكشافي لهذه المنطقة برحلة خاطفة قصيرة إلى غرب نجران، متفقداً نقطة الشرطة في الموفجة وكذلك النهاية السفلى للسلسلة. كان هنالك الكثير الذي يستحق أن يُرى خلال فترة العصر، فقمت، قبل مغادرتي نجران إلى الجنوب، بإعادة الزيارة إلى الموفجة لمدة ليلتين في العاشر والحادي عشر من يوليو لتكملة استكشافاتي للجزء الأعلى للواحة وكذلك السهل الذي يليها. كان سهل صفا الدائري هو الرابط بين قسمي الواحة وهو ممتلئ بعشب الحلفاء والسمار (غفق) وبه مزرعة نخيل لا بأس بحجمها وكذلك عدد من القصور. يحيط بهذه

---

(١) اعتداءات القوى الزيدية في صعدة على بلاد نجران لم تكن وليدة العصر الحديث، وإنما جذورها التاريخية تعود إلى أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ولمزيد من التفاصيل انظر: الواسعي. **تاريخ اليمن**، ص ٧٢ وما بعدها، غيثان بن جريس. **نجران**، جـ١، ص ١١٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن نشاطات حسن بن هبة الله المكرمي العسكرية ومهاجمته الدولة السعودية الأولى في الدرعية، انظر: عبدالله العثيمين. **تاريخ المملكة العربية السعودية**، جـ١، ص١٠٠ ـ ١٠١، ١٠٦ ـ ١٠٧. (ابن جريس).

من ناحية الغرب الرعن الأسفل لأبي همدان، والذي عند نهايته ينحني المجرى في لطف ويدخل وادياً ضيقاً ويمر بفم شعيب بران وأيضاً بمزارع نخيل سلوى والتي تمت حمايتها من الإنجراف بجدار حجري متين يمتد من عند بداية المنحنى إلى هضبة رعوم في مواجهة جرف عن المكارمة. إن رعوم نفسها، وتحيط بها قلعة قديمة لا تزال تستخدم ويرقى إليها الإنسان عن طريق ممشى متعرج على جانبها الجرانيتي، هي أيضاً تابعة لأبي همدان، وتنفصل عن رعنه بممر ضيق يسمى نجد يقود إلى سهل صفا.

لم يكن هنالك ما يثير الاهتمام في كل من قريتي صفا وسلوى، غير أن سلسلة قمة همدان التي تقع خلف صفا تسيطر على منظر عظيم لكل الجزء الأعلى لنجران. أنها تؤلف مساحة بيضاوية ذات اعتبار ومحاطة بتلال ممزقة من كل جانب مع وجود مدخل ضيق جداً يقود إلى الوادي عند النهاية العليا ووجود مخرج أعرض يقع به نخيل صفا ونخيل زور آل الحارث، الذي يبطن الجانب الأيسر للوادي في الجهة المقابلة لنا وذلك لبعض المسافة. تقع على يسارنا واحة زور وادعه الضخمة وهي محتضنة بين قاعدة أبي همدان والسلسلة العالية التي تستمر ناحية الغرب. كانت كل الأراضي، حقيقة، الواقعة بين الجانب الأيمن العريض المنحني للوادي وبين التلال المحصورة على ذلك الجانب، عبارة عن كتلة من نخيل تتخلله قصور السكان. كما تقف غابة ضخمة من القصب والحلفاء، وشجيرات من أنواع مختلفة وبعض الأشجار بين النهاية العليا لنخيل زور آل الحارث والموفجة عند قمة الشكل البيضاوي. يمتلك كلا الزورين أهالي لمواجد ينتمون إلى آل الحارث بينما ينتمي الفخذ الذي يضم الموفجة إلى ابن الحزوبر (وهم أيضاً مواجد). تعادل المنطقة كلها ثلث القسم الشرقي لنجران أو أقل، وكان الفارق الرئيس بين الإثنين

هو أن الوادي أسفل صفا جاف دائماً، ما عدا في مواسم السيول ولمدة قصيرة بعدها، بينما في الحوض الأعلى فإن مجموعة من البرك المستديمة تعلّم المجرى. وتكون المياه السطحية قريبة جداً من سطح التربة، وذلك لقرب الصخر التحتي، حيث أن أية اضطراب أو تحدب في هذا الصخر التحتي يؤدي إلى رفع الماء فوق سطح الرمال. ينمو على هذه البرك أيضاً غطاء نباتي ثري مكون من نبات الزعتر، والنعناع البري، ونباتات عطرية أخرى إلى جانب القصب والأسل وكلها في الحوض الأعلى.

لم تكن كل من الموفجة وزور آل الحارث بالمزارع المزدهرة الكبيرة، غير أن زور وادعة تنافس وتبز أي مزرعة أخرى في شرق نجران من حيث الحجم والثراء. تسيطر هضبة بارزة على سفح أبي همدان على منظر رائع لهذه الواحة الجميلة والتي تباهت ذات يوم بقلعة صغيرة، هي الآن مدمرة، تسمى الحصن، ويبدو أنه كانت بها أحواض من الأسمنت وأنبوب إسمنت أو قناة لجر المياه إليها من بين الصخور من جانب التل. قمت بزيارتها وأنا في طريقي إلى قمة أبي همدان خلال اليوم الثاني لي في نجران، غير أنه لا يوجد ما يشاهد فيها غير الإسمنت المحطم، وكان بعضه في موقعه الأصلي، والحجارة المتساقطة من القلعة.

يقود الطريق من عند الصفا إلى الموفجة، بعد أن عبرنا المجرى وبركته الكبيرة الضحلة وهي آخر بركة في السلسلة حيث وصلنا إلى ممر ضيق جداً عبر غابة قصب كثيفة يرتفع نباتها إلى علو (١٥) قدماً، ومن ثم إلى أراض مرتفعة يغطيها أشجار الطرفاء، ثم عبر براري الحلفاء إلى أولى القرى ومزارع النخيل. كانت نقطة الشرطة عند الطرف البعيد للنخيل، وليست بالبعيدة عن المضيق الضيق الذي يهبط عن طريقه

الوادي. يقود طريق آخر أكثر دوراناً إلى الموفجة عبر نخيل زور وادعه ثم إلى بئر مثلع عند الطرف البعيد والذي عنده كنت قد شاهدت قصراً مدمراً وبئر نحى التي نضب ماؤها منذ زمن بعيد، -قيل إنه كان مقر قرية يهودية قديمة- مع عدد قليل من أشجار النخيل لا تزال قائمة لتطيل التفكير حول الأيام الجميلة التي مضت.

ينحدر مجرى شعيب مدر بين ناحي وزيته، وكلاهما مدمر، من عند جلاميد مدر في اتجاه الجنوب ليتصل مع الوادي نفسه. وينحدر أيضاً، وعلى مسافة ليست بالبعيدة، شعيب سفيرة من عند السلسلة التي تحمل الاسم نفسه تجاه الجنوب الغربي بالنسبة للوادي، قليلاً أسفل المضيق، حيث تغطت كل أرضية الوادي بملاءة من مياه ضحلة. كانت المياه هنا وفي المضيق منسابة بالفعل، ولكن بسيلان هزيل. أقمنا معسكرنا في حديقة بالقرب من نقطة الشرطة، والتي دعانا أهلوها لتناول العشاء معهم في الهواء الطلق.

كان عرض الممر الصخري الضيق، الذي ينشق عبره الوادي عبر حاجز صخري متين (ارتفاعه ٢٠٠ قدماً) يمتد من السلسلة على الجانب الجنوبي إلى حوالي (١٠٠) ياردة من السلسلة الشمالية، حوالي عشرة أقدام ويسمى جَلَد. تسمى الفتحة العريضة التي تقع قليلاً ناحية الشمال للمضيق، وعبر هذه تنحدر السيول لتنحني إلى الخلف إلى الوادي بجانب الموفجة، أو حتى عبرها. يتحزز هذا المجرى، أو مجموعة المجاري، وذلك لوجود أكثر من بطن سيل واحد، عميقاً في الرمل والحصى وجانباه غزيران بشجر الطرفاء وبغطاء نباتي آخر. يمر الوادي عبر المضيق فقط ويقال إنه عادة ما يكون جافاً في الموسم الجاف، إلاً أنه في هذا الوقت كان عمق مائه حوالي (١٨) بوصة وكان ممتلئاً بأسماك صغيرة. كان الارتفاع هنا (٤٧٠٠) قدم فوق سطح البحر وحوالي (١٠٠) قدم فوق قصر أبي السعود.

يبلغ طول مضيق جلد حوالي (٥٠) ياردة من الشرق إلى الغرب. يوجد عند جانبه الشمالي وقريباً جداً منه ممر آخر عبر الصخور، يبلغ عرضه أيضاً ٠عشرة أقدام، والذي ربما قد تم إنشاؤه لضخ الفائض للمياه في حالة ارتفاع منسوب المياه إلى ذلك الحد في مقابل سد يبدو أنه مقام في وسط المضيق نفسه، حكماً بآثار القطع المشاهدة في الصخور على كلا الجانبين، والتي ربما قصد بها أن تمسك نهايات الحاجز. وتم كذلك نحت مجرى ضيق عرضه ثلاثة أقدام، في صورة مماثلة، على الجانب الجنوبي للمضيق، على جانب الصخور، لينقل المياه إلى ما يمكن القول عنه أنه ثكنات قديمة أو معسكر، والذي أقيم هنا لإيواء الحراس الذين يقومون بمراقبة السد. يبدو أن كل هذا التركيب القنواتي، والخليج المسدود، ومصرف الطوارئ، وأنابيب نقل الماء، كلها من عمل الإنسان في الأزمان القديمة حينما كان اهتمامهم ينصب على تأمين الماء الكافي لنجران ذات الكثافة السكانية الأحسن.

يوجد خلف الحاجز الصخري حوض دائري طبيعي ضخم يبلغ قطره نصف الميل ينحدر على جوانبه مجريا جلد والمضيق، عبر أراضي ذات غطاء نباتي من الطرفاء والأراك والشار وبعض التين البري، في طريقهما إلى مجرييهما حينما ينفصلان بعد أن أقبلا معاً كمجرى نهري واحد عبر المضيق العميق الضيق الذي يخترق الجبال. يلتف الوادي هنا -ويسمى في هذه المنطقة المضيق- ويندفع بصورة مذهلة بين سفوح شديدة الانحدار إلى حيث بطن الوادي الذي يتراوح عرضه بين (٥٠) إلى (١٥٠) ياردة، يكون حيناً رملياً، وحيناً مكسواً بجلاميد متساقطة، تبدو الآن بارزة من الأساس الصخري التحتي، يكون أحياناً جافاً، ويكون في مواقع من مجراه نهراً جارياً. يتجه الوادي بصفة عامة ناحية الجنوب الغربي ومسافة ميل

ونصف الميل عبر الطريق الملتف إلى أن يبرز في السهل العظيم والمستوي إلى حد ما، والذي يدخله الشعيب الرئيس، شعيب مروان من ناحية الجنوب الشرقي، ليتصل مع شعيب العَرَض من ناحية الغرب وشعيب رفيدة من جهة الشمال الغربي.

يمر المجرى الموحد في ممر مضيق بين كتفي صخرة تسمى طربية مكوّنة مداخلاً مناسبة لمجرى وادي نجران. وينحدر شعيب مروان، الذي يشكل الأطراف الحقيقية العليا لنجران، من خلال تلال سهل صعدة، حيث يتشكل من اتحاد عدد من المجاري المائية المنحدرة من الجبال الشرقية للمدينة. ينحدر شعيب العرض من عند جبال خولان، ناحية الشمال، ماراً بواحة النقعاء في الطريق ثم يمر بأسفل سلسلة عالية تسمى فرد والتي عليها توجد بعض علامات الحدود بين اليمن والعربية السعودية. يعتبر شعيب رفيدة رافداً ثانوياً ينحدر من الممر المرتفع لعقبة رفيدة، والذي عن طريقه يوجد درب مطروق يقود إلى ظهران[١]. يوجد في الأرض العريضة التي تلتقي فيها هذه المجاري، كمية كبيرة من الطمي المترسب تنمو عليه مجموعة من أشجار الأثل الكبيرة والتي منحتنا ظلاً لطيفاً حينما استرحنا لتناول الغداء. كانت كل التلال المحيطة من الجرانيت مع بعض الشست والكوارتز.

واجهتنا هنا معضلة غريبة في مجال تحديد الحدود. توجد مقبرة يمنية صغيرة على الجانب الأيمن لشعيب مروان، عند الموقع لذي ينبعج فيه في الأرض المنبسطة ليقابل مجرى شعيب العرض. لم تكن جنسية ساكني هذه القبور هي موقع

(١) المقصود بـ (ظهران) هي:ـ ظهران الجنوب إحدى محافظات منطقة عسير من الناحية الجنوبية، وهذه البلدة تقع ضمن بلاد قحطان ووادعة، ومجاورة تماماً لبلاد نجران من الجهة الشمالية والشمالية الغربية. (ابن جريس).

النزاع. حسم أداء قَسَم بسيط من جانب اليمنيين بأن هذه المقابر تتبع آل ثعلة، من عشيرة الوعلة. كانوا يمنيين، لم تجد لجنة الحدود -كما نصحها الخبراء المختصون- صعوبة في إقرار أن المقبرة أرض يمنية.

يتبع شعيب مروان، بشكل مشابه، ويجري عبر أراضي يمنية في معظم امتداده. عدا مسافة الميلين الأخيرين اللذين ينتهيان عند المقبرة. يتجه المجرى في هذا الموقع من الجنوب إلى الشمال، وعرضه هنا (١٠٠) ياردة وعلى الجانبين تلال معترف بأنها تتبع لقبائل لمواطنين يتبعون العربية السعودية. قررت لجنة الحدود أن بطن الوادي الفعلية يجب أن تعتبر ممراً تحت السيادة اليمنية يقود إلى المقبرة ومتضمناً لها. وقد وضع على طرفها مجموعة من حجارة تعليم الحدود لإرضاء الجميع. لم تكن هنالك ضرورة لوضع عمود مماثل على الجانب المقابل للشعيب، وليس من المحتمل أن هذا اللسان النحيل من بطن الوادي الذي يبلغ طوله الميلين وعرضه المائة ياردة سيكون مصدر نزاع. غير أنه في حالة نشوب حرب، فسيجد اليمنيون أن هذه المقبرة البارزة لا يمكن الدفاع عنها. يتصل، بالمناسبة، شعيب صغير آخر يسمى سوع بالملتقى العام لكل من فم شعيب مروان ورأس المضيق. صعدنا عند هذا الموقع إلى (١٢٠) قدماً فوق مستوى جلد.

بدأنا من عند هذا المكان التسلق على تلال منحدرة نسبياً تحيط بالجانب الأيمن لمروان. ووصلنا بعد فترة إلى مضيق ضيق يسمى الدغماء[١] على ارتفاع (١٠٠٠) قدم فوق المقبرة وفوق عمود الحدود. استطعت من هنا أن أقوم برسم الحدود

(١) الدغماء يطلق عليها أيضاً فرع الدغماء، انظر: عبدالله القباع. **العلاقات السعودية اليمنية**، ص ٤٠٦ (ابن جريس).

وعلاماتها كما أوضحها لي المرشدون الذين ساعدوا في وضع حجارة الحدود. كان عمود الحدود الثاني واقعاً بعـد المقبرة على تل يسمى أسعر[١] على الجانب الأيسر لمروان، الذي يدور ناحية الغـرب فجأة، وذلك على مسافة قليلة فـوق أسعر وعند موقع التقـائه مع شعيب شوك الذي يأتي من جهة الجنوب، من بين جـبل مقاشع الذي يقع داخل انحناءته وجبل غزال في المنحنى بين دورانه نحو الغرب من شعيب شوك. كان مـوقع عمود الحدود الثـاني عند مقاشع، التي تأتي بعد أسـعر، وكان العمـود التالي فيـما يلي مقـاشع من فوق سلسلة تسـمى الضرك[٢] على الجانب الأيسر لمروان. يلي هذا عمود حدود آخـر حددت له البقعة الوسطى من بين ثلاث نتوءات على رأس جلمـود فرد[٣] الضخم والذي يكون كـل من جانبه الشـمالي، وشعيب العرض عند سفحه، إقليماً سعودياً، كما هو حال الإقليم التالي المحصور بين الشريط الذي يصل فـرد، وضرك، ومروان من عند ضرك إلى أسـفل. وابتدأ من مكان التقاء مقاشع تتجمع شوك ومروان ثم تسير السلسلة بالاتجاه نحو نهوقة، كما سيتضح بعد قليل.

تبعد نقطة الملتقى عن المضيق الضيق للدغماء بمسافة تقدر بحوالي ميلين ناحية الجنوب الغربي ومن هناك أمكننا رؤية شعيب شوك ناحية الجنوب لمسافة تبلغ أربعة أميال. أستطع رؤية سـلسلة قيري وهضاض وكلاهما يحـمل علامات الحدود من

---

(١) أسعر، يقع ضـمن الحدود بين اليمن والسعودية ويطلق عليـه أيضاً (جبل فريض أسعـر)، انظر: القباع، **العلاقات السعودية اليمنية**، ص ٤٠٧ (ابن جريس).

(٢) الضرك:ــ يذكر القباع هذا المكان باسم (رهوة ضرك) في حين ابن زلفة يذكره «رهوة الفرك»، وأعتقد أن الصحـيح هو رأي القباع. انظر: القـباع، المرجع نفسـه، ص ٤٠٦، ابن زلفه، **عسـير في عـهد الملك عبدالعزيز** ص ٢٦٣ ــ ٢٦٩ (ابن جريس).

(٣) فرد:ــ يطلق عليه في الحـدود المرسومة بين اليمن والسـعودية اسـم (قهـر فرد). القباع، ص ٤٠٦، آل زلفة، ص ٢٦٩ .

الناحية الغربية، والتي سأصلها مع الوقت من جانب ناحية ظهران. ينحدر شعيب العرض بين السلسلتين وقد رأينا أجزاء منه من عند المضيق الضيق.

هبطنا من عند هذا الموقع إلى خليط من مسايل تتحد مع بعضها البعض لتكون مجرى فرعه الدغماء الذي يتجه شمالاً ليتصل مع المضيق الضيق. ارتفعنا مرة أخرى إلى مستوى المضيق إلى منطقة ذات صخور جرانيتية أملستها الرياح تسمى الظهر والتي أعادتنا مرة أخرى لموقع نرى منه أبو همدان وعلامات أرضية أخرى لنجران. أمامنا الآن مسيرة طويلة ومرهقة على الأقدام على امتداد مسيل فرع الراك[١] الممزق الذي ينحدر فوق أراض قابلة للترسب والتي علينا أن نطوف حولها وحول جلاميد ضخمة والتي كان السير فوقها أمراً صعباً جداً. وصلنا في النهاية إلى المجرى السهل لشعيب الصفراء وسرعان ما وصلنا إلى المعسكر لننال قسطاً من الراحة وننعش أنفسنا بتناول الشاي والعنب في انتظار وجبة العشاء. تجمعت السحب في السماء أثناء العصر وأثناء المساء حيث تساقطت قطرات من المطر والتي يبدو أنها أثارت نشاط البعوض المحلي إلى حد بعيد. تناول رجال الشرطة وجبة العشاء معنا واستمعوا للأخبار والموسيقى على جهاز اللاسلكي، غير أن التداخل الكهربائي الجوي كان كثير الخذلان لهم.

بدأنا المسيرة عبر الأراضي تجاه رأس وادي نهوقة في الصباح الباكر لليوم التالي، بعد أن قمنا بإرسال عفشنا إلى قصر أباالسعود. قام كل من جابر وصالح اللذان رافقانا كل هذا الوقت خلال زيارتنا إلى الموفجة، بدور المرشد، بإرشادهم

---

(١) فرع الراك:ـ ذكر فيلبي هذا المكان بهذا الاسم، مع أننا وجدنا بعض المراجع التي ناقشت الحدود بين اليمن والسعودية لا تذكر مكاناً بهذا الاسم، وإنما ذكرت (جبل فريض الراكة) ومن المحتمل أنه المكان الذي قصده فيلبي. انظر: القباع، ص٤٠٧، آل زلفة، ص٢٦٩ (ابن جريس).

لنا سلوك طريق بئر مثلع عند حافة زور وادعه. لاحظت بمحض الصدفة انهما غير قادرين على تحمل العطش في مثل هذه الحملات الدافئة في التلال. لم تكن لديهما فكرة عن الاقتصاد في استخدام الماء، وكانا يعتمدان دائماً على عامل الحظ أو المعلومات المحلية للحصول على حاجتنا من المياه، بينما استطعت أنا وبسهولة أن أكتفي بجرعتين من الماء متى ما أحسست بالحاجة إليه.

كان هدفنا الأول هو الوصول إلى كتلة الحجر الصخري البارزة التي تسمى زبرة التي تقع على صخرة عبيان التي تطل بدورها على وادي نهوقة على الجانب البعيد. بدأ تسلقنا على مسافة من ناحية الموفجة إلى ما وراء بئر مثلع ووصلنا خلال أقل من ساعة، وبعد جهد جهيد، إلى نقطة تماس الحجر الصخري التي ترتفع إلى حوالي (١٣٠٠) قدم فوق سطح الوادي. وصلنا بعد ارتفاع (٥٠) قدماً أخرى إلى منصه حجر رملي عليها سلاسل جبلية هنا وهناك. كان اليوم جميلاً، ولأول مرة أرى قمم خولان البعيدة فيما يلي باقم وأرى كذلك سلسلة ضحه وهي تحيط بوادي حبونا من الجانبين.

كان الصعود إلى قمة زبرة التي ترتفع إلى حوالي (٤٠٠) قدم فوق سطح الهضبة وحوالي (٦٥٠٠) قدم فوق مستوى البحر، صعوداً سهلاً من جهة الشمال حيث بدا الحجر الرملي وكأنه مدرجات لطيفة، وكل ما شاهدته في الطريق كان ضرباً من الزخرفة البدائية منها رسماً لوعل على صفحة جدار نحتته الرياح كأنه مأوى. استطعت من هذا الموقع أن أرى ميحار إلى البعيد ناحية شرق الجنوب الشرقي وكذلك سلسلة العشّة تجاه صعدة ناحية جنوب الجنوب الغربي، وكذلك جبال السراة البعيدة ناحية الجنوب الغربي. كان كل ما يهمني، من وجهة نظري هو أنني استطعت أن أحدد بعض النقاط الحدودية التي أرغب في تثبيتها في

خريطتي لهذا الجزء من الحدود. لاحظنا في هذه الأثناء، قطيع ماعز على الهضبة، عند القاعدة، وبناء على هذا فقد ذهب صالح ليحضر لنا كمية كبيرة من الحليب والتي بلا شك رحبنا بها كثيراً.

كان عمود الحدود عند صبغة آل شنينة مشاهداً لنا ناحية الشرق على هضبته الصغيرة فيما يلي المنخفض العريض لوادي نهوقة. يحمل هذا العمود (الرقم ٥) من جولتي السابقة من عند أم خرق، وأستطيع الآن أن أقوم بتثبيت موقعه. كان العمود السادس مرئياً أيضاً ناحية جنوب الجنوب الشرقي (رأس غربة)(١) الذي يقع عند رأس مسيل بالاسم نفسه والذي ينحدر هابطاً من عند الجلاميد إلى الجزء الأعلى من وادي نهوقة. كان موقع العمود السابع على رأس هجا إلى الجنوب الغربي من موقعنا على سلسلة مدر الطويلة المواجهة لشعيب المدر وشعيب صفيرة، وكلاهما مصبان لوادي نجران. يتجه الشريط من هنا إلى قمة الدغماء -التي يبدو أنها ليست معلّمة- وتقع بالقرب من المضيق الضيق الذي قد ذكر آنفاً، ثم يتجه إلى أسفل إلى بقعة (غير معلّمة) على الجانب الأيمن لمروان مقابل أسعر. يتبع الشريط الأيسر الجانب الأيمن لمروان إلى حيث عمود مقبرة آل ثعلة (رقم ٨)، ثم يعبر إلى بقعة غير معلّمة على الجانب الأيسر ومن ثم يتبعه إلى أسعر (رقم ٩). يتجه الشريط بعد ذلك إلى مقاشع (رقم ١٠) ومنها إلى ضرك (رقم ١١) ومن هذه إلى فرد (رقم ١٢). كما أخبرت بأنه إلى جانب هذا فإنه توجد حجارة حدود على شحاط الغميرة(٢) وعلى جبل الاتم وعلى جبل هضاض، غير أن كل من

---

(١) رأس غربة:ـ هذا الاسم الذي ذكره فيلبي، ولكن بعد الرجوع إلى بعض المراجع وجدنا أنه يطلق عليه (رأس عربة) وهو أحد أعمدة الحدود بين السعودية واليمن. انظر: القباع، ص ٤٠٥ (ابن جريس).

(٢) شحاط الغميرة: من الأعمدة الحدودية بين السعودية واليمن، وقد ذكره القباع باسم (شحاط الغمرة)، المرجع السابق، ص ٤٠٦ . وأورده ابن زلفة باسم (شحاط الغميرة). المرجع السابق، ص٢٦٩ . وأعتقد أن ما ذكره فيلبي (شحاط الغميرة) هو الأصح. (ابن جريس).

جابر وصالح كانا غير واضحين حول هذه المعلومات، لأنها تقع خارج بلادهما، وعليَّ أن أقوم بدراسة هذه المواقع عن قرب أكثر خلال الشهور القادمة. إنني قنوع الآن بأن الحدود قد تم تثبيتها من عند تنصاب إلى فَرد، إلاَّ أنه لا يزال هنالك الكثير من العمل على نقاط مختلفة على هذا الشريط والتي سينظر في أمرها بعد عودتي من الجنوب[١].

سرنا على حافة الصخرة من أسفل زبرة إلى أن وصلنا إلى قمة الجرف المطل على وادي نهوقة، الذي يكوِّنه انحدار العديد من المسايل من عند مدرج لجدران منحدرة صعبة والذي تراكمت الصخور المتساقطة عند قدمه إلى مئزرة من كتل فلزية. توجد نقطة شرطة أخرى في وتر الجلمود وتحتل موقعاً بين الأشجار الجيدة النمو والجنبات الكثيفة على جانبي المجرى، وهي عبارة عن خيام، كل خيمة تقع داخل زريبة من أعواد الشجيرات، كما لاحظت أيضاً، قليلاً إلى أسفل أن هنالك عدداً من خيام البدو المنتشرين في ظلال الأشجار إلى جانب حظائر من أعواد الأراك لأغنامهم. رأيت هنا أيضاً عمود حدود بارز (والذي أعطيته الرقم ٦أ) ويقع إلى يمين عمود رأس غربة[٢] وعند قمة مر عقبة[٣] التي يقود إليها طريق نجران - صعدة الرئيس، من عند رأس الوادي.

لم يكن في مقدوري أن أنصرف لاستكشاف هذا الموقع خلال هذه الفترة، غير أنني قمت بذلك بعد عودتي من الجنوب، ولعلي أقوم بسرد تفصيلي لوصفها

(١) لمزيد من التفاصيل عن أسماء مواقع الحدود بين السعودية واليمن التي تم الاتفاق عليها في معاهدة الطائف عام (١٣٥٣هـ). انظر: عبدالله القباع. **العلاقات السعودية اليمنية**، ص٣٧٨ وما بعدها، محمد آل زلفة. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٠٥ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) راس غربة :ـ الصحيح رأس عربة. (ابن جريس).

(٣) قمة مر عقبة: يقصد به عقبة نهوقه، والعمود اسمه الصحيح (رأس نهوقة). انظر: القباع، ص ٤٠٥ (ابن جريس).

فيما بعـد. كان هذا الجرف يقوم على ارتفاع (٦٢٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وكان حجر تماس الحجر الرملي يجلس فوق طبقة خفيفة (حوالي ١٨ بوصة) من كتلة مشكلة خشنة، يقع أسفلها جرانيت ذو لون رمادي جزئياً (تقريباً أبيض) وجزئياً بلون داكن. كان ارتفاع قاعدة هذا الجلمود حوالي (١٢٠٠) قدم تحت القمة، التي وصلناها بعد تسلق نشط بين الجلاميد المتناثرة وعبر رفوف ضيقة فوق أجزاء ترسبية للصخرة.

حضر الأمير لمقابلتنا بعد سماعه بعودة فريقنا وبأننا نخطط لزيارة نهوقة، وفي رفقته كل من القاضي والقائد سالم ويحيى بن نصيب، وقد اجتمعنا كلنا في الخيمة الرئيسة لنقطة الشرطة مستمتعين ببرودة المساء وبالقهوة والمنعشات الأخرى، حتى حان وقت صلاة المغرب، وبعدها عدنا كلنا مستغلين سيارة البك أب الوحيدة، منطلقين بها أسفل الوادي إلى حيث نقطة الشرطة التي تقع عند مفترق (الحضن) والبديع، ومن هنالك توجهنا إلى معسكرنا. كانت المسافة حوالي تسعة أميال من عند البئر القديم والذي تقوم الشرطة حالياً بحفره مرة أخرى عند رأس نهوقة وقد قمنا بالقاء نظرة عليه أثناء توقفنا هناك، وذلك لنوازن احتمالات حصولهم على الماء منه ثم نقله إلى قصر أبالسعود الذي يبعد بأكثر من الميلين بقليل من عند نقطة شرطة الحضن. توجهنا إلى منزل سيد علي الجنيدي الذي كان يتوقع حضورنا لتناول العشاء عنده، وقد قام بتقديمي لمدير المالية الذي عين حديثاً في هذا المنصب وهو شاب مصري يدعى محمد البيومي، والذي، لسعادتي قد أحضر لي معه بريدي من أبها – مجموعة خطابات تراكمت خلال ثلاثة أسابيع وإلى جانب الصحف التي أرسلت لي من جدة قبل (٤٠) يوماً! كان ترحيبي بالبريد شديداً خاصة ونحن على وشك المغادرة، ولن نرى البريد والصحف بعد

الآن مدة قد تطول. أخبـرني الأمير عن قصة رجل قدم حـديثاً من الجنوب حاملاً أخباراً عن اكتشاف لآثار في وادي مـرخة في بلاد عُلقى، والتي قد قمت بزيارتها فيما بعد.

لم يكن من ضمن المدعوين يحيى بن نصيب حينما أعلن لنا عن العشاء وكان غيابه بسبب أنه لم تقدم له الدعـوة بالتحديد. كان ذلك، على أي حال، خطأ بلا شك، وقد طلب الأمير من فرج أن يذهب لإحضاره، وقد فعل. أصابتني الدهشة وأنا أرى فرج يدخـل غرفتي وقـد لبس أجمل الملابس، وسـألته أن كـان سيـقوم بمقابلة سيدة له - كان حساساً جداً لمثل هذه الأشياء، وكان يعرف ما عليه القيام به بالنسبـة لمثل هذه المواضيع إلا أنه أجابـني بالنفي، لدهشتي، وأضاف أنه قـد جاء لتقـديم استقالتـه عن خدمتي من الآن، وأنه يريد كل مسـتحقاته. تجـاهلت طلبه وحاولت أن أخفف عنه، وكل ما استطعت أن أستخلصه منه أنه كان غضباناً غضباً شديداً محتجاً أن يرسله الأمير كأنه الخـادم الخاص له لإحضار يحيى للعشاء. لقد جرح هذا التصرف كـرامته. ناقشته بلطف غير أنـه انصرف ولم يهدأ، علماً بأنني أعرف أنـه سوف لا يغادر المـكان دون استـلامه لاستـحقـاقاته، إلى جـانب أنني بالتأكيد لا أرغب في أن أفقد خدماته القيمة.

كـان فرج من أحـسن الرجـال الذين خبـرتهم في كل رحـلاتي، وبرغم أنه يتعرض لبعض الحالات المزاجية، فقـد كان يكبح جماح نفسه معي، وكان في هذا إجهاد لكل منا، كانت البلاد التي سننتقل إليها، بالطبع، غير مألوفة لديه، ويجب عليَّ أن أذكر أنني كنت سعيداً حينما رأيته صباح اليوم التالي، وهو لا يزال غضباً ولا يزال يهـدد بالمغـادرة، إلاَّ أنه كـان يرتدي مـلابس العـمل، وطوى النسـيـان الموضوع كله.

كان موعد مغادرتنا، حقيقة، أبعد مما قد اعتقدناه تلك الليلة، إذ أننا لم نتمكن من المغادرة إلاً بعد عشرة أيام أخرى. دعانا في المساء التالي، مهندس اللاسلكي، واسمه محسن جلال إلى العشاء معه واستمعنا إلى بعض التفاصيل عند كارثة اقتصادية حدثت خلال ذلك اليوم. لقد حضر مدير المالية الجديد ليكنس الأمور بمكنسة جديدة، فما أن أعلن رجال الأعمال المحليين بالإصلاحات الجديدة التي سيتم إدخالها في نجران حتى أقبل كل التجار الزيود كرجل واحد، لمقابلة الأمير باحتجاج قوي ضد المشروع المقترح. كانت العملة المعيارية في جزيرة العرب الصحراوية هي ريال ماريا تريزا الذي ضرب عام ١٧٨٦م وهي عملة تحمل دائماً هذا التاريخ، وصورة الامبراطورة واسمها ومتى وأين تم سكها ولا توجد دولة محتكرة لسكها.

أدخلت الحكومة السعودية قبل عشرة أعوام من تاريخ اليوم الريال العربي، الذي سك لأول مرة في مدينة برمنجهام، ويعتمد على الريال التركي المجيدي من حيث الحجم والمحتوى. لم يكن هنالك اعتراض على هذا التطور، طالما لم تكن هنالك محاولة لإسقاط العملة القائمة المحبوبة، غير أن المصاعب المالية إلى جانب أسباب أخرى قد قادت إلى تغيير آخر حديث، إذ تم تعطيل سك الريال العربي، وحل محله الريال السعودي بحجم ومحتوى الفضة كما في عملة الروبية[(١)].

أحضر مدير المالية معه من مكة العملة الجديدة، ولتثبيتها فقد تم الإعلان عنها أنها ستكون هي العملة القانونية التي يقبل التعامل بها في نجران - وبالطبع في أي

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ تطور العملات في المملكة العربية السعودية، انظر: غيثان بن جريس. **عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، ص ٢٠٥ ـ ٢١٢؛ مبارك المعبدي. **النظم الإدارية والمالية**، ص٩٣ وما بعدها، محمد علي مغربي. **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز خلال القرن الرابع عشر الهجري**. (جدة: دار العلم للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م) ص ١٦١ وما بعدها. (ابن جريس).

مكان آخر-، ولها قيمة الريال العربي نفسها وبالسعر نفسه، إلى جانب عملات صغيرة من النيكل هي بالاسم (٢٢) قرشاً دارجاً (القروش العادية) للريال الواحد. يتم إعادة كل ريالات ماريا تريزا إلى الحكومة حيث تعتمد في مقابل الضرائب بسعر (٢٤) قرشاً دارجاً للريال. وهذه مضاربة مربحة بلا شك للحكومة، والتي لن تدفع إلى السوق أي ريالات ماريا تريزا أو ذهباً في مقابل التزاماتها. يعني هذا أن الموظفين والشرطة سيكون لديهم فقط إما الريال السعودي أو الريال العربي للتعامل بهما في المتاجر، ولدفع - بالمناسبة - ديونهم القديمة، التي تسبب فيها طول انتظارهم لرواتبهم، عن طريق تراكم الرصيد الدائن، الذي كان التجار كرماء فيه. أعتقد أن الأمير كان متعاطفاً شخصياً مع المجتمع المحلي ضد الأساليب الجديدة لمصلحة المالية في مكة. وسيأخذ الموضوع، بلا شك الكثير من الوقت ويجلب الكثير من المتاعب لجعل العملة الجديدة تجد القبول في المجتمع الذي كان ولعدة أجيال قد تعامل في مودة مع الريال الفرنسي -فرنسي أو فرانسي كما كانوا يسمونه- والبقشة المتواضعة (تعادل زلطة أبها) وشاحي (خمسة بقشات) التي ساعدت على تقسيمها إلى أجزاء لا حصر لها.

أحضر علي الجنيدي جهاز (جرامافونه) بعد أن غادر الأمير والقاضي، وجلسنا نستمع إلى إسطوانات عربية لأم كلثوم ولمطربين آخرين. كما وصلت إلى مسامعي الأخبار باستدعاء الحملة العلمية المصرية إلى صنعاء في صورة مذلة وذلك لمحاولتهم الشروع في القيام بعمل حفريات غير مصرح لهم بها في وادي خريد. كما قيل لي إن مشروع زيارتهم إلى عمران وقلفة قد عطل، إلى أن يقدموا للإمام تأكيداً قاطعاً بأنهم لن يقوموا بالحفر مرة أخرى. لقد تقلصت حرية حركتهم بكل تأكيد، ولعله في مثل هذه الظروف قررت البعثة حزم أمرها ومغادرة اليمن إلى

عدن في طريقهم إلى حضرموت، حيث سأقوم هناك بمقابلتهم وتبادل الانطباعات حول تجاربنا معهم.

دعانا محمد البيومي في الليلة التالية للعشاء وقد قضيت يوماً مريحاً في صحبة بريدي. غير أنني خلال اليومين التاليين كنت متقلب الحال أحاول مقاومة علامات الحمى التي لا تخفى عليّ والتي لحسن الحظ لم تكن شديدة الخطورة. كنت -على أي حال- قادراً على مقابلة الرجال المتوحشين الذين جمعهم الأمير لي لقيادة مجموعة الجمال الخاصة. وكانت علامات المغادرة لبداية الرحلة المتوقعة في أية لحظة قد تضاعفت في سرعتها مع تكرار الأعذار التي لا مفر منها. لتحاشي تفاؤلية أكبر. نقل إلينا جهاز اللاسلكي، في هذه الأثناء، الأخبار بأن السيد أورمسبي قور (O.Gore) قد أجرى مقابلة مع الوفد العربي في لندن حول تعيين اللجنة الملكية برئاسة اللورد (Lord Peel) بيل لإعادة فحص مشكلة فلسطين بغرض إيجاد حل يرضي اليهود والعرب على السواء. لقد تحول الطقس الآن، وبلا شك، نحو الأحسن، وكانت الليالي، في السطح جميلة بشكل مدهش، حيث كنت أنام دائماً، وكنت أرى كلاً من الدائرة القطبية والمشتري يتلألأن بين ملايين النجوم. اختفى الضباب المعروف حتى خلال ساعات النهار ووقفت تلال الوادي خاصة في أوقات الصباح الباكر واضحة مثل البلور وقد تحددت فيها الزوايا والصدوع وجوانبها المتجعدة.

أديت صلاة الجمعة (١٧ يوليو) في مسجد القصر ولأول مرة وهو فناء كبير عارٍ ذو أجزاء ضحلة مغطاة في صفوف من الأعمدة ناحية القبلة فقط (الشمال الغربي). بعد انتهاء الصلاة التي أمَّها القاضي، عقد الأمير استقبالاً جماهيرياً لكل الموظفين والأعيان المحليين. كان موضوع الحديث الرئيس، بعد مناقشة مسألة

فلسطين بإيجاز وأخبـار الاعتداء بالأمس على حياة الملك إدوارد أثناء الاسـتعراض في حديقة هايد بارك، هو حول المشكلة المالية المحلية. كان بعض الإشكال ينحصر في أن المعـاملات التـجارية للتـجار الزيود مـرتبطة مع اليمن القـريب، أكثـر من ارتباطـها مع مكة البـعيدة، وأن العـملة السعـودية لا تقبل فـي اليمن في مـقابل البضائع[١].

أحسـست بالحمى بعد عـودتي إلى حجـرتي غير أن الحـمى هذه المرة كانت خفيـفة وقضيت بقية اليـوم في غرفتي عاجزاً في قـبضه التصعيـد المتدرج للحمى وكنت أدفع نفسي دفعـاً إلى السطوح وبصعوبة عند الساعة العاشـرة مساء لأتغلب على الحمى بالنوم. تفاعلت مع الأحداث فـي اليوم التالي بهدوء، على الرغم من أنني حضـرت حفل العشـاء على شرف الأمـير الذي دعاه الدعـيجي، وهو رجل شرطة آخر وصل حـديثاً. لم أكن في حالتي الصحية التـامة، لأحكم على جودة الطعام الـنبيل الذي قُدم لنـا، وقد هاجمـتني الحمى مـرة أخرى في اليـوم التالي ومنعتنـي هذه المرة من أي نشاط للمرة الثـانية. كنت على وشك أن أتقـيأ حـينما أخبرت بوصول مضمان، شقـيق اليهودي يوسف، وأنه ينتظر أسفل السطوح ومعه قط بري اصطاده بالرصاص. لقد تغلبت إثارة هذا الخبر علـى الحمى حينما حضر إليّ وهو يحـمل قطة عادية سـوداء من ذيلها! كدت أن أتـقيأ في التـو واللحظة، وأدرت رأسي لأقابل الحمى القادمة.

لقد أعطيت الأمير كل ما لديّ من دواء الكوينين في الخرمة، ويبدو أن نجران خاليـة تماماً من هذا الدواء، غير أن شـخصاً طيـباً تمكن من الحصول على بعـضه

(١) لمزيد من الإيضـاح عن الأحوال التـجارية في نجـران أثناء زيارة فيلبي لهـا في منتصـف القرن الهـجري الماضي، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٨٦ وما بعدها. (ابن جريس).

وقدمه لي هذا اليـوم، وأشعر الآن بتحسن بسـببه، غير أنني ظللت صـامتاً طوال اليوم التـالي في انتظار مغادرتنا التي اقـتربت والتي لم أرغب في تعطيلهـا بسبب مرضي. كما لم أقم بالمشاركة في تناول عشاء الأمير وفضلت أن أنام مبكراً.

صحـوت مبكراً على غـير عادتي في الـيوم التالي، حـوالي الساعـة الرابعة صباحاً، قبل الشروق بقليل. كان صباحاً جميلاً، اتكأت على حاجز السقف الذي يحيط بسقف غرفتي لأستمتع بمنظر الفجر. عـبرت سحب خفيفة عالياً في السماء بينما انتشر ضباب خفيف فوق الوادي، حيث تشاهد برك هنا وهناك لمياه سيول لم تمتصها التربة، فوق المجرى الرملي الذي يجـري ناحية السطح المستوي بلطف وقد كساه اللون الوردي الـذي ظلل عان الدريب ناحية المدخل الشـرقي لنجران. تحول هذا اللون ببطء إلى لون برتقالي عميق وهذا بدوره تحول إلى اللون الأصفر المتسخ عندما برزت الشمس فـجأة فوق الأفق الواضح. كان هنالك ضجـيج وصياح في الفناء السفلي، بينما كنت مشغولاً بمـراقبة هذا المنظر، ولما نظرت إلى أسفل ناحية مصدر الإزعاج، رأيت الدعيجي وفرقة صغيرة من رجال الشرطة يحاولون الفصل بين مجـموعتين غـضبانتين ممن يدّعـون استعدادهم للقـتال وقد نجـحوا في وقف الشجـار في نهاية الأمـر. لاحظت لبعض الوقت بروداً وعـداوة مقنعـة بين سالم أفندي، ضابط الشرطة، ومـوظفي مصلحة المالية والذين يوجـه لهم الاتهام بأنهم يخدمون أنفسـهم جيداً على حساب الجنود ورجال الشـرطة الذين تأخرت رواتبهم كثيراً.

كان هنالك مـبرر في هذا الاتهام غيـر أنه ليس هو بالفرصة الحـقيقيـة لحرب مدنيـة بين المجموعـات المختلفـة للموظفين السعـوديين. تطورت هذه المرارة برغم محاولات الأمير للتخـفيف منها ببراعة، وأما مشاجرات الصبـاح فقد نشبت فجأة

بسبب شجار بين سالم ومحسن جلال بعد صلاة الفجر في المسجد، ولربما واصل مؤيدوهما الشجار إلى نهايته لولا تدخل الدعيجي. توقعت أن ننطلق في رحلتنا في اليوم التالي، غير أن الأمير كان مشغولاً بهذا الحدث السيء، لينظر في احتياجاتي، برغم أنه بعد أن قام بالاستجوابات حول الموضوع بقدر ما تمليه الظروف، انتهى بتوجيه مذكرة لوم شديدة إلى سالم مذكراً إياه بأن من واجبه هو الحفاظ على الأمن وليس الإخلال به.

امتنع سالم عن حضور حفل عشاء الجنيدي تلك الليلة التي وقع فيها الإزعاج، وامتنع كذلك عن حضور عشاء الدعيجي في الليلة التالية، وكانت تلك آخر ليلة لنا في نجران في الوقت الحاضر. أمضيت ساعة أو ساعتين جالساً في الحديقة الصغيرة التي أنشأها الجنيدي بعد جهد في جناح سكنه الغير واسع، غير أنه قام بزراعة مساحة صغيرة بالدخن، والذي ينمو الآن بصورة حسنة، إلى جانب نبات الفاصوليا وبعض الخضراوات الأخرى، وأقام صفاً من الجنداز كحاجز في محاذاة جانب الحديقة. كما أقام معرضاً صغيراً للحيوانات البرية يتألف من ستة غزلان (إدمي) كان قد رباها على لبن الماعز. كان معنا محمد النشمي، شقيق الأمير، وقد أخبرني بأن أصدقاءه يتهكمون عليه ذلك لأنه كان يسجل كل ما يفعله في مفكِّرة مذكرات خاصة (مثلي).

تناولت لأول مرة، بالمناسبة، بلح نجران الناضج في إحدى هذه الأمسيات، وكان بلحاً جيداً للدرجة التي جعلتني أشعر بالأسف بأنني سأغادر نجران تاركاً ورائي مثل هذه الرفاهيات. تحدثنا عن مناجم الذهب وإمكانية تطويرها في الجزيرة العربية وأخبروني عن حجر غريب تم العثور عليه في هذه الأجزاء وهو مجوف وممتلئ بسائل ويحتوي على قطعة من حديد بداخله. لم يحضروا معهم، للأسف

عينة منه لأفحصها. أسرّ إليَّ علي الجنيدي أنه لا يحب البقاء في نجران، فأخبرته بأنني من جانبي وبلا شك لا أشاركه رأيه هذا. على الرغم من أنها قد تكون مكاناً غير مريح للحياة فيه في الأيام التي سبقت العصر السعودي حين كانت الحروب القبلية أمراً مستديماً، والتي حكى لنا الأمير عنها حكاية في أحد لقاءاته العامة والتي كان ثلاثة من شيوخ القبائل المعنية بالقصة ضمن الحضور.

أرسل الأمير لإحضار بعض المأكولات الخفيفة وجلسنا كلنا حول طبق كبير ممتلئ بالتمر نمضي الوقت في الحديث عن أيام زمان وأيام الحاضر. طلب مني الأمير أن أتأمله هو وسلطان وجابر وجابر الآخر، كلنا نشارك بعضنا في تناول الطعام من طبق واحد، مشيراً إلى أن هذا كان لا يحدث إطلاقاً في الماضي! إذ كانوا حينها كلهم أعداء لبعضهم البعض، يتطلعون لقتل بعضهم البعض ولا يتحركون حتى داخل مزارع نخيلهم دون حراسة[١].

لقد سئموا هذا النمط من الحياة، وقرروا ذات يوم، الدعوة إلى هدنة. اتفقوا على اللقاء معاً في بقعة بعينها – كانت سهل سعيد المقابل للمخلاف- شريطة أن يحضر كل واحد منهم إلى مكان اللقاء ومعه تابع واحد فقط. اتفقوا هكذا، حقيقة، غير أن لا أحد بين الثلاثة يثق تماماً في الإثنين الباقيين، وكان أن ذهب كل واحد منهم لمكان اللقاء ومعه عشرون تابعاً مسلحاً، طالبين منهم الاختباء بين الشجيرات، حتى يستغرق الرؤساء الستة في النقاش، وحينها يقفزون من بين الأشجار على كل المجموعة المجتمعة ووضع حد للنزاع القائم وإلى الأبد بقتل

(١) ما يذكر فيلبي من حلول الأمن والاستقرار بين شيوخ وعامة أهل نجران، لم يكن فقط محصوراً في تلك البلاد وإنما انتشر في جميع أنحاء المملكة العربية السعودية، وصار عموم الناس في رخاء وأمن واستقرار. وهذا يعود إلى فضل الله عز وجل على هذه البلاد، ثم إلى جهود الملك عبدالعزيز آل سعود الذي عمل جاهداً على محاربة الفوضى والصراعات القبلية التي كانت ضاربة أطنابها في كل صقع من أصقاع البلاد. (ابن جريس).

المنافسين الآخرين لرئيسهم. وحدث هذا، تماماً كما خطط له ثلاثتهم يدفعهم عدم ثقتهم المتبادلة في بعضهم البعض، وحينما حانت ساعة الصفر، تحركت ثلاثة جيوش إلى الفضاء المكشوف لبدء معركة لم ينج منها إلاَّ الرؤساء الثلاثة الذين هربوا أحياء، وهم الذين نراهم الآن يتناولون التمر معنا من الطبق المشترك نفسه في تمام السلام والأمن الذي جلبناه لهم. وسأل الأمير ثلاثتهم إن لم يكن ذلك هو الحقيقة. فكانت إجابتهم إنها عين الحقيقة والحمد والشكر لله ثم لابن سعود.

وصل أخيراً اليوم الكبير، الرابع والعشرون من يوليو، الذي حددناه لمغادرة نجران إلى الأقاليم التي لم تستكشف بعد في الجنوب. كان الكل مشغولاً بالإعداد وتجهيز العفش للدرجة التي شغلتهم عن إيقاظي من النوم، حتى هدير جمال الأحمال لم يزعج نومي الخفيف في خيمتي المتنقلة فوق السطح. كانت الساعة تمام السابعة والنصف صباحاً حينما صحوت مع شعاع الشمس وقد ارتفعت بما فيه الكفاية لتضرب على حاجز السقف، ورحلت الجمال بالعفش عند الساعة الثامنة والنصف صباحاً. تناولت الإفطار في صفاء للذهن مع الأمير ومع مرشديّ الرئيسين، الذين انطلقوا على ظهور جمال الركوب مباشرة بعد الإفطار حيث تركوني ومجموعة صغيرة لنتبعهم على ظهر السيارتين. كانت الساعة الثانية ظهراً حينما تحركنا من عند قصر أبي السعود، الذي لن نراه ثانية إلا في الثاني عشر من اكتوبر، بعد عودتنا من غياب سيستمر (٨٠) يوماً عامرة بالتجوال المثمر في الصحراء والذي قد نشرت أحداثه منذ وقت بعيد في صحفات «بنات سبأ»[١].

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن كتاب: ــ **بنات سبأ**. انظر: النسخة العربية التي ترجمتها وطبعتها مكتبة العبيكان (الرياض ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) وهذا الكتاب تم تدوين معلوماته أثناء هذه الرحلة التي قام بها فيلبي إلى جنوبي البلاد السعودية. (ابن جريس).

الفصل السادس عشر

الزيارة الثانية لنجران

عدنا إلى نجران، بعد غياب طويل. كانت نجران لنا مأوى أمن وراحة بعد ما واجهناه من البلايا العديدة، التي سرعان ما نسينا كل شيء عنها بعودتنا إلى هذه المناظر المألوفة والتي سأقيم فيها مؤقتاً لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن أغادرها إلى الأبد. لديَّ الكثير لأقوم بعمله -فمثلاً عليَّ أن أنهي موضوع إقامة أعمدة الحدود عند رأس نهوقة وأن أعيد فحص ممرات الموفجة- وعلى أي حال، فإنني أعرف هذا المكان بما فيه الكفاية ليجعل هذه الأشياء سهلة الإنجاز. تغير الكثير في نجران وبصورة كبيرة منذ إقامتي الطويلة هنا في الصيف، لم يشمل هذا التغيير فقط حالة الطقس، الذي هو الآن على درجة من الكمال كما يتمنى المرء.

ولا يزال أهل نجران، حقيقة، يعيشون في الخيام وعشش الوتل خوفاً من الصدم المروع ألا وهو حمى الواحة، التي لا تزال كامنة بين مزارع النخيل بعد سيول الصيف. لقد انتهى حصاد التمر الذي كنا قد تركناه في بداية نموه عندما غادرنا نجران في شهر يوليو الماضي، كما أفسحت الأعناب البيضاء الصيفية المجال إلى الأعناب السوداء الوفيرة الآن في كل من الفرع وصعدة[(١)]. أصبحت محاصيل الذرة التي كانت في بداية نموها في شهر يوليو جاهزة للحصاد الآن وكأنها غابات

(١) هذا النوع من العنب تشتهر به بعض المناطق في بلاد اليمن، ونشاهد اليوم من يقوم بتصديره إلى أسواق عديده في المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

لنباتات طويلة متينة السيقان تتحرك قناديل ثمارها مع حركة النسيم، ويتطاول نموها فوق المماشي المحلية وحتى فوق الطريق الرئيس في تجاهل عظيم لما صنعه الإنسان بيديه. كان علينا، حقيقة، أن نبحث عن طريق يوصلنا إلى مقصدنا وذلك بالدوران حول مزارع الدخن التي تقع أمام قصر أبالسعود، لنصل في النهاية إلى البناء من ناحية الغرب، علماً بأننا كنا قد قدمنا أصلاً من جهة الشرق. ارتفع نبات الدخن، في المتوسط، إلى (١٢) قدماً، وهنالك العديد من السيقان التي تجاوزت ارتفاع (١٥) قدماً وكانت في غلظ نبات الخيزران، لم أر مثل هذه السيقان للدخن في أي مكان آخر.

كانت هنالك تغيرات أيضاً بين إطار موظفي الحكومة. فقد اختفى سالم أفندي بوجهه الباسم وجسمه المربع، من وظيفة رئيس الشرطة، وحل مكانه الدعيجي، حينما أفرزت المشاكل التي أشرت إليها سابقاً في نقل سالم إلى موقع آخر. يشرف محمد البيومي الآن على إدارة الدخل بدلاً عن علي الجنيدي، الذي إما أن يكون قد نقل إلى موقع آخر أو أن يكون في إجازة مؤقتة. لا يزال محسن جلال على رأس عمله في محطة اللاسلكي غير أن بديله واسمه هنيدي، كان في الطريق إليه وقد وصل بالفعل بعد أسبوع.

لا يزال الأمير -بالطبع- مستمتعاً بصلاحياته، وهو ممتلئ ثقة بنفسه، وبشوش، وقد فرح كثيراً بالنجاح العظيم لمغامرتي في الجنوب، التي كان له نصيب الأسد في إعدادها. سرتني كما سرت النشمي تلك التلغرافات التي جاءت بالتهنئة التي وصلت من الملك، والذي كان في حينها في حائل، ومن الأمير فيصل، الذي كان في عدوة في طريقه إلى هنا. أدهشني أنني لم أر القاضي

- عبدالمحسن[١]- إلا مرة واحدة هذه الأيام- وأعلن لنا عن خبر وفاته خلال هذه الفترة أو قليلاً بعدها، ويبدو أنه قد مات مسموماً بشراب المحنة، الذي قدمته له زوجة غيورة من زوجاته، أو زوجة محلية قد خذلت فيه. لقد كان بصحة ضعيفة جداً، حينما زرته في اليوم التالي لوصولنا وكان ذلك في داره خلف المسجد، يبدو كأنّه كان من ضحايا حمى الواحة طيلة ثلاثة الأسابيع الماضية. كل ما استطعت أن أقدمه له هو إرسالي له دواء الكوينين الذي أحضرته معي من حضرموت.

لقد استقر أمر موضوع العملة المحلية، وهذا أحد التغيرات التي حدثت، وتم لصالح الأهالي -أنه استسلام، رشيق من ناحية السلطة، لابد منه، لرجل الشارع وللمنطق. فقد قاطع التجار التعامل مع (٧٠٠٠) ريال سعودي التي تم إرسالها من مكة لتدشين النظام الجديد، وأرغمت الحكومة على القبول بالأمر الواقع. كان النشمي مسروراً من أعماقه من هذا الإخفاق الذي واكب مصلحة المالية والتي قد أرغمت الآن على إعادة التعامل مع الدولار القديم لماريا تريزا الذي عاد لموقع سيادته برغم تخفيض قيمته.

أصبحت الحكومة الآن مستعدة لقبول الدفع أو الدخل أو أي مستحقات أخرى بالعملة القديمة المألوفة بسعر (٢٢) (قرشاً نيكلياً قرش دارج) في مقابل (قرش ميري) -وهي عملة رسمية لا وجود لها ذات قيمة مضاعفة-، بدلاً عن (٢٤) قرشاً، وهو السعر الذي عرضته الحكومة لشراء دولارات ماريا تريزا في السوق. كان سعر التعامل السائد في السوق لكل المعاملات في هذا الوقت هو

(١) عبدالمحسن:ـ هو القاضي عبدالمحسن بن سليمان بن محمد العبدالله الخريدلي، من مواليد المذنب عام ١٢٩٠هـ، طلب العلم على يد عدد من العلماء، ثم ولي القضاء في نجران، وبقي بها حتى مات عام ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م. للمزيد انظر: عبدالله بن محمد بن عائض الزهراني. **تاريخ القضاء والقضاة في العهد السعودي**. (مكة المكرمة، ١٤١٨هـ) حـ٦، ص ٦ ـ ٧ . (ابن جريس).

(٢٦) قرشاً على الرغم من السعر الرسمي، وهذا يعادل زيادة في الضرائب المحلية حوالي (١٥,٥) في المائة. ما زال الحظر قائماً على الذهب من جانب مصلحة المالية، وقد تم خلع العملات المحلية وهي البقشة والشامي (كلاهما يمنية) من التعامل والتداول، ولم يكن هذا، بالأمر المهم ذلك لأن التجار يستطيعون شراءها بأسعار مغرية، يحددونها بأنفسهم، ثم يبيعونها في اليمن بمقادير كبيرة بمقابل الدولارات أو البضاعة. كان كل فرد مقتنعاً ومكتفياً في قرارة نفسه ما عدا دافع الضرائب. لقد أحضرت معي -بالمناسبة- حقيبة كبيرة مملوءة بالبقشات من اليمن، غير أنه، لما كان سعر البقشة هو (٨٠) في مقابل الدولار، فإن الحقيبة لا تمثل مبلغاً كبيراً، وعليه فإن محتوياتها يمكن أن توزع بسخاء أو في تسديد أثمان الطيور والحيوانات التي كانت تُحضر إليَّ على الدوام.

قضيت صباح اليوم الأول أصفي الحسابات الخاصة برحلة العودة من شبوة مع رفاقي وكان إجمالي ما تم صرفه هذا اليوم هو (٧٢,٥) جنيهاً إسترلينياً ذهبياً ونصف الجنيه. كان كل واحد منهم مقتنعاً ومكتفياً بما ناله من نصيب من الأرباح، واختفوا تدريجياً في الصحراء، ولم يبق معي بعد يوم أو يومين إلا كل من ناصر ابن شماخ وابن مدعر، وهما لا يزالان يحاولان كسب المزيد من المال على حساب الأمير. أخبراني، كما أخبرني من قبلهم معيض من مواطني مسفر قبل مغادرته، أنهم مستعدون للعمل معي في أية حملة أخطط للقيام بها. كان هذا الشعور الجميل مؤثراً جداً. ولعلي أكون قد دفعت لهما من النقود ما يكفي وزيادة، حسب مستواهم المتدني، غير أنني استخدمتهم بشدة عنيفة.

كان إحساسي صادقاً بالعودة إلى نجران الوطن وأنا أقود السيارة ذلك اليوم الأول أعلى الوادي حيث الجلاميد الجرانيتية على الجانبين، واللون الخمري الفريزي

لسلسلة الحجارة الرملية والتي يقف بينها منعزلاً، في مقدمتها جبل أبو همدان العاري الرأس. استقبلنا الأمير بالقصر بمجرد وصولنا، وكان قد تناول وجبة الغداء حينها إلاَّ أنه دعانا إلى طبق مملؤ بالعنب الأسود، وقدم كذلك القهوة لتدفع عنا ضربات الجوع إلى حين موعد العشاء -الذي كان عبارة عن طعام لوردي يتكون من أرز نظيف ومن لحم ضأن جيد الطبخ ومن إدام عادي ومن صحون مختلفة من خضراوات، ومرق، ودجاج وأشياء أخرى، لا يقارن بوجباتنا في الصحراء. استلمت خلال ذلك كل البريد الذي وصلني أثناء غيابنا: خمس رسائل بريدية دفعة واحدة، وهي مادة مقروءة ستشغل أوقات فراغي لشهور عديدة. كانت الأخبار عن فلسطين أبعد ما تكون عن الطيبة وكانت الحرب لا تزال على أشدها، برغم الرسالة التي أرسلها حديثاً كل من ابن سعود، والملك غازي ملك العراق، والأمير عبدالله لما وراء الأردن، يدعون فيها المتمردين لوقف القتال منذ هذا اليوم (٢٧) رجب، يوم الإسراء، اليوم التقليدي لإسراء الرسول ﷺ من مكة إلى القدس ومنها إلى السماء، كانت الأخبار القادمة من فلسطين خلال الأيام التي تلت في تحسن، ذلك لأن القبائل العربية قد أوقفت القتال في التاريخ المحدد، مما يسر بإمكانية دخول لجنة بيل إلى البلاد في الحادي عشر من نوفمبر.

أرسل لي الأمير صندوقاً ضخماً مليئاً بالعنب الأسود عند المساء وقد كنت سعيداً أن استلقي على سريري فوق ذلك السطح المألوف لي. كان الجو، بلا شك، بارداً وكانت درجة الحرارة الدنيا في هذه الأمسيات في النطاق المريح بين (٥٠) و(٥٢) درجة، وكانت الصباحيات لذيذة مع ضباب كثيف متعلق بتدنٍ فوق الوادي حتى الساعة الثامنة صباحاً، أو ما بعدها برغم محاولة الشمس الشاحبة المريضة أن تذيبه. لم أعمل الكثير خلال هذه الأيام الأولى منذ عودتي غير الاهتمام ببريدي وبمراجعة صحف يرجع تاريخها إلى أوائل يونيو.

دفعت نفسي دفعاً للسوق في أول يوم من أيام الخميس بعد عودتي، وقد رحب بي الصديق قاروتي الذي جلست عنده أرشف الشاي كل فترة الصباح بينما كنت أشتري بعض النثريات بما في ذلك الصابون والكبريت وخيوط قطن مكينة الحياكة وحزام جلد مصنوع محلياً ذو جيوب لحفظ النقود. كان من أبرز آثار الطقس البارد هو تأخير افتتاح مناشط السوق حتى الساعة التاسعة صباحاً. واستمرارية نشاط السوق إلى ما بعد الظهر، وقد بدا عدد الزوار ينخفض تدريجياً عند الساعة الثانية والنصف ظهراً. لقد قابلت وتحادثت مع عدد من اليهود في هذه المناسبة، بينما جلس رجل في صحبة امرأتين زنجيتين (محررات) ومعه بعض البضاعة، وقد قدم لي المرأتين ضاحكاً باستعداده أن يبيعهما لي مقابل وزنهما ذهباً.

قمت بشراء بعض الأشياء المصنوعة محلياً، معظمها من الفخار ومن أعمال الجلد وقد لفت انتباهي، أثناء تجوالي في السوق، أسلوب عملية المقايضة السائدة، ذلك لأن أسعار البضائع لم تكن يشار إليها بالعملة بل بالمقايضة فمثلاً، المد (صاعان) من الدخن يباع مقابل أو في مقايضة فنجان مملوء بالبن أو أي أشياء أخرى[1]. كان كل من سلطان بن منيف الرجل المسن، وجابر بن نصيب حاضرين في السوق، وكانا حميمين نحوي جداً، وكانا مهتمين جداً بتجاربي وقد اشترك معنا في النقاش واحد من ملاك الأراضي الرئيسين في حضن لمواجد واسمه ابن حيدر وهو رجل عسكري الطراز، وقد دعاني لزيارة عزبته. كانت صداقة الكل لي واضحة، وكانت صدمة لي أن يلاحظ المرء أن الناس هنا، على عكس أولئك في حضرموت وفي الصحراء يسيرون بحرية وأمان دون سلاح. لقد تم الاحتفاظ

(١) المقايضة: من وسائل التعامل التجاري المعروفة عند سكان الجزيرة العربية منذ العهود السابقة للإسلام، واستمرت على مر العصور الإسلامية المختلفة. (ابن جريس).

بالتقليد القديم وهو لبس الجنبية (الخنجر) إلى درجة أن معظم، وليس كل، الناس يرتدون فقط غمد الخنجر فارغاً. إلا أنه يسمح فقط للشيوخ الكبار، أمثال سلطان وجابر، في ترتيب خاص اعترافاً بمرتبتهم الرسمية وولائهم، بأن يرتدوا الخنجر المألوف المطعّم بالجواهر.

ذهبت وحدي عصر أحد الأيام سيراً على الأقدام عبر السهل والمجرى الرملي للوادي قاصداً الطرف الغربي البعيد لنخيل القابل، حيث توجد مجموعة مزارع شبه منعزلة تسمى الجربة. كانت هنالك سحب ثقيلة بعيداً ناحية الغرب وقد طعنتها الشمس الغاربة بأشعتها العريضة الملتهبة. تمتد نجران أمامي بكل عظمتها وجمالها المدهش -مساحة بيضاوية عريضة وأشجار نخيل وقد امتدت في شرائط طويلة كثيفة، وقد انتشرت أبراج الناس هنا وهناك على خلفية متجهمة للجبال الجرانيتية، وعليها مسحة قرمزية مع الضوء المحتضر مضيئة من أعلاها بلمعان حجارتها الرملية المتقطع. كان جمالاً خفيفاً يدعو للتأمل في الكآبة الغامضة، يدعمها الضوء القوي الشرس المنطلق عند منتصف النهار، والذي نادراً ما يلاحظ في حالة الضوء الخفيف عند الفجر أو الغروب أو حينما تكون السماء ملبدة بالسحب. يقع أمامي من موقعي هذا، منظر ممتاز لقطاع عرضي للوادي من ناحية الشمال إلى الجنوب شاملاً قصر أبي السعود.

ينحدر جلمود الجرانيت إلى حافة شريط من مزارع نخيل وحقول دخن تمتد مسافة ربع الميل ثم يندمج مع السهل الرملي الحصوي الذي يبلغ عرضه ربع الميل والذي يقوم عليه القصر نفسه وكذلك السوق. يلي ذلك وإلى مسافة ربع الميل شريط براري نبات الحلفاء ينتهي في انحدار عمقه عشرة أقدام وعرضه نصف الميل لسهل طموي يغطيه نبات الثمام حتى طرف الشريط الذي يبلغ طوله ربع الميل

لرمال الوادي البيضاء العارية التي تمتد إلى صخرة متآكلة، طموية ترتفع إلى (١٠) أو (١٥) قدماً وتستمر حتى حافة شريط من أشجار نخيل كثيفة (القابل) عرضها حوالي ثُمن من الميل إلى قاعدة الصخرة الجنوبية التي ترفعها كتلة فلزية من جلاميد متساقطة إلى مستوى الجرف إلى أعلى. يبدو القطاع العرضي للوادي الآن وكأن عرضه الإجمالي أقل من الميلين من قاعدة الصخرة إلى قاعدة الصخرة الأخرى. كان طيف ألوانها جذاباً جداً يتكون من جرانيت قرمزي، أشجار نخيل داكنة الخضرة، أعواد دخن خفيفة اللون الأخضر، سهل بني اللون ومصفر، نبات حلفاء أصفر فاقع، نبات ثمام في لون البحر الأخضر، وادٍ أبيض، أشجار نخيل داكنة الخضرة، وأخيراً الصخرة الجلمودية ذات اللون البني الداكن. لا أعرف وادياً في الجزيرة أكثر جمالاً من وادي نجران[١]، باستثناء وادي الليمون (مضيق) بالقرب من مكة.

قضيت أحد الأيام في زيارة ثانية لأطلال الأخدود لتجديد معلوماتي عنها، وقد دعيت إلى تناول وجبة الغداء مع رجال الشرطة، الذين بلغ عددهم الآن سبعة أفراد أقوياء وكلهم قد وصلوا حديثاً منذ زيارتي السابقة. وجدت بحيرة مجبر سري (أيضاً تسمى سعداً) ممتلئة أكثر من ذي قبل، حقيقة فقد كانت مملوءة حتى الحافة. كانت هنالك مجموعة من الحمير يبلغ عددها ستة حمير واقفة داخل البركة إلى عند مستوى البطن. ترعى بتكاسل نبات القصب وغطاء نباتي مائي آخر، بينما تحلق وتدور العصافير وطيور الخطاف على مستوى منخفض فوق سطح الماء تلتقط البعوض الصغير والذباب الصغير.

---

(١) لمزيد من التفصيلات عن وادي نجران، انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**. جـ٢، ص ٣٩٥ ـ ٤٠٦ ، عاتق البلاد، **بين مكة وحضرموت** ص ١٩١ ـ ١٩٧ . (ابن جريس).

كانت طيور الماء متوافرة أيضاً وبأعداد كبيرة، غير أنها ظلت بعيدة عند الطرف الشمالي بمجرد أن تأكد لها وجودي. قضيت فترة ما بعد الظهر نائماً في هدوء في ظل القصر الرئيس في القلعة العظيمة بعد أن صرفت الرجلين الذين كانا قد رافقاني لأتناول معهما بعض القهوة. لقد نتج عن تناولي طعاماً رائعاً، وبخاصة تلك الأعناب الممتازة والبرغل (عصيدة) والذي بعد أن تم حصاده أخذ يحل مكان الأرز في كل وجبات الأمير، أقول، نتج لديَّ بعض القصور الهضمي الذاتي ومصحوباً بضعف داخلي، غير أنني شعرت بالتحسن بعد ضجعة الظهيرة بين هذه الأطلال، وبعد تناولي الشاي الذي كان بجانبي في الترمس. كان الوقت ليلاً حينما عدت لقصر أبي السعود، ماشياً كما كان حضوري ماشياً إلى هنا، لتناول وجبة العشاء مع محمد البيومي الذي اكتشف أن حقله الجديد تصعب حراثته. تأخرت رواتب كل الموظفين الآن مدة أربعة أشهر متتالية، وقد وجد البيومي أن الحياة كئيبة، برغم أنه مخلص جداً في عمله. كما أخبرني البيومي عن حلم رآه الليلة السابقة إذ رأى فيه الملك وهو يجلس في وسط حلقة من أبنائه ويقوم بتوزيع الذهب بينهم من حقيبة كان يضعها في حضنه. ولما لمح الملك بيومي، سأله إن كان يريد بعض الذهب أيضاً، ومن ثم استلم نصيبه وعليه، فإنه يعتقد أن هنالك إمدادات نقود في الطريق إليه. كان الأمير نفسه ساخطاً جداً بسبب هذا التأخير في دفع الرواتب والذي يعني أن كل الموظفين أصبحوا مدينين للتجار المحلِّيين، والذين لم يكونوا أنفسهم أغنياء. علمت أن قاروتي وتاجراً يمنياً ثرياً آخر كان يرتدي دائماً خنجراً مزيفاً مصنوعاً من الخشب يديران أعمالهما على رأس مال لا يزيد عن (٥٠٠) ريال ماريا تريزا – حوالي (٢٥) جنيهاً إسترلينياً ذهبياً–، لكل منهما، بينما كان رأس مال التجار الآخرين يتراوح بين (٢٠) و (٥٠) ريالاً.

يوجد الآن واحد وعشرون متجراً في السوق، اثنان منها قد أنشئا حديثاً منذ مغادرتي إلى الجنوب. قامت بإنشائها الحكومة وهي ممتلكات حكومية، غير أن التجار محتجون على الإيجار الباهظ وهو (٢٠) ريالاً في السنة وقد أوفدوا مناديب لمقابلة النشمي لمناقشته حول الموضوع مشيرين إلى أن مبلغ الثماني ريالات التي تم تخفيضها عن إيجار العام الأول في مقابل قيمة تكلفة عمل للسطوح التي قام ببنائها المستأجرون كانت علاوة غير كافية. لم يكن لديّ أدنى شك في أنه سيكون هنالك حلاً وسطاً، غير أن مستوى الحياة في نجران كان متدنياً إلى حد بعيد[١]. كان الأمير من حين لآخر يجد معبراً للإعراب عن هذا اليأس وقد أخبرني برغبته في مغادرة نجران في يوم ما وأنه يود أن يستقر في عمل زراعي في مكان ما يقربه من الحضارة وذلك لأجل مصلحة أسرته. لقد امتلك بالفعل بعض العقار الواعد في تربة، حيث يقوم وكيله بتركيب مضخة تعمل بالزيت تسحب المياه من البئر.

وصل في أحد الأيام جماعة من يام إلى نجران قادمين من عدن، كانوا قد جاءوا عن طريق بيحان، وتحدثوا عن إشاعة هناك بأن جماعة من أبرد بالقرب من مأرب قاموا بإرسال أربعة جمال لإحضار ما تبقى من سيارة البك أب التي كنا قد تركناها بعد أن انكسر محور العجلة الخلفي في رمال الجنوب. أثبت انتقال ملكيتي رسمياً على السيارة لصالح بن حاذق في شبوة حينما ذهب بعد وصولنا بسلام إلى نجران، برفقة اللاجئ اليمني حمد القرزعي إلى تلك الأجزاء، بعد أن قرر ابن سعود عدم إبقائه في أرض سعودية بناءً على معاهدة تبادل المتهمين الموقعة بين

(١) لم تكن الحياة المعيشية في نجران فقط هي المتدنية، وإنما كانت في عموم أنحاء البلاد السعودية، وذلك يعود إلى قلة الدخل وضعف الأحوال الاقتصادية في كل مكان. (ابن جريس).

البلدين. لم أكن بالطبع مهتماً بالسيارة البك أب المهجورة، والتي سيتحول حديدها بواسطة الأهالي إلى بنادق وأدوات زراعية. كما أوضحت آخر الأخبار حول السيارة أن المادة التي نقلت إلى مأرب بواسطة هؤلاء الناس كانت عبارة عن الإطارات والعجلات التي كنا قد خبأناها في ممر ثنية على أمل الاستفادة منها. ضاعت هذه الأشياء مني إلى الأبد، وهذا لا يهم كثيراً، ولربما كانت العجلات ذات فائدة لمالكي السيارات اليمنيين.

حضر في اليوم التالي والد رئيس رجال جمالي، واسمه محمد، والد علي ابن شويل، من عند معسكره في الصحراء، بالقرب من حبونا ومعه قصة عن «صخور مكتوبة» هناك في الصحراء تقع على طريق مهجور منذ زمن بعيد وهو طريق الحج الذي يربط بين عمان ومكة. كما ذكر كذلك، أن المكان مملوء بالأرانب الأوربية (الوبر) مستجدياً بذلك اهتمامي المعروف بالحياة الفطرية. كما أخبرني أن المنطقة تقع عند الطرف الجنوبي لطويق وتسمى المندفن، وتبعد مسافة يومين بالجمال من الحصينية، وكنت حساساً جداً وكاد الإغراء أن يدفعني إلى السير في ذلك الاتجاه. لم تكن سيارتي -للأسف- في حالة جيدة تسمح برحلات صحراوية خطرة، وكان عليَّ أن أصرف النظر عن هذه الفكرة. كان عليَّ كذلك أن أعيد السيارة إلى جدة، بقافلة، ذلك لأن بقية تجولاتي ستكون بواسطة الجمال وذلك لأن هذه المنطقة لا تصلح للسيارات. أما كيف تمكن محمد من إرجاع السيارة إلى جدة فهو أمر محير لي، ولكنه قد فعل.

حصرت نفسي مرة أخرى في موضوع الحدود. وركبت وبعض الرفاق على ظهور الحمير في الثلاثين من أكتوبر لقضاء ليلتين عند نقطة الشرطة في نهوقة بالقرب من البئر المدفونة، وهي بئر حفيرة التي لا يزالون يقومون بحفرها دون

تقدم محسوس. عبرنا الوادي مع اتجاه أسفل الوادي من البديع من عند نتوء لصخور جرانيتية حادة القطع، على جانب الوادي الأيسر، حيث وجدت عليها بعض الكتابات المتآكلة وبعض النقوش العربية الحديثة. كما كان من بين ما وجدت ما يلي: منصور بن تبان، غفر الله له. واضح أنها من عمل أحد الأقرباء المحزونين للشخص المتوفى، بينما استطعت تميز صورة لوعل وصورة لرجل يمتطي فرساً ويحمل حربة وصور لحيوانات بالكاد يمكن تميزها كخيول أو جمال. كان الشيء الوحيد المفيد في هذه الصخور هو نقش ثمودي من تسعة أحرف وواضح لحد ما. يجري وادي نهوقة ناحية الجنوب من عند الجانب البعيد للمجرى، ويقع بطن سيله على يمننا تحت جلاميد قائمة على جانبه الأيسر.

ينطلق هذا المجرى في نهاية الأمر بين الحضن والبديع - وكلاهما أرض تابعة للمواجد-، وقبل أن يصلهما فإنه يعبر بمجموعة من الآبار القديمة التي كنت قد زرتها مع الأمير عند قدومي الأول إلى نجران. كانت الفكرة هي إعادة إحياء هذه الآبار إن أمكن ذلك، وعليه إعادة إحياء القرية القديمة (ربما عصور وسطى) والتي أثبتت أطلالها أنها كانت موجودة. كانت بئر سارة أولى هذه الآبار التي بدأ العمل في إحيائها ويتواصل في تقدم، كان العمل فيها قد بدأ قبل شهرين فقط (في مايو) وتم الحصول على قدمين من الماء عند عمق سبع قامات من السطح، غير أنهم قاموا حتى الآن بعمل تجويف صغير، قطره حوالي (٣٠) قدماً، وذلك في موضع الطمي غير الثابت الذي كانت تعمل منه بلوكات اللبن لتبطن البئر سابقاً، والذي يقتلع الآن استعداداً لصنع البطانة الجديدة لجدران البئر والتي ستكون هذه المرة من الحجارة التي قد تكومت بالفعل بجوار موقع العمل استعداداً للتنفيذ. تقع هذه البئر إلى خلف وسط الحضن مسافة ربع الميل وقريباً من حافة حقول الذرة

الصفراء. توجد بئر فريحة التي أعيد تشغيلها على الجانب الأيسر لمجرى سيل نهوقة وهي بئر قديمة ويوجد الماء فيها الآن على مستوى ثلاثة أقدام وعلى عمق ثماني قامات.

كما توجد منصة من حجارة صغيرة تقع إلى ما وراء هذه البقعة، وقد تلاصقت الحجارة بالأسمنت على السطح وعلى الجوانب، ربما كانت تعمل كمستودع للماء أو كموقع شرب للمواشي. تقع بئر المدينة قريباً من هذه البئر من ناحية الغرب، والتي أزيل بناؤها القديم وأعيد بناء برجها من الحجارة. كان قطر فم هذه البئر حوالي (١٥) قدماً وعمقها حتى مستوى الماء حوالي سبع قامات. تقع على جانبها أطلال قرية قديمة ومن بين هذه ما يبدو وكأنه قصر قد شيد من اللِّبن والذي يمكن مشاهدة العديد من أجزائه المحطمة. لعل هذا كان جزءاً من المدينة، وإلى ما وراءه تقع المقبرة الحديثة التي يستخدمها أهل الحضن. تأتي بعد ذلك بئر (شقق)، وقطرها (١٢) قدماً ويصل عمق مائها إلى (١٨) بوصة على عمق ثماني قامات. يهبط عند هذا الموقع مسيل كلفة إلى مجرى نهوقة من جانب أبي همدان الذي وجدنا فيه عدداً معتبراً من القبور القديمة مبنية من صخور جرانيتية ضخمة. كما توزعت قبور مشابهة على سفح أبي همدان على مستوى أعلى عند فتحة ممر نجد الذي يشبه الساعة الرملية ويبلغ خصره حوالي (٥٠) ياردة. لقد تحدثت عن منطقة الآبار هذه بتفاصيل أكثر، لأنها ربما تكون ذات أهمية مستقبلاً كقرية مهمة.

مررنا بعدد من الأعراب في مخيماتهم الصيفية تحاشياً للحمى، أثناء مسيرتنا في وادي نهوقة المكسو بالأراك وبشجيرات الطلح. دهشت حينما علمت أن هؤلاء المعسكرين في أجمل مواقع الوادي وأكثرها ظلاً، وبجوار نقطة الشرطة، لم

يكونوا من أهل نجران ولكنهم كانوا من المهاجرين القادمين من أرض وعيلة اليمنية، وقد قدموا إلى هنا للاستمتاع بالسلم والأمان الذي جلبه النظام السعودي. لم تكن مساكنهم من الخيام، بل أقمشة تشد من شجيرة إلى أخرى لتقيهم الحر والمطر.

كانت هنالك خيام أجنبية بيضاء مبعثرة في هذا الجزء من الوادي، وعلمت فيما بعد أنها لأفراد من الشرطة الذين تزوجوا من نساء محليات لتخفيف ضجر المنفى. تقع بئر حفيرة على بعد (٣٠٠) قدم أسفل الرأس الفعلي للوادي، الذي تكون من الالتقاء لمسيلين حول صخرة مسنقر الترسبية وقد هبطا من موقعين مختلفين من عند الجلاميد المحطمة ناحية الجنوب الغربي. هذان المسيلان هما معضد ورميح، والذي على امتداده وعند منتصف طوله يوجد نبع مستديم يقطر من شقوق الجلاميد التي تشاهد في بطنه. يتجمع هذا الماء المتقطر في بركة صغيرة من جلاميد ضخمة ويختفي الماء بين الصخور فلا يرى بعد ذلك. يبلغ عرض رأس وادي نهوقة عبر بئر الحفيرة حوالي نصف الميل، ويهبط منه إلى جانب المسيلين السابقين كل من مسيل شعيب غربه(١) ومسيل شعيب منقل. يقع إلى أعلى ممر شعيب منقل الشديد الانحدار ممر يقود إلى عقبة نهوقة ويسيطر على درب نجران - صعدة. كانت الجلاميد عند رأس هذين المسيلين الأخيرين أقل ارتفاعاً وأكثر تكسراً مقارنة بالجدران الترسيبية للجانب الأيسر للوادي. تنمو على جوانب مجرى السيل الفعلي أعداد من أشجار العلب (السدر) وقد امتدت ظلالها فوق مساحة واسعة.

(١) الصحيح هو شعيب عربة، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤٠٥ . (ابن جريس).

صحوت متأخراً في اليوم التالي وقد بلغت الشمس كبد السماء حينها بدأت عملي الذي ساعد في تنفيذه النشاط الذي قدمه لي حمد، وهو شاب ذكي من أبناء وعيلة من منطقة الفرع، وهو حالياً يعسكر مع أقربائه في نهوقة. بدأنا الآن التسلق الشديد والصعب في شعيب منقل والذي كانت تطرقه ذلك الوقت مجموعة من الجمال والجحوش وهي محملة بالبضائع في طريقها من نجران إلى الفرع. أدهشني أن هؤلاء الناس الغرباء يحيوني بالاسم، ولعلهم قد رأوني مراراً في السوق.

وصلنا بعد حين إلى موقع تماس الحجر الرملي عند ارتفاع (١٠٠٠) قدم فوق رأس وادي (نهوقة)، كما بدأنا نلاحظ وجود نقوش على الجلاميد على جانبي الممر، وأغلب الظن أنها مما تركه بعض عابري الطريق، تسجيلاً لزيارتهم. وجدنا هنا أيضاً قبراً ذا أبعاد ضخمة مبني من حجارة رملية ضخمة، ووصلنا بعد ارتفاع (٥٠) قدماً فقط إلى رأس شعيب منقل، والذي كان هو أيضاً العقبة، ثم خرجنا إلى هضبة ذات اعتبار، يستمر عليها الطريق إلى أن يتفرع على مسافة الميل الواحد لتتجه ناحية الجنوب الشرقي فوق أرض الفرع الصعبة ثم نحو جنوب الجنوب الغربي فوق وادي الفرع تجاه الطرف الشمالي لسلسلة العشة ومن ثم يتجه إلى صعدة. كما يتجه ممر الفرع جنوباً ناحية وادي ضيدة ووادي أملح وكلاهما في أرض وعيلة، الأول منهما يقع خلف سلسلة قهر الغول ذات القمة البارزة عند طرفها الشرقي.

لقد اكتشفت أنه لا يوجد عمود حدودي على العقبة التي يشار إليها بالرقم (٦١أ)، وأن الإسمين نهوقة ورأس غربة[١] يوظفان للإشارة إلى العمود الحدودي

(١) فيلبي ذكر هذا المكان باسم (راس غربة) والصحيح هو (راس عربة). (ابن جريس).

رقم (٦) عند رأس شعيب غربة[1] على بعد نصف الميل تجاه الجنوب الشرقي إلى عند الممر الفعلي. رأينا في هذا الممر خمسة أضرحة جيدة البناء، ثم اتضح لنا أنها بداية لمقبرة كبيرة، تسمى ردوم سرو تغطـي مساحة تبلغ (٥٠٠) ياردة مربعة تقريباً وواسعة جداً. كان بعض هذه الأضرحة جـميلاً، يذكرني بتلك الأضرحة في تلال محيش وتلال رويك وكـلاهما شرق مأرب. وارتفع أحـد هذه الأضرحة إلى علو خمسة أقدام، وهو دائري الـشكل بقطر يصل إلى (١١-١٢) قدماً، وهو مبني من ألواح مسطحة من حجـر رملي وحجرة مركزية للجثمان. كـان سقف هذه الحجرة مغطى بألواح غـير أن هذه قد تم العـبث بها، وكذلك تم الـعبث بالمدخل ووصل العبث إلى الممشى الذي يقود إلى الحجرة، ربما حدث هذا بواسطة اللصوص.

كانت بقـية المقـبرة ذات مظهر خـشن بدائي محتـوية على قبـور عديدة ذات أحجام مـختلفة وأشكال مخـتلفة، وتشبه في عمـومها المقابر البدائـية التي تشاهد حول مبين. كان هنالك قـبر كبير يقع في القسم الشرقي لهـذه المقبرة، عند النهاية الجنوبية لشـريط طويل من القبـور كلها مكونة من أكوام من حـجارة، وقد امـتد شريط آخر من القبور أيضاً من عند هذا القبر الكبير ولكن في اتجاه الشرق ومسافة (٥٠) ياردة، مكوناً جداراً مـصمتاً يرتفع إلى ثلاثة أقدام ويصـل عرضه إلى ثلاثة أقدام أيضاً.

كان أكثر ما يميز هذه المقبرة، عن تلك التي رأيتها من قبل في ناحية الجنوب، مثل رويك، ومحيش، ومبين، أنه في حالة هذه المقبرة فإن معظم ألواحها الحجرية الرملية، خاصة تلك الموجودة في الأضرحة الكبـيرة الجيدة البناء بالقرب من العقبة وما جاورها، تحتوي على النقوش. كانت هذه النقوش من ثلاثة أنماط هي: نقوش

(١) فيلبي ذكر هذا المكان باسم (راس غربة) والصحيح هو (راس عربة). (ابن جريس).

ثمودية -واضح أنها ما قبل الإسلام- ونقوش يهودية -ربما حديثة نسبياً- وأهمها كلها نقوش حميرية. توصلت إلى الاستنتاج، الذي أضعه هنا، وهو أن هذه النقوش لا علاقة لها بالقبور، ولربما كانت من أعمال الرحالة والمسافرين الذين يعبرون من هنا ويمضون بعض الوقت في الراحة بعد عبورهم للعقبة أو قبل الهبوط منها. يبدو أن كل النقوش قد كتبت في الموقع نفسه، أي على اللوح المناسب نفسه على القبور القائمة في الموقع في الوقت الذي عبر فيه كاتب النقوش عما في نفسه أثناء سفره.

إذا كان هذا التعليل هكذا، فعليه تكون القبور أقدم من النقوش، ولا بد أن تكون قد تم بناؤها أثناء العصر الحميري أو العصر السبئي أو قبله. أميل إلى ترجيح كفة التاريخ القديم بمقارنة الوضع هنا مع قبور محيش والتي كانت خالية تماماً من النقوش، برغم أنها لها نفس خصائص أضرحة سرو. كان هذا هو كل ما أمكنني أن أسقطه من ضوء على مشكلة غامضة استغرق تفكيري فيها وأنا جالس ومعي حمد على أحد الأضرحة الكبيرة عند الطرف الغربي للمقبرة نتناول غداءنا المكون من اللحم المقلي البارد ومن الخبز. لم يتناول حمد اللحم المقلي البارد، متعللاً بأن معدته لا تحتمله، وذكر لي أنه من عادتهم أن يتم غلي لحم الضأن، هذا برغم أنني لم أقابل قط أي عربي لا يأكل اللحم المقلي. كان حمد شاباً لطيفاً، قادراً على الكتابة والقراءة، وقد درس في مدرسة الفرع، ويبدو أنه قد استفاد من تعليمه هذا، ذلك لأنه قام باستكشاف المقبرة كلها ويعرف تماماً مواقع النقوش بها. كانت أبعاد تجولاته الأخرى في كل حياته هي ضيدة وصعدة على جانب، وحبونا على جانب آخر.

نظرت بلهفة عبر هذا الفضاء العريض لأرض الحجارة الرملية التي تكون حيناً لفائف من صخور ناعمة ضخمة، وتكون حيناً آخر ممزقة إلى قطع مبعثرة عند

قاعدة السلسلة الصخـرية العارية وقد فتتها المسـايل العديدة والأودية. نظرت بعيداً ناحية الـعشة والعويدية، ومن خلفـهما صعـدة التي لا تشاهد من هنا، ثم نظرت إلى البعـيد، إلى وادي ضيدة وأمـلح اللذين لم يستكشفـا بعد، وقد سدا مـجال الرؤية أمامي. تبـقى عليَّ أن أقوم بزيارة إلى العـمود الحدودي عند رأس شـعيب غربة[1] على الجانب الشـرقي للمقبرة الـعظيمة، التي كانت عـبارة عن مجمـوعة أكوام صغيرة من حجارة من صخـر أسود مكوَّمة على حجر رملي أصفر. أستطيع من عندها رؤية قصر أبي السعود ومتاجـر سوق التي تقع ناحية الشمال، وأستطيع كذلك رؤية أم خـرق التي تقع ناحيـة الشرق، وتل بقعـاء وبالطبع، العشـة باتجاه صعدة.

تم النظر في أمر الحـدود في منطقة نجران من عند تنصـاب إلى فرد ولم يبق عليَّ إلاَّ إعداد الخريـطة، وهبطنا أنا وحمد إلى المعسكر الذي وصلناه عـند الساعة الخامـسة مساء. كـانت مأمورية لطيفـة بكل المعنى، وبرغم أننا لم نتناول الماء من الساعة الـتاسعة والنصف صـباحاً وحتى الخامـسة مساءً، برغم أننا كنـا معرضين لوهج الشـمس طيلة النهـار، إلاَّ أنني لم أشعـر بالعطش، غـير أننا بلا شك قـد سعدنا جداً بشرب الشاي عندما رجـعنا إلى المعسكر. لقد قابلتنا امرأة ترعى بعض الأغنام عند رأس العقـبة، كان بودها أن تقدم لنا الحليب، غـير أننا لم يكن لدينا وعاء، كـما لم يـكن لديها هي وعـاء لحلب الأغنام فيـه. كانت من أهل وعـيلة وتكون في النسب خالة لحمـد. أخبرتنا أنها قد تكون سارحـة مع أغنامها لما يزيد على (٤٨) ساعة وبمفـردها في هذا المرعى الجاف، ليلاً ونهاراً، ومعهـا قربة للماء

(١) الصحيح شعيب عربة. (ابن جريس).

وبعض الخبز والتمر، وهي تحيا حياة منعزلة تتكرر بين لحظة سقي وأخرى، حيث تقوم برَعْي قطيعها للشرب من عند بركة في رميح. ناولتها قطعة نقود معدنية لعلها تستفيد منها في شراء ملابس، وحلي مبهرجة من السوق.

والآن، ونحن على مشارف نهاية حملتنا الصغيرة، فقد رأيت أن أضاعف المكافأة التي اتفقنا عليها أنا وحمد في البداية. كان علينا أن نبدأ رحلة العودة، فذهبت إلى نقطة الشرطة لوداعهم قبل امتطاء الدواب لرحلة العودة. كان كل الرجال في نقطة الشرطة هذه من أبناء المدينة، وقد ظلوا في موقع نهوقة منذ وصولهم إلى نجران قبل (١٢) شهراً. يبدو أنهم سعداء في منفاهم هذا وسعداء أيضاً بأنهم في منأى من حزام الحمى غير أن السوق يظل بعيداً منهم ويصعب عليهم الحصول على حاجتهم الضرورية من المؤن.

وصلنا إلى قصر أبي السعود على ظهر الحمير بعد ساعتين عند الساعة السابعة والنصف مساء. وقد أمضينا الساعة الأخيرة من الرحلة في ظلام دامس لولا ضوء القمر المكتمل (أو شبه المكتمل) الذي ظهر عند الساعة السابعة مساء فخفف من الظلام. كانت الرحلة في جملتها لطيفة وقد أحاطت بنا جوانب جدران الوادي الداكنة ولمعت نيران معسكرات العرب بين الشجيرات في الوادي وظهر المشتري والزهرة معاً مكملان لهذا المشهد. وصلنا المعسكر متأخرين كثيراً عن موعد العشاء، غير أنني وفرج، كنا قد تغدينا معاً، قد اجتمعنا مع الأمير لمناقشة الأخبار الأخيرة السيئة الواردة من بغداد حيث وقع انقلاب عسكري في الثلاثين من اكتوبر استخدمت فيه الطائرات ويطالب قادته بالاستقالة الفورية لياسين باشا الهاشمي من رئاسة الوزارة وإلاَّ فإنهم سيقومون بقصف المدينة. وكذلك استمعنا في اليوم التالي لخبر اغتيال جعفر باشا وإلى هروب نوري، بينما أقام بكر

صدقي دكتاتورية عسكرية وكان حكمت سليمان رئيساً لوزارته. نبع كل هذا من عدم ارتياح ضباط الجيش لفشل الحكومة في تطبيق التجنيد الإلزامي خوفاً من متاعب القبائل. وهكذا تسلط الضوء على العرب في هذا الوقت مع أحداث كل من فلسطين والعراق.

كنت قد قمت بزيارة الموفجة قبل عشرة أيام سبقت هذا النشاط الأخير، وذلك بغرض إجراء مسوحات نهائية للممرات الضيقة وهي رحلة تسببت في حرماني عن السوائل المنعشة طيلة اليوم الذي قضيناه في نهوقة ذلك لأن فرج، وهو يهمل قيادة حماره فوق سلسلة جبلية خلف للصفا، سقط عن ظهر الحمار وتدحرجت معه إلى أسفل السلسلة حقائب السرج التي تحتوي على بعض مستلزماتي بما في ذلك الترموسين الغاليين عليَّ جداً. لقد اشتريتهما من مكة أو جدة بسعر سدس جنيه لكل واحد منهما، وهما من الصناعة اليابانية وقد استخدمتهما لأكثر من ستة أشهر. وها هما الآن حطام أمامي، غير أنني كنت مشغولاً بالضحك على فرج أكثر من أن أكون ثائراً لخسارتي. وهكذا قضيت بقية الشهور الأربعة لرحلتي بلا ترموس.

هبطنا السلسلة، بعد أن أفقنا من وقع هذه الكارثة، إلى المجرى ثم سرنا على الأقدام تجاه الغدير كما يطلقون على هذا المكان ذو الماء الدائم في تلك البقعة التي تقع قليلاً فوق المنحنى. حلق طائر الشنقب أثناء ما كنا نقترب من الماء، كما كان هنالك مالك الحزين القرمزي وهو يلتقط سمك المنوة الصغير مما شغله عن ملاحظتنا وقد حاولنا ملاحقته دون فائدة. كان المكان مملوءاً بالطيور، فالذعرة تخوض هنا وهناك، والعصافير والخطاف تطارد الحشرات، وحدأة تحلق فوقنا بحثاً عن الجيف التافهة وتجلس على الصخور طيور البلاكستارتس والأبلق. كما كانت

توجد خطوط عديـدة لبرك ذات مياه ضحلة في المجـرى الرملي، إلى جانب برك أخرى عميقة على جانبي الوادي حيث ينمـو بكثافة نبات الطرفاء ونبات القصب، إلى جـانب العديد من الزعـتـر البري ونبـاتات عطرية أخـرى حيث يكثـر النحل وحشرات أخرى ويضج المكان بأزيزها المتواصل. كان ارتفاع بعض نباتات القصب إلى حدود (٢٠) قدماً وهي تحـرك رؤوسها الرشيقة مع النسيـم الخفيف بينما، في مواقع أخـرى من هذه المنطقة، فإن عملـية حرق كل من القصب والحلفـاء كانت مستمرة استعداداً لمراعي الربيع.

لاحظت أن العرب، إذا ما أرادوا أن يشـربوا الماء فإنهم لا يجلبونها مـباشرة من البرك، خـوفاً من الحـمى، إلاَّ أنهم يحفـرونها على عمق بوصـات قليلة في الرمال المشبعة بما يكفي لاحتياجـاتهم. كانت البرك مملوءة بأسماك المنوة وبالضفادع وبالشراغـيف، غير أنه في هــذا الوقت من العام فإن المجـرى كان جافـاً تماماً إلى مسافـة (٣٠٠) ياردة من منحنى الصفا تجاه المضـايق. كانت الرمال حين جفـافها بيضـاء ناصعة. وصلنا الموفـجة عند الساعـة الثالثة مـساء، بعد أن تتـبعنا منحنى المجرى، ونصبـنا معسكرنا في ظل سلسلة جرانيـتية تفصل بين مـخرجي الوادي. كان سفحـها منقراً بالكهوف والملاجئ التي بداخلها استقـر زملائي للحصول على أقصى درجة من الراحة في مثل هذه الظروف.

كنت أعمل تحت أشعـة الشمس معظم الوقت إلى ما بعـد الظهر وطيلة اليوم التالي، وإلى ظهر اليـوم الثالث وبعد ذلك عدنا إلى قصر أبالسـعود. قابلت أثناء تجولاتي هذه امرأة طاعنـة في السن تحمل بعض الحطب لتعرضه لـلبيع في السوق في الموفجـة. كانت تشكو من آلام المرارة (تسميـها مر) ورجتني أن أعطـيها رأس الخروف الذي كنا نقوم بطبخه للعشاء كـما لاحظت هي ذلك تدفعها قوة إبصارها

وقوة جوعها. لقد نالت المرأة أكثر من مجرد الرأس حينما حان الوقت فقد تناولت اللحم وهي منعزلة خلف حلقتنا الجذابة، وذلك قبل أن تغادر الموقع ومعها الرأس، والذي، كما أوضحت لي، ستقوم بطحنه إلى مسحوق - أعتقد أنها قصدت اللحم المتعلق به- ثم تقوم بعد ذلك بخلطه مع السمن، يبدو لنا أن هذا هو العلاج الفعال لعلتها. بدأ اثنان من أبي مطرقة عند المغرب يتجاوبان في النهر فوق المضايق، ربما لدعوة غيرهما لتناول أسماك المنوة الصغيرة ثم طارا بعيداً اتجاه أعلى الوادي لتناول المزيد. يتوافر الماء في هذا الوقت في المناطق العليا وليس في المضيق نفسه كما توجد بركة عميقة بعض الشيء أسفل المضيق.

كان اتجاه المضيق العام ومجرى الصرف من ناحية الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وكان طول المضيق الإجمالي حوالي (٢٠٧) أقدام. كان عرض مدخل المضيق حوالي (١١) قدماً، وكان عرض مدخل مجرى الصرف حوالي عشرة أقدام، من ناحية الشمال وحوالي ستة أقدام في المناطق العليا وقد يضيق أحياناً إلى أربعة أقدام ونصف القدم فقط. تكوّن مجرى الصرف هذا عن طريق الحفر في الصخور الجرانيتية لحاجز من البازلت بالكثافة نفسها أربعة أقدم ونصف القدم يجري خلاله من جهة الغرب إلى الشرق. كان الحفر على أية حال جزئياً، فيما يخص العمق، ولعل العمل قد توقف لسبب ما، برغم أن ما قد تم تنظيفه عن طريق الحفر إلى هذا الحد ربما يكون قد أدى المطلوب منه، ذلك لأنه يوجد الآن منفذ للماء الفائض، والذي، كما سيلاحظ من هذه القياسات، يستطيع الانسياب إلى المجرى الشمالي فقط عندما يرتفع إلى علو ستة أقدام أو أكثر في الخزان من خلفه، والذي سأتحدث عنه بعد قليل. يوجد على الجانب الجنوبي للمضيق قناة للمياه يبلغ عرضها قدمين ونصف القدم منحوتة داخل الصخر الجرانيتي وتتبع

منحنيات خطوطه الكفافية مع عمق خفيف وذلك لتحمل المياه للجانب الآخر لاستخدامه داخل الثكنات أو في أية استخدام آخر. كان ارتفاع قناة الجر هذه عند نهايتها الغربية حوالي (١١) قدماً فوق ارتفاع الوادي، وواضح أن الماء لن يصلها إلاَّ إذا كان الخزان من خلفها ممتلئاً. يبعد مدخل قناة الجر هذه عن طرف المضيق بحوالي ثلاثة أقدام فقط وتبدأ على بعد (١٢) قدماً من عند مدخله الغربي، مما يجعلها تستقبل المياه من عند مقدمة انسيابه في المضيق.

أتحدث الآن عن المضيق نفسه. يتباين ارتفاع الجدار الذي يفصل المضيق عن مجرى الصرف، ناحية الشمال، ويتراوح بين (١٢ - ٢٠) قدماً، بينما يرتفع الجسم الرئيس للسلسلة إلى الشمال من مجرى الصرف وإلى جنوب المضيق إلى حدود (٢٠٠) قدم أو (٣٠٠) قدم. يصعب إسقاط الاستنتاج بأن مضيق جلد هذا قد تم قطعه صناعياً أول الأمر لغرض المحافظة على الماء ولأغراض الري وما شابه ذلك، لأن المخرج الطبيعي للوادي يقع على الجانب الشمالي للسلسلة المعارضة. يمكن القول أيضاً بأن المضيق يمثل صدعاً طبيعياً في حاجز الصخور الذي استغله القدماء لبناء نظامهم المائي.

مهما كان الأمر، فإن عرض المضيق من جهة الغرب، كما ذكر آنفاً، كان حوالي (١١) قدماً، وهو يضيق أكثر على بعد (٣٠) قدماً إلى (٣٠) بوصة فقط، ثم يتسع على بعد (٤٠) قدماً إلى أسفل، إلى حدود خمسة أقدام. كان هذا إبرة لينش، لنظام الري ذلك لأن المضيق يتسع الآن إلى عشرة أقدام على بعد (٧٠) قدماً إلى أسفل أكثر، ثم يتسع مرة أخرى إلى (٢٧) قدماً لما تبقى من الـ (٦٨) قدماً للمخرج الشرقي. لا توجد، بالطبع، علامة حقيقية لوجود السد، والذي قد جرفته السيول لقرون متتالية، غير أنه لا يوجد شك في أنه قد كان هنالك سد وأن

موقعه كـان في وسط هذا الجانب الشرقي الأخير، أو حـوالي (٣٤) قدماً من عند المخرج الفـعلي. لقد تم قطع الصخور في الجـانب الشمالي بعناية ولارتفـاع عدة أقدام وذلك لتقوية إحـدى نهايات حواجز السد، بينما تم قـطعه في الجانب الآخر على شكل مائل إلى ارتفـاع ثمانية أقـدام كأنما قد قصـد به الإمساك بنهـاية السد الأخرى. لا بد أن تكون هنالك أبواب في السـد لتصريف الميـاه المتجمعـة حسب الطلب، لأغراض الري أو أي أمر آخر، بينما يفيض ما زاد من سعة السد من فوق جداره، ويقوم المضيق من فوق السد الشديد الضيق بكسر قوة المياه المنسابة.

أدهشني أن هذا السد على الرغم من بساطته فهو عبقري إلى حد بعيد ويمكن بلا شك تكراره لمصلحة السكان الحاليين لنجران. ستجد السيول الكبيرة طريقها بلا شك إلى الخارج عن طريق المجرى الآخر (مضيق) بينما ستكون المنطقة بين الحاجز المتعارض ومخرج الوادي من عند مضيقه الصخري المقابل، كلها مغطاة بالمياه وفي كل الأوقات لتعطي للخزان عمقاً يتسرب خلال السد.

يمكن القول بـصفة عـامة أن ضلع هذا الخزان سـيكون حوالي (٥٠٠) مـتر مربع، على شكل دائـري أكثر أو بيـضاوي. يعطي هذا مسـاحة سطحيـة تقدر بـ (٢٥٠,٠٠٠) متـر مربع وإذا افترضنا عـمقاً يقدر بثـلاثة أقدام للمياه فـإن حجم الخزان سـيكون (٧٥٠,٠٠٠) مـتر مكعب أو (٧٥٠,٠٠٠) طن من الميـاه التي ستحجز لفصل الشتاء ولأغراض الري بدلاً من ضياعها في الوادي، كما هو الحال الآن، لتنتهي آخر الأمر في رمال الصحراء. سيكون من الآثار الغير المباشرة لإعادة هذا السد والخزان هي المحافظة على مسـتوى عال لمياه الآبار تجاه أسفل الوادي في معفجة، ولربما إلى أبعد من ذلك، إلى الخضـراء. يتباين مستوى المياه في الأحوال

الحالية بصورة كبيرة في مواسم السيول وفي مواسم الجفاف. لقد رفعت، بالطبع، كل هذه العمليات الحسابية، إلى الأمير وإلى جابر أبي ساق الذي كان موجوداً حينها، لا يبدو أنه من المحتمل أن شيئاً ما قد تم عمله تجاه هذا الموضوع في الوقت الحاضر، علماً بأن مهندساً مدنياً أمريكياً يعمل في الشركة العربية للتعدين ويدعى السيد ك.س. توتشل قد زار نجران، ممثلاً للحكومة عام ١٩٤٠م. لا علم لي بما فعله هذا المهندس في نجران حتى الآن[١].

أشرت أعلاه إلى قناة جر المياه جنوب المضيق والتي قصد بها نقل المياه إلى الثكنات للقوة العسكرية المتواجدة في هذه المنطقة لحماية السد. ليس هذا إلا مجرد تخمين من جانبي فلربما قصد بها جلب الماء لري الزراعة المحلية إلى ما وراء المضيق على جانب الوادي الأيمن. يتفق أي من التفسيرين مع الحقيقة في أنه في المنطقة الواقعة بين شعيب صفيرة والجانب الأيمن للوادي والوتر الذي تكونه السلسلة التي تصل بين النهاية الشرقية للمضيق والنقطة التي يصل فيها شعيب صفيرة إلى مستوى السهل، توجد أطلال لموقع كان مأهولاً في الماضي قد يكون قرية أو معسكرات كبيرة مع انتشار كبير كقطع من الفخار وقطع من خبث البراكين مما يشير إلى قيام أعمال حديدية. كانت هنالك على الجانب الآخر من شعيب صفيرة أطلال زيته وناحي، وقد سبق ذكرهما، حيث وجدت كميات كبيرة من قطع الفخار.

(١) للمزيد من التفصيلات عن بعض الدراسات التي عملها توتشل عن السعودية، انظر كتابه: **المملكة العربية السعودية**:
K.S. Twitchell. **Saudi Arabia, With an Accaunt of the Development of its Natural Resources** (New Yark, 1969) 3 rd.ed. pp. 51ff.

كنت أراقب الرجال القائمـين على حراسة المحصول طيلة سـاعات اليوم وهم يعتلون منصـات الوتل على جانب حـقول الدخن أو داخلها في الموفـجة ليطردوا طيور العصافير المهاجرة وغيرها من الطيور وذلك بالصراخ المتكرر وطرقات السياط الطويلة التي ينتج عنها صوت شبيـه بصوت الطلقات النارية. كما رأيت في وقت لاحق من اليوم نفسـه الرجال والنساء ومعـهم الحمير والكل عائـد من الموفجة بما أمكنهم شراؤه من سـوق الخميس، الذي لم أحضـره. تسللت عند المساء، وذلك بعد أن أنهـيت عملي، ناحيـة المخرج الشرقي للمـضيق ومنه إلى ناحي بحـثاً عن كسر الفخار.

رأيت ثلاثة من الزنابير عند البركة الضحلة أو عند حـافتها وهي تتشاجر على جثة سمكـة منوة صغيرة. لاحظت كذلك أن هذه الزنابير مـولعة بالدماء واللحم، دعك عن الحديث عن الروث من كل نوع، واكتشـفت أثناء جلوسي على الصخرة في ناحي أراقب طيور الخطاف وهي تحلق باحـثة عن فرائسها، أنني قـد أصبحت قبلة الأنظار لجمهرة كبيـرة من الطيور منطلقة تتكون من طائر صرد رمادي اللون، وطائرين من البلابل، وسـتة طيور من البلاكـستارتس كانت كلـها مختبـئة داخل شجرة طرفاء بالقـرب مني. يبدو لي أنها قد اعجبت بوجـودي هنا، واختفى هذا السحر عندما نهضت من مكاني بعد دقائق للذهاب إلى المعسكر. طارت كل تلك الطيور بعد ذلك دفعة واحدة.

يبدو أنه لا يوجد بعوض في هذا الموسم في الموفجة أما الذباب فقد كان سيئاً بالنهار، ربما لوجـود روث الحميـر والجمال في أرض المعسكر المحـلي التي تفصلنا عن أشجـار النخيل. كان هنالك أيضـاً ضرب من الفئران من ذوات الشـعر البني الأحمر تعـيش في شقوق الصخور الجرانيـتية من خلفنا. كانت أصواتهـا المزعجة

أكثر وضـوحاً بين الصخور التي تشن من عنـدها هجومها المتكرر على أي فـاكهة تكون متوافرة، وبالذات فاكهة الرمـان الضعيف الذي كان متوافراً في هذا الوقت، كما شاهدت أسراباً من طائري وهي تدخل حقول الدخن ثم تطير عائدة إلى تلالها عند إحساسـها بأدنى إنذار بالخطر. مررت في إحدى المناسـبات على سرب مكوَّن من (٢٥) طائراً كانت كلها فيمـا يبدو لي تشرب الماء من عند طرف غدير بالقرب من الصفا. حـدث هذا أثناء العودة إلى قصر أبالسـعود، حيث وصلت في الوقت المناسب لأحظى باغفاءة الظهيرة قبل أن أذهب لمشـاركة الأمير طعام العشاء والذي احتـوى كنوع من التغـييـر على لحم إبل ممتاز مع عـصيـدة البرغل. كان الـقمح المخلوط مع البرغل، فـيما يبدو، قد اسـتورد من خميس مشـيط، ذلك لأن قافلة كبيرة قد وصلت محملة من هناك على حساب الحكومة أثناء غيابي في الموفجة.

شوهد هلال شعبان الجديد ليلة السادس عشر من أكتوبر، وبعد شهر من الآن سنكون صائـمين رمضان. لم أكن في عـجلة من أمري لمغـادرة نجران، ذلك لأن الملك قد أوضح تماماً أنه يريد أن يرى كل الحدود مثـبتة على خريطة، وكان كل ما عليَّ أن أقوم به الآن هو أن أنظم تجولاتي بالأسلوب الذي يسمح لي بإكمال تعليم الحدود مع موعد الحج الذي بقى عليه (٤) أشهر. لقد تفتتت برامجي الأصلية إرباً إرباً ولم تعد مهمة.

وصل إلى نجران في هذه الأثناء بعض يهود صـعدة ، وقد رافق يوسف ثلاثة منهم، وكنت قد قابلتهم في السوق، لزيارتي. يبدو أنهم مجموعة فقيرة وتعيسة، كما يبدو عليهم المرض والـشقاء. يبدو أن مستعمرة اليـهود في صعدة قد تكوَّنت جزئياً من يهـود مهاجرين من نجران ومن يـهود مقيمين من صنعـاء، وقد تركزت قلوبهم، مثلهم مثل قلب يوسف وزمـلائه في نجران، على التطلع إلى الهجرة إلى فلسطين، وفي هذا الأمر لم يكن لي الحق في تشجيعهم عليه. تمكن بعض اليهود

الأثرياء في اليمن من الهجرة إلى هناك، أما الذين لم تكن لديهم الإمكانيات لذلك فقد كانوا يائسين. لقد أخبروني بوجود مستعمرات يهودية في حبان وبيحان وفي مناطق أخرى من اليمن.

ذهبت إلى سوق الخميس للمرة الأخيرة في التاسع والعشرين من أكتوبر، ذلك لأنني لم أتمكن من حضوره الأسبوع الماضي لغيابي في الموفجة. لقد حضرت كل أسواق أيام الاثنين الماضية وكانت دائماً غير مثيرة للاهتمام لي مقارنة بأسواق الخميس في هذه الفترة[(١)]، كان آخر أسواق أيام الاثنين الموافق الثاني من نوفمبر، هو آخر يوم لي قبل أن أترك نجران وجلست مع قاروتي أشرب معه الشاي للمرة الأخيرة وأتحدث معه حول شؤون نجران والعالم. أثار دهشتي صباح ذلك اليوم، وبينما كنت لا أزال على سرير نومي أتناول شاي الصباح أن برز أمامي فجأة رجل برِّي المظهر يعلن من فوق سطح غرفتي حاجته بأن أقدم له نقوداً ليشتري بها كفناً لإحدى قريباته التي كانت قد توفيت هذا الصباح. ولما كنت لا أعرفه من قبل، فقد أمرته بالذهاب دون نقود ولعنت سعداً وغيره لسماحهم بتسلل أمثال هؤلاء الدخلاء إلى غرفتي. قال لي سعد -في خجل، مقترحاً- إنه إذا كنا بالفعل سنغادر في الصباح، فيجدر بي أن أمنحه بعض النقود لتزويد مستودعنا بالقوارير والمقالي وفناجين القهوة وأكواب الشاي والملاعق والسكاكين وغير ذلك.

كان لدينا الكثير من هذه الأشياء خلال رحلتنا إلى حضرموت وبعد عودتنا منها، وكان بالطبع هنالك بعض التلف لها وهذا من طبيعة الأشياء، غير أن هذا الطلب قد ورد إلى سمعي لأول مرة، وبالطبع فقد تم إخفاء الحاجة عني عن

(١) عن الأسواق الأسبوعية في نجران أثناء زيارة فيلبي لها في منتصف القرن الهجري الماضي، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ . (ابن جريس).

قصـد، حتى هذه اللحظة، ذلك لأنهم كانوا أثناء ذلك يـقومون باستـلاف كل ما يحتاجون إليـه من مستودع الأمير عن طريق خدم الأميـر مما ارتقى به إلى مستوى جريمة السرقة مـن مستوى واسع لحق بكل حاجياتـي المنزلية بالفعل. لم يكن لدينا حتى قـرب المياه. كان كل شيء يسرق بلا رحـمة كمتطلب لهـؤلاء الرجال الذين كانوا قد كوفئوا بكرم لما قدموه من خدمات لنا واختفوا بعدها في الصحراء. كان ذلك تحذيراً مفيداً ضد الكـرم الزائد تجاه هؤلاء القوم وكل ما أمكنني عمله هو أن أشتم سعداً باسـتمرار، وأنا أدفع له المبلغ المطلوب لتزويد مستـودعنا بما فقدناه من السوق. ذلك لأننا لا نستطيع مواصلة الرحلة دون هذه الضروريات.

عرض قاروتي عليَّ بعض التبغ اليمني، عبارة عن مادة حقيرة نحيلة تشبه تبغ سـجائر عـدن، بسعـر ريالين مـاريا تريزا ثمناً للأقـة تعادل الأقـة رطلين ونصف الرطل، كمـا رأيت في موقع آخـر من السوق هنداسة -ثـلاث أرباع الياردة- من قماش مصـبوغ بالأزرق وقد عرضت للبيع مقابل ثلاثة أصـوع من التمر المجفف. ولهذا التـمر أجسـام قوية صغيـرة حلوة جداً إذا تم أكلها بعـد تدفئتـها على النار بغرض تليينهـا. كان سعر عنب الفرع الأسـود، الذي يباع في السوق بالقطاعي، مرتفعاً وقد دفعت مبلغ ريال كامل مقابل عدد قليل من الأرطال.

ويباع البن في السـوق ولكن بالسر ذلك لأن الحكومة نقلت مركـز تجارته إلى ظهران وذلك لأجل السيطرة عليه لغرض الضرائب. يعتبر البن الذي يرد إلى نجران مادة مهـربة ولذلك يتعامل معـه التجار بالخفاء لتـحاشي أسئلة محـرجة. قدَّم لي قاروتي أيضاً لفة من قـماش من أكثر الأقمشة شعبـية في المناطق، وهو عبارة عن ملاءة يابانية قد تم صبغها في أسلوب بدائي بواسطة أهل زبيد بالقرب من الساحل اليمني وقـد استخدموا لذلك صـبغة النيلة المحليـة المشهورة. تباع لفـة من عشرة

هنداسـات (٥-٧,٥) ياردات ونصف الياردة- بمبلـغ ريالين فقط، وهو مـبلغ باهظ خارج إمكانيات الجـميلات المحليات ليدفعنـه، على الرغم من أنني شاهدت عدداً منهن وهن يرتدين قمصاناً من المادة نفسها. كانت الصبغة بدائية بالدرجة التي تبدو فيهـا وكأنها ستصـبغ أجسادهن[1]، ولربما حدث ذلك. أما فـيما يخص الموازين والمقاييس، فـإن معيار المقـاييس هو الصاع ويقسم إلى ثلاثة أسداس وسـتة أشطر (جمع شطر) أو (١٢) ربعـية. يكون الصـاعان مداً واحـداً ويكون كل (١٢) مداً فرقاً واحداً. يكون الوزن السائد هو الرطل (تقريباً رطل واحد) ويزن حوالي (٢٠) ريالاً وتكون رطلان ونصف الرطل أقـةً واحـدةً (أكثـر من الكيلو جـرام بقليل). تكون (٢٠) رطلاً فـرسلة واحدة، بينمـا تعتـبر الأوقـية أصـغر وحـدات الوزن، وتعادل ريالاً ونصف الريال، تمثلها قطعـة صغيرة من الحديد مع العلامـة الرسمية لحكومة اليمن. كما توجـد أيضاً وبالفعل ربع أوقية وتستخدم لها حـصاة صغيرة. كما تستخدم بصفة غير رسمية قطعاً صغيرة من الصدف لعمل الأوزان[2].

ذكرت سالفاً أن الفتيات غير المتزوجات كن لا يغطين رؤوسهن غير أنه يوجد موضتان سـائدتان، إذ يطلق بعضهن شعورهن في خـصلات مستقيـمة مع خصلة تُقطع مسـتقيـمة ومربعـة الشكل تكون على الجبهـة. بينما يكون شعـر الأخريات مسـرحاً بتكاسل ومدهناً تمامـاً بما يوحي بالاهتزاز أثناء الحـركة. يستـخدمن غطاء

---

(١) يوجد في منطقـة نجران ومعظم بلاد اليمن وأرض تهـامة والسراة العديد من الأشـجار الصالحة لصـباغة الملابس، مثل: ــ شجرة الإيداع، والورس وغيرهما. وللمزيد حول هذا الجانب، انظر: **كتاب النبات**، للدينوري. (ابن جريس).

(٢) عن المقاييس والأوزان في نجران وغيـرها من البلاد السعودية خلال القرن الهجـري الماضي، انظر: غيثان ابن جريس. **عسيـر ١١٠٠ـ ١٤٠٠هـ**، ص ١٨٧ ــ ١٨٩ ، المعبـدي، المرجع السابق، ص ٩٤ ، ٢٠٤ .

الرأس المصنوع من المسلين الأسود بعد الزواج مع أو بدون إضافة لفة صوف صغيرة حلزونية. وكان النسوة في كل هذه الحالات غير محجبات.

كانت أيام الأسواق عبئاً على الأمير الذي كان عليه الجلوس طيلة فترة الصباح في لقاء جماهيري على رأس مجلس للقضاء الفوري لسماع الشكاوى ولمطالب أي امرئ يهتم بأمر نفسه ويستفيد من مثل هذه الخدمات. كانت كل الدعاوي ذات العلاقة بالشريعة تحال إلى القاضي لإجراءات أكثر رسمية، غير أنه يوجد القليل من مثل هذه الأشياء مما يعرض على الأمير في التو واللحظة. كان صوته الحاد المخترق له تأثير سريع يؤدي إلى السيطرة على الحشود في مثل هذه المناسبات، ومن المرهق جداً السماع له على مدى فترات طويلة، غير أنه صوت لرجل اعتاد على السيطرة وعلى إصدار الأوامر. كان النشمي رجلاً إنسانياً ذا اتجاهات حضارية، غير أنه يلجأ أحياناً إلى مزج هذه الخصائص مع القسوة التي يتطلبها أداؤه لواجبه. كانت نجران مخفراً أماميا للدولة السعودية، وغير أنها من وجهة نظر مصلحة المالية، فقد كانت عبئاً على خزانة الدولة. لقد كانت عوائدها لا تذكر، غير أنني قد دعوت إلى الحاجة إلى إعادة تشغيل السد كخطوة أولى نحو الازدهار. ذهب سالم بن منيف إلى الرياض وكان حمد بن نصيب، الذي كنت قد قابلته في أبها، في الرياض أيضاً لزيارة الملك، الذي أبدى الكثير من الاهتمام الشخصي بشؤون هذا الإقليم النائي داخل مملكته. لقد اهتم الملك أكثر بالنواحي العسكرية، ويدور الحديث عن إنشاء شبكة للتليفونات، ومحطة مركزية مقرها نقطة الشرطة في البديع، وذلك لربط كل المحطات المبعثرة مع مركز القيادة. كان هنالك دائماً حديث يدور حول التطور والتحسين، وبلا شك فقد حدث كل ذلك ولكن في بطء.

كان جابر بن نصيب كثير الظهور، كثير التودد والخنوع كعادته غير أنه لم يقم بزيارتي مؤخراً، أما شقيقه يحيى فإنه في صحبة قبيلته بالقرب من حبونا، وقد أوفد إليَّ ذات يوم رجلاً ومعه رسالة ترحيب عبارة عن لحم المارية المجفف في الشمس وهو الجله الممتع، أفادنا هذا اللحم الإضافي إلى جانب لحم الدجاج من حين لآخر في تنوع غدائنا الذي كاد أن يكون مملاً إذ يتكون دائماً من لحم الضأن والبرغل. زارنا يحيى في أحد الأيام زيارة قصيرة من عند الصحراء كما كان جابر أبو ساق من الزوار المترددين من حين لآخر. لم يخذلني جابر أبداً فهو أينما رآني يدعوني لتحديد موعد أتناول فيه معه الغداء أو العشاء مرة أخرى.

يجلب الخروج إلى حقول الدخن متعة كبيرة لي، أو حتى مجرد الجلوس فقط في ظل النباتات الطويلة في صحبة الأمير وجماعته في برودة الأمسيات. توجهت في أحد الأيام عبر مزارع آل سوار إلى خليج الجلاميد التي تقع خلفها، والتي وجدت عليها، كما على مواقع أخرى مجموعة عادية منوعة المخربشات إلى جانب صور بدائية منحوتة على الصخور تمثل الجمال، والفرسان، إلخ. كانت صخور الجرانيت الداكنة اللون في هذا الموقع معلمة بالعروق العريضة للفلسبار، غير أن أكثر الأشياء جاذبية للانتباه في هذا الموقع كان بيتاً ضخماً للنمل يشبه مستعمرات الأرضة في أفريقيا. وصلت إلى هنا وللأسف لم تكن معي زجاجة الموت أو صناديق العينات، كما لم تكن هنالك فرصة أخرى لي للحضور إلى هذا المكان لجمع عينات هذه القرى والتي بناءً على هذا ستظل مجهولة. كانت هذه هي بالتأكيد المرة الأولى التي أرى فيها بيوت نمل في الجزيرة العربية، كما أنني لم أسمع عن أي ضرر لحق بالمنازل، والأثاث بسبب هذه الكائنات.

حملت بندقيتي وخرجت فاصطدت حدأة غير أن فرج أخبرني أنه ليس من الحكمة قتلها. كان تعليله لذلك، وربما تعليل القحطانيين عموماً، هو أن الحدأة تحتاج عادة إلى (٤٠) يوماً لإكمال عملية التزاوج، وقتل واحدة منها يصيب قاتلها بعجز جنسي[١]! حسب علمي فإن حدأت نجران محترفات للقتل وبشجاعة، ولربما انطبقت الحدأة وبسرعة على مجموعة من الرجال وهم يقومون بتقطيع أوصال ذبيحة ما وتنطلق بما أمسكت به إلى البعيد ويتبعها خلفها شريط طويل للقناة الهضمية المخطوفة. لقد قمت بوضع طيوري المصبرة والتي قد أشبعتها بالصابون الزرنيخي في النافذة المفتوحة في غرفتي لتجف، غير أنني عندما عدت وجدتها كلها وقد مزقت إرباً إرباً وبعضها قد تم نقله إلى البعيد. يمكن فقط للطيور الدخول إلى تلك الغرفة، واتهمت الحدأت بعمل هذه الكارثة. كنت أستيقظ في الصباح وأنا فوق السطح لأجد الحدأة جالسة في حاجز الجدار. وكان عدد أفرادها ذات صباح ثلاثة طيور إلى جانب طائر النهس والعديد من طيور البلاكستارتس وبعض العصافير. لم أستطع أن أتخيل ما الذي تنتظره هذه الطيور، ربما كانت في انتظار انقشاع الضباب، الذي كان كثيفاً هذه الأيام وشديد الانخفاض فوق الوادي خاصة في ساعات الصباح الباكرة، وكان يتشتت في بطء مع ظهور الشمس. لقد كانت أدنى درجة للحرارة قمت برصدها خلال هذه الفترة لإقامتي القصيرة الثانية في نجران حوالي (٤٦) درجة فهرنهايت، وكانت العليا (٨٤) درجة وهو تباين تحت الظروف الجافة الحالية يعني أن الطقس كان ممتازاً.

(١) هذا ضرب من الخرافات والأساطير المنتشرة بين عامة الناس، وليس لها دليل علمي يؤكد صحة ما ذهبوا إليه. (ابن جريس).

وصلت إقامتي المؤقتة في نجران إلى نهايتها. كنت مشغولاً خلال الأيام الأربعة الماضية بأعداد البريد الصادر وترتيب شحن صناديق كبيرة مملوءة بالعينات لإرسالها في سيارة البريد إلى جدة في طريقها إلى انجلترا. ورأيت في صباح اليوم الثالث من نوفمبر، محمد وهو يقود سيارة الفورد المخلصة القديمة إلى خارج ساحة قصر أبالسعود في صحبة سيارة البريد المحملة بما يقارب (١٤) صندوقاً كانت تحتوي على حصيلة عينات تم جمعها خلال العديد من الشهور الماضية مع عدد من الركاب المختلفي العناصر. كنت أتمنى أن لو كنت في صحبتهم، غير أنني صرفت هذه الأفكار عندما تحركت من عند البوابة لألحق بالأمير لنتناول معاً آخر طعام غداء لنا. يصعب عليَّ ويستحيل أن أشكر الأمير بما فيه الكفاية، ذلك لأنه يوجد القليل من الرجال الذين أكن لهم هذا الإعجاب الودود الممزوج بالجميل الصامت لكل ما قدمه لي مما أدى إلى نجاح حملتي. كانت جمالنا كلها جاهزة عند الساعة (٢,٥) ظهراً، وخرجنا عبر البوابة الشرقية في شريط طويل، إلى خارج القصر، ولآخر مرة وانطلقنا عبر حقول الدخن وأشجار النخيل تجاه الفجوة في خليج طعزه.

ترجلت عن مطيتي عندما وصلنا إلى هنا وتسلقت تل كبد النقة، لألقي نظرة عامة أخيرة على وادٍ جميل أصبح مألوفاً جداً لدي. كانت هناك، كل العلامات الأرضية الصديقة لي - منارة، وعان الدريب، ومن خلفهما برك، وأم خرق والأخدود ذات البحيرة الصغيرة ونقطة الشرطة، وأبو همدان وقرن آل الحارث وغيرها.

يمتد أمامنا سهل سعيد حيث سيكون معسكرنا لقضاء ليلتنا الأخيرة في الوادي بالقرب من خيام جابر أبي ساق. تقع مقبرة المخلاف عند أسفل التل على جانب

سهل سعيد، وهي بعيدة تماماً عن أشـجار النخيل، كما هي العادة المحلية. ضربنا عبر غابة طلح كثـيفة اخترقنا فيها مسايل الـسيل لكل من الموفجة وذي حامي التي تنحدر من التلال المحيطة، وتكون ضحلة جداً في السهل، بدلاً من كونها مجاري فعليـة، ذلك لأن خطوط الصرف هذه إلى جـانب شعيب الحج، تـصب كلها في الدلتا التي تكون أحـسن أجزاء سهل سعيـد تشجيراً. وفي هذا المكان قـررنا إقامة مـعسكرنا لهـذه الليلة بين أشـجار الطلح. يمتـد فـوق الأفق الغربي ذلك الضـوء البـروجي، ذو اللون الأزرق، عنـد المسـاء، ويطل علينا من علـى كل من الزهرة والمشتري، وهما يلمعان من فوقنا كلما تقدم المساء إلى الليل. ارتحت بعض الشيء عندما علمت أن أبا سـاق غير موجـود في منزله، إذ اتاح لنا ذلك الانصراف إلى ترتيب معـسكرنا دون انقطاع. خرجنا في الصباح الـباكر من سهل سـعيد ووادي نجران سـالكين الطريق العادي للحجـاج المحليين المتجـهين إلى مكة والذي يضرب عبر التلال أعلى مجرى الأثايبة[١].

كان الأوروبي الوحـيد الذي سبـقني إلى نجران هو الفرنسي اليـهودي يوسف هالفي الذي زار الموقع عـام ١٨٧٠م في برامج رحلات قادتـه إلى كل من الجوف ومأرب. قـام بنشر ذلك للأسف في مقـالات تتناول الأطلال والنقوش أوردها في المجلة الآسـيوية (Journel Asiatique) (١٨٧٢م) وفي نشـرة الجمعـية الجـغرافـية (Bulletin de la Societe Geographique) (١٨٧٣و١٨٧٧م) غيـر أنه لم ينشر أي شيء عن رحلته المدهشة. كانت إشاراته إلى نجران في هذه المـقالات شحيحة جداً وينقصها الكثير من التفصيل الجغرافي لدرجة أن طريقيه اللذين سلكهما من الجوف

(١) وربما يطلق عليها أيضاً اسم (الأثاية)، انظر: البلادي، المرجع السابق، ص ١٩٢ . (ابن جريس).

إلى نجران والعكس لا يمكن وضعهما حتى على خريطة. ويزداد الأسف إذا علمنا أن بعضاً من أجزاء هذه الدروب، خاصة طريق عودته لم يسلكه أي رحالة كفء آخر. لقد ذكرت في ملاحظاتي حول الأخدود ونقوشها الكثير مما يجدر ذكره عن سلفي المميز هالفي.

نشرت مطابع الجامعة العبرية في القدس حديثاً، ١٩٤١م، مجلداً مثيراً للاهتمام بعنوان «رحلات في اليمن» (Travels in Yemen) تأليف السيد س.د. قوتين (S.D. Goitein.) يحتوي المجلد على مقالة عن رحلة هالفي ١٨٧٠م بعربية صنعاء وبحروف عبرية من تأليف رفيق هالفي، أحد يهود صنعاء واسمه حايم حبشوش - بالمناسبة: لقد توفى عام ١٨٩٩م- الذي يزعم أنه لم يقم فقط بمرافقة هالفي بل أدى دوراً أكثر أهمية في الحملة مقارنة بما فعله هالفي، وأنه هو الذي قام فعلياً بنسخ كل النقوش التي أحضرها هالفي إلى أوروبا. يضيف السيد قوتن موجزاً كاملاً باللغة الإنجليزية للمتن مع ثبت للمصطلحات وملاحظات أخرى ذات اهتمام كثير، ويعد الكتاب إضافة مهمة لأدب الرحلات العربية. للأسف، فإن رواية حبشوش كانت غير مقنعة، كما كان زميله هالفي، فيما يخص التفاصيل ويصرح لنا حبشوش بالتحديد أنه لم يقم بتدوين أي ملاحظات عن الرحلة. كما يخبرنا أيضاً أنه وزميله هالفي لم يقوما بجمع أي معلومات عن تاريخ نجران ولم يقتنيا أي كتب. يضاف إلى هذا أن روايته هذه لم تنشر إلا عام ١٨٩٣م أي بعد (٢٣) سنة من انتهاء الرحلة وذلك بعد أن دفعه الرحالة النمساوي المشهور إدوارد جلاسر لكتابتها، ولدينا من الأسباب ما يقودنا إلى التشكك في غياب الذاكرة لديه ويزيدها في ذلك تطبيق الخيال. وهكذا يتبرهن لنا أنه في المواقع التي يتضارب فيها ما سرده هالفي مع ما جاء به حبشوش فإن المرء يندفع لقبول الرواية الأولى التي

ربما كان مصدرها هو المذكرات الفعلية لهالفي. إن أخطر ما يمكن أن يواجه به هالفي هي أنه كان عليه أن يعترف لحبشوش بجهده في الحملة أكثر مما فعل، خاصة في نسخه معظم النقوش ذات الأهمية القصوى.

كانت معظم نقاط الاختلاف بين هالفي وحبشوش ذات أهمية ثانوية لحسن الحظ وكانت تنحصر في أسماء الناس، وفي أصل الخطط، إلخ. وسأتجاهل هذه الأمور وأركز تعليقاتي على مقالة حبشوش المثيرة جداً للاهتمام خاصة خلال فترة إقامتهما المؤقتة في نجران. أخبرنا حبشوش في إحدى فقرات مقالته أن نخيل نجران كان من الكثافة للدرجة التي تحجب الشمس ولعل هذا ضرب من المبالغة التي يمكن لنا أن نغفرها له.

ولكن، كما يمكن لقراء روايتي هذه أن يحكموا بأنفسهم، فإن ذاكرة حبشوش بعد انقضاء (٢٣) سنة من الرحلة لابد وأن تكون قد خذلته في تقديره لأبعاد واحة نجران التي قال عنها: إن طولها يستغرق طيه يومين وأن عرضها يطوى خلال نصف اليوم. ذكر أيضاً أن قبائل يام فقط هي التي يسمح لها بامتلاك الأرض في نجران، ولا يسمح حتى للأشراف بذلك، علماً بأنه قد زار المكان خلال موسم حصاد التمر فقط. يذكر قرائي أنه توجد قرية شريفية من ملاك مزارع النخيل في المخبأة وأن المكارمة يمتلكون العقار في الواحة. كان حبشوش صادقاً حين ذكر أن اليهود لا يدفعون إيجاراً لملاك منازلهم. أخبرنا كذلك أنه وهالفي قد وصلا إلى طرف نجران (ربما آل منجم) بعد ثمانية أيام من مغادرتهما خب، علماً بأن هذا ليس بالأمر الواضح تماماً، وقد كان وصولهما يوم جمعة، وغير أنه لم يخبرنا كم كانت مدة إقامتهما فيها. روى لنا حبشوش عن شهامته حين عرض أن ينقذ بنتاً يهودية من المتاعب وذلك بزواجه منها – وقد كان أقرباؤها المتوقع قدومهم من

صعدة يومياً يخططون للقيام بقتلهـا ذلك لأنها كانت قد اغتصبت - غير أن هالفي اعتـرض على إدخال أمثال هذه الأشـياء التي تضر بعـمله، وعليه لم يتم الزواج، ذلك لأن كلا الرحالين لم يعودا أبداً إلى نجران وأن مـصير البنت المسكينة لم يتأكد مطلقاً.

أخبرنا حبشوش أنه حضر إلى السـوق الموسمية للمزارعين في دحضة، ونحن نعرف أن هذه الأسواق لا تقـام هذه الأيام. كان ذلك بعد بنتكوست (Pentecost) عام ١٨٧٠م، وعليه فيمكن تحديد تأريخـه بدقة، غير أننا لا نزال لا نعرف تاريخ يوم الجمعـة الذي كان وصولهما فـيه إلى آل منجم أو تاريخ مغادرتهمـا لها. لقد تأمنت لهم خدمـات أحد أفراد قـبيلة يام واسمـه حنبوك، يساعـدهما على سلوك الطرق، ولإرشادهما إلى القطف حيث وصلاها بعد عبورهما ممر الحديدة ونزلا في ضيافـة أحد اليهـود. ثم زارا بعد ذلك محتـاوية وهما في طريقهمـا إلى الجوف، ويبدو أنه كـان من الصعب عليهـما زيارة رجوزة ومنطقـة برات (سوق عنان) في مقاطعة بكيل (ذو محمد).

ربما كان ممر الحديدة هـو ممر جلد الآن ولكنه لا يمكن أن يكون باب الحديد، ذلك الممر المشهور الذي يقع بين ظهـران وباقم في الطريق إلى صعدة، وذلك لأن المسافة كبيرة جداً والبلاد التي تفصل بينه وبين نجران بلاد صعبة جداً. إذا كنت قد أصبت في تعريفي للمـمر فلعلهما قد ذهبـا عن طريق وادي مروان الذي قد تكون قرية قطف قائمة عليه في المرتفعات العليا تجاه صعدة. يكون حينئذ من الطبيعي أن نجد اليـهود يعـيشون هناك. وإذا كـان كذلك، فـإن محتـاوية التي تقع بين قطف والجـوف، قد تكون قـائمـة في شعـيب (ضيـدة) أو شـعيب أملح أو حـتى في المرتفعات العليـا لوادي خب. غير أن كل هذا أمر غامض ومـبهم. لقد خطر لي

احتمال أن يكون ممر الحديدة هو عقبة نـهوقة الآن، غير أنه إذا كانا قد ذهبا بذلك الطريق، فإنهما قطعـاً سيجدان النقوش الحميرية علـى قبور ردوم سرو إلاَّ إذا كان ترحالهم قد حدث بالليل. أطلق حبـشوش اسم ضرم (دروم) على هذه الأضرحة وفي رأي السيد قوتين أن «دروم» قد تكون أصح من «دروم». وفي حـقيقة الأمر، فإن العـرب يطلقون عليـها «ردوم»، وتبـادل مواقع الحـروف أمر شائـع جداً في الجزيرة العربية كما في «زواج» و «جواز»[١].

كان حبشـوش مخطئاً تماماً في ربطه بين البنية الطويلة لـلأجسام لأهل نجران مع لقبـهم الوارد في القرآن وهو «أصحاب الأخـدود» والتي تعني «أهل الأخدود» أو «الأخدود»، مكان ذلك العمل الوحشي الذي حدث قبل ظهور الإسلام، حينما قرر تبَّع اليـهودي أو حاكم اليمن آنذاك إدخـال شعبه المسيـحي في نجران إلى دينه اليهودي بالقوة وقد قام بحرق كل عنيد منهم وقد كانوا بالمئات – في خنادق كانت معدة بـالحطب لإشعال النار. تسمى أمـثال هذه الخنادق «خدود» (مفـرد خد) ولما كان حبشوش ملماً باللغة العربية فقد كان يتوقع منه الأحسن. تحدث حبشوش عن برد بأنها مركز الرئاسة للمكارمة[٢]، ويستنتج السيد قوتين في استعجال أن «بَدْر» التي أوردها هالفي لا بد أن تكون خطأً في الطباعـة. كما أخبرنا حبـشوش كذلك أنه في الوقت الذي تمت فـيه زيارتهمـا كانت عقـيدة الإسماعـيليين –السليمـانية ومركزهم في اليمن والداودية ومركزهم في الهند– هي السائدة والمتبعة في نجران، ولعل هذا صحيح إلى حد مـا بطريقة غامضة، . لم يفكر حبـشوش، في الختام،

---

(١) كما ذكرنا سابقاً عن اللهجات المحلية في جنوبي البلاد السعودية وأشرنا إلى أنها جديرة بالدراسة حبذا لو تصدى لها بعض الباحثين فيخرجوا لنا دراسة علمية أكاديمية في هذا الفرع من المعرفة. (ابن جريس).

(٢) بدر:ــ إحدى المـواطن الرئيسة للـمكارمة في نجران. وللـمزيد من التوضـيحـات، انظر: عبـدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، ص ٤٠٩ ، البلادي، المرجع السابق، ص٢٠١ .

كثيراً حـول «المناخ غير الصحي» لنجران أو في عصـورها القديمة، علماً بأنه لا بد وأن يكون قـد قام بزيارة الأخـدود بصحـبة هالفي. لا يبـدو كذلك، أنه شـاهد المستودع الثـري للنقوش على الصخور الـرملية في الجلاميد العلـيا. لا يبدو لي، على أي حال، أن مقالة حبـشوش هذه ذات أهمية كبيرة أو أنها تسـتحق أن يعتمد عليها. ويهمني هنا فقط ذلك الجزء منها الذي يتعلق بنجران، غير أنني لا أستطيع مقاومة الإغراء إلى عمق أكثر لأتحدّى مصداقية قوله بأنه، في سرواح التي تقع في أعلى مأرب، فـإن خبز المـسافرين ليـوم السبت وهو يوم راحـة اليهود كـان يقوم بإعداده نسوة عربيات صغار السن يرتدين حزاماً حول وسطهن فقط!

أقدم في خـتام هذا الفـصل الخاص بنجران قـائمة مصنفـة، بعيـدة تماماً عن الكمـال، لكل المزارع والآبار والوحـدات ذات الأسمـاء التي تكون واحة نجـران. وتشيـر الحروف (هـ) و (ف) و (م) إلى ملكيتهـا إن كانت تابعة لقـبيلة آل الهندي (هـ)، أو آل فاطمة (ف)، أو لمواجـد (م). سيتضح من القائمـة أن ما يبلغ عدده (١٩١) وحدة منفصلة كانت ذات أحجام متفاوته وقد ذكرتها بأسمائها في القائمة، وبلا شك هنالك الكثير مما لم يذكر لنقل (٢٥٠). وإذا اعتـبرنا وجود ثلاثة قصور في المتوسط لكل وحدة، وثمانية أشخاص في كل قصر، فسنصل إلى عدد تقديري للسكان يعادل (٦٠٠٠) نسمة، وهذا عدد مقبول.

قرى نجران:

١- المخلاف (أو نجران السفلى) (جانب الوادي الأيسر):

أ- المذنب: (ف) (١) آل منجم.

(هـ) ١- آل بوزبدة[١] ٢- زُبيد، (٣) سعيدة (آل مرزوق)، (٤) قصر على

ب- بني قدامة: (ف) ١- آل مسعد (آل ظفيرة) (٢) عصام، (٣) أبو فاضل (٤)أم الناس (٥) بير قعير، (٦) أم خزام

(هـ) ١- آل حرث، ٢- كفيتة، ٣- بئر الفضل ٤- حزازن

جـ- صاغر: (هـ) ١- آل مقاتل ٢- بئر أثيلة ٣- واسط، ٤- آل مشرف، ٥- رغوة.

٦- بتوعة، ٧- بئر حسين، ٨- الرون ٩- بئر زاعب، ١٠- بئر ابا النعام، ١١- الحمية (آل ربعة).

(ف) ١- معدية (آل شرية)، ٢- ميدان ٣- بئر على، ٤- سمهر ٥- آل قوير[٢] ٦- البالوعة، ٧- الغويميضة ٨- الصفراء، ٩- بئر قذّام، ١٠- حبوشة ١١- كحيلة، ١٢- بلوعات العاتح، ١٣- صميدة ١٤- بئر العمار، ١٥- ضيلة،(زيلع؟) ١٦- عقلة (آل جعفر) ١٧- أم عقربان (آل مرزوق) ١٨- وسيعان (آل شرية)، ١٩- فرحة (آل فرج)، ٢٠ منيفس (آل مسعد)، ٢١- بئر قحطان (ابن ريحان من آل مسعد)، ٢٢- الخوار (الليبان).

---

(١) آل بوزبدة كما ذكرها فيلبي في حين أن فؤاد حمزة ذكرها آل أبو زيده، وأعتقد أن فؤاد حمزه هو الأصح، انظر: كتابه: **في بلاد عسير**، ص ١٧٨ (ابن جريس).

(٢) آل قوير ربما أطلق عليهم أيضاً القوّر (ابن جريس).

(هـ) و (ف) [تملك مشترك]: ١- آل شرمة ٢- آل عيدان، ٣- جداوة.

غير مؤكد: ١- آل خريم، ٢- الغين ٣- عكام ٤- آل بوغبار ٥- آل مطير، ٦- بئر الجبل، ٧- طعزة، ٨- عين موسى.

٢- رجلا أو نجران السفلى (جانب الوادي الأيمن).

(هـ): ١- رجلا، ٢- آل حرث، ٣- الحريزي (قصر سلطان)، ٤- قصر بن غرابان، ٥- قصر بن منيف، ٦- عمير (ابن مرضى)، ٧- ابن عزوه، ٨- هفوف، ٩- كويخ، ١٠- عفية، ١١- دخش بن صقر.

٣- نجران الوسطى (جانب الوادي الأيسر):

أ- الصقور: (هـ) ١- ابن زبعان، ٢- دحضة، ٣- بير آل مطر، ٤- الحزيمية، ٥- آل منصور، ٦- آل شافي، ٧- العتران، ٨- ابو وفقة، ٩- بئر على، ١٠- بئر جهلان، ١١- بئر زيته.

ب- بني سلمان: (هـ) ١- سعيدة (قريتان صغيرتان)، ٢- ساحة (آل مستنير)، ٣- بئر ربيع، ٤- بئر سالم، ٥- الحاضنه، ٦- بلاد بني علي، ٧- زور آل سوار، ٨- آل حابث[١]، ٩- النعمة (آل ريجه)، ١٠- بئر مبارك، ١١- وقواق، ١٢- بئر جهران، ١٣- بئر آل حسين، ١٤- الدحامس، ١٥- بئر ابن قدري.

(ف) ١- درب البثه (آل محيمد)

(جـ) مخابي (تنتمي كلها للأشراف) ١- المخبأه، ٢- خبية، ٣- صعدة، ٤- بئر مرشد، ٥- عذبة، ٦- قليلا، ٧- عويرة[٢]، ٨- صنعاء[٣].

---

(١) آل حابث يذكرهم فيلبي بهذا الاسم، مع أن فؤاد حمزه ذكرهم باسم (آل حابس)، وأعتقد أن الراي الأخير هو الصحيح. انظر: فؤاد حمزة، المرجع السابق، ص ١٧٨ (ابن جريس).

(٢، ٣) عويرة، وصنعاء يطلق عليها أشراف عويره وأشراف صنعاء. (ابن جريس).

(د) محـايدة (حكومـية)[1]: ١- قصـر أبالسعـود، ٢- السوق[2]، ٣- قلعة رعوم، ٤- أخدود (قبيبات ابن ثامر).

(هـ) المكارمة: ١- خشيوة، ٢- علو المخـلاف، ٣- عان المكارمة، ٤- قصور شعيب بران.

(و) لمواجـد: ١- قنـث، ٢- خرابة خـزام، ٣- المراطة، ٤- آل حامـد، ٥- خرابة عمر، ٦- الـشبهان، ٧- مرقة، ٨- الضيـفان، ٩- شعب آل برن، ١٠- الجبـجبة، ١١- الخـضيراء، ١٢- غـيلة، ١٣- قرضه، ١٤- قـصر خربة، ١٥- قصور ابن نصيب

٤- وسط نجران (جانب الوادي الأيمن).

(أ) القابـل: (هـ) ١- القابل، ٢- الجـربة، ٣- آل قريشة، ٤- الـلجام، ٥- سلوى، ٦- مـقشـبة، ٧- جديدات الـشيبـان، ٨- جديدات الـقرد، ٩- سلف، ١٠- بئر زبيد، ١١- اصـلب، ١٢- بئر كعب، ١٣- العصيـمية، ١٤- بئر سلطانة، ١٥- بئر المنـهل، ١٦- مكرمانة، ١٧- بئر دولة، ١٨- محذة، ١٩- مـدوَّرة، ٢٠- بيحان، ٢١- يتيمـة، ٢٢- ارفجة، ٢٣- ابن رخيـم، ٢٤- الغريري، ٢٥- بئـر عتيـق، ٢٦- مريسة، ٢٧- جـديدات جريب، ٢٨- نعمان، ٢٩- جديدات ابن حـمران، ٣٠- بئر مجيد، ٣١- بئر غريش، ٣٢- أم الغبة.

(ب) الحضن: (م) ١- الحضن، ٢- الـبديع، ٣- بولة، ٤- بئر سرى، ٥- بئـر فريحة، ٦- زور منظور، ٧- بئر المدينة، ٨- الشقوق، ٩- سلوى، ١٠- الصفا.

---

(١) منطقة محايدة، يطلق عليها اليوم (البلد). (ابن جريس).

(٢) السوق، يطلق عليه اليوم سوق البلد، أو السوق العليا. (ابن جريس).

٥- نجران العليا (جانبا الوادي) تتبع كلها للمواجد.

١- زور آل لحارث، ٢- زور وادعة، ٣- بئر بوبان، ٤- بئـر عياض، ٥- بئر يحيى، ٦- بئـر سليمه، ٧- بئـر مثلع، ٨- نحي[1]، ٩- بئر زيته، ١٠- خـيـبـر، ١١- زور العـمـارى، ١٢- الكف، ١٣- آل مملح، ١٤- درب الجبل، ١٥- وشـه، ١٦- بئر الشيع، ١٧- الحصن، ١٨- قـصر سلوى، ١٩- خضام، ٢٠- الموفجة (ابن الحزوبر).



(١) نحي: يطلق عليه أيضاً اسم (ناحي). (ابن جريس).

محتويات الجزء الأول

*** ملحوظة: كشاف وفهارس الكتاب كاملة في نهاية الجزء الثاني**